



ستيفن راتسيمان

## تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجى

١١٠٠ - ١١٨٧ م

ترجمة

نور الدين خليل



## تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجي

١١٠٠ - ١١٨٧ م





## المحتويات

١١	مقدمة
٢٣	مقدمة المؤلف
	<b>الباب الأول: إنشاء المملكة</b>
٢٩	الفصل الأول: مملكة ما وراء البحار (أوترميجه) وجيرانها أرض فلسطين - الاحتياج إلى ميناء بحري - إمارة أنطاكية - إمارة الرها - المدن الإسلامية الساحلية - الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية - بيزنطة - مشاكل البلدين
٤٧	الفصل الثاني: الحملات الصليبية سنة ١١٠١ م ١١٠٠ م اللومبارديون يجتمعون - ١١٠١ م اللومبارديون والفرنسيون قسى القسطنطينية - ١١٠١ م معركة مرسيفان - ١١٠١ م تسليح معركة مرسيفان - ١١٠١ م الحملة الصليبية الفرنسية - ١١٠١ م الحملة الصليبية الأكتانية - ١١٠١ م معركة هرقل - ١١٠٢ م اعتقال الكونت ريموند
٦٣	الفصل الثالث: أمراء أنطاكية النورمانديون ١١٠١ م تنكريد وبيزنطة - ١١٠٢ م ضغينة الأسقف منس - ١١٠٢ م بلدين الثاني برهن لحينه - ١١٠٣ م إطلاق سراح يوهيموند - ١١٠٤ م أهمية حيران - ١١٠٤ م كارتة حيران - ١١٠٤ م يوهيموند وتنكريد يتركسان بلدين أسيرا - ١١٠٤ م يوهيموند يرحل إلى الغرب - ١١٠٧ م يوهيموند يفسزو الإمبراطورية - ١١٠٨ م معاهدة ديفول - ١١٠٦ م الاستيلاء على أفاميا - ١١٠٩ م تنكريد في ذروة قوته
٨٧	الفصل الرابع: تولوز وطرابلس بنو عمار أصحاب طرابلس - ١١٠٢ م انتصار ريموند أمام طرابلس - ١١٠٥ م موت ريموند - ١١٠٨ م قهر الملك يزور الخليفة - ١١٠٨ م برتراند التولوزي يرحل إلى الشرق - ١١٠٩ م برتراند ووليم جوردون - ١١٠٩ م استسلام طرابلس
١٠٣	الفصل الخامس: الملك بالدين الأول ١١٠١ م الاستيلاء على أرسوف وقيسارية - ١١٠١ م معركة الرملة الأولى - ١١٠٢ م معركة الرملة الثانية - ١١٠٢ م الملك بالدين قسى ياقا - ١١٠١ م بلدين

وديامبرت - ١١٠٢م غلب ديامبرت - ١١٠٢م انتحاب أرنولف بطريقا - ١١٠٣م  
حصار عكا - ١١٠٥م معركة الرملة الثالثة - ١١٠٦-١١٠٨م هجمات على المدن  
الإسلامية الساحلية - ١١٠١م الاستيلاء على صيدا - ١١٠٥م تشييد الحصون في  
الجليل - ١١٠٨م هدنة مع دمشق - ١١١٨م بلدوين يغزو مصر - ١١١٣م زواج  
بلدوين من أدبلا - ١١١٨م موت أمراء

#### ١٣٩ ..... الفصل السادس: توازن في الشمال

١١٠٧م إطلاق سراح حوسلين - ١١٠٨م مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين  
ومسلمين - ١١٠٩م المصالحة بين أمراء الفرنج - ١١١٠م إخلاء طريف لفرهاوي -  
انتشار الحشاشين - ١١١١م ائتلاف إسلامي جديد - ١١١١م فشل مودود -  
١١١٢م موت تنكريد - ١١١٣م موت مودود ورضوان - ١١١٦م سقوط واسيل  
دغا - ١١١٥م حملة برسق بن برسق - ١١١٥م انتصار الفرنج في تل دانيت -  
١١١٨م صدع في الكنيسة اليعقوبية - ١١١١-١١١٣م مقاضات بيزنطة مع  
الغرب - ١١١٢-١١١٥م حروب ملحوقية ضد بيزنطة

#### الباب الثاني: الذروة

#### ١٧٥ ..... الفصل الأول: الملك بالدوين الثاني

١١١٩م غارات في شرق الأردن - ١١١٩م معركة بحس الدم - ١١١٩م ايلغازي  
ضيق انتصاره - ١١١٩م معركة محكمة في هاب - ١١١٩م فشل حملة الأراقة -  
١١١٨-١١٢٠م بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان القرويان - ١١٢١م  
الحملة الصليبية المجرية - ١١٢٢م الكونت حوسلين يقع أسيرا - ١١٢٣م بلدوين  
وحوسلين يحاولان الغرب من الأسر - ١١٢٤م موت بلك - ١١٢٣م وصول  
أسطول بندقي إلى عكا - ١١٢٤م حصار صور - ١١٢٤م قديس الملك بلدوين -  
١١٢٥م معركة عزلر - ١١٢٦م وصول يوهنند الثاني - ١١٢٨م الاستخلاص  
على العرض - ١١٢٦م الحشاشون في باتياس - ١١٢٧م نزاع بين يوهنند الثاني  
وحوسلين - ١١٣٠م مصرع يوهنند الثاني - ١١٣١م موت بلدوين الثاني  
وحوسلين الأول

#### ٢١٩ ..... الفصل الثاني: الجيل الثاني

١١٣٢م هيو (ألف لوبواسيه) والملكة مليسند - ١١٣٢م محاولة قتل هيو -  
١١٣٣م فولك يتخذ بونز أسير طرابلس - ١١٣٥م زنكي أمام دمشق - ١١٣٦م

- استدعاء ريموند (أوف بواتيه) إلى أنطاكية - ١١٣٦م الحرب مع الأرمين - ١١٣٧م  
استخلاص ريموند الثاني في طرابلس - ١١٣٧م استسلام قلعة بمرين
- الفصل الثالث: مطالب الإمبراطور** ..... ٢٤١
- الأيام الأخيرة من حكم الكسيوس الأول - ١١١٨م ولاية عهد جون كومنينوس -  
١١٣٧م جون بعد العودة لفنزو سوريا - ١١٣٧م ريموند يقدم فروض السواء  
للإمبراطور - ١١٣٨م المسيحيون يهاضون شيزر - ١١٣٨م دخول جون أنطاكية  
- ١١٣٩م جون في الأناضول - ١١٣٩م خلع البطريق رادولف - ١١٤٢م جون  
يعود إلى كيليكيا
- الفصل الرابع: سقوط الرها** ..... ٢٦٣
- ١١٣٩م التحالف الفرنجي مع دمشق - ١١٤٠م بناء القلاع على الحدود الجنوبية -  
١١٤٣م مؤسسات الملكة ملبسند - ١١٤٣م موت الملك فولك - ١١٤٤م حصار  
الرها - ١١٤٥م سياسة زنكي في الرها - ١١٤٦م مصرع زنكي - ١١٤٧م  
الفرنج يتخاصمون مع أنر - ١١٤٧م ارتفاع نجم نور الدين
- الباب الثالث: الحملة الصليبية الثانية**
- الفصل الأول: اجتماع الملوك** ..... ٢٨٧
- حملات صليبية متفرقة - الملك روجر الثاني المقلد - ١١٤٦م التجمع في فيزيلاي  
- ١١٤٦م القديس برنار في ألمانيا - ١١٤٧م البابا إيوجينوس في فرنسا -  
١١٤٧م الملك كونراد يغادر ألمانيا - ١١٤٧م الألمان في البلقان - ١١٤٧م وصول  
الفرنسيين إلى القسطنطينية
- الفصل الثاني: الشقاق المسيحي** ..... ٣٠٧
- ١١٤٦م حملة مانتويل ضد قونية - ١١٤٧م الألمان يعبرون إلى آسيا - ١١٤٧م  
الفرنسيون يعبرون إلى آسيا - ١١٤٧-١١٤٨م الفرنسيون في آسيا الصغرى -  
١١٤٨م الفرنسيون في أضايا - ١١٤٧-١١٤٨م السياسة البيزنطية أثناء الحملة  
الصليبية - ١١٤٧-١١٤٨م دور الإمبراطور
- الفصل الثالث: الإخفاق التام** ..... ٣٢٣
- ١١٤٨م لويس ولبنور في أنطاكية - ١١٤٨م قرار الهجوم على دمشق - ١١٤٨م  
مشاحرات في المعسكر المسيحي - ١١٤٨م الملك كونراد يغادر فلسطين - ١١٤٩م  
برتراند غتولوزي

### الباب الرابع: تحول العد

#### ٣٣٩ - الفصل الأول: الحياة في الشرق الفرنجي (أوترمييه)

المسيحيون الأرمن واليهود - إقطاعيات المملكة - الدستور - المحكمة العليا - الإدارة - الدويلات التابعة - إمارة أنطاكية - السيادة الإمبراطورية - التنظيم الكنسي - النظامان العسكريان - الملابس - الصداقة مع المسلمين - الكنيسة الأرثوذكسية - دفاعية الشرق الفرنجي

#### ٣٧٧ - الفصل الثاني: ارتفاع نجم نور الدين

١١٥٠م اغتيال الكونت حوسلين - ١١٥٠م استسلام تل بشير لبيزنطة - ١١٥٠م خطاب الأميرة كونستانس - ١١٥٢م اغتيال ريموند الثاني - ١١٥٢م الملكة مليسند ترضع لابنها - ١١٥٠م مكائد في مصر - ١١٥٣م الاستيلاء على عسقلان - ١١٥٤م نور الدين يأخذ دمشق - ١١٥٦م زلازل في سوريا

#### ٣٩٩ - الفصل الثالث: عودة الإمبراطور

١١٥٦م رينالد يغيب على قبرص - ١١٥٧م الفرنج يهاجمون شيزر - ١١٥٨م الإمبراطور مانويل يدخل كيليكية - ١١٥٩م الإمبراطور في أنطاكية - ١١٥٩م الهدنة بين مانويل ونور الدين - ١١٦٠م رينالد يقع في الأسر - ١١٦١م مليسند الطرابلسية - ١١٦٢م موت بلدوين الثالث

#### ٤١٩ - الفصل الرابع: تريض مصر

١١٦٢م الملك أمالريك - ١١٥٤م مكائد في القاهرة - ١١٦٣م هزيمة نور الدين في الكرك - ١١٦٤م كارثة في أرتاح - ١١٦٥م بطريق يوناني في أنطاكية - ١١٦٧م السفراء الفرنج في القاهرة - ١١٦٧م صلاح الدين محاصر في الإسكندرية - ١١٦٦-١١٦٧م مغامرات أندرونيكوس كومنينوس - ١١٦٨م التحالف مع بيزنطة - ١١٦٨م أمالريك يتقدم نحو القاهرة - ١١٦٩م شركوه يفتوز بمصر لنور الدين - ١١٦٩م حملة تحالف ضد مصر - ١١٦٩م حصار دمياط - ١١٧٠م زلزال يضرب أنطاكية - ١١٧١م أمالريك في التسعة طينية - ١١٧١م انتهاء الخلافة الفاطمية - ١١٧٢م إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس - ١١٧٣م اغتيال سفراء الحشاشين - ١١٧٤م موت الملك أمالريك

## الباب الخامس : انتصار الإسلام

## الفصل الأول : الوحدة الإسلامية ..... ٤٦١

١١٧٤م ريموند كونت طرابلس وصيًا - ١١٧٤م صلاح الدين يهاجم حلب -  
 ١١٧٦م صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل - ١١٧٦م زواج سيبيلا  
 الأول - ١١٧٦م معركة مريوسيفالوم - ١١٧٧م فيليب كونت فلاندرز في  
 فلسطين - ١١٧٧م هزيمة صلاح الدين في تل الجزر - ١١٧٩م موت همفري أمير  
 تينين - ١١٨٠م هدنة عامين - ١١٨٠م سيلا وبلدوين أمير انجليين - ١١٨٠م  
 البطريق هيراكليوس - ١١٨٠-١١٨٢م عهد ألكسيوس الثاني - ١١٨٥م سقوط  
 اندرونيكوس كومنينوس - ١١٨١م رينالد (أوف شاتيلون) يتخض للمساعدة -  
 ١١٨١م وفاة الصالح إسماعيل - ١١٨٣م صلاح الدين يمتلك حلب

## الفصل الثاني : قرنا حطين ..... ٤٩٥

١١٨٢م حملة رينالد في البحر الأحمر - ١١٨٣م حوى يتشاجر مع الملك -  
 ١١٨٣م للزواج في قلعة الكرك - ١١٨٥م وصية الملك بلدوين الرابع - ١١٨٥م  
 مرض صلاح الدين - ١١٨٦م الإعلان عن سيلا ملكة - ١١٨٦م أول مجلس  
 للملك حوى - ١١٨٧م عيانة وريموند - ١١٨٧م عيسون كريسون - ١١٨٧م  
 صلاح الدين يحرر الأردن - ١١٨٧م الفرنج يعسكرون في لوتيا - ١١٨٧م معركة  
 حطين - ١١٨٧م في خيمة صلاح الدين - ١١٨٧م فلسطين تستسلم لصلاح  
 الدين - ١١٨٧م الدفاع عن القدس - ١١٨٧م استسلام القدس - ١١٨٧م  
 اللاحتون - ١١٨٧م دبلوماسية رينالد أمير صيدا - ١١٨٧م الدفاع عن صور -  
 ١١٨٧م تشريف صلاح الدين

## المرفقات:

- المرفق الأول : المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني ..... ٥٣٣  
 المرفق الثاني : معركة حطين ..... ٥٤٦  
 المرفق الثالث : شجرات الأنساب ..... ٥٥٢

## الخرائط:

- خريطة رقم (١) : شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي ..... ١٤١  
 خريطة رقم (٢) : جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي ..... ١٧٧  
 خريطة رقم (٣) : مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر ..... ٢٢١  
 خريطة رقم (٤) : بيت المقدس زمن ملوك اللاتين ..... ٣٤١  
 خريطة رقم (٥) : مصر في القرن الثاني عشر ..... ٤٢١  
 خريطة رقم (٦) : الجليل ..... ٤٩٧

## مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من "تاريخ الحملات الصليبية"، للمؤرخ ستيفن رانسيمان الذي نقلنا إلى العربية من قبل جزءه الأول وقدمنا له. ولا بد لنا من أن نستهل هذه المقدمة بفقرة من مقدمة الجزء الأول: "إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية في تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه في سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن "يؤرخوا لأنفسهم"، وألا يتكوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم المصوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية في قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً ينجح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وآذنت بانقضائه فيما مضى، وتزدن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغي أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفي كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع الأيام عن الجادة التي أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، قال



أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أدايتهم وضائق آفائهم فأصبحوا يعولون على من لا يبلغون إلا مضرتهم وإذلالهم" وإنما نعيد ذكر هذه الفقرة ونحن نتوسع ، بعض الشيء ، في بيان مدى حاجتنا إلى مدرسة تأريخ عربية قادرة على أن تعين المسلمين على أن يصححوا صور الإسلام التي تبدو مشوهة في مرآة الغرب، والتي حاوِزت - في زمن المحيطة - نطاق حدود الغرب الفكرية إلى غير نطاق كان ينبغي أن تأتلق فيه قدرة العرب والمسلمين على أن يعتوا هم أنفسهم بتقديم حضارتهم وراثتها.

### تاريخ وتواريخ

ولمة فاروق هام بين تاريخ الإسلام والتاريخ له وغيره من تواريخ الأديان الأخرى والتاريخ لها . ذلك أن حضارة الإسلام جاءت إلى الوجود بعد أن واثت الإنسان - ونعني به الإنسان المسلم - القدرة على تسجيل تاريخه؛ ففى حين أن المسيحية - التي ترجع بداياتها إلى القرن الأول الميلادى - لم يتح أن تتخذ لها مكانا فى العالم إلا فى القرن الرابع، فأثت بنمط من التاريخ يفاير ، من حيث الواقع والمنهج ، أنماط التاريخ عند الإغريق والرومان. ذلك أنه كان لابد للمسيحية من أن تجد لنفسها أصولا فى اليهودية.

واليهود هم أول شعب فى العالم القديم فرضت عليه عقيدته واجبا دينيا يقضى بأن يتذكر أبناؤه ماضيهم ، لأن العبرة فيما توارثوه من تواريخ تتمثل فى ذكر ما فعله الرب لشعبه المختار. وذلك على نقيض الحال عند الإغريق الذين لم تأمرهم أختهم بأن يتذكروا شيئا من هذا القبيل . فكان يتعين على كل يهودى أن يكون على دراية بالكتابات اليهودية المقدسة ، التي جُمع من بينها فى نهاية المطاف ما أصبح يعرف فيما بعد بـ"العهد القديم". فكتاب أسفار العهد القديم انتقوا من بين تلك الكتابات ، التي يُفترض أن كل يهودى يعرفها ، ما رأوا أنه يفسر "قصد الرب". زد على ذلك أن لليهود تراثا غير مكتوب ، يقول عنه يوسفوس Josephus ، المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : "إن ما لم يدون منه بقى فى الذاكرة الجمعية لشعب إسرائيل وكهاته خاصة".

ثم جاء المسيحيون فأخذوا بالعهد القديم وأضافوا إليه كماً جديداً من "التاريخ المقدس". فكتاب الأناجيل الأربعة ، التي يضمها العهد الجديد ، جاءوا بذكر ما رأوا أنه حقائق ينبغي على المؤمنين أن يعرفوها ؛ غير أن المؤرخين يرون أنه ليس ثمة سبيل مقنع

يعين على الوصول إلى حقائق تاريخية مما جاء به العهد الجديد ، باستثناء ما يُروى بسفر "أعمال الرسل". فالعهد الجديد على إجماله لا يمثل سوى مختارات من الكتابات المسيحية الأولى ، ولا يتضمن إلا ما اتفق مع عقيدة الكنيسة ، عندما أتيح لتلك العقيدة بأخرة أن تتخذ شكلا واحداً . ولغة فراغ تام بين سفر "أعمال الرسل" ، الذي يرجع فيما يمتثل إلى أواخر القرن الأول الميلادي ، وبين كتاب "التاريخ الكنسي" Eusebius Pamphili of Caesarea (الذي توفي حوالي سنة ٣٤٠ ميلادية) وكتابات معاصريه في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي.

ووجد الكتاب المسيحيون أن قصة السيد المسيح ، كما ترويهما الأنجيل ، يمتثل فيها تحقيق النبوات التي ذكرت في غير مكان من العهد القديم ، وبذلك أضاف الجزء اليهودي من الكتاب المقدس إلى المسيحية بعدد قديما . وتحول التاريخ الذي ورد في عهدي الكتاب المقدس ، اللذين أمسيا وثيقى الارتباط ، إلى ثبت وحيد يمتثل فيه وحى الرب ويتضاءل بجانبه غيره مما كتبه الناس والجماعات الدينية على اختلافها.

### تاريخ عام

لم يكن مفهوم "التاريخ العام" مجهولا عند الوثنيين؛ ثم جاء المسيحيون وحاولوا أن يستفيدوا منه . ذلك أنه كان عليهم أن يحيلوا "التاريخ المسيحي المقدس" إلى "تاريخ عام" يصطبغ بالعراقة . ويرى الدارسون أن ما توخاه المسيحيون في ذلك يتصف بمغالاة تفوق تلك التي يتصف بها ما جاء به اليهود .

وأضطر المسيحيون الأولون ، في دفاعهم عن دينهم ، إلى أن يوفقوا بين بعض ما جاء في التاريخ الوثني وما جاء في "تاريخهم العام". فكان المؤرخ المسيحي يحاول بلوغ ذلك بالتوفيق بين التاريخ المقدس والترتيب الزمني العام منذ بدء الخليقة وحتى الزمن الذي كان يعيش فيه ، فجاءت أحداث التاريخ المسيحي اليهودي متزامنة مع الأحداث البارزة في التاريخ الوثني بما فيه من أساطير وخرافات . وكان سيكستوس بوليوس الإفريقي Sextus Julius Africanus أول كاتب مسيحي حاول ذلك التوفيق في القرن الثالث ، فقال - فيما قال - إن وجود البشرية بدأ منذ ستة آلاف عام وأن السيد المسيح ولد بعد مضي خمسة آلاف وخمسمائة عام على خلق العالم. وتمثل فيما كتبه سيكستوس نموذج تأثره بوسيبيوس Eusebius في مدونته التاريخية "التاريخ الكنسي"

التي غدت أساسا توالى بعده تواريخ ألفها الكتاب البيزنطيون في لغتهم اليونانية. وقد نقل القديس جيروم St. Jerome (الذي توفي سنة ٤١٩ أو ٤٢٠) هذا العمل إلى اللغة اللاتينية وظل تأثيره بالغا، في غرب أوروبا، لما يجاوز ألف عام. ويقول إدموند فرايد Edmund B. Fryde في تناوله لهذا الموضوع: "إن الدارس المحدث يعجب براعة يوسيبوس، ومن أتوا بعده، ويملكه اليأس من سحق الكثير مما انتهوا إليه". ولنا أن نلاحظ أن الأخذ بمولد السيد المسيح على أنه بداية التقويم الميلادي استحدثه ديونيسيوس إكسيغيوس Dionysius Exiguus في روما في أوائل القرن السادس، ولكن هذا التقويم لم يجر إلا عندما استخدمه اللاهوتي والمؤرخ الإنجليزي بيد Bede في القرن الثامن.

ولم يُمن مسيحيو القرنين الرابع والخامس بكتابة تاريخ عصرهم، وإن عن لهم أحيانا أن يفعلوا ذلك، فلم يكن هذا إلا من قبيل الدفاع عن دينهم في مواجهة العالم الوثني أو الجماعات الدينية المسيحية المعارضة التي كانت توصم بالمهرطقة. وكل هذه التواريخ التي كتبها "الدافعون عن الدين" يعتمدها بالضرورة قدر كبير من التحريف المتمثل في انتقائهم ما يرون أنه يجب إبداءه وما يرون أنه ينبغي إخفاؤه. وغالبا ما كان هؤلاء المدافعون يشتطون في إجحافهم بحق من يناهضونهم وبحق غير المسيحيين. ولم تغل أعمال المؤرخين الكلاسيكيين من مثل تلك المثالب بطبيعة الحال، بيد أن المسيحيين تجاوزوا في اقتناعهم بأنهم لابد أن يكونوا - دون غيرهم - أهل صواب. وعند المقارنة بين المؤرخين المسيحيين وواحد من الكتاب الوثنيين المميزين مثل أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus (النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي) يتبين تميزه بأنه لا يتوانى في إبداء إعجابه بمن يستحق الإعجاب من المسيحيين، وأنهم - على النقيض منه - يتصفون بعنق النظر والتصلب.

### التأريخ للتأريخ

ذلك ما كان عليه التأريخ الغربي على إجماله. ومن الغريب أن تلك الحال بقيت على ما كانت عليه حتى القرن التاسع عشر. وما تناوله إن هو إلا الصورة التي تظهرها مرآة البحث الحديث، والتي وقفنا منها عند ما يقتضيه السياق. وهي صورة مركبة تمثل في قسماتها واقع ما انتهى إليه الباحثون، وهي قسمات تجنح بالضرورة إلى إبداء ما لا يكاد "عقّار" الإنحياز يقلع في إصلاح قبحه بمحاولة إخفائه. ومن شأن مثل هذا

التأريخ أن ينتج تاريخاً أو تواريخ لا تسوغها فلسفة التاريخ بمنظورها التأملّي والتحليلي النقدي. ويحق لنا هنا أن نقول: أوليس غريباً أن يكون للإنسان تاريخان أو أكثر، تاريخ يتمثل فيه ما تتابع بالفعل من أحداث، ولا يكاد يلم الإنسان به إلّام الموقن، وتاريخ أو تواريخ كلها من نتاج "تاريخ" لا يكاد الإنسان في محاولة توحي الحقيقة فيه أن يبلغ بعض شأراً!

وأول ما نعتي به في هذا السياق هو أن نلتفت إلى حقيقة حلية موداعها أن التواريخ اليهودية المسيحية، في أصلها تواريخ دينية انتهى بها المطاف إلى أن تصبح، على أيدي أصحاب العقائد، تاريخاً دينياً موحّداً يقوم على الانتقاء وعلى الإبداء والإحفاء؛ ثم حاول أصحابه أن يحيلوه إلى تاريخ عام، فتخلطت الحقائق بالأساطير والأوهام، ذلك أن أسفار الكتاب المقدس، بمعهديه القديم والجديد تقوم، في إجمالها، على سرد يبري أصحابه أنه تواريخ أو تاريخ أو أساس للتأريخ. وهذا على النقيض من تاريخ الإسلام فالقرآن الكريم لا يعنى بالتأريخ أو بأي سرد للتأريخ أو بتحديد تواريخ، وما جاء به من قصص لم يكن إلا من قبيل ذكر المثال للتدبر والاعتبار. كما أن تاريخ محمد ﷺ لم يتناوله القرآن الكريم من قريب أو من بعيد، وإنما تناوله المؤرخون وما يزالون. ولما فارق بين تواريخ كتبت، على نحو أسلفناه، وانتهى البحث الحديث فيها إلى ما انتهى إليه، وتاريخ بدأ واتخذ مسيرته بعد أن أتيسح للعيون والعقول أن تبصر في نور الحقيقة والحق وإعمال العقل.

### الانتماء والتأريخ

ويضطرننا ضيق النطاق، ونحن بصدد بيان مدى حاجتنا إلى تاريخ عربي إسلامي معاصر جديد، أن نتجاوز الحائل إلى المائل فنلقى نظرة غير مستأينة على واقع التأريخ الحديث والمعاصر، ومدى تأثيره بما انتهى إليه فكر الإنسان في عصره الأخير. فنقول إن فروع العلم المختلفة تؤدي أدواراً بالغة الخطورة في صياغة أوجه الفكر المختلفة على المستويات المحلية والعالمية في مجابهة الإيديولوجيات بعضها بعضاً. وإذا شئنا أن نخلل لذلك، فإننا نقول إنه يتعين على المرء أن يلقى نظرة على تاريخ العالم، أو على تاريخ أمة بعينها، من خلال الكتابات التاريخية التي قام بها كتاب يتممون إلى أيديولوجيات مختلفة، فإنه واحد ولا شك أن هذا التاريخ - سواء أكان تاريخ العالم أم تاريخ أمة معينة - يصطبغ بشئ من طابع الفكر الذي ينتمي إليه كاتب التاريخ. ويتجلى ذلك في

أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التي يصدرها العالم الغربي والتواريخ التي كان يصدرها الشق الماركسي من العالم، كما أسلفنا في مقدمة الجزء الأول.

وليس ذلك وحسب، فإن نعرات التراث القومية أحدثت أثرها في فوارق نلاحظها في التواريخ التي يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هي الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون وغيرهم.

وإذا شئنا أن نسوق مثلاً يعبر عن هذه الحقيقة في واحد من جوانبها، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى في معالجته لأحداث الواقع، وإن كان حديثاً أو معاصراً، نرجع إلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية عندما استقر الأمر لخطر في بولندا بإخضاعها في أوائل عام ١٩٤٠، ثم قفزت قواته بغتة من شرق أوروبا لتحتاح غربها، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله إلى دولتين محابيتين هما الدنمارك والنرويج. وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر، واستبسل النرويجيون دفاعاً عن وطنهم بعد أن تجاوزوا وقع المباغتة. وفي تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية لتعين النرويجيين على التصدي للهجوم الألماني؛ وبدى عندئذ أن نجاح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه، ولكن الألمان أثبتوا في نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أنداداً لهم. وأكهرت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا، وسقطت النرويج في أيدي الألمان، الذين أتاح لهم غزو الدنمارك والنرويج الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة في بحر الشمال، والتي تقع في مواجهة الساحل البريطاني، مما دعم مركز هتلر في قتاله مع بريطانيا. ومضى هتلر في توجيه ضرباته، فغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محابيتين أخريين، وهما بلجيكا وهولندا، وقضت في وقت قصير على قواتهما. واندفعت قوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الخليفتين الجديديتين، ولكنها عجزت عن إيقاف الضربات القاصمة والسريعة التي وجهتها فرق البانزر The Panzer divisions، وأسراب كبيرة من الطائرات القاذفة. وتهاوت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة.

ويصف المؤرخ الأمريكي "سوثيرت" ما حدث بعد ذلك قائلاً: "إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا، وقد عجز عن أن يهضم أن تذهب قواته، أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم".

"King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms."

وهذه العبارة على بساطتها تبين أن خطوة "ليوبولد الثالث" كانت نتيجة حتمية ترتبت على ما سبقها من أحداث. ولكننا نجد أن للمؤرخ البريطاني "هربرت جورج ويلز"، رأياً آخر في ذلك، إذ يقول: "وخطر للملك ليوبولد، الذي كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعينه عند غزو بلاده، أن الوقت كان مواتياً عندئذ لعمل من أعمال الخيانتين".

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of supreme cowardice and treachery."

هذا ما يقوله ويلز، بالرغم من أنه ينمى على الفرنسيين في الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو إلى ما وراء الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء لتحرك العسكري من ناحية اليسار المكشوفة كان يعثورها نقص شديد...

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete."

ونحن نقدر تفهم "سوثيرت" لموقف الملك ليوبولد الثالث، ونحرف في الوقت نفسه دوافع "ويلز" في موقفه منه. وإذا كان للنظرة أن تختلف لزاء حدث له مثل ما أسلفنا من مقدمات، فماذا يمكن أن تكون عليه الحال إذا تعلق الأمر بالمعتقدات والأيدولوجيات وما بينهما من صراعات وسياسات!

وهذا المثال يظهر جانباً واحداً من جوانب المسألة، التي تتمتع أياً تعقد إذا حاولنا أن نعدد أمثالها على امتداد تاريخ الإنسان في عجزه القديم الجديد عن بلوغ الحيدة الموضوعية.

وإذا كان الباحثون في فروع العلم المختلفة يتأثرون، على وعي منهم أو على غير وعي، بانتمائهم الفكري أو العقدي أو الأيدولوجي على نحو يحيل الحيدة الموضوعية إلى ضالة يعسر الوقوع عليها، فإن أدوات البحث العلمي ووسائله كالموسوعات والمعاجم - والدور الذي تلعبه في هذه المجالات حد خطير - تتأثر تبعاً لذلك بكل هذه العوامل. وإذا ما أردنا أن نتعرف على شيء مما يشوبها يكفي أن نلقى نظرة على دائرة المعارف الإسلامية التي صنفها المستشرقون في عصر غفلة ما تزال تهيمن على عقولنا وتتغلغل

فيما تنتهي إليه، وليذهب من شاء إليها ليرى نفسه ولنفسه ما آلت إليه حال حضارتنا في كتابات الغرب.

وأما عن المعاجم العام منها والنوعي فحدث ولا حرج، ويكفى أن تشير إلى ما ارتبط باللفاظ: "عربي" و"محمد"، وغيرهما في معاجم الغرب لتبين بعدا آخر من أبعاد السعير الذي تتناول أنيابه كل ما يحث إلى الإسلام والمسلمين بصفة.

ولعله يحق لنا أن نذكر في هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينة في المواقف التي يتخذها الغرب وتفصح عنها أحيانا أداة البحث العلمي؛ فإنا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة "يهودي" Jew في قاموس أكسفورد في طبعته الرابعة والخامسة على التوالي، نرى فارقا في التعريف لا تحتاج دوافعه إلى تعقيب، ويكفى أن نسوق التعريفين كما هما:

تعريف الطبعة الرابعة: يهودي، (اسم) شخص من الجنس العبراني؛ مراي ميتر (معنى دارج)، عاقد الصفقات المخفية، غني كيهودي (تركيب)؛ يهودي لا يؤمن - شخص لا يصدق؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود - اضطهاد اليهود.

يهودي، (فعل) يغش، يمتال (دارج).

Jew (1), n. Person of Hebrew race: (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; *rich as a ~*; *unbelieving~*, incredulous person; *tell that (an unlikely tale) to the~s*; *~baiting*, persecution of *~s*.

Jew (2), v.t. (colloq) Cheat, overreach.

تعريف الطبعة الخامسة: يهودي، (اسم) شخص من الشعب العبراني أو اليهودي، أو شخص يعتنق اليهودية؛ مراي (معنى مهين ومبتذل)، التاجر الذي يعقد الصفقات المخفية؛ تصيد اليهود - اضطهاد اليهود.

Jew, n. One of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism; (transf., derog., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; *~baiting*, persecution of *~s*.

ونحسب أننا لسنا في حاجة إلى بيان أوجه التغيير التي أدخلت على المعاني من حيث التعديل والإضافة والحذف ولياقة استخدام الكلمة، كما نلاحظ أن استخدام الفعل "Jew" بمعنى "يهودى أو يهودى" قد أسقط نهائياً من الطبعة الخامسة رغم وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة الرابعة.

فإذا كان لنا أن نقول أن المعجم أداة بحث هامة، فإن الموسوعة تمثل وسيلة لا يستغنى عنها باحث، وهي لا تسلم فى الوقت الحاضر مما يفرضه الصراع الأيديولوجى بين مختلف الثقافات. فدائرة المعارف البريطانية، على سبيل المثال، أداة بحث حفلى وتحظى بثقة الباحثين عبر العالم كله لما عرفت به من حيطة، وإن كانت حيطة فى نطاق انتماء حضارى معين، ويبقى الإنسان إنساناً! غير أننا لاحظنا، ونحن ننقل النظر فى طبعتها الصادرة منذ عشرين عاماً وطبعتها الأخيرة أن ما شابها نتيجة لما يقتضيه الانتماء بالضرورة تحول إلى مثالب فرضتها الميمنة التي تفرض نفسها فى الوقت الحاضر. ولا تتسع مقدمة كهذه للذكر مزيد من الأمثلة، ولكننا نذكر هذه الحقيقة لنلفت الأذهان إلى واجب أغفلناه أيما إغفال يفرض علينا أن نعد لأنفسنا أدوات بحث تعين باحثنا على أن يتعرفوا على حقيقة تراثنا وحضارتنا.

ولكم يعانى المرء عندما يجد أن باحثاً مصرياً يقول فى تاريخه عن الإسلام، عند تناوله لصفات على بن أبى طالب عليه السلام: "وكان على - كما يقول نيكلسون - يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ...". ونحب أن نصاءل هنا: ألم يكن من الأجدر بمؤرخنا أن يعود إلى المراجع العربية والإسلامية وهو يحاول التأريخ لعلى عليه السلام؟ فما معنى أن ننقل عن نقلوا عن مراجعنا، إلى هذا الحد يمكن أن يبلغ تعويلنا على ثقافة غريبة عنا فنذور فى حلقة رذيلة خادعة، دون أن نعمل ملكاتنا النقدية فنقع فى حبال من يتقصون الإسلام ومثله العليا المتمثلة فى أعلامه ورجاله ويذهبون فى عدائهم له ولهم كل مذهب! عن عمد يملية الهوى أو عن جهل يفرضه قصور الأداة.

وهذا القصور فى أداة الغرب البحثية فى القرون التي تصدى للتأريخ للشرق، يقر به الباحثون الغربيون أنفسهم. وحسبنا هنا أن نذكر القليل مما كتبه برنارد لويس الأستاذ بجامعة برنستون حول هذا الموضوع فى مقاله عن "الإسلام" فى كتاب "الاستشراق والتاريخ" Orientalism and History: "يلاحظ أن تاريخ العرب غالباً ما يكتبه فى أوروبا مؤرخون يجهلون العربية أو مستعربون يجهلون التاريخ. وفى هذا القول سخرية شديدة غير أن لها ما يبررها".



"It has been remarked that the history of the Arabs has been written in Europe chiefly by historians who know no Arabic, or by Arabists who know no history. The gibe is sharp, but not wholly unjustified."

ثم يستطرد برنارد لويس مينا أنه: "فى معظم الجامعات الغربية تنفصل الدراسات التاريخية عن الدراسات الشرقية فى فروع مستقلة يشتغل بها أساتذة ودارسون تختلف أهدافهم ومناهج بحثهم فى غالب الأمر. ومن قبيل المبالغة بلا ريب أن نقول إن الإثنين لا يلتقيان على الإطلاق غير أنه ليس من الإجحاف أن نقول إن كلا منهما يجاوز الآخر على الطريق محبياً إياه فى برود وفى غير مبالاة بل وفى إعراض أحياناً .... إن التعامل مع المصادر التاريخية الإسلامية يقتضى من الباحث أن يذلل فى دراسة فقه اللغة جهداً عسيراً يكاد يستغرق كل وقته، فلا يتأتى له أن يكتسب دُرّة المورخ. وإذا ما واثت المورخ الغربى الجُرّة على أن يدرس لغة شرقية فإنه لا يكاد يبلغ فى ذلك بعض غاية. فليس ثمة "لغة عمل" فى أى من اللغات الشرقية، وتعلم واحدة منها يعنى دراسة حادة ممتدة، وعندما يحاول المورخ أن يرجع إلى المصادر الشرقية فإن خطره تعذر الفهم والتفسير ربما جاوز فى حساسته خطر اعتماده على الترجمات التى أعدها المستشرقون — برغم أن لنا أن نقول إن هذه الترجمات لا تبراُ بأية حال من الخطأ". ولا نجيب أننا فى حاجة إلى أن نعقب على ما كتبه برنارد لويس الذى استعرض فيما لم ننقله عنه العديد من المثالب المعقدة التى تتصف بها فروع التاريخ فى الغرب.

وينبغى أن نلتفت هنا إلى الأهمية الخاصة التى يجب أن نوليها لأدوات البحث ووسائله. ذلك أنه لا بد للباحث كى يعد عملاً علمياً من أن يتعامل مع هذه الأدوات والوسائل ليقدّم لنا فى نهاية الأمر بحثاً يتحول بذاته إلى "مصدر" يعتمد عليه غيره من الباحثين فيما بعد، أى أنه يصبح "مرجعاً" يستعان به. وهذا يعنى بطبيعة الحال أن الأخطاء التى ترد فى أدوات البحث ووسائله الأولية تتواتر ثم تتواتر، وهذا التواتر فى حد ذاته ربما يضيف على الخطأ "قناعاً" يوحى بصحته، أو يحول دون تبيين حقيقته. وهذا التصور على إجماله يبين مدى الزيف الذى يمكن أن يصطبغ به نتاج الفكر. وتلك مأساة تلحق بجهد الإنسان كثيراً من التخلط والفران.

ولنا أن نخلص من هذا كله إلى أنه يجب علينا أن ننظر فيما كتبناه من تواريخ تأثرنا فيها خطى المدرسة الغربية وأخذنا بمناهجها واعتمدنا على أدوات بحثها ، حتى نتخلص مما اعتورها من أخطاء تواترت عندهم ثم عندنا مما أفسح المجال للأباطيل والأوهام أن تراءى في ظل المسوح الأكاديمية وكأن لها بعض صلة بواقع أو حقيقة. ونرجو أن يتيح ذلك لنا أن نصحح ما ينبغي تصحيحه وأن نكمل ما اعتوره النقصان وأن نؤرخ لما لم يؤرخ له. ولا تتسع هذه المقدمة - بطبيعة الحال - لمعالجة النهج الذي يجب علينا أن نتخذه كي نبلغ هذه الغاية بيانا لمسيرة حضارتنا والتزامنا بأصالتها، وتقويتها لتقافتنا.

وأسأل الله أن يعيننا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

نور الدين خليل

جنيف ١٩٩٦



## مقدمة المؤلف

أجتهد في هذا المجلد أن أعرض قصة الدويلات وراء البحار (أوترمييه) ، بدءا من اعتلاء الملك بالدوين العرش وإلى أن استعاد صلاح الدين القدس . وهي قصة سبق أن رواها كتاب أوروبيون ؛ إذ أبرزها (روهرينجت) في شمول ألماني ، وأضفى عليها (رينيه جروسيه) من فرنسية الأناقة والأصالة ، وعرضها (ى. ب. ستيفنس) في إيجاز إنجليزي بالغ . ولقد سرت على نفس الدرب ، واستعنت بذات مصادرهم ؛ على أنني جازفت بأن أضفت إلى الدليل تفسيراً يختلف أحيانا عن تفسير من سبقوني . وليست القصة بسيرة دائما ، لاسيما وأن سياسات العالم الإسلامي في باكورة القرن الثاني عشر تتحدى أى تحليل مباشر ، وإنما يلزم فهمها إذا أردنا أن نفهم قيام الدويلات الصليبية وأسباب استرجاع الإسلام لقوته فيما بعد.

ولم يشهد القرن الثاني عشر أيها من الهجرات العنصرية الضخمة التي صيغت القرن الحادى عشر ، والتي كان لها أن تتكرر في القرن الثالث عشر ، وبذا تتعقد قصة الحملات الصليبية اللاحقة وضمحلالات وسقوط الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوترمييه) . ونستطيع الآن أن نركز اهتمامنا أساسا في (أوترمييه) ذاتها ، على أنه ينبغي

لنا دائما أن نستحضر عطفية أشمل تنسج لسياسات أوروبا الغربية ، والحروب الدينية التي أشعلها حكام أسبانيا وصقلية ، وانشغال بيزنطة ، والخلافة الشرقية . إن تبشير القديس برنار ، ووصول الأسطول الإنجليزي إلى لشبونة ، ودسائس القصور في القسطنطينية وبغداد ، كلها أحداث مترابطة تلعب أدوارها في المسرحية ، برغم بلوغها الذروة على تلي عارٍ في الجليل .

والحرب هي جوهر هذا المجلد . وفي عرضي المسهب للكثير من الحملات والغارات سرت على درب المؤرخين القدامى الذين أتقنوا أعمالهم ؛ فما الحرب إلا الخلفية الأساسية للحياة في الدويلات الفرغية وراء البحار (أوترمييه) التي غالبا ما يتوقف مصيرها على المخاطر التي يزرع بها ميدان القتال . على أنني خصصت في هذا المجلد فصلا عن الحياة في الشرق الفرغى ونظامها؛ وأرجو أن أكتب في مجلدي التالي عن تطوراتها الفنية والاقتصادية ، فكلاهما جانباً الحركة الصليبية اللذان بلغا ذروة الأهمية في القرن الثالث عشر .

ولقد ذكرت في مجلدي الأول بعض عظام المؤرخين ممن ساعدتني كتاباتهم . وفي هذا المجلد لا بد لي من تسجيل تقديري الخاص لأعمال (جون لامونت) ، الذي كان موته المبكر بمثابة ضربة قاسية للتأريخ الصليبي ، ولغن مدينون له قبل الآخرين جميعا بمعلوماتنا المتخصصة المتصلة بالنظام الحكومي في الشرق الفرغى . وأود كذلك أن أعترف بالعرفان للبروفيسور (كلود كوهين) من ستراسبورج ، الذي تعدّ رسائله العظيمة عن شمال سوريا، ومقالاته المختلفة، على جانب عظيم من الأهمية للموضوع الذي نتناوله .

كما أنني مدين لأصدقائي الكثيرين الذين ساعدوني في رحلاتي إلى الشرق ، خاصة إدارة الآثار القديمة في كل من الأردن ولبنان ، وشركة بترول العراق . ومرة أخرى أعرب عن شكري لموظفي مطبعة جامعة كامبردج لما أبدوه من عطف وصبر .

ستيفن رانسيما

لندن ١٩٥٢

## الباب الأول:

### إنشاء المملكة



## الفصل الأول:

**مملكة ما وراء البحار  
(أوتريمييه) وجيرانها**





## مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) وجيرانها

”أَنْتِ أَكَالَةُ النَّاسِ وَمُشْكِلَةُ شُعُوبِكِ“

(حزقيال : ٣٦ . ١٢ )

دخلت الجيوش الفرنجية مدينة القدس ، وبذا حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها. على أنه إذا أراد المسيحيون أن تبقى القدس في أيديهم ، وأن يتيسر على الحجاج بلوغها، فلا بد لهم من إقامة حكومة راسخة ، ذات دفاعات منيعة ، تربطها بأوروبا مواصلات آمنة؛ إذ أن الصليبيين الذين تمكنوا من الاستقرار في الشرق كانوا مدركين جيدا لاحتياجاتهم . وقد شهدت الفترة القصيرة من حكم الدوق جودفري مولد المملكة المسيحية؛ لكنه كان ضعيف أحمق برغم طيبته ؛ إذ دفعته الغيرة إلى أن يشاحر مع رفاقه ، وبوازع من ورع دفين وهب الكنيسة سلطات ضخمة ، وعموته وتولى أعباءه بالدوين أنقذت المملكة الوليدة. وكان بالدوين يتصف بالحكمة والبصيرة وصرامة رجل الدولة ؛ غير أن مسؤوليات هائلة كانت في انتظاره ، وليس لديه سوى القليل ممن يستطيع الاعتماد عليهم بعد رحيل أهم معارضي الحملة الصليبية الأولى إلى الشمال أو

إلى أوطانهم ، ولم يتخلف من بين أبرز عناصر تلك الحركة سوى أضعفهم - بطرس الناسك - الذي لا تعرف شيئا عن حياته الغامضة هناك ، وقد عاد هو نفسه إلى أوروبا عام ١١٠١م<sup>(١)</sup> واصطحب الأمراء معهم جيوشهم في طريق عودتهم ، ولم يكن بالدوين قد أحضر إلى الشرق أى أنبساط ، فهو الإبن الأصغر للفلس ، وإنما استدان الرجال من إخوته ، وها هو الآن يعتمد على حفنة من الخاردين الورعين الذين سبق أن أخذوا العهد على أنفسهم قبل مغادرتهم أوروبا بالبقاء في الأراضي المقدسة ، وعلى مغامرهم يعلقون الآمال على امتلاك الممتلكات التي ترفعهم درجات تصل بهم إلى مصاف الأثرياء ، وكان أغلبهم - كشأنه - من أصغر الأبناء للفلسين.

### أرض فلسطين

وكانت سيطرة الفرنج على أغلب الأراضي الفلسطينية ضعيفة واهية عندما تولى بالدوين شؤون المملكة . وكانت أكثرها أمنا تلك المنطقة الممتدة عبر السلسلة الجبلية من بيت لحم شمالا إلى سهل جزريل<sup>(٢)</sup> وكان المسيحيون المحليون يسكنون الكثير من القرى بعد أن هجرها أغلب المسلمين بحسب الجيوش الفرنجية ، بل هجروا مدينتهم المفضلة نابلس التي كانوا يطلقون عليها دمشق الصغيرة . وكان الدفاع عن هذه المنطقة يسيرا ؛ إذ يوفر لها وادي الأردن الحماية من الشرق ، وليست بالنهر عذبة بين أرمسا وبيسان ، كما لا يوجد من الممرات سوى ممر واحد يصعد من الوادي إلى داخل الجبال ، كما كان من العسير دخول المنطقة من الغرب ، وإلى الشمال تقع إمارة الجليل التي استولى عليها تانكريد وضمها إلى العالم المسيحي ، والتي تشتمل على سهل إزدراليون مرج بني عامر والتلال الواقعة بين الناصرة وبحيرة الحولة . وحدود هذه الإمارة أكثر تعرضا للإختراق ؛ إذ يمكن اختراقها من عكا على ساحل البحر المتوسط ، ومن الشرق عبر الطرق الواقعة شمال وجنوب بحر الجليل . غير أن الكثير من المسلمين هاجروا من هناك أيضا ، ولم يبق سوى المسيحيين وجماعات قليلة من اليهود في بعض المدن ، خاصة مدينة صفد وهي الوطن الرئيسي للتقاليد التلمودية منذ آمد بعيد ؛ لكن

(١) Hagenmeyer, Pierre l'Hermite, pp. 330-44. (ibid p. 347) مات بطرس الناسك في سن متقدمة عام ١١١٥م.

(٢) سهل جزريل : شمال فلسطين المحتلة ، ويفصل تلال الجليل شمالا عن السامرة جنوبا . وهو مذكور في العهد القديم باسم "وادي برزعل" (انظر سفر يشوع : ١٧ - ١٦).

أغلب اليهود آثروا اللحاق بالمسلمين في المنفى بعد المذابح التي حصلت أثناء دينهم في القدس وطبرية وبعد مقاومتهم للمسيحيين في حيفا<sup>(٣)</sup>. وكانت سلسلة الجبال المركزية وطبرية بمثابة قلب المملكة. وانتشرت مواقع الاستطلاع واتسعت في المناطق الإسلامية المحيطة، وحصلت إمارة الجليل مؤخرًا على منفذ إلى البحر في حيفا، وسيطرت حامية فرنسية على النقب جنوبًا في الخليل، أما قلعة القديس أبرام، وهي تسمية أطلقها الفرنج على الخليل، فكانت أكثر قليلًا من كونها جزيرة في محيط إسلامي<sup>(٤)</sup>. ولم يكن للفرنج سيطرة على الطرق الآتية من شبه الجزيرة العربية حول الطرف الجنوبي للبحر الميت بطول الطريق البيزنطي القديم المسمى بطريق الترابيل. وكان البدو يستخدمونه للتسلل داخل النقب والاتصال بالحاميات المصرية في غزة وعسقلان على الساحل. وكان للقدس نفسها منفذ على البحر عبر عمر بمضى خلال اللد والرملة إلى يافا، لكن الطريق لم يكن مأمونًا بغير مواكبة عسكرية؛ إذ كانت الجماعات المغيرة المنطلقة من المدن المصرية، واللاحقون المسلمون في المضارب المرتفعة وبدو الصحراء، يطوفون المنطقة ويتعرضون للمسافرين في غفلة منهم. ويسروى (سايرولف) - وهو من الحجاج الشماليين - مشاعر الملح والمخاطر عندما حج إلى القدس عام ١١٠٢م<sup>(٥)</sup>. وكان أميرًا للمدينتين الإسلاميتين أرسوف وقيسارية، الواقعتين بين يافا وحيفا، قد أعلن أنهما من أتباع جودفري، لكنهما بقيا على اتصال بمحصر عن طريق البحر؛ إذ كان الساحل شمالي حيفا، الممتد مسافة مائتي ميل تقريبًا، يخضع للسيطرة الإسلامية حتى مشارف اللاذقية حيث كانت الكونتيسة زوجة ريموند (كونت تولوز) تقيم مع حاشية زوجها في حماية الحاكم البيزنطي<sup>(٦)</sup>.

وكانت فلسطين بلدًا فقيرًا بعد أن كان مزدهرًا في العصور الرومانية. على أن ذلك الازدهار لم يصمد للغزوات الفارسية؛ ثم شهدت البلاد مولد ازدهار آخر في ظل الخلافة العربية، لكن الحروب المتواصلة منذ مجيء الأتراك قضت على ذلك الازدهار في مهده. والآن تنتشر الغابات أكثر من ذي قبل، فما تزال هناك غابات عظيمة في الجليل وعلى امتداد جبل الكرمل وحول السامرة، وكذلك غابة الصنوبر

(٣) عن اليهود، أنظر صفحة ٣٤٤.

(٤) أنظر أعلاه، الجزء الأول، الصفحتين ٢٦٣ و ٣٧٦.

(٥) *Pilgrimage of Saewulf* (in P. P. T. S. vol. IV).

(٦) أنظر أعلاه، الجزء الأول الصفحتين ٣٧٨ و ٣٧٩.

الساحلية جنوب قيسارية ؛ مما أدى إلى وجود رطوبة في بلد يقتصر بطبيعته إلى الماء . وقد بقيت تلك الغابات والحدائق كلها برغم ما أحدثه الفرس من خراب مرآت ومرات ، وبرغم ما تسبب فيه أبناء البلاد والماعز من خراب بطنى . وازدهرت حقول الحبوب في وادي ازدراليون (مرج بنى عامر)، وأبنتت عمار الموز وغيرها من عمار الفاكهة المستحلبة إلى وادي الأردن ذي المناخ المداري ؛ ولولا الحروب الأخيرة لازدهر السهل الساحلى كذلك بمحاصيله وحدائقه التى تنمو فيها الخضروات والبرتقال اللاذع؛ وكانت بساتين الزيتون وأشجار الفاكهة تحيط بقرى جبلية كثيرة . على أن البلاد فى أغلبها كانت مجربة والتربة خفيفة ضعيفة خاصة حول القدس ، وقد حلت مدنها من أية صناعة كبيرة . وحتى عندما بلغت المملكة أوج عظمتها لم يكن ملوكها فى مصاف كبار الأثرياء مثل كونت طرابلس أو أمراء أنطاكية<sup>(٧)</sup>؛ إذ كانت الضرائب هي المصدر الرئيسى للثروة . أما الأراضي الخصبة فى مزاب والجولان عبر الأردن فكانت متفدها الطبيعى عن طريق موانئ الساحل الفلسطينى ؛ إذ كانت البضائع المنقولة من سوريا إلى مصر تسلك الطرق الفلسطينية ، وكانت القوافل المحملة بالتوابل الآتية من جنوبى شبه الجزيرة تحتاز النقب إلى البحر المتوسط على مر العصور . على أنه كان لابد من إغلاق المنافذ الأخرى كلها لتأمين هذا المصدر ، وهو الرسوم ؛ وكذا كان على الفرنج أن يسيطروا على كل الحدود الممتدة من خليج العقبة جنوبا إلى جبل الشيخ<sup>(٨)</sup> ، بل ومن لبنان إلى القرات .

وفضلا عن ذلك ، لم تكن فلسطين بلادا صحية ، باستثناء القدس ذات الهواء الجلبلى والمراقق الصحية الرومانية ، فهى مدينة صحية بما فيه الكفاية ، فيما عدا ما تجلبه رياح الخماسين من الجنوب من حرارة شديدة وأتربة . على أن السهول الدافئة التى جذبت الغزاة بخصوبتها كانت مرتعا خصبا للأمراض بما فيها من مياه راكدة وبعموض وذباب ، فتفشيت أمراض الملاريا والتيفود والدوسنتاريا ، وسرعان ما انتشرت أوبئة الكوليرا والطاعون وغيرها فى القرى المزدحمة الحاقية من المراقق الصحية ، وكثرت حالات الجزام . وسقط فرسان الغرب وحنوده فريسة لتلك الأمراض بملايسهم التى لا تلائم المناخ ، وبشبهتهم القوية ، وجهلهم بقواعد الصحة الشخصية ، وبات معدل

(٧) يرد موجز حيد عن فلسطين فى Munro, The Kingdom of the Crusaders, pp. 3-9

(٨) جبل الشيخ أو حرمون أو سنير : اسم الجزء الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية.

الوفيات أعلى بين الأطفال. ودائما ما تمزج الطبيعة مزاحا لا يتخلو من قسوة ، فتجعل مواليد الإناث أقدر على المقاومة من الذكور، مما أثار مشكلة سياسية متواصلة لدى الأحيال اللاحقة لمملكة الفرنج . على أن المستعمرين تعلموا فيما بعد ممارسة العادات الصحية ، فتهيات القرص حياة أطول؛ لكن معدل وفيات الأطفال ظل في مستواه الرهيب ، وسرعان ما انتزع بحلاء ضرورة استمرار تلحق الحجر بأعداد كبيرة من أوروبا كي يتوفر لفرنج فلسطين ما يكتفى للسيطرة على البلاد .

#### الإحتياج إلى ميناء بحري

كانت أول مهام الملك بالدوين هي تأمين الدفاع عن مملكته . ولما كان ذلك يتطلب على أعمال هجومية ، فكان لزاما عليه الاستيلاء على أرسوف وقيسارية وابتلاع أراضيهمما ، ولابد من الاستيلاء على عسقلان التي فشل المسيحيون في غزوها عام ١٠٩٩ م بسبب غيرة جودفري من الكونت ريموند<sup>(٩)</sup> ، ودفع الحدود المصرية جنوبا كي يسلم الطريق من القدس إلى الساحل . ويتبى إنشاء نقاط مراقبة متقدمة عبر الأردن وجنوب البحر الميت ، وينبغي له أن يحاول ربط مملكته بالدويلات المسيحية في الشمال لفتح طريق الحجاج ولزهد من المهاجرين ؛ وعليه التقدم بطول الساحل قدر الاستطاعة وتشجيع إقامة دويلات مسيحية أخرى في سوريا . كما ينبغي له أن يوفر للمملكة ميناءً بحريا أفضل من يافا أو حيفا ؛ إذ أن ميناء يافا قريب جدا من الشاطئ ومفتوح ومياهه ضحلة للغاية فلا تستطيع السفن الكبيرة الإقتراب من الشاطئ ، ومن أجل النزول إلى الشاطئ يتعين استخدام قوارب صغيرة تتعرض لأخطار شديدة إذا ما نشطت الرياح ، أما إذا قويت الرياح تعرضت السفن ذاتها للخطر . ويخبرنا الحجاج (سايفولف) أنه في اليوم التالي لنزوله إلى البر هناك عام ١١٠٢ م شاهد حطام أكثر من عشرين سفينة من سفن الأسطول الذي أبحر معه، كما شاهد أكثر من ألف حاج وهم يفرقون<sup>(١٠)</sup> . وأما شاطئ الرسو في حيفا فهو أعمق وتحميه منطقة جبل الكرمل من الرياح الجنوبية والغربية ، لكن الأخطار تحدق به في مهب الرياح الشمالية . والميناء

(٩) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٥٤ .

(١٠) *Pilgrimage of Saewulf*, pp. 6-8

الوحيد الآمن على الساحل الفلسطيني في جميع الأحوال المتاحة هو ميناء عكا. ولأسباب اقتصادية ، فضلا عن ممرات استراتيجية ، ينبغي عزو عكا .

أما عن الحكومة الداخلية ، فكان بالدوين في حاجة ماسة إلى الرجال والمال . فليس في مأموله بناء المملكة بغير ما يكفي من الثراء والقوة اللازمين للسيطرة على أتباعه . ولا سبيل إلى الحصول على الرجال سوى الترحيب بالهجرة واستمالة المسيحيين المحليين للفرز بتعاونهم . ومقدوره توفير الأموال بتشجيع التجارة مع البلدان المجاورة ، واغتنام فرصة التمرعات من الوردعين الأوروبيين الراغبين في تشييد الكنائس في الأراضي المقدسة ووقف الأموال عليها؛ على أن هؤلاء الوردعين سيرسلون أموالهم إلى الكنيسة ، فعليه إذن أن يصبح سيد الكنيسة لضمان الإفادة من تلك الأموال لصالح المملكة كلها .

إن أعظم مصدر لقوة الفرنج هو تشتت العالم الإسلامي . وما كان للحملة الصليبية الأولى أن تحقق هدفها لولا الغيرة التي تسلطت على القادة المسلمين ونبذ التعاون مع بعضهم البعض ؛ فأما مسلمو الشيعة وعلى رأسهم الخليفة الفاطمي في مصر، فكانوا يحملون للأتراك السنيين والخليفة العباسي في بغداد ما يحملونه للمسيحيين من كراهية ؛ وأما الأتراك ، فقد غاصوا في التنافس بين بعضهم البعض : بين السلاجقة والدانشمندان ، وبين الأرائقة وآل تنش ، وبين ولدي تنش ذاتهما ، دقاق ورضوان ؛ وأما الأتابغ من أمثال كربوقا ، فقد تسببوا في زيادة الإضطراب سوء على سوء لما كان يراود كل منهم من طموحات شخصية ؛ وأما الأسر المالكة الأصغر ، مثل بني عمار في طرابلس وبني منقذ في شيزر ، فقد انتهزت تلك الفوضى العامرة ونالت استقلالاً واعيا ؛ ولم يكن هناك من أثر ترتب على نجاح الحملة الصليبية سوى تفاقم تلك الفوضى العقيمة ، فدب اليأس في نفوس الأمراء المسلمين ، وراحوا يتبادلون الاتهامات، مما جعل التعاون مع بعضهم البعض يزداد صعوبة على صعوبة<sup>(١١)</sup>.

وانتهز المسيحيون ارتباك الإسلام . فراحت عبقرية الإمبراطور ألكسيوس المرتنة تعمل عملها في تسيير دفة الأمور ؛ فأفاد من الحملة الصليبية واستعداد السيطرة على غربي آسيا الصغرى ، واسترد الأسطول البيزنطي موحدا كامل الخط الساحلي لشبه الجزيرة فصار تحت سلطة الإمبراطور ، بل عاد ميناء اللاذقية السوري إلى ممتلكات

(١١) للإطلاع على مقال رائع موجز حول العالم الإسلامي آنذاك ، انظر مقدمة Gibb's The Damascus Chronicles (إبن القلايس - تاريخ دمشق)

الإمبراطور بمساعدة ريموند (كونت تولوز)<sup>(١٢)</sup>. وباتت الإمارات الأرمنية آمنة بعد أن كان الأتراك يتهددونها بالفناء؛ وأسفرت الحملة الصليبية عن مولد إمارتين فرنجهيتين كانتا بمثابة إسفين في العالم الإسلامي.

### إمارة أنطاكية

كانت إمارة أنطاكية لغنى الإماراتين وأكثرهما أماناً. وقد انشأها يوهيموند النورماندى على الرغم من معارضة ريفيه وريموند (كونت تولوز)، ورغم ما أقسم عليه من تعهدات للإمبراطور ألكسيوس. ولم تكن أنطاكية واسعة المساحة، وإنما تتألف من وادى نهر الأرنؤ (العاصي) وسهل أنطاكية وسلسلة جبال أمانوس ومنهلي الإسكندرونة والسويدية. على أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت غنية برغم الثقلبات التى مرت بها مؤخرًا فكانت مصانمها تنتج الملابس الحريرية والسجاد والزجاج والفخار والصايون، وكانت القوافل الآتية من حلب وما بين النهرين تتجامل الحروب بين المسلمين والمسيحيين وتعبر بوابات المدينة فى طريقها إلى البحر. ولما سكان الإمارة فكانوا كلهم تقريباً من المسيحيين الذين يتألفون من الميوناتيين، والسيريان الأرثوذكس، والسيريان اليعاقية، والأرمن، وقليل من النساطرة؛ وكل طائفة منهم تنهشها الغيرة من الطائفة الأخرى، بحيث بات من اليسير أن يسيطر عليهم النورمانديون<sup>(١٣)</sup>. أما لهم عطر خارجي تعرضت له أنطاكية فكان يمثل فى بيزنطة أكثر مما يمثل فى المسلمين؛ إذ أدرك الإمبراطور البيزنطي مدينته فى المسألة الأنطاكية، لكنه يسيطر الآن على موانئ كيليكيا واللاذقية، ولديه قاعدة بحرية فى قبرص، فراح يتحين الفرصة لاستعادة حقوقه المسلوبة فى أنطاكية، خاصة وأن الأرثوذكس كانوا تواقين للحكم البيزنطي، لكن النورمانديين أفلحوا فى ضربهم بالأرمن واليعاقبة.

وفى صيف عام ١١٠٠م تعرضت أنطاكية لضربة قاسية، عندما انطلق يوهيموند على رأس حملة لملاقاة أمير الدانشمند، فانهزم وتحطم جيشه ووقع هو نفسه أسيراً. على أن الكارثة لم تسبب فى أضرار دائمة فى الإمارة عدا خسائر الرجال؛ إذ أن الملك بالدوين، الذى كان آنذاك كونت الرها، تصرف على الفور بحيث كان حلالاً بين

(١٢) أنظر أعماله، المجلد الأول، صفحة ٣٧٩.

(١٣) بالنسبة لأنطاكية أنظر J. Coker, *La Syrie du Nord*, pp. 127 ff.



الأتراك وبين متابعة انتصارهم ، وبعد أشهر قليلة أتى تانكريد من فلسطين لتولى مهام الوصاية على أنطاكية أثناء سجن خاله بوهيموند ، ووجد النورمانديون في تانكريد قائدا لا يختلف عن خاله في كثرة تحركه وتفرده من المبادئ الخلقية<sup>(١٤)</sup>.

#### إمارة الرها

وكانت الإمارة الفرنجية الثانية هي كونتية الرها ، أو أورفا ، وكانت دويلة حاضرة توفر الحماية لأنطاكية من المسلمين . والآن يحكمها ابن عم الملك بالدوين وسميه ، بالدوين (كونت لوبيرج) . وكانت الكونتية أكبر مساحة من إمارة أنطاكية ، وتمتد على جانبي الفرات من رواندان وعيتاب إلى حدود غير واضحة في أراضي الجزيرة إلى الشرق من مدينة الرها . وكانت تفتقر إلى الحدود الطبيعية وتجانس السكان ؛ إذ كانوا مسيحيين في أغلبهم من اليعاقبة والسريان والأرمن ، ولكن كانت هناك مدن إسلامية كذلك مثل مسروق . ولم يكن بمقدور الفرنج إقامة حكومة مركزية ، وإنما كانوا يحكمون من خلال حاميات في القليل من الحصون القوية التي كانت تفرض الضرائب والإتاوات على القرى المحيطة ، وتنطلق منها الغارات عبر الحدود فتعود محملة بالغنائم . ودائما ما كانت المنطقة كلها بلدا حدوديا ومسرحا للأعمال الحربية التي لا نهاية لها . وكانت زاخرة بالأراضي الخصبة والمدن المزدهرة . على أن الملك بالدوين الآن أقل شأنا مما كان عليه أيام أن كان هو كونت الرها ، عندما كان يجبي الضرائب من أهل الرها فضلا عن إغاراته هناك<sup>(١٥)</sup>.

وكانت الدويلتان في ميسس الحاجة إلى الرجال . بل كانت القدس ذاتها في أمس الحاجة إلى الرجال ؛ فمتذ أن فتح المسلمون فلسطين بادىء الأمر ، حرموا سكانها المسيحيين من حمل السلاح ، لذا لم يجد الحكام الجدد الصليبيون من يعتمد عليه من الجنود المحليين . أما أنطاكية والرها فكانتا تقعان داخل الحدود البيزنطية السابقة ، وفيهما الكثير من المسيحيين من ذوي التقاليد العربية في الشجاعة العسكرية ، ولا سيما الأرمن ؛ وبذا كان بمقدور أي أمير فرنجي إنشاء جيش كامل العدد إذا ما تعاون معه الأرمن . وقد حاول بوهيموند ثم تانكريد في أنطاكية ، وبالدوين الأول ثم

(١٤) أنظر أعماله ، المجلد الأول ، صفحة ٣٨٠ ، وأثناء ، الفصل الثالث .

(١٥) Cohen, op. cit. pp. 110 ff.

بالدين الثاني في الرها، استمالة الأرمن بادی الأمر ؛ على أنه ثبت من التجارب أنهم قوم تخرى الحياة في عروقهم ، فامتنع الإعتماد عليهم ، ولم يمرر حكام أنطاكية والرها على وضعهم مواضع الثقة ، ولم يكن هناك من يد لحكام هاتين الدولتين من الاستعانة بفرسان ولدوا وتربوا في الغرب لقيادة كتائبهم وإدارة حصونهم ، ومن الاستعانة كذلك برجال الدين الذين نشأوا في الغرب لتسيير حكوماتهم . بيد أنه بينما كانت أنطاكية تنبج للمهاجرين حياة وادعة ناعمة، لم تجتذب الرها سوى المقامرين المعتادين على حياة السلب والنهب .

#### المدن الإسلامية الساحلية

أما القلنس ، فكانت بينها وبين الدولتين الفرنجيتين الشماليين مناطق فسيحة شاسعة يحكمها عدد من عواهل المسلمين القويين . وكانت منطقة الساحل شمالي المملكة مباشرة تحت سيطرة الموانئ الأربعة عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها تدبج بالولاء لمصر بحيث يقوى ذلك الولاء باقتراب الأسطول المصري ويضعف بابتعاده<sup>(١٦)</sup> . وكان بنو عمار مستقلين بإمارتهم الواقعة شمالي بيروت ويحكمونها من عاصمتهم طرابلس ؛ وقد انتهز أميرها رحيل الصليبيين جنوبا فراح يوسع رقعة حكمه مؤخرًا حتى طرطوس<sup>(١٧)</sup> . وبين طرطوس واللاذقية كان الفاضل ابن صليحة يحكم إمارة جبلة ، على أنه في صيف عام ١٠٠٦م سلمها إلى طنتكن - أتايج دقاق الدمشقي - الذي سلمها بدوره إلى بني عمار<sup>(١٨)</sup> . وفي جبال النصيرية الواقعة وراء طرطوس وجبلة كان بنو عمار يحكمون إمارتي المرقب وقدموس الصغيرتين ، بينما كانت إمارة الكهف تحت حكم بني عمرو<sup>(١٩)</sup> . وأما الوادي الأعلى لنهر العاصي فكان مقسما بين خلف بن ملاعب في أمافيا ، وهو مغامر شيعي اعترف بالولاء للسيادة الفاطمية ، وبني منقذ أمراء شيزو - الأمراء الأهم من تلك الأسر الحاكمة الصغيرة - وجناح الدولة في حمص ، وهو أتايج سابق لرضوان الحلبي الذي استقل بحمص بعد أن وقع في خلاف مع

(١٦) Gibb, op. cit. pp. 15-18; Le Strange, Palestine under the Moslems, pp. 342-52

(١٧) للمزيد حول بني عمار انظر مقال Sobernheim "بني عمار" في دائرة المعارف الإسلامية.

(١٨) ابن الفلاسي ، تاريخ دمشق ، 51-2 The Damascus Chronicle, pp.

(١٩) Cohen, op. cit. p. 180

سيده<sup>(٢٠)</sup> . وكانت حلب ما تزال في قبضة رضوان الذي كان يحمل لقب ملك لكونه من الأسرة السلجوقية الحاكمة . وكان بنو أرئق يحكمون الجزيرة التي تقع إلى الشرق من حلب بعد انسحابهم إليها من القدس التي احتلها الفاطميون عام ١٠٩٧ م . وكان بنو أرئق أنفسهم من أتباع دقاق أمير دمشق ، الذي خلع على نفسه لقب ملك كاعيه رضوان<sup>(٢١)</sup> .

وتفاقم اضطراب هذه الانقسامات السياسية بسبب اختلاف عناصر السكان في سوريا؛ إذ كان الأتراك يشكلون أرسطقراطية إقطاعية صغيرة متناثرة ؛ وكان الأمراء الأقل كلهم تقريباً من العرب ؛ وأما سكان المدن في شمالي سوريا ومناطق دمشق ، فكانوا مسيحيين في أغلبهم ، من السريان المنتمين إلى الكنيسة اليقونية ، والنساطرة في المناطق الشرقية ، ومن الأرمن المنسلين من الشمال ، وكان أغلب السكان في أراضي بني عمار من السارونيين أتباع مذهب "المونوثيلية"<sup>(٢٢)</sup> . وفي جبال النصيرية استقرت قبيلة النصيرية ، وهي طائفة شيعية يستمد منها خلف بن ملاعب قوته ، وكان الدروز - وهم فئة شيعية تولد الحاكم بأمر الله - يقيمون في منحدرات جنوب لبنان، ويكرهون حمرانهم المسلمين ، لكنهم كانوا أشد كراهية للمسيحيين . وازداد تعقد الأمور بهجرة العرب المطردة من الصحراء ، وتدفق الأكراد من الجبال الشمالية إلى الأراضي الخصبة ، وكذلك بوجود جماعات التركمان التي كانت على استعداد لأن تضع نفسها تحت إمرة أي زعيم محارب يدفع لها<sup>(٢٣)</sup> .

#### الحلافة الفاطمية والحلافة العباسية

كان حكام مصر الفاطميون أقوى حمران سوريا من المسلمين؛ إذ كان وادي النيل والدلتا في عالم العصور الوسطى أكثر المناطق كثافة بالسكان ، وكانت مصانع القاهرة والإسكندرية العظيمة تنتج الزجاج والفخار والأدوات المعدنية ، فضلاً عن الكتان

(٢٠) أنظر مقال Honigman "شيزر" ، ومقال Sobernheim "حمص" ، في دائرة المعارف الإسلامية ، وكذلك introduction to Hitti, *An Arab-Syrian Gentleman*, pp. 5-6

(٢١) أنظر Gibb, op. cit. pp. 22-4

(٢٢) (الموحى) Monothelism معتقد لاهوتي مفاده أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٢٣) أنظر Gibb, op. cit. pp. 27-9

والمسوحات المزركشة ، وكانت الغاصيل الوفيرة من الحبوب تنمو في المناطق المزروعة، والدلتا زاهرة بمزارع قصب السكر . كما كانت مصر تسيطر على تجارة السودان الرائجة بما تشمله من ذهب وصمغ عربي وريش نعام وعاج ، وتنقل تجارة الشرق الأقصى المبحرة عن طريق البحر الأحمر عبر الموانئ المصرية إلى البحر المتوسط . ورغم ما كان يشاع من إفتقاد المصريين للشهرة العسكرية ، كان بمقدور الحكومة المصرية أن تدفع بالجيش الجراءة إلى الميدان ، كما كان باستطاعتها استخدام المرتزقة أيما كان عددهم ؛ فضلا عن ذلك ، فهي القوة الوحيدة التي تنفرد بامتلاك أسطول بحري ضخم . ولذا كان من الطبيعي للحاكم الشيعة في مصر أن يقرر الحماية للشيعة في سوريا ، بل وللعرب السنيين الذين يخشون السيطرة التركية ، ومن ثم كانوا على استعداد للإعتراف بسيادته لما كان يتحلى به دائما من تسامح ؛ على أن الغزوات التركية دأبت على تقليص الإمبراطورية الفاطمية في سوريا، كما أن استيلاء الفرنج على القدس وتغلبهم على التعزيزات المصرية في عسقلان ، أضر بمكانة الخلافة الفاطمية. بيد أنه كان بمقدور مصر تعويض جيش فقده في معركة ، فلم يكن هناك مفر في أن يسرع الوزير الأفضل قدر استطاعته في الانتقام من الهزيمة واسترجاع فلسطين ، لاسيما وأنه هو نفسه أرمني مولود في عكا ويحكم مصر باسم الخليفة الفاطمي الصغير (الأمر) ؛ وهكذا ظل الأسطول المصري على اتصال بالمدن الإسلامية الساحلية في فلسطين<sup>(٢٤)</sup> .

أما الخليفة العباسي الشاب المستظهر بالله العباسي ، والذي يعتز ندا لنفليته الفاطمي، فكان قابعا في الفل في بغداد لا ينفذ له أمر من الأمور إلا بعد موافقة السلطان السلجوقي بركيارق أكبر أبناء ملك شاه العفليم ، وإن كان دون أبيه قوة واقتدارا ؛ ودائما ما كان إخوة السلطان السلجوقي يتمردون عليه ، فاضطروه إلى أن يهب أخاه الأصغر سنقر ، مقاطعة عراسان ، وغلل منذ عام ١٠٩٩م في حرب دائمة مع أخيه محمد الذي تمكن أخيرا من الفوز بمقاطعة العراق . وهكذا بقى بركيارق في انشغال دائم يحول بينه وبين أن يكون حليفا نافعا في الكفاح ضد المسيحيين .

وكان زعيم أصغر فرع في الأسرة الحاكمة السلجوقية ، وهو قلعج أرسلان الأناضولي، والذي خلع على نفسه لقب سلطان ، في وضع أفضل قليلا من ابن عمه في

(٢٤) Wiet, *L'Égypte Musulmane*, pp. 260 ff. أنظر

العراق آنذاك. وكانت الحملة الصليبية الأولى قد انتزعت منه عاصمته نيقية مع جُل ثروته في معركة دوريليوم؛ كما استردت بيزنطة أغلب الأراضي التي كان يسيطر عليها؛ وكان على خلاف مع سلاجقة الشرق إذ رفض الاعتراف بسيادتهم. على أن المهاجرين التركمان الوافدين إلى الأناضول وفروا له الوسيلة التي أعاد بها بناء جيشه، وأصبحوا شعبه الذي يفوق عدد المسيحيين<sup>(٢٥)</sup>. على أن الإمارة الأكثر نشاطاً في شمال شرق الأناضول كانت إمارة الدانشمند في سيواس وعلى رأسها الأمير أنوشكين الذي أطبقت شهرته الآفاق لإيقاعه بوهيموند في الأسر، وكان أول قائد مسلم يحرز النصر على جيش من فرسان الفرنج، وما فتئت قوته تتزايد بحسب المهاجرين التركمان<sup>(٢٦)</sup>.

وكانت هناك عدة إمارات أرمنية تفصل بين أتراك الأناضول والدولتين الفرغيتين في شمال سوريا؛ فكان أوشين يسيطر على أواسط جبال طوروس، وأمراء بيت رومين يسيطرون على المنطقة الواقعة إلى الشرق منه، وكواسيل في جبال طوروس المقابلة، وثاتول في مرعش، وجيرايل في ملطية. وكان كل من ثاتول وجيرايل من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، ومن ثم اتجهت ميولهما إلى بيزنطة، وكان كلاهما يركز من الناحية القانونية على ما خلعه الإمبراطور على كل منهما من القاب. وأما أمراء بيت رومين، الذين انفردوا بنجاحهم في إنشاء دولة كتب لها الدوام، فكانوا على عدائهم التقليدي لكل من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية<sup>(٢٧)</sup>.

#### بيزنطة

كانت بيزنطة أكثر القوى المسيحية الخارجية اهتماماً بشؤون سوريا. وكان الإمبراطور الكيسوس معتلياً عرش الإمبراطورية لما يقرب من عشرين سنة. وقد تسلم الإمبراطورية بآدء الأمر وهي في أشد حالات تدهورها، فراح يعيد بناءها على دعائم

(٢٥) أنظر مقال "سلاجقة" و "قنج أرسلان" في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢٦) For the Danishmendids, see Mukrimin Halil, article 'Danishmend', in *Islam Ansiklopedisi*.

(٢٧) فريد من الإطلاع على الخلفية الأرمنية أنظر: Tournebize, *Histoire Politiqueet Religieuse d'Arménie*, الجزء الأول، صفحة ٢٤٥ وما بعدها.

راسخة بما عرف عنه من دبلوماسية وإدارة إقتصادية ماهرة ومعاملة حسنة لرعاياه ، بل ولأنداده داخل وخارج الإمبراطورية على السواء ؛ فاستغل الحركة الصليبية لإسزجاع غربى آسيا الصغرى من الأتراك ، وأعاد تنظيم أسطول له فسيطر به على السواحل . وكان لبيزنطة مكانتها التقليدية العظيمة فى أرجاء الشرق حتى وهى فى أشد درجات تدهورها ؛ فهى الإمبراطورية الرومانية بتاريخها الذى تشمله ورايها بألف سنة ؛ والجميع يعترف بالإمبراطور وليس للعالم المسيحى مهما بلغت كراهية رفاقه المسيحيين لسياسته أو حتى لجشعه ؛ والقسطنطينية أكثر مدن العالم أخذاً بالألبياب لكثرة سكانها ونشاطهم ، ولضخامة ثروتها، وتحصيناتها المنيرة . وكانت القوات البيزنطية المسلحة تنفرد بأنها الأحسن تجهيزاً فى زمانها ؛ كما تنفرد بحملة الصلحوس الذهبية ، (هيريرون Hyperpyron) التى تسمى بيزانت بأنها العملة الوحيدة المضمونة فى احتساب المبادلات الدولية لوقت طويل ، وكان قسطنطين العظيم هو الذى ثبت قيمتها . وكان لبيزنطة أن تلعب دوراً مسيطراً فى السياسات الشرقية لما يقرب من قرن من الزمان أمامها . على أن ما حققته بيزنطة من شتى ضروب النجاح كان يرجع فى حقيقة الأمر إلى ما كان يتصف به رجالها من ذكاء متقد، وإلى اسمها الرومانى ، أكثر مما يرجع إلى قوتها الحقيقية ؛ فقد دمرت الغزوات التركية نظام الأناضول الإقتصادى والاجتماعى الذى كانت الإمبراطورية تعتمد عليه جُل اعتمادها لتلبية احتياجاتها من الجنود والغذاء ؛ ورغم إمكان استرداد الأرض ، يكاد يستحيل إسزجاع النظام السابق . والآن أصبح الجيش كله تقريباً من المرتزقة ، ولذا فهو باهظ التكاليف وليس فى الإمكان كذلك الاعتماد عليه ؛ فإذا كان من الجائز الإطمئنان إلى استتجار المرتزقة الأتراك من البنداق للتعدي للفرنجة أو للسلافين ، فليس فى الإمكان وضعهم موضع الثقة أمام أتراك آسيا؛ كما أن المرتزقة من الفرنج لن يحاربوا وفاقهم الفرنج طواعية . وكان الكيسوس قد لجأ فى مستهل حكمه لجوء المضطر إلى شراء المساعدة من البنادقة على أن يمنحهم امتيازات تجارية برغم ما لحق رعاياه من أضرار ؛ ثم أتبع ذلك بمنح امتيازات للمدبنتين البحريتين جنوا وبيزا ، ومن ثم بدأت تجارة الإمبراطورية تنتقل إلى الغرباء . وبعد ذلك بقليل اضطرت حاجته إلى السيولة المالية إلى التلاعب فى العملة ، فأمر بضرب قطع من العملات الذهبية التى يقل محتواها الذهبى عما كان عليه من قبل ، فاختلت الثقة فى البيزانت ، وفى الحال أصغر عملاء الإمبراطورية على أن يتقاضوا مستحقاتهم بعملة "الميكائيليات" التى ضربت فى عهد الإمبراطور ميخائيل السابع ، وكانت آخر العملات التى اشتهرت بأنها الجديرة بالثقة .

وكانت أول اهتمامات الإمبراطور توفير الرفاهية لإمبراطوريته . ولقد رحب بالحملة الصليبية الأولى ، وكان مهياً للتعاون مع زعمائها ؛ لكن طموحات بوهيموند وخيائته في أنطاكية صدمته وأغضبه ، وبانت أولى رغباته إسزجاع أنطاكية والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى . وكان تعاونه مع الصليبيين قد وصل إلى نهايته بانتقالهم جنوباً إلى فلسطين . وأما السياسة البيزنطية التقليدية طوال القرن السابق فكانت التحالف مع الفاطميين في مصر ضد السنين العباسيين والأتراك ؛ فكانت معاملة الفاطميين للمسيحيين الشرقيين تتميز بالرفق والعطف ، عدا فترة حكم الخليفة الحاكم المقتدر ؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو الكسوس إلى افتراض أن حكم الفرنج للمسيحيين الشرقيين سيكون أفضل من حكم الفاطميين ، وبذا تأى بنفسه عن المسيرة الفرنجية التي تستهدف القدس . بيد أنه لم يكن بوسعهم ، وهو باعتباره راعياً للأرثوذكس ، أن يتجاهل مصير القدس . وإذا كان مقدراً للمملكة الفرنجية البقاء ، فيكون لزاماً عليه أن يتخذ من الخطوات ما يكفل له تأكيد حقوقه ؛ وهو على استعداد لأن يظهر للفرنج في فلسطين ما يدل على حسن نواياه، لكن مساعداته الإيجابية سوف تقتصر على مساعدتهم في فتح الطرق العابرة لآسيا الصغرى . وأما مشاعره حيال النورمانديين في أنطاكية فكانت العداء لا غير ، وقد اتضح فيما بعد أنه عدوهم الخطر . ولا يبدو أنه كان يبنى النفس باستعادة الرها، وربما تحقق من فائدة الكونتية الفرنجية بوضعها كمخفر متقدم في مواجهة العالم الإسلامي<sup>(٢٨)</sup>.

#### مشاكل بالدوين

ولقد برز عنصر جديد في السياسات الشرقية بتدخل المدن التجارية الإيطالية التي تخلفت عن الانضمام إلى الحملة الصليبية إلى أن أيقنت من أنها تبشر بالنجاح ؛ فعندئذ راحت بيزا والبندقية وحنوا ترسل الأساطيل إلى الشرق ، واعدة بتقديم المساعدة للصليبيين نظير حصولها على منشآت في أمة مدينة تشارك في غزوها . ورحب الصليبيون بذلك ؛ فيكاد يستحيل إخضاع المدن الساحلية الإسلامية بغير القوة البحرية، فضلاً عن أن السفن ستؤمن لهم سرعة الاتصال بأوروبا الغربية بدلا من الرحلة الطويلة

(٢٨) للإطلاع على وضع برنطة وسياسة الكسوس ، أنظر المجلد الأول في أماكنها المختلفة .

على اليابسة . على أن ما كانت تطلبه تلك المدن من امتيازات وتحصيل عليه لم يكن يعنى سوى أن تفقد حكومات الفرنج في الشرق الكثير من الإيرادات الهامة<sup>(٢٩)</sup> .

ولم تكن تعقدات الوضع الدولي من حول الملك بالدوين تبشره بالتفاؤل . فإما أن حلفاءه تعوزهم الحماسة أو أنهم مجبولون على الجشع ، فلا تشغلهم سوى الأنانية . فكان يستعين بتشتت أعدائه ؛ ولو أن العالم الإسلامي وجد زعيما يجمع شمله ، لتضاءلت فرصة البقاء أمام الدويلات الفرنجية في الشرق . وفي ذات الوقت لم يكن مع بالدوين سوى قلة قليلة من الأنصار في أرض مناعها محيت ، كانت على مر القرون ساحة للإقتتال بين الأمم . ولقد استبشر لنا علم بأن هناك حملات صليبية جديدة انطلقت فعلا من الغرب .

(٢٩) بريد آحسن موجز للطور الذي لعبه الإيطاليون في: Heyd, *Histoire du Commerce du Levant* vol. i, pp. 131 ff.





---

## الفصل الثانى:

### الحملة الصليبية

سنة ١١٠١م



## الحملات الصليبية سنة ١١٠١م

"قَالُوا لَا تَصْنَعُ"

(رؤيا: ٦ . ١٧)

وصل نيا استعادة المسيحيين لبيت المقدس إلى أوروبا الغربية في أواخر صيف ١٠٩٩ م ؛ فأنار في القلوب الحماس والبهجة . وتوقف المؤرخون في أرجاء أوروبا عن تناول الأحداث المحلية ليجعلوا تلك الرحمة العظيمة التي أنزلها الرب بهم . وكان البابا إيربان قد مات قبل أن يعلم بذلك البابا ؛ لكن أصدقائه ومساعديه في جميع الكنائس راحوا يمجّدون الرب لنجاح سياسته . وعاد كثير من زعماء الصليبيين خلال الشتاء التالي إلى أوطانهم ومعهم رجالهم . ولا شك في أن الجنود - كدأبهم - بالغوا في وصف ما اعترضهم من مصاعب و تصوير روعة الأراضي التي اجتازوها ، واحتلقوا الكثير من معجزات السماء ليشدوا من أزرهم . على أنهم جميعا أعلنوا عن أن الحالة في الشرق تحتاج إلى محاربيين و مستعمرين لمواصلة "عمل الرب" ، وأن الثروات والضياع الضخمة تنتظر من يفوز بها من المغامرين . وراحوا يشجعون حملة صليبية جديدة

بمنحها دعاة الكنيسة بركاتهم<sup>(١)</sup>.

على أن الحملة التالية لم تشرع في الرحيل إلا في بداية خريف ١١٠٠ م ، فلم يكن السفر مناسباً في أشهر الشتاء، وكان الحصاد ينتظر من يجمه . وفي سبتمبر عام ١١٠٠ م غادرت الحملة الصليبية اللومباردية إيطاليا إلى الشرق ، وعلى رأسها أبرز الشخصيات اللومباردية آنسلم (كونت بويه) رئيس أساقفة ميلانو وبصحبته ألبرت كونت بياندرات، وحيرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتيللو . ولم يكن لأبناء لومبارديا في الحملة الصليبية الأولى دور بارز ؛ فخلال الأشهر الأولى من تلك الحملة رحل الكثير منهم شرقاً وانضموا إلى بطرس الناسك ، لكنهم أسهموا في دمنار حملته لتأمرهم مع رفاقه الألمان ضد الفرنسيين ، ومن بقي منهم على قيد الحياة انضم إلى بوهيموند ، الذي علا نجمه فوق زعماء الصليبيين جميعاً نتيجة لذلك . وكانت الحملة الراهنة أكثر تنظيماً بقليل . وكان فيها قلة قليلة من الجنود المدربين ، وتتألف أساساً من رعايا جاءوا من الأحياء الفقيرة في المدن اللومباردية ، بعد أن اضطربت معيشتهم لانتشار الصناعة في المقاطعة ولم يكن لهم محلا فيها . وصحبهم أعداد كبيرة من رجال الدين والنساء والأطفال . وكانت حملة ضخمة الحشود يقدر المؤرخ ألبرت كونت آيكس عدد أفرادها بمائتي ألف شخص ، إلا أنه ينبغي أن نقسم هذا العدد على عشرة على الأقل . ولم يكن هناك سبيل لأن يسيطر أحد على هذا الحشد ، سواء أكان رئيس الأساقفة ، أم كونت بياندرات الذي كان يعتبر القائد العسكري للحملة<sup>(٢)</sup>.

#### ١١٠٠ م اللومبارديون يتجمعون

وفي خريف ١١٠٠ م ، شرع اللومبارديون في مسيرتهم متمهلين ، عبر كارنيولا أسفل وادي نهر ساف وعلال أراضي ملك هنجاريا ، ودخلوا الامبراطورية البيزنطية عند بلحراد ؛ وكان الكسيوس مهيباً للتعامل معهم . فسار جنود حراسته معهم عبر البلقان . وكانوا كثرة يتعذر توزيع الإمدادات عليهم ومراقبتهم وهم في معسكر واحد؛

(١) أنظر مثلاً خطاب البابا باسكال الوارد في Migne, Patrologia Latina, vol. CLXIII, cols. 42. II. وكان يعتقد في الشرق أنه إذا لم تصل تعريجات فقد تعين إخلاء الأراضي المفتوحة De Translatione S. Nicolai in R. H. C. Occ. vol. v, p. 271.

(٢) Albert of Aix, VIII, I, p. 559; Anna Comnena, XI, viii, I, vol. III, p. 36. كومنينا "تورساندين تحت قيادة أخوين باسم (Phlastras)

فقرر تقسيم الحملة إلى ثلاث مجموعات : الأولى مخضى الشتاء في معسكر خارج مدينة فيلوبوبوليس ، والثانية خارج أدرينوبل (أدرنة) ، والثالثة على مشارف مدينة رودوستو. وحتى مع هذه التحزلة استعالت السيطرة عليهم لما كانوا عليه من فوضى عارمة ؛ إذ راحت كل مجموعة تغير على المناطق المحيطة بمعسكرها ، تنهب القرى وتقتحم مخازن الغلال ، وتسرق الكنائس . وفي نهاية الأمر جمعهم الامبراطور في شهر مارس في معسكر واحد خارج أسوار القسطنطينية منتوياً نقلهم إلى آسيا بغاية السرعة ؛ لكنهم علموا بخروج صليبين آخرين للحاق بهم ، فرفضوا عيور مضيق اليوسفور إلى آسيا إلى أن تصل تلك التعزيزات . فقطعت عنهم السلطات الامبراطورية المسون لإجبارهم على التحرك ، فما كان منهم إلا أن بادروا بهاجمة أسوار المدينة وشقوا طريقهم إلى فناء قصر (بلاشينا) الامبراطوري حيث قتلوا أسداً أليفاً من أسود الامبراطور وحاولوا فتح بوابات القصر . وكان رئيس أساقفة ميلانو وكونت بياندرات في ضيافة الامبراطور الكريمة ، فارتاعا لما حدث ، وانفجعا خارجين إلى وسط الحشود المشاغبة ونجعا أخيراً في إقناعها بالعودة إلى المعسكر ؛ ثم كان عليهما أن يواجها مهمة تهدئة الامبراطور<sup>(٣)</sup>.

غير أن الذي تأتى له أن يصنع السلام هو ريموند (كونت تولوز) الذي كان بمضى فصل الشتاء في ضيافة الامبراطور ، بعد أن فاز بثقته الكاملة . وكان ذا شهرة عظيمة لأنه أقدم أمراء الصليبيين جميعاً ، وكان صديقاً للبابا إيربان والأسقف أدمار ، فأصغى له اللومبارديون ووافقوا على الأخذ بنصيحته والانتقال إلى آسيا. وبنهاية شهر أبريل كانوا قد استقروا في معسكر بالقرب من نيكوميديا انتظاراً لوصول الصليبيين الجدد من الغرب<sup>(٤)</sup>.

#### ١١٠١ م : اللومبارديون والفرنسيون في القسطنطينية

ولم يطل النسيان أبداً فرار ستيفن كونت (بلوا) من أنطاكية ، لأنه لم يغبو بقسمه

(٣) . Albert of Aix, VIII, 2-5, pp. 559-62; Orderic Vitalis, x, 19, vol. IV, P. 120 .  
أثيرت القصة قتالا إن الإمبراطور استعدهم أسوده ضد الصليبيين.

(٤) . Albert of Aix, VIII, 7, p. 563; Anna Comnena, XI, viii, 2 vol. III, pp. 36-7.  
ريموند كان بموزته ما يسمى (الرميح المقدس) تُنظر Runciman, *The Holy Lance found at Antioch*, in *Analecta Bollandiana*, vol. LXVIII, pp. 205-6.

الصلبي، وأظهر الجبن في وجه الأعداء . ولذا كانت زوجته الكونتيسة أدبلا، إنسة وليم الغازي ، تنصهرها مرارة الحجل منه . فلم تكن تكف ، حتى حينما انفردا معا في مخدعهما ، عن توبيخه كي ينهب لإسداد سمته . ولم يكن يوسع التفزع بأن الكونتية في احتياج اليه . إذ أن زوجته كانت دائما الحاكم الفعلي للكونتية . ونال منه الضجر وملكته لمواجس الشريرة ، فانطلق إلى الأراضي المقدسة مرة أخرى في ربيع ١١٠١م<sup>(٥)</sup>.

وانتشر نيا اعتزامه الخروج، وبدأ فرسان كثيرون يعدون العدة لمصاحبته إلى أن خرجوا معه تحت قيادة ستيفن كونت برجاندي ، وهيو كونت بروي ، وبالدوين كونت حراندبريه ، وهيو كونت بيرفوند (أسقف سواسن) . وارتحلوا جنبا خلال إيطاليا ثم عبروا البحر الأدرياتيكي ، ووصلوا القسطنطينية في أوائل مايو تقريبا. وفي مكان ما أثناء الرحلة أدركتهم فرقة للمائة صغيرة يرأسها كونراد الذي كان كونستابل الامبراطور هنري الرابع<sup>(٦)</sup>.

وانتهج الصليبيون الفرنسيون لروية ريموند في القسطنطينية ، وزادت بهجتهم بعد أن استقبلهم الامبراطور . وربما بإيحاء من الكسيوس ، قرروا تنصيب ريموند قائدا للحملة كلها؛ ولم يكن يوسع اللوميلرد بين سوى الإذعان . وفي الأيام الأخيرة من شهر مايو تحرك الجيش كله من نيكوميديا في طريقه إلى دوريليوم ، وكان يتألف من فرنسيين ، وألمان ، ولومبارديين ، وبعض البيزنطيين بقيادة تسيتس ، الذي كان معه خمسمائة من المرتزقة الأتراك - وربما كانوا من البشنج.

واستهدفت الحملة الوصول إلى الأراضي المقدسة وأن تعيد ، في طريقها ، فتح الطرق التي تخترق آسيا الصغرى في ، وهو هدف ثانوي أيده الامبراطور تأييدا تاما . ولذا أوصى ستيفن (كونت بلوا) أن تسلك الحملة طريق الحملة الصليبية الأولى من خلال دوريليوم وقونية . ووافق ريموند على نصيحته لأنها تتفق والتعليمات التي تلقاها من الامبراطور. لكن النورمانديين الذين يشكلون أغلب الجيش كان لهم رأي آخر، فبرهيموند هو بطلهم ، وليس هناك غيره ممن يثقون في قدرته على قيادتهم إلى النصر ؛ لكنه أسير لدى أمير الدانشمند في قلعة نقصار الواقعة على مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقي من الأناضول ، فأصروا على أن تكون مهمتهم الأولى هي إنقاذ برهيموند ، ولم

(٥) Orderic Vitalis, x, 19, vol. iv, p. 119.

(٦) Albert of Aix, VIII, 6, pp. 256-3; Orderic Vitalis, loc. cit.

تجد اعتراضات ريموند وستيفن أذنا صاغية ؛ فما يشعر به ريموند من غيرة حيال بوهيموند كان معروفا جيدا ، كما أن ريموند - برغم مزاجه - لم يظهر أبدا بمظهر القائد الذي يأمر فيطاع . وأما ستيفن ، فقد تسبب حينه السابق في أنطاكية في القضاء على ما تبقى له من نفوذ . وهكذا انتصر رأي اللومباردين بعدما أبدى كونت بياندرات ورئيس أساقفة ميلانو<sup>(٧)</sup> . وانصرف الجيش شرقا من نيكوميديا وبمس وجهه شطر أنقرة . وكانت البلاد في أغلبها تحت السيطرة البيزنطية ، ولذا لم يجد الصليبيون صعوبة في الحصول على الغذاء من أي مكان، فيما عدا أنقرة نفسها التي تتبع الآن السلطان السلجوقي قلع أرسلان . وعندما وصلوها يوم ٢٣ يونيو وجدوا تحصيناتها ضعيفة فهاجموها واستولوا عليها ، وسلموها لممثل الامبراطور ، فكان ذلك تصرفا حكيما.

#### ١١٠١ م : معركة مرسيفان

غادر الصليبيون أنقرة باتجاه الشمال الشرقي عبر الطريق الذاهب إلى جنحرة الواقعة إلى الجنوب من بفلاجونيا كي يصلوا إلى الطريق الرئيسي المؤدى إلى أماسيا ونيقصار . على أن متاعبهم بدأت ولما وصلوا إلى جنحرة ، إذ كان قلع أرسلان يتقهر أمامهم محريا البلاد ليمنع عنهم الطعام . وفي ذات الوقت شعر الملك غازي الدانشمند بالخطر فبادر بتحديد تحالفه مع قلع أرسلان ، وأرسل إلى رضوان الحلبي يستحثه على إرسال التعزيزات . وفي أوائل يولييه وصل الصليبيون إلى جنحرة حيث كان السلاحقة ينتظرونهم بأعداد ضخمة في الحصن المنيع ، واضطر الصليبيون إلى الرحيل بعد أن نهوا البلاد واستولوا على ما فيها من طعام ، ثم نال منهم الجوع والتعب ، وهم الذين لا قبل لهم بحرارة يولية اشرفة في هضبة الأناضول . وبين مشاعر اليأس وخيبة الأمل أخذوا بنصيحة الكونت ريموند بأن لا سبل إلى إنقاذ الجيش من كارثة محققة إلا بالسير شمالا باتجاه كستموني ، ومنها إلى أية مدينة بيزنطية على ساحل البحر الأسود . ولم يساور ريموند شك في أن الامبراطور سيفقر له مخالفته لتعليماته بعد أن استعاد له القلعين العظيمين : أنقرة وكستموني ، لاسيما أن الأخيرة (كاسترا كومنون - أي قلعة كومنين) هي موطن الأسرة الامبراطورية من قبل.

(٧) Albert of Aix, VIII, 7, pp. 563-4 يقول إن قرار السير شرقا هو قرار اللومباردين.



ومضت الرحلة إلى كستمونى بطيئة مؤلمة . فالقاء فى تناقص ، والأتراك يدمرون المحاصيل أثناء تحركهم السريع فى صفوف متوازية ، يناوشون طليعة الصليبيين تارة ومؤخرتهم تارة أخرى . ولم يمض وقت طويل حتى هاجم الأتراك فجأة حرس الطليعة الذى كان يتألف من سبعمائة فارس من اللومباردين فضلاً عن المشاة فلاذ الفرسان اللومبارديون بالفرار تاركين المشاة للقتل والتكبيد . وبجهد جهيد تمكن ستيفن (كونت برحتدى) من جمع شتات الطليعة لصد هجوم الأعداء . وخلال الأيام التى تلت تكررو اشتباك ريموند فى المؤخرة مع الأتراك ، مما أجبر الجيش كله على أن يتحرك فى حشد واحد ، فامتنع إرسال الكشافين أو فرق البحث عن المؤن . وبوصول الجيش إلى كستمون بدأ واضحا للقادة أن فرصة النجاة الوحيدة هى الإندفاع مباشرة بقدر الإمكان فى اتجاه الساحل ، على أن النورماندين رفضوا مرة أخرى الاستجابة لنداء العقل ، ولعلمهم ألقوا باللوم كله على ريموند لإختياره طريق كستمونى مما فيه من مصاعب ، وربما ظنوا أن الأمور ستسير على ما يرام بتفويضهم من أراضي السلاجقة إلى أراضي الدانشمند ، وانتهى بهم الأمر إلى إصرار أحقق على التوجه إلى الشرق مرة أخرى ، ولم يكن للأمرأ من حيلة سوى الرضوخ لإصرارهم ؛ إذ أن انفصالهم بفرقتهم الصغيرة عن الجيش الرئيسى يعنى ضياعا محققا . وتحركت الحملة الصليبية وعبرت نهر هاليس فصارت فى أراضي الدانشمند . وفى الطريق تلبسهم شيطان النهب والسلب ، فنهبوا قرية مسيحية قبل وصولهم إلى مدينة مرسيفان الواقعة فى منتصف الطريق بين النهر وأماسيا ، وهناك وقع الكونستابل كونيارد فى كمين ففقد عدة مشات من جنوده الألمان وبات جلياً الآن أن الدانشمند وحلفائهم يتجمعون فى حشود ضخمة استعدادا لهجوم جاد ، فراح ريموند ينظم صفوف الجيش المسيحي استعدادا للمعركة<sup>(٨)</sup>.

وبدأ الأتراك أسلوبيهم المفضل فى الحرب : ينقض الرماة ويطلقون سهامهم وينسحبون بسرعة ليظهر رماة آخرون من اتجاه آخر . ولم تنهياً للصليبيين فرصة نزال رجل لرجل بحيث تظهر ميزات قوتهم البدنية الأكبر وأسلحتهم الأفضل . وسرعان ما

(٨) Albert of Aix, VIII, 8-14, pp. 564-7. الجيش إلى كستمونى وليس هذا مقعاً. Anna, loc. cit. تذكر أنها كومتينا نهب القرية المسيحية ما حدده Tomaschak من أن "Mareschi" التى ذكرها Albert هي Amasea Topographie von Merzifun or Mersivan. (88) Kleinasiens, p. 88. أى فرنسي جعل أن يغير بسهولة Mersivan إلى Maresian or Marescan والأخيرة هي الشكل الفرنسي لـ Marash ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن وضع حرف 'r' فى Amasya ، وهي الاسم الذى لـ Amasea أو Masa العربية.

انهيار اللومبارديون ، ودب الرعب فى قلوبهم وهم يولون الأدبار يسبقهم قائلهم كونت بياندرات تاركين وراءهم نساءهم وقساوتهم ، وفى الحال لحق بهم المرتزقة من البشنج الذين لم يجدوا أى ممر لانتظار موت محقق . وصار ريموند وحيدا بعد أن هجره رفاقه ، فتقهقر مع حرسه الخاص إلى تل صخري صغير وراح يقاوم إلى أن تمكن ستيفن كونت بلوا وستيفن كونت برجاندى من إنقاذه . وارتد الفرسان الفرنسيون وكونراد الألماني إلى المعسكر حيث قارموا بشجاعة طوال النصف الثاني من النهار . وبحلول الليل وجد ريموند أن لا طاقة له بمزيد من القتال ، فهرب متخفيا تحت جتح الظلام مع حرسه الخاص (البروفانس) والغرس البيزنطى ، وبم وجهه شطر الساحل . ولما علم رفاقه بفراره كفوا عن القتال ؛ وشهد انيلاج الصباح تسابق من ثما من الجيش تاركين المعسكر يستولى عليه الأتراك بمن فيه من غير المحاربين.

ومهل الأتراك فى المعسكر ليقنطوا الرجال والمسنين ، ثم انطلقوا يتعقبون الفارين وقد أخذ الحمل مناهم كل مأخذ ، ولم يفلت من سيوفهم سوى الفرسان على خيولهم ، ولم يبق من اللومبارديين المعاندين الذين تسببوا فى الكارثة سوى قادتهم . وهكذا فقد الجيش أربعة أحماسه ، وفاز الأتراك بكثير الكثير من نفيس الثروة والأسلحة ، وامتلأت أجنحة الحرير وأسواق الرقيق فى الشرق يومئذ بالأسرى من الصبايا والأطفال<sup>(٩)</sup>.

وأفلح ريموند وحرسه فى الوصول إلى ميناء بافرا البيزنطى الصغير على مصب نهر هاليس حيث وجدوا سفينة أبحرت بهم إلى القسطنطينية ؛ وأما الفرسان الآخرون فقد شقوا طريق عودتهم عبر النهر حتى الساحل عند سينوب على البحر الأسود ، حيث واصلوا سيرهم البطئ على الطريق الساحلى وسط الأراضى البيزنطية وحتى البوسفور ثم تجمعوا مرة أخرى فى القسطنطينية فى باكورة الخريف<sup>(١٠)</sup>.

#### ١١٠١ م نتائج معركة مرسيفان

حاول رأى العام الصليبي أن يجد كبش فداء يلقى عليه بمسؤولية الكارثة ، فوجده فى بيزنطة ؛ إذ قيل إن ريموند بقيادته للجيش فى غير طريقه ، ليهلك فى كمين

(٩) Albert of Aix, VIII, 14-23, pp. 567-73. وتلق رواية كورت مع الرواية المختصة فى روتها أنا كومينا فى 37-8, pp. 37-8, vol. iii, xi, viii, 3.

(١٠) Albert of Aix, viii, 24, p. 274.

متفق عليه سلفاً ، إنما كان ينفذ تعليمات الامبراطور . لكن الحقيقة هي أن الامبراطور غاضب الآن على ريموند ورفاقه برغم استقباله لهم بأدب يشوبه سرود لا يتنسى إمتعاضه<sup>(١١)</sup> ، وكان حرباً به أن يغفر لهم لو أن الحملة الصليبية استزدت له كسبوني والجزء الداعلي من بغلاجونيا ؛ فقد كان متلهفاً على طريق مباشر مأمون إلى سوريا ، وراغباً في تأمين معاودة غزواته في جنوب غرب آسيا الصغرى ، وساعياً إلى التدخل في شؤون سوريا ، فضلاً عن عزوفه عن التورط في حرب مع الأمير الدانشمندى ، لاسيما أن المفاوضات جارية الآن لشراء بوهيموند ؛ وهكذا فشلت مخططاته بسبب حماقة اللومباردين ليس إلا . على أن الكارثة كانت لها آثارها الأخطر ؛ فالحملة الصليبية الأولى جسدت الأثر الكارثي من شهرتهم ومن ثقتهم بأنفسهم كذلك ، ولكن الأثر الآن استعادوا الشهرة والثقة بالنفس على السواء ، ويمكن السلطان السلجوقي من بسط سيطرته على أواسط الأناضول ، وسرعان ما أقام عاصمة ملكه في قونية الواقعة في قلب الطريق الرئيسي من القسطنطينية إلى سوريا ، بينما واصل الملك غازي الدانشمندى غزواته في وادي الفرات وحتى مشارف كونتية الرها<sup>(١٢)</sup> . وهكذا بات الطريق البري من أوروبا إلى سوريا مغلقاً في وجه البيزنطيين ، فضلاً عن الصليبيين . وعلاوة على ذلك ، ساءت العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة لإصرار الصليبيين على أن صانع بلاياهم هو الامبراطور ، بينما شعر البيزنطيون بالصدمة والغضب لغباء الصليبيين وحبودهم وعدائهم.

#### ١١٠١ م : الحملة الصليبية النفرسية

لم يمض وقت طويل حتى انضحت نتائج الكارثة . فبعد أيام قليلة من انطلاق اللومباردين من نيكوميديا ، كان جيش فرنسي قد وصل القسطنطينية وعلى رأسه وليم الثاني، كونت نفرس . وكان قد خرج من وطنه في فبراير ١١٠١ م ، مرتحلاً عبر إيطاليا ثم عبر البحر الأدرياتيكي من برنديزي إلى أفلونا . وترك جيشه انطباعاً رائعاً أثناء مسيرته عبر مقدونيا لما أبداه من انضباط ، واستقبل الامبراطور الكونت استقبالا حسناً ، ولكن الكونت قرر عدم البقاء في القسطنطينية ؛ وربما توقع أن ينضم في القسطنطينية إلى قوات كونت برجندي - وهو حواره في الوطن - ولذا أسرع في الرحيل قدر

(١١) Ibid., loc. cit. يقول إن ريموند راح يهدى من حفيظة الإمبراطور .

(١٢) Cahen, La Syrie du Nord, p.232; Michael the Syrian, iii, pp.189-191.

استطاعته أملا اللحاق به . وبوصوله نيكوميدا ، علم أن الصليبيين ذهبوا إلى أنقرة ، فوصلها في نهاية يولييه تقريبا . على أنه لم يكن هناك من يعرف مكان الجيش الفرنسي اللومباردي ؛ ولذلك عاد وليم متخذاً الطريق الذاهب إلى قونية . وبرغم ما لقيه الجيش في رحلته من مشاق في بلد لم يبرأ من الخراب منذ الحملة الصليبية الأولى ، فقد تقدم الجيش في نظام تام . وكانت قونية آنذاك في قبضة حامية سلجوقية قوية ، وباءت بالفشل محاولات وليم في الفتح على المدينة للاستيلاء عليها . وتحقق من أن الناصر هناك يمثل من الحكمة ، فواصل مسيرته . بيد أنه في تلك الأثناء علم قلع أرسلان والمملك غازي بظهور هذا العدو الجديد . وكان حماس الانتصار على اللومباردين ما يزال مشتتاً ، فأسرعا جنوباً رما خلال (قيصرية مزاكيا) و(نيجده) ، فوصلا هرقلية قبل وليم . وكان الجنود النفرسيون يسرون ببطء باتجاه الشرق من قونية ، وقد نفذ الطعام ، والآبار الموجودة على الطريق قد سدها الأتراك . ولدى اقترابهم من هرقلية ، وهم في حالة من شدة التعب والضعف ، وقعوا في كمين وأحاط بهم الجيش التركي الذي كان يفوقهم بأعداد الغفيرة . وانهارت مقاومتهم بعد قتال قصير . وسقطت القوة الفرنسية بكاملها في ميدان المعركة ، عدا الكونت وليم نفسه والقليل من الفرسان الراكبين الذين تمكنوا من احتراق خطوط الأتراك ، وبعد أن هاموا على وجوههم عدة أيام في جبال طوروس وصلوا قلعة جيرمانيكوبوليس البيزنطية ، الواقعة شمال غرب سلوقية الإيزورية . ويبدو أن الحاكم البيزنطي هناك أمددهم بقوة من اثني عشر جندياً مرتزقاً من البشنج لمرافقتهم حتى الحدود السورية . وبعد ذلك بأسابيع قليلة دخل الكونت وليم ورفاقه أنطاكية ، نصف عرايا وبلا سلاح، قائلين إن البشنج استلبوهم وتركوهم في الصحراء التي كانوا يعبرونها ؛ غير أن ما حدث في حقيقة الأمر لا يعلمه أحد<sup>(١٣)</sup> .

#### ١١٠٩ م : الحملة الصليبية الأكرتية

لم يكد كونت نفرس يعبر اليوسفور في طريقه إلى الأراضي المقدسة حتى وصل القسطنطينية جيش آخر أكبر يتألف من فرنسيين وألمان . وكانت الفصيلة الفرنسية بقيادة وليم التاسع ، دوق أكيثان ، الذي كان أشهر الشعراء الغنائيين في عصره (Troubadour)، والذي كان من الناحية السياسية غرباً مرمراً لريموند التولوزي ؛ إذ أن زوجته ، الدوقة فيليبيا ، هي ابنة الأخ الأكبر لريموند ، وكان لها أن ترث كونتيته . وجاء

(١٣) .Albert of Aix, viii, 25/33, pp. 576/8.

مع وليم التاسع هيو (كونت فيرمندوا) الذي كان قد ثقل عن الحملة الصليبية الأولى بعد الإستيلاء على أنطاكية ، وكان متلهفا على الرقاء بالعهد الذي قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . وانطلق الجيش الأكيثاني من فرنسا في شهر مارس في الطريق البري الذي يخترق جنوب ألمانيا وهنغاريا . وفي الطريق انضم إليه الدوق ويلف دوق بافاريا الذي أمضى حياة حافلة في ألمانيا، ثم أزمع أن يمضي مابقى له من سنوات الشيخوخة في الحرب من أجل الصليب في فلسطين . وأحضر معه جيشا مجهزا تجهيزا جيدا يتألف من فرسان وراجلين ؛ وكان بصحته نيمو ، رئيس أساقفة سالزبرج ، ومرحرفين إيدا النمساوية ، وكانت إحدى أجمل نساء عصرها؛ لكنها الآن وقد ولت شبابها سعت إلى مافى الحملة الصليبية من إشارة بشوبها الورع . وسار الجيشان المتحدان معا أسفل نهر الدانوب إلى بلجراد ثم سلكا الطريق الذي يخترق البلقان . وكان حشدا جاعا يغلب على سلوكه العبث الذي بلغ مداه بوصولهم ادرينوبل ؛ فأرسلت السلطات البيزنطية جنود التشنخج و الأتراك الروس (البولوفتسيان) لوقف أى تقدم آخر لهم . وبدأت معركة عادية ؛ ولم يسمح لهم بالتقدم إلا بعد أن تدخل الدوق وليم ومعه ويلف شخصا وتعهدا بانضباط سلوك الجند . ورافقهم حرس قوى حتى القسطنطينية ، حيث استقبل الكسبوس الكونت وليم ، وويلف ، ومارحرفين ، استقبالا حسنا، وكان قد أعد العدة لنقل وحافهم بأسرع ما يمكن عبر البوسفور . واستقل بعض الحجاج المدنيين سفينه أخذتهم مباشرة إلى فلسطين التي وصلوها بعد رحلة استغرقت سنة أسابيع، وكان بينهم المؤرخ إيكارد (كونت أورا) Ekkehard of Aura.

وكان بمقدور الدوقين اللحاق بوليم الثاني كونت (نفرس) وتقوية جيشيهما بالانضمام إلى قواته. لكن كونت نفرس كان يرغب في الانضمام إلى كونت برجندي ، وليس من المتوقع أن ينضم الدوق وليم إلى جيش يقوده عدوه القديم ريموند كونت تولوز . أما ويلف البافاري ، الذي كان عضوا قديما للإمبراطور هنري الرابع ، فرمما كانت المودة منعدمة بينه وبين كونراد ، الذي كان يعمل في خدمة هنري الرابع (كونستابل) . وأسرع كونت نفرس متقدما إلى أنقره ، بينما تربث الجيش الأكيثاني البافاري على ضفاف البوسفور خمسة أسابيع ، ثم تحرك متمهلا على طول الطريق الرئيسي الذاهب إلى دوريليوم وقونية . ووصل دوريليوم بعد أن غادرها الجيش النفري بأيام قليلة وابتعد كثيرا في طريق عودته باتجاه قونية . وبما زاد من صعوبات الأكيثانيين والبافاريين مرور جيش آخر على نفس الطريق قبل ذلك بأيام قليلة ، مستوليا على

القدر الضئيل الذي كان متاحا من إمدادات الطعام ، فألقى الصليبيون باللوم على البيزنطيين خاصة . وكشأن النفريين ، وحدوا الآبار حافة أو مسدودة فنهبوا مدينة فيلوميلوم بعد أن حرقوها أهلها . وكانت الحامية التركية ، التي صدت الجيش النفري في قونية ، قد هجرت المدينة قبل وصول هذا الجيش الأكبر آخذة معها كل شيء يؤكل ، ونزعت الثمار والفواكه من البساتين والحدائق جميعا ، فلم يجد الصليبيون ما يجددون به حيوتهم . وفي نفس تلك اللحظة تقريبا كان قلع أرسلان وملك غازي أمامهم على مسافة مائة ميل تقريبا يذبحون رجال نفري.

#### ١١٠٩ م : معركة هرقله

راح الصليبيون يكدحون في شق طريقهم من قونية خلال الصحراء نحو هرقله وقد نال منهم الجوع والعطش . وفلهر فرسان الأتراك من يمينهم ويسارهم ، يرشقونهم بسهامهم ، ويتصيدون فرق البحث عن الطعام والجماعات الشاردة . وفي أوائل سبتمبر دخلوا هرقله فوجدوها مهجورة مثل قونية . وكان النهر يتدفق بجواره وراء المدينة ، وهو أحد الأنهار القليلة ذات المياه الوفيرة طوال الصيف في الأناضول.

واندفع المحاربون المسيحيون نحو المياه التي بدت لهم مرتبة تاركين صفوفهم وقد أوشكوا على الجنون من قسوة الظمأ ، ولكن الجيش التركي كان محتبسا في الأحام الكثيفة على جانبي النهر . وبينما كان الصليبيون في صخبهم القوضي ، انقضَّ عليهم الجيش التركي وأحاط بهم ، ولا وقت هناك لإصلاح الصفوف ، فذبح الذعر في الجيش المسيحي واحتلظ الفرسان والمشاة في فرارهم مذعورين ، وأنشأ تعثرهم في محاولة الفرار راح العدو يعمل فيهم السيف . وتمكن دوق أكيان من شق طريقه على فرسه إلى الجبال يتبعه سائس الخيل ، وبقي هكذا هائما على وجهة أبياما عدة إلى أن عثر على طريق طرسوس . وخرج هو (كونت فيزمنتوا) حرجا بليغا في المعركة ، وتمكن بعض رجاله من إنقاذه وتمكن هو الآخر من الوصول إلى طرسوس ، لكنه كان رجلا ميتا ، إذ وافته المنية يوم ١٨ أكتوبر ودفن هناك في كنديالية القديس بطرس ، ولم يفر منه بعده الذي قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . ولم يقلح ويلف البافاري في النجاة إلا بعدما ألقى بدموعه كلها ، وبعد عدة أسابيع وصل إلى أنطاكية مع اثنين أو ثلاثة من خدمه . وأسير رئيس أساقفة ثيمو ، واستشهد في سبيل عقيدته . وأما مصير سارجرافين النمساوية فلا يعلمه أحد . وتقول الأساطير المتأخرة إنها أنهت أيامها -سيرة في



الروبيين ينشون بيزنطة أكثر مما ينشون الأتراك، فقد أُنْجِحت لهم فسحة من الوقت نافعة ؛ فما زال بوهيموند في الأسر المضي ، وانتَهز تنكريد - الوصي على أنطاكية - الفرصة بكاملها وراح يقوى الإمارة على حساب الامبراطور . وسرعان ما وضعت الأقدار في يده ورقة رابطة.

#### ١١٠٢م اعتقال الكونت ريموند

كان دوق أكيٲان ، وكونت بافاريا ، وكونت نفرس ، قد وصلوا فعلا مع القليلين الباقين على قيد الحياة إلى أنطاكية بحلول خريف ١١٠١ م . أما قادة الحملة الصليبية الفرنكولومباردية فكانوا لا يزالون في القسطنطينية . وكان من الصعب أن يفتقر لهم ألكسيوس حماقاتهم . حتى ريموند الذي كان يعلق عليه الآمال العراض غيب آماله هو الآخر . وفي نهاية العام قرر الأمراء الغربيون مواصلة رحلة الحج ؛ وطلب ريموند الإذن ليلحق بزوجه وحيشه في اللاذقية ، فأذن لهم الامبراطور وأمدهم بسفن أعمرت بهم إلى سوريا . وفي بداية العام تقريبا هبط إلى البر في ميناء السويدية مستيقن (كونت بلوا) ، وستيقن (كونت برجندى) ، والكونستابل كونراد ، وألبرت (كونت بياندرات) ، وأسرعوا إلى اللاذقية حيث رحب بهم تنكريد ترحيبا حارا أما سفينة الكونت ريموند فقد انفصلت عن باقي السفن واضطرت إلى الرسو في ميناء طرسوس . وما أن وصلت قدمه البر حتى تقدم منه فارس يدعى برنارو الغريب وألقى القبض عليه لحياته العالم المسيحي بقراره من ميدان القتال في مرسفان . ولم يكن بمقدور حرس ريموند الخاص أن يفعل شيئا لقله عدده ، فلم يتمكن من إنقاذه . واقتيد ريموند تحت الحراسة وسُلم لتنكريد<sup>(١٥)</sup>.

(١٥) Albert of Aix, viii, 42, pp. 582-3 . كان برنارو الغريب هو الأمر في طرسوس في سبتمبر ١١٠١م (انظر ادناه ص ٦٤) . وكما يفترض رادولف (Radulph of Caen) cxlv, p.708, من المحتمل أن يكون ريموند قد هبط إلى الساحل في لونغينادا ، أو ميناء طرسوس ، وليس في السويدية مع الصليبيين الآخرين كما يفترض كثير . أما ماثيو الأروغسي Matthew of Edessa, cxxii, p. 242 فيقول إن ريموند قد سُجن في (ساروانتالي) ، أي سارغيتيكاز في جبال طوروس . وليس ذلك محتملا.





### الفصل الثالث:

**أمراء أنطاكية  
النورمانديون**



## أمراء أنطاكية النورمانديون

"وهؤلاء كلهم يقتلون ضد أحكام قيصر"

(أعمال الرسل : ١٧ - ٧)

وبرغم انزعاج أمراء الفرنج ، على ما بدا آنذاك ، لخرجة يوهيموند ووقوعه أسيرا لدى الملك غازي الدانشمندي، إلا أن ذلك لم يكن يخلو من أحداث وجلوا فيها بعض عيوض ؛ فأنطاكية في حاجة إلى وصي عليها في غيبة يوهمند ، وكان تنكريد هو المرشح لمباشرة مهام الإمارة بدلا من خاله الأسير، وبذا تمكن الملك بلدوين من التخلص من أخطر أتباعه في فلسطين ، بينما أقبل تنكريد على أنطاكية تسبقه مشاعر البهجة ، ففيها الخلاص من وضع لا يخلو من حرج ، يفتقر فيه إلى الأمان ، وفيها أحوال جديدة تنسج فيها المجال ويتحقق الإستقلال . وعندما رحل عن فلسطين في شهر مارس ١١٠١م لم يكن لديه سوى شرط واحد : أن يستعيد إقطاعية الجليل التي سبق أن استولى عليها، في حالة إطلاق سراح خاله من الأسر خلال ثلاث سنوات وإذا لم تعد

أنطاكية في احتياح إليه . وهكذا بات بلدوين وتكريد كلاهما حريصا على بقاء بوهيموند أسيرا أطول فترة ممكنة ، ولم يبذلا أية محاولة للتفاوض مع أسرته<sup>(١)</sup> .

وتوخى تكريد الاستقامة في وصايته على أنطاكية . فلم يتخذ لنفسه لقب أمير أنطاكية وبرغم أنه سلك عملة - كما تقول الأسطورة في لغة يونانية رديئة - فلم تحمل هذه العملة سوى عبارة (خادم الرب) . وكان أحيانا يطلق على نفسه (الأمير الأكبر) ، ولو أن طموحاته أغرته بأكثر من ذلك لوجد معارضة من الرأي العام في أنطاكية على الأرجح، فما زال النورمانديون يعتبرون بوهمند قائدهم ، كما كان هناك صديق مخلص لبوهمند هو البطريرك اللاتيني "برنار الفالانسي" الذي عينه قبل الأسر مباشرة والذي من أحله طرد البطريرك اليوناني "جون الأوكريتي" . وسار تكريد على نفس السياسة التي كان يسير عليها بوهمند ، فراح يعزز الجوانب الداخلية في إدارة الإمارة ، ويضفي الصبغة اللاتينية على الكنيسة؛ وفي الشؤون الخارجية دأب على تحقيق الشراء على حساب البيزنطيين وأسماء المسلمين من جيرانه . على أن طموحاته المحلية فاسقت طموحات عماله، على عكس طموحات العمالية التي كانت أقل من طموحات عماله<sup>(٢)</sup> .

#### ١١٠١م تكريد وبيزنطة

وكان أول شاغل لتكريد هو توفير الحماية من أي هجوم بيزنطي . وقد ساعده ما منى به الصليبيون من كوارث عام ١١٠١ م ، فلا يستطيع الاسرطور - بعد النهضة القوية لأتراك الأناضول - أن يسير جيشا يمتاز شبه الجزيرة ويمضى مباشرة إلى الجنوب الشرقي البعيد . وكان تكريد يرى أن المحرم هو أفضل سبل الدفاع ، ولذا بعث في صيف ذلك العام - وربما فور أن سمع بأنباء مرسيفان - بالجنود إلى كيليكيا لاستعادة مامسرا وأضنة وطرسوس التي كان البيزنطيون قد استردوها قبل ذلك بثلاث سنوات . ولم تكن القوات البيزنطية المحلية من القوة بحيث تصمد لمقاومة قواته ، فكان له ما أراد .

(١) Fulcher of Chartres, I, vii, I, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8.

(٢) Schlumberger, *Les Principautés franques du Levant*, pp. 14-15. التي تظهره في أردية امبراطورية ، ومع ذلك توجد "كوفية" على رأسه . ومنقوش على العملة باللغة الإغريقية : "تكريد ، خادم الله" ، وعلى الوجه الآخر : IC XP NIKA (مثل العملات البيزنطية) . وطبقا لما ورد في *Historia Belli Sacri*, p. 228 لم يتأكد منصبه كحاكم إلى أن أقسم قسم الولاء لبوهمند وحلج عليه الوصاية المنسوب البابوي موريس أوف بورتو *Maurice of Porto*.

وعندما لجأ وليم كونت أكيثان وهو كونت فيرمندوا إلى طرسوس في نهاية سبتمبر كان برنار الغريب التابع لتكريد حاكما على المدينة<sup>(٣)</sup>.

وبعد ذلك تحول اهتمام تكريد إلى ميناء اللاذقية البيزنطى الذى كان النورمانديون يشتهون منذ زمن طويل . وكان ميناء هاتلا ، خاصة بعد مجيء جنود ريموند البروفانسيين من مقاطعة بروفانس الفرنسية مما أضاف قوة جديدة للميناء ، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى يوفر له الحماية بحرا، فلم يجرؤ تكريد على مهاجمة اللاذقية قبل أن يتفاوض مع مدينة جنوا الإيطالية ضمانا لمساعدة سفنها<sup>(٤)</sup>. فراح يحتل البلاد الداخلية ويحاول الإستيلاء على جبلة فى الجنوب . ولقد سبق أن حاول برهمند الإستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠٠م بمحملة صغيرة أسر فيها "الكونستابل" التابع له وهامت تلك الحملة بالفشل ؛ وكذلك فشل تكريد فى الإستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠١م . على أن حملة تكريد هذه الفاشلة دفعت قاضيها ابن صليحة إلى تسليم المدينة لأتابيج دمشق ، وتقاعد هو نفسه فى دمشق ليمضى شيخوخة هادئة . وأرسل أتابيج دمشق ، طغتكين ، ابنه بورى ليتولى حكم جبلة . لكنه كان مكروها ، فخلعه أبناء جبلة بعد أشهر قليلة ووضعوا أنفسهم تحت حماية بنى عمار فى طرابلس ، وسحب تكريد جنوده من المنطقة<sup>(٥)</sup>.

وقد مكّنه اعتقاله لريموند وحجزه فى أنطاكية من معاودة خطته للإستيلاء على اللاذقية . على أن تصرفه حيال ريموند كان بمثابة صدمة للطريق برنار ورفاقه الصليبيين . ونزولا على رغبتهم أطلق سراح ريموند ؛ على أنه كان لزاما أن يقسم ريموند أولا على عدم التدخل مطلقا فى شؤون سوريا الشمالية<sup>(٦)</sup>. وانطلق ريموند لغزو طرسوس ، وفى طريقه الذى يمر باللاذقية التزم بقسمه وأمر جنوده بإخلاء المدينة والانضمام إليه ومعهم زوجته الكونتيسة ، وهكذا ترك الحماية البيزنطية وحيدة دون مساعدة البروفانسيين . وفى ربيع ١١٠٢م زحف تكريد على اللاذقية ، لكن أسوارها المنيعه استعصت عليه وصدته حاميها ببسالة ، بينما كانت وحدات البحرية

(٣) Radulph of Caen, cxliii, p. 706; Albert of Aix, VIII, 40, p. 582; Orderic Vitlais, XXIII, p. 140.

(٤) Caffaro, Liberatio, p. 59; Ughelli, *Italia Sacra*, IV, pp. 847-8.

(٥) Ibn al-Qalanisi, Damascus, pp. 51-2.

(٦) Albert of Aix (VIII, 42, pp. 582-3) يقول إن ريموند أقسم ألا يغزو سوريا شمال عكا، وحيث لا اعتراض على هجومه على طرسوس فرما انصرف قسمه على البلاد الواقعة إلى الشمال من اللاذقية .

البيزنطية تزود الحامية بالمؤن ، واستمر الحصار لما يقرب من عام . وفي الأسابيع الأولى من ١١٠٣ م ، وبينما كان تنكريد ينتظر سفن جنوا التي استأجرها لقطع المواصلات بين اللاذقية وقبرص ، تدبر خدعة حربية لرجال الحامية خسارح أسوار المدينة ، وانقض عليهم وأوقعهم في الأسر ، فاستسلمت له المدينة<sup>(٧)</sup> .

#### ١١٠٢ م ضغينة الأسقف مناس

ولم يكن الامبراطور ألكسيوس ليرضى عن تلك التصرفات ؛ إذ أغضبه إبعاد بطريرق أنطاكية اليوناني جون الأوكسيني ، وطرد رجال الدين اليونانيين واستبدالهم بآخرين من اللاتينيين . وكان قد تسلم رسالة في ساكورة ١١٠٢ م من الملك بلدوين يرجوه فيها بذل ما لديه من جهد لمساعدة أية حملة صليبية تالية ، وذلك بعد أن سمع شائعة تقول إن البيزنطيين ساعدوا في شطيم الحملات الصليبية سنة ١١٠١ م بامتناعهم عن التعاون معها . وحمل رسالة بلدوين أسقف يدعى مناس كان قد ذهب إلى فلسطين مع إكارد في ١١٠١ م وكان عاكدا لثوه من القدس . ويبدو أن العبارات الرقيقة كانت تغلب على أسلوب الرسالة ، فضلا عما حملته الأسقف من هدايا بالديون ، فتأثر الامبراطور ألكسيوس وغلن أن بمقدوره مصارحة الأسقف بما بداخله من أحزان ، لكنه أخطأ الحكم على الرجل ؛ إذ كان الأسقف لاتينيا أكثر منه مسيحيا ، ولا تعاطف لديه إزاء اليونانيين ، ورجاه الامبراطور أن يذهب إلى إيطاليا ويبلغ البابا بما صارحه به ، ففعل الأسقف وإنما بطريقة أثارت غضب البابا على بيزنطة . ولو كان البابا إيربان الثاني على قيد الحياة ما وقع الضرر لما كان يتصف به من سعة الأفق وعزوف عن الدخول في خلافات مع العالم المسيحي الشرقي ؛ أما خلفه البابا باسكال الثاني فكان ضئيلا بجانب سلته ، منعدم البصيرة ، سهل الإنقياد . وسرعان ما وافق على وجهة النظر الفرغية المتبذلة من أن الامبراطور يتناصبهم العداء . ولم يجد الامبراطور سييلا للإنتصاف .

ثم حاول تنكريد التدخل في شؤون مملكة القدس . ففي ١١٠١ م نفى الملك بلدوين البطريرق دياميرت ، فرحب به تنكريد على الفور في أنطاكية حيث وضع كنيسة القديس جورج تحت تصرفه . وبعد أشهر قليلة انهزم الملك بلدوين أمام العرب في

(٧) Radulph of Caen, cxliv, pp. 708-9; Anna Comnena, IX, vii, 7, vol. III, p. 36.

الرملة ، فاستنجد بأمرأء الشمال ، لكن تنكريد رفض تقديم المساعدة ما لم يرجع الطريق دياميرت إلى القدس ويسزّد بطريقته ، فاضطر بلدوين إلى الموافقة ، وهنا ارتفعت شهرة تنكريد ، غير أنها خبت عندما أدين دياميرت في أحد المجالس الكنسية وتقرر طرده مرة أخرى ، فرحب به تنكريد مرة ثانية ، لكنه لم يواصل الدفاع عن قضيته .

#### ٢٠١١ م بلدوين الثاني يرهّن خطيته

و لم تلق تصرفات تنكريد استحساناً قط من جاره في الرها بلدوين أوف ليبورج. وأبو بلدوين، وهو هيو الأول كونت ريثيل، هو ابن أميرة من بولونيا، وهي عمّة جودفري كونت لورين والملك بلدوين . ولأن بلدوين الثاني هذا ابن هيو الأصغر ، ومن ثم مفلس ، فقد جاء إلى الشرق مع أبناء عمومته ، لكنه بقى مع بوهمند في أنطاكية وقت أن نصب بلدوين الأول نفسه في الرها، وكان يقوم بدور الوساطة والاتصال بين الأمرين ، فلما وقع بوهمند في الأسر تولى حكومة أنطاكية إلى أن استدعى بلدوين من الرها وأصبح ملك القدس ، وعندئذ خلع الملك بلدوين على ابن عمه ، بلدوين كونت ليبورج ، إقطاعية الرها ليحكمها حكماً ذاتياً تحت سيادة القدس. ولم يكن وضعه هذا الذي ورثه في الرها وضعاً سهلاً ؛ فليست لإمارة الرها حدود طبيعية ، وهي معرضة للغزو دائماً ، ولا يستقيم له حكم إلا بتعزيز المدن الرئيسية والحصون بالحاميات ، وإذن كان في احتياج إلى من يثق فيهم من القاطنين على خدمته ومن رفاقه ، لكنه يفتقر إلى رجال من أبناء جلدته ، فراح يعمل على توثيق عرى الود مع المسيحيين من أهل البلد . وكان أول عمل يقدم عليه حيال ذلك هو زواجه - بصفته كونت الرها - من أميرة محلية هي الأميرة "مورفا" ابنة جبرائيل القديم صاحب ملطية ذي العرق الأرمني، ولكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفي ذات الوقت راح يتودد للأرمن من أتباع الكنيسة الغريغورية المنفصلة وفاز بمؤازرتهم ، ومن بينهم مؤرخهم الكبير ماثيو الأورفي (أوف إيديسا) الذي كان يثنى عليه غاية الثناء لما يتحلى به من طباع ودودة ومسلك لا تشوبه شائبة برغم تدممه على طموحاته وبخله . وعلى الرغم من المحاباة التي كان بلدوين يظهرها للأرمن بوجه خاص كى يتفتح بهم في حروبه ، فقد كان يظهر العطف كذلك على رعاياه من السريان اليعاكية ، وأفلح في رآب صدع حدث في كنيستهم . ولم يكن هناك ما يعيب بلدوين سوى الجشع ؛ فكان



في احتياجه لا ينقطع إلى المال ، يذل ما في وسعه للحصول عليه . على أن مساعيه في الحصول على المال كانت أقل تعسفا من مساعيه بلدوين الأول ، بل تجاوزها لطفاً ومرحاً ، وكثيراً ما كان فرسانه يرحلون من مساعيه تلك ، لاسيما عندما يفكر في انتزاع ثلاثين ألف بيزنت من حميه ، فيعلن أنه مدين لرجاله بهذا المبلغ ويقسم لهم أنه سوف يخلق لحته إن لم يوفهم حقوقهم ، وكان يعلم مدى أهمية اللحية لكرامة الرحولة - كشتان اليونانيين - بين الأرمن الذين أصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الصليبيين بادية الأمر بلحاهم الخليفة ، كما كان يعلم جيداً رأى حميه من أن صهرا بلا حية يحط من هيئته . وعندما كان رجال بلدوين يشاركون في هذه الملهاة مؤكدين قسم سيدهم ، كان جبرائيل يسارع بتقديم المال المطلوب للحيلولة دون تلك المهانة الشنيعة ، ويقرض على زوج ابنته قسماً جديداً بالا يرهمن لحته مرة أخرى<sup>(٨)</sup> .

واضطر بلدوين الثاني في بداية حكمه إلى التصدي للأمير سقمان الأرتقي صاحب ماردين في هجوم الأخير على مدينة سروج الإسلامية التي سبق أن استولى عليها بلدوين الأول وعهد بحكمها إلى فولشر أوف تشارتر . لكن بلدوين الثاني الذي حفر لخدمة فولشر انهزم أمام سقمان ولقى فولشر مصرعه ، واستولى المسلمون على المدينة عدا القلعة الصامدة بقيادة بنديكت رئيس الأساقفة اللاتيني في الرها ؛ فأسرع بلدوين الثاني إلى أنطاكية لاستتجار الجنود لتعويض خسائره . وابتسم له الخطف لدى عودته ؛ إذ اندحر سقمان خارج المدينة بتسائر كبيرة ، فراح بلدوين الثاني يقتل كل من تعاون مع الأرتقة من السكان ، وامتألت السجون ، واضطر السحناء إلى اقتداء أنفسهم مما زاده ثراء بهذه الأموال الجديدة<sup>(٩)</sup> .

وسرعان ما وجد بلدوين ثانياً مفيداً في شخص ابن عمته جوزلين (أوف كورتناي) ، وهو القنصل أصغر أبناء لورد كورتناي ، ويبدو أنه أتى إلى الشرق في صحبة جاره الحميم كونت (نفرس) ، ووهبه بلدوين كل أراضي الكونتية الواقعة غربي نهر الفرات ، وانتد ثل بشير مقراً رئيساً له . وأثبت أنه الصديق الوفي لبلدوين ، على أن ولاءه هذا حامت حوله الشكوك فيما بعد<sup>(١٠)</sup> .

(٨) ولهم الصوري William of Tyre, x, 24, pp. 437-8, XI, II, pp. 469-72. بروي قصة زواج بلدوين وخطبه . ويتحدث ماثيو الأورفي Matthew of Edessa, ccxxv, p. 296 عنه باحترام ولكن بدون تعاطف معه.

(٩) Al Azimi, p. 494; Ibn al-Qalanisi, p. 50-1; Matthew of Edessa, clxviii, pp. 232-3.

(١٠) William of Tyre, x, 24, pp. 437.

## ١١٠٣م إطلاق سراح بوهيموند

ويبدو أن مشاعر الرية من طموحات تكريد تزايدت على مر الأيام لدى بلدوين، الذي كان يرغب في إعادة بوهيموند إلى أنطاكية، فشرع ومعه الطريق برنار في مفاوضة الأمير الدانشمند على إطلاق سراحه، ولم يشاركهما تكريد في تلك الصفقة. وكان الامبراطور الكيسوس قد سبق وأن عرض على الأمير ستين ومائتي ألف بيزانت فدية لإطلاق سراح بوهيموند، وكان الأمير على استعداد للموافقة لولا أن السلطان قلع أرسلان بلغته تلك الأنباء، وكان قد طلب نصف أية فدية قد يتسلمها الدانشمند بصفته السيد الأعلى الرسمي لأتراك الأناضول. وأدى الخلاف بين الأمير والسلطان إلى منع الأول من سرعة قبول عرض الامبراطور؛ لكنه كان عرضاً نافعاً، إذ أحدث صدعاً بين الأميرين. وكان بوهيموند في أسره على علم بتلك المفاوضات، وكان ما يزال وسيماً فانتا يلفت انتباه سيدات بيت الأمير؛ وربما تمكن بمساعدتهن من الإيحاء لأسره بأن الأفضل من صفقة الامبراطور التي ينوي السلاحقة دس أنوفهم فيها، إجراء ترتيب خاص مع فرنج سوريا والوعد بمحالفتهم. ووافق الأمير على إطلاق سراح بوهيموند لقاء مائة ألف بيزانت<sup>(١١)</sup>.

وهاجم جيش الدانشمند ملطية أثناء المفاوضات، ولا بد وأن استنجد حاكمها جبرائيل بزوج ابنته بلدوين الذي لم يتحرك لمساعدته لعزوفه عن الإساءة إلى الأمير في تلك المرحلة الحرجة. وكان جبرائيل مكروها من رعاياه لعقيدته الأرثوذكسية، خاصة وأن السريان لم يغفروا له أبداً إعدام أحد أساقفتهم بتهمة الخيانة؛ فاستولى الدانشمند على عاصمته وأسرته، عدا إحدى قلاعته التي ظلت صامدة أمام المهاجمين؛ فطلب منه أسروه أن يأمر باستسلامها، ولما رفضت الحامية أوامره، أعدموه أمام أسوارها<sup>(١٢)</sup>.

(١١) يذكر Albert of Aix, IX, 33-6, pp. 610-12; Orderic Vitalis, x, 23 vol. IV, P. 144 قصة حب بوهيموند مع ابنة الدانشمند، بينما يجعل III, vol. III, pp. 160-8, 179-82) صديقه زوجة مسيحية للأمير. ويقول Matthew of Edessa (CXXCVIII, p. 252) إن الكيسوس دفع فدية؛ ولكن ويشاهد كان في سوريا بالفعل قبل إطلاق سراح بوهيموند ويقول Radulph of Caen إن بلدوين كان يتصرف من منطلق كرامته لتكريد. ويورد لين الغلاسي الشجار بين الحاكمين السلجوقي والدانشمند.

(١٢) Michael the Syrian, III, pp. 185-9.

وبعد أشهر قليلة ، وفي ربيع ١١٠٣ م ، جرى تسليم بوهمند إلى فرنج ملطية ، وتولى بلدوين والبطريق برنار جمع مبلغ القدية يساعدهم أمير من صغار أسراء الأرمن يدعى كواسيل ، وأقارب بوهمند في إيطاليا . ولم يشاركهم تنكريد في جهودهم . وعلى الفور اتجه بوهمند إلى أنطاكية حيث استعاد سلطانه ، وأعرب عن شكره لتنكريد على المأوى لتوليته شؤون الإمارة أثناء غيابه . غير أنهما كانا على شيء من الخلاف ؛ إذ لم يجد تنكريد ما يدفعه إلى تسليم الأراضي التي غزاها هو نفسه أثناء وصايته ، لكن الرأي العام أحسره على التراجع ، وكوفىء بإقطاعية صغيرة داخل الإمارة . وكان بمقدوره أن يطالب قانونا باستعادة الجليل من بلدوين الأول ، لكنه رأى أن الأمر لا يستحق العناء<sup>(١٣)</sup>.

واحتفل الفرنج بعودة بوهمند بهجوم على حصارانهم . ففي صيف ١١٠٣ م أغار بوهمند ومعه جوسلين أوف كورتناي على أراضي حلب واستولوا على مدينة المسلمة شمالي حلب وانتزعا إتابة كبيرة من مسلمي المنطقة استخدمت في سداد الدين المستحق للفرنج على بلدوين والبطريق للقدية<sup>(١٤)</sup> . ثم تحول الفرنج للإغارة على الأراضي البيزنطية؛ فبعد أن كتب الكسيسيوس إلى بوهمند مطالبا باستعادة مدن كيليكيا، عزز رسالته بارسال قائده بوتوميس لاسزادها؛ لكن القوة البيزنطية لا يعتمد عليها، ولذا ، وعندما دخل كيليكيا في عريف ١١٠٣ م ، سرعان ما قرر أن المهمة فوق طاقته ، وأشر أنباء تفيد بأن الفرنج ينططون للتوسع شمالا ومهاجمة مرعش سارع إليها، وكان يحكمها ثاتول باسم الامبراطور . وربما كان بوسعه وقتئذ إنقاذ ثاتول بذهابه إليها ، لكنه تسلم أمر استدعاء من القسطنطينية . وفي وقت مبكر من الربيع التالي اتجه بوهمند وجوسلين إلى مرعش . وشعر ثاتول بأنه فاقده الحيلة ؛ فالجيش البيزنطي بعيد جدا، وأصبح الأتراك الدانشمند على علاقة طيبة الآن بالفرنج ؛ فلم يجد بديلا عن تسليم المدينة لجوسلين الذي سمح له بالعودة إلى القسطنطينية ، بينما استولى بوهمند على مدينة البستان الواقعة شمال مرعش<sup>(١٥)</sup>.

(١٣) أنظر أعلاه ، يقول Fulcher (II, xxiii, 1, p. 460) إن تنكريد قد كوفىء على اقتداره ، ولكن وادولف يقول إنه لم يعط سوى مدينتين صغيرتين.

(١٤) 591 p. ad-Dim p. 591; Kemak (Kamil at-Tawarikh, p212); Ibn al-Athir يقول إن بوهيموند اغتصب أموالا من قسرين.

(١٥) Matthew of Edessa, cxxxvi, p. وAnna Comnena, XI, ix, 1-4, vol. III, pp.40-1 257 في ليراد الاستيلاء على مرعش بعد معركة حران، Radulph of Caen, cxlviii-cl, pp. 710 . 2

## ١١٠٤م أهمية حران

وأصبح الفرنج الآن في مأمن من أي هجوم يأتيهم من الأناضول ؛ وإذن بإمكانهم أن يتحولوا لمهاجمة مسلمي الشرق . وفي شهر مارس عارود بوهمند غزرو أراضي رضوان الحلي واستولوا على مدينة بصرفوت الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب ، لكن محاولته الاستيلاء على مدينة كفسر لانتا الواقعة إلى الجنوب من حلب لم تكلل بالنجاح لما أبدته قبيلة بني عليم من مقاومة بأسلحة . وفي تلك الأثناء قطع جوسلين طريق المواصلات بين حلب والفرات . على أنه إذا كان من المطلوب عزل مسلمي سوريا عزلا فعليا عن مسلمي العراق وفارس ، فلا بد للمسيحيين من الاستيلاء على قلعة حران العظيمة الواقعة بين الرها والفرات شمالي الجزيرة ، بل إنهم يستطيعون ، والحال كذلك ، تخريد حملة على الموصل وإلى قلب ما بين النهرين . وبدأت الظروف مناسبة في ربيع ١١٠٤ م ؛ إذ كانت الحرب الأهلية، خلال ١١٠٣م، بين السلطان السلجوقي بركياروق وأخيه محمد تمزق الشرق الإسلامي كله ، وفي يناير ١١٠٤م إنفقا على السلام على أن يحتفظ السلطان ببغداد والحضبة الإيرانية الغربية - وكان أخوه الثالث سنقر قد سبق وحصل على خراسان وإيران الشرقية - وحصل محمد ، وفقا للإتفاق على شمال العراق والجزيرة وحقوق سيادة على ديار بكر وكل سوريا. لكنه كان اتفاقا غير يسير ، إذ كان الأخوان كلاهما يرقبان إفساد هذا الإتفاق، وفي ذات الوقت راح كل منهما يكدد المكائد للفوز بملفء من أمراء الترك والعرب جميعا؛ ففي الجزيرة نشبت الحرب الأهلية بموت كربوقا ، أتابيج الموصل ، الذي هزمه الفرنج في أنطاكية ؛ إذ لم يتمكن سقمان الأرتقى أمير مازدين من استخلاف مرشحه ، ودارت الحرب بينه وبين الأتابيج الجديد جكرمش الذي عينه السلطان السلجوقي محمد ، أما حران نفسها فكانت خاضعة للقائد التركي قراجه الذي كان من مماليك ملكشاه ، لكن سلوكه الشرس دفع أهلها إلى التمرد عليه ، فسلموا الحكيم محمد صاحب أصفهان ، الذي قتل بدوره على يد غلام سابق لقراجه يدعى جوالى بعد أن توثقت عرى الصداقة معه . على أن سلطة جوالى كانت غير مأمونة بدرجة كبيرة ، بينما كانت حران ذاتها

تعانى معاناة شديدة من غارات فرنج الرها الذين حرقوا حقولها واعتصموا بُعارتها ، وقد اتضحت نيتهم في سرعة المضي قدماً<sup>(١٦)</sup>.

داهمت مشاعر الخطر كلا من سقمان في ماردين وحكرمش في الموصل ، مما دفعهما إلى تسيان خلافهما والائتماد معا في حملة لمهاجمة الرها قبل أن تهاجمهما ، وتوجها إليها معا في أوائل مارس ١١٠٤ م، وكان مع سقمان قوة كبيرة من فرسان التركمان الذين يتصفون بخفة الحركة ، ومع حكرمش قوة أصغر قليلا تتألف من السلاحقة والأتراك والأكراد والعرب . وعلم بلدوين الثاني بتجمعهما في رأس العين الواقعة على بعد سبعين ميلا تقريبا من عاصمته؛ فاستنجد بجوسلين وبوهمند مقترحا عليهما تحويل الهجوم بالإغارة على حران . وبعد أن ترك حامية صغيرة في الرها، انتمى إلى حران ومعه فرقة صغيرة من الفرسان ومشاة الأرمن ، وصحبه بتدكت رئيس أساقفة الرها. وعلى مقربة من حران انضم إليه جوسلين وجنوده ، وكذلك جيش أنطاكية بقيادة بوهمند ، وتنكريد والبطريق برنار ، ودباسيرت البطريق السابق للمقدس . وبلغ عدد الجيش الفرنجي كله ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس وربما ثلاثة أضعاف عددهم من المشاة ، وهو القوة الفرنجية الضاربة كلها في شمال سوريا ، عدا حاميات الحصون.

#### ١١٠٤م كارثة حران

تجمع الجيش أمام حران بينما الأميران المسلمان ما يزالان على مسافة ما إلى الشمال الشرقي في طريقهما إلى الرها . ولو أن الفرنج حاولوا الإنقضاض على الحصن لاستولوا على حران ؛ لكنهم كانوا عازفين عن تحطيم التحصينات على أمل أن يتفجعوا بها هم أنفسهم فيما بعد، فلما تبين أن الخوف سيدفع الحامية إلى الاستسلام . وكان تفكيراً لا يخلو من حكمة ؛ إذ كان المسلمون داخل المدينة لا حول لهم ولا قوة ، فبادروا بمفاوضتهم من فورهم . وعلى إثر ذلك احتلف بلدوين وبوهمند ؛ أيّ من رايتهما يرتفع أولاً على الأسوار؟ وانتهى الأمر بأن قضى عليهما تأخرهما ؛ إذ مال الجيش التركي جنوباً وأصبح فوقهما قبل تسوية الخلاف .

(١٦) للاطلاع على خلفية الحملة على حران، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 236-7 مع المراجع ويذكر بيكسون في مقالته عن تنكريد أن الحملة لم تكن جزءاً من سياسة عامة للتوسع، وإنما استجابة لتهديد من المسلمين. ولكن بلغنا كانت حران هدفاً نهائياً للفرنج.

ودارت المعركة على ضفاف نهر الليخ ، بالقرب من ساحة معركة (كارها) القديمة، حيث سبق منذ قرون أن أباد (البارثيون) الفيالق الرومانية وفياتق (كراسوس). وكانت استراتيجية الفرنج تقضي بأن يشتبك جيش الرها في الميسرة مع قوة العدو الرئيسية ، بينما يختبئ الجيش الأنطاكي خلف تل منخفض يبعد نحو ميل إلى اليمين استعدادا للتدخل في اللحظة الحاسمة . لكن المسلمين وضعوا خططاً مماثلة ؛ فهاجم جزء من جيشهم ميسرة الفرنج ثم استدار هارباً ؛ فظن جنود الرها أنهم فازوا بنصر يسير ، واندفعوا يتعقبونهم ، مما أفقدهم الاتصال بزملائهم في المينة ، وعبورهم النهر وقعوا مباشرة في كمين أعده الجيش الإسلامي الرئيسي ، ولقى الكثير منهم حتفه على الفور، واستدار الباقون ولاذوا بالفرار . وعندما تجهز يوهمند - الذي دحر كتيبة صغيرة أمامه - للإشتراك في المعركة لم يجد سوى سبيل متدفق من الحاربين على مبعده يتزاحمون عائدين عبر النهر حيث هبطت عليهم فصيلة تركية جديدة . وأدرك أنه خسر كل شيء؛ فأسرع بالفرار مع عدد ضئيل من جنود الرها. وأثناء مرور الحاربين أسفل أسوار حبران انقضت عليهم الحامية ، وفي فوضى حماسها قتلت مع الفرنج عدداً من المسلمين المتعقبين ، وهرب جيش أنطاكية دون خسائر جسيمة . أما جنود الرها فقد أسسروا أو قتلوا جميعهم تقريباً . وكان البطريرك برنار في قمة الفزع بحيث قطع أثناء فراره ذيل حصانه خشية أن يلحق به الترك وبمسكونه من الذيل ، رغم أنه لم ير أحداً من الإعداء وقتئذ .

وكان بندكت رئيس الأساقفة من بين أول من وقعوا في الأسر . لكنه لم يلبث أن أطلق سراحه ، إما لتواطؤ حارسه - وهو مسيحي مرتد - أو بسبب هجوم أنطاكي مضاد . وهرب بلدوين وجوسلين معا على صهوة جواد ، لكن البعض أدركهما في مجرى النهر واقتادوهما أسيرين إلى خيمة سقمان .

وأسرع يوهمند وتكريد إلى الرها وهما يخطيان - بحق - أن يهاجها الترك كخطوة تالية ، وراحا يعملان على تنظيم دفاعاتها . ومرة أخرى تنقلب مصائب بلدوين عند تنكريد فؤاد ؛ إذ أن من تبقى من الفرسان في الرها وعلى رأسهم رئيس الأساقفة توسلوا إلى تنكريد أن يتولى الوصاية على الرها إلى حين إطلاق بلدوين من الأسر؛ فقبل تنكريد هذا العرض مرحباً، وساورت يوهمند - كشأن بلدوين الأول منذ أربع سنوات - مشاعر الإرتياح لإبعاد تنكريد عنه . وبقي تنكريد في الرها مع بقايا

حيثه وما استطاع بوهمند الإستغناء عنه من جنود ، بينما رجع بوهمند إلى أنطاكية حيث كان جيرانه يعدون العدة للإفادة من الكارثة التي حلت بالفرنجة<sup>(١٧)</sup>.

وتعد معركة حران تنمة للحملات الصليبية في ١١٠١م؛ إذ أن تلك الحملات جميعها حطمت أسطورة القوة الفرنجية التي لا تقهر . ذلك أن هزائم ١١٠١م تعنى حرمان شمال سوريا من تعزيزات الغرب التي يطمحها الفرنج لتوطيد سيادتهم هناك ؛ وأما كارثة حران فتعنى ، على المدى الطويل ، الحكم بهلاك كونتية الرها ، وأن الفرنج لن يستولوا أبداً على حلب . إن الإسفين الذي كان في نية الفرنج دقه بين المراكز الإسلامية الثلاثة: الأناضول ، والعراق ، وسوريا ، قد تم دقه دون مراعاة لاعتبارات الأمن . ولم يكن المسلمون هم وحدهم المستفيدين ؛ إذ كان الامبراطور يرقب الأحداث من بيزنطة بعين الغضب ، ولم يأسف للخزي الذي لحق بالفرنج .

#### ١١٠٤م بوهمند وتكريد يركان بلدوين أسيرا

لم تكن النتائج العاجلة لكارثة حران مهلكة كما كان يُخشى ؛ إذ لم يستمر التحالف طويلاً بين سقمان وحكرمش بعد انتصارهما ؛ فقد استحوذ جنود الأول على أغلب الأسرى والغنائم ، مما أثار غيرة الأخير ، فهاجمت كتائبه السلجوقية خيمة سقمان واحتطفت ببلدوين ، الأمر الذي أثار حنق الزكمان ، لكن سقمان مارس من ضبط النفس ما يكفي لمنعهم من الهجوم المضاد ، وروّض نفسه على قبول خسارة سجنه ذي القيمة العالية . وقام بإحضار بعض الحصون المسيحية الصغيرة على الحدود بخدعة بسيطة وهي إرتداء جنوده ملابس ضحاياهم الفرنج ، ثم إنه رجع إلى ماردين ولم يشترك في الحرب أكثر من ذلك<sup>(١٨)</sup> . أما حكرمش فواصل القتال ؛ بادئاً بتأمين نفسه من سقمان بأن سحق الحصون الفرنجية في شبعان شرقي الرها ثم واصل سيره إلى العاصمة . إن تأخر الفرنج قد أنقذ حران للإسلام ، والآن أدى تأخر المسلمين في الإبقاء على الرها للعالم المسيحي؛ إذ توفر لتكريد الوقت الضروري لترميم دفاعات المدينة . ويُعزى نجاحه في مقاومة هجوم حكرمش الأول بدرجة كبيرة إلى ولاء الأرمين

(١٧) Radulph of Caen, cxlviii, p. 712; Albert of Aix, loc. cit.; Matthew of Edessa, clxxxiii, p. 256.

(١٨) Ibn al-Athir, loc. cit. ، المذكور عن سقمان أنه قال : "فضل أن أقتل غنائمي على أن يعين المسيحيون بالحماقة".

المحليين وبساتينهم ، لكن شدة الهجوم دفعته إلى طلب النجدة العاجلة من بوهمند الذي كانت لديه بعض المشكلات ، غير أن تهديد الرها لا تملوه أولوية ، فسار في الحال لنجدة ابن أخته ، لكن وعورة الطريق تسببت في تأخره . وفي غمرة اليأس أمر تنكريد حاميته بالخروج قبل الفجر ، وانقض رجاله في ظلمة الليل على الأتراك في نومهم المطمئن ، واكتمل النصر بوصول بوهمند؛ وهرب حكرومش مذعورا تاركاً كنوزة في المعسكر . وهكذا تم الانتقام لحران وبقيت الرها<sup>(١٩)</sup> .

ومن بين الذين أسرههم تنكريد أميرة سلجوقية كريمة الأصل كانت في معية الأمير ، وكانت أثيرة لدى حكرومش بحيث عرض أن يفند بها في الحال إسمًا بخمسة عشر ألف بيزانت أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . ووصلت أنباء هذا العرض إلى القس ، فسارع الملك بلدوين بمكاتبة بوهمند راجيا ألا تضيق هذه الفرصة لإطلاق سراح الكونت بلدوين؛ لكن بوهمند وتنكريد فضلًا سد حاجتهما من المال ، فضلًا عن أن عودة بلدوين تعني تنحية تنكريد من منصبه الراهن ليصبح بين يدي خاله ؛ وكان ردهما أن التلطف على قبول العرض؛ يتلو من الدبلوماسية ، ورعا يؤدي الزدود إلى أن يرفع حكرومش من قيمة القدية ؛ وفي الوقت ذاته كانا يعدان الترتيبات لاستلام القدية . وبقي بلدوين أسيرًا.

وبعد أن نال بوهمند وتنكريد من الثراء بالتضحية بزميلهما ، تحولوا لمهاجمة الأعداء من حولهما الذين دأبوا على ممارسة الضغوط عليهما. ولم يحاول حكرومش مهاجمة الرها مرة أخرى ، وتمكن تنكريد من ترميم دفاعات المدينة؛ أما بوهمند فكان عليه أن يسرع لمهاجمة غزو رضوان الحلبي للمناطق الشرقية من إمارته . وفي شهر يونية تخلى سكان أرتناح الأرمن عن مدينتهم للمسلمين وقد شملتهم اليهجة لتخلصهم من الطغيان الأنطاكي ، وحذت حذوهم المدن الحدودية: المعرة ومسرير وسمرين ، ثم عززل الحاميات الفرنجية الصغيرة في معرة النعمان والبارة وكفر طاب فانسحبت إلى أنطاكية. وفي تلك الأثناء أغار رضوان على الإمارة إلى أن بلغ الجسر الحديدي ؛ وعلى البعد في شمال الإمارة تمكنت حامية بوهمند من البقاء بعد أن سحنت أبرز زعماء الأرمن المحليين الذين كانوا يخططون للتآمر مع الأتراك . وكاد الخطر أن يصدق بدويلة بوهمند كلها

(١٩) -Albert of Aix, IX, 43, pp. 617-18; Ibn al-Athir, p. 223; Ibn al-Qalanisi, pp. 69, 69, 70.



لولا أن مات دقاق الدمشقي في أواخر يونية ١١٠٤ م ، فتحول اهتمام رضوان إلى الصراع بين ابني الدقاق - بوري وأرتاش - على خلافة أبيهما<sup>(٢٠)</sup>.

وكان انشغال بوهمند بالشؤون البيزنطية من أسباب فشله في مواجهة محرم رضوان . فالاميراطور ألكسيوس على علاقة طيبة بالدويلات الفرنجية الواقعة إلى الجنوب ، ويعتمد كونه تولوز لا يزال صديقه الحميم ، وفاز الاميراطور بركة الملك بلدوين بعد أن اقتدى بحاله كثيرا من وجهاء الفرنج الأسرى في مصر ، لقد كان كرمه هذا تسببه الحكمة بالمقارنة المذهلة بما أقدم عليه بوهمند وتكريد من التخلي عن بلدوين الرها في الأسر . إن اقتداء الاميراطور للأسرى ذكر الفرنج بما له من نفوذ ومهابة تحفيان باحترام الفاطميين ؛ ولذلك ، وعندما تصرف الاميراطور ضد أنطاكية ، لم يتلق أميرها أية مساعدة من أفرانه . وكان ألكسيوس قد قام بالفعل بتحسين كوريكوس وسليوكية الواقعتين على ساحل كيليكيا لمنع ما قد تقدم عليه أنطاكية من عدوان على غرب كيليكيا . وفي صيف ١١٠٤ م استرد الجيش البيزنطي بقيادة موناسترلس دوغما صعوبة مدن كيليكيا الشرقية: طرسوس وأضنة والمصيصة؛ وفي ذات الوقت قام أسطول بيزنطي صغير بقوده الأدميرال كيتاكوزينوس - وكان في قبرص بطارد أسطولا مغيرا من جنوا - باستغلال موقف بوهمند ، فأنتز إلى اللاذقية . استولى بحارته على المرفأ وأسفل المدينة : وسارع بوهمند بجمع ما أمكنه من جنود الفرنج لتعزيز الحامية في القلعة واستبدال قائدها الذي ما عاد يوليه ثقته ، لكنه لم يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم لافتقاره إلى القوة البحرية .

#### ١١٠٤ م بوهمند يرحل إلى الغرب

وبحلول الخريف دخلت بوهمند مشاعر اليأس ؛ فعقد مجلسا في سبتيمر ضم أتباعه في أنطاكية واستدعى تكريد كذلك ، وصارحهم بالأخطار المحدقة بالإمارة قائلا إن المخرج الوحيد هو تأكيد إرسال التعزيزات من أوروبا ، وأنه سيذهب بنفسه إلى فرنسا لممارسة نفوذه الشخصي في استجلاب الرجال المطلوبين . ومن باب الواجب عرض تكريد القيام بهذه المهمة ، لكن حاله أحاب بأنه لا يتمتع بما يكفي من نفوذ في

(٢٠) Radulph of Caen, loc. cit.; Kemal ad-Din, pp. 592-3; Sibte ibn al-Djauzi, p. 529; ibn al-Qalanisi, pp. 62-5. ويلاحظ أن راسيمان أورد اسم أحد ابني الدقاق بلفظ (إرتاش) في حين أن ابن القلانيسي ذكره بلفظ (أرتاش) وهو عم بوري وليس ابنه. (المترجم)

الغرب، وأنه ينبغي أن يبقى وصيا على أنطاكية. وسرعان ما تمت ترتيبات رحيل بوهمند، وأبهر في أواخر الحريف من ميناء السويدية مصطحبا معه ما كان متاحا من الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء الثمينة ونسخا من "إنجازات الفرنج"، وهو تاريخ مجهول للحملة الصليبية الأولى من وجهة النظر النورماندية، وأدخل بوهمند في تلك النسخ فقرة توحى بأن الاميراطور وعده لوردية أنطاكية<sup>(٢١)</sup>.

وتولى تكريد حكومة أنطاكية، وأنقسم في ذات الوقت أن يحافظ على الرها لبلدوين وأن يسلمها له فور إطلاق سراحه من الأسر؛ ولأنه لا يستطيع أن يتحكم الرها من أنطاكية بصورة جيدة، فقد عهد بحكومتها لابن عمه وصهره ريتشارد كونت ساليرنو، نائباً عنه عبر الفرات<sup>(٢٢)</sup>.

وفي وقت مبكر من العام الجديد وصل بوهمند إلى أملاكه في أيرلندا حيث بقي هناك حتى سبتمبر التالي يدبر شؤونه الخاصة ويشرف عليها بعد غيبة تسع سنوات، وينظم فرق النورماندين ليلاحقوا بزملاتهم في الشرق. ثم ذهب إلى روما لمقابلة البابا باسكال وأكّد له أن الاميراطور ألكسيوس هو عدو اللاتينيين اللدود في الشرق، وكان باسكال قد انحاز فعلا ضد ألكسيوس بتأثير من الأسقف مناس، وسرعان ما وافق على وجهة نظر بوهمند. وعندما ذهب بوهمند إلى فرنسا كان بصحبه ممثل البابا، برونو، حاملا معه توصيات من البابا بالتبشير بحرب مقدسة ضد بيزنطة. وكانت هذه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية. وباتت السياسة النورماندية - وهدفها كسر شوكة الاميراطورية الشرقية - هي السياسة الصليبية الرسمية. وتقرر التضحية بمصالح العالم المسيحي كله من أجل المغامرين الفرنج. وفيما بعد ندم البابا على ما أقدم عليه من طيش، ولكن بعد أن نفذ سهم الضرر. وما كان يشعر به فرسان الغرب وجماهيره من ازدياد لفطرس الاميراطور، وغيرة من ثروته، وريبة في طقوس مسيحية لا يفهمونها،

(٢١) تذكر بعض المصادر الوثيقة أن "إنجازات الفرنج" Gesta Francorum كيه فولشر أوف تشارتر Fulcher of Chartres (حوالي ١٠٥٩ - حوالي ١١٢٧) القس والمؤرخ الفرنسي الذي صاحب الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها. وهو عبارة عن سرد ينسج بالحياة مكتوب على ثلاث مراحل: الحملة الصليبية الأولى (١١٠١)، ورحلة بلدوين إلى القدس (١١٠٦)، ومملكة القدس (١١٢٤ - ١١٢٧) (المؤرخ).

(٢٢) Matthew of Edessa, cxxxix, p. 260; Michael the Syrian, III, p. 195; Ibn-alAthir, pp. 262-3. ومن هذا الوقت فصاعدا يطلق تكريد على نفسه في وثائقه الرسمية "تاكريد دوكس ليه برنيسيس أنتيوكينوس" (تاكريد دوق وكمير أنطاكية). وأثناء فترة وصايته الأولى كان يسمى في الوثائق الرسمية (كمير) دون تحديد لماكن. كان ما يزال يحمل لقب أمير الجليل.

لقى كل ذلك تأييدا رسميا من الكنيسة . ومنذ ذلك الوقت قدما، كانوا يشعرون بأن لديهم المبررات التي تتسوغ كل عمل عدائي يستهدف بيزنطة، حتى ولو عدّل البابا من آرائه . إن الحملات الصليبية ، والبابا على رأسها ، لم تكن حركة تبذل العون للعالم المسيحي ، وإنما كانت أداة للإستعمار الغربى العارى من الخلق . وترتب على هذا الإنفاق التمس بين بوهمند والبابا باسكال آثار أبعد شأوا بكثير من كل الخلافات بين الكاردينال همبرت وميخائيل سربولاريوس التي أكدت الفصل بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وقبل بوهمند بحرارة فى فرنسا حيث أمضى بعض الوقت فى بلاط الملك فيليب الذى أذن له بتجنيد الرجال فى أنحاء المملكة ، ولقى تشجيعا فعّالا من كونتيسة بلوا، الكونتيسة أديلأ وهى صليبية متحمسة بالإناية ؛ فزيادة على تقديمها بوهمند لأخيها هنرى الأول الإنجليزى ، الذى سبق أن قابله فى نورماندى فى عيد الفصح عام ١١٠٦م ووعد بتشجيعه ، رتبت له زواج تحالف مثير من ابنة الملك فيليب، كونستانس ، وهى كونتيسة شامبانيا المطلقة، وتم الزواج فى وقت متأخر من ربيع ١١٠٦م ؛ وفى ذات الوقت وافق الملك فيليب على منح يد ابنته الصغرى ، سيشيليا ، وهى وليدة السفاح من علاقة الزنا مع برترادا أوف مونتفورت ، لتتكريد . ولم تذهب كونستانس إلى الشرق أبدا ، وإنما قضت حياتها الزوجية وفرة ترملها فى إيطاليا؛ أما سيشيليا فقد أبحرت إلى أنطاكية فى نهاية العام تقريبا . وقد عززت هذه العلاقات الملكية من مكانة الأمراء النورمانيين<sup>(٢٣)</sup> .

(٢٣) Orderic Vitalis, XI, vol. IV, pp. 210-13; Suger, Vita Ludovici, pp. 29-30; Chronicon S. Maxentii, p. 423; Chronicon Vindocinense, pp. 161-2; William of Tyre, XI, I, p. 53; Anna Comnena, XII, I, I, vol. III, p. 53. وقد تم الزواج بين كونستانس وبوهمند - Luchaire, Louis VI le Gros, p. 22 - فى إبريل أو مايو ١١٠٦م . ويحتمل أن تكون سيشيليا قد انطلقت إلى الشرق بعد هذا التاريخ . ولذلك يحتمل أن يكون زواجها قد حدث فى وقت لاحق من عام ١١٠٦م . ويعتقد مايو الأوربي أن بوهمند كان عمرا على الزواج من سيدة ثرية ، يطلق عليها زوجة سين يول (وواضح أنه يخلط بين Hugh of Champagne مع الصليبي Hugh of Saint Pol الذى كان صديقا لبوهمند). وقد أسرت بسجنه حتى رضى في النهاية. وكان يفضل العودة إلى الشرق.

## ١١٠٧ م بوهمند يغزو الامبراطورية

بقى بوهمند في فرنسا حتى وقت متأخر من عام ١١٠٦ م ، ثم عاد إلى أبوليا حيث عطلت حملته الصليبية الجديدة التي تقرر أن تبدأ بهجوم لا هوادة فيه على الامبراطورية البيزنطية ؛ ومجهّل في حملته إذ عرف من الأنباء أن أنطاكية لا تعاني من أخطار عاجلة في ظل حكم تنكريد . وفي أول أكتوبر ١١٠٧ م هبط بجيشه على ساحل إبيروس الامبراطوري في أثلونا ، وبعد أربعة أيام ظهر أمام قلعة درهاكيوم العظيمة التي تعدّ مفتاح شبه جزيرة البلقان ، وهي التي طالما سال لها لعاب النورماندين منذ احتلالها قبل ذلك بربع قرن . على أن الكسيوس هو الآخر قد توفر له الوقت لوضع ترتيباته ؛ فكان على استعداد للتضحية بحدوده الجنوبية الشرقية لإتقاذ درهاكيوم ؛ فسلم السلطان السلجوقي قلج أرسلان الذي أمده بالمرتزقة . وجد بوهمند القلعة منيعة وحاميتها شديدة اليأس بحيث تعذر الإقتضاض عليها فحاصرها . لكنه يفتقر إلى القوة البحرية كشأنه في حروبه الأولى ضد بيزنطة ، فبات الدمار مصيره ؛ ذلك أن البحرية البيزنطية قطعت خطوط مواصلاته مع إيطاليا في الحبال تقريبا وسدّت الساحل. ثم حاصره الجيش البيزنطي الرئيسي في وقت مبكر من الربيع التالي ؛ وبحلول الصيف تفشت في جيش بوهمند الدوسنطاريا والملازما ، ونالت منهم المجاعة ، بينما حطّم الكسيوس معنوياتهم بإطلاق الشائعات وتزييف الرسائل لزعمائهم ، وهي وسائل وصفتها ابنته أنا كومينا بإعجاب شديد . وبحلول سبتمبر أيقن بوهمند من المزمجة فاستسلم للإمبراطور . لقد كان نصرا مؤزرا لبيزنطة ؛ إذ كان بوهمند آنذاك أشهر محارب في العالم المسيحي ، وكان مشهد هذا البطل المرعب بقامته الطويلة التي تعلو الامبراطور ، ومع ذلك بدت متضرعة مطيعة لما يمليه عليها ، شاهدا على ما للامبراطور من مهابة طاغية لا تنسى .

## ١١٠٨ معاهدة ديفول

استقبل الكسيوس بوهمند في معسكره الذي ضربه في مدخل الوديان الضيقة حيث يجري نهر ديفول . وعامله بكياسة يعلوها البرود ؛ ولم يضيّع وقتا ، وإنما بسط أمامه معاهدة السلام التي لا بد له من التوقيع عليها. وتردد بوهمند بهدوء الأمر ، لكن (نيسفورس برنيوس) ، زوج أنا كومينا، الذي كان يقف بين يدي حميه الامبراطور ، حثّه على التوقيع الذي لا مفر منه .

وترد صيغة المعاهدة بكاملها في صفحات أنا كرمينا. وبحجها يعرب يوهند أولا عن أسفه العميق لحثته بقسمه الأول للإمبراطور ؛ ثم يقسم بكل الوفاق أن يصبح التابع والمولي المخلص للإمبراطور ووريثه جون "كريم النسب"<sup>(٢٤)</sup>؛ ويفرض على كل رجاله أن يحذوا حذوه ؛ ولا ينبغي أن يكون هناك غموض في المصطلح اللاتيني "مولى"، فأحصيت واجبات التابع ؛ وأن يظل أميرا لأنطاكية يحكمها تحت سيادة الامبراطور ؛ وتشمل أنطاكية ذاتها ومينائها السويدية ومناطق الشمال الشرقي حتى مرعش مع الأراضي التي يغزوها ويتزعمها من أمراء حلب المسلمين وغيرها من الدويلات السورية الداخلية ؛ وتبقى مدن كيليكيا والسجل المحيط بأنطاكية تحت الحكم المباشر من الامبراطور ؛ ولا مساس بأراضي الأمراء الروبيين . وأضيف ملحق بالمعاهدة يضم قائمة المدن التي يمارس يوهند سلطانه عليها وقد اختيرت بعناية . ويتولى يوهند في إطار سلطانه ، ممارسة السلطة المدنية ؛ ويستعاض عن الطريق اللاتيني بآخر يوناني. وتوجد نصوص خاصة تقضى بأنه في حالة رفض تنكريد أو غيره من رجال يوهند الإمتثال لشروط المعاهدة ، يتولى يوهند إجباره على الطاعة قسرا.

وتعتبر معاهدة ديفول مثيرة للإهتمام ؛ إذ تكشف عما كان يراى للكسيوس من حل المسألة الصليبية . فهو على استعداد لأن تصبح مناطق الحدود ، بل وأنطاكية ذاتها، تحت الحكم الذاتي لأمر لاتيني ، طالما يلتزم هذا الأمر بالتسوية له وفقا للأعراف اللاتينية ، وطالما تحتفظ بيزنطة بسيطرة غير مباشرة من خلال الكنيسة ؛ فضلا عن أن الكسيوس يعتبر نفسه مسؤولا عن المسيحيين الشرقيين ، بل يريد تأكيد حقوق أتباعه الأرمن الروبيين المنتمين . ولقد بقيت المعاهدة مجرد قصاصة ورق . لكنها كسرت يوهند ؛ فلم يجرؤ على الظهور في الشرق مرة أخرى البتة ، وتقاعد مخذولا مخزيا في أراضيه في أبوليا حيث مات عام ١١١١م ، واحدا من صغار أمراء إيطاليا المغموين تاركا طفلين من زوجته الفرنسية ليرثا حقوقه في أنطاكية . كان جندها شجاعا، وقائدا مقداما ماكرا، وبدا في أعين أتباعه بطلا ؛ وهو الوحيد الذي طغت شخصيته على جميع رفاقه في الحملة الصليبية الأولى ؛ لكن طموحاته العريضة العارية من الخلق كانت هاويته . ولم يأت الوقت بعد كي يدمر الصليبيون درع العالم المسيحي الشرقي .

وكما تحقق الكسيوس جيدا ، كانت معاهدة ديفول تتطلب تعاون تنكريد . وتنكريد ، الذي لم يأسف لإزالة خاله من الشؤون الشرقية ، لم يكن على استعداد لأن

(٢٤) المعنى الحرفي : الإبن المولود للإمبراطور بعد إعتلائه العرش "Porphyrogenete". (المترجم)

يصبح تابعا للإمبراطور . وكان أهل مموحا من بوهمند ، إذ لا مطمح له سوى إنشاء إمارة قوية مستقلة . على أن توقعاته لم تكن تبشر بالآمال ؛ إذ لم يترك له بوهمند سوى القليل من الرجال ، ولم يترك له أية أموال جاهزة . ورغم ذلك قرر المبادرة بالمحوم ، فانتزع قرضا من أثرياء ثمار أنطاكية أنعش خزائنه ومكنه من استئجار مرتزقة محليين ؛ واستدعى من الفرسان والخيالة ما أمكن الاستغناء عنهم في الرها وتل بشير وكذلك الأراضي الأنطاكية . وفي ربيع ١١٠٥ م انطلق لاسترداد أرتاح . وكان رضوان الحلبي يهيباً للرحيل جنوباً لمساعدة بني عمار في كفاحهم ضد الفرنج ؛ لكنه تحول للدفاع عن أرتاح لدى وصول الأنباء بتقدم تنكريد . ونقائيل الجيشان يوم ٢٠ إبريل في قرية تيزين القريبة من أرتاح في سهل منعرل تكسوه الصخور . وفزع تنكريد من ضخامة العدو التركي ، فاقترح على رضوان التفاوض . وكان رضوان حريصاً بالموافقة لولا أن حته قائد عيالته صبار على المحوم دون تأخير . وتسببت الصخور في الجبلولة دون أن يستخدم الأتراك تكتيكهم المعتاد ؛ وبعدما اندحر الأتراك من أول محوم الفرنج ، ارتدوا ليترصوا بالعدو ، لكنهم لم يتمكنوا من إعادة ترتيب صفوفهم للمحوم التالي ؛ وفي تلك الأثناء قام فرسان الفرنج بتعجيز مشاتهم . وتسبب فشل خططهم في إصابتهم بالذعر ، فانطلق رضوان هارباً إلى حلب مع حرسه الخاص ، وتبعه أغلب فرسانه ، وقتل من بقي من الراجلين في ميدان القتال .

واستعاد تنكريد بنصره كل الأراضي التي فقدتها قبل ذلك بعام ؛ إذ شغلت الحامية التركية عن أرتاح وسلمته المدينة ، بينما طارد جنوده المماريين حتى أسوار حلب ، وانتهبوا كثيراً من سكانها أثناء فرارهم في رعبهم . وطلب رضوان السلام بأن عرض تسليم كل أراضي في وادي العاصي ودفع إتاوة منتظمة لتنكريد . وبنهاية عام ١١٠٥ م كانت سيطرة تنكريد قد اتسعت مرة أخرى جنوباً حتى البارة ومرة النعمان .

#### ١١٠٦ م الإستيلاء على أقاميا

وفي فبراير ١١٠٦ م أغتيل أمير أقاميا ، خلف بن ملاعب ، على يد متعصبين من حلب لأنه لم يكن مناهضاً للفرنج ، ثم اختلف القتلة مع حليفهم الرئيسي داخل المدينة، أبو الفتح ، الذي تولى حكومتها، فطلب مساعدة رضوان . ودعا الأرمن المحليون تنكريد الذي رأى الظروف مناسبة للتدخل ، فسار جنوباً وبدأ حصار أقاميا . وتمكن أبو الفتح من المحافظة على النظام ؛ وتلقى من أميري شيزر وحماة وعوداً بالمساعدة .

واضطر تنكريد إلى التراجع بعد حصار ثلاثة أسابيع بدعوى ضرورة مساعدة حامية اللاذقية التي تواجه المجاعة من حصار البيزنطيين طوال ثمانية عشر شهرا . وزودها بالمواد ثم عاد إلى أنطاكية . وبعد ذلك بأشهر قليلة ظهر في أنطاكية أحد أبناء حلف، مصبح بن ملاعب ، مع مائة من أتباعه ، وقد نجما من المصير الذي لقيه أبوه ، وراح يعرض تنكريد على معارضة الهجوم على أفاميا؛ فحاصر تنكريد المدينة مرة أخرى بمساعدة مصبح ، وحفر خندقا حولها لمنع الدخول أو الخروج . ولم يهب أحد من الجيران الأمراء لمساعدة أبي الفتوح ؛ وبعد أسابيع قليلة ، في ١٤ سبتمبر ١١٠٦ م استسلم المسلمون بعد أن وافق تنكريد على شرط الإبقاء على حياتهم . وبعد أن دخل تنكريد المدينة أراد أن يدخل البهجة على قلب مصبح ، فقتل أبو الفتوح وثلاثة من رفاقه . واقتيد نساء أفاميا إلى أنطاكية وبقوا فيها إلى أن رتب رضوان فديتهم . وتم تنصيب حاكم فرنسي في أفاميا ، بينما منح مصبح إقطاعية في الجوار . وسرعان ما استعاد الفرنج كفسر طاب وعهد بها إلى فارس يدعى ثيوفيلوس الذي مال إلى أن جعل من نفسه مصدر رعب لمسلمي شيزر .

أصبح تنكريد آمنا على حدوده الشرقية والجنوبية ؛ ومن ثم يستطيع أن يتحول إلى العدو الذي يبعثه البغض كله — بيزنطة . وفي صيف ١١٠٧ م ، وفي الوقت الذي كان يتهاى فيه بوهمند لمهاجمة المقاطعات الأوروبية ، اضطر ألكسيوس إلى نقل جنوده من الحدود السورية للتصدي لما يعتبره تهديدا أخطر ، فاستدعى كنيكاورينوس من اللاذقية مع كثير من رجاله ، وموناستراس من كيليكيا التي عهد بإدارتها إلى الأمير الأرمني سبارايد أوشين أوف لامبرون . وفي شتاء ١١٠٨ م ، أو أوائل ١١٠٩ م ، وبعد خذلان بوهمند في إيسيروس ، هاجم تنكريد كيليكيا . ولقد أخطأ الامبراطور الحكم على الرجال ؛ ذلك أن أوشين ينحدر من أسرة عريقة النسب، وكان مشهورا في شبابه بالشجاعة ، لكنه بات الآن مترفا كسولا ؛ وكان حصن المصيصة الواقع على نهر جيهان هو الباب المؤدي إلى كيليكيا . وعندما تقدمت قوات تنكريد برا عبر جبال الأمانوس ، وغزا أعلى النهر محاصرة المدينة ، تقاعس أوشين في التصدي له ، فسقطت المصيصة بعد حصار قصير . ويبدو أن تنكريد نصّب نفسه خلال الأشهر التالية حاكما على أضنة وطرسوس برغم بقاء غربي كيليكيا في أيدي الامبراطورية . ورجع أوشين نفسه إلى أراضيه في طوروس .

## ١١٠٩ م تنكريد في ذروة قوته

كانت اللاذقية قد استرجعت بالفعل . وحتى آنذاك ، كانت حركة النورماندين مقيدة لغياب القوة البحرية ؛ لكن البحرية البيزنطية تركزت الآن بعيدا في البحر الأدرياتيكي ، فتمكن تنكريد من شراء مساعدة أسطول مدينة بيزا ، التي طلبت أن يكون لمن مساعدتها أحد شوارع أنطاكية ، وحيثا من أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع . وكان بنزياس - الذي خلف كنداكورزينوس كفائد بيزنطى هناك - يفتقر إلى القوة اللازمة للمقاومة ؛ وفي ربيع ١١٠٨ م ضمت اللاذقية أخيرا إلى الإمارة الأنطاكية . وفي العام التالي توسع تنكريد جنوبا متزعا حيلة وبولونياس وقلعة المرقب من سيادة بنى عمار التي أفل نجمها .

وهكذا ، وعندما كان برهموند يستسلم للإمبراطور ويوقع على تنازله عن استقلاله ، كان تنكريد في ذروة قوته ، ولم يكن على استعداد بأي حال لأن يطيع المرسوم الإمبراطوري ؛ فسلطانه الرئيسي يمتد من طوروس إلى الجزيرة ووسط سوريا ، وكان حاكم أنطاكية والزها ، رغم أنه كان مجرد الوصى عليهما في الواقع؛ لكن الأمير برهموند يعيش الآن في إيطاليا محزنا ولن يعود إلى الشرق أبدا؛ والكونت بلدوين يعاني الوهن في الأسر التركي ، ولن يبذل تنكريد أي جهد لإنقاذه من الأسر ؛ وأمير حلب تابعه بالفعل؛ ولن يجرو أحد من حيرانه على مهاجمته . لقد انتصر في تحديه لوريث القياصرة في القسطنطينية . وعندما استقبل سفراء الإمبراطور في أنطاكية الذين وفدوا لتذكيره بالتزامات خاله ، طردهم في عجرفة . وكان - كما قال عن نفسه - نينوس الآشوري العظيم ، عملاق لا يقدر إنسان على مقاومته .

على أن للعجرفة حدودها . فبرغم ذكائه ، كان بغيشا غير مأمون الجانب . وكان زملاؤه الصليبيون هم الذين تحدوا قوته وقضوا عليها.





---

## الفصل الرابع:

### تولوز وطرابلس



## تولوز وطرابلس

"جَدْ بُنَانٌ إِلَيْكَ يَا نَبِيَّ"

(اشعيا ٦٠ . ١٣)

كان ريموند كونت تولوز الأكثر ثراءً ومجيزاً من بين جميع الأمراء الذين انطلقوا في الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ م ، وقد توقع الكثيرون تعيينه قائداً للحركة . وبعد مضي خمس سنوات كان من أقل الصليبيين اعتباراً ، إذ كانت مشاكله من صنع يده . إذ على الرغم من أنه لم يكن أكثر جشعاً ولا أبعد طموحاً من أغلب رفاقه ، إلا أن عيلاءه جعل أعطائه واضحة جلية . وكانت سياسة ولائه للإمبراطور تركز على الشعور بالشرف والتبصر بفنون إدارة شؤون الحكم ، لكن ولائه بدأ لرفاقه حيلة خادعة ، ولم يمين من ولائه فمارا كثيرة إذ سرعان ما اكتشف الإمبراطور أنه صديق عاجز . وكان أتباعه يعمدون ما كان عليه من ورع ، ولكنه لم يكن له سلطان عليهم ، إذ أجبروه على الإسراع في رحيل مبكر أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ كما أظهرت كوارث ١١٠١ م مدى ضعف كفاءته في توجيه حملة عسكرية ، و انحدر إلى أدنى

درجات المهانة عندما اعتقله زميله الصغير تنكريد . وعلى الرغم من حفيظة الرأي العام إزاء تصرف تنكريد ، إذ يعدّ خرقاً لقواعد الضيافة والشرف ، لم يحصل ويموند على حريته إلا بتوقيع تنازله عن أبة مطالب في شمال سوريا ، ناسفاً دون قصد أساس اتفاقه مع الإمبراطور<sup>(١)</sup> على أنه كان يتميز بالمزجعة ؛ إذ أخذ على نفسه عهداً بالبقاء في الشرق ، وسقى بعهدده ، ولسوف بنحت لنفسه في الصخور إمارة.

#### بنو عمار أصحاب طرابلس

وكانت هناك منطقة لا مفر للمسيحيين من الاستيلاء عليها كى تستديم إقامتهم في الشرق . إذ تفصل بين فرنج أنطاكية والرها وبين اخوانهم في القدس من ناحية أخرى، مجموعة من الإمارات الإسلامية ، أهمها إمارة بنى عمار في طرابلس وعلى رأسها زعيم العائلة المسلم القاضي فخر الملك أبو على الذى كان يحكم منطقة غنية برغم ضآلة جيشه . وكانت سياسته الماهرة مع جيرانه هي سياسة الإسترضاء لإزعاجهم جميعاً حتى وإن تعارضت مع مبادئه ، فاستطاع الحفاظ على استقلال هش يرتكز - كملاذ أخير - على قوة عاصمته المحصنة في شبه جزيرة الميناء . وكان كلما اقترب الفرنج من أراضيهم يظهر لهم الكثير من المودة ، وزود الحملة الصليبية الأولى بالموث ، ولم يعارض قادتها عندما حاصروا مدينته أرقا ، وقدم لبلدوين البولوني مساعدات قيمة أثناء رحلته الشائكة لتسلم تاج القدس . وعندما انسحب الصليبيون من مدينتى طرطوس وبرزية إلى مسافة بعيدة استولى عليهما بهدوء . وهكذا كان يتحكم في الطريق الساحلى كله من اللاذقية وجبله حتى بحمية بيروت الفاطمية<sup>(٢)</sup>.

وكان الطريق البديل الذى يربط بين شمال سوريا وفلسطين يمضى أعلى وادى العاصى مروراً بمدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينة حماء التى تدين بالولاء لرضوان ، وحمص حيث يحكم جناح الدولة زوج أم رضوان ، ثم يتشعب الطريق من هناك ؛ فيمضى فرع منه خلال البقاع إلى طرابلس والساحل ، وهو طريق ويموند الذى سلكه في الحملة الصليبية الأولى ؛ ويمضى الفرع الثانى مباشرة وراء بحمية بعليك الدمشقية إلى

(١) أنظر أعلاه ص (٦٥).

(٢) أنظر أعلاه ص (٣٧) ، وكذلك مقال "Sobernheim" ابن عمار "Ibn Ammar" في دائرة المعارف الإسلامية. *Encyclopaedia of Islam* وقد أعطى الشيخ الخليلي في مجلة مدينته هذه لبورى - ابن دقاق - لكن غير الملك أوقف هذه المعلية.

## منايع نهر الأردن.

وراح ريموند - الذي لم تكن طموحاته متواضعة أبداً - يتأمل في إنشاء إمارة تتحكم في كل من الطريق الساحلي ووادي العاصي تكون عاصمتها حمص التي يطلق عليها الفرنج لاشاميل La Chamelle ، على أن هدفه الأول كان مدن الساحل، والأرجح أنه قرر ذلك في وجود سفن جنوا التي قد تساعده . وبعد أن أطلق تنكريد سراحه في الأيام الأخيرة من عام ١١٠١ م انطلق من أنطاكية مع من تبقى على قيد الحياة من أمراء الحملات الصليبية في عام ١١٠١ م ، وهم : ستيفن أوف بلوا ، ووليم الأكيتاني، وويلف البافاري ، ورفاقهم ؛ وكانوا يتلهمون على إمام رحلة الحج إلى القدس . وفي اللاذقية اجتمع الشمل مرة أخرى مع زوجته وجنوده، وساروا جميعاً إلى طرطوس . وبوصوله خارج أسوار المدينة ، شاهد أسطول جنوا الصغير راسياً قبالة الشاطئ، وكان يعقد الأمل على مساعدته. وكان حاكم المدينة قد أبدى مقاومة ضعيفة قبل هذا التهديد المزدوج من البحر والبحر ، وفي منتصف فبراير تقريباً دخل ريموند طرطوس مع من رافقه من المرتجلين ، الذين وافقوا دون نقاش على أن تكون المدينة مدينته . وظنوه سيصحبهم بعد ذلك إلى القدس ؛ لكن رفضه أغضبهم ، وعتوه بنعوت الكفر حسب ما ذكره المؤرخ فولشر أوف تشارتر؛ لكنه قرر أن تكون طرطوس نواة أملاكه، فاستأذنه وواصلوا رحلتهم جنوباً<sup>(٣)</sup>.

ولم يحاول ريموند إخفاء مخططاته ، مما جعل ناقوس الخطر يذق في العالم الإسلامي؛ وأرسل فخر الملك إلى أمير حمص وإلى دقاق الدمشقي يحذرهما. وعندما ظهر ريموند أمام أسوار طرابلس اتضح أن جيشه يزيد قليلاً على ثلاثمائة رجل ، وظن المسلمون أن اللحفظة قد حانت لتدميره، وسارع الدقاق بتقديم ألفي فارس، وقدم جناح الدولة مثلهم وأكثر، واستنفر بنو عمار جيشهم كله؛ وعندما تجمع الحشد الإسلامي في السهل المطل على المدينة كان واضحاً أنه يفوق جيش ريموند بعشرين ضعفاً.

## ١١٠٢ م إنتصار ريموند أمام طرابلس

لم نجد فيما كتبه مؤرخو الصليبيين عن أعمال ريموند سوى النثر اليسير، وإنما نعلم

(٣) Fulcher of Chartres, II, xvii, 1-2, pp. 433-5; Albert of Aix, VIII, 43, p. 583; Caffaro, Liberation, p. 69 يقول إن أسطولاً من جنوا قدم المساعدة.

عن هذه المعركة غير العادية التي قلت من المؤرخ العربي ابن الأثير . فقد وضع ريموند مائة من رجاله في مواجهة الدمشقيين ، ومائة في مواجهة بني عمار ، وخمسين في مواجهة رجال حمص ، والخمسين الباقين لحرسه الخاص . وبدأ جنود حمص المحجور ؛ لكنهم فشلوا فأصابهم الذعر فجأة ، وانتشر الذعر بين الدمشقيين . وأما جنود طرابلس فكانوا يبرزون تقدماً ؛ وعندما وجد ريموند أن أعداءه الآخرين يلوذون بالفرار تحول إلى جند طرابلس بمبيشة كله ؛ فكانت صدمة مفاجئة فاقت احتمالهم ، فاستداروا هم أيضاً ولاذوا بالفرار . واندفع فرسان الفرنج في ساحة القتال مجهزون على كل المسلمين ممن لم يتمكن من الحرب . ويقدر المؤرخ العربي عدد المهلكين من إخوانه في الدين بسبعة آلاف رجل.

لم يسر جمع النصر سمعة ريموند وحسب ، بل ضمن كذلك بقاء مملكته اللبانية . ولم يجرؤ المسلمون على مهاجمته مرة أخرى البتة . على أن قواته كانت من الضالة بحيث لم يتمكن من الإستيلاء على طرابلس ذاتها بتحصيناتها المائلة في شبه جزيرة الميناء . وبعد أن فرض إتاوة باعظة من المال والخياد عاد إلى طرطوس للتخطيط لحملة التالية<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن أمضى الأشهر التالية في توطيد مواقفه في جوار طرطوس ، انطلق في ربيع ١١٠٣ م لغزو البقاع ، وهي غزوة ضرورية لعزل طرابلس وللتوسع باتجاه وادي العاصي . وفشلت محاولته في مباغتة قلعة طربان الواقعة في مدخل الوادي الشمالي الشرقي ، لكنه حط رحاله غير هيباب وحاصر قلعة الحصن المائلة التي تسيطر على الوادي كله ، والتي سبق أن احتلها جنوده لمدة أسبوع عام ١٠٩٩ م ؛ والقلعتان تابعتان لجناح الدولة الحمصية الذي لم يكن يوسعه أن يفقداهما ؛ فجرد جيشاً لإنقاذهما . بيد أنه أثناء خروجه من الجامع الكبير في حمص بعد صلاة الدعاء بالنصر ، قتله ثلاثة من الحشاشين مما أشاع الإضطراب والفوضى في المدينة . وعلى الفور رفع ريموند الحصار عن قلعة الحصن وسار شرقاً ليتنهرز هذه النهضة . وينسب الرأي العام تلك البرعمة إلى عملاء رضوان الذي لم يغفر لجناح الدولة مطلقاً هجوم الأيوبيين عليه قبل ذلك بثلاث سنوات بينما كان يقاتل الفرنج في أنطاكية . وفزعت أرملة جناح - وهي أم رضوان - من اقتراب ريموند؛ فأرسلت إلى حلب تعرض المدينة على رضوان . ولم

(٤) (p.525) Sibte ibn al-Djauzi; Ibn al-Athir, pp. 211-12; يذكر أن مكان المعركة خارج طرطوس وكذلك يذكر Caffaro, *Liberatio*, loc. cit. Radulph of Cses, cxlv, p. 707

يوافقها مستشارو جناح في ذلك ، وإنما استدعوا دقاق الدمشقي لإنقاذهم بدلاً من رضوان ؛ فأتى دقاق بنفسه على عجل وبصحبته أتابعه ملغتنك السدي عهد إليه بحكومة حمص، ولم يكن ريموند في وضع يستطيع فيه محاربه ، فانسحب إلى الساحل<sup>(٥)</sup>.

ولدى عودته إلى طرطوس علم برحيل أسطول صغير من جنوا يتألف من أربعين سفينة ألقت مراسيها في اللاذقية ، فاستأجاره من فوره لمساعدته في الهجوم على طرابلس ؛ لكن الهجوم باء بالفشل ، فرحل الخليفان جنوباً واستوليا على ميناء جبيل ، أو جبيل ، الذي كان القدماء يطلقون عليه إسم بيلوس ؛ وكوفيء أبناء جنوا بثلاث المدينة<sup>(٦)</sup> لكن ريموند كان قد عقد العزم على غزو طرابلس نفسها ؛ وفي الأشهر الأخيرة من عام ١١٠٣ م ضرب معسكره في ضواحي المدينة وشرع في تشييد قلعة ضخمة فوق سلسلة من التلال في الداخل تبعد حوالي ثلاثة أميال عن المدينة . وقبل ذلك بفترة وجيزة حاول إقناع تنكريد بالتجول عن اللاذقية ، إرضاء لبيزنطة ، فكافأته بيزنطة بأن أمدته من قروض مواد البناء والبنائين المهرة . وبحلول ربيع عام ١١٠٤ م اكتمل بناء القلعة وحل بها ريموند وأسماعيل جبل الحجاج ، وهي التي يسميها العرب قلعة سنحيل ، أي قلعة سان جبل<sup>(٧)</sup>.

#### ١١٠٥م: موت ريموند

بانت طرابلس الآن في حالة حصار دائم ، لكنها ظلت منيعة ؛ إذ كان ريموند يسيطر على الداخل البرية لكنه لا يملك القوة البحرية الدائمة . وكان بنو عمار لا يزالون يحتفظون بأسطول تجاري كبير ، ولديهم الكثير من الثروة المكسدة ، فاستمروا في إحصار الموانئ المصرية في الجنوب لكن قلعة ريموند كانت تهدد حريتهم ؛ فخرجوا في أواخر الصيف وحرقوا الضواحي حتى أسوارها ، وأصيب ريموند نفسه عندما وقع عليه سقف محروق . وفي أوائل الربيع التالي أمكن إغراء فخر الملك بخريب عقد

(٥) Ibn al-athir, p. 213 والتاريخ الذي ذكره غامض. 1-590, Kemal ad-Din.

(٦) Albert of Aix, IX, 26, pp 605-6; Caffaro, Liberatio, p. 71

(٧) Anna Comnena, XI, viii, 5, vol. III, p. 380; Albert of Aix, ix, IX, 32, P. 510; Caffaro, iberatio, p.70; RadulphofCaen, loc.cit.; William of Tyre, X, 17, p. 441; Ibn al-Athir, pp. 217-18; Abu'l Mehasin, p.275.



هدنة مع المسيحيين تخلى لهم بموجبه عن الضواحي. وما أن تمت المفاوضات حتى مرض ريموند مرض الوفاة ولم يكن قد شفى تماماً من جراحاته التي أصابته قبل ذلك بستة أشهر ، ومات في جبل الحاج يوم ٢٨ فبراير عام ١١٠٥ م ، وبقيت له شهرته لما أقدم عليه من مغامرات تغلب عليها الشجاعة في سنواته الأخيرة . ونعاه عارفوه على أنه فارس مسيحي عظيم فضّل شتات الحرب على متع الوطن كلها<sup>(٨)</sup>.

وكان جديراً بما نسب إليه . فعلى خلاف زملائه الصليبيين - المستقرين الآن في الشرق بعد أن كانوا فقراء لا شأن لهم بذكر في أوطانهم - كان لدى ريموند ميراث ضخم في أوروبا ؛ وبرغم قسمه بعدم العودة إلى ميراثه أبداً ، كان مع ذلك يحتفظ بنوع ما من السيطرة على أملاكه هناك . وبموته برزت مشكلة استخلافه في تولوز فضلاً عن لبنان . فقد ترك تولوز يحكمها برتراند أكبر أبنائه ، الذي حامى الشكوك حول حقه في وراثة الكونتية ، ربما لأنه كان ابن سفاح . ولقد مات جميع أبناء ريموند من الكونتيسة ألفيرا فيما عدا ولد صغيره ، ألفونسو جوردون ، الذي ولد قبل أشهر قليلة في قلعة جبل الحجاج ، ولا يستطيع طفل أن يحكم دولة عسكرية لها وضعها الشائك في لبنان ، وربما لم يكن وجوده نفسه معروفاً بعد في تولوز . واستمر برتراند مباشر إدارة أراضي أبيه الأوروبية . وفي الشرق اختار جنود ريموند - وربما توافق اختيارهم مع آخر رغبات ريموند - ابن عمه ولیم جوردون ، كونت سردينيا (الواقعة على جبال البرانس) ، والذي وصل إلى الشرق مؤخراً ، وكانت جدته لأمه هي خالة ريموند . وقد اعتبر نفسه وصياً على ابن عمه الطفل ألفونسو ، وأبى أن يأخذ أية أملاك من أراضي في الشرق . بيد أنه ظلماً بقي ألفونسو جوردون على قيد الحياة ، فلم يتوفر الأمن في حكومة ولیم جوردون ولا في حكومة برتراند<sup>(٩)</sup>.

(٨) Albert of Aix, loc.cit.; Carraro, *Liberatio*, p. 72; Bartolf of Nangis, LXVIII, p. 539.

(٩) Histoire de Vaissette في تاريخه Albert of Aix, IX, 50, pp. 123-4. ويطبق لما ذكره Languedoc, ed. Molinier, vol. IV, I, pp. 195-9. ولد برتراند ابن ريموند من زوجته الأولى إيسة مريكة بروغانس . وأبطل هذا الزواج فيما بعد على أساس القرابة الوثيقة التي تحفظه . ولا يترب على هذا الإبطال دائماً إختيار لمرته أولاد سفاح . ولكن من الواضح أنه على الرغم من أن ريموند اعتبر برتراند ورثته في تولوز حينما رحل إلى الشرق بصحبة أولاده من ألفيرا (وهم غير معروفين من ناحية الذكورة والأنوثة)، فإن مطالب برتراند تعتبر أدنى من مطالب ألفونسو جوردون الشرعية الناشئة في تولوز وفيما بعد تسببت مطالب ألفونسو جوردون حول مطالب في إزعاج حفيد برتراند ، ريموند الثاني (أنظر أدناه، الباب الثالث ، الفصل الثالث) أما William of Malmesbury ، الذي لا يتوصل بدقة دائماً، فيسمي برتراند ابن ريموند العشيق (II, 9. 456) ويسميه كذلك المعاصر Calffaro (Liberatio, p. 72) ابن الحرام.

وسار ولیم جورڈن على سياسة سلفه ، مضيقا الحصار ومحتفظا بالتحالف مع بيزنطة . وأرسل له حاكم قبرص ، إيوانئوس فيلوكاليس ، بناء على تعليمات الإمبراطور ، سفيرا لتلقي تعابير الاحترام ، وإزاء ذلك أعطاه الهدايا القيمة . ونتيجة لامتنال ولیم جورڈن لبيزنطة ، دأبت قبرص على إرسال إمدادات منتظمة للفرنجة الموجودين أمام طرابلس . ومن حين لآخر كان جنود بيزنطة يساعدون في حصار المدينة . وتدفق الطعام على المعسكر الفرنجي في الوقت الذي هددت فيه الخجاعة سكان طرابلس ؛ إذ تعلز وصول الطعام برا ، ولم يعد يكفي هذا العدد الكبير من السكان ما تنقله السفن من الموانئ الفاطمية ، فضلا عن الطعام الذي كان يتسلل عن طريق أراضي تكريد التي تخترق الحصار؛ وارتفعت أسعار المواد الغذائية إرتفاعا خياليا ، بحيث أصبح سعر رطل التمر قطعة ذهبية ؛ وهاجر كل قادر على الفرار من المدينة ، ولم يبق داخل الأسوار سوى البؤس والمرضى ، اللذين حاول فخر الملك تخفيفهما بتوزيع الطعام على الجنود والمرضى وتسديد أثمانها من ضرائب خاصة . وهرب بعض نبلاء المدينة إلى معسكر الفرنج ، وكشف اثنان منهم للمحاصرين الممرات التي لا تزال الأطلعمة تهترأ عن طريقها إلى داخل المدينة . وعرض فخر الملك على ولیم جورڈن مبالغ طائلة لقاء تسليمه هذين الحائزين ؛ وعندما رفض الكونت تسليمهما وجدا مقتولين في المعسكر المسيحي<sup>(١٠)</sup>.

#### ١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة

لم يجد فخر الملك من يلجأ إليه طلبا للعون ؛ فعندما طلبه من الفاطميين أصروا على ضم دويلته إليهم؛ ولسبب أو لآخر لم يكن على علاقة طيبة مع طغتكين صاحب حمص، وهو أقرب الخلفاء إليه ، وقد تولى حكم دمشق بعد موت الدقاق في ١١٠٤م ، وقد دأب هو نفسه على محاربة ولیم جورڈن . وبدا له أن أقاصي الخلفاء هم الأكثر حرصا عليه ، فأرسل في سنة ١١٠٥م نداء عاجلا إلى سقمان الأرتقي حاكم ماردین الذي لم يكن عزوفا عن معاودة الدخول في ساحة الصراع في الساحل السوري ، فانطلق مع جيش كبير عبر الصحراء . غير أنه مات فجأة لدى وصوله إليزاء ، وأسرع

(١٠) Anna Comnena, loc. cit.; ويقول ابن الأثير (Ibn al-Athir, p. 236) إن المدينة تلقت إمدادات جيدة من الإغريق في اللاذقية.

قواده بالعودة إلى الجزيرة ليختلفوا حول استخلافه<sup>(١١)</sup>.

ويمكن فخر المالك طوال عامي ١١٠٦ و ١١٠٧ م من تدبير أمره في طرابلس وسط البؤس المتزايد بفضل ما كان له من ثروة وما انصف به من دبلوماسية ؛ فتحسنت علاقته بطغتكين الذي استطاع مساعدته بعد أن استعاد رفته من الفرنج سنة ١١٠٥ م محوّلًا بذلك إتيابهم عن طرابلس<sup>(١٢)</sup>؛ على أن أقدام الفرنج باتت راسخة الآن على الساحل اللبني ، وليس هناك من الجيران المسلمين من يتوفر لديه الاستعداد ، أو الاقتدار ، لطردهم . وفي ربيع ١١٠٨ م ، قرر فخر الملك وهو في غمرة اليأس أن يلتمس المساعدة بنفسه من الخليفة العباسي في بغداد ، ومن أكبر عاهل هناك وهو السلطان محمد السلجوقي.

وانطلق من طرابلس في شهر مارس بعد أن عهد إلى ابن عمه أبو المناقب بن عمار بتصرف شؤون الحكم ، وبعد أن أمر بمنح جميع الجنود راتب ستة أشهر مقدما . وكان قد أطلع طغتكين على نيته ، ويبدو أنه حصل على إذن من وليسم جوردون بالمرور من الأراضي التي يسيطر عليها الفرنج ؛ واضطحب معه حرسا خاصا يتألف من خمسمائة رجل ، كما حمل العديد من الهدايا للسلطان . وبوصوله إلى دمشق إستقبله طغتكين بمظاهر الاحترام اللائق ، وأمطره أمراء دمشق البارزون بالهدايا ، برغم توجيحه الخيطة ونزوله خارج أسوار المدينة . وعندما شرع في مواصلة الرحلة انضم إلى حرسه ابن طغتكين ، تاج الملك بوري . وعلى مشارف بغداد استقبل بأسمى آيات التشريف ؛ إذ أرسل إليه السلطان زورقه الخاص ليدير به نهر الفرات ، وأجلسه على الوسادة التي تتشرف عادة بجلوس السلطان نفسه عليها . ورغم أن فخر الملك ليس له من لقب قط سوى لقب القاضي ، فقد دخل بغداد بالثريقات التي لا تجرى إلا لعاهل أمير . وأظهر كل من الخليفة و السلطان مشاعر تعاطفهم الأخوية ، وأتيا على ما قدمه للدين من خدمات . على أنه حينما بدأت المناقشة الجدّية سقط القناع عن حواء تلك المحاملات ؛ إذ وعده السلطان بإرسال جيش سلجوقي كبير لتخليص طرابلس ، ولكن هناك أولا بعض المهام الصغيرة التي يتعين إنجازها بالقرب من بغداد ، فمثلا ينبغي تأديب جاول أمير الموصل حتى يظهر من الطاعة أكثر مما هو عليه . وأدرك فخر الملك حقيقة أن محمدا عزوف عن التدخل في مسألة طرابلس . وبعد مرور أربعة أشهر عقيمة ومزقة في بلاط

(١١) Ibn al-Athir, pp. 226-7.

(١٢) Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 60; Ibn al-Athir, p. 230.

السلطان شرع في رحلة العودة إلى وطنه ليكتشف أنه لم يعد له وطن<sup>(١٣)</sup>.

ذلك أن أبنا المناقب ووجهاء طرابلس كانوا واقعيين ؛ وتحققوا من أن القسوة الإسلامية الوحيدة القادرة على مساعدتهم هي القوة الفاطمية التي مازالت تسيطر على البحار ، فتوجهوا إلى الوزير المصري الأفضل ملتجئين لإرسال حاكم يتولى شؤون المدينة، وإستجابة لرغبتهم أرسل شرف الدولة الذي وصل طرابلس في صيف ١١٠٨م حاملا معه الحبوب للسكان ؛ ولم يجد صعوبة في إحكام سيطرته على المدينة؛ إذ اعتقل أنصار فخر الملك وأرسلهم بحرا إلى مصر . وكان فخر الملك قد وصل في طريق عودته إلى دمشق قبل أن يعلم بهذه الثورة ، وكان لا يزال يمتلك جيلة الواقعة إلى الشمال من طرابلس ، فولى وجهه شطرها، لكن حكمه هناك لم يدم طويلا ؛ فقد نهض تنكريد الأنطاكي في شهر مايو ١١٠٩ م بكامل قوته أمام المدينة ، فاستسلم فخر الملك بعد أن اضطر الإحتفاظ بالمدينة كإقطاعية من تنكريد ؛ لكن هذا الأخير خان وعده ، فاضطر فخر الملك إلى الرحيل إلى دمشق دون أن يتحري به تنكريد ليتقاعد فيها، وقضى ما بقي من حياته يتقاضى معاش تقاعده من طغتكين<sup>(١٤)</sup>.

١١٠٨ م : برتراند التولوزي يرحل إلى الشرق

مع أن فخر الملك فقد طرابلس ، لم يستطع المصريون الإحتفاظ بها ، كما لم يتمكن وليم جورون من الفوز بها؛ إذ أنه بموت ريموند وافق بارونات تولوز على إستخلاص برتراند، فقد حكمهم بالفعل لما يقرب من عشر سنوات ، فضلا عن أنهم لم يعلموا بعد بوجود ابن شرعي لريموند. على أنهم بعدما علموا بوجود ألفونسو جورون الصغير ، أرسلوا إليه يستدعونه لتسلم حقه في الميراث ، ولا تلام الكونتيسة ألفيرا على إثارتها الأراضي الخصبة في جنوب فرنسا على لوردية وضعها شاتك في الشرق . فوصلت مع ابنها إلى تولوز سنة ١١٠٨م.

وبوصولهما ، كان لزاما على برتراند أن ينظر في مستقبله . والراجح أنه قد تم إعداد إتفاق عائلي ، يتخلى برتراند بموجبه عن مطالباته في أراضي أبيه الأوروبية ، مقابل تخلي ألفونسو جورون له عن ميراثه في لبنان وبذا يتخلص منه نهائيا في تولوز .

(١٣) Ibn al-Qalanisi, op.cit. pp. 83-6; Ibn al-Athir, pp. 255-7..

(١٤) Ibn al-Qalanisi, pp.86-90; Ibn al-Athir, p.274; Sibṭ ibn al-Jawzī, p.536.

وفى صيف ١١٠٨ م رحل برتراند إلى الشرق وقد عقد العزم على غزو طرابلس ليكون هذا الغزو بمثابة تنويع لإمارته التي تنتظره. وربما توقع بعض الصعوبات مع وليم جوردون ، ولذا اصطحب معه جيشا من أربعة آلاف فارس وراجل ، وأسطولا من أربعين قادسا<sup>(١٥)</sup> أمدته بها موانئ بروفانس ، واصطحب معه ابنه الصغير بونز . وكان ميناء جنوا أول مكان توقف فيه للزبارة آملا الحصول على المساعدة البحرية اللازمة للإستيلاء على طرابلس . وحاول وليم جوردون هو الآخر ترتيب تحالف مع أبناء جنوا، لكن سفارته وجدت أنهم قد قبلوا برتراند بالفعل حليفا للجمهورية . ووعدت جنوا بمساعدة برتراند على استلامه الأراضي التي غزاها أبوه في الشرق ونتيجتها بالإستيلاء على طرابلس التي سيحصلون فيها على مناطق تجارية مفضلة ؛ وفى الخريف أبحر أسطول من جنوا مع برتراند بإتجاه الشرق<sup>(١٦)</sup>.

ورتب برتراند أن تكون خطوته التالية هي زيارة القسطنطينية كي يضمن موازرة الإمبراطور ، صديق أبيه . ودفعت العواصف بأسطوله إلى خليج فولو ، وإلى مرفأ ألبورو حيث ترك رجاله إنطباعا رائعا بإحجامهم عما إعتاد عليه الغرب من نهب الريف . وترتب على ذلك أن استقبله ألكسيوس فى القسطنطينية بمشاعر التعاطف وعامله كإبنه، وأغدق عليه من الهدايا الثمينة ، ووعده بميزات إمبراطورية ؛ وفى مقابل ذلك أقسم على الولاء للإمبراطور<sup>(١٧)</sup>.

وأبحر برتراند من القسطنطينية مع حلفائه أبناء جنوا إلى ميناء السويدية الأنطاكي، وأرسل مبعوثا إلى تنكريد كي يحضر لمقابلته ، فجاء تنكريد فى الحال . لكن المناقشة التي دارت بينهما لم تتخذ مسارا سلسا هينا؛ إذ طلب برتراند بأسلوب متعجرف أن يسلمه تنكريد الأجزاء من مدينة أنطاكية التي كانت فى حوزة أبيه ذات مرة ، ورد تنكريد بأنه على استعداد للنظر فى طلبه إذا ما ساعده فى حملته المرتقبة ضد المصبصة ومدن كيليكيا البيزنطية . ولم يلق هذا الإقتراح قبولا لدى برتراند الذى أقسم لنوره قسم الولاء للإمبراطور ألكسيوس ، لاسيما وأنه أدخل فى حسبانته المساعدات البيزنطية .

(١٥) (الرحم) القادس : سفينة شراعية بحرية كبيرة.

(١٦) يقول ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, XI, 3, p.664) إن برتراند زار بيزا وهو يعنى جنوا؛ Caffaro, *Liberatio*, p. 72.

(١٧) تقول آنا كومينا (Anna Comnena, XIV, ii, 6, vol. III, p. 149) إن برتراند أقسم قسم الولاء لألكسيوس عندما كان بالفعل فى طرابلس . ولكن ألبرت أوف آيكس (المرجع السابق) يذكر زيارته عن طريق هالميروس Halmyrus إلى القسطنطينية.

وبدلاً من ذلك عرض على تنكريد أن يغزو له مدينة جبلة التي لاذ بها فخر الملك ، ولكن تنكريد أسرّ على التعاون معه في حملة كيليكيا . وبرفض برتراند ومصارحته بالقسم الذي أقسمه للإمبراطور ، أمره تنكريد بمغادرة الإمارة ، وأصدر أوامره لرعاياه ألاّ يبيعوه شيئاً من المون ؛ فاضطر برتراند إلى الرحيل مبحراً جنوباً إلى ميناء طرطوس<sup>(١٨)</sup>.

#### ١١٠٩م برتراند ووليم جوردون

كان أحد نواب وليم جوردون حاكماً على طرطوس . وسارع باستقبال برتراند في المدينة ، وزوده بكل ما كان في حاجة إليه من المون . وفي اليوم التالي أرسل برتراند مبعوثاً إلى مقر وليم جوردون الرئيس في جبل الحجاج طالباً تسليم كل تركة أبيه في أراضي لاشاميل La Chamelle ، أي إمارة حمص ، التي كان ريموند يأمل في إنشائها . لكن وليم جوردون كان قد حقق مؤخرًا نجاحاً ملحوظاً . إذ عندما تولى المصريون حكم طرابلس قام أهالي مدينة أرقا - التي كانت تحت قيادة واحد من غلمان فخر الملك المفضلين - بوضع المدينة تحت حماية طغتكسن الدمشقي الذي خرج بنفسه لتفقد محميته الجديدة ؛ و لكن أمطار الشتاء أحرّت تقدمه في البقاع ؛ وأثناء إنتظاره تحسن الجو هاجم بعض الحصون التي بناها المسيحيون بالقرب من الحدود ؛ فزحف وليم جوردون مع ثلاثمائة من الخيالة ومائتين من المشاة المحليين فوق كتف جبل لبنان وباغته بالإنقضاض عليه بالقرب من قرية الأكمة ، فهرب طغتكسن مع جيشه الدمشقي مذعوراً إلى حمص والفرنجة في أعقابهم يطاردونه ، لكنهم آثروا عدم المغامرة بمهاجمة المدينة وإنما تحولوا شمالاً للإغارة على أراضي شيزر . وعلم أميراً شيزر مرشد وسليمان ، وهما من المنقذين ، بأن جيش الفرنج صغير ، فخرجوا وهما على ثقة من هزيمته بيسر ، لكن الفرنج بادروا بهجوم ضار كسر رجال شيزر فلاذوا بالفرار وعاد وليم جوردون إلى أرقا التي استسلمت له بعد حصار لا يزيد على ثلاثة أسابيع<sup>(١٩)</sup>.

وانتشى وليم جوردون بانتصاراته ، ولم يكن في حالة تسمح له بالتنازل عما يطلبه برتراند، ورد عليه قائلاً إنه يمتلك أراضي ريموند بحق الوراثة ، فضلاً عن أنه دافع عنها

(١٨) Albert of Aix, XI, 5-7, PP. 665-7.

(١٩) Usama, ed. Hitti, p. 78; Ibn al-Athir, pp. 226-7.

ووسع من رقعتها . على أنه استشر الخضر من ضخامة أسطول برتراند ؛ فاستجد بأنطاكية ملتصقا تدخل تنكريد لصالحه بعد أن وعد بأن يصبح تابعاً لتنكريد . واضطر برتراند إلى إتخاذ إجراء مناظر، فأرسل مبعوثاً إلى القدس يعرض قضيته على الملك بلدوين ويناشده التدخل بصفته الحكم الأعلى لفرنح الشرق ، ومن ثم يعترف بسيادته عليه<sup>(٢٠)</sup>.

واستجاب بلدوين من فوره للنداء . ذلك أن حنكه السياسية ترى ضرورة تعاون فرنح الشرق، وصوّره له طموحه أنه قائدهم . وكان غاضباً أشد الغضب على تنكريد من موقفه إزاء بلدوين الرها وجوسلين أوف كورتناي . وتحرك برتراند جنوباً إلى طرابلس حيث كان الجيش يقوم بمهمة مزدوجة : مواصلة حصار المدينة الإسلامية ، ومحاصرة أعوان وليم جوردين في جبل الحاج . وفي ذات الوقت كان وليم جوردين قد غادر جبل الحاج واحتل طرطوس مرة أخرى ، ولبت فيها ينتظر تنكريد . وما أن وصل حتى جاء مبعوثان من الملك بلدوين ؛ هما إيرستلس جازنييه وباجان أوف حيفا ، وأمرهما بالثول في بلاط الملك أمام طرابلس لتسوية مسألة ميراث ريموند، وإعادة الرها وتل بشير إلى أصحابهما الشرعيين. وود وليم جوردين لو أن تنكريد يرفض هذا الاستدعاء ، لكن تنكريد تحقق من عدم جدوى التحدي.

وفي شهر يونية تجمع أمراء فرنح الشرق جميعاً عارح أسوار طرابلس ؛ فحضر برتراند مع جيشه ، وجاء الملك بلدوين من الجنوب وبصحته خمسمائة فارس ومثلهم من المشاة ، وأحضر تنكريد سبعمائة من أقدر فرسانه ، ووصل بلدوين الرها وجوسلين مع الحرس . وانهقدت جلسة وقورة في قلعة جبل الحاج أسفرت عن مصالحة رسمية بين تنكريد وبلدوين الرها وجوسلين ، بينما تقرر تقسيم الميراث التولوزي بأن يحتفظ وليم جوردين بطرطوس وما غنمه غزواً - أي أرقاً ؛ ويحصل برتراند على جيبيل وطرابلس فور الاستيلاء عليها . وأقسم الأول قسم الولاء لتنكريد ، وأقسم الثاني قسم الولاء للملك بلدوين . ويقضى الاتفاق بأنه في حالة وفاة أي منهما يرث الآخر أراضيها<sup>(٢١)</sup>.

(٢٠) Fulcher of Chartres, II, xi, I, pp. 526-30; Albert of Aix, XI, 1-2, 8, pp. 663-4, 666.

(٢١) Fulcher of Chartres, II, xli, I, p. 531; Albert of Aix, XI, 9-12, pp. 666-8.

## ١١٠٩م استسلام طرابلس

وحل السلام بين القادة ، وشرع الجيش الفرنجي حادا في الإستيلاء على طرابلس . وكان الحاكم المصري شرف الدولة لا يزال يلح بالناس في طلب المساعدة من السلطات المصرية التي شغلها مكائد قادتها وخلافاتهم ، فتأخر ما جهزته في موانئ الدلتا من أسطول ضخيم وسفن من ناقلات الجنود وقوارب محملة بالإمدادات . وكانت الشهور تمضي والوزير يحاول تهدئة الخلافات بمحاولات متقوصة ، إلى أن صدرت الأوامر أخيرا بالإجتار . غير أن الرياح الشمالية هبت واشتدت مما عرقل إبحار السفن من الميناء، وعندما أبحرت في نهاية الأمر وقد نقص عددها ، كان السيف قد سبق العذل<sup>(٢٢)</sup>.

وتلفت حامية طرابلس فوجدت أساطيل جنوا وبروفانس تعزلها بحرا ، وآلات الفرنج تقصف أسوارها فتعجزها برا ؛ فنفضت عن نفسها فكرة المقاومة ، وأرسل شرف الدولة إلى الملك بلدوين يعرض تسليم المدينة بشرط السماح للمواطنين الراغبين في الهجرة بالرحيل آمين ومعهم منقولاتهم، وأن يسرى على المواطنين الراغبين في البقاء ما يسرى على رعايا الفرنج ، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم ، وإنما يدفعون ضريبة سنوية معينة، وأن يسمح له هو نفسه بالرحيل مع جنوده إلى دمشق . فوافق بلدوين ودخل المسيحيون طرابلس يوم ٢١ يولية ١١٠٩م.

وأما بلدوين ، فقد احترق إنفاقه ولم يحدث في المناطق التي كان يباشرها نهب أو تخريب ، وأما بحارة جنوا فقد اقتحموا المدينة العاربة من أي دفاع ، وراحوا ينهبون المنازل ويحرقونها ، وأخذوا يقتلون كل مسلم يقابلهم ؛ ولم تتمكن السلطات من كبح جماحهم إلا بعد فترة من الوقت ، وأثناء النهب والشغب أحرقوا مكتبة بنى عمارة العظيمة عن آخرها وهلكت كل محتوياتها. وكانت أروع مكتبة في العالم الإسلامي<sup>(٢٣)</sup>.

وبعد الإستيلاء على كامل المدينة وفرض النظام تم تنصيب برتراند حاكما لها ومُنح لقب كونت طرابلس ، وأعاد تأكيد تبعيته لملكة القدس . وضرب بتعهداته للإمبراطور ألكسيوس عرض الحائط . وكوفئ أبناء جنوا بغير من أحياء طرابلس ، وقلعة تعرف

(٢٢) Ibn al-Athir, p. 274; Ibn al-Qalanisi, p. 89

(٢٣) Fulcher of Charters, II, xli, 2-4, pp. 531-3; Albert of Aix, XI, 13, p. 668; Ibn al-Qalanisi, pp. 89-90; Ibn al-Athir, loc. cit.; Abu'l Mahasin, p. 489; Ibn Hurdun, p. 455; Sibṭ ibn al-Djauzi, p. 536.



بقلعة الكونتستابل تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من طرابلس، وبالثلاثين الباقيين من مدينة جبيل بعد منحها للأدميرال هيو أمبرياكو، وقد حرّلتها ذريته إلى إقطاعية وراثية<sup>(٢٤)</sup>.

ولم ينتظر برتراند طويلاً ليستحوذ على ميراث أبيه كله في الشرق، إذ أصيب وليم جورودن بسهم أثناء تواجد الجيش الفرنجي في طرابلس، وبقيت ملاسمات مقتله غامضة. ويبدو أنه اندفع لفض شجار شب بين اثنين من سائسي الخيل، وأثناء محاولته الفصل بين الرجلين أطلق البعض عليه سهماً. ويقينا حامت الشبهات حول برتراند، ولكن دون يّنة. وعلى الفور تسلم برتراند جميع أراضي وليم جورودن، التي أصبحت إذن تدعى بالولاء للملك بلدوين. ولقد واهن تنكريد على الحصان الخاسر<sup>(٢٥)</sup>.

وهكذا تحققت طموحات ريموند في تأسيس دولة في الشرق أقامها ولده. ولكنها كانت إمارة ثقل عمّا كان يراود خياله، ولم تكن أراضي "لا شاميل" جزءاً منها فقط، وبدلاً من الاعتراف بسيادة الإمبراطور البعيد في القسطنطينية، أصبح لها سيد أعلى على مقربة في القدس. على أنه كان ميراثاً غنياً مزدهراً. وكان لهذه الإمارة، بما لها من ثروة وموقع يربط فرنج شمال سوريا بفرنج فلسطين، دوراً حيواً في تاريخ الحروب الصليبية.

(٢٤) Caffaro, *Libertio*, pp. 72-3. See Rey, 'Les Seigneurs de Gibelet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 399-403.

(٢٥) Fulcher of Charters, loc. cit.; Albert of Aix, XI, 15, pp. 669-70.

---

## الفصل الخامس:

### الملك بالدوين الأول

\_\_\_\_\_

## الملك بلدوين الأول

"قلبه صلب كالحجر وقاس كالرحى"  
(أبواب ٤١ - ٢٤)

اتضح بجلاء من تدخل الملك بلدوين في طرابلس سنة ١١٠٩ م أنه عاهل فرنج الشرق بلا منازع. وقد حظى بتلك المكانة بما كان له من دأب شاق صبور ومن حساسة المغامرة . وعندما وصل القدس بعد موت جودفري ، برغم معارضة البطريق دياميرت وحليفه أمير انطاكية (يوهيموند)، كان ما ورثه عبارة عن خزانة خاوية وممتلكات مبعثرة تتألف من سلسلة الجبال الوسطى في فلسطين وسهل اذدراليون ، وحصون نائية قليلة شيدت في أراض معادية ، وجيش بالغ الضآلة مؤلف من فرسان متعجرفين لا سلطة للقانون عليهم، ومرترقة من أهل البلاد لاثقة فيهم . ولم يكن في المملكة أية هيئة واحدة منظمه عدا الكنيسة التي تضم شيعتين : شيعة دياميرت ، وشيعة أرنولف . وكانت أسرة جودفري هي التي تتولى تصريف الإدارة المركزية ، وهي أسرة صغيرة غير جديرة بتولى حكومة بلد . وأما النبلاء الذين أركلت إليهم الحصون الحدودية ، فكانوا

يُحكمون أراضيهم بما يملئهم أهواؤهم.

ورأى بلدوين أن أخطر ما يهدد مملكته هجوم إسلامي قبل أن تنتظم أمورها. واعتقاداً منه بأن أفضل سبل الدفاع هي الهجوم، انطلق في حملة يرهب بها الكثرة قبل أن يجد حلاً لمشكلة علاقته مع ديامبرت، وقبل أن يوضع التاج على رأسه وهي مشكلة يرى أنها ملحة. وكان لأعماله الجريئة في الرها وانتصاره في نهر الكلب ما أضفى عليه سمعة مرعية وراح ينتفع بها. فلم يكذب عمر أسبوع على وصوله إلى القدس حتى انطلق جنوباً إلى عسقلان وسار أمام أسوارها مستعرضاً؛ بيد أن قلعة عسقلان كانت من القوة بحيث لا يستطيع جيشه المزيل مهاجمتها، فاتجه شرقاً إلى الخليل، فجنوباً داخل النقب، إلى زغر في الأرض الماخية في الطرف الجنوبي للبحر الميت، وراح يشعل الحرائق في القرى التي يقابلها في طريقه. وواصل مسيرته خلال قفار إيدوم (الشرارة) إلى جبل هارون حيث دير القديس هارون القديم بالقرب من البزاء. ورغم أنه لم يبق طويلاً في تلك المنطقة، فقد كان لمسيرته أثرها المروع على العرب، فأحجموا عن التسلل إلى أراضيهم في السنوات القليلة التي تلت<sup>(١)</sup>.

وعاد إلى القدس قبيل عيد الميلاد بقليل، وتوفر للطريق ديامبرت الوقت الكافي ليتدبر أمره، فاختار أن ينحني لعاصفة قدره المحتوم. وفي عيد الميلاد من عام ١١٠٠م وضع تاج الملك على رأس بلدوين معلناً تنصيبه ملكاً على القدس، وفي المقابل آلت إليه البطريرقية.

وفي بدايات ربيع ١١٠١م علم بلدوين بأن قبيلة عربية ترمية تعبر وادي الأردن، فسارع إليها على رأس كتيبة عبر النهر وانقضَّ عليها ليلاً، وأجهز على أغلب الرجال وهم في خيامهم، وسبي النساء والأطفال واستلب الكثير من الثمين والمال، ولم يتمكن من الحرب إلا القليل. ومن بين السبايا كانت زوجة أحد شيوخ القبيلة تنهباً لتضع حملها، فأمر بلدوين بإطلاق سراحها مع خادمتها وناقضتين وكثير من الطعام والشراب. ووضعت طفلها على جانب الطريق حيث وجدها زوجها. ومست كياسة بلدوين شغاف قلبه فأسرع إليه بوفيه حقه من الشكر والعرفان، وأعدا برد الجميل يوماً ما<sup>(٢)</sup>.

(١) صاحب فولشر آرف تشارتر هذه الحملة (Fulcher of Charters., II, iv, i-5, ii, pp. 370-83) + Albert of Aix, VII, 28-42, pp. 533-6. كان هناك دير زغريفي في جبل هارون حالياً، وتناول للزهبان حول الفريج البطريرك الكبير الذي يعرف الآن باسم الدير.

(٢) William of Tyre, X, II, p. 415.

وزادته هذه الغارة شهرة على شهرة ، فوفدت السفارات في مارس إلى القدس من مدن الساحل أرسوف وقيسارية وعكا وصور تحمل الهدايا الثمينة ، كما أرسل دقاق الدمشقي يعرض خمسين ألف بيزنت فدية أسرى معركة نهر الكلب ؛ وإذن وجدت أعقد المشاكل المالية طريقها إلى الحل<sup>(٣)</sup>.

#### ١١٠١ م : الإستيلاء على أرسوف وقيسارية

أتا هدايا أرسوف وقيسارية ، فلم تغن عنهما شيئا ؛ إذ ظهر أسطول جنوا في مارس أمام حيفا ، وألقى مراسيه في يافا يوم ١٥ أبريل ، وكان من بين ركابه الأسقف موريس كاردينال بورتر الذي بعثه البابا باسكال ممثلا شخصيا له . وحتى آنذاك ، كان بلدوين يعتمد على أسطول بيزا الصغير الذي حمل عدوه دياميرت ، رئيس أساقفة بيزا ، إلى الشرق . وأملت المصلحة على بلدوين تفضيل التحالف مع أبناء جنوا ، إذ أنهم أئداد بيزا الشداد ، فانطلق جنوا إلى حيفا للتحية والاستقبال مثل البابا . ودعا قادة الأسطول لفضاء عيد الفصح في القدس حيث إتفقوا على تقديم خدماتهم البحرية طوال موسم كامل نظير ثلث الأسلاب المستلبة ، المال والمقبول سواء بسواء ، وشارع في حي السوق من كل مدينة يتم الاستيلاء عليها . وحالما وقعوا الإتفاق ، انطلقوا يريدون أرسوف ، بلدوين برا وأهل جنوا همرا . وسرعان ما انتهزت المقاومة وعرضت سلطات المدينة التسليم شريطة السماح للسكان بالمحيرة للأمانة مع ذويهم ومنقولاتهم إلى أرض إسلامية ، وقبل بلدوين فرحلوا في حراسة جنوده إلى عسقلان . وعزز بلدوين الحامية برحاله بعد أن أعطى أبناء جنوا حقهم المتفق عليه<sup>(٤)</sup>.

ورحل الخلفاء من أرسوف إلى قيسارية حيث بدأوا حصارها يوم ٢ مايو . وأبت الحامية أن تستسلم المدينة اعتمادا على أسوارها البيزنطية القديمة . على أن المدينة سقطت إثر هجوم عام يوم ١٧ مايو . وأطلق القادة المنتصرون جنودهم لينهبوا المدينة كما يحلو لهم ؛ وبلغت الشراسة حدا أذهل حتى القادة أنفسهم ؛ ووقعت أنفطع المذابح في الجامع الكبير ، الذي كان ذات مرة معبد هيرود أجريبا<sup>(٥)</sup>، حيث لاذ به الكثيرون

(٣) Albert of Aix, VII, 52, pp. 541-2.

(٤) Fulcher of Charters, II, viii, 1-7, pp. 393-400; Albert of Aix, VII, 54, pp. 452-3.

(٥) «الترجم» : هيرود أجريبا: من ملوك بني إسرائيل ( ١٠ ق م - ٤٤ م ) استغل صدائه بالأسرة الإمبراطورية وأصبح ملكا . اضطلع المسيحيين ، وسجن بطرس الرسول ، وقتل الخواري يعقوب بن

الذين توسلوا طالين الرحمة ، لكنهم ذبحوا رجالا ونساء سواء بسواء ، إلى أن استحوالت أرضية الجامع بحيرة دماء . ولم يخرج من الجامع أحد على قدمية سوى عدد قليل من البنات والأطفال الرضع ، إلى جانب كبير القضاة وقائد الحامية بعد أن أنقذهما بلديون نفسه طمعا في فدية ثمينة . وقد أمر بلديون بتلك الوحشية متعمدا ، حتى يظهر أنه عند كلمته مع كل من يعقد معه اتفاقا ، وإلا فإنه لا يرحم<sup>(٦)</sup>.

وما أن أنهى بلديون توزيع الغنائم بحسب الاتفاق ، ووضع حدود الحامية ، حتى حذاه الأنباء بأن جيشا مصرية قد دخل فلسطين.

ذلك أن الوزير الأفضل كان متلهفا على الثأر من كارثة عسقلان التي وقعت قبل عامين ، فجهز حملة يقودها المملوك سعد الدولة الجواشي ، وصلت عسقلان في منتصف مايو ، وواصلت تقدمها حتى الرملة ، ورما على أمل التوغل إلى القدس بينما كان بلديون منهمكا في قيسارية ؛ وأسرع بلديون بقواته إلى الرملة ، فعاد سعد إلى عسقلان انتظارا للتعزيزات . وبعد أن قام بلديون بتعزيز تحصينات الرملة اتخذ من يافا مقرا لقيادته كي يتمكن من مراقبة تحركات المصريين ، وفي ذات الوقت يبقى على اتصاله بالمواصلات البحرية ، وثبت في يافا طشوال الصيف عدا زيارة قصيرة للقدس لأغراض إدارية ، كما أنه علم من رسالة اكتشفت مع حاملها بوصول قوات مصرية جديدة إستعدادا للزحف على القدس.

#### ١١٠١ م معركة الرملة الأولى

في ٤ سبتمبر تحرك سعد بمجنوده تحركا بطيئا حتى مشارف الرملة . وفي مجلس الحرب الذي عقده بلديون قبل يومين تقرر المبادرة بالهجوم فجرا دون إنتظار هجوم الأعداء . وكانت عدة الفرنج مائتين وستين فارسا وتسعمائة راجل ، تسليحهم جيد وخبرتهم بالحرب حسنة . أما المصريون فكانت عدتهم أحد عشر ألف فارس وواحد

زبدى بقطع رأسه في القدس عام ٤٤٤ م.

(٦) Fulcher of Charters, IX, 1-9, pp. 400-4; Albert of Aix, VII, 55-6, pp. 453-4; William of Tyre, X, 16, p. 423. كآسا أعظم إعتقدوا أنه مصنوع من الزرد الخالص . ولا يزال موجودا في حراثة كنيسة القديس لورينزو في جنوة، وإعتبر فيما بعد الكنيسة المقدسة (التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس) (تظهر Heyd, Histoire du Commerce du Levant, I, p. 137.)

وعشرين ألف راجل ، تسليحهم سيئ وكذلك تدريبهم على الحرب . وقد رجّاه إلى خمس فرق : الأولى يقودها فارس يقال له برفولند ، والثانية يقود كارنيل - لورد حيفا ، والثالثة يقودها هيو (أوف سانت أومير) الذي - أميراً للجليل ، والفرقتان الرابعة والخامسة يقودهما بلدوين نفسه . وسائر الرملة يستلهمون حماسهم من الصليب الحقيقي ، ومن الصلاة التي أقامها أروس ، وما أعلنه الكاردينال ممثل البابا من غفران خاص لهم . ومع أن الأولى إنتقضوا على المصريين بالقرب من بيئة إلى الجنوب الغربي من المدينة

وسحق المصريون هجوم الفرقة الأولى بقيادة برفولند وسقط هيو . واندفع جلدمار بفرقة الثانية لمعاونته ، ليهلك هو الآخر مع رجاله كلهم . فرقة الجليل على الأثر ، ولم تفعل شيئاً في حشود المصريين . وتمكن هيو (أومير) بعد خسائر فادحة من سحب رجاله ولأد بالقرار قاصداً يافا ور المصريين تطارده . وبدأ أن الفرنج قد خسروا كل شيء . على أن الملك بلد أن اعترف بذنوبه علانية أمام الصليب الحقيقي ، وبعد أن ألقى على رفاقه « اعتلى فرسه العربي الشجاع "الغزال" واندفع أمام فرسانه في قلب العدو المصريون الوثاقون من النصر ، وبعد سجال قصير استدار جنود الوسط وهر الذعر إلى ميمنتهم ، ومنع بلدوين رجاله من التوقف لنهب الجثث أو سلب وطاردتهم حتى أسوار عسقلان . ثم جمع شتات رجاله وراحوا يقتسمون الأ - فازوا بها في ساحة القتال<sup>(٧)</sup> .

وفي تلك الأثناء، وصل هيو (أوف سانت أومير) إلى يافا، وأبلغ الملك بالهزيمة. وعلنا منهم أن الملك قد قتل في هذه الكارثة، سارعوا بطلب المد الرجل الذي ظنوه الوحيد القادر على العون — تنكريد في أنطاكية. وفي الد شاهدوا في الأفق جيشاً ظنوا أنه جيش المصريين؛ لكن النشوة مملكتهم عدا وابات الفرنج وتعرفوا على الملك. فأرسلوا إلى أنطاكية ثانية بأن الأمور تسير ولا حاجة لأن يأتى تنكريد. غير أن تنكريد كان قد تجهز - بشئ من للإنتلاق جنوباً<sup>(٨)</sup> .

ولقد مال الخطر عن الفرنج مؤقتاً ؛ وأصيب المصريون بخسائر كبيرة ، و -

(٧) of Chartres, II, xi, I-xiii, 5, pp. 407-20; Albert of Aix, VII, 66-70, pp.550-3

(٨) Fulcher of Chartres, II, xiv, I-8, pp. 420-4.



من معاودة إرسال حملة في ذلك الفصل من السنة. غير أن مصر زاعمة بمواردها ، فلم يجد الأفضل صعوبة في تجهيز جيش آخر في العام التالي لمواصلة الكفاح . وفي ذلك الوقت وفد على بلدوين من نحا من أمراء الحملات الصليبية في الأناضول عام ١١٠١م ، وكانوا قد وصلوا إلى مشارف بيروت في أوائل ربيع ١١٠٢م وعلى رأسهم وليم الأكرتاني ، وستيفن أوف بلوا ، وستيفن أوف برجندي ، والكونستابل كونراد ، وبصحبته نبلأ شتى من الأراضي الواطنة، وإليكارد أوف أوروا، وأسقف مناس، وأكثرهم جاء إلى أنطاكية بطريق البحر. وأرسل بلدوين حرسا لاستقبالهم وحراستهم حتى القلس خوفا عليهم من الأعداء . وبعد أن احتفل القادة بعيد الفصح في الأماكن المقدسة ، تهيأوا للعودة إلى بلادهم ؛ فأبحر وليم الأكرتاني في أمان من ميناء السويدية في نهاية إبريل ؛ بيد أن العواصف قذفت بالسفينة التي تقل ستيفن أوف بلوا وستيفن البرجندي وآخرين إلى يافا . وقبل العثور على سفينة أخرى تقلهم جاءت الأبياء بحسب جيش إسلامي جديد من مصر . ولسوء حظهم لبثوا للمساعدة في الصراع الرشيك<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٠٢م معركة الرملة الثانية

في منتصف مايو ١١٠٢م تجمع الجيش المصري في عسقلان ثم انطلق باتجاه الرملة. وكان قوامه نحو عشرين ألفا من العرب والسودانيين يقودهم شرف المعالي، ابن الوزير. وكان بلدوين قد أعد عدته بجيش من عدة آلاف مسيحي ينتظر في يافا، وحاميات الجليل على أهبة الاستعداد لإرسال الكنايب إذا ما دعت الحاجة . لكن حواسيس بلدوين ضلوه ، فظن المصريين جماعة صغيرة من المغيرين ، فقرر القضاء عليهم بنفسه دون إستدعاء قواته الاحتياطية . وكان معه في القلس أصدقاؤه من الغرب ، ستيفن أوف بلوا ، وستيفن البرجندي ، والكونستابل كونراد ، وهيسو كونت لوسيتان ، وغيرهم من فرسان البلحيك . واقترح عليهم الإنطلاق مع الفرسان لإنهاء هذه المهمة . وغامر ستيفن أوف بلوا بالقول بأن هذا تصرف يتصف بالتهور ، وأن من الأفضل إجراء إستطلاع جيد ؛ لكنه لم يجد أذنا صاغية ، وإنما تذكروا حينه في أنطاكية، فصحبهم دون أن يزيد على ما قال.

وفي ١٧ مايو انطلق بلدوين من القدس على رأس نحو خمسمائة فارس ، يغلب

(٩) Fulcher of Chartres, II, XV, 1-6, pp. 424-8.

عليهم الكثير من المرح والقليل من النظام . وساعة أن خرجوا إلى السهل بوغتوا بالجيش المصري الضخم ، وتحقق بلدوين من خطته ، ولا سبيل الآن إلى التراجع فقد شاهدتهم المصريون الذين بادرت خيالتهم الخفيفة بقطع طرق تفهقهم ، وبذا أصبحت الفرصة الوحيدة أمام الفرنج هي الإندفاع مباشرة إلى قلب العدو . وظن المصريون بادئ الأمر أن هؤلاء لابد وأن يكونوا طليعة الجيش القرشي الكبير ، وفقدوا الأمل من وصول قوات أخرى في أثرهم قبل الإلتحام ، فجمعوا شملهم وأطبقوا على الفرنج ، فانكسرت صفوف بلدوين . وتمكن فرسان قليلون يتردهم روح أوف ووزوي ، وهيو أوف لي بوج ، إين عم بلدوين ، من شق طريقهم بين المصريين والوصول سالمين إلى يافا . وسقط الكثير من فرسان الفرنج صرعى، منهم جبرار أوف أميزن ، والياور الأسبق لجودفري ، ستابيلون . وتمكن بلدوين نفسه ورفاقه القادة من شق طريقهم إلى حصن الرملة القريب . وبات الجيش المصري بهم محيطة .

ولولا هبوط الظلام لانتقض عليهم المصريون . لكن دفاعات الرملة كانت بالغة السوء، وربما يصمد برج واحد كان بلدوين قد شيد قبل ذلك بعام ، فتزاحموا بداخله . وفي منتصف الليل جاء أحد الأعراب إلى البوابة طالباً مقابلة الملك فأجيب إلى طلبه ، وكشف عن شخصيته قائلاً إنه زوج السيدة التي تعطف عليها بلدوين أثناء غارة الأردن . وعرفانا منه بالجميل جاء يمدد بلدوين من هجوم مصري في الفجر ونصحه بالمهرب في الترو والاحتفظة . وأخذ بلدوين بنصيحته . وأبنا ما قد تكون مشاعر أسفه لتخليه عن زملائه - وليس هو بالرجل الذي يعتني كثيراً بالشرف - ارتأى له أن يقاء المملكة يتوقف على بقاء شخصه، فتسلل مع ثلاثة من رفاقه وأحد غلمانته خلال خطوط العدو عملاً الثقة في فرسه "الغزال" الذي سيحمله سالماً إلى مأمنه . وفي تلك الليلة تمكن فيكونت يافا ليناو أوف كامباري ، وجوهان أوف بروكسل من المهرب كل على حده . وتمكن جوهان، رغم جراحاته البالغة من الوصول إلى القدس معلناً اختيار الكارثة ، وناصحاً بالمقاومة اعتقاداً منه أن بلدوين ما يزال على قيد الحياة.

وفي باكورة اليوم التالي تسلق المصريون أسوار الرملة بأعداد غفيرة ووضعوا حزم الحطب حول البرج الذي لاذ به الفرسان . فآثر الفرسان وعلى رأسهم كونراد الإندفاع إلى الأعداء بدلاً من الهلاك في الثيران . على أنه لم يكن هناك مهرب ، وفي لحظات قتلوا جميعاً وأسر البعض منهم . وتركت شجاعة كونراد إنطباعها على المصريين فأبقوا على حياته وأرسلوه مع أكثر من مائة من زملائه أسرى إلى مصر . ومن بين من صرخوا من القادة ستيفن البرندي، وهيو أوف لوسينان ، وجيوفري أوف فندوم ، وقتل معهم

ستيفن أوف بلوا وهذا استعداد سمعته بموته المجيد ، وإذن تستطيع زوجته الكونتيسة أدبلا أن تنام ملء جفنيها<sup>(١٠)</sup>.

#### ١١٠٢ م : الملك بلدوين في يافا

وكانت الملكة والبلاط ، مرة أخرى ، في يافا حيث أخبرهم روجر أوف روزوي ومن معه من الفارين بالمزبحة النكراء . وداهمهم الجزع من سقوط الملك مع كل فرسانه ، وراحو يعدون خطط الحرب بحرا ، فلا يزال في الوقت متسع . لكن الجيش المصري وصل إلى أسوار المدينة يوم ٢٠ مايو ، كما اقترب الأسطول المصري في الأفق الجنوبي . وتحققت أسوأ المخاوف عندما رفع جندي مصري أمامهم رأسا بدت وكأنها رأس الملك ، لكنها كانت في حقيقتها رأس جيريود أوف ويتشيك الذي كان شديد الشبه بالملك . وفي تلك اللحظة ، وكما لو كان في الأمر معجزة ، شوهدت سفينة صغيرة مبحرة من ناحية الشمال وعليها راية الملك الخاصة به في قمة الصاري.

كان بلدوين قد هرب من الرملة وبعم وجهه شطر الساحل محاولا اللحاق بالجيش في يافا. لكن الجنود المصريين كانوا يجوبون البلاد ، فاضطر بلدوين إلى تمضية ليلتين ويومين متحولا خلال سفوح التلال شمال الرملة ، ثم أسرع بعبور سهل شارون إلى أرسوف التي وصلها مساء التاسع عشر ، فكانت مفاجأة سارة لحاكمها روجر أوف حيفا . وفي ذات الليلة لحق به في أرسوف جنود الجليل وعددهم ثمانون فارسا جمعهم وقادهم هير أوف سانت أومير ، وكانوا قد أسرعوا جنوبا بمقدم أنباء تقدم المصريين . وفي الصباح التالي اتجه هير برحاله جنوبا في محاولة لشق طريقه إلى يافا ، بينما أفلح بلدوين في إقناع مغامر إنجليزى بالانبحار بسفينته وإغراق الحصار المصري . ورفع بلدوين رايته ليذلل البهجة على بلاطه ، وما لبث المصريون أن شاهدوها فأرسلوا

(١٠) Fulcher of Chartres, II, xviii, 1-xix, 5, pp. 436-44; Ekkehard of Aura, *Hierosolymita* 533-5; Bartolf of Nangis, pp. 533-5; Albert of Aix, IX, 2-6, pp. 591-4; William of Tyre, X, 20-1, pp. 429-32) تدخّل الشيخ البدوي ، ورواية ابن الأثير ( Iba al-Athir, pp. 213-16 ) رواية مضطربة لأنها تقوم على أساس روايتين مختلفتين . ولما قبل التاريخ الذي أورده (Hagenmeyer (op. cit. pp. 162-6) ، رغم أن *the Chronicon S.* ٤٢١ *faventil*, p. ٢٧ مايو ، وحول موت ستيفن أوف بلوا ، وطبقا لرواية Guibert of Nogent, p. 245 ، فليس هناك شيء معروف بصورة قطعية ؛ ويرد تاريخ وفاته في *Cartulaire de Notre Dame de Chartres* III, p. 115 وهو ١٩ مايو.

السفن من فورهم لاعتراض سفينة بلدوين ، غير أن رياحا شمالية قوية أعاققت المصريين عن اللحاق بها، ودفعت سفينة بلدوين إلى داخل المرفأ بسرعة.

وشرع بلدوين من فورهم في إعادة تنظيم قواته . وقبل أن يتمكن المصريون من إحكام الحصار حول المدينة ، شق لنفسه طريقا وخرج لمقابلة هيو ومجموعة الجليل وأخذهم إلى داخل الأسوار . ثم أرسل إلى القدس إستدعاء جميع من يمكن الإستغناء عنه من هناك ومن الخليل . وتطوع راهب عيسى بحمل الرسالة وتسلل بها من يافا عبر عتوط العدو تحت طيات الظلام ، لكنه وصل القدس بعد ثلاثة أيام . وبشأ كيد بقاء الملك على قيد الحياة عمت الفرحة ، وأمكن جمع تسعين فارسا تقريبا وعددا أكبر من الخيالة ، وعرزوا جميعا بقطعة من الصليب الحقيقي ، وأسرعوا جنوبا إلى يافا . أما الفرسان ، فقد تمكّنوا من شق طريقهم إلى داخل المدينة لما كانوا عليه من تسليح جيد وعدة ، وأما الخيالة فقد حرفوا إلى البحر فتركوا حيولهم وسبحوا إلى داخل المرفأ . وفي تلك الأثناء كتب بلدوين إلى تتركريد وبلدوين الرها بخسائره الجسيمة طالبا إرسال التعزيزات.

وقبل إنطلاق فرسان الشمال ، هبطت على يافا نجدة لم تكن في الحسبان ؛ إذ دفعت الرياح إلى يافا أسطولا من مائتي سفينة أغلبها سفن إنجليزية محملة بالجنود والحجاج القادمين من إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وتمكن هذا الأسطول من تخطى الحصار المصري . وبذا توفر لبلدوين المزيد مما كان يحتاجه من الرجال . وفي ٢٧ مايو خرج على رأس الجيش للقاء العدو . وليست لدينا تفاصيل المعركة ، ويبدو أن المصريين حاولوا إستدراجه والإحاطة به دون جدوى ، وأخيرا اندفع عدد كثيف من الفرسان نحو العدو فشتتوا صفوفه فاستدار المصريون وهربوا . وبعد ساعات قليلة كانت القوة المصرية كلها تسرع الخطى إلى عسقلان ، تاركة معسكرها بما فيه من غنيمة للمسيحيين<sup>(١١)</sup>.

وبما بلدوين وعملكه بسلسلة من المصادفات رأى فيها المسيحيون يد الرب تمتد إليهم ، وليس ذلك شيئا غير طبيعي ، وليست إستراتيجية المصريين العاجزة أقل تلك الأحداث ؛ إذ كان بمقدور كتيبة مصرية صغيرة أن تستولى على القدس بعد معركة الرملة مباشرة دون أن يضعف تطويق يافا ؛ لولا أن قبضة الوزير الأفضل على الأمور كانت تتراسي ، وكان ولده الأشرف ضعيفا لا طاعة له ، فأصاب الشلل حركته لما

(١١) Fulcher of Chartres, II, xc, l-xci, 18, pp.444-55; Ekkehard of Aura, loc. cit.; Albert of Aix, IX, 7012, pp. 595-7; Ibn al-Athir, loc. cit.

ساد بين قواده من صراع . وفي الصيف التالي أرسل والده حملة جديدة بحرا وبرا . على أنه أنشاء إبحار الأسطول شمالا إلى صافا رفضت القوات البرية التقدم وراء عسقلان لما كان يشعر به قائدها المملوك تاج العجم من غيرة من أمير البحار القاضي ابن قادوس . وترتب على ذلك حبس تاج العجم لانعدام الولاء ، لكن السهم كان قد نفذ وضاعت أفضل فرصة لاسترداد فلسطين<sup>(١٢)</sup>.

ولما علم تنكريد وبلدوين أوف لي بروج بمأزق القدس ، راحا بعدان العدة للإنطلاق جنوبا بغاية السرعة . وكان معهما وليم الأكتاني الذي كان في أنطاكية وقت وصول رسالة الملك بلدوين . وارتحلوا جميعا أعلى وادي العاصي مروراً بتمص ثم هيوطن خلال الأردن الأعلى . وبدت قواتهم كبيرة بحيث تجنبت السلطات الإسلامية المحلية إيقاف مرورهم . ووصلوا يهودا في أواخر سبتمبر . وأثناء ذلك ، لم يعد بلدوين في حاجة عاجلة لمساعدتهما ، لكن وجودهما أغراه بمهاجمة الجيش المصري في عسقلان . ورجحت المناوشات كفة المسيحيين ، لكنهم لم يغامروا بالمحجم على تلك القلعة<sup>(١٣)</sup>.

#### ١١٠١م بلدوين ودياميرت

وكان تجمع حكام الفرنج مفيدا لبلدوين لأسباب أخرى ؛ إذ كان تنكريد ينوي المساعدة بشروطه ، لكنه في الواقع مكّن بلدوين من التغلب على أعضل مشاكله الداخلية . فقد سبق للطريق دياميرت أن تزوج بلدوين يوم عيد الميلاد من سنة ١١٠٠م ، لكنه فعل ذلك على مضض دون أن تخفى مشاعره على بلدوين . وشعر بلدوين بضرورة السيطرة على الكنيسة ، فهي حيدة التنظيم وهي - لا السلطة العلمانية - التي تتلقى من أتقياء المتعاطفين في الغرب الهبات وتركات الموارث المذكورة في الوصايا . وقد حامت الشكوك حول ترقية دياميرت من الناحية القانونية ، خاصة وأن هناك شكوكا أرسلت إلى روما بشأنه ، أدت في نهاية الأمر إلى أن أرسل البابا باسكال ممثله موريس ، أسقف وكاردينال بورتو ، في مهمة لتقصي الحقائق ، فوصل في عيد الفصح من سنة ١١٠١م . وفي الحال اتهم بلدوين دياميرت ، في حضوره ، بتهمة

(١٢) Ibn al-Athir, loc. cit.

(١٣) Albert of Aix, IX, 15, p. 599; Ibn Moyassar, p. 464  
213 إن أمراء الشمال أصروا على الإستحباب.

الخيانة، وأظهر الخطاب الذي أرسله دياميرت إلى بوهمند بعد موت جودفري عرضاً على معارضة استخلاف بلدوين ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة. وفضلاً عن ذلك أعلن أن دياميرت حاول إغتياله أثناء رحلته جنوباً. ومهما يكن الأمر بشأن احتمال تزوير الخطاب، فلا جدال في وجود الخطاب نفسه. فما كان من موريس إلا أن منع دياميرت من المشاركة في احتفالات عيد الفصح وقام بها بمفرده. وأما دياميرت، الذي أخذ منه الخوف على مستقبله فقد سعى إلى مقابلة بلدوين، وركع أمامه يزرف دموعه متوسلاً المغفرة. لكن بلدوين رحل صعب المراس لا تلين له فتاة، فأصرّ على موقفه إلى أن مجئ دياميرت بأنه يدخر ثلاثمائة بيزانت. وعندئذ لانت فتاة بلدوين، فهو دائم الاحتياج إلى المال، فقبل الهدية سرا ثم قصد إلى محفل البابا وأعلن في شهامة غفرانه لدياميرت. وأشرقت أسارير موريس، وهو الرجل المسالم، لنجاحه في التوفيق بينهما<sup>(١٤)</sup>.

وبعد بضعة أشهر احتاج بلدوين مرة أخرى إلى المال، فطلبه من دياميرت الذي أعطاه مائتي مارك مدعياً أن ذلك المبلغ هو كل ما كانت تمويه خزانة البطريركية. على أن رجال الدين المشايخين لأرنولف همسوا في أذن الملك بأن دياميرت يخفي مبالغ طائلة في الواقع. وحدث بعد أيام قلائل أن أقام دياميرت مأدبة سخية على شرف محفل البابا، فقد دأب على استثمار مؤازرته. واقتحم بلدوين عليهما خلوتهما وألقى عليهما محاضرة استنكر فيها ما يمتنعان به من ترف المعيشة بينما قرات العالم المسيحي تنظير جوعاً. فثار ثائرة دياميرت ورد عليه قائلاً إن للكنيسة أن تنفق أموالها كما يحلو لها ولا سلطة للملك عليها، بينما حاول موريس تهدئة الموقف وقد بنا عليه القلق. ولم يكن هناك من سبيل لإسكات بلدوين الذي ساعده تدريبه القديم على أعمال القساوسة في الإستهزاء بالقانون الكنسي، وكان في لسانه فصاحة فعلت فعلها في موريس الذي أوقع دياميرت بأن يتكفل بكنيسة من الفرسان. ومع ذلك، لم يدفع دياميرت المال أبداً برغم طلبات بلدوين المستمرة. وفي حريف ١١٠١م وصل مبعوث من الأمير روجر أوف أبوليا حاملاً منحة قدرها ألف بيزانت للبطريرق على أن يتخصص ثلثها لكنيسة القبر المقدس، وثلثها الثاني للمستشفى، وثلثها الأخير للملك للإنفاق على

(١٤) كتب كيرت أوف أيكس (Albert of Aix, VII, 46-51, pp. 538-41) رواية معادية لدياميرت. وكان وليم الصوري (William of Tyre (x, 26-7, pp. 438-40) مدافعاً على طول الخط عن حجة دياميرت في مصاغ استقلال الكنيسة، وبطريقة المختلين لم يذكر شيئاً عن تحقيقات موريس Maurice ريان. Riant, *Inventaire*, pp. 218-19.

الجيش. وتهور دياميرت واحتفظ بالمنحة كلها، رغم أن شروطها لم تكن خافية. وعندما اشتكى بلدوين لم يعد في وسع ممثل البابا المضي في موازرة دياميرت، وأعلن تنحيته عن البطريرقية. فعاد دياميرت إلى بافا حيث أمضى الشتاء، ثم ارتحل في مارس إلى أنطاكية. وتلقاه صديقه القديم تنكريد مرحاب، وعهد إليه بكنيسة القديس جورج، وهي واحدة من أغنى كنائس المدينة. وفي ذات الوقت، ترك بلدوين منصب البطريرق شاغرا يدعو ضرورة إخطار روما. واقتحم إنسان من أتباعه خزانة البطريرقية فوجد أن دياميرت قد أخفى عشرين ألف بيزانت. أمّا موريس، الذي كان مباشر أعمال البطريرقية بصفة مؤقتة، فقد تلفت تلك الفضائح صحته، فمات في ربيع ١١٠٢م<sup>(١٥)</sup>.

#### ١١٠٢م: خلع دياميرت

عندما جاء تنكريد في الحريف لإنتقاد بلدوين أعلن أنه يشترط إعادة تنصيب دياميرت الذي كان بصحته. وأتذاك كان بلدوين لئن العريكة إلى أقصى الحدود. غير أنه في تلك الآونة وصل ممثل جديد للبابا - روبرت كاردينال ماري - فأصر الملك على عقد مجمع كنسي برئاسة روبرت لوضع الأمور في نصابها، فأسقط في يد تنكريد ودياميرت ولم يجرؤا على الرفض. وتقرر في إحدى الجلسات إعادة تنصيب دياميرت مؤقتا إلى حين إجراء تحقيق شامل. وبعد ذلك ألحق تنكريد جنوده بجنود الملك في الحملة على عسقلان. وسرعان ما عقد المجمع الكنسي في كنيسة القصر المقدس برئاسة ممثل البابا ومساعدة أسقفى لاوون وبياتشيزا الزائرين، وحضر المجمع الكنسي أساقفة ووهبان فلسطين كلهم، وكذلك أسقف المصيصة من أراضي تنكريد. وبإجماع من أرنولف أوف روه، قام أساقفة قيسارية وبيت لحم والرملة بتوجيه الاتهامات إلى دياميرت معلين أنه أثناء رحلته إلى فلسطين عام ١٠٩٩م، ترأس أهل بيزا وهاجموا رفاقا مسيحيين في جزيرة أبونيا؛ وسعى إلى إشعال حرب أهلية بين الملك بلدوين والأمير بوهمند، واستولى على أموال أودعت لديه لرعاية الحجاج في المستشفى فضلا عن جنود المسيح. وكانت اتهم حقيقية لا سبيل إلى إنكارها، فلم يجد الكاردينال ممثل البابا مندوحة من إعلان عدم جدارة دياميرت لمنصبه وأمر بخلعه. ولم يجد تنكريد ما يعترض به على هذا الإجراء الكنسي فاضطر إلى قبول الهزيمة. وصحبه دياميرت في

(١٥) Albert of Aix, VII, 58-64, pp. 545-9.

رحلة العودة إلى أنطاكية وأعيد تنصيبه في كنيسة القديس جورج إلى أن تناح له فرصة الذهاب إلى روما . لقد صنع لنفسه صورة رجل هرم فاسد جشع، وغادر فلسطين لم يأس لحالته أحد . لقد كان تعيينه ممثلاً رسولياً خطأ فادحاً ارتكبه البابا إيرمان الثاني<sup>(١٦)</sup>.

أمّا أرنولف أوف روه ، الذي أعان بلدوين في الأمر كله من تلقاء نفسه ، فقد بلغ من المكر ما بلغه بحيث لم يحاول أن يحل محل دياميرت في منصبه . وبدلاً من ذلك ، وحينما طلب ممثل البابا مرشحاً للبطريرقية ، اقترح الأساقفة الفلسطينيون قساً هرمياً يدعى إفرمار ، جاء من ثيروان إلى الشرق مع الحملة الصليبية الأولى ، وكان يشتهر بورعه وإحسانه . ورغم أنه وأرنولف من نفس البلد، إلا أنه لم يشاركه مكائده، وقاز باحترام الجميع . وابتهج ممثل البابا وهو يقوم برسم هذا القس الذي لا تشوبه شائبة؛ كما أحس بلدوين بمشاعر الرضا لأن إفرمار شيخ كبير لا يخشى حائبه، ومحال أن يخامر بدس أنفه في السياسة، وفي ذات الوقت يستطيع أرنولف مواصلة وضع مخططاته دونما عائق.

على أن اليأس لم يداعل دياميرت . فحينما ذهب بوهموند - الذي كان يوفر له الحماية - إلى إيطاليا عام ١١٠٥م صحبه إلى روما ليبيت أحزانه للبابا باسكال الذي كان حذراً أول الأمر، لكنه بعد أن تربث قليلاً منحه موازرتة، وربما كان مرد ذلك إلى نفوذ بوهموند الذي لا يقاوم . وأرسل البابا يطلب من بلدوين رداً على ما اتهمه به دياميرت، لكن الملك لم يعر الأمر انتباهاً، ربما لعلمه أن البابا دائماً يستمع لبوهموند . فألقى باسكال قرار خلع دياميرت قاتلاً إن هذا الخلع كان نتيجة لتدخل سلطات مدنية . وخسن الطالع امتدت يد الرب لتصلح من حق البابا؛ فبينما كان دياميرت يتجه للعودة منتصراً لاستعادة عرشه البطريرقي مرض ومات في ميسينا يوم ١٥ يولية ١١٠٧م<sup>(١٧)</sup>.

#### ١١٠٢ م : انتخاب أرنولف بطريرقاً

ولم تنته مشاكل البطريرقية . وتزايد شعور بلدوين بعدم الرضا عن إفرمار، وربما كان يدرك ما للكنيسة من أهمية فائقة بحيث لا يصح أن تترك ، لمن لا كيان له ، وإنما

(١٦) Albert of Aix, IX, 14, 16-17, pp. 598-600; William of Tyre, loc. cit.

(١٧) William of Tyre, XI, I, pp. 450-1.



يلزم أن يرأسها، حليف له يتصف بالكفاءة . وعندما علم إيفرمار بإعادة تنصيب دياميرت رسمياً، شد الرحال إلى روما ، ليجد غريمه دياميرت ميتاً مع شكاواه من السلطة المدنية . وعندما وردت أنباء موت دياميرت إلى فلسطين ، سارع أرنولف إلى روما كي يبدل جهوده لموازرة الملك . وكان البابا باسكال آنذاك يحيل إلى إيفرمار ؛ غير أنه أدرك أن القضية أشد تعقيداً مما كان يظن ؛ فعهد بها إلى رئيس أساقفة أول ، جيبيلين أوف سايران ، وهو شيخ طاعن في السن واسع الخبرة . ووصل فلسطين في ربيع ١١٠٨ م ، وقد سبقه إليها إيفرمار وأرنولف . واستقر رأيه على أن إيفرمار ليس أهلاً للمنصب ، وليس هناك من يرغب في عودته ، ولذا أعلن أن كرسي البطريرقية شاغراً وعقد مجلساً كنسياً لتعيين خلفاً له . واقترح بلدوين ترشيح جيبيلين ، فقبل بمشاعر الغبطة المشوبة بالحرج ، وتم تعيين إيفرمار رئيساً لأساقفة قيسارية الذي كان شاغراً لحسن الحظ، وذلك من قبيل التضييق.

وترددت شائعات بأن أرنولف حرّض الملك على إختيار جيبيلين لتقدمه في السن وبذا سرعان ما ستصبح البطريرقية شاغرة مرة ثانية . وهذا ما حدث في الواقع، إذ لم يعيش جيبيلين سوى أربع سنوات، ومعه انتخب أرنولف أخيراً ليعتلي عرض البطريرقية دون معارضة من أحد<sup>(١٨)</sup>.

وكان بلدوين يرى أن أرنولف بطريق مثالي ؛ وقد تمكن من الاحتفاظ بمنصبه رغم نفور أتباعه وبرغم ما نشأ لاحقاً من مشاكل حول زواج بلدوين الثاني. ولقد كان أرنولف فاسداً بلا شك . فعندما تزوجت ابنة أخته إيمّا من بابوستاس جارييه وهو زوج حاز رضاه، وهبها إقطاعية ثمينة في أرميا تابعة لكنيسة القبر المقدس . لكنه كان نشطاً وكفواً وكرّس نفسه للملك الذي يرجع إليه الفضل في التخلص نهائياً عن فكرة أن تخضع القدس لحكومة دينية ثيوقراطية يعامل بكون مجرد وزير للدفاع ، وهي فكرة غير عملية كان يتصورها أغلب المشرّكين في الحملة الصليبية الأولى ؛ كما تدبر إشراك كنائس فلسطين كلها معه في الرأي ، حتى في خلع رجال الدين التابعين لكنيسة القبر المقدس ممن لا يثق في ولائهم ، والذين عيّنهم جودفري أوف لورين . وباتساع المملكة غزوا ، كافح بلا هوادة في سبيل إتحاد السلطتين الدينية والمدنية ضد البابا باسكال الذي كان يدافع عن الحقوق التاريخية غير العملية للكرسي الرسولي الأنطاكي ، مدفوعاً

(١٨) Albert of Aix, x, 589, pp. 650-9, xii, 24, p. 704; William of Tyre, loc. cit. and XI, 4, pp. 455-6.

بتحيزه المشووم لماصرة أمراء أنطاكية النورماندين . ولم يكن أرنولف حديرا بالإحزام، وإنما كان عادما أميناً لمملكة القدس . وقد شجب المؤرخ ولیم الصوری ذكره ولطخ سمعته دون وجه حق، لأنه بذل الكثير لتعزيز الحملة الصليبية الأولى<sup>(١٩)</sup>.

كما يرجع الفضل إلى أرنولف سيده الملك بلدوين في تحسن علاقة المهرمية اللاتينية بالمسيحيين المحليين . ففي بداية الأمر ، عندما كان أرنولف على رأس البطريركية سنة ١٠٩٩ م ، نهب الطوائف الشرقية وطردها من كنيسة القبر المقدس . على أن دباشرت كان عدواً أسوأ للطوائف الشرقية ، فلم تقتصر سياسته على طردهم من الكنيسة وحسب ، وإنما أيضا من أديرتهم ومنشأتهم في القدس ، سواء كانوا أرثوذكس كاليونانيين أو الجورجيين ، أو هرطقة كالأرمن واليعاقبة والنساطرة . كما لوث آداب المجتمع التقليدية بالسماح للنساء بالخدمة في الأماكن المقدسة . ونتيجة لتلك الأفعال الشائنة انطلقت مصاييح كنيسة القبر المقدس عشية عيد الفصح ، ولم تهبط النار المقدسة من السماء لإضاء تهامة أخرى إلى أن تشرك الطوائف الخمس المحرومة في صلاة ضراعة أن يغفر الرب للفرنجة . ووعى بلدوين المدرس ، وأصر على إنصاف الوطنيين ، وأن يحتفظ اليونانيون بمفاتيح كنيسة القبر المقدس ذاتها ؛ ويبدو أن جميع المسيحيين في فلسطين أزروه منذ آنذاك . واقتصر تعيين كبار رجال الدين على الفرنج برغم وجود قساوسة يونانيين في الكنيسة، ولقي ذلك الوضع قبولا من الأرثوذكس المحليين الذين سبق لكاهنتهم الأعلى أن غادر البلاد خلال سنوات الإضطراب قبل الحملة الصليبية مباشرة . وبرغم ما كانت تحمله الأديرة الأرثوذكسية من نفور شديد من المهرمية اللاتينية فقد مارست نشاطها دون عساق ، ولم يجد الحجاج الأرثوذكس ولا الوطنيين مبررا للشكوى من السلطة المدنية ، ويبدو أن كنائس المهرطقة كانت راضية كذلك . لكن الوضع إختلف تماما في الدويلات الفرنجية شمال سوريا حيث ساد الاستياء من ظلم الفرنج<sup>(٢٠)</sup>.

(١٩) William of Tyre, XI, 15, p. 479. ولیم الصوری يستهجن انتهازة أرنولف.

(٢٠) انظر أدناه الصفحات ٣٦٩-٣٧٢ . توجد رواية طويلة حول القدس في مخطوطة فولشر توف تشارتر، وهي مطبوعة في طبعة *Recueil des Historiens des Croisades* وبلاحظ هاجنماير Hagenmeyer، في طبعته عن فولشر ، أنها تظهر في مخطوطة واحدة فقط (لاتينية) ، ويرفضها كلها فيما عدا كلمات المقدمة *conturbati sunt omnes propter ignem quem die sabbati non habuimus ad Sepulcrum Domini* (II, viii, 2, p. 396). See his note 5, pp. 395-6 للإطلاع على كامل المناقشة. وفي ملحق خاص (ibid. pp. 831-7) حشر نصا ، مع النصوص التي وجدت في Baetolf of Nangis and Guibert of Nogent. ونظرا إلى أن فولشر توف تشارتر هو القس الخاص لبلدوين ، فلا بد وأنه قد حضر هذا القدس . وهورد دانيال المرحومين Daniel the

## ١١٠٣ م : حصار عكا

لم تفر عزيمة الوزير الأفضل لمريمه يافا عام ١١٠٢ م ، ولا لإخفاق حملة الربيع من العام التالي ١١٠٣ م ، غير أنه استغرق وقتاً أطول في إعداد جيش آخر . أمّا بلدوين ، فقد أرحى قبضته على الساحل الفلسطيني . وبرغم سيطرته على المدن الساحلية من يافا إلى حيفا ، واصل المغبرون المسلمون هجومهم على الطرق التي تربط بينهما ، وخاصة منحدرات جبل الكرمل ؛ بل إن الطريق من يافا إلى القدس لم يسلم من الإغارة كما ذكر الحاج سايولف<sup>(٢١)</sup> . كما كان القراصنة يتسللون من مينائي صور وعكا الخاضعين للسيطرة المصرية للإغارة على التجارة المسيحية . وفي أواخر خريف ١١٠٢ م قذفت العواصف بسفن الحجاج العائدين إلى أوطانهم - وهم الذين أنقذوا بلدوين في يافا في شهر مايو - إلى شتى شواطئ الساحل ، بعضها بالقرب من عسقلان ، والبعض الآخر بين صور وصيدا ؛ ولم يسلم أحد من الركاب ، فمات من مات ، ومن لم يموت بيع في أسواق الرقيق المصرية وفي ربيع ١١٠٣ م حاصر بلدوين عكا بمساعدة بعض السفن الإنجليزية التي كانت لا تزال معه . وأوشكت الحامية على الاستسلام لولا وصول إثنى عشر قادساً فاطمياً وعدد كبير من سفن النقل القادمة من صور وصيدا تحمل الرجال وآلات إطلاق النيران الإغريقية، فلم يجد بلدوين مقراً من رفع الحصار<sup>(٢٢)</sup> . وحاول في الصيف التالي تطهير منطقة جبل الكرمل من قطاع الطرق، فلم يصب نجاحاً يذكر، وأصيب في أحد الاشتباكات بمرح خطير في كليتيه وأشرف على الهلاك . وبينما هو راقد في فراش المرض في القدس جاءت أنباء الحملة المصرية المزدوجة بقيادة تاج المعجم وابن قادوس . على أن امتناع تاج المعجم عن التقدم وراء عسقلان أجبر ابن قادوس على محاولة حصار يافا بمفرده ، وبذل جهوده ببعض الحماس وليس كله . وبعد أن شفى بلدوين بالقدر الذي يسمح له بقيادة الجيش إلى الساحل أفلح الأسطول المصري<sup>(٢٣)</sup> .

وفي مايو التالي وصل إلى حيفا من جنوا أسطول حربي سبق وأن ساعد ريموند التولوزي في الاستيلاء على جبيل . وقابل بلدوين قاداته وضمن تحالفهم لإخضاع عكا

Higumene ( ed. de Khitrowo, pp. 75-83) رواية القدس في عام ١١٠٧ . ويتضح من هذه الروايات أن الإغريق قد منحوا مسؤولية كبيرة القيادة نفسها.

Albert of Aix, IX, 18, pp. 600-1. (٢١)

Albert of Aix, IX, 15, p. 59; Ibn l-Athir, p. 213. ذكر ابن الأثير عامًا مختلفًا ١١٠٥ هـ بدلاً من ١١٠٦. (٢٢)

Fulcher of Chartres, II, xxiv, 1, pp. 460-1; Albert of Aix, IX, 22-3, pp. 103-4. (٢٣)

بعد أن وعدهم بما اعتادوا عليه من قبل ، وهو ثلث الغنائم وامتيازات تجارية وأحد الأحياء في السوق؛ وبدأ الخلفاء حصار عكا يوم ٦ مايو . وقاومهم القائد الفاطمي المملوك ظهر الدولة الجيوشي مقاومة عنيدة ؛ لكن مصر لم ترسل إليه أية مساعدة ، فاضطر بعد عشرين يوما إلى أن يعرض التسليم بشروط مماثلة لشروط استسلام أرسوف ، وهي السماح بالمرور الآمن للمواطنين الراكبين في الرحيل مع منقولاتهم ، ومعاملة الباقين كرعاء للملك الفرنجي . وقبل بلدين الشروط والتزم بها ، بل وأمر بالإبقاء على مسجد لرعاياه المسلمين . أما بحارة إيطاليا فقد أبوا أن يتركوا تلك الثروة المائلة تغفل من أيديهم فانقضوا على المهاجرين وقتلوا منهم خلقا كثيرا ونهبوهم جميعا ، مما أغضب بلدين وهم ، مهاجمة أبناء جنوا لمعاقبتهم ، لولا أن وصل البطريرك إيفرمار وأفلح في تهدئته ومصالحته بهم<sup>(٢٤)</sup>.

وبسقوط عكا ، نال بلدين ما كان يصبو إليه من مرفأ آمن في شتى الأجزاء الناحية . وبرغم بعد الشقة عن القدس ، بما يزيد على مائة ميل ، سرعان ما أصبحت عكا الميناء الرئيسي للمملكة بدلا من يافا ، عمرانها المائية المفتوحة . وفضلا عن ذلك ، كانت عكا هي الميناء الرئيسي الذي تشحن منه بضائع دمشق إلى الغرب ، ولم يتوقف هذا الطريق التجاري بعد الغزو الفرنجي ، وإنما شجعه مسلمو عكا المقيمون بها<sup>(٢٥)</sup>.

#### ١١٠٥ م : معركة الرملة الثالثة

وفي صيف ١١٠٥ م شرع الوزير الأفضل في آخر محاولة لاسترجاع فلسطين ؛ ففي أوائل أغسطس حشد في عسقلان جيشا مجهزا تجهيزا حسنا قوامه خمسة آلاف جندي من العرب الخيالة والمشاة السودانيين ، يقوده ابنه سناء الملك حسين . وتعلم المصريون مما فشلوا فيه من دروس سابقة ؛ فطلبوا مساعدة حكام دمشق الأتراك . ولو أن دمشق ساهمت بمساعدتها في عامي ١١٠٢ و ١١٠٣ م لكانت مساعدة لها قيمتها . على أن دقاق الدمشقي مات في يونية ١١٠٤ م، ونشأ الخلاف بين أسرته وأتباعه طغتكين ، بل جاء رضوان الحلبي سعيًا وراء نصيبه في الإرث.

(٢٤) Fulcher of Chartres, II, xxv, 1-3, pp.462-4; Albert of Aix, IX, 27-9, pp.606-8; Caffaro, *Liberatio*, pp.71-2; Charter of Baldwin in *Liber Irium Reipublicae Genuensis*, vol. I, pp. 16-17.

(٢٥) أنظر أدناه ص (٣٦٧). كانت التجارة مازال مستمرة في زمن ابن حيدر (١١٨٣).

وبداً طغتك بنصيب ابن الدقاق ، تنش ، على العرش ولمّا تجاوز من العمر عاماً واحداً ؛ ثم استبدله بأخي الدقاق ، أرتاش ، البالغ من العمر إثني عشر عاماً . وسرعان ما ارتاب أرتاش في نوايا الوصي طغتك ، فهرب إلى حوران حيث أبحاره أنكين أمير بصرى ، ومنها استغاث بالملك بلدوين الذي دعاه إلى القدس . وفي تلك الملامسات اغتبط طغتك بطلب المساعدة من المصريين ، بيد أنه آثر عدم المقامرة بإرسال قوة كبيرة ، وإنما أرسل قائده صباو على رأس ألف وثلاثمائة من الرماة الراكبين<sup>(٢٦)</sup> وفي أغسطس دخل الجيش المصري فلسطين حيث انضم إليه جنود دمشق بعد هبوطهم خلال الأردن وعبر النقب . وكان بلدوين منتظراً في يافا ، لكنه بعد أن شاهد الأسطول المصري في الأفق اختار الانتقال إلى موقع الرملة الذي لا يبد أن تدور فيه المعركة ، وعهد يافا إلى ليثار (أوف كمباري) مع ثلاثمائة جندي . وكان بصحبته أرتاش الدمشقي الصغير المطالب بالعرش ، وكل من بقي من جند الفرنج في فلسطين ، وحاميات الجليل وحيفا والخليل ، وكذلك الجيش الرئيسي المؤلف من خمسمائة فارس وألفين من المشاة . كما استدعى بلدوين البطريق إيفرمار من القدس ، فجاءه مع مائة وخمسين رجلاً جمعهم من هناك ومعهم الصليب الحقيقي.

وبدأت المعركة يوم الأحد ٢٧ أغسطس . ومع انبلاج الصبح اعتلى البطريق فرسه وسار في غلو ورواح أمام صفوف الفرنج بكامل أردنه والصليب في يده ، مانحاً بركته وغفرانه ، وبعد ذلك هجم الفرنج ؛ لكن هجوما مضاداً من الأتراك الدمشقيين كاد أن يكسر صفوف الفرنج لولا أن حمل بلدوين رايته في يده وقاد هجوما بعثرهم . وحارب المصريون بشجاعة غير عادية ، لكن ميسرتهم كانت قد ذهبت في محاولة فاشلة لمفاجأة حيفا ، وعادت بعد فوات الوقت . وبحلول المساء هزم المسلمون ؛ فاستدار صباو ورجاله عائدين إلى بلادهم ، وانسحب المصريون إلى عسقلان ، ومنها أسرع قائدهم سناء الملك عائداً إلى القاهرة . وكانت الخسائر جسيمة ، إذ قتل حاكم عسقلان وأسر حاكماً عكا وأرسوف السابقان واقتديا فيما بعد بقديّة كبيرة . وأعرب المورخ فولشر أوف تشارتر عن مشاعر الأسى من هرب سناء الملك لضيق القديّة السخية التي كان سيحصل الفرنج عليها . غير أن خسائر الفرنج كانت كبيرة أيضاً . وبعد سلب المعسكر ، لم يطارد بلدوين المصريين ، وكف عن مساندته للأمير الصغير أرتاش الذي عاد إلى الرحبة في الفرات كسير القلب . وعاد الأسطول المصري إلى مصر

ولم يحقق شيئا سوى هلاك بعض السفن في عاصفة<sup>(٢٧)</sup>.

وكانت معركة الرملة الثالثة خاتمة المحاولات الكبيرة التي بذلها الفاطميون لاستعادة فلسطين ؛ لكنهم ظفروا خطرا جالما يتهدد القرنج . ففي حريف ١١٠٦م أوشكت غارة صغيرة أن تنجح حيث فشلت الجيوش الكبيرة ؛ ففي أكتوبر من ذلك العام كان بلدوين مشغولا على الحدود في الجليل ، وهاجم بضعة آلاف من فرسان المصريين معسكر حجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا من كان فيه . وخرج لهم حاكم يافا ، ووجر أوف ووزوي ، لكنه وقع في كمين نصبوه له ، ولم يتفقه سوى فرسه الذي سبق به الريح عائدا إلى يافا . واشتعل حماس المصريين في المطاردة ، حتى أنهم أدركوا أربعين من جنوده المشاة خارج البوابات وقتلواهم . وبعد ذلك توجه المصريون شمالا باتجاه القدس ، وهاجموا حصنا صغيرا يطلق عليه كاستيل أرنو لم يكن بلدوين قد أستكمل بناءه ، وكان مخصصا لحراسة الطريق . واستسلم العمال ، لكنهم قتلوا عدا قاتلهم جيوفري ، وأمر قلعة برج داوود ، الذي أسروه للحصول على الفدية . وعندئذ سمع بلدوين بالغارة فسار جنوبا في قواته ، فلم يجد المصريين مغرا من الإنسحاب إلى عسقلان<sup>(٢٨)</sup>.

#### ١١٠٦ - ١١٠٨ م : هجمات على المدن الإسلامية الساحلية

وفي العام التالي كادت حملة مصرية أن تستولى على الجليل ، لكن بلدوين دحرها بنفسه . وفي عام ١١١٠ م توغل المصريون حتى أسوار القدس ، إلا أنهم سرعان ما تراجعوا<sup>(٢٩)</sup> وتكررت غارات مماثلة من حين لآخر على نطاق أصغر خلال السنوات العشر التالية ، الأمر الذي حرم المسيحيين من الأمان في السهل الساحلي والنفق مستوطنين وحجاجا سواء بسواء ؛ على أن تلك الغارات كانت أكثر قليلا من كونها غارات إنتقامية لما أقدم عليه بلدوين من غارات على الأراضي الإسلامية .

وهكذا أطلق بلدوين يده في محاولته لتوسيع المملكة . وكانت أهم أهدافه المدن الساحلية عسقلان جنوبا ، وصور وصيدا وبيروت شمالا . لكن عسقلان وصور كلاهما

(٢٧) -Albert of Aix,IX,48-50, pp. 621-4; Fulcher of Chartres, II,XXXI,1-xxxiii,3,pp.489-503;Ibn ul-Athir,pp. 228-9; Ibn Moyassar, p. 466.

(٢٨) -Albert of Aix, x, 10-14, pp. 635-8.

(٢٩) -Ibid. x, 33, pp. 646-7; XI, 28, p.676.

قلعة قوية بحامية كبيرة متواجدة بصورة مستديرة، ولا بد لإحضارهما من إعداد العدة بعناية. وفي ربيع ١١٠٦م جاء إلى الأراضي المقدسة حشد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين، مما أغرى بلدوين بالتخطيط لحملة على صيدا، التي ما أن علم حاكمها بذلك حتى أرسل إلى الملك ميلغا ضخما من المال. وقبل بلدوين المدينة، فحاجته إلى المال لا نهاية لها. وبقيت صيدا آمنة لعامين آخرين<sup>(٣٠)</sup>.

وفي أغسطس ١١٠٨م، سار بلدوين مرة أخرى إلى صيدا يساعده أسطول صغير يتألف من بحارة مغامرين من شتى المدن الإيطالية، وعلى القصور استأجر حاكم صيدا مساعدة أتراك دمشق لقاء ثلاثين ألف بيزانت، بينما أبحر أسطول مصري من مصر وهزم الإيطاليين في معركة بحرية خارج الميناء، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار. وعلى الأثر رفض أهالي صيدا - ببعض الممرات - دخول الأتراك مدينتهم، خشية أن يكون لطفتين أطماع فيها، بل رفض الحاكم دفع المبلغ المتفق عليه، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين؛ فأبدى الحاكم استعدادة للعدول عن رفضه، فوافقوا على تسعة آلاف بيزانت على سبيل التعويض ثم انصرفوا<sup>(٣١)</sup>.

وفي الصيف التالي تلقى برتراند التولوزي مساعدة من بلدوين في الاستيلاء على طرابلس؛ وفي المقابل أرسل برتراند في أوائل ١١١٠م الجنود لمساعدة بلدوين في الهجوم على بيروت. وكانت سفن جنوا وبيزا جاهزة لخصام المدينة، خاصة وأن طرابلس تعتبر قاعدة بحرية مناسبة. وحاولت السفن الفاطمية الآتية من صور وصيدا كسر الحصار، لكنها لم تفلح. واستمر الحصار من فبراير إلى مايو. وداخل الحاكم اليأس من وصول المساعدة، فهرب بليل مخترقا الأسطول الإيطالي إلى قبرص حيث سلم نفسه للحاكم البيزنطي. وفي ١٣ مايو استولى الخلفاء على المدينة التي تقوى عنها حاكمها بهجوم ارتكب فيه الإيطاليون مذبحه عامة قتل فيها الكثير من السكان قبل أن يتمكن بلدوين من المحافظة على النظام<sup>(٣٢)</sup>.

(٣٠) Ibid. x, 4-7, pp. 632-4

(٣١) Ibid. x, 48-51, pp. 653-5; Ibn al-Qalanisi, p. 87.

(٣٢) Fulcher of Chartres, II, xlii, 1-3, p. 536، ويذكر فولشر التاريخ ١٣ مايو في أشعار فلكية؛ وورد Albert of Aix في صفحة (٦١١) لتاريخ ٢٧ مايو؛ 99-101 pp. Ibn al-Qalanisi التاريخ ١٣ مايو.

## ١١٠١ م : الاستيلاء على صيدا

وأثناء ذلك الصيف تلقى بلدوين من الغرب مزيداً من التعزيزات البحرية . ففي سنة ١١٠٧م أبحر أسطول من ميناء برجين النرويجي بقيادة سيحورد ، الذي كان يشارك أخويه في عرش النرويج ، وعبر بحر الشمال ، متوقفاً في إنجلترا في الطريق إلى جبل طارق ، ثم قشتالة ، فالبرتغال ، فجزر البليار ، فصقلية ، وأخيراً عكا التي وصلها وقت أن كان بلدوين عائداً من إستيلائه على بيروت . وكان سيحورد أول رئيس متوج يزور المملكة ، ولذا استقبله بلدوين بأسمى آيات التشريف ، ورافق شخصياً إلى القلنس . ووافق سيحورد على مساعدة الفرنج في حصار صيدا ، وبدأ الحلفاء الحصار في أكتوبر . لكن تحصينات صيدا كانت شديدة القوة ، وبوصول أسطول فاطمي قوي من صور كادت السفن النرويجية أن تنعثر ولم ينقذها سوى وصول أسطول من البندقية وعلى رأسه كبير القضاة في جمهورية البندقية بنفسه ، أورديلافو فاليري . وفي تلك الأثناء حطت حاكم صيدا لإغتيال بلدوين ؛ إذ وافق مرتد مسلم من العاملين في خدمة بلدوين الشخصية على تنفيذ الاغتيال لقاء مبلغ كبير من المال ، على أن المسيحيين المحليين في صيدا علموا بالمؤامرة ، فأطلقوا سهماً يحمل رسالة إلى معسكر الفرنج يحذرون فيها الملك . وأخيراً استسلمت صيدا يوم ٤ يناير بنفس شروط عكا . ورحل وجهاء المدينة إلى دمشق مع منقولاتهم ، وأسمى الفقراء رعايا للملك الفرنجي الذي انتزع منهم حيازة مقدارها عشرين ألف بيزانت ذهبي . وكوفي البنادقة بهدية تتألف من كنيسة وبعض الممتلكات في عكا . وعُهد بصيدا - باعتبارها بارونية - إلى إيوستاس جارنييه الذي كان بالفعل حاكماً لقيسارية ، وقد عزز من - كرهه بعد ذلك مباشرة بزواج سياسي من إيماء ، ابنة أخت البطريق كرونولف<sup>(٢٣)</sup>.

وسيطر الفرنج على الساحل السوري كله ، باستثناء قلعتين: عسقلان في الطرف الجنوبي وصور في الوسط . وكان حاكم صور عصيباً ، فأرسل في حريف ١١١١م إلى طغتكين في دمشق يستأجر منه فيلقاً من خمسمائة من الرماة لقاء عشرين ألف بيزانت ، وفي ذات الوقت طلب السماح له ولوجهاء المدينة بإرسال ممتلكاتهم الثمينة

(٢٣) Fulcher of Chartres, II, xlii, 1-7, pp. 543-8; Albert of Aix, XI, 26, 30-4, pp. 675, 677; William of Tyre, XI, 14, pp. 476-9, *Sigurdar Saga* ، ويذكر وليم المسيحيين المحليين .

في *Agrip of Noregs Konungasogum*, passim; *Sigurdar Saga Jorsalafara ok Broedra* Hans, pp. 75 ff. Ibn al-Qalanisi, pp. 106-8; Ibn al-Athir, p. 275; Dandolo in Muratori, Ss. R.I. vol. XII, p. 264; Tafer and Thomas, I, 86, 91, 145; Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, chap. IV, passim.



إلى دمشق للحفاظ عليها؛ ووافق طغتكين ، وانطلقت من الساحل قافلة غنية فيها الأموال والممتلكات . وكان من الضروري أن تعبر القافلة بلادا يسيطر عليها الفرنج ، فتدبر الحاكم الصوري عز الملك رشوة فارس فرنجي يدعى رينفريد ليرشد القافلة ويضمن سلامتها ، فقبل الفارس الرشوة لكنه سارع بإبلاغ بلدوين ، الذي إنقض على وجهاء صور على حين غرة وسلبهم ثروتهم كلها . ووجد بلدوين في تلك الثروة التي هبطت عليه فحاة تشجعا للإستيلاء على صور ، فقاد جيشه كله في نهاية نوفمبر لمهاجمة أسوار صور . بيد أنه كان يفتقر إلى أسطول بحري لمساعدته ، ورغم وجود اثني عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير البيزنطي يوتوميت ؛ غير أن البيزنطيين غير راغبين في القيام بعمل عدائي ضد الفاطميين الذين تربطهم بهم علاقات طيبة ، إلا في حالة واحدة وهي أن يساعدوا بلدوين على استرداد المدن التي استولى عليها أمراء أنطاكية . وبينما تردد بلدوين في الالتزام بشرطهم ، لم يفعل البيزنطيون أكثر من إمداد الجيش الفرنجي بالمواد . واستمر حصار صور حتى إبريل التالي . وحارب أبناء صور بشجاعة ، وأشعلوا النيران في برج الحصار الخشبي الهائل الذي شيده بلدوين . لكن الحروب أضعفتهم ، على الأقل ، بحيث سعوا إلى طلب مساعدة طغتكين ، وقبل أن يطلب عز الملك هذه المساعدة كتب إلى البلاط المصري مبرا تصرفه . وفشلت الاتصالات الأولى التي حاولها طغتكين ؛ إذ اعترض أحد الأعراب العاملين في خدمة الفرنج حماسة زاحلة ، وأظهر زميله الفرنجي رغبته في ترك الحماسة تواصل طيراتها، لكن الأعرابي أخذها إلى بلدوين . وتنكر بعض الرجال لاستقبال سفراء دمشق واعتقلوهم ثم قتلوهم . ورغم ذلك ، تقدم طغتكين إلى صور وبأغت فرقة فرنجية تبحث عن الأعلاف ، وحاصر الفرنج في معسكرهم بينما أغار على القرى . واضطر بلدوين إلى رفع الحصار، ولم يعد إلى عكا إلا بشق طريقه قتالا<sup>(٣٤)</sup>.

كما قتل بلدوين في حملته على عسقلان بنفس القدر . إذ توجه إليها بعد استيلائه على صيدا مباشرة . لكن حاكمها شمس الخلافة ضاق ذرعا بكل هذا القتال ، فألهته عقلية التجارة شراء هدنة حاول حيايتها منها من سكان مدينة صور التي كانت ضمن نطاق سلطته . وعلمت مصر بتلك التصرفات ، فما كان من الأفضل إلا أن يعث بمجنود مخلصين أمرهم بتخلعه . وارتاب شمس الخلافة في حقيقة نواياهم ، فرفض استقبالهم، بل طرد من جنوده من يرتاب في تعاملهم مع الفاطميين ، واستعان بمرتزقة

(٣٤) Albert of Aix, XII, 3-7, pp. 690-3; Ibn al-Athir, p. 257; Ibn Moyassar, p. 467.

من الأرمن مكانهم . ثم ذهب بنفسه إلى القدس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية بلدوين، وعاد معه ثلاثمائة جندي فرنجي عيّنهم في القلعة . وضد أهل عسقلان من تلك الخيانة ، فديروا تمردا في يولييه ١١١١م بمساعدة من مصر اغتالوا فيه خمس الخلافة وقتلوا الفرنج . وسارع بلدوين جنوبا لإنقاذ رجاله ، إلا أنه وصل بعد نفاد السهم . وبقيت عسقلان شوكة في حلق الفرنج لأربعين سنة أخرى<sup>(٣٥)</sup>.

كما فشل بلدوين في محاولة مماثلة في ربيع ١١١٠م لإنشاء عمية في بعلبك بتواطؤ من حاكمها الحصى جهشكين التاجي ؛ إذ علم طغتكين بالمؤامرة فاستعاض عن جهشكين بابنه تاج الملك بوري<sup>(٣٦)</sup>.

#### ١١٠٥م : تشييد الحصون في الجليل

بات شاغل بلدوين الأكبر أن يوفر للمملكة خطا ساحليا ملائما ؛ كما كان مهتما بمنحها ثنوما ملائمة على النحو الذي يتفق لها أكبر فائدة من قرب المملكة من طرق التجارة العربية الكبيرة الآتية من العراق والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط ومصر . وعندما غادر تنكريد فلسطين إلى أنطاكية ، كان بلدوين قد عهد بإمارة الجليل - التي ظلت تحتفظ بالاسم الطنان الذي أطلقه عليها تنكريد - إلى حاره السابق في فرنسا ، هيو (أوف سانت أومير) الذي لقي تشجيعا على انتهاز سياسة عدوانية ضد المسلمين ؛ فبدأ بتشيد حصن طورون - المعروف اليوم باسم تبين - في الجبال على الطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق . ثم بنى حصنا آخر على التلال الواقعة جنوب غربي بحيرة طبرية كان العرب يسمونه علعال ، لاستخدامه بصورة أفضل في الإغارة على الأراضي الخصبة الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وقد استكمل تشييد الحصنين في خريف ١١٠٥م . على أن الحصن الثاني لم يبق طويلا في أيدي المسيحيين؛ إذ لم يكن طغتكين الدمشقي يسمح بتهديد أراضيه على هذا النحو . ولذا، وبينما كان هيو عائدا في نهاية العام إلى علعال عملا بغنائم وفيرة بعد غارة ناجحة ، انقض عليه الجيش الدمشقي وجرح جرحا مميتا في المعركة وتبعثر رجاله ، واستولى طغتكين على الحصن دون صعوبة . وكان أخوه هيو ، حيرار (أوف سانت أومير) ، مريضا آنذاك وفارق

(٣٥) Albert of Aix, XI, 36-7, pp. 680-1; Ibn al-Qalanisi, pp. 108-10.

(٣٦) Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 106; Sibṭ ibn al-Djauzi, p. 537.

الحياة بعد أخيه بفترة وجيزة ، فاضطر بلدوين إلى منح إقطاعية الجليل للفرانس الفرنسي  
حرفاس (أوف باسوش)<sup>(٣٧)</sup>.

وتواصلت أعمال حرب العصابات . ففي عام ١١٠٦م أغار أبناء صور على  
طورون في ذات الوقت الذي أغار فيه الدمشقيون على طبرية ، ولم يكتب النجاح لأي  
من الغارتين . وباقتراب بلدوين أرسل الدمشقيون إليه في معسكره رسولين يعرضان  
الإعداد لهدنة قصيرة . فاستقبلهما بمظاهر الإحترام والسخاء ، مما زاده شهرة على شهرة  
بين المسلمين ؛ غير أنها كانت هدنة قصيرة<sup>(٣٨)</sup>؛ إذ أغار طغتكين على الجليل مرة  
أخرى في ربيع ١١٠٨م ، واستطاع في إحدى المعارك خارج طبرية أن بأسر حرفاس  
(أوف باسوش) وأغلب رجاله ، وأرسل إلى بلدوين يتنزه بأن يمن إطلاق سراحهم هو  
مدن طبرية وعكا وحيفا الثلاث. ولما رفض بلدوين العرض قتل حرفاس ووضعت قرو  
رأسه بخصلاتها البيضاء المتماوجة على قائم أمام الجيش الإسلامي المنتصر<sup>(٣٩)</sup> فأعاد  
بلدوين إلى تنكريد لقب أمير الجليل، والأرجح أن الإمارة كانت تدار من القدس . وفي  
١١١٣م ، وهو العام الذي مات فيه تنكريد ، أمر بلدوين الرهاوي بنفى جوسلين  
(أوف كورتاي) ، فخلع الملك بلدوين عليه إمارة الجليل على سبيل التعويض<sup>(٤٠)</sup>.

#### ١١٠٨م : هدنة مع دمشق

في أواخر ١١٠٨م كان لكل من بلدوين وطغتكين مصالح رئيسية في أماكن  
أخرى، فاتفقا على عقد هدنة لعشر سنوات تقضى بتقسيم عوائد منطقتي السواد وجبل  
عوف، أي شمال الأردن ، على أن يأخذ بلدوين ثلثها، وطغتكين ثلثها الثاني ، ويبقى  
الثلث الأخير للسلطات المحلية<sup>(٤١)</sup>. وربما ترجع أسباب تلك الهدنة إلى دوافع تجارية ؛  
فالتجارة تقضى على ما ينقل عبر البلاد من تجارة تعود بالنفع على الجميع . ولقد

(٣٧) William of Tyre, XI, 5, pp. 459-60; Ibn al-Qalanisi, pp. 72, 75; Ibn al-Athir, pp. 229  
30; Albert of Aix, X, 8, pp. 635-6.

(٣٨) Albert of Aix, X, 25-6, pp. 642-3; Ibn al-Qalanisi, p. 75.

(٣٩) Albert of Aix, X, 57, p. 658; Ibn al-Qalanisi, pp. 86-7; Ibn al-Athir, pp. 268-9.  
ابن الأثير على حرفاس : ابن أخت بلدوين.

(٤٠) Albert of Aix, XI, 12, p. 668; William of Tyre, XI, 22, p. 492.

(٤١) Ibn al-Qalanisi, p. 92; Ibn al-Athir, p. 269.

كانت هدنة تجارية خالصة ؛ إذ لم تمنح طغتكين من أن يهيب لمساعدة المدن الساحلية الإسلامية ، كما لم تقيد بلدوين في محاولته تحويل بعليك إلى مدينة تابعة له . لكن المورخين العرب يذكرون بمشاعر الإمتنان ما أسفرت عنه تلك الهدنة من الحيلولة دون أن يغزو بلدوين الأراضي الدمشقية عندما ساحت له الفرصة لخرقة طغتكين على يد وليم جورون في أرقا<sup>(٤٢)</sup> ، وربما تبعت رغبة بلدوين في الهدنة نتيجة لخرقة جبرئيل وما ترتب عليها من خطر الغارات المنطلقة من الأردن على الجليل . وبالمثل رغب فيها المسلمون بعد غارتين حدثتا مؤخرا . إذ قام وليم كليتون ، ابن روبرت النورمندي ، الذي حلّ مؤخرا بفلسطين للحج ، بمهاجمة أسيرة عربية ثرية كانت مرتحلة مع كل ممتلكاتها من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق ، والغارة الثانية على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مصر . وغنم الفرنج في الغارة الأولى أربعة آلاف جمل ، وغنموا في الثانية جميع بضائع القافلة التي قتل فيها كل من بقى على قيد الحياة فيما بعد على يد البدو<sup>(٤٣)</sup> . وفي ١١١٣م حرق بلدوين المعاهدة بمهاجمته للأراضي الدمشقية.

وبعد أن أخفق بلدوين أمام صور في ١١١١م، انشغل حيناً من الزمن ببعض الأمور شمالي سوريا. فقد سبق أن أوضح نبلاء في طرابلس في ١١٠٩م عزمه على أن يصبح سيديا لجميع فرنج الشرق . وأتاحت له أحداث أنطاكية والرها تأكيد دعواه كما استطاع أن يلفت الانتباه مرة أخرى إلى تضخيم سلطنة الشخصى . ذلك أنه كان مدركا لحقيقة أن فلسطين بلاد مفتوحة للغزو والتسلل من الجنوب الشرقي خلال النقب ، فمن الضروري إذن السيطرة على المنطقة الممتدة من البحر الميت وحتى خليج العقبة لعزل مصر عن العالم الإسلامي الشرقي . وفي ١١٠٧م أرسل طغتكين جيشا دمشقيا إلى أدوم (العراة) تلبية لنداء البدو المحليين هناك ، وذلك لإنشاء قاعدة للإغارة على يهودا . وكان في برارى العراة هذه عدة أديرة يونانية ، فأرسل الراهب ثيودور بحث بلدوين على التدخل ؛ فسار بلدوين جنوبا إلى أن اقترب من المعسكر التركي في وادي موسى بالقرب من البزاء ، لكنه لم يكن راغباً في قتال الترك ، فعرض الراهب ثيودور أن يذهب إلى القائد التركي كما لو كان هاربا ويخبره من اقتراب الجيش الفرغمي الضخم . فاستشعر الأتراك الخطر وانسحبوا بغاية السرعة عائدين إلى دمشق . وعاقب بلدوين البدو بإشعال النيران في كهوفهم قدامها واستولى على قطعانهم. وفي

(٤٢) Ibn al-Athir, pp. 269-70.

(٤٣) Albert of Aix, x, 45, p. 653; Ibn al-Athir, p. 272.

طريق عودته شمالا اصطحب معه الكثير من المسيحيين الذين كانوا يجشون انتقام البدو<sup>(١٤)</sup>.

وفي ١١١٥م عاد بلدوين إلى منطقة العرابة وقد عقد العزم على الاستيلاء عليها بصفة دائمة؛ فهبط من الخليل ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت، وعبر وادي العرابة المقفر الذي يمتد من البحر الميت وحتى مشارف خليج العقبة، ووصل إلى بقعة من البقاع الحصنة القليلة في تلك المنطقة الجرداء، وهي البقعة المعروفة بالشوبك، في رقعة شجراء بين المنخفض والصحراء العربية. وفي ذلك المكان الذي يبعد مائة ميل تقريبا من أقرب مستوطنة فرنجية، شيد حصنا ضخما وترك فيه حامية وأسلحة جيدة، وأطلق عليه اسم الجبل الملكي. وفي العام التالي قاد جيشه ومعه قافلة طويلة من البغال المحملة بالثمن، واندفع في تهور إلى أماكن بعيدة غير معروفة من شبه الجزيرة العربية. وزار الجبل الملكي مرة أخرى، ثم سار جنوبا إلى أن وصل أنجيرا برحاله الذين نال منهم التعب إلى شواطئ البحر الأحمر في العقبة، حيث استمتعوا بالاستحمام في البحر مع حيولهم، وراحوا يصيدون الأسماك التي تشتهر بها تلك المياه. وانزعج السكان المحليون وأصابهم الذعر فلأذوا بالفرار في قواربهم؛ واحتل بلدوين العقبة التي أطلق عليها الفرنج إيليا أو إيلين، وحصنها بتشييد قلعة فيها، ثم أبحر إلى جزيرة فرعون الصغيرة التي أطلق عليها الفرنج حراى حيث بنى حصنا ثانيا، وترك حامية في كل حصن منهما. وبفضلهما أصبح الفرنج يسيطرون الآن على الطرق التي تربط بين دمشق وشبه الجزيرة العربية ومصر، وإمكاناتهم الإغارة على القوافل بيسر يسر، وبات من الصعب على أي جيش إسلامي أن يصل إلى مصر من الشرق<sup>(١٥)</sup>.

#### ١١١٨ م : بلدوين يغزو مصر

وبعد عودة بلدوين من شواطئ البحر الأحمر، سار ثانية إلى صور لكنه اكتفى بفرض حصار برى صارم على المدينة ببناء حصن في سكاندلون حيث يبدأ الطريق الساحلي في الصعود بمحاذاة الجرف إلى المعر المعروف باسم سلم صور<sup>(١٦)</sup>.

(١٤) Albert of Aix, x, 28-9, pp. 644-5; Ibn al-Qalānisi, pp. 81-2.

(١٥) Albert of Aix, XII, 21-2, pp. 702-3; William of Tyre, XI, 29, p. 505. For Aila, see Musil, article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.

(١٦) Fulcher of Chartres, II, lxii, I, pp. 605-6; William of Tyre, XI, 30, p. 507.

وتشجع بلدوين بما حققه من إنجازات ، فشرع في ١١١٨م في حملة أكثر حسارة. إذ أن الجيوش الفاطمية قامت مؤخرًا بغارتين ناجحتين على أراضيه ؛ فبينما كان منشغلا في الشمال مع الأتراك ١١١٣م ، تمكنت الجيوش الفاطمية من التقدم حتى أسوار القدس وهي تنهب البلاد في طريقها. وفي ١١١٥م أوشت على النجاح في مباغتة يافا. والآن يأتي رد بلدوين على ذلك بغزو مصر نفسها؛ فبعد مفاوضات حذرة مع شيوخ القبائل في الصحراء ، قام في وقت مبكر من شهر مارس بقيادة جيش صغير قوامه ستين ومائتي فارس وأربعمائة راجل ، وزوده جيدا بالمؤن وسار به من الخليل عابرا شبه جزيرة سيناء إلى ساحل البحر المتوسط في العريش (الفرما) الواقعة في عمق الحدود المصرية بالقرب من فرع النيل البيلوزي . وتهدأ للهجوم على المدينة ، غير أن الحامية هربت في الفزع ؛ وواصل مسيرته إلى النيل نفسه . وفغر رجاله أنفوسهم لرؤية النيل الشهير . غير أن بلدوين أصيب بمحرض مميت ، وعاد باثنا فلسطين وهو يمتضر<sup>(١٧)</sup>.

تمكن الملك بلدوين ، بمحلاته التي لا تعرف الكلل ، وباتهازه لكل نهضة ، من أن يرتقي بدويلته التي ورثها لتصبح دولة موحدة تحوي مقاطعة فلسطين التاريخية كلها . وباستثناء صور وعسقلان ، سيطر على البلاد المتحدة من بيروت شمالا إلى بحر سبغ جنوبا وحدود الأردن شرقا ونقاط حدودية في أقصى الجنوب الشرقي تتحكم في المدخل من شبه الجزيرة العربية . واعترف رفاقه المسيحيون في الشرق الغربي بسيادته عليهم ؛ وفاز باحترام المسلمين . وكان ما حققه من إنجازات بمثابة ضمان لعدم إمكان تدمير مملكة القدس بسهولة.

وليس لدينا سوى القليل جدا من الشواهد التي تدلنا على إدارته الداخلية للمملكة. وإذا تحدثنا بصورة عامة نقول إنها كانت مملكة إقطاعية . لكنه احتفظ بأغلب البلد في يديه هو شخصيا، يعين النبلاء من طبقة الفيكونت نوابا له ، بل إن أكثر الإقطاعيات بقيت لبضع سنوات بلا عاهل ، ولم تكن الإقطاعيات تورث بعد . إذ عندما قتل هيو (أوف سانت أومير) ، ساد الفتن بأن أخاه جيرار سيخلفه في الإمارة لو سمحت صحته بذلك ، لكن حقه لم يكن حقا مطلقا . وقد طُور بلدوين مشروع دستور للمملكة ، وحكم هو نفسه من خلال بيت ملكي كبير كان حجمه آخذًا في الاتساع . وكان لكل من أصحاب الإقطاعيات التابعين له بيت كبير الخاص به . كما تعزى إليه

الزيتيات التي أعدتها مع الإيطاليين في الموانئ البحرية، وبرغم أنهم لم يُحجروا على مساعدة الحملات الصليبية إلا أنهم كانوا مضطرين للاشتراك بقواتهم البحرية في الدفاع عن الأحياء التي يحصلون عليها<sup>(٤٨)</sup>.

وقد أظهر بلدوين بجلاء نيته في السيطرة على الكنيسة . ولما أيقن من موازرتها عاملها بسخاء ومنحطتها طواعية بعض الأراضي التي استولى عليها من الكفرة . لكنه كان في سخائه هذا على شيء من الخطأ؛ فالكنيسة غير ملتزمة بتزويده بالجنود. إلا أنه كان يتوقع من الناحية الأخرى أن تزوده بالمال.

وأظهرت أحداث كثيرة مدى ما كان بالدين يتمتع به من شهرة بين المسيحيين المحليين . فمنذ تلك الحادثة التي حدثت في عيد الفصح من عام ١١٠١م، كان حريصا على احترام مشاعرهم . فكان يسمح لهم فيما يعقده من محاكمه بالحدث بلغاتهم الخاصة ، والتصرف بحسب عاداتهم الخاصة بهم ؛ ولم يكن من المسموح للكنيسة بالتدخل في ممارساتهم الدينية. وفي السنوات الأخيرة من حكمه شجع هجرة المسيحيين، المرافقة والأرثوذكس على السواء من البلدان المجاورة الخاضعة للحكم الإسلامي . فكان في احتياج لفلاحين كادحين يحتلون الأراضي التي باتت شاغرة في الخليل بعدما رحل المسلمون . وكان يشجع زواج الفرنج من الوطنيات ، وضرب هو نفسه المثل على ذلك . وقليل جدا من أصحاب لقب البارون تزوجوا من محليات ؛ بيد أن الممارسة أصبحت شائعة بين جنود الفرنج والمستوطنين الأفقر. وفيما بعد ، كان الأطفال المهجنون هم الذين يوفرون للمملكة أغلب احتياجاتها من الجنود.

وأظهر بالدين شيئا مماثلا من الود إزاء المسلمين واليهود الذين باتوا من رعاياه ؛ فسمح بالقليل من المساجد والمعابد اليهودية. وفي المحاكم القانونية أصبح بإمكان المسلمين أن يقسموا بالقرآن واليهود بالتوراة ؛ وبذا غدا بإمكان المتخاصمين من الكفرة التطلع إلى العدالة . وسمح بالتزواج مع المسلمين . وفي عام ١١١٤م تلقى البطريرق أرنولف توبيخا شديدا من البابا باسكال لعقده زواج بين مسيحي وسيدة مسلمة<sup>(٤٩)</sup>.

وفي تلك المسألة اتضح سوء فهم البابا باسكال للشرق مرة أخرى . فإذا أراد

(٤٨) La Monte, *Federal Monarchy*, pp. 228-30

(٤٩) Rohricht, *Regesta*, n. 83, p. 19.

فرنج الشرق البقاء بصورة دائمة، فلا ينبغي لهم أن يظلوا أقلية مغتربة، وإنما يتعين أن يصبحوا جزءاً من العالم المحلي. وأما فولشر أوف تشارتر، وهو قسيس بالدوين، فقد أورد في تاريخه فصلاً حماسياً منظوماً عَمَّاً لاحظته من معجزة الرب فسي تحويل الغربيين إلى شرقيين، وبدا له أن امتزاج العرقين الشرقي والغربي يشير الإعجاب، ورأى فيه الخطوة الأولى على طريق اتحاد الأمم. وعلى مدى تواجد الدويلات الصليبية بُعِدَ القصة نفسها: افرغى حكيم عثك في الشرق يتبع تقاليد بالدوين فيتبنى العادات المحلية، وينشئ صداقات وتحالفات محلية، بينما الوافدون الجدد من الغرب لا يجلبون معهم سوى الأفكار المتعصبة المتسلطة التي لا تجلب على البلاد سوى الكوارث.

وقد أساء بالدوين إلى البابا عندما استولى على مدينتي صيدا وبيروت الساحليتين وأخضع كنائسها لبطريرقية القدس، ظناً منه أن الإدارة السليمة للملكة تستدعي ذلك، وهي التي كانت طوال تاريخها تابعة لبطريرق أنطاكية. واعتزض بطريرق أنطاكية - برتراند - لدى البابا من هذا التصرف غير الكنسي. وكان البابا قد أحبط القديس في ١١١٠م بإمكان تجاهل الأوضاع التاريخية للكنائس نظراً للظروف المتغيرة. على أن البابا، وبضعفه المعهود، غيّر في عام ١١١٢م من موقفه هذا وأيد مطالب أنطاكية؛ وبهدوء تجاهل بالدوين هذا القرار الجديد للبابا. وعلى الرغم مما أبداه البابا باسكال من توبيخ لاذع، بقيت الأسقفيات خاضعة لبطريرقية القدس<sup>(٥٠)</sup>.

#### ١١١٣م زواج بالدوين من أديللا

وأما عن زواج بالدوين، فقد ارتكب خطأ جسيماً. ذلك أنه منذ اليوم الذي هرب فيه حموه مذعورا من وحشية زوج ابنته ودون أن يعطي لبالدوين مهر ابنته المتفق، لم يعد بالدوين يهتم كثيرا بعروسه الأرمينية. وكان بالدوين شغوفا بالمغامرات الغرامية، لكنه كان يتوخى التعقل، ومنعه وجود ملكته معه في البلاط من الانغماس في شهواته. وقد كان للملكة هي الأخرى سمعة الملكة الطروب حتى أنها، كما قيل، وهبت حظوتها لقراصنة مسلمين أثناء رحلتها من أنطاكية جنوباً إلى حيث ينتظرها عرشها. ولم يشر زواجهما أطفالاً يوثقون عرى الرابطة الزوجية بينهما؛ وبعد سنوات قليلة، وبعد ما تحقق بالدوين من انتفاء أية فائدة سياسية لزواجه هذا، طردها من

(٥٠) William of Tyre, XI, 28, pp. 502-5.



البلاد بدعوى ارتكابها الزنا وأحبرها على دخول دير القديسة آن في القدس ، وراح يغدق على الدير الخبثات بسخاء ، مداهنة لضميره . على أن الملكة لم تكن تشعر بنسأه دفن حياة الرهينة ، وسرعان ما التمس الإذن بالاعتزال في القسطنطينية حيث يقيم والداه منذ أن طردهما الفرنج من مرعش ، وأحجب مطلبها . وفي القسطنطينية نضت عن نفسها رداء الرهينة ، وراحت تتذوق كل ما تقدمه المدينة العظيمة من ملذات<sup>(٥١)</sup> وفي ذات الوقت أبهج بالدوين أن يجد نفسه قادرا على العودة إلى حياة العزوبة مرة أخرى . على أنه كان لا يزال في حاجة إلى المال . وفي شتاء عام ١١١٢م علم بوجود أرملة مناسبة للغاية في أوروبا تبحث عن زوج : إذ أن أديليدى السالونية - كونتيسة صقلية الأرملة - قد تركت لتوها الرضاة على كونتيتها لبلوغ ابنها الصغير ، روجر الثاني ، سن الرشد . وكانت فائقة الثراء . واحتذبها اللقب الملكي . ولم يكن بالدوين يرغب لما سيحصل عليه من بائة وحسب ، وإنما أيضا لما تتمتع به من نفوذ على نورماندى صقلية ، فسوف يساعد التحالف معهم في إمداده بالقوة البحرية، فضلا عن أن ذلك التحالف سيكون بمثابة توازن مضاد لإزاء النورماندين في أنطاكية . فأرسل طالبا يدها . وقبلت الكونتيسة ولكن بشروطها . إذ أن بالدوين أبتر سلا ولد بعد أن مات أبناؤه من زوجته الأولى في الأناضول أثناء الحملة الصليبية الأولى ، ولم تلد له وليكة الأرمينية . فأصرت أديليدى على أنه ما لم يثمر زواجها من بالدوين بولد - وعمر كل من العريس والعروس لا يبشر كثيرا بولد - فلا بد أن ينتقل تاج القدس إلى ابنها الكونت روجر .

وتم عقد الزواج . وفي صيف ١١١٣م أبحرت الكونتيسة من صقلية نحو طرابلس لم يشهد البحر المتوسط منذ أن أبحرت كليوباترة قاصدة سيدنوس Cydnus للقاء مارك أنطونيوس . كانت متكئة على بساط عيوطه من ذهب في سفينتها التي كانت مقدمتها مزودة بصقالح من الذهب والفضة . وكانت هناك مسقيتان أخريان بصحبتها، على جانبي كل سفينة ثلاثة صفوف من المحاذيف ، مقدمتهما مزدانان بنفس زينة سفينتها، وتقلان حرسها العسكري ، وقد تألق من بينهم الجنود العرب من حرس إبنها الشخصي، تلمع وجوههم السمر فوق أردبتهم ذات البياض الناصع . وفي أنرالمياه الذي تركه السفن وراءها كانت هناك سبع سفن أخرى امتلأت عتارها بكنوزها الخاصة بها . وهبطت إلى الشاطئ في عكا في شهر أغسطس ، حيث كان الملك

(٥١) Guibert of Nogent, p. 259 ، الذي يذكر حياته الخلية . ويفرض William of Tyre, XI, PP. 451-2 أنها انسقت في الشرور بعد ملانها.

بالدوين في استقبالها بكل الروعة التي تستطيع مملكته إظهارها ، وكانت الأودية الحربية الفاخرة تكسوه وتكسو بلاطه كله ؛ وكانت عيولهم وبغالهم مزدانة بالأكسية الأرجوانية والذهب . ومُسطت الشوارع بالبسط الفاخرة ، ورفرفت الرايات الأرجوانية من النوافذ والشرفات . وعلى طول الطريق إلى القدس بدت المدن والقرى كما لو كانت في ملابس مبهرجة . كانت البلاد كلها في بهجة، ولكنها ليست البهجة الكبيرة لمقدم السيدة الجديدة التي تخطو إلى شيوخها بقدر ما كانت بهجة لما جلبته في بضائنها من ثروة<sup>(٥٢)</sup>.

وبرغم تلك البداية الباهرة لم يحقق الزواج نجاحا. إذ تسلم بالدوين على الفور بالنته من الملكة ، وأنفقها في تسديد أجور الجنود المتأخرة ، وفي الإنفاق على أعمال التحصينات ؛ وأسفر تداول هذه الأموال عن انتعاش اقتصاد البلاد . ولكن سرعان ما حبت الجنود ؛ واثقلت مساوئ الزواج . ويتذكر أصحاب الورع أن زوجة بالدوين السابقة لم تطلق أبدا طلاقا قانونيا . وصدمهم قيام البطريرق أرنولف بكل طوعية بالإنحياز ما كان في حقيقته احتفالا بالجمع بين زوجتين؛ وسارع أعداء أرنولف في استغلال تصرفه ذاك الشاذ . وزادت حدة المحرم عليه عندما أغضب رعية بالدوين كلها اكتشاف أنه اقترح التخلص من ولاية عرش الملكة دون استشارة مجلسه . وانهمرت على روما الشكاوى ضد أرنولف. وبعد عام على الزواج الملكي ، وصل إلى القدس المندوب البابوي بيريغار أسقف أوراني . وفضلا عن إتهام أرنولف ببيع المقدسات والمناصب الكنسية ، تأكد لدى المندوب البابوي أنه قد غرض النظر عن علاقة زنا، بل وباركها ؛ فجمع أساقفة ووهبان البطريركية في مجمع كنسي وأعلن خلع أرنولف. على أن أرنولف لا يتخلع بهذه السهولة . فتدبر عدم تعيين خليفة له وانطلق هو نفسه إلى روما في شتاء ١١١٥م، حيث مارس كل ما لديه من سحر إغرائي على البابا والكرادلة الذين قويت مشاعر العطف عليه لما أهداهم من هدايا اختارها لهم بعناية . ووقع البابا باسكال تحت نفوذه ، وأنكر قرار مندوبه البابوي . ووافق أرنولف على تقديم تنازل واحد : لقد وعد بأن يأمر الملك بطرد الملكة الصقلية . وعلى الأثر لم يكشف البابا بإعلان بطلان خلع أرنولف ، وإغماق هو نفسه وقدم له الطيّلسان ليرتديه ، وهكذا آيد

(٥٢) Albert of Aix, XII, 13-14, pp. 696-8; William of Tyre, XI, 21, pp. 487-9; Fulcher of Chartres, II, li, pp. 575-7. كانت أديلايدي ابنة الماركيز مانفريد ، وابنة أخت صاحب حانة سالونا، وقد تزوجت روجر الأول الصقلي كزوجته الثالثة عام ١٠٨٩ ولعزبة نسبها تنفطر Chalandon, *Histoire de la Domination Normande en Italie*, II, p. 391, n. 5.

بقائه في منصبه بما لا يدع مجالاً لأية رية . وفي صيف ١١١٦م عاد أرنولف منتصرا إلى القدس<sup>(٥٣)</sup>.

وقد أقدم أرنولف على هذا التنازل بلا تردد ؛ إذ كان يعرف ان بالدوين الآن ، وبعد أن أنفق البائلة - أصبح شبه أسف على زواجه ، كما لم تجد أديليدى هي الأخرى أنها معجبة بمعبد سليمان في القدس الذي تفتقر فيه إلى أسباب الراحة ، وهي التي اعتادت على الحياة الفاخرة في قصر باليرمو . على أن بالدوين تردد ؛ فهو كاره لأن يتسر مزاي التحالف الصقلي ؛ فقاوم طلبات أرنولف إلى أن أصيب بمرض شديد في شهر مارس ١١١٧م ؛ وأنصت ، وهو بين يدي الموت ، إلى كهنة الأعزاف الذين قالوا له إنه يموت وهو في حالة من الإثم . وعليه أن يطرد أديليدى ، وأن يستدعى زوجته السابقة لتكون إلى جانبه . ولم يستطع أن يلبى كل رغباتهم ؛ إذ أن الملكة السابقة لم تكن مهيأة لمغادرة القسطنطينية والتخلي عما كانت غارقة فيه من ملذاتها الرائعة . على أنه عندما شفى من مرضه أعلن إلغاء زواجه من أديليدى ، التي نال منها الغضب ، وقد حُرِدت من ثروتها ، فأبحرت عائدة إلى صقلية في رحلة تكاد أن تكون بلا حراسة . وكان ذلك إهانة لم ينسها البلاط الصقلي أبداً . ومضى وقت طويل قبل أن تتسلم مملكة القدس أية مساعدة أو تعاطف من صقلية<sup>(٥٤)</sup>.

#### ١١١٨م موت أمراء

خسف القمر يوم ١٦ يونية ١١١٧م ، ومرة ثانية يوم ١١ ديسمبر ، وبعد ذلك بخمس ليال حدثت الظاهرة النادرة فتلاً الشفق القطبي الشمالي في سماء فلسطين ، فكانت نذيراً مرعباً يتنبأ بموت أمراء<sup>(٥٥)</sup> . ولم يكذب النذير . ففي ٢١ يناير ١١١٨م مات البابا باسكال في روما<sup>(٥٦)</sup> ، وفي ١٦ إبريل أنهت الملكة السابقة أديليدى موتها

(٥٣) عطاء باسكال الثاني المؤرخ في ١٥ يولية ١١١٦، M. P. L. vol. CLXIII, cols. 408-9; Albert of Aix, XII, 24, p. 704; William of Tyre, XI, 24, pp. 499-500.

(٥٤) Albert of Aix, loc. cit.; William of Tyre, loc. cit.; Fulcher of Chartres, II, lix, 3, p. 601.

(٥٥) Fulcher of Chartres, II, lxi, 1-3, lxi, 1-4, pp. 604-5, 607-8. Hagenmeyer تاريخ وفوق الظاهرة . ويذكر Fulcher موت باسكال ، بالدوين وأديلدي وأرنولف والكسيوس.

(٥٦) Annales Romani, M.G.H.S., vol. v, p. 477; William of Tyre, XII, 5, p. 518.

وجودها الدليل في صقلية<sup>(٥٧)</sup> ، ولم يمش صديقها الزائف البطريق أرنولد سوى اثني عشر يوما بعدها ، وشهد يوم ٥ إبريل موت السلطان محمود في إيران ، وفي ٦ أغسطس مات الخليفة المستظهر في بغداد<sup>(٥٨)</sup> . وفي ١٥ أغسطس ، وبعد مرض طويل مو لم ، مات في القسطنطينية أعظم عوالم الشرق ، الإمبراطور ألكسيوس<sup>(٥٩)</sup> ، وفي بداية الربيع عاد الملك بالدوين من مصر وقد ضربته الحمى . ولم يبق في بدنه المرحق المتعب أية مقاومة . وقد حمله جنوده عاتدين به إلى قلعة العريش الحدودية الصغيرة ، وهو محتضرا . وهناك ، وبدقة عبر حدود المملكة التي تدين له بوجودها ، مات يوم ٢ إبريل بين ذراعي أسقف الرملة . وحين يجتث إلى القدس ، وفي يوم أحد السعف ، ٧ إبريل ، وقد ليستريح في كنيسة القبر المقدس ، بجانب أخيه جودفري<sup>(٦٠)</sup> .

وصاحب موكب الجنازة نواح الفرنج والمسيحيين المحليين على السواء ؛ بل إن العرب الزائرين كانوا متأثرين . كان ملكا عظيما ، قاسيا و مجردا من المبادئ الخلقية ، لم يكن محبوبا ، ولكن حظى باحترام عميق لما أبداه من نشاط وبصيرة ونظام وعدالة في حكمه . لقد ورت مملكة ضعيفة غير مستقرة ، لكن قوته الحربية ، وحدة ذهنه الدبلوماسية ، وتسامحه الحكيم ، أوجد لها مكانا راسخا بين ممالك الشرق .

(٥٧) *Neerologia Panormitana, in Forschungen zur deutschen Geschichte*, vol. XVIII, PP. 472, William of Tyre, XII, 5, P. 518 .

(٥٨) Ibn al-Athir, pp.310-11; Matthew of Edessa, ccxxvi, p. 297.

(٥٩) Zonaras, p. 759, William of Tyre, XII, 5, p. 517; Ibn al-Qalanisi, p. 157 أيضا. Matthew of Edessa , ccxxviii, pp. 300-1.

(٦٠) Fulcher of Chartres, II, xiv, 1-5, pp. 609-13; Albert of Aix, XII, 26-9, pp. 706-9; William of Tyre, XI, 31, pp. 508-0; Ibn al-Qalanisi, loc. cit..



---

## الفصل السادس:

### توازن في الشمال



## توازن في الشمال

"فِيحَارُبُونُ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ"

(أشعيا : ١٩ - ٢)

كان الملك بالدوين الأول ، قبل وفاته بضع سنين ، قد أعلن نفسه زعيما دون منازع لفرنح الشرق . ولم يكن ذلك إنجازا يسيرا ، وقد أفلح فيه بالدوين بمهارته في استخدام الظروف .

وغدا تنكريد بلا غريم بين فرنج شمال سوريا بعد أن وقع في الأسر في حران كل من بالدوين (أوف لو بوج) وجوسلين (أوف كورتناي) ، وبعد رحيل بوهيموند إلى الغرب؛ ونتيجة للشقاق الذي كان يحدث بين المسلمين تمكن من انتهاز كل نهضة أمامه انتهازا كاملا . وكانت الامبراطورية السلجوقية تتداعى قطعة قطعة لأسباب تعزى في أهميتها إلى ما ساد من خلافات بين أمراءها بصورة أكبر من عزوها إلى ما كانت تواجهه من ضغوط خارجية . وارتفع نجم حكيمش - أتابج الموصل - بنصره في حران إلى مركز الصدارة بين عوالم الأتراك في شمال سوريا والجزيرة ، برغم فشله الذريع في



متابعة المحرم ضد الفرنج. وكان حليفه السابق وتده، سقمان الأرمني صاحب مردين، قد مات في هلكورة ١١٠٥ م، وهو في طريقه لمساعدة طرابلس المحاصرة، وتنازع على الميراث أخوه إيلغازي، وابنه إبراهيم<sup>(١)</sup> وكان إيلغازي فيما مضى تحت إمرة رضوان الحلبي، ولذا كان الأخير يأمل الآن في أن يمنحه إيلغازي - بعد الانتصار - نفوذاً في الجزيرة؛ لكن إيلغازي نسي الولاء القديم، وكان رضوان نفسه غارقاً في محاربة الفرنج لتأكيد زعامته العليا القديمة<sup>(٢)</sup> وفي ١١٠٦ م مات الأمير الدانشمندى العظيم الملك غازي جوموشكين تاركاً وراءه مملكة مقسمة؛ فأصبحت سيولس وأراضى الأناضول من نصيب ابنه الأكبر غازي؛ وأمست ملطية وأراضى سورية من نصيب ابنه الأصغر سنقر، وهو شاب لا خبرة له، مما أغرى قلع أرسلان - الذي تعاهد مع بيزنطة على السلام مؤخراً - بالتحول شرقاً ومهاجمة ملطية والاستيلاء عليها في عريف ١١٠٦ م<sup>(٣)</sup>. ثم إنه خلع على نفسه لقب سلطان وحاول الحصول على الاعتراف بلقبه هذا في أنحاء العالم التركي، وكان على استعداد لمصادقة من يعامله بهذه الصفة<sup>(٤)</sup>.

ولم ينعم حكيمش بمركز الصدارة طويلاً، إذ كان له حتماً أن يتورط في النزاعات الدائرة في السلطنة السلجوقية الشرقية. وعندما اضطر السلطان بارقيارق إلى اقتسام أملاكه مع أخيه محمد في ١١٠٤ م، تقرر ضم الموصل إلى أملاك الأخير. وحاول حكيمش أن يستقل بنفسه فأعلن أنه يدين بالولاء لبارقيارق فقط، وتحدى جنود محمد؛ غير أن بارقيارق مات في يناير ١١٠٥ م وورث محمد أملاكه كلها؛ فلم يجد حكيمش ذريعة للإستقلال عن محمد، وأسرع إليه معلناً خضوعه إليه. وأظهر محمد الصداقة إلى حين، وعاد شرقاً دون أن يغامر بدخول الموصل دعول المنتصرين<sup>(٥)</sup>.

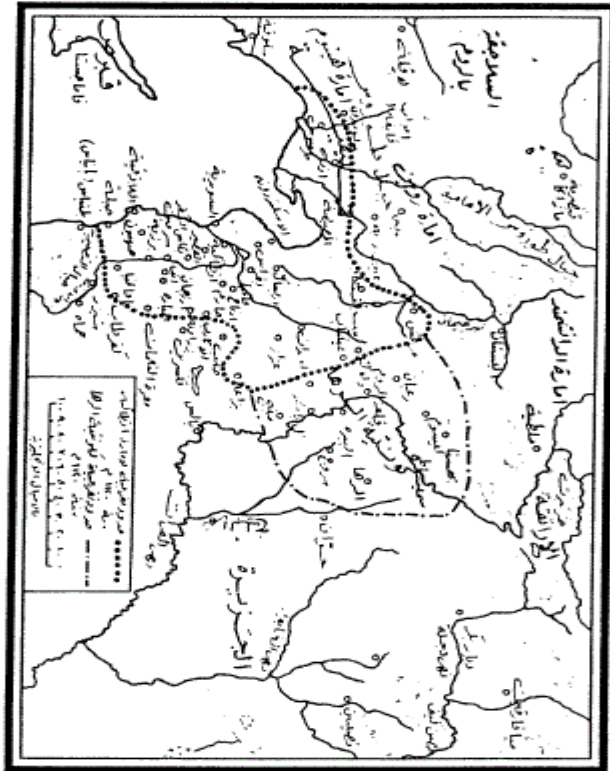
(١) ابن الفرات، انظر 248، n. 26، Cahen, La Syrie du Nord، ويقول ابن الأثير 226-7، Athir، pp. 226-7، إن إيلغازي أخذ مردين من إبراهيم في ١١٠٧. والإطلاع على التاريخ للعقد لأمرأة المسلمين أنظر Cahen, op. cit. pp. 246-9.

(٢) Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣) ميخائيل السوري، Michael the Syrian, III, p. 192.

(٤) أنظر مقال "Kilij Arslan" في دائرة المعارف الإسلامية. Encyclopaedia of Islam، أما ابن الفرات، وابن الأثير، وغيرهما من المؤرخين العرب فيتركون جانب الخدر ولا يطلقون عليه سوى مآلث. ويسميه ماثيو الأورفي Matthew of Edessa وميخائيل السوري Michael the Syrian سلطان.

(٥) Ibn al-Athir, pp. 224-5.



خريطة رقم (١) شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

ثم شرع حكرمش في تنظيم حملة جديدة ضد الفرنج ، وربما كان ذلك بناء على طلب محمد ، فتحالف مع رضوان الحلبي وصابو، القائد العسكري لرضوان ، والبلغازي الأرمني ، وزوج ابنته ألبو ابن أرسلانناتش صاحب سنقار. والمقترح الحلفاء على رضوان إدخال البهجة على السلطان محمد بالهجوم على حكرمش ، ففى ذلك حكمة سياسية ومنفعة ؛ فساروا معا إلى مدينته الثانية نصيبين . غير أن عملاءه هناك أفلحوا في الوقعة بين رضوان والبلغازي؛ فخطف الأول الثاني في مأدبة أقامها أمام أسوار نصيبين ، وكيّله بالسلاسل ؛ فقام العساكر الأرائقة بمهاجمة رضوان وأجبروه على العودة إلى حلب. وهكذا نجح حكرمش وسار بنفسه وهاجم الرها؛ على أنه بعد أن أفلح في هزيمة فرقة خرجت للتصدي له من جنود ريتشارد حاكم الإمارة، عاد إلى بلده ليواجه مشاكل جديدة<sup>(٦)</sup>.

وفي تلك الأثناء حاول قلع أرسلان بدوره المحرم على الرها - وكان قد استولى ثوره على ملطية - لكنه وجد دفاعاتها قوية ، فتحول إلى حران التي كانت حاميتها تابعة لحكرمش ، وقد سلمته الحامية المدينة . وكان من الواضح أن سلاجقة الروم يسعون إلى توسيع رقعة سلطانهم في العالم الإسلامي على حساب أبناء عموماتهم سلاجقة الفرس<sup>(٧)</sup>.

ولم يغفر السلطان محمد أبدا ما راود حكرمش من نزعات استقلالية ، وكان يرتاب في أنه متواطئ مع قلع أرسلان . وفي شتاء ١١٠٦م حرمه رسميا من الموصل ووهبها مع حكم الجزيرة وديار بكر لمغامر تركي يدعى حوالى سقاوه . فقاد حوالى جيشا ضد حكرمش الذي تقدم هو الآخر لقتاله ، لكن حكرمش هزم خارج المدينة مباشرة ووقع هو نفسه أسيرا ؛ وعلى الفور نصّب أبناء الموصل ابن حكرمش ، زنكي ، أتائجا لما كان لحكرمش من شعبية بينهم ، بينما أرسل الأصدقاء خارج المدينة إلى قلع أرسلان طالبين مساعدته . وكان في مأمول حوالى أن يستخدم حكرمش كورقة للمقايضة عليها ، غير أنه بعد أن مات حكرمش بغتة في أسره ، رأى الحكمة في الانسحاب . وفتحت الموصل أبوابها لقلع أرسلان الذي وعد باحترام حريتها.

ورسّخ حوالى دعائم سلطانه في وادي الفرات ، ومن هناك تفاوض مع رضوان الحلبي واتفقا على خلع قلع أرسلان أولا ثم يتقدما معا لمهاجمة انطاكية . وفي يونيو

(٦) Matthew of Edessa, c.1100, pp. 260-1.

(٧) Ibn al-Athir, p. 239.

١١٠٧م توجه الإنسان على رأس أربعة آلاف رجل وهاجما الموصل . وكان قلع أرسلان بعيدا وجيشه أصغر ، لكنه مع ذلك خسف لهزيمة الخلفيين على ضفاف نهر خيبر . وبرغم ما انتصف به من شجاعة ، فقد هزم هزيمة ماحقة وهلك هو نفسه وهو يعبر النهر هاربا<sup>(٨)</sup>.

وتركت نهاية قلع أرسلان أثرها على العالم الشرقي كله . إذ انزعاج عن بيزنطة خطر هائل في لحظة حاسمة كان فيها بوهيموند على وشك مهاجمة البلقان ؛ وتمكنت السلطنة السلجوقية الفارسية من أن يطول أهلها لقراءة قسطنطين من الزمان ؛ وكانت بمثابة أول مرحلة خطيرة في انفصال أتراك الأناضول عن إخوانهم في الشرق الأبعد . وحرمت سوريا - لوقتها - من قوة خليقة بأن تحقق لها وحدتها.

وأصبح بإمكان جوالى دخول الموصل . وسرعان ما صنع من نفسه حاكما بغيضا بأفعاله الوحشية في حكمه ؛ ولم يظهر لسيدته السلطان محمد احتراماً أكثر مما أظهره حكرمش من قبله . وبعد عام ، خطط محمد لاستبداله ، وأرسل إليه جيشا بقيادة المملوك مودود الذى أصبح النصير الرئيسى للإسلام خلال السنوات القليلة التى تلت<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٠٧م : إطلاق سراح جوسلين

وإثناء كل هذا الإضطراب كان بالدوين (أوف لوبورج) أسيرا في الموصل ، بينما انتقل ابن خالته جوسلين (أوف كورتناى) بعد موت سقمان إلى أيلغازى الذى كان يتخطط لطرد ابن أخيه إبراهيم من ماردن ؛ على أن أيلغازى كان فى حاجة إلى المال والخلفاء ؛ ولذا وافق على إطلاق سراح جوسلين مقابل عشرين ألف دينار ووعد بمساعدة عسكرية . وتعهد رعابا جوسلين فى تل بشير طواعية بمبلغ الفدية ، وأطلق سراحه فى وقت ما من عام ١١٠٧م<sup>(١٠)</sup> . وتمكن أيلغازى ، بالتزويبات التى أعدها ،

(٨) المرجع السابق صفحات ٢٤٦ - ٢٤٧ . ويعتبر ماثيو الأورغني Matthew of Edessa, xcvi, p. 264 أن موت قلع أرسلان بمثابة كاترثة للعالم المسيحي كله ، أى الأرمن.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 259-61; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 241.

(١٠) يقول ميخائيل السوري Michael the Syrian, III, pp. 195-6 إن مواطنى طرابزون سلموا أنفسهم كرهائن إلى أن يتم جمع المال ، ثم تراجعوا ، بحيث لم يدفع شيء فى الواقع ، على أن جوسلين عاد إلى الأسر كرهينة لبالدوين ، وشرك لقطاعا راعيا على سلاطنة الموصل الذى طلب رؤيته خصيصا. ويقرئ ابن الأثير Ibn al-Athir, p. 261 أن الفدية قد دفعت على النحو الواجب.

من الإستيلاء على ماردين . ثم سعى جوسلين إلى تخليص بالدوين الذي كان في قبضة حوال في كل متعلقات حكومتهم . ولقد اختيرت اللحظة اختيارا حسنا ؛ إذ كان حوال في حاجة إلى مساعدة لصد هجوم مسودود القادم ؛ فطلب ستين ألف دينار، وأطلق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين في الرها ، وغالفا عسكريا . وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تولى أهالي الموصل عن حوال وفتحوا أبواب مدينتهم لمسودود، ووجد حوال نفسه وقد طرد من الموصل، فوطد دعائم ملكه في الجزيرة آخذاً معه بالدوين<sup>(١١)</sup>.

ومكن جوسلين من تجهيز ثلاثين ألف دينار بلا صعوبة كبيرة . وأحضر المال بنفسه إلى قلعة الجبار في الفرات حيث يعيش حوال الآن ؛ وعرض أن يبقى هو نفسه رهينة بدلا من بالدوين الذي سيتولى احتضار باقي القدية . وتكررت مشاعر حوال بهذه الحركة وأثارته مسألة الأمير الفرنجي ، وقبل جوسلين بدلا من بالدوين . وبعد أشهر قليلة أطلق سراح جوسلين وأضعا ثفته في كلمته التي وعدها بتسديد باقي القدية، وكان لثفته ما يبروها<sup>(١٢)</sup> . ولقد أقدم على هذه الحركة بسوازع الفروسية من ناحية، وبدافع المصلحة الذاتية من الناحية الأخرى - إذ كان شديد الرغبة في التحالف الفرنجي.

#### ١١٠٨ م: مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين ومسلمين

مضى على تانكريد الآن أربع سنوات وهو سيد الرها التي يحكمها باسمه ابن عمه ويتشارد (أوف برنسيات) ؛ وكان تانكريد عزوفا عن تسليم الرها لبالدوين . وعندما ظهر بالدوين في الرها وافق تانكريد على دفع ثلاثين ألف دينار ، لكنه رفض إعادة المدينة لبالدوين إلا بعد أن يقسم قسم الولاء له . ولم يكن يوسع بالدوين الموافقة باعتباره تابعا لملك القدس ، فذهب إلى تل بشير مغاضبا حيث لحق به جوسلين ، وأرسل إلى حوال يطلبان مساعدته . وسار تانكريد إلى تل بشير حيث وقعت مناقشات طقيفة اجتمع بعدها المتحاربون في جلسة معقدة لمناقشة المسألة مرة أخرى ، ولكن دون جدوى . وأطلق بالدوين سراح مائة وستين أسيرا مسلما وأرسلهم هدية إلى

(١١) Ibn al-Athir, p. 260 P Bar-Hebraeus, loc. cit.

(١٢) Michael the Syrian, loc. cit.; Chiron. Anon. Syr. pp.81-2; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 243; Ibn al-Athir, p. 261.

حوالى بعد أن أعاد تجهيزهم ثم سار شمالا يبحث عن حلفاء آخرين. وكان حكم ريتشارد في الرها مكروها من الأرمن خاصة لنفسوته واستزازه ، ولذا ذهب بلدوين لزيارة كبير أمراء الأرمن في الجوار - كواسيل أمير كيسوم - الذي عزز مكانته مؤعرا باستمالة كاثوليكوس الأرمني وأقنعه بالعيش في كنفه . واستقبل كواسيل بلدوين في مدينة رعيان ووعده بالمساعدة ، بينما أبهج أوشين الأرمني ، الذي كان يحكم كيليكيا باسم بيزنطة ، أن ينظر أية خطوة ضد تنكريد ، ومن ثم أرسل ثلاثمائة من المرتزقة البتشنج . وعاد بلدوين بهذا الحشد المخالف إلى تل بشير . ولم يكن تنكريد مستعدا للإساعة إلى العالم الأرمني كله ، لاسيما وأن برنارد - بطريق أنطاكية - اشاز بنفوذه إلى جانب بلدوين ، فاضطر تنكريد على مفض إلى سحب ريتشارد أوف برينسيبات من الرها التي استقبلت بلدوين بمشاعر البهجة<sup>(١٣)</sup>.

ولم تكن سوى هدنة مؤقتة . وكان بلدوين مخلصا في صداقته مع حوالى ، فأعاد له الكثير من الأسرى المسلمين ، وسمح بإعادة بناء المساجد في مدينة سروج التي كان أغلب سكانها من المسلمين ، وأمر بإعدام كبير قضاتها بعد خذلانه إذ لم يكن مقيولا من السكان لارتداده عن الإسلام . واستشعر رضوان الخليلي الخطر من هذا التحالف ، إذ راح حوالى يهدد ممتلكاته في الفرات ، فرد بالإغارة على قاقلة بضائع تضم بعض غدية بلدوين المرسله من تل بشير إلى بلاط حوالى . وفي سبتمبر ١١٠٨م استولى حوالى على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات ، والتي لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلا، واصل أبرز المؤيدين لرضوان في المدينة . وعلى الفور استنجد رضوان بتنكريد . وفي أوائل أكتوبر وصل بلدوين وحوسلين إلى منبج بين حلب والفرات مع بضعة مئات من فرسانهما وانضما إلى جيش حوالى الذي كان يتألف من نحو خمسمائة تركي وعدد أكبر من البدو برئاسة ابن صدقة أمير بني مزيد ، وبذا بلغ قوام الجيش المتحد قرابة ألفي رجل . وكان مع رضوان نحو ستمائة رجل لمواجهة الجيش المتحد ، لكن تنكريد جاء بقوة قوامها ألف وخمسمائة رجل . وحشي وطيس معركة بقاتل فيها مسيحيون ومسلمون مسيحيين ومسلمين . وبينما كان جنود حوالى يدفعون فرنج أنطاكية إلى الوراء شيئا فشيئا منزليين بهم خسائر جسيمة ، كان البدو قد لاحظوا الخيول التي كان فرسان بلدوين يحتفظون بها بصورة احتياطية ، فتعذر عليهم مقاومة اغراء الخيول ، فتخلوا عن القتال وسرقوها وانطلقوا بها ، وإذ رأهم أترك حوالى يذهبون استداروا

(١٣) Fulcher of Charters, II, xxviii, 1-5, pp.477-81; Albert of Aix, x,37, p.648; Matthew of Edessa, cxcix, p.266;

ولاذلوا بالفرار . ونظر بلدوين وجوسلين فوجدا أنهما وحيدان أو يكادان ، فاضطرا إلى الفرار هما أيضا مع بقايا جنودهما، وقد كادا أن يقعوا في الأسر كلاهما. وقيل إن حسانا المسيحيين بلغت نحو ألفين<sup>(١٤)</sup>.

وانسحب جوسلين إلى تل بشير وعاد بلدوين إلى دلك شمال رواندان حيث حاول تنكريد محاصرته، لكنها كانت مجرد محاولة كُفِّ عنها عندما سمع بشاعة اقتراب حاول. وفي نهاية الأمر استعاد بلدوين وجوسلين الرها فوجدا أهلها في حالة من الذعر . إذ أنهم ، خشية من أن يكون بلدوين قد مات ، ومن ثم يخضعون لحكم ويتشاور المقوت، اجتمعوا في كنيسة القديس يوحنا حيث قام الأرمن منهم بتوجيه الدعوة إلى الأسقف اللاتيني للمشاركة في إنشاء حكومة مؤقتة إلى أن يتجلى الموقف . وعندما جاء بلدوين بعد ذلك يومين ارتاب في أن الأرمن كانوا يدبرون خيانة لاستعادة استقلالهم . فضرب بسرعة وبقسوة . فاعتقل الكثير من الأرمن وفقاً لأعينهم . ولم تسلم عينا الأسقف الأرمني إلا بغرامة باهظة تبرعت بها رعيته ، وأعقب ذلك طرد الأرمن قسرا من المدينة . وما حدث في واقع الأمر غير معروف، غير أنه من الواضح أن بلدوين لا بد وأن شعر بتعطر حسيب بحيث عكس اتجاه سياسته الأرمنية بصورة مفردة<sup>(١٥)</sup>.

#### ١١٠٩ م : المصالحة بين أمراء الفرنج

وبرغم انتصار تنكريد ، وبرغم مصالحة حوالى بعد أشهر قليلة مع سيده السلطان الذي خلع عليه إمارة بعيدة في فارس ، لم يُقدِّم تنكريد على أية محاولة لإخراج بلدوين من الرها، وبدلاً من ذلك قاد حملة في حريف ١١٠٨م ضد شيزر حيث قتل بصعوبة جماعة صغيرة من الأعداء فاجأها في كهف ، ثم ارتضى الرحيل عن شيزر مقابل جواد أصيل قُدِّم له هدية<sup>(١٦)</sup>.

وفي الربع التالي تورط في النزاع الذي نشأ بين وليم جوردون وبرتراند التولوزي على ملكية الأراضي الفرغية في لبنان . وقوبلت موافقته على أن يصبح وليم جوردون

(١٤) Matthew of Edessa, cxcix, pp. 266-7; Ibn al-Athir, pp. 265-7; Kemal ad-Din, p. 595; Ibn al-Furat, quoted in Cahen, *op. cit.* p. 250 n. 34.

(١٥) Matthew of Edessa, cxciv, pp. 267-8.

(١٦) Usama, ed. Hitti, pp. 99-100.

من أتباعه بتدخل سريع من الملك بلدوين باعتباره سيداً أعلى لجميع فرنج الشرق . وعندما استدعاه الملك للحضور مع غيره من قادة الفرنج لقبول تحكيمه في المعسكر المقام أمام طرابلس ، لم يجرؤ على الرفض . وفي حضور الأمراء المجتمعين قام الملك بلدوين بتقسيم الميراث التولوزي ، ليس هذا وحسب ، بل أجاز تنكريد وبلدوين وحوسلين على التصاوغ والتعاون ضد الكفرة . وقد قبل تنكريد حق الملك في التحكيم، ومن ثم اعترف بسيادته ، وإزاء ذلك سمح له بأن يحتفظ بوليم جوردون كواحد من أتباعه ، وأعيد له لقب أمير الجليل وملكية المعبد في القدس ، وحصل على وعد باستئناف إدارة الإقطاعية في حالة عودته بوهمنند إلى انطاكية . وقلت تلك المزاييا بعدما قتل ولیم جوردون وانتقلت أراضيها إلى برتراند الذي اعترف بالملك بلدوين وحده سيداً له . على أن تنكريد تشجع على مهاجمة جبلة ، وهي آخر ممتلكات بني عمار ، فاستولى عليها في شهر يولية ١١٠٩ م ، وبهذا باتت حدوده تتأخم حدود برتراند جنوباً<sup>(١٧)</sup>.

وقد كان أمراً ضرورياً أن تتم هذه المصالحة بين أمراء الفرنج تحت الملك بلدوين . ففي أوائل ١١١٠م أعد مودود ، أتابع الموصل ، حملة ضد الفرنج تنفيذاً لتعليمات سيده السلطان ، وفي إبريل توجه إلى الرها يساعده ايلغازي الأرتقي مع جنوده التركمان ، وسقمان القطبي أمير ميافارقين ، الذي كان يشتهر بأنه شاه أرمينيا . وبوصول أنباء تلك الحشود الإسلامية ، قام بلدوين (أوف لو بورج) بإيفاد حوسلين إلى القدس متوسلاً إلى الملك بلدوين إرسال تعزيزات عاجلة ، ومغرباً عن ريشه في تشجيع تنكريد للأعداء . وأغار أصدقاء تنكريد ، من جانبهم ، بهجوم مماثل على بلدوين ، وإن كان أقل خطورة . وكان الملك بلدوين مشغولاً في حصار بيروت ، ولم يكن ليتحرك إلا بعد الاستيلاء عليها . غير أنه سارع بالانطلاق شمالاً متجنباً انطاكية ، اقتصاداً في الوقت من ناحية ولأنه لا يثق في تنكريد من ناحية أخرى ، ووصل أمام الرها في نهاية شهر يولية . وبينما كان يقرب من المدينة لحقت به القوات الأرمينية التي أرسلها كواسيل وأمير البيرة وأبو الغريب ، زعيم البهلوان . وكان مودود يحاصر الرها منذ شهرين . وعندما لاحت في الأفق رايات فرسان القدس وبريق دروعهم تعكسه أشعة الشمس ، تراجع إلى حران وفي مأموله أن ينصب لهم كميناً ويهاجمهم هجوماً خاطئاً<sup>(١٨)</sup>.

(١٧) Albert of Aix, xi, 3-13, pp. 664-8, 685-6; Ibn al-Athir, p. 274.

(١٨) -Albert of Aix, xi, 16-18, pp. 670-2; Matthew of Edessa, eciv, pp. 270-3; Ibn al-Qalanisi, p. 103.



وأطلق بلدوين أوف لى بروج من قلعة منبسطة الأسارير لمقابلة ابن عمه وسيدته . ثم انه سرعان ما اشتكى تنكريد . فأرسل الملك مبعوثا إلى أنطاكية يستدعى تنكريد فى قواته ليتنضم إلى الائتلاف المسيحي ولكن يرد على الاتهامات . وتردد تنكريد . على أن مجلسه الكبير أصر على الامتناع للاستدعاء . وفور وصوله وجه اتهامات مضادة إلى بلدوين أوف لى بروج قائلا إن مقاطعة أسروين التى تقع فيها الرها كانت دائما تعتمد على أنطاكية طوال تاريخها، وأنه سيدها الشرعى . فرد عليه الملك بلدوين في صرامة بأنه بصفته الملك المختار، ولكونه رئيسا للعالم المسيحي الشرقى ، يطلب من تنكريد أن يتصالح مع بلدوين (أوف لو بروج) ، وفى حالة رفض تنكريد واستمراره فى كيد المكائد مع الأتراك، فليس هو بأمير مسيحي وسيلقى حربا لا هوادة فيها باعتباره عدوا لهم . وآيد الفرسان المجتمعون ما قاله الملك ، فاضطر تنكريد إلى التصالح<sup>(١٩)</sup>.

#### ١١١٠ م : إخلاء الريف الرهاوى

وانطلق الجيش الفرنجى المتحد بطارد مودود الذى واصل تقهقره ليستدرج الفرنج إلى أرض معادية متتوبا الالتفاف حوله بانحراف مفاجئ إلى الشمال . وأنذر الملك بلدوين فى الوقت المناسب ، فتوقف لماصرة قلعة شتار الواقعة إلى الشمال الغربى من حران . وهناك تبعثر الإئتلاف . إذ سمع تنكريد شائعات تقول إن رضوان الخلبى يعد العدة للهجوم على أنطاكية ، وجاء رسل من فلسطين يخبرون الملك بتحريك مصرى يهدد القدس . فتقرر التخلي عن حملة الجزيرة ، وعاد تنكريد إلى سميساط ، وقرر بلدوين (أوف لو بروج) - بناء على نصيحة الملك - عدم جدوى محاولة حماية الكونتية شرقى الفرات ، وتساقطت عبراته وهو يشاهد ما أحدثه مودود من خراب أثناء محاصرة الرها ، وخطط عدم الاحتفاظ بميامات إلا فى القلعتين الكبيرتين أورفا وسروج وفى بعض الحصون القليلة الأصغر ، والتوقف عند أية محاولة لحراسة الحدود بعد الآن . ونصح السكان المسيحيين بالارتحال إلى الأراضى الأكثر أمانا على الضفة اليمنى للنهر الكبير ، فأخذوا بنصيحته . إذ جمع مسيحيو الريف ، وأغلبهم من الأرمن ، متعلقاتهم ونحروا تحركا بطيئا باتجاه الغرب. على أن جواسيس مودود أخبروه بما كان يجرى تدبيره ، فأسرع فى آثارهم . وعندما وصل إلى نهر الفرات كان القادة الفرنج قد عبروا

(١٩) Albert of Aix, xi, 20-4, pp.672-4; Fulcher of Charters, ii, xliii, 1-6, pp. 532-41; Ibn al-Qalanisi, p.102

النهر فعلاً ، ولكن القاريين الكبيرين كانا عمالين فوق الطاقة بالجنود ، ففرقا قبل أن يعبر المديون . فانقض عليهم وهم على حلقهم دون سلاح ، ولم يفلت من القتل رجل أو امرأة أو طفل إلا فيما ندر . وكانت هذه الإبادة الرهيبة للفلاحين الأرمن بمثابة ضربة لم تترك منها المقاطعة مماساً قط . فبرغم أنهم لا يعول عليهم سياسياً ، إلا أنهم كانوا أثرياء ويتممون بالأعمال الشاقة . وربما يستمر أمراء الفرنج في حكم الرها نفسها لسنوات قليلة تالية ، ومع ذلك ثبت أن مصير السيادة الفرنجية عبر القنرات هو القتل المحتوم ، ومن ثم دمار رعاياهم النعساء من المسيحيين الوطنيين الخاضعين لهم<sup>(٢٠)</sup>.

وفي سورة الغضب عباد بلدوين (أوف لو بورج) على رأس كتيبة عبر النهر للانتقام من مودود . لكن رجاله كانوا فاقدى الخيلة أمام عدوهم الذي يفوقهم عدداً ، وهم هالكون لا محالة ، لولا أن أسرع الملك بلدوين لنجدتهم ومعه تنكريد الذي جاء على مضض<sup>(٢١)</sup>.

وعاد الملك بلدوين جنوباً . ورجع تنكريد لمعاينة رضوان على خيائنه بالإغارة على أراضيه . فهاجم حصن النفرة الواقع عبر الحدود مباشرة واستولى عليه ، ثم اتجه إلى مدينة الأتارب التي تبعد عن حلب بنحو عشرين ميلاً . ولم يخف أيّ من زملاء رضوان المسلمين لنجدته ، فحاول أن يعرض على تنكريد ممناً لرحيله ، لكن الثمن كان باهظاً للغاية . وتوقفت المفاوضات بقرار خازن رضوان إلى معسكر تنكريد ومعه جزء من ثروة سيده . وفي نهاية الأمر سحقت آلات تنكريد أسوار مدينة الأتارب ، فاستسلمت المدينة في شهر أكتوبر ١١١٠م . وكان من السلام الذي تكلفه رضوان هو مدينة الأتارب ، وزردنا الواقعة قليلاً إلى الجنوب ، وعشرين ألف دينار ، وعشرة من أجود الخيول العربية الأصيلة<sup>(٢٢)</sup> ثم سار تنكريد لمهاجمة شيزر وحماه واشترى أمير شيزر من بني منقذ فترة هدنة لشهور قليلة بأربعة آلاف دينار وجواد آخر . على أنه عندما انتهت الهدنة في ربيع ١١١١م عاد تنكريد وبني حصن قويا على تل مجاور في ابن معشر يستطيع منه مراقبة كل تحرك من المدينة أو إليها . ثم استولى على حصن يسكراتيل الواقع على الطريق من شيزر إلى اللاذقية . ودفع أمير حمص ألفي دينار كي يُترك في

(٢٠) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, xi, 7, p. 464; Matthew of Edessa, cciv, p. 273; Ibn al-Qalanisi, p. 103-4.

(٢١) Albert of Aix, xi, 25, p. 675

(٢٢) Matthew of Edessa, cciv, p. 274; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 243;

سلام<sup>(٢٣)</sup>.

وكان هناك عاملان اثنان أسهما في نجاح تنكريد . الأول أن البيزنطيين كانوا غير مهياين لمجوم مضاد . وقد تسبب موت قلعج أرسلان سنة ١١٠٧م في أن بات الموقف في الأناضول مائعا، إذ أمير ابنه الأكبر ملكشاه في موقعة الخابور ، وهو الآن في قبضة السلطان محمد . واستولت أرملة على ملطية والمقاطعات الشرقية لابنها الأصغر طغرل . وكان ابنه الآخر مسعود يعيش في بلاط الدانشمند . بينما استولى ابن رابع ، وهو عربي ، على قونية فيما يبدو . وكان السلطان محمد يخشى أن يستولى مسعود أو طغرل على الميراث كله ، فأطلق سراخ ملكشاه الذي وُعد نفسه في قونية واتخذ لنفسه لقب سلطان في حدود للعرفان<sup>(٢٤)</sup> ولم يكن انهيار الحكومة المركزية السلجوقية مفيدا تماما لبيزنطة ، إذ راح السلاجقة يغيرون إغارات عديدة لاسمولة على الأراضي البيزنطية؛ غير أن الامبراطور الكسيوس تمكن من احتلال مختلف القلاع الحدودية، ومع ذلك كان عازفا عن المخاطرة بعملية على كيليكيا أو سوريا<sup>(٢٥)</sup> وكان لسلبيته تلك المفروضة عليه أن عادت بالفائدة لا على تنكريد فقط ، وإنما أيضا على كواسيل الارميني الذي أقدم على تقوية أمارته في جبال طوروس الشرقية ، ورعا بموافقة الامبراطور ، ومن ثم أفلح في صد الهجمات التركية . وأما الأمراء الروميون في طوروس، وهم الأكثر تعرضا للعدوان السلجوقي ، فلم يتمكنوا من زيادة قوتهم ، ومنعهم تنكريد من التوسع في كيليكيا ، وهكذا غدا كواسيل سيدا بلا غريم في العالم الأرمني<sup>(٢٦)</sup>.

## انتشار الحشاشين

ولقد ظهرت طائفة جديدة ومدمرة في العالم الاسلامي أضافت مزيدا من القاتلة لتتكريد وفواجع أكثر لأية قوة اسلامية مضادة للصليبيين . فخلال العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر أسس حسن الصباح في فارس هيئة دينية ، عرفت فيما بعد بطائفة الحشاشين ، ونظمها تنظيما جيدا . وكان حسن قد تحول إلى المذهب الاسماعيلي الذي

(٢٣) Albert of Aix, xi, 43-6, pp. 684-6; Usama, ed. Hitti, pp. 95-6.

(٢٤) See Cahen, *op. cit.* pp. 253-4. Michael the Syrian, iii, pp. 194-5; Ibn al-Qalanisi, p. 81 (a vague story)

(٢٥) Anna Comnena, xiv, i, v-vi, pp. 141-6, 166-72. See Chalandon, *op.cit.* pp.254-6.

(٢٦) عن كواسيل انظر: Matthew of Edessa, cxxxvii, pp.258-9; cex, pp.281-2.

يرعاه الخلفاء الفاطميون ، وغدا خيرا بالباطنية وعبادها الحنيفة ، وطور تعاليمه على نفس اللاهوت الصوفي المجازي الاسماعيلي ، لكنها تعاليم غامضة ، على أن أنمازه البارز يعتبر عمليا بصورة أكثر ، وهو انشاء نظام تتمثل وحدته في الطاعة العمياء لأوامره باعتباره السيد الأعظم ، واستخدم هذا النظام في اغراض سياسية موجهة ضد الخلفاء العباسيين في بغداد الذين تحدى شرعيتهم ، وبصورة أحص ضد أعوانهم من الأسياد السلاجقة الذين ساعدت قوتهم على بقاء الخلافة العباسية . وكان سلاحه السياسي الرئيسي هو الاغتيال<sup>(٢٧)</sup> Assassination . وكانت الطوائف المبتدعة في الاسلام دائما ما تمارس الاغتيال في سبيل العقيدة ، على أن حسن الصباح اقلح في الارتفاع به إلى مستوى عاليا من الكفاءة . إذ أن ما كان أتباعه عليه من تكريس لا مساءلة فيه واستعدادهم للارتحال إلى أماكن قاصية والمخاطرة بأرواحهم تنفيذا لأوامره ، قد مكّنه من أن يضرب أي خصم له في أي مكان في العالم الاسلامي . وفي سنة ١٠٩٠م اتخذ حسن مقره في القلعة المنيعة (الموت) ، أي عش النسر ، في خراسان . وفي سنة ١٠٩٢م قام بأول اغتيال قتل فيه الوزير الأكبر نظام الملك الذي كان على جانب من الاقتدار بحيث يعد بمثابة الدعامة الرئيسية للأسرة الحاكمة السلجوقية في إيران . وتزداد أسطورة متأخرة تصنيف إلى هول هذا العمل ، تقول إن نظام وحسن ، ومعهما الشاعر عمر الخيام ، كانوا من يتلقون العلم معا من أستاذهم العالم موفق النيسابوري . وأقسموا جميعا على أن يساعد كل منهم زميله مدى الحياة . وكان سلاطين السلاجقة مدركين تماما للخطر الذي استحدثه الحشاشون ، لكن محاولاتهم للقضاء على قلعة عش النسر باءت كلها بالفشل . وبعد منطف القرن مباشرة ، سرعان ما أنشئ مقر للحشاشين في سوريا احتضنه رضوان الخليلي الذي كان دائما على علاقة سيئة بينى عمومته السلاجقة ، وربما كان عميق التأثير بمذهب الحشاشين ، فضلا عما كان لزعيمهم أبي طاهر ، الصانع الفارسي ، من نفوذ كبير على رضوان . وكانت كراهية الحشاشين للسنيين تجاوز كراهيتهم للمسيحيين وربما كان استعداد رضوان للتعاون مع تنكريد يعزى بدرجة كبيرة إلى تعاطفه مع معتقدتهم . وكان اغتيال جناس الدولة أمير حمص عام ١١٠٣م أول أنماز للحشاشين في سوريا ، وبعد ثلاث سنوات اغتالوا خليف ابن ملاعب أمير أمافيا ، على أنه لم يستفد من موته سوى فرنج انطاكية . وعلى الرغم

(٢٧) (المترجم) كلمة assassinate ، مشتقتها في سائر اللغات الأوروبية ، بمعنى الاغتيال ، مأخوذة من الكلمة العربية "حشاشين" نظرا لما كان أتباع حسن الصباح يقدمون عليه من جسارة فائقة في زمن الحملات الصليبية.

من أن الحشاشين لم يكشفوا عن سياستهم ، حتى ذلك الوقت ، إلا باغتيالات متفرقة، فقد كانوا بمثابة عنصر من عناصر السياسة الإسلامية ، دفع حتى المسيحيين إلى أن يحترموه<sup>(٢٨)</sup>.

#### ١١١١ م : ائتلاف إسلامي جديد

وفي سنة ١١١١م شرع مودود ، حاكم الموصل ، في إعداد العدة مرة أخرى لتسيير جيش لمهاجمة الفرنج ، تنفيذاً لأوامر سيده السلطان . وفي أوائل تلك السنة كان أهالي حلب حائقين على حاكمهم لما كان عليه من خروج على الدين وخضوع لتتريكيد ، فأرسلوا وقد إلى بلاط الخليفة في بغداد للبحث على إعلان الجهاد الذي يخلصهم من تهديد الفرنج . على أن الوفد لم يجد سوى وعود خاوية ، فاستثار أهالي بغداد فحدثت أعمال شغب أمام مسجد القصر . وفي تلك الآونة استقبل الخليفة سفارة من الاميراطور جاءت من القسطنطينية ، وكانت مثل هذه السفارات شيئا عاديا ، إذ كانت لكل من القسطنطينية وبغداد مصالح مشتركة في معاداة الأسرة الحاكمة السلجوقية . بيد أنه يبدو أن الاميراطور الكسيوس اعطى تعليماته لمبعوثيه هذه المرة لمناقشة السلطات الإسلامية في امكانية القيام بعمل مشترك ضد تتريكيد<sup>(٢٩)</sup> ، وقد أسهمت تلك المفاوضات في أن أعلن المشايخون أن الخليفة المسلم أسوأ من الاميراطور المسيحي . واستشعر الخليفة المستظهر الخطر من هذا الحماس ، لاسيما وان الاضطرابات أعاقته عن استقبال زوجته على النحو الذي يليق بها لدى عودتها من زيارة ابنيها السلطان محمد في اصبهان<sup>(٣٠)</sup> ، فما كان من الخليفة إلا أن أرسل إلى حميه الذي اصدر من فوره تعليماته لمودود بإنشاء تحالف جديد تحت قيادة ابنه الصغير مسعود . ووضع مودود في قائمة التحالف المساعدة التي سيقدمها سقمان صاحب ميافارقين ، واياز بن

(٢٨) عن الحشاشين ، انظر von Hammer في: *Histoire de l'Ordre des Assassins* ، ونظير كذلك مقال "الحشاشين" Assassins و "الإسماعيلية" Ismaili في دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopaedia of Islam* Brown, *Literary History of Persia*, vol. II, pp. 193 ff.

(٢٩) 112-13 pp. *ibn al-Qalanisi, op. cit.* يقول ابن القلايسي إن الاميراطور (الذي يطلق عليه لقب المتملك ، بمعنى "المغتصب" "usurper") أرسل بغير المسلمين من تحفظات الفرنج ، ويقول ضمنا إن السفارة زارت دمشق . وربما لم يقترح الكسيوس سوى عمل موجه ضد تتريكيد ، إذ لم يجد تأييدا من أي من زعماء الفرنج في محاولته حمل تتريكيد على تنفيذ معاهدة ديسول (انظر *Ibn al-Athir*, pp. 279-80 ، يورد ابن الأثير وصول السفارة إلى بغداد نقلا عن ابن حمدون *Ibn Hamdan*).

(٣٠) *Ibn al-Athir, loc. cit.*

ابلقازى ، والأميرين الكرديين أحمد بن أحمد بن صاحب مراغة وأبو الميخا صاحب أربل ، وبعض نبلأ الفرس بزعامة برسق بن برسق صاحب همدان . وفى يولية أصبح الخلفاء على أعباء الاستعداد ، فانطلقوا فى سرعة خاطفة عبر الجزيرة لمحاصرة قلعة جوسلين فى تل بشير . ولدى انتشار النبا أرسل اليهم (سلطان) أمير شيزر يستحثهم على الإسراع لتحذره . ورأى رضوان أن من السياسة أن يرسل اليهم للإسراع اليه ، إذ لا يستطيع الصمود طويلا ضد تنكريد . وتأثر مودود بما طرأ على وجدان رضوان من تغيير ، وعملًا باقتراح أحمد بن أحمد - الذى كان على علاقة سرية بجوسلين - رفع مودود الحصار عن تل بشير وسار بالجيش قاصدا حلب . غير أن رسالة رضوان كانت تغلو من الإحلاص ، فما أن اقترب الخلفاء المسلمون حتى أغلق رضوان البوابات دونهم واتخذ جانب الحيلة باعتقال الكثير من وجهاء المواطنين وألقى بهم فى السجن رهائن متعا لأعمال الشغب . فأسقط فى يد مودود . فما كان منه إلا أن عزب البلاد حول حلب ثم سار جنوبا إلى شيزر حيث انضم اليه طغتك الدمشقي الذى جاءه طلبا لمساعدته على استعادة طرابلس<sup>(٣١)</sup>.

أما تنكريد ، الذى كان معسكرا أمام شيزر ، فقد انسحب إلى أفاميا وأرسل إلى الملك بلدوين مستنجدا ، فاستجاب الملك واستنفر جميع فرسان الفرنج فى الشرق . فجاء معه البطريق جيلين وتابعاه الرئيسيان فى المملكة وهما إيوستاس جارنييه حاكم صيدا وولتر حاكم الخليل ، وصحبههم برتراند حاكم طرابلس فى الطريق . ومن الشمال جاء بلدوين من الرها مصطحبا تابعيه الكبيرين جوسلين حاكم تل بشير وباجان حاكم سروج . واستدعى تنكريد تابعيه من النواحي المحيطة بالإمارة الانتطائية ، فأحضر جوى - الملقب بالجدى - من طرسوس وريتشارد حاكم مرعش ، وجوى - الملقب خشب الزان - أمير حارم ، وروبرت حاكم السويدية ، ولونز حاكم تل مناس ، ومارتان حاكم اللاذقية ، وبونابولوس حاكم سرمد ، وروجر حاكم هاب ، وانجراند حاكم افامية ، وأرسل كل من كواسيل والروبيون كتيبة أرمينية ، حتى أوشين حاكم لامبرون أرسل القليل من الرجال رما كان دورهم يقتصر على التحسس نيابة عن الامبراطور . وبدا خلا الشمال من الجنود ، فكانت فرصة مسانحة لطفغرل إرسال صاحب ملطية ، فقام على الفور بانتزاع البستان من الحامية الفرغية الصغيرة واستولى على الجوار المحيط

(٣١) Ibn al-Qalanisi, pp. 114-15; Kemal ad-Din, pp. 600-1; Ibn al-Athir, p. 282; Albert of Aix, xi, 38, p. 681.

بها، ثم قام بغارة داخل كيليكيا<sup>(٣٢)</sup>.

#### ١١١١ م : فشل مودود

وإزاء هذا التركيز الفرنجي الذي بلغ قوامه ستة عشر ألف رجل ، انسحب مودود بحذر داخل أسوار شيزر وافضا استدراجه في معركة تم الإعداد لها بعناية ، لاسيما وان الامور لم تكن على مايرام في جيشه . فأما طغتكين فقد رفض المساعدة ما لم ينتقل مودود باتجاه الجنوب ، وفي ذلك مجازفة بالغة من الناحية الاستراتيجية ، وأما برسق الكردي فكان مريضاً ورغب في العودة إلى بلاده ، وأما سقمان فقد مات فجأة وانسحب جنوده شمالاً مع جنته ، وأما أحمدبيل فسرعان ما تغلّى كي يحاول انتزاع شيئا من الميراث ، وبقي اياز الأرتقي ، غير أن اياه ابلغازي هاجم الركب المصاحب لنعش سقمان في محاولة لم يكتب لها النجاح للاستيلاء على كنزته . ومع تقلص قوات مودود شيئا فشيئا ، لم يتمكن من المبادرة بالمحوم ، فضلا عن أنه كان عاجزا عن تخضية الشتاء وهو على هذا البعد البعيد من قاعدته ، فعاد إلى الموصل في الخريف<sup>(٣٣)</sup>.

وأظهر الفشل عدم استطاعة المسلمين رد المحوم على الفرنج طالما بقي الفرنج متحدّين ، وما هذه الوحدة إلا ما أجبرهم عليه الملك بلدوين ، وهذا استطاع أن ينقذ ما أرسى الفرنج دعائمه في تلك المرحلة . وفي الصيف التالي أغار مودود على أراضي الرها ، وكان لغارته ثمارها لكنها لم تكن غارة حاسمة ، هذا في الوقت الذي أقدم فيه طغتكين على عقد تحالف مهلهل مع رضوان ، متكرما عليه نوعا ما، إذ حاول رضوان حث أصدقائه الحشاشين على قتله<sup>(٣٤)</sup> على أن الخطر الاسلامي تبدد في تلك المرحلة. وكان حتما أن يعاود المسيحيون الشجار فيما بينهم مرة اخرى . فأولا ، قرر الفرنج مهاجمة كواسيل الذي أدت قوته الصاعدة إلى إثارة مشاعر الغيرة لدى بلدوين الأورفي وتكريد ، فأغار تنكريد على أراضي واستولى على رعبان وراح

(٣٢) Matthew of Aix, xi, 39-40, pp. 682-3. وبيورد ألبرت قائمة الحلفاء (٣٣) Edessa, cxi, p. 275. ويذكر ميخائيل السوري الاستيلاء على البستان، iii, Michael the Syrian, p. 205.

(٣٣) Fulcher of Charters, ii, xlv, 1-9, pp. 549-57; Albert of Aix, xi, 41-3, pp. 683-4.

(٣٤) Kemal ad-Din, pp. 601-2; Albert of Aix (xi, 43, p. 684). ويذكر ألبرت الاستيلاء على عزاز في ذلك الوقت تقريبا، غير ان عزاز كانت ما تزال في حوزة المسلمين عام ١١١٨ م (انظر ادناه ص ١٦٤).

بعد العدة لمحاورة كيسوم قبل احلال السلام بينهما<sup>(٣٥)</sup>؛ وبعد ذلك تحول بلدوين كونت الرها فجأة ضد ابن عمته جوسلين . فقد حدث في صيف ١١١٢م ، عندما كان مودود يهاجم الرها ، أن اكتشف جوسلين مؤامرة ارمينية تستهدف تسليم المدينة للمسلمين ، فأخطر بلدوين وبذا انقذه واشترك معه في معاقبة الخوثة . غير أن بلدوين سمع في الشتاء التالي شائعات تقول أن جوسلين تحدث عن خلعه ليحل محله ، إذ كانت إقطاعية تل بشر إقطاعية غنية بينما تعاني أراضي الرها بقسوة من الغارات واضطرار السكان إلى الهجرة . وكان الأرمن يحبون جوسلين بينما يحملون الكراهية لبلدوين الآن . ولم يكن في تصرفات جوسلين ما يؤكد رغبة بلدوين التي ربما كانت قائمة على أساس الغيرة . وفي نهاية العام استدعى بلدوين جوسلين بدعوى المرض وضرورة مناقشة مسألة استخلاقه . وعندما وصل جوسلين ، دون أن تخافه أدنى رغبة ، فوجئ بهاتهامه بالتفاس عن امداد الرها بما يكفي من الأطعمة من أراضي ، وألقى به في غيابة السجن . ولم يطلق سراحه الا بعد أن وعد بالتنازل عن الإقطاعية . وفي بداية العام التالي تقريبا رحل جنوبا إلى القدس حيث أقطعه الملك بلدوين لإمارة الجليل<sup>(٣٦)</sup>.

#### ١١١٢م : موت تنكريد

شهد شمال سوريا تغيرات أخرى كثيرة في سنة ١١٢١م . إذ مات كواسيل يوم ٢١ أكتوبر ، فسارعت أرملته إلى اغتدق تنكريد بالهدايا كى تضمن مساعدته في استخلاف ابنها بالتني واسيل دغا، فأرسلت ضمن ما أرسلت تاجها المرصع بالجواهر المخصص للأميرة سيشيليا ، غير أن تنكريد كان يشتهي الميراث لنفسه<sup>(٣٧)</sup> . ومن بين امراء الفرنج ، كان رينشارد (أوف برنسيات) قد مات في وقت ما من الربيع<sup>(٣٨)</sup>، ومات برتراند كونت طرابلس في يناير أو فبراير ، ولم يكن ابن برتراند الصغير وولي العهد (بوتز) يشارك أباه حبه للبيزنطيين ولا كراهته لتنكريد ، وربما كان مجلسه يعتقد

(٣٥) Matthew of Edessa, ccix, pp.280-1.

(٣٦) William of Tyre, xi, 22, pp.489-92; Matthew of Edessa, ccviii, p.280, ماجر الأروفي الى وجود مؤامرة ضد الفرنج أثناء حصار مودودة Chron. Anon. Syr., p.86; Ibn al-Qalanisi, op. cit. p.133

(٣٧) Matthew of Edessa, ccx, pp.281-2

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 127 ، يقول إن نبأ وفاة برتراند وصل دمشق يوم ٣ فبراير.



أن حسن نوابها تنكريد ضرورية كي يوطد الكونت الشاب مكانته ، ومن ثم جرت مصالحة بين بلاطي طرابلس وانطاكية مما ضخم من نفوذ تنكريد<sup>(٣٩)</sup> . وتأكدت سيادة تنكريد ، إذ باتت جوسلين محزبا ، وهذا كونت طرابلس صديقه ، ولقى أمير الأرمن العظيم حتفه ، فراح يعد العدة لحملة يقهر بها كواسيل ويضم أراضيه ، لولا أن سقط مريضا فجأة . وترددت الحمسات حتما عن السم ، على أن الراجح هو مرض التيفود . وإذا أيقن من عدم شفائه من مرضه ، سعى ابن أخيه روجر (أوف ساليرن) ، وهو ابن روجر (أوف برنسات) ، وريثا له . على أنه أجبر روجر على أن يقسم على تسليم السلطة لابن يوهنند الصغير لو جاء الصبي إلى الشرق ، وفي ذات الوقت طلب من بونز أن يتزوج من أرملة الفرنسية التي لم ين بها - سيشيليا الفرنسية . ومات يوم ٢١ ديسمبر عام ١١١٢م ولم يجاوز السادسة والثلاثين<sup>(٤٠)</sup>.

وليست شخصية تنكريد ساطعة بوضوح بين طبقات ضباب التاريخ . كان بالغ النشاط والقدرة ، وكان دبلوماسيا حصينا ، وجنديا بارزا ، وكان له حكمة تتزايد كلما تقدم به العمر . لكنه كان يفتقر إلى السحر الذي كان يحيط بخاله يوهنند . ولا يبدو أنه كان محبوبا بين رجاله ، بخلاف كاتب سيرته المنلق - رادولف (أوف كايين) . وكان رجلا صعبا ، دائم الاهتمام بنفسه ، متجردا من المبادئ الخلقية . وكان متضبطا مع يوهنند ، ومع ذلك تصرف حياله بالعدو ، كما كان غادرا مع رفيقه بلدوين كونت الرها . ولولا تدخل الملك بلدوين ، الذي لا يقل عنه عنادا وإنما يفوقه في سعة الأفق ، لتسببت طموحاته في أن يمضي إلى غابة المدى في تعظيم فرنج الشرق ، إذ كان يتطلع إلى ترسيخ إمارة انطاكية وتضخيمها ، وقد أصاب في ذلك نجاحا بالغنا ، ولولاه لتداعى ما أسسه يوهنند . وما تاريخ أمراء انطاكية الطويل إلا فمرة نشاطه . ولم يكن من بين جميع أمراء الحملة الصليبية الأولى سوى الملك بلدوين ، وهو المغامر المقلد كشأنه ، الذي تركت حياته أثرها هناك . ومع ذلك ، وبينما كان محمولا ليذفن في رواق كنيسة القديس بطرس ، لم يجد المؤرخون ما يؤرخونه من مشاهد الحزن عليه سوى القليل . وكان المؤرخ الوحيد الذي كتب عنه بحرارة وتفجع لموته هو ماثيو الأورفي الأرمني Matthew of Edessa<sup>(٤١)</sup> .

(٣٩) يبدو أن (بونز) قد التحق لبعض الوقت بعائلة تنكريد ، وتلقى منه لقب فروسينه.

(٤٠) Fulcher of Charters, ii, xlvii, i, pp. 562-3 (12 December); Albert of Aix, xii, 8, p.693 (about Advent).

(٤١) Matthew of Edessa, loc. cit. وصفه بأنه "أعظم المخلصين أجمعين".

وتحقق الوفاق بين الفرنج بتسولي روجر إمارة انطاكية - وقد اتخذ لنفسه لقب الإمارة على الرغم من اعترافه بحق ابن بوهمند في المطالبة بها. وتزوج من سيشيليا أخت بلدوين كونت الرها<sup>(٤٢)</sup> ورغم ما اشتهر به من أنه زوج غير مخلص، كان دائماً على علاقة طيبة بأخي زوجته. وأصبحت أخته، ماريّا، الزوجة الثانية لجوسلين (ألف كورتناي)<sup>(٤٣)</sup> وتزوج بونز أمير طرابلس من أرملة تنكريد، سيشيليا الفرنسية، نزولاً على رغبة تنكريد، وغداً صديقاً دائماً لروجر<sup>(٤٤)</sup>، ووجد بين الأمراء الثلاثة اتساقهم على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى. ونتيجة لهذا التضامن النادر الحدوث، وتجمد النزاعات فيما بين المسلمين في الوقت ذاته، ارتفعت السيادة الفرنجية في شمال سوريا إلى أقصى ذروتها.

#### ١١١٣م : موت مودود ورضوان

وشرع الملك بلدوين عام ١١١٣م في حملة ضد طغتكين صاحب دمشق الذي أفلح أخيراً في الحصول على مساعدة مودود وأباز الأرتقي. واستدراج الحلفاء المسلمون الملك بلدوين إلى الأراضي الدمشقية حتى حصر الصنيرة أعلى نهر الأردن. ونسى الملك بلدوين هذه المرة ما اعتاد عليه من توخي حنات الحذر، فلحقته هزيمة منكرة<sup>(٤٥)</sup>، فاستنجد بالأميرين بونز وروجر لمساعدته. ولولا وصولهما مع جميع فرسانهما لما استطاع الملك أن ينجو بنفسه. وتقدم المسلمون حتى وصلوا إلى حوار طبرية، لكنهم لم يغامروا بمواجهة الجيش الفرنجي كله. وبعد أسابيع قليلة من التردد عاد مودود

(٤٢) William of Tyre, xi, 9, p. 523، يطلق على روجر زوج أخت بلدوين، وكذلك يفعل Walter the Chancellor, ii, 16, p. 131. ويرد اسم سيشيليا في ميشاق عام ١١٢٦م (Rhrich, Orderic Vitalis, x, 23, iv, p. 158. ويعطى Regesta, Additamenta, p. 9) لروجر زوجة تركية اسمها ميلاز، وهي ابنة أمير الدانشمند التي - بناء على روايته - ضمنت إطلاق سراح بوهمند. انظر أعلاه.

(٤٣) لم تكن ماريّا تعرف لولا شجار نشأ لاحقاً بسبب بانتنها. انظر أدناه الصفحتين ١٦١ و ١٨١. ويرد في تاريخ مجهول Chron. Anon. Syr. أن جوسلين تزوجها عام ١١٢١م (ص ٨٩)، غير أنه من الواضح أن الزواج تم ترتيبه في حياة روجر. واعتبرت ابنتهما (ستيفاني) محوذاً في عام ١١٦١م - انظر أدناه ص ٣٦٢، الملاحظة ١.

(٤٤) استناداً إلى رواية (Albert of Aix (xii, 19, p. 701)، لم يتم الزواج حتى عام ١١١٥م. على أنه يبدو أن ابن بونز (ريموند الثاني) كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة عام ١١٣٦م.

(٤٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 132-6.

وطغتكين إلى دمشق . وهناك ، وفي آخر يوم من شهر سبتمبر ، وبينما كان مودود يتخطو إلى داخل المسجد الكبير مع مضيغه، انقض عليه أحد الحشاشين وطلعه في مقتل . وفي الحال قتل طغتكين القاتل ليبرئ نفسه من الجريمة. ورغم أن الرأي العام اعتبره مذنباً، إلا أنه التمس له العذر تأسيساً على أن مودود كانت له عذوباته حيال دمشق<sup>(٤٦)</sup>.

وتحمر الفرنج بموت مودود من عدد مرعب . وبعد مرور شهرين ، مات رضوان صاحب حلب في ١٠ يناير ١١١٣م<sup>(٤٧)</sup> ، وكانت علاقاته الباردة مع رفاقه المسلمين ذات عون كبير في توطيد الفرنج في سوريا ، على أن الإسلام لم يستفد كثيراً بغياية عن الساحة ، إذ خلفه ابنه ألب أرسلان الذي كان صبياً في السادسة عشرة من عمره ، وكان ضعيفاً فاسداً به قسوة وخاضعاً خضوعاً تاماً لخصميه المفضل لؤلؤ . أما الحشاشون، الذين كانوا في حماية رضوان قبل موته ، فقد عاملهم الحكم الجديد بجفاء ، بناء على الأوامر الصريحة من السلطان محمد . الذي أرسل مبعوثه ابن بديع الفارسي وأحمر ألب أرسلان على إصدار أمر بقتل أبي طاهر وغيره من قادة الطائفة . وانطلق سكان حلب النافرين من الحشاشين منذ وقت طويل يقتلون من تناله أيديهم . وحاهدت الطائفة تدافع عن نفسها ، فحاولت الاستيلاء على القلعة بينما كان رضوان يحتضر، لكن المحاولة باءت بالفشل<sup>(٤٨)</sup> . ثم حاول أفراد الطائفة مباغثة قلعة شيزر أثناء أن كانت أسرة الأمير تشاهد احتفال المسيحيين بعيد الفصح ، غير أن أهل المدينة شاركوا الأمير في مقاومتهم ، وكان نجاحهم الوحيد هو الاستيلاء على حصن قلعة القريب من بالي حيث يقرب طريق حلب بغداد من الفرات ، وبخلاف ذلك تحولوا إلى السرية أو لاذوا بحماية الفرنج ، غير أنهم كانوا لا يزالون اقرباء وبدأوا يحولون انتباههم إلى لبنان<sup>(٤٩)</sup> ولم يدم عهد ألب أرسلان طويلاً . وعندما ذهب في زيارة ودية إلى دمشق استقبله طغتكين استقبال الملوك . على أنه حدث في سبتمبر ١١١٤م أن ارتاع الخصي لؤلؤ من تصرفاته الوحشية حتى أنه كان يخشى على حياته، فتدبر قتله في فراشه ونصب مكانه على العرش أخاه سلطاننشاه البالغ من العمر ست سنوات . وخلال السنوات القليلة التي

(٤٦) Ibid. pp. 137-42

(٤٧) Ibid. p. 144; Kemal ad-Din, p. 602.

(٤٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 145-6; Kemal ad-Din, pp. 603-4. See Cahen, op. cit. pp. 267-8.

(٤٩) ( ١٤٦, ١٥٣, ١٤٦ Hitti, ed. Usama, pp. 146-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 146-8 ) ولم يذكر أسامة تاريخاً للمحاولة في شيزر.

تلت كان لؤلؤ وضابطه خمس الخواص يسيطران على القلعة ويتحكمان في جيش حلب، وإن كان وجهاء المدينة هم الذين بمسكون بزمام السلطة الحقيقية، ولم يكن لؤلؤ ليحرز على أعمال رغباتهم. ونتيجة لغياب أمير قوى عن حلب، فضلا عن ضالة جيشها، باتت عاجزة لا تقدر على أكثر من الدفاع عن أسوارها. وبرغم إبعاد الحشاشين، اعتبر جيرانها أن هناك ميل شيعي خطيرة لدى السلطة الجديدة بسبب النفوذ الفارسي في المدينة، مما أوحى لدى لؤلؤ الاستعداد لمراصلة السير على الدرب الذي سار عليه رضوان بإقامة صداقة خانعة مع فرنج انطاكية<sup>(٥٠)</sup>.

وفي أعقاب موت مودود أمر السلطان بأن يوكل حكم الموصل إلى منتهى لدى بلاط الخليفة، أفسنقير الرسقي، وهو جندي تركي ابتسم له الحظ كسلفه. وكان من بين واجباته إدارة العمليات ضد الفرنج. ففي شهر مايو ١١١٤م قاد جيشا قوامه خمسة عشر ألف رجل لمهاجمة الرها، وبصحبته ابن السلطان مسعود ثمراك أمير سنقار، وتركي صغير يدعى عماد الدين زنكي، وهو ابن أفسنقير الأسبق الذي كان حاكما لحلب وحماه في السنوات السابقة على الحملة الصليبية. واستدعى ايلغازي حاكم مردين للانضمام للحملة، لكنه رفض، فكانت الخطوة الأولى هي السير إلى مردين الأمر الذي اضطر ايلغازي إلى الرضوخ فأرسل ابنه أيباز على رأس كتيبة من جنود التركمان. وحاصر المسلمون الرها طوال شهرين، غير أن حاميتها كانت قوية ولدى المدينة الكثير من المؤن، بينما لم يكن الريف المنهوب صالحا لإطعام القوات المحاصرة، ومن ثم اضطر الرسقي إلى رفع الحصار واكتفى بنهب الريف إلى أن أتاح له الأرمين بحالاً جديدا للعمل<sup>(٥١)</sup>.

#### ١١١٦ م : سقوط واسيل دغا

بعد مؤامرة الأرمين عام ١١١٢م لتسليم الرها لمودود، شُيكت مؤامرة ثانية وقت أن كان غزو مودود للأراضي الفرنجية وشيكا، وبينما كان بلدوين في تل بشير يتسلم إقطاعية جوسلين. واكتشفت المؤامرة في الوقت المناسب. وفي صرامة طرد بلدوين السكان الأرمين جميعا من عاصمته فانتقلوا إلى سميساط. وفي بدايات سنة ١١١٤م،

(٥٠) Ibn al-Qalanisi, pp. 148-9; Kemal ad-Din, pp. 605-6.

(٥١) Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-3; ccxvi, p. 287; Chron. Anon. Syr. p. 86; Ibn al-Athir, pp. 292-3.

وبعد أن لقنهم الدرس سمح لهم بالعودة ، غير أن البعض كان قد ذهب إلى أراضي واسيل دغا - وريث كواسيل - الذي استشر الخطر بطريقة ما من محاولات فرنسية تستهدف ميراثه . والآن قام هو وأمه التي تبنته بدعوة الرسقى لتخليصهما من الفرنج ، فأرسل الرسقى أحد ضباطه - سنقر الطويل - للتفاوض مع واسيل دغا في كيسوم . وسمع الفرنج بذلك ، وهاجموا سنقر والأرمن ، ولكن دون جدوى . على أنه قيل أن ينتهز المسلمون هذا التحالف الجديد دب خلاف بين الرسقى وأباز الأرتقى فسجن الأول الثاني . وما أن سمع البلغازي - وهو أبو أباز - بذلك حتى استنفر عشيرته وسحب جنوده التركمان وهاجم الرسقى وهزمه شر هزيمة وأجبره على الانسحاب إلى الموصل . ومرة أخرى تنتهى الحملة الإسلامية المضادة للصليبية بالإخفاق التام<sup>(٥٢)</sup>.

ودفع الأرمن الثمن . إذ تقدم الفرنج لمعاينة واسيل دغا ، ولم يتمكنوا من اقتحام عاصمته المنيعه رعيان . على أنه رأى من الحكمة التحالف مع الأمير الأرمني توروس الذى دعاه إلى الحضور لمناقشة زواج تحالف ، لكنه اعتقله وسجنه وباعه لبلدوين كونت الرها . ولم يطلق سراح واسيل دغا إلا بعد وعد بالتخلي عن أراضيه كلها لبلدوين كونت الرها ، وسمح له بالذهاب إلى القسطنطينية للتقاعد . وبعد أن ضم بلدوين رعيان وكيسوم سنة ١١١٦م قرر إخضاع الإمارات الأرمنية المتبقية في وادي الفرات . وبدأ في سنة ١١١٧م بفتح أبي الغريب حاكم البيرة ، وهو الذى سبق أن ساعده بلدوين أبان الحملة الصليبية الأولى في تنصيب نفسه ، وأعطى مدينة البيرة لابن خالته - واليران لوف لي يوسيه - الذى تزوج ابنة أبي الغريب . وبعد ذلك أغار على باحرات - شقيق واسيل فائز - في لوردية الصغيرة في صوروس الواقعة غربي الفرات ، وهو العدو السابق والصديق اللاحق لبلدوين الأول . وأخيرا اكتسح أراضي حليف آخر من حلفاء بلدوين ، هو الأمير قسطنطين الجارحاري ، الذى اعتقله وسجنه في سمساط حيث وقع فيها زلزال أهلك هذه الضحية الثمينة . وسرعان ما وجد الأمير الأرمني نفسه العامل الوحيد الأرمني المستقل الباقى ، مما جعله يشعر بالرضا . على أن الشعب الأرمني - باستثناء الرويين - كان قد فقد الثقة في الفرنج<sup>(٥٣)</sup>.

وكان تقلص الخطر من الشرق أحد العوامل التي ساعدت بلدوين كونت الرها في

(٥٢) Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-4; Michael the Syrian, iii, pp. 216-17; Ibn al Athir, pp. 292-3.

(٥٣) Chron. Anon. Syr. p. 86. Matthew of Edessa, ccxiii-ccxiv, pp. 293-5. شقيقا ليو (لوف لي يوسيه) الذى كانت أمه Alice حاملة بلدوين الثاني وابنة عم تكريد.

غزواته الأرمينية . وكان العام الذي سبقه زائرا بالأحداث المشيرة ، ففي نوفمبر ١١١٤م حدث زلزال عنيف تسبب في خراب الأراضى الفرغية من انطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها . وعلى أثر ما أشيع من أن السلطان محمد يعد العدة لحملة جديدة ، سارع روجر أمير انطاكية في حولة تفقد فيها حصونة الرئيسة<sup>(٥٤)</sup>.

#### ١١١٥م : حملة برسق بن برسق

كان السلطان محمد آخر السلاطين السلاجقة العظام . فقد تسلم من أخيه بركياروق دولة متفسخة ، لكنه استطاع فرض النظام في العراق وإيران ، والسيطرة على العرب المتمردين في الصحراء الشرقية عام ١١٠٨م ، وتمكن من كبح جماح الحشاشين ، وانصاع له الخليفة المستظهر الذي كان كسولا في قصره يكتب اشعار الحب . غير أن محاولاته في تنظيم الحملات لطرد الفرنج من سوريا باءت بالفشل الواحدة تلو الأخرى . وأيقن من أن النجاح لا يأتي إلا بفرض سلطته على الأمراء المسلمين هناك الذين تسببت غيرتهم وعصيانهم في خيبة مساعيه . فبدأ بإرسال ابنه مسعود لمباشرة حكومة الموصل ومن ثم ضمن ولاعها . وفي فبراير ١١١٥م سار جيشا كبيرا باتجاه الغرب يقوده أمير همدان ، برسق بن برسق ، وفي صحبته أمير الموصل السابق ، جيوش بك ، وكذلك أمير سنجر ، تيمرك ، لمساعدته.

وشعر أمراء سوريا المسلمون بالخطر كالفرنج . ولم يكن باستطاعة السلطان محمد أن يعتمد على أحد في سوريا سوى بني منقذ في شيزر وابن قراجا أمير حمص . وبالتشاور انباء الحملة سارع ايلغازي الأرتقي إلى دمشق لتأكيد تحالفه مع طغتكين ، غير أنه في طريق عودته وقع في كمين أعداه له أمير حمص واعتقله . ونتيجة لتهديد من طغتكين ، أطلق أمير حمص سراح ايلغازي شريطة احتجاز ابنه مكانه . وتمكن ايلغازي من العودة إلى مدين وجمع جنوده ثم اتجه غربا مرة أخرى كي ينضم إلى طغتكين ووعد الخصى لؤلؤ بمساعدة الجانيين كليهما . غير أنه رأى أن انتصار السلطان ليس في صالحه ، فانتضم إلى طغتكين وإيلغازي . وفي تلك الأثناء جمع روجر أمير انطاكية قواته واتخذ لنفسه موقعا بجانب الجسر الحديدي عبر نهر العاصي ، حيث عقد معاهدة مع طغتكين وحلفائه - ولا نعرف بمبادرة من - وطلب انضمام جيشهم إلى جيشه أمام أسوار أقامية

(٥٤) Fulcher of Charters, II, iii, 1-5, pp. 578-80; Water the Chancellor, I, pp. 83-4; Matthew of Edessa, ccxvii, pp. 287-9; Ibn al-Qalanisi, p. 149; Kemal ad-Din, p. 607.

الذى يعد مكانا رائعا لمراقبة تحركات برسق عندما يضطر إلى عبور نهر القرات والتقدم نحو اصدقائه في شيزر . وقدم الفرنج نحو ألفى فارس وراجل ، وقدم حلفائهم المسلمون نحو خمسة آلاف .

ولم يلق برسق أية مقاومة أثناء مروره بجيشه الضخم عبر الجزيرة . وكان في مأموله اتخاذ حلب مقرا لقيادته ، لكنه عندما علم بانضمام لؤلؤ إلى أعدائه ، وعلى رأسهم طغتكين ، تحول جنوبا لمهاجمة هذا الأخير . وتمكن بمساعدة أمير حمص تمكن من شن هجوم مفاجئ على حماء التي كانت تابعة لطغتكين وفيها الكثير من امتعة الجيش ، وسقطت المدينة وانتهت عما اثار حق المسلمين المحليين ، ثم إنه اتجه بعد ذلك إلى حصن كفرطاب القريشى . وأراد روجر القيام بهجوم مضلل ، غير أن طغتكين أقنعه بتظورة ما يريد ، وبدلا من ذلك طلب الحلفاء مساعدة الملك بلدوين وبونز أمير طرابلس فأسرعا شمالا ، الأول يقود خمسمائة فارس وألف راجل ومع الثاني مائتي فارس والفي راجل ، ودخلا المعسكر في أناميا على نهر الأبراق . أما برسق ، وهو الآن في قاعدته في شيزر ، فقد أملت عليه الحكمة الانسحاب نحو الجزيرة . ولقد كان لخدعته فعلها . إذ اعتبر بلدوين وبونز أن شحج الخطر قد انتشعت وعادا أذراحيهما ، وانفض جيش الحلفاء . واندفع برسق فجأة عائدا إلى كفرطاب واستولى على القلعة بعد مقاومة ضئيلة وسلمها إلى بنى منقذ . وعلى الفور كاتبه لؤلؤ من حلب - إما بوزع الخيانة أو بدافع الجبن - معتبرا عما سبق من خطاياهم وطالبا ارسال كتيبة لاحتلال حلب . فأرسل برسق إليه جيوش بك على رأس فيلقه ، وبذا ضعفت قوته . ولم يكن روجر قد سرح جيشه ، وليس بإمكانه انتظار وصول العون من الملك بلدوين ولا من بونز ولا حتى من طغتكين ، وبعد أن استنجد ببلدوين كونت الرها ، رحا البطريق برنارد أن يبارك جنوده وأن يسمح بارسال قطعة من الصليب الحقيقي بأخذونها معهم ، ثم غادر انطاكية يوم ١٢ سبتمبر وسار جنوبا أعلى وادى العاصي إلى شاسيل روج ، بينما سار برسق شمال بطول خط مواز في داخل البلاد . ولم يعلم أي من الجيشين بموقع الآخر ، إلى أن اندفع داخل المعسكر في (شاسيل روج) فارس يدعى ثيودور برنارد كان في حملة استكشافية ، وقال إنه شاهد جيش السلطان يتحرك في الغابة باتجاه تل دانييت بالقرب من مدينة سرميد . وفي صباح الرابع عشر من سبتمبر زحف الجيش القريشى فوق منطقة جبلية معترضة ، وانقض على برسق بينما كان الجنود يسرون في غير عناية وامامهم الحيوانات حاملة الأمتعة ، وكانت بعض الكتائب قد توقفت بالفعل لنصب الخيام للاستراحة فزدة الفلهرية ، بينما كان بعض أمراء الجيش قد ذهبوا إلى المزارع

المجاورة طلبا للمون ، وذهب البعض الآخر لاحتلال بزاعة . وحينما بدأت المعركة كان برسق وحيدا غاب عنه أكفأ قواده .

#### ١١١٥م : انتصار الفرنج في تل دانيث

ولم يكن هجوم الفرنج متوقعا قط . إذ ظهروا فجأة من بين الأشجار وانطلقوا بسرعة نحو المعسكر الذي لم يكن مستعدا تماما ، وسرعان ما عمت الفوضى الجيش الاسلامي كله ، وتعذر على برسق لم شمل رجاله ، وكاد هو نفسه أن يقع في الأسر ، لكنه تمكن من التقهقر مع بعض مئات من الفرسان إلى تل ناثي بالقرب من تل دانيث حيث دحر الأعداء لفزة ، وبذل غاية جهده كي يسقط قتيلًا بدلًا من أن يراجه عار المزيمة ، غير أن حراسه ألقوه في نهاية الأمر بعدم جدوى مواصلة القتال فانسحب باتجاه الشرق . وكان محمراك ، أمير سنجار ، أكثر نجاحًا باديئ الأمر ودحر ميمنة الفرنج ، لكن حوى فرسئل ، أمير هارنس ، أحضر جنودا آخرين وتمكن من أن يحيط برجال سنجار ، ولم يسلم من الفرسان سوى أسرعههم . وبحلول المساء كانت بقايا الجيش الاسلامي تسرع في غير نظام نحو الجزيرة<sup>(٥٥)</sup>.

كان انتصار الفرنج في تل دانيث نهاية محاولات سلاطين ايران السلاجقة لاستعادة سوريا . ومات برسق بعد المعركة بأشهر قليلة من فرط الحزى والمهانة ، ولم يكن السلطان محمد علي استعداد للمخاطرة بمحملة جديدة . والآن ، أصبح الخطر الوحيد الذي يهدد الفرنج من الشرق هو الأمراء شبه المستقلين الذين كانوا غير متحدين وفي حالة من الإحباط . وغدت مكانة روجر أمير انطاكية في أعلى درجاتها ، وسرعان ما استزد رجاله كفرطاب التي كان برسق قد سلمها لبني منقذ<sup>(٥٦)</sup> . وشعر أميرا حلب ودمشق بالخطر الحقيقي ، فسارع الأخير ، طغتكين ، إلى عقد سلام مع السلطان عماد الذي غفر له لكنه لم يقدم له معونة مادية<sup>(٥٧)</sup> . وفي حلب قبع الخصي لؤلؤ برقب

(٥٥) Fulcher of Charters, II, liv, 1-6, pp.586-90; Albert of Aix, XII, 19, p. 701; Walter the Chancellor, I, 6-7, pp.92-6 (the fullest account); al-Azimi, p.509; Ibn Hamdun in Ibn al-Athir, pp.295-8; Usama, ed. Hitti, pp.102-6; Michael the Syrian, III, p. 217; Chron. Anon. Syr.p.86.

(٥٦) Usama, ed. Hitti, p. 106.

(٥٧) Ibn Hamdun, الذي يقول ان المباداة جاءت من جانب السلطان. Ibn al-Qalanisi, pp. 151-2 loc. cit.



الأحداث وهو فاقد الحيلة ، بينما عزز الفرنج مراكزهم من حوله ، فسعى إلى عقد تحالف أقوى مع طغتكين، غير أنه كان سعى السمعة على أجماله . وفي شهر مايو ١١١٧م اغتاله أتراك من حاميته وخلفه زميل خصي كذلك ، هو الأرميني المرتد ياروقتش ، الذي بادر بطلب مساندة الفرنج ، مانحاً روجر حصن القبة الواقع على الطريق بين حلب ودمشق الذي يسلكه الحجاج إلى مكة ، كما منحه حق جباية رسوم الحج<sup>(٥٨)</sup> . ولم تنفع تلك التنازلات. إذ بدأ قتلة لولو يتصرفون باسم الإبن الأصغر لرضوان ، سلطان شاه ، الذي لم يعترف به ، فالتمس ياروقتش العون من ايلغازي الأرتقي . بيد أنه عندما وصل جنود ايلغازي إلى حلب وجدوا أن ياروقتش قد سقط وأن وزير سلطان شاه ، ابن الملحق الدمشقي ، يتولى إدارة الحكومة ، فانسحب ايلغازي تاركاً ابنه ، كزول ثمرتاش ، ممثلاً له في حلب بعد أن استولى على قلعة بالس على الفرات ، وقد منحت له نظير مساعدته فيما لو حاول اليرسقي - الذي يحكم الآن في الرحبة - الاستيلاء على حلب التي زعم أن السلطان عهد بها إليه . على أن ابن الملحق أيقن من أن ايلغازي ليس هو الخليفة الذي يعتمد عليه تماماً ، فقام بتسليم حلب ، وكذلك كزول ابن ايلغازي ، إلى أمير حمص - خيرخان - وأعد العدة لاستعادة بالس بمساعدة الفرنج . بيد أن تحالف ايلغازي مع طغتكين ثبت حديثه . فبينما سار طغتكين إلى حمص وأحبر خيرخان على التقاعد ، حرر ايلغازي بالس ودخل حلب في صيف ١١١٨م . وكان ابن الملحق قد سبق وأن استبدل بخصي أسود يدعى ابن قراخا ، فاعتقله ايلغازي وحبسّه ومعه ابن الملحق والأمير سلطان شاه<sup>(٥٩)</sup> ، وأثناء هذه التحركات والمكائد ، كانت الأطراف جميعاً كل بدوره تسعى إلى تدخل الفرنج. ورغم أن روجر لم يكن قط سيداً لحلب نفسها، إلا أنه استطاع احتلال الأراضى الواقعة شمالها، فاحتل عزاز سنة ١١١٨م ، وبزاعة في أوائل سنة ١١١٩م ، وبهذا عزل حلب عن الفرات في الشرق<sup>(٦٠)</sup>.

وفي ذات الوقت على وجه التقريب، كان روجر يعزز حدوده الجنوبية، فاستولى على قلعة المرقب الواقعة على تل مرتفع يشرف على البحر من وراء بانياس (بانياس - البلانة)<sup>(٦١)</sup>.

(٥٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 155-6.

(٥٩) Ibn al-Qalanisi, loc. cit. Kemal ad-Din, pp. 610-15; Ibn al-Athir, pp. 308-9.

(٦٠) Matthew of Edessa, cccxvii, pp. 297-8; Kemal ad-Din, pp. 614-15.

(٦١) للاطلاع على المصادر العربية ، انظر المناقشة في 16. Cahen, op. cit. p. 279 n. ويدور ان يورنر أمير

وهكذا ، وبنهاية سنة ١١١٨ م ، أصبح هناك توازن في شمال سوريا . إذ غدا الفرنج جانباً مقبولا في نبط البلاد . وكانوا لا يزالون بعيدين عن الكثرة العددية ، غير أن تسليحهم كان جيدا ، وراحوا يشيدون القلاع ويتعلمون كيف يكتفون أنفسهم مع نبط الحياة المحلي . فضلا عن أنهم كانوا آنذاك متحدسين ، وكان روجر أمير انطاكية أعظم امراء المسيحيين في الشمال إلى حد بعيد ، ولم يسبب تعاطفه امتعاضا من جانب بلدوين كونت الرها ولا من يوزر أمير طرابلس ، ولم يحاول من جانبه أن يتسبد عليهما وإنما شاركهما الاعتراف بسيادة ملك القدس . علي أن الأمراء المسلمين كانوا أقوى نفيرا ، لكن الفرقة سادتهم والغيرة غلبتهم ، ولم ينجبهم الفوضى سوى التحالف بين طغتكين والأراقة ، ومن ثم كان التوازن يحيل بصورة طفيفة لصالح الفرنج . ولم تكن هناك قوة خارجية في وضع يمكنها من الإخلال بهذا التوازن . إذ ليس بمقدور الملك بلدوين التدخل دائما في الشمال خشية تهديد الفاطميين في مؤخرته ، كما أن سلطان ايران السلجوقي كفّ بعد كارثة قل دانيت عن أية محاولة فعلية يؤكد بها سلطته في سوريا . كما كانت القوتان الرئيسيتان في الأناضول ، بيزنطة وسلاجقة الروم ، في وضع متوازن وقتئذ.

#### ١١١٨ م : صدع في الكنيسة يعقوبية

بل كان المسيحيون الوطنيون في حالة توازن كذلك . ذلك أن الرعايا الأرمن في الرها وأنطاكية كانوا بعيدين عن الأروام وكان بهم غدر ، وكانت الدولة الأرمينية الوحيدة الحرة الباقية ، وهي إمارة الروبين في جبال طوروس ، على استعداد للتنسيق مع الفرنج . فقد سبق أن أحضر أميرها (ليو) كتية لمساعدة روجر أمير انطاكية في حصار عزاز<sup>(٦٢)</sup> ، وحدث صدع في الكنيسة يعقوبية أدى إلى انقسامها ، ففي سنة ١١١٨ م تقريبا تشاجر رئيسها البطريرق أناثاسيوس ، الذي كان مقيما في انطاكية ، مع مطرانه في الرها ، بار صابوني ، حول ملكية بعض الكتب المقدسة ، وأصدر قرارا بحرمانه من المهام الكنسية . وإثارة منه للمشاكل ، لجأ المطران بار صابوني إلى بطريرق

طرابلس مساعد روجر بعد خلاف طفيف حول بائلة زوجة بونزر ، وهي أرملة تنكريد ، سيشيليا ، التي كانت تطالب بمنحها حيلة ، غير أنها رفضت أخيرا بشاميل روج وأرذغان (William of Tyre, xiv, 5, p. 612).

(٦٢) Matthew of Edessa, loc. cit. وعن تاريخ الروبين انظر pp. 168 ff. Tourneize, op. cit.

انطاكية اللاتينية ، برنار ، الذي استدعى أثناسيوس لمناقشة المسألة في مجلس كنسي يعقد في الكندرية اللاتينية . فجاء أثناسيوس معترضا . ونتيجة لعجز المترجم فهم برنار أن الخلاف يدور حول دين خاص بين الأسقفين ، فأصدر حكمه على أثناسيوس متهما إياه بارتكابه السيمونية<sup>(٦٣)</sup> ، لأنه لم يغفر للمدين . فاحتاج أثناسيوس لهذا الحكم ولم يعترف بصحته ولم يفهم معناه ، وأعرب عن احتجاجه بالفاظ فظة ، فما كان من البطريرق برنار إلا أن أمر بجلده . وكان هناك صديق أرثوذكسي للبطريرق أثناسيوس ، هو الفيلسوف عبد المسيح ، الذي أشار باللجوء إلى روح أسير انطاكية ، الذي كان بعيدا آنذاك ، للإنتصاف . وغضب روح على البطريرق برنار ووجه لتدخله في امر لا يخصه ، وسمح لأثناسيوس بالرحيل من انطاكية عائدا إلى وطنه الأول ، دير مار بارسوما ، حيث أصبح أثناسيوس في اراضي الأرائقة الذين منحوه حمايتهم . وأصدر حكما على بار صابون بالطرد من الكنسى ، وأخضع الكنيسة اليقونية في الرها تحت حكم الحرمان الكنسى ، مما دفع بالكثير من اليعاقبة واهالى الرها ، وقد حرموا من ممارسة طقوسهم الكنسية ، إلى تغيير مذهبهم والتحول إلى المذهب اللاتينى . وأطاع البعض البطريرق . ولم يتحقق السلام طوال اعوام كثيرة ، وحتى بعد موت أثناسيوس<sup>(٦٤)</sup>.

وكانت المجالس الأرثوذكسية في انطاكية والرها مستاعة من الحكم اللاتينى ، على أنه لم يكن هناك ما يغريها مطلقا للتآمر مع المسلمين ، غير خلاف الأرمن واليعاقبة، وانما كانت تنهد في حسرة تلهفا على عودة بيزنطة . على أن ما كان يوحد بين الأرمن واليعاقبة من اختصار لزاء الأرثوذكس كان بمثابة كايح لقوتهم.

#### ١١١١م - ١١١٣م : مفاوضات بيزنطة مع العرب

ومع ذلك ، وبرغم خشية فرنج الرها - بحق - من امكان ظهور خطر جديد في الشرق ، ظلت بيزنطة العدو الرئيسى في نظر فرنج انطاكية . ذلك أن الامبراطور الكيسوس لم ينس قط مطالبته بأنطاكية . وكان على استعداد للإعتراف بمملكة لاتينية في القدس ، فقد اظهر حسن نواياه ببذل قديمة سخية لإطلاق أسرى الفرنج لدى

(٦٣) (الروح) السيمونية : شراء أو بيع المناصب الكهنوتية.

(٦٤) Michael the Syrian, iii, pp. 193-4, 207-10.

الفاطميين من الرملة عام ١١٠٢م ، ووجود سفنه في حصار عكا عام ١١١١م الذي لم يكن فعالاً . أما الملك بلدوين فكان من ناحيته دائم الكياسة والانضباط في تصرفه حيال الامبراطور ، غير انه رفض ممارسة أى ضغط على تنكريد لتنفيذ بنود معاهدة ديفول<sup>(٦٥)</sup> . ومنذ ايام الحملة الصليبية عام ١١٠١م ، والعلاقات الفرغنية البيزنطية تلفها غيوم الريبة ، بينما لم تغفر القسطنطينية مطلقاً تدخل البابا باسكال نيابة عن بوهمند عام ١١٠٦م . وكان الكيسوس سياسياً لئيم العريكة بصورة فائقة بحيث لم يدع للإستياء مجالاً في ساسته . وكان خلال عامي ١١١١م و١١١٢م يجرى سلسلة من المفاوضات مع البابا ، من خلال وسيطه رئيس دير مونت كاسينو . واستمال السلطات الرومانية بأن وعدوا بتسوية الخلافات المعلقة بين الكيستين الرومانية واليونانية ، وذلك لكي تقدم له أو لابنه تاج الغرب الامبراطوري ، واقترح أن ينهب بنفسه لزيارة روما . وكان البابا باسكال يعاني آنذاك من مصاعب حسيمة مع الإمبراطور هنري الخامس ، ولذا كان على استعداد لدفع لمن غال لقاء مساندة بيزنطة ، على أن الحروب التركية واعتلال صحة الكيسوس حالت دون المضي في مشروعه<sup>(٦٦)</sup> . وأسفرت المفاوضات عن لاشئ . وفي عام ١١١٣م ، قام رئيس اساقفة ميلانو ، بطرس كريبولان ، بزيارة القسطنطينية لمناقشة بعض الأمور الكنسية<sup>(٦٧)</sup> غير أن جدله اللاهوتي مع اسقف نيقية ، ايوستراسيوس ، لم تساعد على بقاء العلاقات طيبة بين الكيستين . والراجح أن الكيسوس نفسه لم يأخذ عخطه الايطالي الطموح مأخذاً جاداً . وإنما كانت للصدقة البابوية قيمتها لديه كوسيلة لكبح الطموحات النورماندين ولتعزيز سلطته على اللاتينيين في الشرق .

وفي ذات الوقت لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا شيئاً لاستعادة انطاكية . فقد ظلت معاهدة الإمبراطور مع بوهمند خطاباً لا حياة فيه ، ولم يفض عنها تنكريد نظره فحسب ، وإنما أضاف إلى اراضيه المزيد مما اغتصبه من البيزنطيين ، وسار ووجر على نفس الدرب الذي سار عليه تنكريد . وكان الكيسوس يعلق الآمال على أن يصبح أمراء طرابلس عملاءه في سوريا ، وقدم أموالاً تحفظ في طرابلس لتمويل المشاريع البيزنطية

(٦٥) Anna Comnena, xiv, ii, 12-13, pp. 152-3.

(٦٦) انظر Chalandon, *op.cit.* pp. 260-3 with full references.

(٦٧) Landolph, in Muratori, *Sa. R.I.* vol. v, p. 487; Chrysolan's speeches in M.P.L. vol. cxcvii, col. 911-19; Eustratius's speeches in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. 1, p. 15.

الطرابلسية المشتركة . على انه يموت برتراند ، اختار ابنه بونز التعاون مع الأنطاكيين ، ولذا قام بوتوميتيس ، السفير البيزنطي فوق العادة لدى الدويلات اللاتينية ، بالمطالبة باسترداد تلك الأموال ، لكنه لم يحصل عليها الا بعد أن هدد بقطع المون التي تصل طرابلس من قبرص ، ثم رأى من حصافة الرأي إعادة الذهب والجوهر الثمينة إلى بونز لأنها كانت ممنوحة لبرتراند شخصيا ، وفي مقابل ذلك اقسّم بونز بحمين السواء للإمبراطور ، وربما كان ذلك هو قسم عدم الإضرار الذي سبق أن أقسمه حده ويموند . واستخدمت بيزنطة الأموال التي استردتها في شراء الخيول للحيش البيزنطي من دمشق والرها والجزيرة العربية<sup>(٦٨)</sup>.

#### ١١١٢م - ١١١٥م: حروب ملجوقية ضد بيزنطة

كان من الواضح عدم امكان اغواء بونز كى يعمل ضد انطاكية ، بينما حال النشاط التركي دون تدخل الامبراطور بصورة مباشرة في سوريا . ومنذ أن مات للملك غازى انوشكين الدانشمندى عام ١١٠٦م ، وقلج أرسلان السلجوقي عام ١١٠٧م ، لم يعد في الأناضول عاهل تركى عظيم . وكان بإمكان الكسيوس الحفاظ على سلطته شيئا فشيئا في مناطق الأناضول الغربية وبعطول الساحل الجنوبي ، ما لم ينصرف انتباهه إلى النورماندين . وأنداك ، حاول الأمير البارز حسن أمير كبادوكيا الإغارة على الأراضى البيزنطية عام ١١١٠م ، وتقدم حتى فيلادلفيا مستهدفا أزمير . وقد عهد الكسيوس مؤخرا إلى إيوستاثيوس فيلوكان ادارة الأراضى الواقعة غربى الأناضول وكلفه بتطهير المقاطعة من الأتراك . فتمكن بقواته القليلة من ملاحقة جيش حسن الذى كان منقسما إلى فرق شتى مغيرة هزمها الواحدة تلو الأخرى ، وتقهقر حسن بسرعة ، فباتت سواحل بحر إيجه آمنة من الغارات . على انه في نفس ذلك العام ، أطلق سراح ملكشاه - أكبر أبناء قلج أرسلان - من الأسر الفارسى ، فانقذ من قونية عاصمة له ، وسرعان ما سيطر على أغلب ميراثه بعدما هزم حسن وضم أراضيه . وأخذ العيرة من مصير أبيه فتجنب التورط في الشرق . لكنه سرعان ما شعر بأن لديه مايكفى من القوة ، فانطلق يستعيد الأراضى التي فقدتها قلج أرسلان في زمن الحملة الصليبية الأولى . وشرع في الأشهر الأولى من سنة ١١١٢م في الإغارة داخل الامبراطورية متجها إلى فيلادلفيا حيث صدّه القائد البيزنطي جابرأس ، فتفاوض على هدنة . غير انه أغار مرة

أخرى عام ١١١٣م ، وسير حملة عاجلة انطلقت خلال بيثينيا ووصلت أسوار نيقية ذاتها ، بينما توغل قائده محمد إلى برساتيرم الأبعد إلى الغرب حيث هزم القائد البيزنطي وأسرته ، وأغار قائده الآخر منالوك على أبيدوس الواقعة على الدردنيل ذات الإيرادات الكثيرة من الجمارك ، وهاجم ملكشاه نفسه برجاموم واستولى عليها . وانطلق الامبراطور لملاقاة المغيرين ، لكنه أثر الانتظار والامساك بهم في طريق عودتهم محملين بالأسلاب الكثيرة . وانقض عليهم أثناء مرورهم من دوريليوم بالقرب من كورنثيوم وظفر بهم تماما واستعاد كل ما كان بجوزتهم من أسلاب وأسرى . وفي عام ١١١٥م ترددت أنباء بأن ملكشاه يعد العدة لمعاودة الاغارة ، فأمضى الكيسوس وقتا طويلا من العام يطوف تلال بيثينيا ، وفي العام التالي ، ورغم اشتداد مرضه ، قرر أخذ زمام الهجوم بنفسه ، فسار جنوبا باتجاه قرنية والتقى بالجيش التركي بالقرب من فيلوميلوم ، وانتصر مرة أخرى وأجبر ملكشاه على التوقيع على معاهدة سلام تعهد فيها باحترام حدود الامبراطورية التي كانت تسيطر آنذاك على كل الساحل من طرابزون إلى سلوقية في كيليكيا وغرب أنقرة الداخلي ، والصحراء المالحة وفيلوميلوم . وفشلت محاولات ملكشاه في معاودة الغزو . وبعد أشهر قليلة خلعه أخوه مسعود عن عرشه وقتله بعد أن تحالف مع الدانشمند . غير أن الأتراك ظلوا متحصنين بصورة راسخة في قلب الأناضول . وباتت بيزنطة عاجزة عن أخذ زمام الهجوم في سوريا . وكان أهم المستفيدين من هذه الحروب الأرمن في جبال طوروس وأسير انطاكية الفرنجي<sup>(٦٩)</sup>.

Anna Comnena, xiv, v-vi, xv, i-ii, iv-vi, pp. 164-72, 187-72, 187-94, 199-213. See (٦٩) Chalandon, op. cit, pp. 265-71.

\_\_\_\_\_

---

## الباب الثاني:

### الذروة





---

## الفصل الأول:

### الملك بالدوين الثانى



## الملك بلدوين الثاني

"لَا يُعَدُّمُ لَكَ رَجُلٌ عَنْ كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ"

(الملوك الأول ٩ : ٥)

أعمل الملك بلدوين آخر واجبات الملوك . فلم يوصي بمن يخلفه على العرش .  
وانتقد مجلس المملكة على عجل . وبدأ لبعض النبلاء أن خروج الشاح من بيت آل  
بولونيا أمر غير وارد . فقد خلف بلدوين الأول أخاه جودفري ، ومازال هناك أخ ثالث  
هو إيوستاس ، كونت بولونيا ، أكبر الثلاثة . فأرسل الرسل على عجل بطريق البحر  
لإبلاغ الكونت بوفاة أخيه والتماس حضوره لتسلم الميراث . بيد أن إيوستاس كان  
عازفا عن مغادرة بلده المليء بالمسرات والرحيل إلى الشرق بما فيه من مخاطر ، لكنهم  
أنصروه أن ذلك واجب ينبغي له القيام به . فانطلق إلى القدس ، لكنه عندما وصل  
أبوليا قابل رسلا آخرين حاملين الأنباء بأنه قد قضى الأمر ، واستخلف غيره . ورفض  
اقتراحا بأن يواصل رحلته ويمارب دون حقوقه ، فعاد على الأثر إلى بولونيا وهو غير

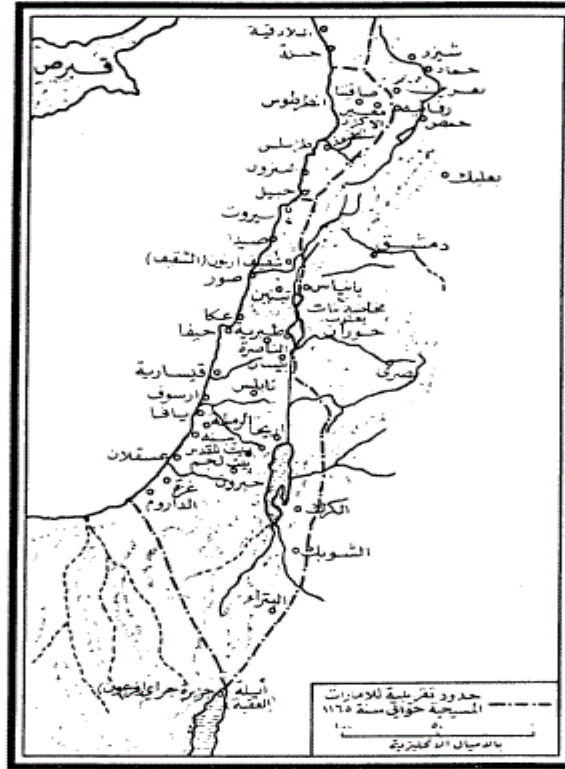
كاره<sup>(١)</sup>.

وما حدث في واقع الأمر أن القلة من أعضاء المجلس هي فقط التي أبدت استخلافه. ولقد كان بعيدا ، الأمر الذي يعنى بقاء العرش خاليا لأشهر كثيرة . وكان أكثر أعضاء المجلس نفوذا هو جوسلين (أوف كروتناي) أمير الجليل ، الذي طلب منح العرش لبلدوين (أوف لو بورج) ، كونت الرها . وقد اتخذ جانب الخنذر وهو يذكر أعضاء المجلس بأنه ليس هناك ما يجعل بلدوين محبوبا لديه هو شخصيا ، إذ سبق أن اتهمه بلدوين بالخيانة زورا وبهتانا ، وأمر بنفيه من أراضي في الشمال . غير أن بلدوين رجل اقتدار وشجاعة ، وهو ابن عم الملك الراحل ، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة من فرسان الحملة الصليبية الأولى العظام . وفضلا عن ذلك ، كان في تقدير جوسلين أنه إذا غادر بلدوين الرها إلى القدس ، فإن أقل ما يفعله لابن عمه الذي كافأه بسخاء على الإساءة أن يعهد إليه بكونتية الرها . ولقي اقتراح جوسلين تأميدها من البطريق أرتولف ، وراحا معا يستحثان المجلس على الموافقة . وفي نفس اليوم الذي شُيِّعت فيه جنازة الملك ، وكما لو كان الأمر حسما لمناقشة المجلس ، ظهر بلدوين (أوف لو بورج) فجأة في القدس . وربما سمع بمعرض الملك في العام الذي قبله ، ولذا رأى من المناسب القيام بترحيل الفصح إلى الأراضي المقدسة . واستقبل بمشاعر البهجة ، وانتخبه المجلس ملكا بالإجماع . وفي يوم أحد الفصح ، ١٤ أبريل ١١١٤ م ، وضع البطريق أرتولف التاج على رأسه<sup>(٢)</sup>.

وكان بلدوين الثاني كرجل يختلف عن سلفه اختلافا كبيرا . فبرغم ما كان عليه من وسامة ، بلحيته الطويلة الشقراء ، غابت عنه الحمية التي كان يتصف بها بلدوين الأول . كان أيسر لقاء ، أنيسا ، مغرما بخفة الغلل ، لكنه كان في ذات الوقت حاد اللحن ، ماكرا ، أقل انفتاحا ، وأقل طيشا ، وأكثر ضبطا لنفس . كان ذا مقدرة على الاتيان باللفتات الضخمة ، لكنه على الجملة كان وضعيا خاليا من الكرم . وبرغم تصفقه في الشؤون الكنسية ، كان عظيم الودع ، وكانت ركبته متورمتين من كثرة الصلاة . وعلى خلاف بلدوين الأول ، لم يكن هناك ما يعيب حياته الخاصة ، إذ ضرب هو وزوجته مورفيا الأرمنية مثلا رائعا على السعادة الزوجية المثالية ، وهو أمر

(١) William of Tyre, XII, 3, pp. 513-16. ولا نعلم على وجه اليقين الوثبات التي أعد لها لبلونيا . وقد ماتت زوجته ، ماري الاسكتلندية عام ١١١٦ م .

(٢) Fulcher of Charters, III, i, 1, pp. 615-16; Albert of Aix, XII, 30, pp. 707-10; William of Tyre, XII, 4, p. 517.



خريطة رقم (٢) جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

كان نادرا في الشرق الغربي<sup>(٣)</sup>.

وكوفئ جوسلين كما توقع بكونية الرها باعتباره تابعا للملك بلدوين ، مما كما كان بلدوين نفسه تابعا لبلدوين الأول . كما اعترف كل من روجر امير انطاكية ، وهو صهر الملك ، وبونز أمير طرابلس ، بالملك الجديد سيدا أعلى ، إذ كان مقررا أن يبقى الشرق الغربي موحدا تحت تاج القدس<sup>(٤)</sup>. وبعد أسبوعين من تنويع بلدوين مات البطريرق أرنولف . وكان في خدمته للدولة مخلصا ذا كفاءة إلا أنه ، وبرغم براعته التبشيرية ، تورط في عدد ضخم من الفضائح تحول دون احترامه كرجل كنيسة ، ومن المشكوك فيه ما إذا كان بلدوين قد تأسى لموته . وحرص على أن يُنتخب مكانه قس بيكاردي<sup>(٥)</sup> هو جورمون البيكوني الذي لا نعرف شيئا عن سابق حياته . وكان اختيارا موفقا ، إذ كان جورمون يشترك مع أرنولف في خصائص عملية تملوها طبيعة القداسة ، ولقي الإحترام من الكافة . وجاء تعيينه في اعقاب موت البابا باسكال مؤخرا ، وبذا بقيت العلاقات طيبة بين القدس وروما<sup>(٦)</sup>.

#### ١١١٩م : غارات في شرق الأردن

لم يكد بلدوين يستقر على العرش حتى سمع الأنباء المشؤومة عن تحالف مصر ودمشق . إذ كان الوزير الفاطمي الأفضل متلهفا على معاقبة بلدوين الأول على ما اقدم عليه من غزو متعجرف لمصر ، بينما شعر طغتكين قس دمشق بالخطر من تعاضد قوة الفرنج . فسارع بلدوين بإرسال سفارة إلى طغتكين الذي ، طلب من الفرنج التخلي عن كافة الأراضي الواقعة شرق نهر الأردن مدفوعا بثقة من مساعدة مصر . وكان جيش مصري ضخم قد تجمع خلال الصيف على الحدود متخذا موضعه خارج مدينة اشدود ، ووجهت الدعوة لتغطكين كي يتولى قيادته . واستنفر بلدوين مليشيات انطاكية وطرابلس لتعزيز جنود القدس ، وسار جنوبا للقاء العدو . وظل الجيشان يواجهان بعضهما البعض طوال ثلاثة أشهر ، لا يجرؤ أيّ منهما على التحرك ، إذ كان

(٣) William of Tyre, xii, 2, pp.512-13. (انظر أعلاه ص ٦٧).

(٤) استدعى بلدوين بعد توليه العرش مباشرة كلا من روجر وبونز لقتال المصريين تحت قيادته . (انظر أدناه ص ١٢٦).

(٥) (المؤرخ) نسبة إلى القديس بيكاردي التاريخي الواقع شمال فرنسا.

(٦) Albert of Aix, loc. cit.; William of Tyre, xii, 6, p.519

كل فرد - كما جاء على لسان المؤرخ فولشر (أوف تشارتر) - يفضل الحياة على الموت . وفي نهاية الأمر تفرق الجنود في كل من الجانبين عائدين إلى بلادهم<sup>(٧)</sup>.

وفي تلك الأثناء تأخر رحيل جوسلين . إذ كان وجوده في الجليل أكثر الخافا من وجوده شمال البلاد ، حيث يبدو أن الملكة مورفا كانت ما تزال هناك ، وحيث كان واليران ، لورد البيرة يتولى الحكومة<sup>(٨)</sup> . وكان على جوسلين الدفاع عن الجليل ، باعتباره أميرها ، من غارات دمشق . وفي الخريف شاركه بلدوين في غارة على اذرعات في حوران ، وهي بمثابة مخزن حبوب دمشق . وخرج بوري ، ابن طنتكين ، للقاءاتهم ، لكنه هزم لنهوره . وبعد هذه الواقعة حول طنتكين انتباهه إلى الشمال مرة أخرى<sup>(٩)</sup>.

وفي ربيع ١١١٩م علم جوسلين بأن قبيلة بدوية غنية ترعى قطعانها شرقي نهر الأردن على نهر اليرموك . فانطلق لينهبها بصحبه اثنان من بارونات الجليل ، هما الأخوان جودفري ووليم (أوف بور) ، ونحو مائة وعشرون من الخيالة . وانقسمت الجماعة لمحاورة رجال القبيلة . لكن الأمور سارت مسارا سيئا ، إذ علم رئيس القبيلة والتزم جانب الحذر ، وفضل جوسلين طريقه في التلال . وأما جودفري ووليم فقد سقطا في كمين أعد لهما ، وقتل جودفري ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وعاد جوسلين تعبسا إلى طبرية وأرسل من يخبر الملك ، الذي سار شمالا وأدخل الخوف في قلوب البدو فأعادوا الأسرى ودفعوا تعويضا ، وسمح لهم بتمضية الصيف في سلام<sup>(١٠)</sup> .

وأثناء وجود بلدوين في طبرية للراحة في طريق عودته من هذه الحملة القصيرة ، جاءه الرسل من أنطاكية متوسلين أن يسرع شمالا مع جيشه ، بغاية ما يستطيعه من سرعة.

ذلك أنه منذ انتصار روجر أمير انطاكية في تل دانيث ، باتت مدينة حلب التعسة لا حول لها ولا قوة في منع العدوان الفرقي ، وقد أمضتها أن تضع نفسها تحت حماية ايلغازي الأرتقي ، وبعد استيلاء روجر على البزاعة عام ١١١٩م أمست محاصرة من

(٧) Fulcher of Charters, iii, ii, 1-3, pp. 617-19; William of Tyre, xii, 6, pp. 518.

(٨) Chron. Anon. Syr., p. 86.

(٩) Ibn al-Athir, pp. 315-16.

(١٠) pp. 325-6. Ibid.



ثلاث جهات . وكانت عساة البراعة فوق ما يتحمله البلغازي الذي لم يكن مند آنذاك ، ولا حليفه الدائم طغتكين صاحب دمشق ، على استعداد للمخاطرة بكامل القوات في معركة ضد الفرنج ، إذ كانا ينجشيان سلاطين الشرق السلاجقة ، بل ويحملان لهم مقنا يفوق الخشية . على أن السلطان محمد قد مات في إبريل ١١١٨ م ، ومن ثم انطلقت طموحات الحكام وصغار الأمراء في سائر أنحاء امبراطوريته . وحاول ابنه الشاب ووريثه محمود جامدا توطين سلطته إلى أن اضطر أخيرا في أغسطس ١١١٩ م إلى تسليم السلطة العليا لعمه سنجر ، ملك خراسان ، وأمضى ما تبقى له من حياة قصيرة في التمتع بمتع الصيد والقتل . وأما سنجر ، الذي كان آخر حكام أسرته على كل الأراضي السلجوقية الشرقية ، فكان مقتدرا بما فيه الكفاية ، غير أن مصالحه تركزت في الشرق ، ولم يشغل نفسه قط بسوريا ، وكذلك كان شأن أبناء عمومته من سلاجقة الروم ، الذين صرفتهم الخلافات فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الدانشمندان ، والحروب مع بيزنطة ، عن إمكان تدخلهم في الشؤون السورية<sup>(١١)</sup> . وأخيرا اتبحت الفرصة لأكثر الأمراء المحليين عنادا ، ألا وهو البلغازي ، الذي لم تكن رغبته في القضاء على الدويلات الفرنجية تفوق رغبته في الحصول على حلب لنفسه ، على أن هذه الرغبة الأخيرة تحمل في طياتها الرغبة الأولى.

#### ١١١٩ م : معركة بحر الدم

وعلا لربيع ١١١٩ م راح البلغازي يهول في أملاكه ، يجمع جنود التركمان ، ويرتب لاستحلاب الكتاب من الأكراد ومن القبائل العربية في الصحراء السورية . ومن باب الشكليات المحضة طلب المساعدة من السلطان محمود ولم يصله رد . ووافق حليفه طغتكين على المضي من دمشق ، ووعد بنو منقذ في شيراز بأن يشغلوا روجر إلى الجنوب من أراضيه<sup>(١٢)</sup> . وفي شهر مايو انطلق الجيش الأرتقي الذي قيل أن قوامه بلغ أربعين ألف رجل . وتلقى روجر النبأ رابط الجأش ، غير أن الطريق برنار حش على طلب المساعدة من الملك بلدوين ومن بونز أمير طرابلس . وأرسل الملك بلدوين من طبرية من يقول إنه سيحضر بغاية السرعة التي يستطيعها وسيحضر معه جنود طرابلس ،

(١١) Ibn al-Athir, pp. 318-23. ونظر مقال "سنجر Sandjur" و "السلاجقة" Seldjuks في دائرة المعارف الإسلامية. *Encyclopaedia of Islam*.

(١٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 157-7; Kemal ad-Din, pp. 615-16.

وأنه ينبغي لروجر أن ينتظر متخذاً زمام الدفاع . ثم جمع بلدوين جيش القدس وحصنه بقطعة من الصليب الحقيقي الذي كان تحت رعاية إيغمار ، رئيس اساقفة قيسارية<sup>(١٣)</sup> .

وفي الوقت الذي أغار فيه بنو منقذ على اقاميا ، أرسل البلغازي فصائل التركمان ناحية الجنوب الغربي كي يصنع اتصالاً يصله بهم وبالجيش الصاعد من دمشق . وأغار هو نفسه على اراضي الرها ، لكنه لم يذلل اية محاولة للإغارة على عاصمتها الحصينة . وفي منتصف يونية عمر نهر الفرات عند بالس وتقدم ليعزب معسكره في قنسرين التي تبعد نحو خمسة عشر ميلاً جنوب حلب انتظاراً لطفتكين . ولم يكن روجر على ما يكفي من الصبر ، إذ أنه قرر ملاقاته العدو في الحال ، على الرغم من رسالة الملك ، وبرغم التحذير الصارم من المطريق برنارد ، وبرغم كل التحارب السابقة التي خاضها امراء الفرنج . فقاد جيش أنطاكية كله يوم ٢٠ يونية ، وكان مؤلفاً من سبعمائة من الخيالة وأربعة آلاف من المشاة ، وعبر به الجسر الحديدي ، وضرب معسكره امام حصن تل عفرين الصغير ، الواقع على الحافة الشرقية لسهل سرمدا ، حيث توفر الأراضي القاحلة دفاعاً طبيعياً جيداً . وبرغم ضلالة حجم قواته بكثير عن قوات العدو ، كان يأمل في امكان الانتظار لحين وصول بلدوين .

وفي قنسرين ، علم البلغازي تمام العلم بتحركات روجر كلها ، إذ أن عيونه تنكروا في هيئة تجار وأمعنوا في فحص معسكر الفرنج ثم أبلغوا البلغازي بما عليه الجيش الفرنجي من ضلالة العدد . وبرغم أن البلغازي كان يفضل انتظار وصول طفتكين ، فقد ألح عليه امراؤه التركمان كي يبادر بالهجوم على معسكر الفرنج . وفي يوم ٢٧ يونية تحرك جزء من جيشه لمهاجمة حصن الأتارب الذي كان في حوزة الفرنج ، وتوفير الوقت لروجر كي يدفع ببعض رجاله إلى هناك تحت قيادة روبرت (أوف فيه بون) ، ثم ألقاه أن يبيد العدو على مثل هذه المسافة القريبة ، ويهبط الظلام أرسل كل ما كان لدى الجيش من أموال إلى حصن أرتاخ الواقع على الطريق إلى أنطاكية .

وظل روجر طوال الليل قلقاً يتوقب أخبار تحركات المسلمين ، وهب الجنود من راحتهم على صوت رجل يسير في نومه ، يجري في اتجاه المعسكر صائحاً إن كارثة قد حلت بهم . وفي فجر يوم ٢٨ يونية أعلن الكشافون للأمير أن المعسكر محاصر . وهبت من الجنوب رياح الخماسين الجافة التي تبعث الوهن في الأبدان ، ولم يكن في المعسكر نفسه سوى القليل من الطعام والماء ، ورأى روجر الإنذاع خلال صفوف العدو أو

الملاك . وكان بطرس رئيس اساقفة القاميا ومن قبل رئيس اساقفة . . . مع الجيش . وهو أول أسقف فرنجي في الشرق . قام بجمع الجنود في حب واحد والقي فيهم موعظة وأخذ اعترافاتهم جميعا ، وأخذ اعتراف روجر في خيمته . . . مسحة العفران للكثير من آثام بدنه . ثم إن روجر أعلن في ثبات انه ذاهب للصيد . إلا أنه أرسل أولا فرقة أخرى من الكشافين وقعت في كمين ، وهربوا قليل من أفرادها نحو مس الكمين عائدون إلى المعسكر معلنين أن لا سبيل لاختراق الحصار . وقسم روجر الجيش إلى أربعة أقسام وقسم حامس احتياطي ، وعلى الأثر باركهم رئيس الأساقفة مرة أخرى وانطلقوا في كامل النظام في هجومهم على الأعداء .

على أنه كان هجوما يائسا من بدايته . ولم يكن هناك مهرب من جحافل الخيالة والرمات الزركمان . فكان أول من أصيب بالذعر من بين الفرنج . المشاة المخدس من السريان والأرمن ، لكن لم يكن هناك ملجأ يهربون إليه ، فتراجعوا فيما بين الفرسان ، وبذا أعاقوا الجياد ، وتحولت الرياح فجأة شمالا وزاد هبوبها حاملة معها سحب الأتربة تلقى بها في وجوه الفرنج . وفي مستهل المعركة تمكن عدد بقل من فرسان الفرنج من اختراق صفوف الزركمان ، وانضموا إلى روبرت (أوف فيه بون) الذي كان عائدا من الأتارب للاستزاد في القتال ، ولكن بعد فوات الأوان ، وهربوا جميعا إلى انطاكية . وبعد ذلك بقليل ، تمكن ريتالد مازوار وفرسان قليلون من الحسب والوصول إلى مدينة سرمدا الصغيرة في السهل . ولم يبق على قيد الحياة أحد غير هؤلاء من جيش انطاكية . وسقط روجر نفسه قتيلاً عند قاعدة صليبه الضخم المرصع بالمجوهرات، وسقط حوله فرسانه عدا القليل الذين كانوا أقل حظاً، إذ أخذوا أسرى . وبانتصاف النهار كان كل شيء قد انتهى . ويطلق الفرنج على هذه المعركة Ager Sanguinis ، بحر الدم<sup>(١٤)</sup>

#### ١١١٩ م : ايلغازي ضيق انتصاره

وفي حلب ، التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلا ، لبث المسلمون يترقبون الأنباء في

(١٤) ( Walter the Chancellor, ii, 2-6, pp. 101-11 الذي يورد أكثر فروقات اكتمالا . William of Tyre. ii 9-10. pp. 523-6; Fulcher of Charters, iii, iii, 24, pp. 621-3 )  
قصيرا يقول فيه ان الكارثة سببها غضب الرب مما اعتاده روجر من ارتكاب القسوة ( Matthew of Edessa. ccxcvi pp 276-7, Michael the Syrian, iii, p. 204; Ibn al-Qalanisi, pp. 159-61. Kemal ad-Din pp. 616-18. Usama, ed Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 324-5.  
يقول فولشر ان خسائر الفرنج بلغت سبعة آلاف وخمسمائة لآثر تاجه . عند .

قلق . وفي وقت الظهر تقريباً جاءت شائعة بأن نصراً مؤزراً قد تحقق للإسلام ، وفي لحظة الأذان لصلاة العصر شوهد أول المنتصرين وهم يقتربون . ولم يمكث البلغازي في أرض المعركة إلا لتوزيع الغنائم على رجاله ، ثم سار إلى سرمدا حيث استسلم له رينالد مازوار . وتأثر البلغازي من هيئة رينالد التي بدت رابطة الجنان ، فأبقى على حياته . وسحب المنتصرون الأسرى الفرنج وراعيهم عبر الوادي ، وراح الزكمان يهذبونهم ويقتلونهم في حدائق الكروم إلى أن أمر البلغازي ، الذي كان يفاوض رينالد في تلك الأثناء ، بالكف عن ذلك ، لأنه لم يشأ حرمان سكان حلب من مشهد الأسرى . وسبق من تبقى إلى حلب التي دخلها البلغازي المنتصر وقت الغروب ، وهناك عذبوا حتى الموت في الشوارع<sup>(١٥)</sup>.

وفي الوقت الذي كان البلغازي يحتفل فيه بانتصاره ، وصلت انطاكية الأنباء المزعجة عن المعركة ، وتوقع الجميع وصول الزكمان لمهاجمة المدينة التي خلعت عن يدافع عنها من الجنود . وفي خضم الأزمة تولى البطريق برنارد القيادة . وأول ما كان يشاء خيانة المسيحيين المحليين الذين ذاقوا من أفعاله بهيم الأمرين قياتراً مغتربين بين أهل انطاكية ، فأرسل في الحال من يبردونهم من السلاح وفرض عليهم أسراً بمخطر التحول . ثم قام بتوزيع ما جمعه من سلاح على رجال الدين الفرنج والتجار ووضعهم على الأسوار للمراقبة . وظلوا في حالة تأهب ليلاً ونهاراً ، بعدما أرسلوا رسولاً إلى الملك بلدوين كي يسرع الخطى<sup>(١٦)</sup>.

على أن البلغازي لم يتابع انتصاره . وإنما كتب إلى عواهل العالم الإسلامي يخبرهم بنصره ، ورد عليه الخليفة بأن أهده رداء الشرف ولقب نجم الدين<sup>(١٧)</sup> . وفي تلك الأثناء سار إلى ارتاح حيث كان أحد الأساقفة قائداً لأحد أبراجها ، فقام بتسليمه إلى البلغازي مقابل رحيله إلى انطاكية سالماً . غير أن رجلاً معيناً يدعى يوسف ، ربما كان من الأرمن ، ومسؤولاً عن القلعة التي تحوي ثروة ووجس ، اقنع البلغازي بتعاطفه مع المسلمين لولا أن ابنه محتجز في انطاكية كرهينة . فتأثر البلغازي بالقصة وعهد إلى يوسف هذا بالمدينة واكتفى بإرسال أحد أمرائه للإقامة كممثل له في المدينة<sup>(١٨)</sup> . وعاد

(١٥) Kemal ad-Din, *loc. cit.*; Walter the Chancellor, II, 7, pp. 111-113.

(١٦) Walter the Chancellor, II, 8, pp. 114-115.

(١٧) Ibn al-Athir, p. 332.

(١٨) Walter the Chancellor, II, 8, p. 114.

من ارتاح إلى حلب حيث توالى عليه سلسلة من الاحتفالات إلى أن ساءت صحته وبدأت معاناته . وأرسل جنود الزكمان للإغارة على ضواحي أنطاكية ونهب ميناء السويدية ، لكن التقارير أفادت وجود حاميات قوية في المدينة . وهكذا ضيق المسلمون ما فازوا به من ثمار معركة بحر الدم<sup>(١٩)</sup>.

ومع ذلك كان الموقف حسيما للفرنج . فقد وصل بلدوين اللاتينية ، وبونز وواه على مقربة ، قبل أن يعلم النبا . فغذ السير ولم يتوقف حتى لمهاجمة معسكر للزكمان بلا حماية بالقرب من الطريق ، ووصل أنطاكية دون حادثة في الأيام الأولى من أغسطس . وكان البلغازي قد أرسل بعض جنوده لاعتراض الجيش النقيذ ، واضطر بوتز الذي كان خلف بلدوين بمسيرة يوم إلى تفادي هجومهم ولم يتأخر كثيرا . واستقبل الملك استقبالا سارا من اخت الأميرة سيثيليا الأرملة ، ومن الطريق ، ومن كل الناس . وأقيم قداس شكر للرب في كاتدرائية القديس بطرس . وبدأ بتطهير الضواحي من المغيرين ، ثم قابل وجهاء المدينة لمناقشة حكومتها في المستقبل . وكان الأمير الشرعي ، بوهمند الثاني ، الذي كان روجر دائم الاعتراف بحقوقه ، صيا في العاشرة من عمره يعيش مع أمه في إيطاليا ، وليس هناك من يقى لتمثيل البيت النورماندي في الشرق ، إذ هلك الفرسان النورمانديون جميعا في معركة بحر الدم . فتقرر أن يتولى بلدوين نفسه ، باعتباره السيد الأعلى للشرق الغربي ، حكومة أنطاكية إلى أن يبلغ بوهمند سن الرشد ، وأن يتزوج بوهمند واحدة من بنات الملك . ثم قام الملك بإعادة توزيع إقطاعيات الإمارة التي تركتها الكارثة بلا أصحاب . وتقرر ، بقدر الإمكان ، أن تتزوج المزمولات اللاتي سقط أزواجهن في المعركة من فرسان بناسيهن من جيش بلدوين أو من الواقدين الجدد من الغرب . ونجد الأرملة الأميرة أرملة تنكريد ، التي أصبحت كونتيسة طرابلس ، وأرملة روجر ، وقد أصبحتا زوجتين لتابعين جديدين للملك على أراضيها التي هي بمثابة المهر لكل واحدة منهما . وفي ذات الوقت ، يرجع أن بلدوين أعاد ترتيب إقطاعيات كونتية الرها ، وتقرر رسميا تعيين جوسلين ، الذي تبع الملك من فلسطين ، كونت الرها . وبعد أن اطمأن بلدوين لإدارة البلاد ، تقدم موكبا من حفاة الأقدام إلى الكاتدرائية ، ثم قاد جيشا مولفا من نحو سبعمائة فارس وبضعة آلاف من المشاة للملاقاة المسلمين<sup>(٢٠)</sup>.

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 332-3. (٢٠) البلغازي إذا ما شرب الخمر يفل بشر بأنه مخمور مدة عشرين يوما.

(٢٠) Walter the Chancellor, ii, 9-10, pp. 115-18; Fulcher of Charters, iii, vii, 13, pp. 633

## ١١١٩ م : معركة مُحكمة في هاب

والآن انضم طغتكين إلى ايلغازي ، وانطلق الزعيمان يوم ١١ أغسطس للاستيلاء على الحصون الفرنجية الواقعة شرقي نهر العاصي ، بدءا بالأنبار التي استسلمت حاميتها في الحال مقابل المرور الآمن إلى أنطاكية . وفي اليوم التالي واصل الأسيران الزحف على زردنة التي سبق أن غادرها أميرها ، روبرت المحزون ، إلى أنطاكية ، ومرة أخرى استسلمت الحامية في مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ، لكن التركمان قتلوهم فور خروجهم من البوابات . وكان بلدوين يأمل في انقاذ الأنبار ، لكنه ما أن عبر الجسر الحديدي حتى قابل حاميتها . فانتقل جنوبا وسمع بحصار زردنة ، لكنه ارتاب في أن المسلمين يترون التحرك جنوبا لتطهير الحصون المحيطة بمعرة النعمان وأفاميا ، فسارع بالانطلاق قداما وضرب معسكره في الثالث عشر في تل دانيث ، في نفس مسرح انتصار روجر عام ١١١٥ م . وعلم في الصباح التالي أن زردنة قد سقطت ورأى من المحكمة التقهقر قليلا ناحية أنطاكية . وفي تلك الأثناء جاء ايلغازي وفي مأموه مباغتة الفرنج وهم نيام بالقرب من قرية هاب . غير أن بلدوين كان مستعنا . إذ أدل باعترافه ، وألقى رئيس اساقفة قيسارية موعظة في الجنود ثم رفع الصليب الحقيقي ليباركهم ، وأصبح الجيش على استعداد للقتال.

وساد الاضطراب المعركة . إذ ادعى كل من الجانبين الانتصار ، على أن الفرنج هم الذين فازوا في الواقع . فقد دحر طغتكين بونز أمير طرابلس في ميمنة الفرنج ، لكن جنود طرابلس حافظوا على صفوفهم . وإلى جانبه هاجم روجر المحزون كتيبة حمص وقد عقد العزم على استعادة زردنة ، لكنه وقع في كمين ويات أسيرا . وصمدت ميسرة الفرنج وقلبه ، وفي اللحظة الحاسمة تمكن بلدوين من رمي الأعداء بجنود جدد ، فاستدار عدد من التركمان وهربوا . على أن أغلب جيش ايلغازي غادر ساحة القتال في نظام جيد . وعاد ايلغازي وطغتكين باتجاه حلب ومعهما صفوف ضخمة من الأسرى ، واستطاعا أن يثيرا العالم الاسلامي أن النصر كان حليفهما . ومرة أخرى أبهج سكان حلب مشاهدة مجزرة للمسيحيين بالجملة ، إلى أن أبدى ايلغازي امتعاضه ، لخسارة الفدية التي كانت يمثل هذا المال الكثير بعد أن أوقف القتل وشما يجرب جنودا

Orderic Vitalis (xii, 25, vol. iv, p. 245); يذكر كوردريك غيتليس أن سيشيليا ، كوتيسة طرابلس ، كانت تستنصر الفرسان بالاقطاع . واستنمرت كرملة روجر بالاقطاع فرسانا في عام ١١١٦ م. (Rhrich, Regesta, Additamenta, p. 9) وربما انتقلت في ذلك الوقت مرعش من سيادة أنطاكية إلى سيادة الرها.

حديثاً. وشئ روبرت المهزوم عن ثمن فديته فرد قائلا انها عشرة آلاف قطعة ذهبية ، فأرسله البلغازى إلى طغتكين أملا فى رفع السعر ، لكن طغتكين لم يكن قد روى بعد ظمأه من الدماء . ورغم أن روبرت كان صديقا قديما لطغتكين منذ أيام ١١٥١ م ، إلا أن هذا الأخير أطاح رأسه بنفسه ، مما تسبب فى امتعاض البلغازى الذى كان يريد مبلغ الفدية تسديدا لرواتب جنده<sup>(٢١)</sup>.

ووصل إلى انطاكية من فر من جيش بونز حاملين معهم أنباء الفزيمة ، لولا أن وصل رسول أرسلته الأميرة سيشيليا ومعه خاتم الملك برهانسا على نجاحه . ولم يحاول بلدوين نفسه ملاحقة جيش المسلمين ، وإنما اتجه جنوبا إلى معرة النعمان و إلى الروج التى استولى عليها بنو متقذ . فأخرجهم منها لكنه أبرم معهم معاهدة يعفيهم فيها من دفع الجباية السنوية التى سبق أن طلبها روجر . واسترد ما استولى عليه المسلمون من حصون فيما عدا البيرة والأناثرب وزردنة ، ثم رجع بلدوين إلى انطاكية فى موكب المنتصرين ، وأرسل الصليب المقدس جنوبا ليصل القدس فى الوقت المناسب لعيد ظهور الصليب يوم ١٤ سبتمبر<sup>(٢٢)</sup> وأمضى هو نفسه الحزيف فى انطاكية يستكمل ما بدأه قبل المعركة من ترتيبات . وفى ديسمبر عاد إلى القدس تاركاً البطريرك برنارد لمباشرة حكومة انطاكية نيابة عنه ، بعد أن نصّب جوسلين فى الرها<sup>(٢٣)</sup> واصطحب معه إلى الجنوب زوجته وبناته الصغيرات اللاتي حضرن من الرها . وفى احتفالات عيد الميلاد فى بيت لحم تزوجت زوجته مورفيا ملكة<sup>(٢٤)</sup>.

#### ١١١٩ م : فشل حملة الأراقة

ولم يجازف البلغازى بمهاجمة الفرنج مرة أخرى ، إذ كان جيشه ينقلص شيئا فشيئا. فقد جاء جنود الزكمان من اجل الأسلاب فى المقام الأول ، وبعد معركة تيل دانيت بقوا بلا عمل وقد نال منهم الضجر وروايتهم تأخر سدادها ، فشرعوا فى العودة إلى

(٢١) Walter the Chancellor, II, 10-15, pp. 118-28; William of Tyre, XII, 1112, pp. 527-30; Kemal ad-Din, pp. 620-2; Usama, ed.Hitti, pp. 14950.

(٢٢) (المزحم) عيد ظهور الصليب Exaltation of the Cross ، عيد يحتفل فيه بذكرى ما اشتهر من ظهور الصليب للامبراطور قسطنطين ، واستوداده فيما بعد من الفرس.

(٢٣) Walter the Chancellor, II, 16, pp. 129-31; William of Tyre, XII, 12, p. 530.

(٢٤) Fulcher of Charters, III, vii, 4, p. 635; William of Tyre, XII, 12, p. 531

بلادهم ومعهم زعماء العرب من أبناء الجزيرة ، ولم يكن يوسع ايلغازي منهم من العودة ، إذ سقط هو نفسه مريضا مرة اخرى وظل يتأرجح بين الحياة والموت لأسبوعين ، وعندما برأ من مرضه كانت فرصة إعادة جمع الجيش قد وُتت ، فغادر حلب عائدا إلى عاصمته الشرقية في ماردين ، وعاد طغتكين إلى دمشق<sup>(٢٥)</sup>.

وهكذا أخفقت الحملة الأرتقية الضخمة ولم تحقق شيئا ملموسا للمسلمين ، فيما عدا حصون حدودية قليلة وتخفيف الضغط الفرنجي على حلب . بيد أنها كانت نصرا معنويا عظيما للإسلام . ولم يكن صلحهم في معركة تل دانيت تعويضا يوازن الانتصار الرائع في معركة بحر الدم . ولو كان ايلغازي أكثر قدرة وبقطة لنجاز بأنطاكية . إذ أن ما حدث من قتل الفرسان النورمانديين وأميرهم على رأسهم ، قد شجّع أسراء الجزيرة وشمال العراق على تجديد هجماتهم ، ولأسيما وأنهم قد تحرروا مما كان سيدهم الأعلى السلجوقي في فارس يمارسه عليهم من وصاية إسمية . وسرعان ما كان مقدرا أن يظهر رجل أعظم من ايلغازي . وأما الفرنج ، فكانت أسوأ نتائج الحملة هي خسارتهم الفادحة من الرجال . فليس من اليسر تعويض من سقطوا في معركة بحر الدم من الفرسان ، والأكثر من المشاء . على أن الفرنج لقنوا الدرس جيدا الآن وهو أن فرنج الشرق ينبغي لهم أن يتعاونوا دائما وأن يعملوا معا متحدين . فقد أنقذ الملك بلدوين أنطاكية بتدخله الفوري ، وتحقق ما أملتة ظروف الساعة من استعداد الفرنج كافة لقبول الملك على أنه السيد الأعلى النشط . لقد أحدثت الكارثة رتقا فيما أقامه الفرنج في سوريا.

وبعد أن عاد بلدوين إلى القدس راح يشغل نفسه بإدارة مملكته . فاستخلف على إمارة الجليل وليم (أوف بور) وبقيت الإمارة في أسرته . وفي يناير ١٢٠١م استدعى الملك رجال الكنيسة وكبار حائزي الأراضي في المملكة لحضور مجلس عقد في نابلس لمناقشة النهوض بأخلاقيات رعاياه ، وربما كان ذلك محاولة منه لكبح ما كان يميل إليه المستعمرون اللاتينيون في الشرق مما وجدوه من اعتياد الخاخي واليسر ، كما كان مهتما في الوقت ذاته برفاهيتهم المادية . إذ أنه في ظل بلدوين الأول وجد عدد متزايد من اللاتينيين تشجعا على الاستقرار في القدس ، فبدأ ظهور طبقة بورجوازية لاتينية آخذة في التضخم شيئا فشيئا إلى جانب المحاربين ورجال الدين في المملكة ، والآن حصلت هذه الطبقة البورجوازية على كامل حرية التجارة من وإلى المدينة ، وفي الوقت

(٢٥) Walter of Chancellor, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, p. 161; Kemal ad-Din, pp. 624-5.



ذاته ، ولضمان الامدادات الكاملة من الطعام ، شُحح للمسيحيين الوطنيين ، بل للتجار العرب استحلاب الخضروات والحبوب معفاة من الرسوم الجمركية<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١١١٨-١١٢٠م: بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان

كان أهم حدث داخلي في تلك السنوات هو إرساء القواعد لأنظمة دينية عسكرية للرهبان الفرسان . ففي عام ١٠٧٠م قام بعض المواطنين الأتقياء من مدينة أمالفي بإنشاء نُزُل في القدس لإيواء الفقراء من الحجاج ، وقد سمح الحاكم المصري آنذاك للقنصل الأمالفي باختيار موقع مناسب ، وكرست المنشأة للقديس يوحنا المتصدق Saint John the Almsgiver ، وهي بطريق الاسكندرية الحثري في القرن السابع . وكان موظفو النُزُل من أبناء أمالفي أصلاً ، وكانوا قد أخذوا على أنفسهم العهود الرهبانية ، ويخضعون لتوجيهات "السيد" الذي كان يخضع بدوره للسلطات البندكتية في فلسطين<sup>(٢٧)</sup> . وفي وقت استيلاء الصليبيين على القدس كان "السيد" رجلاً يدعى جيرارد Gerard ، وربما كان من أبناء أمالفي . وقبل بدء حصار القدس نفاه حاكم القدس المسلم من المدينة هو ورفاقه في الدين ، فأفاد الصليبيون من معلوماته القيمة عن الأحوال الداخلية في المدينة . وقد حث الحكومة الفرنجية الجديدة على منح الهبات للمستشفى ، وانضم الكثير من الحجاج إلى موظفيه الذين سرعان ما تحرروا من إطاعة تعليمات البندكتيين ، وراحوا يجمعون الأموال كي يستقل النظام بنفسه تحت اسم "أصحاب المستشفى" the Hospitallers ، ويدينون بالطاعة للبابا مباشرة . وتخلعت عليه المزيد من الأراضي ، وقدم له أغلب كبار رجال الدين في المملكة عشور ايراداتهم . ومات جيرارد حوالي عام ١١١٨م وخلفه الفرنسي ريموند أوف لو بوي Raymond of Le Puy ، الذي كانت لديه أفكار أكثر . فاستقر رأيه على أنه لا يكفي لنظامه مجرد إرشاد الحجاج واستضافتهم ، وإنما ينبغي للنظام أن يحارب كي تظل طرق الحج مفتوحة . وكان النظام يضم إخوة كانت واجباتهم سلمية محضة ، بيد أن واجباتهم تحولت الآن إلى رعاية مؤسسة من الفرسان الملزمين بعهود دينية تلزمهم بالبقاء في حالة

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 20; Mansi, *Concilia*, vol. xxi, pp. 262-6; William of Tyre, xii, xiii, p.531.

(٢٧) (المترجم) التسمية مشتقة من اسم الراهب الإيطالي القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٤٣م). وهو مؤسس النظام البندكتي ويوم أحياء ذكره ١١ يولية. ويسمى أيضا القديس بندكت النورسياني St. Benedict of Nursia

من الفقر الشخصي والعفة والطاعة ، وتكريس حياتهم لقتال الكفرة . وفي ذات الوقت على وجه التقريب ، وكما لو كان الأمر إعلاناً للمركز الأكبر "للمستشفى" ، ودون أن يلحظ أحد ، استعُض عن اسم القديس "يوحنا" المتصدق المعلن عنه قديماً راعياً للنظام ، بالحواري "يوحنا" الرسول . ويميز فرسان المستشفى بعلامة صليب أبيض يضعونها على أردبتهم الكهنوتية فوق لباسهم الحربي.

وساعد على هذا التحول إنشاء فرسان المعبد في ذات الوقت . وفي واقع الأمر ، فإن فكرة وجود نظام يجمع بين الجانبين الديني والعسكري ربما تكون قد نعت في ذهن فارس من مقاطعة شامانيا يدعى هيو اوف باين Hugh of Payens كان قد حث الملك بلدوين الأول عام ١١١٨م على السماح له بأن يستقر مع بعض رفاقه في جناح القصر الملكي ، المسجد الأقصى سابقاً ، في منطقة المعبد . وكشأن فرسان المستشفى ، اتبع فرسان المعبد بادئ الأمر النظام البينديكتي ، غير أنهم رشحوا أنفسهم في الحال تقريباً كنظام مستقل ، بثلاث طبقات : الفرسان ، على أن يجرى في عروقهم جميعاً دم النبلاء ، وضباط النظام ، الآتين جميعاً من الطبقة البورجوازية ، وكانوا هم سائس الخيول والخدم المشرفين لخدم النظام ؛ ورجال الدين ، الذين كانوا القسوس الرعاة المسؤولين عن المهام غير العسكرية . وكانت العلامة التي يميز أعضاء المعبد هي صليب أحمر يوضع على رداء أبيض بالنسبة للفرسان ، وعلى رداء أسود بالنسبة لضباط النظام . وكان أول واجب أخذ عليه القسم لهذا النظام هو الحفاظ على الطريق من الساحل حتى القدس نظيفاً من قطاع الطرق ، لكنهم سرعان ما أصبحوا يشتركون في أية جملة حرية تشترك فيها المملكة . وأمضى هيو نفسه الكثير من وقته في أوروبا الغربية يجند المبتدئين لنظامه.

ومنح الملك بلدوين النظاميين العسكريين كامل مساندته . وكانا مستقلين عن سلطته ولا يدينون بالولاء إلا للبابا . وحتى الإقطاعيات الضخمة التي بدأ يخلعها عليهما هو وأتباعه لم تكن تنطوي على أي التزام بالحرب في جيش الملك ، غير أن أجيال قد مضت قبل أن يصيب النظامان من الثراء ما يكفيهما لتحدي السلطة الملكية . وفي الوقت ذاته ، كانا يزودان المملكة بما كانت في حاجة ماسة إليه ، ألا وهو جيش نظامي بجنود مدرين ، مكفول وجوده المستديم . وفي الإقطاعيات الدنيوية ، إذا مات فجأة صاحب الإقطاعية ، فقد يترتب على انتقال الإقطاعية إلى امرأة أو إلى طفل ، أن يحدث توقف في إمداد الجنود ويتكرر تورط الملك في أعمال مضطربة ومصالح مختلفة . كما لا يستطيع الاعتماد على تعويض من مات من اللوردات ، بغيرهم من الوافدين

الجلد من الغرب كلما احتاج اليهم . لكن الأنظمة العسكرية ، بتنظيمها ذي الكفاءة ، وما لها من فتنة ومهابة تتخلل العالم المسيحي الغربي ، تستطيع أن تضمن إمدادا منتظما من المقاتلين المكرسين ، الذين لن تلهيهم أطماع أو مكاسب شخصية<sup>(٢٨)</sup>.

وفي عام ١١٢٠م عاد بلدوين إلى أنطاكية . إذ أن بلاق وإلى ايلغازي على أنارب، بدأ يغير على الأراضي الانطاكية بينما زحف ايلغازي نفسه على الرها . وضدت الغارتان كلاهما، على أن ايلغازي اقترب من حوار انطاكية ، فتوترت أعصاب البطريرق برنار وارسل إلى القدس ، إلى الملك بلدوين . وفي يونية شرع بلدوين في مسيرته شمالا ، حاملا معه مرة أخرى الصليب الحقيقي ، مما سبب الأسى لكنيسة القدس التي كانت نافرة من أن ترى مثل هذا الأثر الثمين يتعرض لمخاطر الحرب . ورحل البطريرق جورموند نفسه مع الجيش ليكون مسؤولا عن هذا الأثر . وعندما وصل بلدوين إلى الشمال وجد أن ايلغازي ، الذي أضعفه انصراف جنوده التركمان ، قد انسحب فعلا ، وشعر المسلمون بالخطر حتى أنهم استدعوا طغتكين إلى حلب . واتساء الحملة التي تلت تبادل كل من الطرفين الكر والفر حتى أنهك المسلمون في نهاية الأمر وانسحب طغتكين إلى دمشق ، وعقد ايلغازي هدنة مع بلدوين . وتحدد خط حدود يفصل منطقة نفوذ كل منهما ، فقطع هذا الخط في مكان ما (طاحونة) إلى نصفين ، وفي مكان آخر قسم الخط حصنا إلى نصفين ، وهدمت المباني برضاء الطرفين ، وأما زردنا التي بقيت حيا اسلاميا فقد جردت من تجهيزاتها العسكرية<sup>(٢٩)</sup> . وفي وقت مبكر من الربيع التالى عاد بلدوين إلى القدس بعد أن فاز بنصر معنوي لم تسفك فيه الدماء . وكان مطلوبا في الجنوب ، إذ اعتقد طغتكين أنه في كامل انشغاله في الشمال ، فأغار بغارات مكثفة في الجليل . وفي شهر يولية ١١٢١م ، انتقم بلدوين بعبوره نهر الأردن وانهب الجولان ، واحتل حصنا ثم دسره ، وكان طغتكين قد بناه في

(٢٨) عن الأنظمة العسكرية انظر (William of Tyre, xii, 7, pp. 520-1) (فرسان المعبد) و (xviii, 4, pp. 822-3) (فرسان المستشفى) . وللاطلاع على مقالات عصرية حيدة انظر Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers en Terre Sainte*; Curzon, *La Règle du Temple*; Melville, *La Vie des Templiers*. ويورد ميخائيل السوري مقالا كاملا عن فرسان المعبد ومبهم (الإخوة الفرنج 201-3, pp. 217-25) انظر أيضا.

(٢٩) Fulcher of Charters, iii, ix, 1-7, pp. 638-42; Walter the Chancellor, ii, 16, p. 131; -Matthew of Edessa, cccxx, pp. 302-3; Michael the Syrian, iii, pp. 205-6; Kemal ad -Din, p. 627; Ibn al-Qalanisi, p. 162; Grousset, *op. cit.* i, p. 574, يذكره ميخائيل السوري، فيحفظ بين بلاق وملك ابن ابي ايلغازي، الذي كان آنذاك في حملة بعده إلى الشمال (ابن القلايسى، المرجع السابق).

جورجيا<sup>٣٠٠</sup> وهي تلك الأثناء كان جوسبر تبنى لمار غزوة ناححة في أراضي ابلغازي  
في «خبرية»<sup>(٣٠١)</sup>

#### ١١٢١م - الحملة الصليبية الجورجية

ظهر خلال صيف ١١٢١م ظهر عامل جديد ترك بصماته على السياسات الشرقية فعلى مسافة بعيدة إلى الشمال ، عند سفوح الجبال القوقازية ، فرض ملوك جورجيا (الكرج) البحريون سلطانهم على الشعوب المسيحية التي كانت ما تزال مستقلة عن السيادة الإسلامية ، ووسع الملك داود الثاني سلطته إلى جنوب وادي الرّس حيث أصبح في نزاع مع الأمير السلجوقي طغرل ، أمير أرّان . وبعد هزيمة طغرل من قوات داود ، وجّه طغرل الدعوة إلى ابلغازي كي يشترك معه في حرب مقدسة ضد الملك المسيحي قليل الأدب . وكانت الحملة التي تلت بمثابة كارثة للمسلمين ، وفي أغسطس ١١٢١م ، كاد الجورجيون أن يثبتوا شأفة الجيش المتحد بين طغرل وبلغازي ، وبما ابلغازي نفسه بشق الأنفس وهو يهرب عائدا إلى ماردين . وتمكن الملك داود من ترسيخ دعائم ملكه في العاصمة الجورجية القديمة تفليس ، وبحلول عام ١١٢٤م استولى على شمال أرمينيا والخاصرة آني ، وهي موطن أسرته القديم . ومنذ آنذاك والعالم التركي كله يدرك إدراك اليأس للخطر المائل عليه من جورجيا بموقعها الاستراتيجي الرائع بل أن هذا الخطر لم تخف حدته بموت داود الثاني عام ١١٢٥م<sup>(٣٠٢)</sup>، إذ ورت خلفاؤه شدته وكانت شجاعتهم، التي أبقت المسلمين في حالة عصبية دائمة إزاء جبهتهم الشمالية ، ذات قيمة عظيمة للفرنج على الرغم مما يبدو من عدم اتصال مباشر بين القوتين المسيحيتين ، إذ كان الجورجيون مرتبطين ببيزنطة بروابط الدين والتقاليد ، ولا شعور بالود لديهم نحو الفرنج ، فضلا عن أن ما لقيته مؤسساتهم في القدس من برود المعاملة لم تكن لتدخل السرور على مثل هذا

<sup>(٣٠٠)</sup> Fulcher of Charters, iii, x. 1-6, pp. 643-6

<sup>(٣٠١)</sup> Ibn al-Qalanisi, *op. cit.* p. 163; Kemal ad-Din pp. 623-6

<sup>(٣٠٢)</sup> *Georgian Chronicle* (in Georgian), pp. 209-10 215; Matthew of Edessa ccxxxv-11 cccxcix, cccliii, pp. 303-5, 310-1 313-14; Ibn al-Qalanisi, p. 164 Ibn al-Athir pp. 330-2; Kemal ad-Din, pp. 628-9 Walter the Chancellor 16 p. 130; Michael the Syrian, iii, p. 206

الشعب المتكبر<sup>(٣٣)</sup>.

ومع ذلك ، وجد بلدوين أن مصير ايلغازي بات تحت رحمة الجورجيين ، وفي ذلك فرصة لم يدعها تفلت منه . ذلك أن ايلغازي عين ابنه سليمان مؤرخاً والياً على حلب ، لكن هذا الابن الطامش انتهز هزيمة والده وأعلن استقلاله ، وكما وجد نفسه عاجزاً عن التصدي للهجوم الذي شنه عليه بلدوين على الفور، تصالح مع الفرنج متنازلاً لهم عن زردنه وأتارب ، وهما حمرة انتصار أبيه ايلغازي . فسارع ايلغازي إلى معاقبة ولده العاق ، ولكنه ارتأى من الحكمة تأييد المعاهدة مع بلدوين ، الذي عاد إلى القدس وقد نال منه السرور بمحصاة ذلك العام<sup>(٣٤)</sup>.

وفي وقت مبكر من عام ١١٢٢م ، خلع بونز ، كونت طرابلس ، فجأة ولاءه للملك . ولستأ نعرف سبب هذا العصيان ، فيصعب أن نفهم ما هي المساعدة التي كان ينتظرها لكي يحتفظ بولائه للملك . وقد حنق بلدوين واستدعى أتباعه على الفور للحضور ومعاقبة العاصي . وسار الجيش الملكي من عكا، وباقتزابه من بونز استسلم وغفر له<sup>(٣٥)</sup> . بيد أن استسلامه كان مؤقتاً ، إذ أن ايلغازي كان على شفا الحرب مرة أخرى بعد أن حرّضه ابن أخيه بملك ، الذي كان أميراً على سروج والآن حاكم عازريت . وعندما علم بلدوين بتلك الأنباء رفض أن تصديقها، فقد وقع معاهدة مع ايلغازي وهو يعتقد أن السيد المذهب - ويستخدم المؤرخ العربي كلمة "شيخ" - يحافظ على كلمته، لكن ايلغازي لم يكن سيداً مهذباً ، وقد وعده طغتكين بالمساعدة . فحاصر زردنا التي سبق أن أعاد الفرنج تشييدها ، وكان قد استولى على جزء من التحصينات عندما اقرب بلدوين . وتلى ذلك حملة بدون معركة ، إذ لم يشأ بلدوين أن يستدرج إلى كمين بما اعتاده الترك من التظاهر بالحرب كخدعة عسكرية . ومرة أخرى، كان المسلمون هم أول من سأم الكر والفر ، فعادوا إلى بلدهم . وأرسل بلدوين الصليب الحقيقي إلى القدس وهو مرتاح البال ، وذهب هو نفسه إلى

(٣٣) عن المؤسسات الجورجية في القدس ، انظر Georgian Chronicle, pp. 222-3 and Brosset, *Rey, Les Additions et Eclaircissements*, x, pp. 197-205. وترد ملاحظات موجزة في *Colonies Franques*, pp. 93-4. ومن الجدير أن يكون التهديد الجورجي المستمر للأراضي والساحقة في بوسارمينيا، قد ساعد بصورة غير مباشرة في تعاضد قوة زنكي.

(٣٤) Kemal ad-Din, p.629; Ibn al-Athir, pp. 340-50.

(٣٥) of Charters, iii, xi, pp.647-8; William of Tyre, xii, 17, pp. 536-7.

## ١١٢٢ م : الكونت جوسلين يقع أسيراً

قبل وصول الصليب الحقيقي إلى القدس ، وصلت من الرها أنباء سيئة . ففي ١٣ سبتمبر ١١٢٢م ، كان الكونت جوسلين وواليران أمير البيرة على حواذيهما مع قوة صغيرة من الفرسان بالقرب من سروج عندما وجدوا أنفسهم فجأة أمام جيش ملك . فهاجموا الجيش ، لكن الأمطار الغزيرة أحالت السهل إلى بحيرة من الطمي ، فانزلقت الجياد وتعثرت ، ولم يجد التركمان حقيقو التسليح صعوبة في الإحاطة بالفرنجة . وأسر جوسلين وواليران وستون من رفاقهما . وعلى الفور عرض ملك إطلاق سراحهم مقابل التخلي عن الرها . ورفض جوسلين الاستماع إلى هذه الشروط ، اقتاد ملك الأسرى إلى قلته في خرثوت<sup>(٣٧)</sup>.

ولم يكن لأسر جوسلين كبير أثر في القوة البشرية للدويلات الصليبية . فتجدد في الشهر التالي فرسان الرها يغيرون بنجاح على الأراضي الإسلامية . غير أنه كان لطمة للمهاجرة القرشجية أجبرت بلدوين على أن يضيف إلى مشاغله عملاً آخر بأن تولي مرة أخرى إدارة الرها . ولحسن الحظ مات ايلغازي في شهر نوفمبر في ميافارقين ، وقسم أبنائه وأبناء أخوته الميراث الأرمني . فكانت ميافارقين من نصيب سليمان أكبر أبنائه ، وحصل أصغر أبنائه فخرتاش على ماردين ، أما بلسك فقد زاد من أملاكه في الشمال وأخذ حران في الجنوب ، وذهبت حلب إلى ابن أخيه بدر الدولة سليمان<sup>(٣٨)</sup>.

وكان المسلمون قد استردوا انساب مؤخرًا ، وفي إبريل من العام التالي استغل بلدوين ما ساد من اضطراب وحاول إجبار حاكم حلب الجديد الضعيف على تسليمها إلى الأبد . وبعد أن استعاد الملك مدينة البيرة شرع في الرحلة إلى الرها كي يرتب

(٣٦) Fulcher of Charters, III, xi, 3-7, pp. 648-51; Kemal ad-Din, pp. 632-3; Ibn al-Qalanisi, p. 166.

(٣٧) Fulcher of Charters, III, xii, 1, pp. 651-2; Matthew of Edessa, cccxciv, pp. 306-7; Kemal ad-Din, p. 634; Anon. Chron. Syr. p. 90. ويقول تاريخ سوريا المجهول أن جوسلين كان يهضر زوجته إلى البيت ، أعت روجر . ولكن لا توجد إشارة عن اعتقالها ، وحيث أن روجر قد وهب أخته المبات ، فلا بد وأن يكون الزواج قد حدث قبل موت روجر.

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 166; Ibn Hamdun, p. 516; Kemal ad-Din, pp. 632-4; Matthew of Edessa, loc. cit. (يورد ماثيو مقالاً يدل على جهل بالاستعلاء الأرمني).

حكومتها. فوضع جيوفري الراهب ، وهو لورد مرعش، على رأس ادارتها ، ثم مضى مع قوة صغيرة باتجاه الشمال الشرقي كي يستطلع الموضع الذي أسر فيه جوسلين . وفي ١٨ ابريل ضرب معسكره على مسافة غير بعيدة من كركر على نهر الفرات . وبينما كان يتهيأ للاستمتاع برضاة الصباح مع صقره ، غافلاً عن اقترابه من الزكمان، انقضت تلك على المعسكر. وقتل أغلب الجيش، وأسر الملك نفسه ، وعومل باحترام وأرسل تحت الحراسة لينضم إلى جوسلين في قلعة خرتيرت<sup>(٣٩)</sup>.

#### ١١٢٣م : بلدوين وجوسلين يحاولان الحرب من الأسر

ومرة أخرى اجتمع بلدوين وجوسلين في الأسر . لكن الأمر هذه المرة أخطر مما كان عليه عام ١١٠٤م ، إذ أن بلدوين الآن هو الملك ، أي بؤرة الهيكل الغربي كله . وقد برهنت قدرته الإدارية على بقاء الهيكل قائماً ، إذ واصل جيوفري الراهب تدبير حكومة الرها ، وعندما وصلت الأنباء أنطاكية، عاد البطريق برنارد فجعل من نفسه السلطة المسؤولة مرة أخرى . وفي القدس ، أشيع أولاً أن الملك قُتل ، فقام البطريق جورموند باستدعاء مجلس المملكة للاتعداد في عكا . وعندما حان وقت انعقاده انجلست حقيقة وقوعه في الأسر . وانتخب المجلس أيوستاس جارييه ، لورد قيسارية وصيداء كي يعمل نائباً ووكيلاً عن المملكة إلى حين تخليص الملك . وسارت الحياة الإدارية في الأراضي الثلاث دونما عائق<sup>(٤٠)</sup>.

واكتسب الأمير تلك مكانة عليا ، غير انه لم يستغلها في توجيه ضربة قاضية إلى الفرنج، وإنما استخدمها في ترسيخ نفسه في حلب . وكان ذلك عملاً أصعب مما كان يتوقع لأنه لم يكن عبرها هناك . وأصبح سيدها في يونية ، ثم هاجم الممتلكات القرينية الواقعة أكثر إلى الجنوب ، وما أن استولى على البارة في شهر اغسطس حتى اضطر إلى التوجه شمالاً مرة أخرى إثر أنباء جاءت من خرتيرت<sup>(٤١)</sup>.

(٣٩) Fulcher of Charters, iii, xvi, 1, pp. 658-9; William of Tyre, xii, ii, p. 537; Orderic Vitalis, xi, 26, vol. iv, p. 247; Matthew of Edessa, cccv, pp. 307-8; Ibn al-Qalanisi, p. 167; Ibn al-Athir, p. 352.

(٤٠) Fulcher of Chartres, iii, xvi, 1-3, pp. 659-61; William of Tyre, xii, 17, p. 538.

(٤١) Kerman ad-Din, pp. 636-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 167-8. عن استيلاء بلدك على حلب انظر.. 35 n. 296 p. cit. Calen.

ذلك أن جوسلين كان عبرها دائما من الأرمن . وبعد وصوله إلى الشرق سرعان ما حذا حذو بلدوين الأول وبلدوين الثاني وتزوج من فتاة أرمنية هي اخت ثوروس الروبيني، ولم تكن أرثوذكسية المولد - مثل ملكي القدس - ولكنها كانت من أنباغ الكنيسة الأرمنية المستقلة ، ومن ثم كان أغلب أبناء بلدنا يتعاطفون معها تعاطفا عظيما . وقد ماتت الآن ، وتزوج جوسلين مرة أخرى ، على أن علاقته الحميمة بالارمن استمرت ، ولم يُظهر لهم قط ما أظهره سلفه بلدوين الثاني من قسوة . وكانت قلعة خرتيرت واقعة في الأراضي الأرمنية ، ووافق فلاح أرمني على توصيل رسالة إلى أصدقاء جوسلين الأرمن . وجاء خمسون منهم متنكرين إلى قلعة خرتيرت ، وحصلوا على إذن الدخول كي يعرضوا على الحاكم مظلمة لهم باعتبارهم من رهبان وغفار المنطقة . وما أن دخلوا القلعة حتى أخرجوا أسلحتهم من طيات أردبتهم وتكاثروا على رجال الحامية . ووجد بلدوين وجوسلين فجأة أنهما أصبحا سبيدين في سجنهما . وبعد مشاور وجز تقرر أن يغادر جوسلين القلعة ويطلب العون قبل أن يأتي الجيش الأرمني، بينما يحاول بلدوين الحفاظ على القلعة . وتسلل جوسلين مع ثلاثة من رفاقه الأرمن ، وبعدما أفلح في التسلل خلال القنات الذكية المتجمعة ، أرسل أحد رجاله عائدا ليطلب الملك . وانطلق هو نفسه خلال أرض العدو الخطرة ، يحتجب نهارا ويتخبط ليلا في ضجر على قدميه . وأخيرا وصل المزاربون إلى نهر الفرات ، ولكن جوسلين لا يعرف السباحة ، بيد أنه كان يحمل معه قربتين من قرب النبيذ كان يحمل فيهما الماء ، فنقخ فيهما من فمه واستخدمهما كطوافتين ، وتمكن رفيقه ، وهما من السباحين الأقوياء ، من دفعه عبر النهر في الظلام . وفي اليوم التالي وجدهما أحد الفلاحين الذي تعرف على الكونت ورحب به مبهجا ، إذ سبق وأن أعطاه جوسلين بعض الصدقة . وبمساعدة الفلاح وأسرته واصل جوسلين ارتحالته الحزير إلى تل بشير حيث كشف عن نفسه لزوجته وللإلاط . ولم يتوقف هناك وإنما أسرع إلى أنطاكية لجمع الجنود لانتفاذ الملك. لكن جيش أنطاكية كان صغيرا، وكان الطريق برنارد عصيا. وبناء على اقتراحه أسرع جوسلين على حواد يسابق الريح إلى القلنس. وكان أول ما فعله أن قدم قيوده قربانا على مذبح كالفاري (موضع صلب المسيح). ثم استدعى مجلس الفرسان وقص عليهم قصته. ونحس البطريق جورمون والوكيل ايوستاس في جمع الجنود الذين انطلقوا تحت قيادة البطريق جورمون والصليب الحقيقي في المقدمة، باتجاه تل بشير. على أنهم بوصولهم هناك سمعوا أنهم قد وصلوا بعد قوات الأوان.





وهو يتمتع قائلًا إن موته بمثابة ضربة مميتة لكفاح الإسلام . وكان على حق، إذ كان هو الوحيد ، من بين جميع القادة الأتراك الذين جابههم الفرنج ، الذي أظهر أقصى درجات النشاط والحكمة . ولم تستمر قوة الأمانة طويلاً بعده<sup>(٤٣)</sup>.

وفي مملكة القدس نفسها لم يترتب على غياب بلدون في الأسر أي أثر ضار ، وإنما أغوت المصريين بغزو البلاد مرة أخرى . وفي مايو ١١٢٣م تحرك جيش مصري كبير خارجاً من عسقلان إلى يافا . وعلى الفور قاد أيوستاس جارييه جيش القدس للتصدي له ، وذهب معه الصليب الحقيقي ، بينما سار مواطنو القدس المسيحيون وهم حفاة الاقدام في مواكب وتباحية إلى الكنائس . وكانت حوائب الاحتياط المتصفة بالورع هذه مطلوبة ، إذ عندما واجه الفرنج المصريين عند بينه يوم ٢٩ مايو ، استدار المصريون هارين برغم تفوقهم العددي ، تاركين معسكرهم نهياً للمسيحيين<sup>(٤٤)</sup> . وكان ذلك آخر إنجازات أيوستاس الذي مات يوم ١٥ مايو . وحرى على العادة السائدة في المملكة ، اتخذت أرملته من فورها، وهي إما ابنة أخت البطريرك أرنولف الغنية ، زوجها آخر هو كونت يافا ، هيو (أوف لو بواسيه) ، كي لا تحرم أرضها من مستأجر نشط . وأمر مجلس المملكة بنقل منصب وكيل المملكة (كونستابل) إلى وليسم (أوف بور) أمير الجليل<sup>(٤٥)</sup>.

#### ١١٢٣م : وصول أسطول بندقي إلى عكا

في عام ١١١٩م ، وبعد معركة بحرالدم مباشرة ، كتب الملك بلدوين إلى جمهورية البندقية ملتتمساً مساعدتها، فبرغم أن المصريين لا يمثلون خطراً جسيماً على البر ، إلا أن أسطولهم ما يزال يسيطر على غرب فلسطين . وقد عرض على البندقية في المقابل مزايا تجارية ، وعزز البابا هذا الطلب ، وقرر الدوج (رئيس قضاة البندقية) ، دومينيكو ميشيلي ، تلبية هذا الالتماس . ومرت حوالي ثلاث سنوات قبل أن تجهز حملة البندقية .

(٤٣) Fulcher of Chartres, III, xxxi, 1-10, pp. 721-7; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 260; William of Tyre, XII, II, pp. 570-1; Matthew of Edessa, cexl, pp. 311-12; Kemal ad-Din, pp. 641-2; Usama, ed. Hitti, pp. 63, 76, 130; Ibn al-Qalanisi, pp. 168-9 (ولا يذكر ابن قلايس موت ملك).

(٤٤) Fulcher of Chartres, III, xvi, 3-xix, t, pp. 661-8; William of Tyre, XII, I, pp. 543-5.

(٤٥) Fulcher of Chartres, III, xxii, pp. 674-5; William of Tyre, loc. cit. (بواسيه) انظر ادناه ص ١٩١ . تزوج إما قبل ابريل ١١٢٤م (Rohrich, Regesta, p.25).

وفي ٨ أغسطس ١١٢٢ م ، أبحر من فينيسيا ما يزيد كثيرا على مئة سفينة حربية تحمل الرجال والخيول وأدوات الحصار . على أن هذا الأسطول لم يبحر مباشرة إلى فلسطين ، إذ تشاجرت فينيسيا مؤخرا مع بيزنطة بسبب محاولة من الامبراطور جون كومنينوس لتقليل مزاياها التجارية ؛ ولذا توقف البنادقة لمهاجمة جزيرة كورفو البيزنطية . وطوال نحو ستة أشهر من شتاء ١١٢٢-١١٢٣ م ، ضرب الدوج حصارا عقيما على مدينة كورفو . وفي نهاية أبريل ، جاءتهم سفينة مبحرة على عجل من فلسطين لتخبر البنادقة بكارثة الملك . فرغ الدوج الحصار على مضض ، وأخذ معه أسطوله الذي لا يقهر شرقا ، ولم يكن يرقه إلا مهاجمة اية سفينة بيزنطية تقابله . ووصل ميناء عكا في نهاية مايو وسمع أن أسطولا مصرية يبحر في شواطئ عسقلان . فأبحر جنوبا لمقابله ، وأرسل في المقدمة سفنه ذات أسلحة خفيفة كي يوقع الأسطول المصري في كمين . ووقع المصريون في الفخ ، إذ ظنوا أنهم سيحصلون على نصر يسير فأبحروا خارج الميناء ، ليحدثوا انفسهم وقد حوصروا بين أسطولين للبنادقة يفوقانهم عدداً ، ولم تفلت بالكاد من الكارثة أمة سفينة مصرية ، فالبعض غرق ، والبعض الآخر استولى عليه البنادقة ، ثم استولوا في طريق عودتهم على أسطول تجاري قابلهم يتألف من عشر سفن مملوكة عن آخرها<sup>(٤٦)</sup> ، وبذا تعاطم نصرهم .

وكان وجود الأسطول البندقي فرصة لمينة بنبغي انتهازها . ودارت مناقشة حول ما إذا كان يتعين استغلال الأسطول في الاستيلاء على عسقلان أو صور ، وهما القلعتان الإسلاميتان الباقيتان على الساحل . وأيد نبلاء يهودا مهاجمة عسقلان ، وأيد نبلاء الجليل مهاجمة صور . وأخيرا قرر البنادقة مهاجمة صور ؛ إذ أن ميناءها هو الأفضل على طول الساحل ، وهو الآن ميناء الأراضي الدمشقية الغنية ، وهو مركز تجاري أكثر أهمية بكثير من عسقلان ، ففيه مكان رسو مفتوح للسفن ، ومن حوله البلاد الداخلية الفقيرة . على أنهم أصرروا على الثمن الذي يطلبونه . وتطاولت المفاوضات حول الشروط طوال الخريف . وفي عيد الميلاد من عام ١١٢٣ م ، استمتع القادة البنادقة بما اغدقه الصليبيون عليهم من متع القدس ، وحضروا الصلوات في بيت لحم . وفي وقت مبكر من السنة الجديدة تم توقيع معاهدة في عكا بين ممثلي جمهورية البندقية من ناحية ، وبين البطريرك حورمون ، والوكيل ولیم والمستشار باجان باسم الملك الأسير ، من ناحية أخرى . وتقضى المعاهدة بأن يتسلم البنادقة شارعاً بكنيسة ، وحمامات وعسكراً ، معفاة

(٤٦) Fulcher of Chartres, III, xx, 1-8, pp. 669-72; William of Tyre, XII, 23, pp. 546-7; *Historia Ducum Veneticorum*, M. G. H. Ss. vol. xiv, p. 73

جميعاً من كل الإلتزامات المألوفة ، وذلك في كل مدينة من مدن المملكة . ولهم مطلق الحرية في استخدام الأوزان والمقاييس الخاصة بهم في كافة تعاملاتهم ، وليس فقط فيما بينهم ، وأن يعفوا من كافة المكوس والرسوم الجمركية في سائر أنحاء المملكة . ولهم أن يتسلموا يوتاً إضافية من عكا ، وثلاث كمل من صور وعسقلان إذا ساعدوا في الاستيلاء عليهما . فضلاً عن كل ذلك ، يُدفع لهم مبلغ سنوي مقداره ثلاثمائة بيزانت عربي (ساراساني) يضاف إلى العوائد الملكية في عكا . وفي المقابل وافقوا على استمرارهم المعتاد في تسديد ثلث أجور سفر الحجاج للخزانة الملكية . بل طالب البنادقة بأنه لا ينبغي للمملكة أن تخفّض الرسوم الجمركية المفروضة على الرعايا الآخرين دون موافقة البنادقة . وأقسم البطريرك جورمون على الإنجيل بأن الملك بلدوين سوف يولّد المعاهدة عندما يطلق سراحه ، وهو ما حدث في الواقع بعد سنتين ، رغم أن بلدوين رفض قبول الشرط الأخير ، الذي يعني أن تصبح تجارة المملكة كلها خاضعة لمصالح البندقية<sup>(١٧)</sup> . وبعد توقيع المعاهدة تحرّك الجيش الفرنسي أعلى الساحل إلى صور ، وأبحر الأسطول البندقي في خط مواز له . وبدأ حصار صور يوم ١٥ فبراير ١١٢٤م<sup>(١٨)</sup> .

#### ١١٢٤م : حصار صور

كانت صور ما تزال تابعة للخلافة الفاطمية . وكان مواطنوها في عام ١١١٢م قد صُدّموا من ضآلة المساعدة التي تلقوها من مصر أثناء حصار المدينة في العام الذي قبله ١١١١م ، مما دفعهم إلى السماح لطغتكين بأن يركبوا عليها واليا من عنده ، فأرسل واحداً من أقدر قواده ، الأمير مسعود ، لكي يباشر أمور المدينة . وفي الوقت ذاته ، كانت سيادة مصر معترفاً بها ، وكان الأئمة في المساجد يدعون على المنابر للخليفة الفاطمي ، الذي كان مطلوباً منه إرسال مساعدة بحرية منتظمة إلى المدينة<sup>(١٩)</sup> . وسارت الحكومة الثانية سيرا سلساً لعشر سنوات ، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى حرص الوزير الأفضل على حسن العلاقات مع طغتكين ، فهو في حاجة إلى صداقته ضد الفرنج . لكن أحد الحشاشين اغتال الأفضل في ديسمبر ١١٢١م في أحد شوارع القاهرة .

(١٧) Tafel and Thomas, I, pp. 84-9; Rihricht, *Regesta*, pp. 23-5; William of Tyre, xii, 4-5, pp. 547-53; Fulcher of Chartres, iii, xxvii, 1-3, pp. 693-5.

(١٨) Fulcher of Chartres, iii, xviii, 4, pp. 695-6.

(١٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 128-30, 142.

فرغب الخليفة الأمر ، الذى أصبح سيد نفسه أخيراً ، فى استعادة السيطرة على صور . فأرسل إليها أسطولاً عام ١١٢٢م ، كما لو كان يقصد تعزيز الدفاع عن المدينة ، وقام أمير البحر بتوجيه الدعوة إلى حاكم المدينة مسعود ليتفقد السفن ، وعندما صعد ظهر السفينة اختطفه وأخذه إلى القاهرة . واستقبل استقبالاً حسناً هناك ، وأرسل بكل مظاهر التشريف إلى طفتكين ، الذى لم يشأ أن يشر نزاعاً حول استعادة الفاطميين للمدينة . على أنه باقتراب الفرنج من المدينة ، أعلن الخليفة الأمر عدم استطاعته أن يفعل شيئاً لانقاذ المدينة بعد تدمير أسطولها ولذا أسلم دفاعاتها إلى طفتكين الذى دفع إليها لتوهِ سبعمائة جندي تركي ومون لمواجعة الحصار<sup>(٥٠)</sup>.

ولم يكن يربط صور بالمر الرئيسي للبلاد سوى برزخ ضيق كان الاسكندر الأكبر قد شيده ، وكانت تحصيناتها فى حالة جيدة . على أنه كان يعيها نقطة ضعف واحدة؛ إذ كانت مياه الشرب تأتي خلال قناة من داخل البلاد ، لعدم وجود آبار فى شبه الجزيرة . وقطع الفرنج هذه القناة فى اليوم التالى لمجيئهم ، لكن أمطار الشتاء ملأت صهاريج المدينة ، ومضى بعض الوقت قبل أن يشعر السكان بنقص المياه . واستقر الفرنج فى معسكر بين الحدائق والبساتين حيث يلتقى البرزخ بالمر الرئيسي للبلاد . وأرسل البنادقة سفنهم بمحاذاتهم ، لكنهم دائماً ما كانوا يحتفظون بقادس فى البحر لاعتراض أية سفينة قد تحاول الانبحار للدخول إلى الميناء . وكان القناد الأعلى للحيش هو البطريق جورمون ، وكان يثير الانطباع بأن لديه من السلطة أكثر مما لدى الوكيل (الكونستابل) . وكان كونت طرابلس ، عندما جاء بجيشه للانضمام إلى القوات المحاصرة ، قد أبدى استعداده لأن يطيع البطريق فى كل شئ ، وهذا تنازل ربما لم يكن يمنحه لوليم (أوف بور)<sup>(٥١)</sup>.

وتواصل الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف . ودأب الفرنج على قصف منتظم للأسوار عبر البرزخ من آلات أحضر البنادقة مواد صنعها . وكان المدافعون عن المدينة من جانبهم مجهزين جيداً برامح الحجارة والنيران الاغريقية التى كانوا يطلقونها على مهاجميهم . وحاربوا حرباً راتعة ، غير أن أعدادهم الضئيلة لم تكن تسمح لهم بمحاولات الخروج . وخشية أن يجبرهم الجوع والعطش ونقص الرجال على التسليم ، تسلل

(٥٠) Ibid. pp. 165-6, 170-1; Ibn al-Athir, pp. 356-8.

(٥١) Fulcher of Chartres, III, xxviii, l-xxx, 13, pp. 695-720 وقد أورد استطراداً طويلاً حول تاريخ صور) William of Tyre, III, 7, p. 563.

رسلهم خارج المدينة لحث طغتكين والمصريين على الاسراع لنجدتهم . فقام جيش مصرى بهجوم مضلل على القدس نفسها ، ووصل إلى ضواحي المدينة المقدسة . غير أن مواطنيها وتجارها ورجال الدين والقساوسة أسرعوا إلى أعلى أسوارها الضخمة ، ولم يجازف القائد المصرى بمهاجمتها . وسرعان ما قام جيش مصرى آخر بنهب المدينة الصغيرة بلين أو (ماهومرى La Mahomerie) ، على ميدة أميال قليلة شمال القدس ، وقتل سكانها . على أن هذه الغارات المنفردة لا تنفذ صور . بل كان طغتكين أقل حماساً فى مساعدتها ، وعندما بدأ الحصار تحرك بجيشه إلى باتياس عند منبع نهر الأردن منتظرا أخبار وصول أسطول مصرى يستطيع أن ينسق معه هجومه على المعسكر الفرنجى ، ولكن لم يبحر أسطول مصرى أعلى الساحل ، إذ لم يستطع الخليفة أن يجمع أسطولا . وكان الفرنج ينجشون هذا التلاقى بين القوات البحرية والبرية المعادية ، ولذا بقى الاسطول البندقى لعدة أسابيع خارج صور ليعترض المصريين ، وأرسل البطريق جيشا كبيرا على رأسه بونز أمير طرابلس وويلم (أوف بور) لمقابلة طغتكين . وعندما وصلوا باتياس ، قرر طغتكين عدم المجازفة بمعركة وانسحب إلى دمشق . والآن بات الأمل الوحيد للمحاصرين فى صور هو ملك الأرتقى ، الذى اشتهر بأنه أسر الملك وأزعم بذلك أن ينجف لنجدتهم ، لكنه قتل فى منيع فى شهر مايو .

وبنهاية شهر يونية أصبح الوضع داخل صور باعثا على اليأس . إذ أخذ الطعام والشراب فى التناقص وسقط الكثير من رجال الحامية . وأيقن طغتكين من أن المدينة سوف تستسلم لا محالة ، فأرسل إلى معسكر الفرنج يعرض استسلام المدينة بالشروط المعتادة ، بأن يُسمح للسكان الراغبين فى مغادرة المدينة بالرحيل الآمن مع منقولاتهم ، ويحتفظ من يرغب فى البقاء بحقوق المواطنة . وقبل القادة الفرنج والبنادقة هذا العرض ، ورغم ما بدا على الجنود والبحارة من غيظ شديد لدى سماعهم بأنه لن يكون هناك سلب ونهب ، وهددوا بالتمرد . وفى ٧ يولية فتحت البوابات واستولى الجيش الفرنجى على المدينة ، ورفعت راية الملك على البوابة الرئيسية ، ورايتا كونت طرابلس والدوج البندقى على الرجين الواقعين بين ويسار البوابة الرئيسية . والنزم القادة بكلمتهم ، فلم يحدث سلب ، ومر موكب طويل من المسلمين فى سلام خلال المعسكر الصليبي . وهكذا انتقلت آخر مدينة اسلامية ساحلية واقعة شمال عسقلان إلى المسيحيين ، وعاد جيشهم متجهجا إلى القدس ، وأبحر البنادقة عائدين إلى فينيسيا بعدما حصلوا على رطل

## ١١٢٤م : قديّة الملك بلدوين

وصلت الأنباء السارة الملك بلدوين في شيزر . فبعد موت ملك ، انتقلت مسؤولية حيس الملك إلى ممرتاش بن ابلغازي ، الذي لم تُرَفّه المسؤولية وفضل فكرة الحصول على قديّة سخية . فطلب من أمير شيزر الدخول في مفاوضات مع الفرنج . ورحلت الملكة مورفا إلى الشمال لتكون أقرب ما يمكن من زوجها ، وقامت هي والكونت جوسلين بترتيب الشروط مع الأمير . وكانت القديّة المطلوبة باعظة . فكان على الملك أن يسدد لمرتاش ثمانين ألف دينار ، وكان عليه التحلي عن مدن أنارب ، وزردنا وعزاز وكفرطاب والجزر ، لتصبح مدنا تابعة لحلب - حيث خلف ممرتاش سلطة ملك ، وعليه أيضا مساعدة ممرتاش في اخضاع زعيم البدو دويس بن صدقة ، الذي استقر في الجزيرة . وينبغي له أن يدفع عشرين ألف دينار مقدما ، ويتم الاحتفاظ برهائن في شيزر لحين دفع المبلغ المتبقى ، وما أن يتسلم المسلمون المبلغ يطلق سراح بلدوين . وعن الرهائن ، طلب ممرتاش أصغر أطفال الملك ، الأميرة جوفيتا ذات السنوات الأربع ، وابن جوسلين ووريثه ، صبي في الحادية عشرة من عمره ، وعشرة من أبناء النبلاء . ولكي يظهر الأمير سلطان شيزر حسن نواياه ، أرسل بعض افراد أسرته إلى حلب . وفي نهاية يونية ١١٢٤م ، غادر بلدوين حران على جواده الصرّال الخاص به الذي كان ممرتاش قد احتفظ له به ، ومعه هدايا كثيرة ثمينة . وذهب إلى شيزر ، حيث أكرم أميرها وفادته لاعفائه قبل ذلك بنمس سنوات من الأموال المستحقة على شيزر لأنطاكية ، وقابل ابنه ورفاقها الرهائن . وبوصلهم مُّسمَح له بالانطلاق إلى انطاكية التي وصلها في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس (٥٤).

(٥٢) (المترجم) إشارة إلى مسرحية شكسبير " تاجر البندقية " فليرجع إليها من شاء.

(٥٣) Fulcher of Chartres, iii, xxxii, 1-xxxiv, 13, pp. 728-39, (يوجه اليوم علما إلى أبناء انطاكية لعدم تعاونهم) William of Tyre, xiii, 13-14, pp. 573-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 170-2 giving the date; Ibn al-Athir, pp. 358-9 ٩ يولية ١١٢٤ Abu'lFeda, بمعد التاريخ ٥ يولية ١١٢٤; Matthew of Edessa, ccxli, p. 314.

(٥٤) Usama, ed. Hitti, pp. 133, 150; Kemal ad-Din, pp. 643-4; Matthew of Edessa, ccxli, pp. 312-13 وذكر ماثيو الأروفي أن جوسلين والملكة قانا بترتيب القديّة ، وأضاف أن تيمورتاش قتل واليران وابن أخ الملك - والراجح أن سبب ذلك أن الملك كان شروط قديته، Michael the Syrian, وفي المراتب شتت جوفيتا Joveta بأسماء مختلفة Yvette, Ivetta or Joditta, pp. 212-225.

والآن ، وبعد أن نال بلدوين حريته ، خان الشروط التي قبلها . فقد أكد له البطريق برنارد انه ليس سوى الوصي على انطاكية وسيدھا ، وليس من حقھ التنازل عن اراضيھا التي تنتمي إلى الشاب بوھمند الثاني . واقتنع بلدوين عن طيب خاطر بالحنة وأرسل يئير ممرتاش بعميق الاعتذارات انه لسوء حظه البالغ لا يستطيع عصيان البطريق . وكان ممرتاش مهتماً بتسلم المال أكثر من اهتمامه بالأرض ، فغفر الاساءة خشية ضياع باقي القدية . ولما وجد بلدوين أن ممرتاش على هذا القدر من الاذعان ، لم يحزم شرطه الآخر الذي بموجبه وعد بمساعدته ضد الأمير البدوي ديبس بن صدقة ، وبدلاً من ذلك استقبل سفارة من ديبس للتخطيط لعمل مشترك ضد حلب . ووليد التحالف بينهما . وفي اكتوبر انضم جيشا انطاكية والرها إلى رجال ديبس الأعراب أمام أسوار حلب . وسرعان ما تعزز هذا التحالف بمقدم المطالب بعرش حلب إلى معسكرهم ، سلطاننشاء (بن رضوان) ، الذي هرب مؤخراً من سجن الارائقة ، مع ابن عمه طغرل ارسلان ، اعنى سلطان سلاجقة الروم ، وكان الدانشمند قد أخرجه مؤخراً من ملطية فراح يبحث عن حلفاء.

ولم يبذل ممرتاش أية محاولة للدفاع عن حلب . إذ كان أخوه سليمان صاحب ميافارقين يقضي آخر أيامه ، وأراد ممرتاش أن يستوثق من الميراث ، فمكث في ماردین تاركاً وجهاء حلب يقاومون قدر استطاعتهم ، فقاوموا لثلاثة اشهر كان الرسل خلالها يأتونه فيسئ استقبالهم ، إذ لا رغبة لديه في أن يسبوا له مزيداً من المضايقة ، فتوجهوا إلى الموصل وأناروا اهتمام أتائيجھا ، أفسنقر البرسقي ، الذي سبق وأن قاد جيوش السلطان ضد الفرنج عام ١١١٤ م . وكان البرسقي يكره الأرائقة ، فأرسل قادة من عنده لاستلام قلعة حلب بينما انطلق هو نفسه مع الجيش ، برغم مرضه ، تشجيعه بركات السلطان . وعندما اقترب من حلب أمر خيرنشان صاحب حمص ، وطغتكين صاحب دمشق بالانضمام اليه ، فأرسل كلاهما الكتاب . وقبل امتراض القوة هذا ، كان التحالف الفرنجي - البدوي قد تفكك . إذ رحل ديبس مع قبيلته باتجاه الشرق ، بينما انسحب بلدوين إلى قلعة الأثارب . وفي نهاية يناير دخل البرسقي حلب ، لكنه لم يحاول مطاردة الفرنج فعاد الملك إلى انطاكية ومنها إلى القدس التي وصلها في ابريل ١١٢٥ م بعد غيبة عامين<sup>(٥٥)</sup>.

(٥٥) Fulcher of Chartres, III, xxxviii-xxxix, 9, 2, pp. 751-6; William of Tyre, XIII, 15, pp. 576-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 172-3; Kemal ad-Din, pp. 645-50; Usama, ed. Hitti, p. 133; Matthew of Edessa, cxciv, pp. 314-15.



## ١١٢٥ م : معركة عزاز

ولم ينتظر الملك طويلا في القلمس . إذ كان اليرسقي أكثر رعبا للفرنج من الأراقة . فقد تمكن من توحيد مسلمي شمال سوريا تحت سلطته لكونه سيد الموصل وحلب ، ويخفي بموازرة السلطان ، وخضع طفتكين وأمير حمص لزعامته . في شهر مارس قام بزيارة شيزر ، التي كان أميرها ، سلطان بن منقذ ، تواقا دائما لمصادقة ذوي الشأن ، فسلمه الرهائن الفرنج ، الأميرة يوفيتا وحوسلين الصغير ورفاقهما . وفي شهر مايو ، قاد تحالفا إسلاميا جديدا وهاجم القلعة الفرنجية كفرطاب واستولى عليها ، وحاصر زردنا . فأسرع بلدوين شمالا لانتقاذ زردنا ، وقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها فبلغ قوامها ألف ومائة فارس وألفين من جنود المشاة . وانطلق المسلمون إلى عزاز حيث حرت في نهاية شهر مايو واحدة من أكثر المعارك تعطشا للدماء في تاريخ الحملات الصليبية . فحاول المسلمون النزال لرجل لرجل ، معتمدين على تفوقهم العددي غير أن تفوق لباس الحرب وضخامة ابدان الفرنج كان فوق طاقة المسلمين ، فهزموا هزيمة حاسمة . ومن الغنائم الكثيرة تمكن بلدوين من جمع مبلغ ثمانين ألف دينار المطلوبة لفدية الرهائن ، إذ تغلى كل فارس عن جزء من نصيبه لانتقاذ ابنه الملك . ورغم أن المال كان من حق ممثلي في الواقع ، إلا أن اليرسقي قبله وأعاد الرهائن . وأرسل مبلغ آخر إلى شيزر لافتداء السجناء والرهائن الذين كانوا ما يزالون هناك . وغور إطلاق سراحهم هاجمهم أمير حمص ، غير أن بني منقذ سارعوا لانتقاذهم وأرسلوهم إلى حيث يتخذون طريقهم.

وبعد المعركة أبرم المتقاتلون هدنة . فاحتفظ المسلمون بكفرطاب التي أعطيت للأمير حمص ، ولم تكن هناك تغييرات أخرى على الأرض . وبعد أن ترك اليرسقي حامية في حلب عاد إلى الموصل . وحل السلام على الشمال طوال ثمانية عشر شهرا<sup>(٥٦)</sup>.

وعاد بلدوين إلى فلسطين ، حيث قام في خريف ١١٢٥ م بغارة على الأراضي الدمشقية ، ومظاهرة عسكرية لاستعراض القوة أمام عسقلان . وفي يناير ١١٢٦ م قرر قيادة حملة جادة ضد دمشق، وغزا حوران . فجاءه طفتكين لملاقاته ، وتلاقى الجيشان عند تل الشقب ، حوالي عشرين ميلا جنوب غرب دمشق . ومال ميزان الحرب لصالح

(٥٦) Fulcher of Chartres, III, xlii, 1-xlii, 4, pp. 761-71; William of Tyre, III, II, pp. 578-80; Siebert of Gembloux, M.G.H.Ss. vol. VI, p. 380; Kemal ad-Din, p. 651; *Bustan*, p. 519; Usama, loc. cit.; Matthew of Edessa, cxxvii, pp. 315-18; Michael the Syrian, III, p. 221.

المسلمين أول الامر ، وتمكنت فصيلة التركمان التابعة لطغتكين من التوغل حتى المعسكر الملكي . لكن بلدوين فاز في النهاية وطارد الأعداء حولاً نصف المسافة باتجاه دمشق ، غير أنه نظراً لخسائره الجسيمة رأى الحكمة في التخلي عن الحملة وانسحب إلى القدس عملاً بالغنائم<sup>(٥٧)</sup>.

وفي مارس ١١٢٦م هاجم بونز أمير طرابلس القلعة الإسلامية رافية التي تحكم في مدخل القناع من وادي نهر العاصي . وهي هدف فرنجي منذ وقت طويل ، منذ أن استولى عليها طغتكين عام ١١٠٥م . وبينما استنجد حاكمها بطغتكين والرسقي ، طلب بونز مساعدة الملك بلدوين . وسارع الأميران المسيحيان بالسير إلى القلعة ، قبل أن يتهاى المسلمون للمحن لانقاذها بوقت طويل . فاستسلمت لها بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً . وكان الاستيلاء عليها ذا قيمة عظيمة للفرنج ، فزيادة على أنها بمثابة حماية لطرابلس نفسها ، أصبحت تؤمن طرق المواصلات بين القدس وأنطاكية<sup>(٥٨)</sup>.

وفي تلك الأثناء أعاد المصريون بناء اسطوطهم . وفي خريف ١١٢٦م أبحر الاسطول من الاسكندرية لمهاجمة الساحل المسيحي . ولما سمع الرسقي بذلك راح ينشط لهجوم متزامن في الشمال فحاصر الأثارب . وكان بلدوين على حق عندما قرر أن المحجم الأخير هو الأخطر فأسرع إلى أنطاكية. وما حدث في واقع الأمر أن المصريين قاموا بغارات على ضواحي بيروت ثم وجدوا المدن الساحلية محصنة جيداً بالهاميات حتى أنهم سرعان ما عادوا إلى النيل<sup>(٥٩)</sup>. وفي الشمال ، انضم حوسلين إلى بلدوين وأجبراً المسلمين على الانسحاب من الأثارب ولم يجازف أيّ من الجانبين بالدخول في معركة . وسرعان ما أعيد إبرام الهدنة . وعاد الرسقي إلى الموصل بعد أن نصب ابنه عز الدين مسعود حاكماً على حلب . وفي نفس يوم وصوله ، ٢٦ نوفمبر ، طعنه أحد الحشاشين طعنات قاتلة<sup>(٦٠)</sup>.

(٥٧) Fulcher of Chartres, iii, xlv, 1-7, 1, 1-15, pp. 772-4, 784-93; William of Tyr, xii, 17, 18, pp. 581-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 574-7.

(٥٨) Fulcher of Chartres, iii, li, 4, lii, 1, pp. 795-7, 798-9; William of Tyre, xiii, 19, pp. 585-6; Ibn al-Qalanisi, p. 180; Kemal ad-Din, p. 652.

(٥٩) Fulcher of Chartres, iii, lvi, 1-5, pp. 803-5; William of Tyre, xiii, 20, pp. 587-8.

(٦٠) Fulcher of Chartres, iii, lv, 5, pp. 802-3; Ibn al-Qalanisi, pp. 177-8; Kemal ad-Din, pp. 653-4.

وتسبب موت الرسقي في فوضى عارمة بين المسلمين ، زادت سوءاً بحوث ابنه مسعود بعده بأشهر قليلة ، ربما بالسم ، خاصة وأنه قد تشاجر مع طغتكين . وأما حلب فتجاذبتها أيدي كثيرة . إذ كانت تتأرجح بين طومان ، الذي عينه مسعود ، وضلع أبيه ، وهو مملوك أرسله السلطان ، وبدر الدولة سليمان الأرتقي ، وابن رضوان ابراهيم السلحوقي<sup>(٦١)</sup>.

#### ١١٢٦ م : وصول بوهمند الثاني

وفي نفس الوقت على وجه التقريب تنفس بلدوين الصعداء بعد أن استراح من وصايته على انطاكية . ذلك أن بوهمند الثاني الصغير بلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاماً ، وما هو قد أتى ليتسلم ميراثه ، بعد أن تخلى عن أراضيه في إيطاليا لابن عمه روجر الثاني الصقلي . وقد أبحر من أوترانتو في شهر سبتمبر ١١٢٦ م مع أسطول صغير يتألف من أربع وعشرين سفينة تحمل عدداً من الجنود والجياد . ونزل إلى شاطئ السويدية في وقت مبكر من أكتوبر ، وسار مباشرة إلى انطاكية حيث رحب به الملك بلدوين بكل مظاهر التشريف ، وقد ترك انطباعاً رائعاً ، إذ كان له مظهر أبيه الفخيم ، بهيئته الطويلة وشعره الأشقر ووسامته ، وانهض جواً من التنشئة الرفيعة اكتسبها من أمه كونستانس ابنة الملك فيليب الأول الفرنسي . وفي الحال سلمه الملك بلدوين الإمارة بكل ممتلكاتها ، وبكل ما كان يتصف به من دقة وأمانة ، وقد تأثر صغير شيزو عميق التأثير عندما رأى الملك منذاً أنذاك يدفع للأمير ما كانت تستهلكه جياد جيش القدس . وكان بصحبة الملك ابنته الثانية ، الأميرة أليس ، وتنسيقاً للخطة المرسومة سلفاً تزوجها بوهمند الثاني . وبدأ بوهمند عهده بداية لامعة ، بهجوم على كفرطاب فاستعادها من أمير حمص ، وسرعان ما سمع بعد ذلك بشجاعته في مناورات مع جيش شيزو<sup>(٦٢)</sup>.

واستطاع الملك بلدوين أخيراً العودة جنوباً وهو يشعر أن موت الرسقي وبمضى

(٦١) Ibn al-Qalanisi, pp. 181-2; Kemal ad-Din, p. 654; Michael the Syrian, III, p. 225.

(٦٢) Fulcher of Chartres, III, lvi, 1-4, lvi, 1-5, pp. 805-9, 819-22) تنوع تاريخ فولشر عن مخاطر البحر المتوسط وأنواع الثعابين التي توجد على شواطئه. وبعد فصل آخر حول ملابسون الفيران عام ١١٢٧ م ، ينتهي تاريخ فولشر (William of Tyre, XIII, 21, pp. 319) Matthew of Edessa, ocl. p. 266; Orderic Vitalis, XI, 9, vol. IV, p. 588-9 ويقول ماثيو الأورفي أن بلدوين وعد بوهمند باستخلائه على عرش القدس، Michael the Syrian, III, p. 224; Usama, ed. Hitti, p. 159.

يوهمند سوف يتيح له حرية تدبير مملكته . فأمضى سنة ١١٢٧م في سلام دائم حتى اننا لا نعرف شيئا عن تحركاته ، باستثناء حملة قصيرة شرقي البحر الميت في شهر اغسطس<sup>(٦٣)</sup> . وفي باكورة ١١٢٨م مات صديقه المخلص البطريق جورمون . وخلفه قس فرنسي آخر هو ستيفن (أوف لا فيرتيه) رئيس دير القديس جون إنفاليه في تشارترز ، وهو نبيل المولد ، تربطه قرابة بالملك بلدوين . وكان بلدوين يأمل في أن تؤدي روابط القرابة إلى التعاون بروح الود ، لكنه سرعان ما اكتشف أنه كان واحدا . ذلك أن البطريق الجديد حدد في الحال مسألة الاتفاق الذي سبق وأن عقده جودفري مع البطريق ديامبرت . فطالب بأن تكون باقا ملكية ذاتية للبطريرقية ، وذكر الملك بأنه فور أن يتم الاستيلاء على عسقلان ، فلا بد أن تسلم إليه القدس نفسها . ورفض بلدوين الانصات لتلك الطلبات ، لكنه لم يدر كيف يعالجها . وساءت العلاقات بين البلاط الملكي والبطريرقية طوال عام ١١٢٩م . وفي أوائل ١١٣٠م ، اوشكت الأزمة أن تصبح علنية ، لولا أن مات ستيفن بعد فترة مرض قصيرة . وارتاب أصدقاؤه في السم . إذ عندما جاء الملك لزيارة البطريق المحتضر والاستفسار عن صحته علق هذا الأخير بمرارة : "سيدي ، ها أنا مفارق كرجيتك" . وحقا ، كان موته شيئا مرغوبا . وتدبر بلدوين انتخاب خلفه وليم (أوف ميسينا) رئيس دير القبر المقدس ، وهو رجل شديد الورع والطيبة ، برغم شئ من البساطة وسوء التعليم . ولم تكن لديه طموحات سياسية ، وكانت سعادته في إنفاذ مشيئة الملك . ونتيجة لذلك غدا محبوبا من الجميع<sup>(٦٤)</sup> .

#### ١١٢٨م : الإستخلاف على العرش

كان الأمر الثاني اتمام أن يرتب بلدوين خلافة العرش . إذ لم تلد له الملكة مورفيا ذكورا ، وإنما كان هناك أربع بنات : ميليسند ، وأليس ، وهوديرنا ، ويوفيتا . والآن أصبحت أليس أميرة انطاكية ، واما هوديرنا ويوفيتا فكانتا طفلتين . وتقرر أن تخلفه ميليسند بعد اقترانها بزواج مناسب . وفي ١١٢٨م ، وبعد أن استشار مجلسه ، ارسل وليم (أوف بور) ، ومعه لورد بيروت ، جوى بريسبار إلى فرنسا ملتصبا من ملك

(٦٣) Ibn al-Qalanisi, p. 182.

(٦٤) William of Tyre, xiii, 25-6, pp. 594-5, 598; (Malines) ولما ميسينا Messina فهي تقع في غرب فلاندرز.

فرنسا لويس السادس أن يختار من بين النبلاء الفرنسيين رجلا مناسباً لهذا المقام الرفيع . وورثع الملك كونت أنجو ، فولك الخامس ، الذي كان في الأربعين من عمره ، وهو ابن فولك الرابع ، ريشين ، ومن زوجته برترادا (أوف مونت فورت) ، والتي اشتهرت بعلاقة الزنا مع الملك فيليب الأول ملك فرنسا . وكان فولك رئيس عائلة عظيمة قامت خلال العقدتين الماضيتين ببناء واحدة من أغنى الثروات الاقطاعية الحاكمة في فرنسا ، وأضاف إليها هو نفسه اضافات كثيرة عن طريق الحرب ، والزواج ، والدسائس . وفي نفس ذلك العام حقق نصرا عائليا بتزويج ابنه الصغير ووريثه ، جيوفري ، من الاميرة الأميرة ماتيلدا ، وهي الابنة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من هنري الأول الإنجليزي وورثة إنجلترا ونورماندي . وفولك الآن أرمل ، وقد قرر أن يتخلى عن اراضي العائلة لابنه ، ويكرّس نفسه لخدمة الصليب . وقد سبق وان ذهب إلى القدس حاجا عام ١٢٠١م ، ولذلك كان بلدوين يعرفه معرفة شخصية . ولما كان مرشحا مرموقا هكذا ، ويخطى بتأييد ملك فرنسا ، ومؤازرة البابا هونوريوس الثاني ، فقد قبله الملك بلدوين بمشاعر الغبطة ، وكان تواقا لأن تحوز ترتيبات الاستخلاف استلطاف النبلاء في مملكته ، فمن المستحيل على أي من هؤلاء النبلاء أن يجادل في مزايها هذا الأمير المحارب ، الذي يتميز بهذه الرفعة ، وزوج كبرى كرمات الملك .

غادر فولك فرنسا في اوائل الربيع من عام ١١٢٩م ، بصحبه وليم (أوف بور) وجوى بريسبار . ونزلوا إلى البر في عكا في شهر مايو وتوجهوا إلى القدس . وهناك ، وفي اواخر الشهر ، تزوج فولك وميليسند في حفول عظيمة مبهجة . وقد حاز هذا التزويج قبول البلد بأسره ، ربما باستثناء واحد . إذ أنه لم يحرك ساكنا لدى الاميرة ميليسند نفسها ، بقامته القصيرة ، وشفافته ، وشعره الأحمر ، وعمره الوسط ، والذي فرضته عليها فرضا مزايها السياسية <sup>(٦٥)</sup> .

(٦٥) William of Tyre, xiii, 24, p. 593, xiv, 2, p. 608; Halphen et Poupardin, *Chroniques des Comtes d'Anjou, Gesta Ambazientium Dominorum*, p. 115 and *Gesta Consulum Andegavorum*, pp. 69-70. كان فولك قد تزوج Arenburga أو Guiberga ، وريثة Maine حوالي عام ١١٠٩م ، وواصل الحرب ضد هنري الأول الإنجليزي بسبب ميراثها. وقد انتهت المشكلة بزواج ابنه جيوفري (١٧ يونيو ١١٢٨م) من الاميرة ماتيلدا وكانت ابنة سيبيلا قد تزوجت من Thierry أوف الراس، كونت فلاندرز. وقد حج بالفعل إلى القدس عام ١١٢٠ (وليتم تصويره من ١٢٠٨). ويرد مخطاب البابا هونوريوس الثاني إلى بلدوين الذي يطريه فيه ، في Razière. *Cartulaire du Saint Sépulcre*, pp. 1718.

## ١١٢٦م : الحشاشون في بانياس

شرع بلدوين في عام ١١٢٩م بمساعدة فولك في اضمحلال مشاريع عهده كله ، ألا وهو غزو دمشق. فقد مات طغتكين صاحب دمشق يوم ١٢ فبراير ١١٢٨م ، وكان لسنوات كثيرة سيد المدينة بكل مافي السيادة من معنى ، وأكثر شخصيات المسلمين احتراما في غربي سوريا<sup>(٦٦)</sup>. وقبل ذلك بضع سنوات تمكن أحد زعماء الحشاشين ، وهو باهرام من استزأباد ، من الحرب من فارس وذهب إلى حلب ، ورسخ نفسه قائدا للحركة الاسماعيلية السرية في شمال سوريا. ورغم ما كان يلقاه من مساندة ايلغازي ، كان أبناء حلب بمقتون هذه الطائفة ، وأجبر باهرام على النزوح من حلب ، قادما إلى دمشق وهو يعول على التوصية التي منحها اياه ايلغازي ، فاستقبله طغتكين استقبالا حسنا . واستقر هناك ، واخذ يجمع المناصرين من حوله شيئا فشيئا ، وفاز بتعاطف المزدقاني وزير طغتكين . وتعاطفت قوة الطائفة مع انكار أهل دمشق السنيين ، ولذا طلب باهرام الحماية من المزدقاني . ونزولا على طلب الوزير ، قام طغتكين في نوفمبر ١١٢٦م بتسليم الطائفة القلعة الحدودية بانياس - الواقعة تحت تهديد الفرنج - وبنا باتت الآمال تراود طغتكين في استغلال نشاطات الطائفة . وأعاد باهرام تحصين القلعة وجمع حوله كل اتباعه ، وسرعان ما بدأوا يرهبون الجوار . أما طغتكين ، الذي كان ما يزال يوفر لهم الحماية من الناحية الرسمية ، فقد أزمع القضاء عليهم ، لكن المنية عاجلته قبل أن تستج له الفرصة . وبعد ذلك بأشهر قليلة قتل باهرام في صدام مع قبيلة عربية بالقرب من بعلبك كان باهرام قد قتل شيخها. وتولى من بعده فارسي آخر يدعى اسماعيل<sup>(٦٧)</sup>.

وعلى طغتكين ، كأتابع دمشق ، ابنه تاج الملك بوري ، الذي عقد العزم على أن يخلص نفسه من الحشاشين . واتخذ عخطوته الاولى في سبتمبر ١١٢٩م ، بأن قتل فجأة واعى الطائفة ، الوزير المزدقاني ، بينما كان حاضرا المجلس في الايوان الوردى في دمشق . وفي التو اندلعت في دمشق أعمال الشغب ، التي كانت من دبير بوري ، وقتل كل من وقعت عليه الايدي من الحشاشين . وفي بانياس ، شعر اسماعيل بالخطر، فبدأ مفاوضات مع الفرنج لكي ينقذ شيعته.

وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها الملك بلدوين . إذ انه لدى سماعه بموت

(٦٦) Ibn al-Qalanisi, pp.183-6; Ibn al-Athir, pp.317-18

(٦٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 179-80, 187-91; Ibn al-Athir, pp. 382-4.

طغتكين ، أرسل هيو (أوف باين) ، وهو السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إلى أوروبا لتجنيد الجنود هناك معلنا أن دمشق باتت الهدف . وعندما جاءت رسلة اسماعيل ، شرع جنود الفرنج في استلام بانياس من الحشاشين ، وبدأوا يعدون العدة كي يستقر بها اسماعيل وطائفته في داخل الأراضي الفرنجية . وهناك مرض اسماعيل بالدوسنتاريا ، ومات بعد ذلك بأشهر قليلة وتفرق أتباعه<sup>(٦٨)</sup> ، وجاء بلدوين نفسه إلى بانياس في أوائل نوفمبر على رأس جيش القدس كله الذي زاد ضخامة بوصول الوافدين الجدد من الغرب . وتقدم دون مقاومة حادة وعسكر عند الجسر الحشبي ، الذي يبعد نحو ستة أميال جنوب غرب دمشق . وحشد بوري جيشه قبائلهم والمدينة من خلفه . ولم يتحرك أي من الجيشين لعدة أيام ، وفي تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل تتألف أساسا من الوافدين الجدد ، تحت قيادة وليم (أوف بور) لجمع الطعام والمواد قبل أن يهازم محاصرة المدينة . على أن وليم لم يستطع السيطرة على رجاله الذين كان اهتمامهم منصبا على السلب والنهب أكثر من اهتمامهم بجمع المؤن بطريقة منظمة . وعلم بوري بذلك . وفي باكورة أحد الأيام المتأخرة من نوفمبر ، انقض فرسانه الزكمان على وليم وهو على بعد عشرين ميلا جنوب المعسكر الفرنجي . وحارب الفرنج بشدة ، لكنهم غلبوا ، ولم يسلم منهم سوى وليم نفسه وخمسة وأربعين من رفاقه بقوا على قيد الحياة ليخبروا الملك بما حدث<sup>(٦٩)</sup>.

وقرر بلدوين السير في اثر للاقاة الاعداء وهم يحتفلون بنصرهم ، وأعطى الأمر بالتقدم . وفي تلك اللحظة بدأت الأمطار تهطل بغزارة السيول الجارفة ، واستحال السهل إلى بحر من الطمي ، ونشأت أنهار عميقة قطعت الطرق بعرضها . وفي مثل هذه الظروف يكون الهجوم مستحيلا . وأصيب الملك بخيبة أمل مريرة ، فتخلى عن أية فكرة لمواصلة الحصار . وانسحب الجيش الفرنجي انسحابا بطيئا وانما في نظام مشبلى إلى بانياس ، ومنها إلى داخل فلسطين ، حيث تفرق الجيش<sup>(٧٠)</sup>.

(٦٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 191-5; Ibn al-Athir, pp. 384-6.

(٦٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 195-8.

(٧٠) William of Tyre, xiii, 26, pp. 595-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 198-200.

## ١١٢٧م : نزاع بين بوهمند الثاني وجوسلين

أسهمت أحداث الشمال في اشتداد قسوة الشعور بخيبة الأمل . إذ كان بلدوين يأمل في أن ينتهز بوهمند الثاني وجوسلين ما عمّ حلب من فوضى ويستوليا أخيراً على المدينة الإسلامية العظيمة . على أنه بالرغم من نجاح غارات كل منهما على أراضي حلب في خريف ١١٢٧م ، كان التعاون بينهما بعيداً ، فكل منهما غيور من صاحبه . وكان جوسلين يهدنة مع البرسقي ، قد حصل على مقاطعات كانت أنطاكية تحتلها لفترة من الزمن . وما هو أسوأ ، أن ماريا زوجة جوسلين الثانية ، أخت ووجر أمير أنطاكية ، كانت قد حصلت على وعد بأن يكون مهرها مدينة عزاز ، بينما اعتبر بوهمند أن ووجر لم يكن سوى الوصي باسمه ولا حق له في أن يهب أرضاً أنطاكية . ورفض الاتفاق ، مما دفع جوسلين إلى توجيه حدوده بمساعدة المرتزقة الأتراك للاغارة على القرى الأنطاكية القريبة من الحدود . وأطلق الطريق برنارد حرمانا من شركة المؤمنين ضد إمارة الرها كلها ، لكن ذلك لم يردع جوسلين . وأحيط الملك علماً بأنباء النزاع ، فتملكه الخفق ، وأسرع باتجاه الشمال في أوائل ١١٢٨م ، وأحير الأميرين على التصالح مع بعضهما . ولحسن الحظ أصيب جوسلين ، الذي كان أكثر شراسة ، بمرض فجائي ارتأى فيه عقوبة من السماء ، ووافق على أن يعيد إلى بوهمند الأسلاب التي أخذها ، والظاهر أنه تغلى عن مطالبته بمدينة عزاز . غير أن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان . إذ ضاعت فرصة ذهبية في العام التالي في دمشق ولن تتكرر قط . إذ وجد الإسلام بطلاً جديداً بالغ القوة<sup>(٧١)</sup>.

ذلك أن الخليفة العباسي المسترشد ، الذي خلف الشاعر الودود المستظهر عام ١١١٨م ، فكّر خلال الأشهر الأخيرة من عام ١١٢٦م ، في استغلال النزاعات العائلية بين سلاطين السلاجقة كي يتحرر من سيطرتهم ، مما اضطر السلطان محمود ، وكانت بغداد واقعة ضمن مناطق نفوذه ، إلى أن يتوقف عن الصيد لارسال جيش إلى هناك ، وأمر عليه قائده عماد الدين زنكي . وقد ذاعت شهرة زنكي في الحروب ضد الفرنج ، وكان أبوه أقسقر حاكماً لحلب قبل فترة الحملات الصليبية . وبعد حملة يسيرة ، تمكن زنكي من الإيقاع بقوات الخليفة في (منطقة واسط) ، وأجبر الخليفة على الطاعة . وسرّ الخليفة المسترشد مما أبداه زنكي من تصرف فيه الخذق واللباقة بعد انتصاره ، وعند تعيين التابع جديد للموصل بعد موت البرسقي ، جاء بذهن السلطان محمود تعيين

(٧١) William of Tyre, xiii, 22, p. 590; Michael the Syrian, iii, p. 224; Kemal ad-Din, p. 665.



شيخ القبيلة البدوي دويس ، غير انه وافق الخليفة على أن زنكي مرشح افضل . وتم تنصيب ابن السلطان ، ألب ارسلان الشاب ، أميراً للموصل مع زنكي كأتابجه . وأمضى زنكي شتاء عام ١١٢٧م في الموصل ينظّم حكومته هناك . وفي ربيع عام ١١٢٨م سار إلى حلب مدعياً أنها جزء من أراضي البرسقي . وكان سكان حلب قد اجهدهم ما عانوه من القوضى ، فاستقبلوه بمشاعر البهجة ، ودخل المدينة في موكب حافل يوم ٢٨ يولية<sup>(٧٢)</sup>.

ورأى زنكي في نفسه بطل الإسلام ضد الفرنج ، لكنه لم يشأ أن يضرب الآ عندما يعد للأمر عدته . فأبرم هدنة مع جوسلين تستمر أربع سنوات ، واح اثناعها يعزز من قوته في سوريا . وسارع أميراً شيزر وحصص إلى الاعتراف بسيادته عليهما . ولم يكن يخشى الأول ، أما الثاني فقد حثه على مساعدته في حملة ضد حماء التابعة للإملاك الدمشقية ، مع الوعد بمنحه حق ولايتها . على أنه ما أن تم الاستيلاء على حماة حتى استبقاها زنكي لنفسه وسجن خيركان أمير حمص ، رغم عدم تمكنه من الاستيلاء على حمص ذاتها . وكان يرى أتابج دمشق ، الذي وعد بالانضمام اليه في الجهاد ضد المسيحيين ، مشغولاً للغاية في حروبه ضد القدس بحيث لم يعترض بصورة إيجابية على ما أقدم عليه زنكي . وبنهاية عام ١١٣٠م كان زنكي سيد سوريا دون منازع حتى حمص جنوباً<sup>(٧٣)</sup>.

#### ١١٣٠م : مصرع بوهمند الثاني

وفي نفس ذلك العام أصيب الفرنج بكارثة جسيمة . إذ كان بوهمند الثاني يطمح في أن يضم إلى إمارته كافة الأراضي التي كانت تضمها من قبل . كانت القوة الانطاكية تتدهور في كيليكيا ، وكانت طرسوس وأدنة ماتزالان في أيدي الفرنج ، ويبدو أنهما كانتا بمثابة مهر أرملة ووجر ، سيشيليا أخت الملك بلدوين ، وقد بقيت الحامية الفرنجية في المصيصة . أما في داخل البلاد الأبعد ، فقد كانت (عين زربة) في قبضة الأمير الأرمني ثوروس الرويني الذي اتخذ عاصمته في سيس القريبة . وقد مات ثوروس عام ١١٢٩م ، ومات ابنه قنسطنطين بعده بأشهر قليلة في أحداث مكيدة في

(٧٢) عن تاريخ زنكي حتى عام ١١٢٨م انظر Cahen, op.cit. pp.306-7, and nn. 12 and 13 (with references).

(٧٣) Ibe al-Qalanisi, pp. 200-2; Kemsal ad-Din, p. 658; Matthew of Edessa, cclii, p. 320.

القصر . وكان الأمير التالى هو ليو الأول ، شقيق ثوروس<sup>(٧٤)</sup> وظن بوهمند أن اللحظة قد حانت لاسترداد (عين زربة) . وفى فبراير ١١٣٠ م زحف بقوة صغيرة اعلى نهر جيحان نحو غايته . وشعر ليو بالخطر وطلب المساعدة من الأمير غازى ، الدانشمندى ، الذى تصل اراضيه الآن إلى جبال طوروس . ولم يعلم بوهمند بهذا التحالف ، وبينما كان يتقدم اعلى النهر بلا اكترات لما كان يقابله من مقاومة طليقة ، انفضى عليه الأتراك الدانشمند وقتلوا رجال جيشه كلهم . وقيل إن الأتراك لو تعرفوا على الأمير نفسه لأبقوا على حياته طمعا فيما كان سيدفع من فدية . لكن الذى حدث أن الأمير الدانشمندى أخذ رأسه وحنطها وجعلها شعارا أرسله هدية إلى الخليفة<sup>(٧٥)</sup>.

وتسبب تدخل بيزنطة فى عرقلة الأتراك عن متابعة انتصارهم ، وبقيت عين زربة فى حوزة الأرمن<sup>(٧٦)</sup> . غير أن موت بوهمند كان بمثابة الكارثة لأنطاكية ، فقد تولى بوهمند اماره انطاكية بمقتضى الوراثة ، وتقضى العواطف بأن تنتقل حقوقه إلى وريثه . غير أن زواجه من أليس لم ينجب سوى طفلة واحدة فى الثانية من عمرها تدعى كونستانس . وكان ينبغي أن يقوم الملك ، مستخدما حقه بصفته السيد الأعلى ، بتعيين وصى لها . لكن أليس ، ودون انتظار تلك الخطوة من أيها ، تولت الوصاية لثورها . لكنها كانت طموحة . وسرعان ما انتشرت الشائعات فى انطاكية انها تريد أن تحكم لا كوصية ، وإنما باعتبارها السيد الحاكم . وكان من المقرر أن تودع الطفلة كونستانس داخل اسوار الدير ، أو عندما تصل البلوغ ، تتزوج من زوج حقير . وهكذا فقدت الأم الشابة شعبيتها فى الامارة ، التى يشعر فيها الكثير من الرجال بأن هذه الأوقات تستدعى وصيا عاربا . وعندما سمعت أليس أن الملك فى طريقه اليها من القدس ، شعرت بأن القوة تنزل من قبضتها ، فالتفت بخطوة يائسة . إذ كان هناك رسول فوق صهوة جواد تحيطه الزينة وعملى بأزهى الأغصان المزركشة ، يسرع العدو إلى حلب ، إلى أتابجها زنكى ، تعلن له انها على استعداد للاعتراف بسيادته إذا ضمن لها امتلاك انطاكية.

(٧٤) Vahram, *Armenian Rhymed Chronicle*, p. 500.

(٧٥) William of Tyre, xii, 27, pp. 598-9; Orderic Vitalis, xi, 10, vol. iv, pp. 267-8; Romuald, M.G.H.Ss. vol. xiv, p. 420; Michael the Syrian, iii, p. 227; *Chron. Anon. Syr.* pp. 98-9; Ibn al-Athir, p. 468.

(٧٦) Michael the Syrian, (iii, p. 230) يقول ميخائيل إن جون كومنينوس بدأ فى الحبال هجومه على الأتراك . (انظر ادناه ص ٢٤٦).

وكان الملك بلدوين قد اسرع إلى الشمال مع زوج ابنته فولك، على اثر سماعه بموت بوهمند، ليتولى الرصاية على الوريث ويحين الوصى. وباقتزاه من المدينة، القت قواته القبض على مبعوث أليس إلى زنكي. فشنته الملك في الحال. وعندما ظهر امام انطاكية وجد ابنته قد أغلقت البوابات في وجهه. فاستدعى جوسلين لمساعدته وعسكر امام المدينة. وفي داخل المدينة فازت أليس بتأييد مؤقت بعدما اغرقت الجنود والناس بالمال من خزانة الإمارة. وربما كانت الدماء الأرمنية التي تجري في عروقها جعلتها محبوبة بين المسيحيين الوطنيين. غير أن النبلاء الفرنج لن يوافقوا امرأة ضد سيدهم. وبعد ايام قليلة قام فارس نورماندى، وليسم (أوف افرس)، والراغب بطرس اللاتيني، بفتح بوابة الدوق لجوسلين، وبوابة القديس بولس لفولك. وفي اليوم التالي دخل الملك. وحجزت أليس نفسها في برج من الأبراج، ولم تظهر إلا عندما ضمن لها وجهاء المدينة حياتها وتلى ذلك مقابلة مؤلمة بين بلدوين وابنته التي ركعت أمامه مرعوبة في عارها. وأراد الملك تجنب الفضيحة، ولا شك في أن قلب الأب بداخله قد خفق لابنته، ففقر لها، لكنه أبعداها عن الوصاية ونفاها إلى اللاذقية وجبله، وهي الأراضي التي منحها لها بوهمند الثاني مهرا. وباشر هو نفسه الرصاية، وحصل من كل لوردات انطاكية على القسم له ولحفيدته معا، وبعد أن عهد إلى جوسلين بمسؤولية الوصاية على انطاكية وأميرتها الطفلة، عاد إلى القدس في صيف ١١٣٠م<sup>(٧٧)</sup>.

#### ١١٣١م: موت بلدوين الثاني وجوسلين الأول

وكانت تلك آخر رحلاته. إذ أضنته حياة طويلة حافلة بنشاط لا ينتهى لم يقطعها سوى فترتين بيمستين قضاها في الأسر. وبدأت صحته تنهار في ١١٣١م، وبحلول أغسطس، بدا جليا انه يحتضر. وأبدى رغبته في أن ينقل من القصر في القدس إلى مكان إقامة البطريرك الملحق بمباني كنيسة القبر المقدس، حتى يموت أقرب ما يمكن من الجمجمة<sup>(٧٨)</sup>. وعندما شارف على النهاية استدعى نبلاء المملكة إلى حجرته، ومعهم ابنته ميليسيند وزوجها فولك وابنهما وسميه بلدوين البالغ من العمر سنة واحدة. ومنح

(٧٧) William of Tyre, xiii, 27, pp. 599-601; Micael the Syrian, iii, p. 230; Kemal ad-Din, pp. 660-1.

(٧٨) (الترجم) الجمجمة Calvary، كرو الموضع الذي صلب فيه المسيح خارج اورشليم.

هولك وميسيد بركاته ودعا الجميع إلى صومهما على انهما سيدا المملكة . وكان هو نفسه مرديا رداء كاهن تحت رسامته كاهنا من كهنة كنيسة القبر المقدس . ومحت رسامته بالكاد قبل أن يموت يوم الجمعة ٢١ أغسطس ١١٣١ م ، ودفن في كنيسة القبر المقدس ، وسط بواح يستحقه ملك عظيم<sup>(٧٩)</sup>.

ولم يعيش ابن عمه ورفيقه القديم جوسلين كونت الرها فترة طويلة بعده . وفي الوقت الذي كان فيه الملك يموت تقريبا ، راح جوسلين يحاصر قلعة صغيرة شمال شرق حلب ، وبينما كان يتفقد رجاله انهار من تحت أحد الأنفاق كان رجاله قد حفروه . وكانت حراحياته بالغة وتبددت الآمال في شفائه . وبينما هو راقد يحتضر ، جاءت الأنباء بأن الأمير الداتشمندى غازي قد رحف على مدينة كيسوم ، وهي القلعة العظيمة التي نصّب فيها جوسلين مؤخرًا بطريق انطاكية اليعقوبى . وشدد الأتراك ضغطهم على كيسوم ، وأمر جوسلين ابنه بالذهاب لانقاذها . غير أن جوسلين الصغير احاب بأن جيش الرها ضئيل للغاية بحيث تنتفى صلاحيته . فما كان من الكونت المسن إلا أن نهض من فراشه ، وحملوه في محفة على رأس جيشه ليحارب الأتراك . وجفل غازي من انباء قدومه ، إذ كان يظنه قد مات فعلا ، وفي حالة القلق التي راودته رفع الحصار عن كيسوم . وجاء من المدينة رسول يعدو ليخبر جوسلين الذي أمر بأن توضع محفته على الأرض حتى يتمكن من توجيه الشكر إلى الرب . وكان الجهد والانفعال فوق احتماله ، فمات هناك على حافة الطريق<sup>(٨٠)</sup>.

وموت بلدوين وجوسلين ، يأتي الجليل القديم من الرواد الصليبيين إلى نهايته . وفي السنوات التي سوف تلي ، نجد المناطق جديدة من النزاعات بين صليبي الجليل الثاني . رجال ونساء من أمثال جوسلين الثاني والأميرة أليس ، أو من مثل بيت طرابلس، المهبط لأن ينتظم في غط الحياة الشرقية ، ولا يعبأ إلا بالحفاظ على ما في

(٧٩) William of Tyre, XIII, 28, pp. 601-2; Orderic Vitalis, XII, 23, vol. iv, p. 500 . Ibn al-Qalanisi, pp. 207-8 . يذكر ابن القلايسي تاريخ الوفاة بسوم الخميس ٢٥ رمضان ، لكنه يخطئ لعدم يذكر (٢٦٦ هجرية).

(٨٠) William of Tyre, xrv, 3, pp. 609-11; Michael the Syrian, III, 232; Chron. Anon. Syr. pp. 99-100

حوزته من ممتلكات، والوافدين الجدد الآتين من الغرب - سيبتهم العدوانية - عبر  
المصقولين ، الذين يستعصى عليهم القهم ، من أمثال فولك . أو ريموند (أوف مواتيه)،  
أو رينالد (أوف شاتيلون) المشعوم<sup>(٨١)</sup>.

(٨١) Iba al-Athir, pp. 389-90، يتحقق ابن الأثير من الظروف لشعبه - احتفاء - سر د الصبيبي من  
ناحية، وبداية الوحدة الإسلامية تحت راية ركني من ناحية أخرى.

## الفصل الثانى:

### الجيل الثانى



## الجيل الثاني

"لأنهم ولدوا أولاداً أجنبيين"  
(خروج ٥ : ٧)

في ١٤ سبتمبر ١١٣١ م ، وبعد ثلاثة أسابيع من وفود الملك بلدوين الثاني ساحيا  
لإسبريج في كنيسة القبر المقدس ، شهدت الكنيسة ذاتها تتويج الملك فولك والملكة  
ميليسند . وأقيمت الحفول البهيجة في مناسبة استخلاف العاهل الجديد<sup>(١)</sup>.

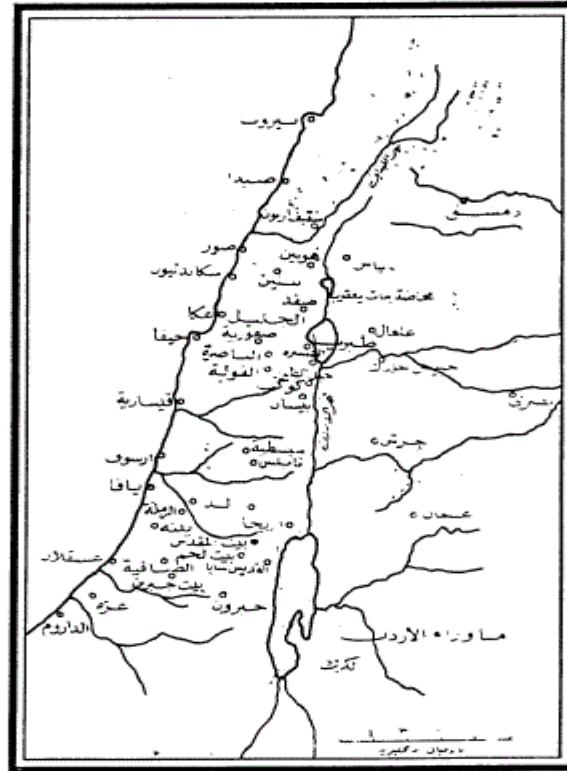
على أنه بينما قبل بارونات مملكة القدس الملك فولك دون تردد ، كان أمراء  
الشمال الفرنج أقل استعداداً لقبوله كسيد أعلى . إذ سبق وأن كان كل من بلدوين  
الأول وبلدوين الثاني سيذا أعلى لجميع الدويلات الفرنجية لأن لكل منهما من القوة  
والشخصية ما يمكنه من ذلك . غير أن الوضع القانوني لم يكن واضحاً بسأى حال من  
الأحوال ، ففي حالة الرها ، اعترف جوسلين الأول - كبلدوين الثاني من قبله -

(١) William of Tyre, xiv pp. 608-9, 2.



بسيادة سلفه عندما غدا سلفه هذا ملكا للقدس وورثه الإقطاعية . فهل يعني ذلك الترتيب أن يصبح ورثة جوسلين أتباعا لورثة بلدوين الثاني؟ في طرابلس خضع الكونت برتراند لسيادة بلدوين الأول كي يوفّر الحماية لنفسه من عدوان تنكريد ، غير أن ابنه يوزر حاول فعلا إنكار حقوق بلدوين الثاني ، ولم يعترف بتلك الحقوق إلا لأنه كان يفتقر إلى ما يكفى من القوة لتحدى قوات الملك . وفى انطاكية ، اعتمر يوهنند الأول نفسه أميرا ذا سيادة . وأما تنكريد ، وبرغم أنه كان وصيًا فقط وليس أميرا ، فقد رفض أن يعتبر نفسه تابعا للملك إلا فيما يتصل بامارته للحليل . وعلى الرغم من أن روجر ويوهنند الثاني قد اعترفوا ببلدوين الثاني سيّدا أعلى ، فمن الجائز الجدل بأنهما كانا محطّين فى ذلك . وكان الوضع معقدا بما كان الاميراطور البيزنطى يطالب به من حق مشروع فى الحصول على انطاكية والرها ، بموجب المعاهدة المبرمة بين الامراء والاميراطور فى القسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى ، والحصول أيضا على طرابلس بسبب ما اعترف به الكونت برتراند من سيادة للاميراطور .

وأدت خلافة فولك إلى إثارة المسألة برمتها. فتولت أليس ، شقيقة زوجته ، زعامة موحدة المعارضة لسيادته العليا ، وقد خضعت لأبيها الملك بلدوين وهى فى عزى شديد، لكنها الآن أعادت تأكيد مطالبتها بأن تكون وصية على ابنتها الصغيرة . ففى حالة إسكان التوصل إلى أن ملك القدس ليس السيد الأعلى لأنطاكية فلن تكون مطالبها هذه بلا أسس تستند إليه ، إذ أنه من المعتاد فى كل من بيزنطة والغرب منح الوصاية لأم الطفل الأمير . وقد كان موت جوسلين الأول ، بعد شهر تقريبا من موت بلدوين ، فرصة أتاحت لها ؛ إذ أن جوسلين كان وصيا على الأميرة الصغيرة كونستانس ، ولن يلجأ بارونات انطاكية إلى تعيين ابنه جوسلين الثاني وصيا مكان أبيه . وكان كونت الرها الجديد بنصت إلى ما كانت أليس تتملقه به من إطرء وهو فى حالة من عيبة الأمل ، فلا شك فى أنه هو الآخر غير مستعد لقبول فولك سيّدا أعلى له . وأبدها يوزر امير طرابلس أيضا ، وكانت زوجته سيشيليا قد حصلت من زوجها الأول ، تنكريد ، على أراضى قلعة اليعمور (روج) وأرزغان مهرا لها، ومن ثم أصبح من خلالها أحد عظام بارونات الإمارة الأنطاكية . وأيقن من أن تحرر انطاكية من القدس سوف يمكن طرابلس من أن تسير على نفس الدرب . وقد فازت أليس فعلا بتأييد أرفع البارونات شأنًا فى جنوب الإمارة وهم: الأخوان وليم وغاريتون فى زردنا، ولسوردات صهيون، وهى القلعة العظيمة التى شيدها البيزنطيون على التلال الواقعة خلف اللاذقية؛ وكان لديها أنصارها فى أنطاكية نفسها. غير أن أغلب لوردات انطاكية كانوا يخشون



خريطة رقم (٣) مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

من أن تحكمهم امرأة. وعندما سمعوا شائعات بما تديره أليس : - بو - معرونا إلى القدس لاستدعاء الملك فولك.

وفي الحال انطلق فولك من القدس مع جيش كان الأمر عديدا ليس بوسعه جماعته . وعندما وصل إلى حدود طرابلس رفض بونز أن يدعه يمر وكانت الكونتيسة سيثيليا أخت غير شقيقة لفولك ، ولم تفلح مناشدته لها باسم حقوق القرابة . وكان على جيش القدس أن يتقدم يمرا من بيروت إلى السويدية . وما أن هبط في الأراضي الأنطاكية حتى زحف الملك جنوبا وهزم الخلفاء الثمرديين في شاستيل روج (اليحمور). لكنه لم يكن على ما يكفي من القوة لمعاينة أعدائه . إذ اعتذر له بونز وتصالحا . وبقيت أليس دون أن يلحقها أذى في اللاذقية ، في أراضيها التي أخذتها على سبيل المهر . وغفر للأخوين وليم وجاريتون (أميرا صهيون) ، وكذلك جوسلين كونت الرها الذي لم يكن حاضرا في المعركة . ومن المشكوك فيه ما إذا كان فولك قد حصل على قسم الولاء من أي من بونز أو جوسلين ، ومن مواضع الشك كذلك مدى نجاحه في تحطيم الحزب الذي تحزب لأليس . وبعد شهور قليلة قتل وليم (أمير صهيون) في غارة إسلامية صغيرة على زردنا ، وعلى الفور تزوج جوسلين أرملة ييساتريس التي ربما منحت زردنا باعتبارها بالنتها . على أن السلام تحقق في ذات الوقت. واحتفظ فولك نفسه بالرعاية على أنطاكية ، وعهد بإدارتها إلى وكيل الإمارة (الكونسابل)، رينالد مازوار لورد مرقب . وعاد هو نفسه إلى القدس ليشارك في مأساة مرعبه في البلاط<sup>(٢)</sup>.

#### ١١٣٢م : هيو (أوف لو بواسيه) والملكة هيليند

كان من بين النبلاء شاب وسيم يدعى هيو (أوف لو بواسيه) لورد يافا وكان أبوه ، هيو الأول (أوف لو بواسيه) الأورليانزي ، وهو ابن عم مباشر للملك بلدوين الثاني ، زعيما للمعارضة البارونية للملك لويس السادس ملك فرنسا ، ودمر في عام ١١١٨م قلعة (لو بواسيه) وحرمه من أقطاعه . وكان شقيقا هيو جيلدون ،

(٢) William of Tyre, xiv.4-5, pp. 611-14; Michael the Syrian, iii, p. 233; Kemal ad-Din, p. 664. ويقول كمال الدين إن وليم صاحب زردنا قتل في الحرب الأهلية ولكن ليس بالفلانسي (p.125) يقول إن وليم قد قتل في وقت مبكر من عام ١١٣٣. والراجح أن يعود تاريخ تدمير كلس إلى وقت مبكر من عام ١١٣٢م.

واعب دير القديسة ماري جوزافات ، وواليران امير البيرة ، قد ذهبوا بالفعل إلى الشرق . وعندما أصبح بلدوين مؤرخا ملكا للقدس ، قرر هيو اللحاق بهم معه زوجته مايللا<sup>(٣)</sup> . وانطلقا مع ابنتهما الصغير هير وأنشاء مروهم في أبوليا سقط الولد مريضا ، فتركاه هناك في بلاط بوهمند الثاني وهو ابن عم مايللا المباشر . ولدى وصولهما فلسطين منحهم بلدوين لوردية يافا . ومات هيو الأول بعد ذلك مباشرة ، وعلى اثر ذلك انتقلت مايللا واقطاعتها إلى فارس ولوني<sup>(٤)</sup> هو ألبرت (أوف نامور) . وسرعان ما سار كل من مايللا والبرت على نفس دربه الذي انتهى بهما إلى القبر . وأما هيو الثاني ، وهو الآن في نحو السادسة عشرة من عمره ، فقد أبحر من أبوليا للمطالبة بملكه حيث كان أهم رفاقه ابنة عمه الأميرة الصغيرة ميليسيند . وفي نحو عام ١١٢١ م تزوج إساء ابنة اخت البطريرق ارتولف وأرملة أبوستاس حارثيه ، وهي سيدة في سن ناضجة غير أن أملاكها كانت شاسعة . وغنتها زوجها الطويل الوسيم ، غير أن ابنتها التوامين أبوستاس الثاني ورثت صيدا ، ووالتر ورثت قيسارية ، كانا يكرهان زوج امهما الذي كان يكرهما بقليل<sup>(٥)</sup> . وفي أثناء ذلك تزوجت ميليسيند من فولك ، ولم تحفل به مطلقا برغم حبه الكبير لها . وبعد تولي العرش استمرت في ألفتها مع هيو ، وشاع في البلاط القيل والقال ، فتمكنت الغيرة من فولك . وهناك أعداء كثيرون يعادون هيو بزعمه ابني زوجته ، فأشعلوا شكوك فولك ، واعيرا ، جمع هيو حوله -

(٣) كانت أم هيو الأول (أوف لو بواسيه) وامها أليس (أوف مونتهوري) ، أخت أم بلدوين الثاني ميليسيند (عائلة) . وهذا وارد في Cuissard, *Les Seigneurs du Puiset*, p. 89 . ومن الواضح أن الراهب جيلدون (أوف سانت ماري جوزافات) ، وواليران صاحب البيرة ، كانا أعموه . ومايللا هي ابنة هيو كونت روسي وامها هي سييللا ابنة روبرت جيسكارد ، كونت روسي . انظر أدناه المرفق الثالث للاطلاع على شجرة النسب الأولى ، ١ و ٢ . ويحظى وليم الصوري (انظر المراجع أدناه ص. ١٩٣ ، ملحوظة ١) باعتباره ان هيو الثاني ولد في أبوليا ، وفي هذه الحالة يكون قد تزوج في السادسة من عمره ! .

(٤) المترجم : نسبة إلى وآلون ، أي المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا وما حولها من مناطق فرنسية .

(٥) أما ابن أبوستاس حارثيه ليسا يقينين . ويظهر وولتر كلورد قيسارية وصيدا في وثيقة رسمية مؤرخة في ١٢ سبتمبر ١١٣١م (Rohrich, *Regesta*, p.35) ؛ وكان أبوستاس الثاني لورد صيدا عام ١١٢٦م (Rohrich, *Regesta Additamenta*, p.8) ، ويظهر أبوستاس ووالتر كأبني أبوستاس الأول في وثيقة رسمية في نفس العام (Rohrich, *Regesta*, p.28) . ولكن *Lignages* يسمى الابنين جيوارد ووالتر ، كما أن جيوارد Gerard يسمى جوي في *Assises* . انظر La Monte, *The Lords of Guy*, pp.188-90 . *Sidon in Byzantium*, vol xvii, الذي يجعل جيواردين أبوستاس الثاني، ويجعل موت الأخير قبل عام ١١٣١ عندما أصبح وولتر وصيا لجيوارد .

دفاعاً عن النفس - مجموعة من خاصته كان أبرز أعضائها رومان (أوف هوى) لورد منطقة الأردن. وسرعان ما تحزب نبلاء المملكة كلها بين الملك والكونت الذي اشتهر عنه التعاطف مع الملكة. وسادت مشاعر التوتر طوال أشهر الصيف من عام ١١٣٢م. وفي يوم ما في أواخر الصيف، عندما كان القصر زاخراً بالوجهاء من ذوي الجاذبية في المملكة، وقف ولتر حارثيه واثمهم زوج أمه، هيو، صراحة بأنه يتآمر على حياة الملك، ودعاه متحدياً إلى منازلته كي يبرئ ساحته. وأنكر هيو التهمة وقبل التحدي. وحددت المحكمة العليا تاريخ النزال، وعاد هيو إلى يافا ووالتر إلى قيسارية، لكي يجهر كل منهما نفسه للنزال.

وعندما أوف يوم النزال، جاء والتر إلى مكان النزال المحدد وهو قسٍ لمهبة الاستعداد، ولكن هيو لم يظهر. وربما شعرت الملكة بالخطر، إذ مضت الأمور شأواً بعيداً، فتوسلت إليه أن يتغيب، أو ربما كانت الكونتيسة إيثا هي التي ارتفعت عندما تصورت أنها لابد وأن تفقد إما الزوج أو الابن، أو ربما كان هيو هو نفسه، الذي كان مدركاً لما ارتكبه من اثم، خائفاً من انتقام الرب. ومهما يكن السبب، فقد كان حبه دليلاً ناصعاً على خيائته. ولم يعد يوسع أصدقائه تأييده أكثر من ذلك. وأعلن مجلس الملك غيايباً أنه مذنب، مما جعل هيو يعيش في ذعر دائم، فهرب إلى عسقلان ملتصقاً بالحماية من الحامية المصرية. فأعادته فصيلة مصرية إلى يافا وبدأت تنتهب سهل شارون، فصارت خيانة هيو الآن صريحة. وانقلب عليه أهم أتباعه، باليان، لورد بينه ووكيل يافا، وعندما جاء جيش ملكي على عجل من القدس إلى يافا، استسلمت له يافا في الحال. حتى المصريين، وجدوا في هيو حليفاً عقيماً فتخلوا عنه. فلم يكن له من يد سوى أن يسلم نفسه للملك.

ولم يكن عقابه قاسياً، إذ كانت الملكة صديقه، كما نصح البطريرق وليسم (أوف ميسين) بالرحمة. وكان الملك نفسه راغباً في تهدئة الأمور، إذ أطلت أخطار الحرب الأهلية برأسها. فضلاً عن أنه في ١١ ديسمبر، وعندما استنفر الجيش للترحف على يافا، كان أتايح دمشق قد فاجأ قلعة بانيلس واستعادها للإسلام. وتقرر نفى هيو ثلاث سنوات، يجوز له بعدها أن يعود إلى أراضيه وقد أعفى من العقوبة.

#### ١١٣٢م: محاولة قتل هيو

أثناء أن كان هيو ينتظر سفينة نقله إلى إيطاليا، ذهب إلى القدس في وقت مبكر

من العام الجديد لتدريج اصطفائه . وبينما هو يلعب الترد في إحدى الامسيات عند باب أحد جوانب الفراء ، تسلل فارس بريثوني<sup>(٦)</sup> من ورائه وطمعته في رأسه وفي يده ، فحملوه وهو ينزف نزيف الموت ، وفي التو حامت الشبهات حول الملك ، غير أن فولك تصرف فوراً تصرفاً لا يخلو من حصافة ، وسلم الفارس إلى المحكمة العليا لمحاكمته ، واعترف بأنه قد تصرف بمحض رغبته ، أملاً بذلك أن يفوز بمغفلة الملك ، وحكم عليه بالاعدام عن طريق بتر أرماله قطعة قطعة . ونفذ حكم الإعدام علناً . وبعد أن بترت ذراعاً الضحية ورجلاه ، ولكن مازالت رأسه كما هي ، أبحر على إعادة النطق بالاعتراف . وهنا أنقذت سمعة الملك ، غير أن الملكة لم تكن راضية . وبلغ بها الغضب من أعداء هيو أن ظلوا لشهور عديدة يمشون الاغتيا ، ولم يمر زعيمهم ، راووت أمير نابلس ، على المشى في الشوارع بدون حراسة . بل يقال أن الملك فولك كان خائفاً على حياته . على أن رغبته الوحيدة كانت الفوز بمغفلة زوجته ، فكان يوافقها على كل شيء ؛ أما هي ، وقد أحبطت في الحب ، فسرعان ما وجدت العزاء في التمتع بالسيطرة<sup>(٧)</sup>.

وقد نجح هيو من محاولة قتله ، ولكن ليس لفترة طويلة . وتقاعد في بلاط ابن عمه ، الملك روجر الثاني الصقلي ، الذي منحه إقطاعية جارجانو حيث مات فيها بعد فترة قصيرة<sup>(٨)</sup>.

ولاشك في أن فولك قد وجد الراحة في توجيه انتباهه إلى الشمال مرة أخرى ، إذ كان الوضع هناك نذير سوء للفرنجة أكثر مما كان عليه الوضع في أيام بلدوين الثاني . فليس في أنطاكية أمير قوي ؛ وجوسلين الثاني في السرها يقتصر إلى نشاط أبيه وحسه السياسي ، كان شخصاً بلا حاذية ، إذ كان قصيراً بدنياً ذاكن الشعر والجلد ، تنائر في وجهه البشور وبرز الأنف المائل وتحمض عيناه البارزتان . وكان حريماً بأن يأتي بلفترات كريمة ، لكنه كان كسولاً مترفاً فاسقاً ولا يصلح قط لقيادة أهم ثغور العالم المسيحي الفرشي<sup>(٩)</sup>.

(٦) (المراجع) نسبة إلى مقاطعة بريثون Breton الواقعة شمال غربى فرنسا.

(٧) ترد القصة مغلوكة لدى وليم الصوري William of Tyre, xiv, 15-17, pp. 627-33 ويذكر ابن الفلانسى (ص ٢١٥) باقتضاب وجود نزاع فيما بين الفرنج - "غير مألوف لديهم"

(٨) William of Tyre, xiv, 17, p. 633.

(٩) William of Tyre, xv, 3, p. 610 . واستناداً لما جاء فى (Créon. Anon. Syn. p. 35) ولد جوسلين الثاني عام ١١١٣م

وكانت ندرة القيادة بين الفرنج شديدة الخطر ، إذ أن المسلمين لديهم زنكى الآن، وهو الرجل القادر على جمع قوات الإسلام . وكان حتى الآن يتحين الفرصة ، إذ كان غارقاً في أحداث العراق بحيث لم يتمكن من استغلال الوضع الذى ساد فيما بين الفرنج. فقد مات السلطان محمود بن محمد عام ١١٣١م ، تاركاً ممتلكاته في العراق وجنوب فارس لابنه داود . غير أن سنجر ، وهو المهيمن في الاسرة ، قرر أن يؤول الميراث إلى أخى محمود ، طغرل صاحب قزوین وشقيق محمود، مما دفع أخوى محمود الآخرين - مسعود صاحب فارس و سلجوق شاه صاحب اذربيجان - إلى التقدم بمطالبهما . وسرعان ما تنازل داود الذى لم يؤيده الخليفة المسترشد ولا رعاياه . ولفترة من الزمن أعلن في بغداد عن قبول طغرل ، إذ كان نفوذ سنجر فى جمعيته ، وأحير سنجر مسعود على التحلى . على أن سنجر نفسه سرعان ما انطلقت جذوة اهتمامه بهذا الأمر ، وعلى الأثر جاء سلجوق شاه إلى بغداد وفاز بتأييد الخليفة . فأتبعه مسعود إلى زنكى بناديه المساعدة ، فزحف زنكى على بغداد ، لكن قوات الخليفة و سلجوق شاه هزمته بالقرب من تكريت . ولولا أن حاكم تكريت الكردي ، نجم الدين أبوب ، نقله عبر نهر دجلة ، لكان معتقلاً أو مقتولاً . ووجد الخليفة فى هزيمة زنكى تشجيعاً له على تحقيق حلمه فى بحث ما كان لآل بيته من قوة . وشعر حتى سنجر بالخطر ، فعاد زنكى - وهو نائبه - المجهوم مرة أخرى على بغداد فى يولية ١١٣٢م ، وهذه المرة متحالفاً مع الزعيم البدوي دويس المتقلب الأهواء . وكان زنكى منتصراً فى بداية المعركة ، لكن الخليفة تدخل بنفسه ، وهزم دويس هزيمة منكرة ثم تحول منتصراً إلى زنكى الذى اضطر إلى الانسحاب إلى الموصل. وفى الربيع التالى وصل المسترشد إلى هناك على رأس جيش ضخم ، وبدأ كما لو أن العباسيين سوف سيجعون أمجادهم الخوالى ، إذ كان سلطان العراق السلجوقي أكثر قليلاً من كونه تابعاً للخليفة . غير أن زنكى كان قد انسحب من الموصل وبدأ مفاوضات مع معسكر الخليفة بلا هوادة وقطع عنه الامدادات . وبعد ثلاثة اشهر انسحب المسترشد<sup>(١٠)</sup> وانتكست محاولة البعث العباسى . وخلال العام التالى أزاغ الأمير السلجوقي مسعود تدريجياً غيره من المتطلعين إلى سلطنة العراق ، برغم محاولات المسترشد الفاشلة فى منعه. ففى معركة حرت رحاها فى دايسرج فى يولية ١١٣٥م ، هزم جيش الخليفة

(١٠) 398-9 pp. Ibn al-Athir, و 78-85 pp. *Atabegs of Mosul* : انظر للمقالات Mas'ud ibn Encyclopaedia of Islam, "Tughril I, and Sanjar" فى دائرة المعارف الاسلامية

هزيمة نكراء اوقعها به مسعود وألقى القبض على الخليفة نفسه ، ونفاه إلى أذربيجان حيث قتلته الخشاشون ، وربما كان مسعود متواطئاً معهم . ونُصّب في الخلافة ابنه رشيد الذي استنجد بالمتطوعين إلى سلطنة العراق داود السلجوقي وزنكي ولكن بلا طائل . وتدبر مسعود خلع رشيد من الخلافة عن طريق القضاة في بغداد ، وتمكن خليفته المقتفي من إبعاد زنكي عن رشيد وداود بما وعده من وعود سخية . وهكذا ، وبعد أن نال زنكي التأييد باللقاب تشريف جديدة من المقتفي ومن مسعود ، وجد نفسه قادراً ابتداءً من عام ١١٣٥م قُدماً على نحويل اتباعه نحو الغرب<sup>(١١)</sup>.

#### ١١٣٣م : فولك ينقذ بونز أمير طرابلس

بينما كان زنكي منشغلاً في العراق ، كان واليه على حلب (سوار) الذي عينه يدير شئون سوريا نيابة عنه ، ولم يكن بوسع زنكي أن يرسل إليه الكثير من الجنود ، غير أنه نتيجة لإغراءات سوار التحقت مختلف جماعات قطاع الطرق التركمان بخدمته ، وتجهز بهم في ربيع ١١٣٣م لمهاجمة انطاكية . واستنجد الأنطاكيون الخائفون بالملك فولك كي يأتي لانقاذهم . وأثناء ترحاله شمالاً مع جيشه قابلته في صيدا كونتيسة طرابلس وأخبرته بأن زوجها بونز وقع في كمين نصبته عصابة من التركمان في جبال النصيرية وهربوا إلى قلعة بعين على حافة وادي العاصي . ونزولاً على رغبتها سار فولك مباشرة إلى بعين ، وباقتزائه انسحب التركمان . وأعدت تلك الحادثة ما كان بين فولك وبونز من علاقة ودودة . وسرعان ما تزوج بعد ذلك ابن بونز ووريثه - ريموند - من أخت ملكة القدس هوديرنا ، بينما تزوجت ابنته - آجنس - من ابن وكيل فولك في انطاكية - الكونتسابل ريموند مازوار أمير المرقب<sup>(١٢)</sup>.

وبعد أن أنقذ فولك كونت طرابلس ، وأصل تحركه إلى انطاكية ، حيث علم أن ساور قد أفلح في الاغارة على مدينة تل بشير الواقعة في أراضي الرها ، وأنه حشد جيشاً ليستخدمه ضد انطاكية . فتأخر فولك بضعة أيام متخذاً جانب الحذر ثم تقدم نحو معسكر المسلمين في قنسرين وباغته ليلاً بهجوم مفاجئ فاضطر سوار إلى التقهقر

(١١) Abul' Feda, pp. 21-3; Ibn al-Athir, *Atabegs of Mosul*, pp. 88-91; Ibn al-Tiqtaqa, *AlFakhiri*, pp. 297-8.

(١٢) William of Tyre, xiv, 6, pp. 614-15; Ibn al-Qalanisi, pp. 221-2; Ibn al - Athir, pp. 399-400.



والتخلي عن حياضه ، غير أن النصر كان أبعد ما يكون عن الاكتمال ، إذ أن المسلمين في المناوشات التي تلت قضاها تماما على عدة فصائل فرنجية . لكن فولك دخل انطاكية دخول الظافرين قبل أن يعود إلى فلسطين في صيف عام ١١٣٣ م . وما أن رحل حتى عاود سوار الاغارة على الأراضي المسيحية<sup>(١٣)</sup>.

#### ١١٣٥ م : زكي أمام دمشق

وباستثناء تلك الغارات الحدودية ، مرت سنة ١١٣٤ م بسلام فيه الكفاية . وفي العام التالي أضعفت الثورات العالم الإسلامي ؛ ففي مصر حاول الخليفة الفاطمي المحافظ كبح سلطان الوزارة بأن عين ابنه حسن وزيرا . لكن الشاب كاد أن يظهر نفسه في صورة وحش مخبول ، إذ أطاح برؤوس أربعين أميرا تباعا لاتهامهم باتهامات نافهة مما تسبب في اندلاع الثورة . ولم ينفذ الخليفة نفسه الا بعد أن قتل ابنه بالسم وسلم جسده للثأرين ، ثم عين وزيرا ارمنييا ، فاهرام ، الذي انصرف اهتمامه إلى زيادة ثراء اصدقائه ورفاقه المسيحيين أكثر من اهتمامه باتخاذ اجراءات عدوانية ضد الفرنج<sup>(١٤)</sup>. وكانت دمشق على نفس القدر من العجز ، فقد مات بوري ابن طغتكين عام ١١٣٢ م، وخلفه ابنه اسماعيل كأتايج . وبدأ حكم اسماعيل بداية ساطعة بالاستيلاء على بانياس من الفرنج وبعليك وحماء من أئداده ، لكنه سرعان ما بدأ يمزج بين القسوة الطاغية وحباية الضرائب الجائرة ، مما استفز البعض في محاولة لاغتياله ، فأنزل عقوبة الإعدام بالجملة ، حتى انه علق على الجدران شقيقه هو نفسه ، سونج ، لأوهي مغلطات الرية . وأزمع بعد ذلك القضاء على مستشار ابيه وموضع ثقته ، يوسف بن فيروز . وقد تحملت أمه ، الأميرة المهيبة زمرد ، موت ابنها سونج وهي متمالكة لنفسها ، لكن يوسف كان حبيبا ، فراحت تدبر أمرها لانقاذه . وبات اسماعيل مدركا أنه غير آمن حتى في قصره ، وفي لحظة الشعور بالخطر كتب إلى عدو أبيه القديم، زكي ، يعرض عليه أن يصبح تابعا له اذا استطاع زكي أن يبقيه في السلطة ، وان لم يفعل زكي ذلك فسوف يسلم دمشق للفرنج . ولم يكن بوسع زكي أن يرحل عن الموصل دون أن يهزم الخليفة العباسي المسترشد ، غير أنه في ذات الوقت لا يستطيع تجاهل النداء

(١٣) William of Tyre, XIV, 7, pp. 615-16; Ibn al-Qalanisi, pp. 222-3; Kemal ad-Din, p. 665.

(١٤) Ibn al-Athir, pp. 405-8.

الذي تسلمه متأخراً للغاية . فعبر الفرات يوم ٧ فبراير، لكن زمرد قبل ذلك بستة أيام، نفّذت اغتيال اسماعيل وتولية ابنها الأصغر شهاب الدين محمود . وأرسل زنكي رسله إلى الاتابغ الجديد كي يستسلم، غير أن هذا الأخير، وب تأييد من سكان دمشق، رد على الرسل باعتذار مهذب . ولما وصل زنكي إلى دمشق، وقد استسلمت له حماء وهو في الطريق، وجد دمشق في حالة دفاع . وأخفقت محاولته قصف الأسوار، وسرعان ما نفدت المون من معسكره، وتخلّى عنه البعض من جنوده . وفي تلك اللحظة وصلته سفارة من الخليفة المسترشد، ترحوه أن يتلطف ويحترم استقلال دمشق . وقيل زنكي بامتنان واعتذاراً مكثه من الانسحاب دون مساس بمكانته . وحل السلام بين زنكي ومحمود، وقام زنكي بزيارة رسمية لدمشق، غير أن محمود لم يتوفر لديه ما يكفى من الثقة في زنكي بحيث يرد الزيارة، فأرسل أخاه بدلاً منه<sup>(١٥)</sup>.

وكانت تلك الحادثة، التي جاءت في وقت ضعفت فيه مصر، بمثابة فرصة نادرة للفرنج لاسترداد بانياس والمبادرة بالعدوان . غير أن فولك ترك الفرصة تفلت من بين يديه . ذلك أن زنكي، بعدما خلّص نفسه من دمشق، راح يغير على الأراضي الأنطاكية . فبينما كان قائده ساوار يهدد تل بشير وعيتاب وعزاز، مانعا وجود الاتصال بين جيشي أنطاكية والرها، كان زنكي يكتسح طريقه مروراً بمحصون الحدود الشرقية، كفرطاب، والمعرة، وزردنا، والأثارب مستولياً عليها الواحدة تلو الأخرى. ولحسن حفظ الفرنج اضطر وقتئذ إلى العودة إلى الموصل، ولكن الدفاعات الحدودية ضاعت من الفرنج<sup>(١٦)</sup>.

وأرغمت تلك الكوارث فولك على السير إلى الشمال مرة أخرى . وكان مايزال وصيا اسمياً على أنطاكية، لكن السلطة هناك كانت في يد البطريرق الوقور برنارد . على أن برنارد مات في أوائل الصيف، وقد كان رجل دولة مقتدراً، نشطاً، ثاباً، شجاعاً، لكنه كان حازماً مع نبلاء الفرنج، ومتعصباً إزاء المسيحيين الوطنيين . وهكّل العوام خلقيته أسقف المصيصة اللاتيني، رادولف (أوف دومفور) الذي، فانتخذ لنفسه العرش البطريرقي دون انتظار انتخاب كنسي . وقد كان رادولف رجلاً مختلفاً جداً، إذ كان مليحاً، برغم حوّل طفيف، محباً للآبهة، مبسوط اليد، بشوشاً، ليس

(١٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 211-36, أنورد ابن القلانيسي رواية كاملة للغاية، لكنه يعزو الدوافع الجديدة بالثناء إلى قتل السيدة المحبة لابنها . فيقول أن الوزير الأول لإسماعيل كان كردياً مسيحياً، هو برتراند الكافر . 403-5. Ibn al-Athir, pp. 667-70; Kemal ad-Din, p. 329; Bustan.

(١٦) Kemal ad-Din, p. 670.

بصاحب علم ولكنه كان متحدثاً فيه استدراج وفصاحة ، لكنه كان - وراء قناع من الشفقة - متعلقاً بالدنيا ، طموحاً ، حبيشاً . ولم يكن راغباً في أن يسيطر عليه الملك ورجاله ، ولذا استهل المفاوضات مع السيدة الأرملة الأميرة أليس التي كانت مازال تعيش في أراضيها في اللاذقية . ووجدت أليس فرصتها وناشدت احتها الملكة ميليسند للمساعدة . وجاء فولك إلى انطاكية في أغسطس في زيارة قصيرة . وشعر بأن القوة تنقصه بحيث يحتاج على انتخاب رادولف انتخاباً غير عادي ، ولا يستطيع الآن أن يرفض شيئاً تراه زوجته . وشُحح للأميرة أليس بالعودة إلى انطاكية . وبقي فولك وصياً ، ولكن السلطة باتت مشاركة في تحالف غير مسير بين الأرملة والبطريرق<sup>(١٧)</sup> .

#### ١١٣٦م : استدعاء ريموند (أوف بواتيه) إلى انطاكية

وما لبث رادولف أن تشاجر مع رجال الدين التابعين له ، وبقيت أليس سيدة المدينة . ولكنها كانت في وضع مقلقل ، إذ كان أهم تأييد لها يأتيها من السكان المسيحيين الوطنيين ، وكما ظهر من محاولتها التواطؤ مع زنكي ، كان تقديرها للعواطف الفرنجية شيئاً ضئيلاً . والآن طافت بذاتها خطة أفضل . فقد أرسلت في نهاية عام ١١٣٥م مبعوثاً إلى القسطنطينية يعرض بد ابتها الأميرة كونستانس لابن الامبراطور الأصغر مانويل . وربما اقدمت على هذا التصرف ، كما أعلن الصليبيون المرتاعون ، بتواضع طموحاتها الشديدة ؛ غير أنها في واقع الأمر قدمت أفضل حل للمحافظة على شمال سوريا . إذ كان العنصر اليوناني قوياً في انطاكية ، والتهديد الاسلامي يتعاظم في ظل زنكي ، والامبراطورية البيزنطية هي القوة الوحيدة التي يتوفر لها ما يكفي من القوة للتصدي لهذا التهديد . إن دولة تابعة ، يجرى حكمها في ظل السيادة الامبراطورية ، أولاً بالأميرة نصف الارمنية أليس ، ثم بصورة مشتركة بين أمير بيزنطي وأميرة فرنجية ، كانت حلقة حقا بأن تلحم اليونانيين والفرنجة معاً من أجل الدفاع عن العالم المسيحي . غير أن نبلاء الفرنج باتوا في رعب شديد ، ورأى البطريرق رادولف نفسه وقد أزيل من منصبه لصالح يوناني بغض . ويبدو أن بارونات انطاكية استشاروا الملك فولك أثناء زيارته حول أنسب زوج لكونستانس . والآن ذهب رسول سرا إلى الملك يقول إن من اللازم العثور على زوج في الحال . وبعد أن استعرض فولك

(١٧) William of Tyre, xiv, 9, 20, pp. 619-20, 636 . كان فولك في انطاكية في أغسطس عام ١١٣٥م وفقاً لما جاء في Rhricht, Regesta, p. 39

كل أحواله من الأمراء الفرنسين ، قرر اختيار ريموند (أوف بواتيه) وهو الابن الأصغر لدوق أكيثان وليم التاسع ، وكان آنذاك في إنجلترا في بلاط الملك هنري الأول الذي تزوجت ابنته مؤخرًا من ابن فولك جيوفري . وأرسل فارس من فرسان المستشفى ، جيرارد جيبار ، إلى إنجلترا لإحضاره وروعت أقصى درجات السرية ، فلا يجب أن تعرف أليس شيئًا ، ولا تؤمن حتى الملكة لو علمت . وهناك عطر آخر يكمن في عداوة الملك ووجع الصقلي الذي لم يغفر إليه لملكته القنص اعانتها لأمه أدهلايدى ، والذي كانت طموحاته في البحر المتوسط لا تدعه قط يسمح بمرور من يتطلع إلى الإقتران بأعظم الوريثات في الشرق . ووصل جيرارد إلى البلاط الإنجليزي وقبل ريموند العرض . لكن الملك ووجع اطلع على السر ، إذ كان نورمانديو إنجلترا وصقلية على اتصال وثيق ببعضهم البعض دائما . فقرر القبض على ريموند الذي لن يجد سفينة تقله إلى سوريا إلا من ميناء في جنوب إيطاليا . واضطر ريموند إلى تجزئة بطانته والتنكر على هيئة حاج حينا ، وخادم لتاجر حينا آخر ، وتمكن من التسلل من خلال الحصار ، ووصل انطاكية في ابريل ١١٣٦ م .

ولم يكن وصوله ليخفى على أليس ، ولذا ذهب في الحال لمقابلة البطريق . وعرض عليه البطريق رادولف المساعدة بشروط أن يخضع ريموند له ويذعن له في كل شيء . فلما وافق ريموند طلب رادولف الاجتماع مع أليس ليخبرها أن ذلك الغريب الفتان جاء طالبا يدها . وهي قصة مقنعة ، إذ كان ريموند في السابعة والثلاثين ، وأليس دون الثلاثين ، وابنتها كونستانس بالكاد في التاسعة . وبينما كانت أليس في قصرها تنتظر عطيبي المستقبل ، اختطف البعض كونستانس وذهبوا بها إلى الكندرية حيث سارع البطريق باجراء زفافها بريموند . وانهزمت أليس . فليس للأرملة المستة حقوق إزاء الزوج الشرعى للوريثة . فتقاعدت مرة أخرى في اللاذقية لتبقى متفطرة القلب ما تبقى من حياتها القصيرة<sup>(١٨)</sup>.

وكان ريموند في ميعة الصبا ، وسيما ذا قوة بدنية رائعة . ولم يصب من العلم إلا القليل ، مغرم بالمقامرة، طامش وكسول في ذات الوقت ، على أنه كان ذا شهرة في الكياسة ومهارة السلوك<sup>(١٩)</sup> . وسرعان ما تسببت شهرته بين الناس في اوتياح البطريق

(١٨) William of Tyre, xiv, 20, pp. 635-6; Cinnamus, pp. 16-17; Robert of Torigny (I.p. 184)، ويعتقد ووبرت ان ريموند تزوج ارملة بوهمند الثاني .

(١٩) William of Tyre, xiv, 21, pp. 637-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 522، يصف كمال الدين كيف كان يستطيع نفي قضيب حديدى (p. 125) Cinnamus الذي يقارنه بهرقل .

الذي استمرت مشاكله مع تابعيه من رجال الدين ، ووجد نفسه يعاقل باحترام وإنما في الواقع مسلوب القوة . وأيد النبلاء ريموند تأييدا قويا ، إذ كانت حقيقة الوضع بالنسبة لهم من الخطورة بحيث لا يملكون غير ذلك ، فكانت الإمارة مهتزة لفقدانها الدفاعات الشرقية ، ليس هذا وحسب وإنما قام أحد المغامرين التركمان في الجنوب ، في جبال النصيرية ، بالاستيلاء على حصن بكسرايل من صاحبه رينالد مازوار عام ١١٣١م ، وفي عام ١١٣٦م كاد يستولى على بلاطس . ثم إن بكسرايل قد استردت بعد ذلك . وفي الجنوب الأبعد ، حيث سبق للفرنج الاستيلاء على قلعة قدموس عام ١١٢٩م ، عادت تلك القلعة عام ١١٣١م إلى الأمير المسلم ، سيف الدين ابن عمرون صاحب قلعة كهف التي باعها في العام التالي لزعيم الحشاشين أبو الفتح . وفي عام ١١٣٥م اشترى الحشاشون قلعة كهف نفسها من أولاد سيف الدين ، وفي شتاء عام ١١٣٦م انتزعوا حصن الجزيرة من الفرنج<sup>(٢٠)</sup> . وكانت كيليكيا قد ضاعت فعلا من أنطاكية . ذلك أنه في عام ١١٣١م ، بعد موت يوهنن الثاني مباشرة ، هبط الأمير ليو الروينسي - بعد أن تدبر حماية ظهره بتحالف مع الأمير الدانشمندى - إلى السهل واستولى على المدن الثلاث : المصبصة وطرسوس وأدنه . وكان أخوه وسلقه ، ثوروس ، قد أفتح قبل ذلك بسنوات قليلة في طرد الحاميتين البيزنطيتين من سيس وعين زربة في داخل البلاد . وفي ١١٣٥م انتزع ليو من بلدوين - لورد مرعش - قلعة سرفنتيكار الواقعة على منحدرات جبال الأمانوس . على أن قبضة الأرمن على كيليكيا كانت ضعيفة ، إذ بلغا إليها قطاع الطرق وباتت سواحلها مرتعا للقراصنة<sup>(٢١)</sup> .

#### ١١٣٦م : الحرب مع الأرمن

ولم تكن كوتية الرها أفضل حالا . إذ أن تمرشاش الأرمنسى ضم مؤخرا بعض أراضيها في الشرق ، وفي الشمال تنازل ميخائيل أمير كركر الأرمني الذي عجز عن الصمود أمام الترك ، عن أراضيها للكونت جوسلين الذي سلمها في خطوة طائشة إلى العدو الشخصي لميخائيل ، بازل ، شقيق بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) الأرمني ، فشبت حرب أهلية بين الأميرين الأرمنيين ، واضطر جوسلين إلى تزويد

(٢٠) Ibn al-Qalanisi, p. 241; Usama, ed. Hitti, p. 157; Kernal ad-Din, p. 680.

(٢١) Gregory the Priest, p. 152; Michael the Syrian, III, pp. 230-3; *Armenian Rhymed Chronicle*, p. 499; Sembat the Constable, p. 615.

كركر بحماية من عنده ، لكنه لم يستطع الحيولة دون أن يتناوب الأرمن والأتراك نهب الريف . فأغار سوار على منطقة تل بشير عام ١١٣٥ م ، وفي ابريل ١١٣٦ م تقريباً ، وفي نفس الوقت الذي وصل فيه ريموند (أوف بواتيه) إلى الشرق ، لم يكتف قائده أفشين بشق طريقه خلال الأراضي الانطاكية حتى اللاذقية في الجنوب وهو يهزم القرى وينهبها في طريقه ، وإنما استدار شمالاً فيما بعد ماراً بمرعش وكيسوم ، وكان أميرهما - بلدوين ، التابع الرئيسي لكونت الرها - يفتقر إلى القوة التي يدافع بها عن أراضيه<sup>(٢٢)</sup>.

واعترض ريموند أن تكون أول مهامه استعادة كيليكيا ، وكان عليه أن يوفر الحماية لمؤخرته قبل أن يغامر بمواجهة زنكي . وبموافقة الملك سار مع بلدوين أمير مرعش لمهاجمة الروبيين ، لكن التحالف لم يكن مكتملاً . إذ أن جوسلين أمير الرها ، وبرغم كونه تابعاً للملك وسيداً لبلدوين ، كان أيضاً ابن أخت ليو الأرميني (صاحب كيليكيا) ومالت عواطفه ناحية خاله ، ولم تعد سلطة ملك القسطنطين كافية لإعادة توحيد امراء الفرنج . ويمكن ليو - بمساعدة جوسلين - من دحر الجيش الأنطاكي . وإذا هو متضرر ، وافق على مقابلة شخصية مع بلدوين الذي غدر به وسجنه وبعثه أسيراً إلى أنطاكية . وفي غيبة ليو تشاجر أبناؤه الثلاثة ، وانتهى أمر كبيرهم ، كونستانتين ، إلى أن اعتقله أخوه وأعمى عينيه . لكن الفرنج في الوقت نفسه لم ينتفعوا من الأحداث بشئ . وقام الأمير الدانشمندى محمد الثاني ابن غازي بغزو كيليكيا ، مدمراً الحصاد ، ثم تحول إلى أراضي بلدوين فانتهبها في طريقه حتى كييسوم . ولم يجد ليو ، الذي هزته الكوارث ، من وسيلة سوى أن يشق حريقه بالتخلي عن مدن كيليكيا لريموند ، لكنه وهو في طريق عودته إلى وطنه تناسى وعده . واشتعلت مرة أخرى حرب مضطربة إلى أن تمكن جوسلين في اواخر ١١٣٧ م من رفق هدنة بين المتحاربين الذين ارتاعوا من انباء جاءتهم من الشمال ، مفادها أن الاميرة أليس ليست حمقاء مع كل ماحدث<sup>(٢٣)</sup>.

ولم يتمكن الملك فولك من تقديم أى عون فعلى لصديقه ريموند ، إذ كان عليه مواجهة الخطر أقرب إليه . ذلك أن حكومة اتابج دمشق الصغير عمود كانت خاضعة

(٢٢) Michael the Syrian, III, p. 244; Ibn al-Qalanisi, pp. 239-40; Kemal ad-Din, p. 672.

(٢٣) Gregory the Priest, *loc cit.* (and note by Dulaurier); Semhat the Constable, p. 616; Matthew of Edessa, ccliii, p. 320-1.

لما كان يحارسه يوسف - عشيق أمه - من سيطرة هادئة ، غير أنه في إحدى أمسيات ربيع ١١٣٦ م ، وبينما كان الأتابيع محمود يمشى في الفناء مع يوسف والقائد المملوكي، بزواج انتقض الأخير فجأة على يوسف وطلعه طلعات قاتلة ثم هرب إلى كنيسته في بعلبك . ومن هناك هدد بالزحف على دمشق ما لم يصبح هو الوزير الأول . فأذعن محمود لرغبائه ، وسرعان ما اتخذ الدمشقيون موقفا عدوانيا من الفرنج ، ففي بداية العام التالي قاموا بغزو كونتية طرابلس ، يساعدتهم المسيحيون المحليون الذين لا يحملون ولاء للفرنج ، فقاموا بارشادهم سرا خلال ممرات لبنان إلى داخل السهل الساحلي ، وبذا بوغت الكونت بونز ، فخرج بجيشه الصغير لملاقاتهم فلقى هزيمة كانت بمثابة كارثة ، وهرب هو نفسه داخل الجبال ، ولكن فلاحا مسيحيا خائنه وأوشى به للمسلمين فقتل في الحال . أما أسقف طرابلس ، جيرارد ، الذي أسر في المعركة ، فكان أسعد حظا إذ لم يتعرف عليه أحد ، وسرعان ما تمت مبادلته على أنه رجل ليس له أهمية . واستولى بزواج على حصن حدودي أو اثنين ، لكنه لم يجازف بمهاجمة طرابلس نفسها ، وسرعان ما عاد إلى دمشق يحمل الغنائم الكثيرة<sup>(٢٤)</sup>.

#### ١١٣٧ م : استخلاف ريموند الثاني في طرابلس

استمر حكم بونز في طرابلس حمسا وعشرين سنة . ويبدو أنه كان إداريا مقتدرا، ولكنه كان عديم القيمة من الناحية السياسية ، متلهفا دائما إلى التحرر من تسيد ملك القدس عليه ولكنه كان بالغ الضعف بحيث لا يستطيع تحقيق الاستقلال . وخلفه ابنه ، ريموند الثاني ، الذي كان مزاجه أكثر جدّة ، وقد بلغ الآن من العمر الثانية والعشرين ، وتزوج مؤخرًا من الأميرة هوديرنا شقيقة مليسند ملكة القدس ، وكان منصرفا إليها بكل جوارح الغيرة . وكان أول ما بدأه من أعمال أن انتقم لمقتل أبيه ، ليس من عماليك دمشق ، فقتلهم لا قبل له بها وإنما من مسيحيي لبنان الغادرين ، فزحف على القرى التي تخوم الشكوك حول مساعدتها للأعداء ، وراح يقتل الرجال ويأخذ النساء والأطفال لبيعهن عبيدا في طرابلس . وتركت قسوته بصمات الجبن على اللبنانيين ، مما أدى إلى نفورهم من الفرنج<sup>(٢٥)</sup>.

(٢٤) William of Tyre, xrv, 23, p. 640; Ibn al-Qalanisi, pp. 240-1; Ibn al-Athir, pp. 419-20

(٢٥) William of Tyre, loc. cit

ولم يستحسن زنكى ما قام به بزواج من نشاط . فهو لا يفضل مهاجمة الفرنج مع وجود دولة مسلمة عدوانية مستقلة على جانب من جوانبه . وفي نهاية يونية زحف على حمص ، التي كان يتكلمها أثر المملوك المسن باسم أتايح دمشق . وظل زنكى أمام المدينة نحو من اسبوعين ، إلى أن جاءت ابناء اقزاق جيش فرنجي قادم من طرابلس . وأيا ما كانت نوايا الكونت رموند ، تسبب تحركه في أن يرفع زنكى الحصار عن حمص ويتحول إلى الفرنج . وبينما كان رموند يتفكر أمامه ، أخذ يتقدم لمحصنة قلعة بعين العظيمة الواقعة على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية ، والتي تتحكم في المدخل إلى البقاع ، بينما أرسل رموند إلى الملك فولك في القدس طالبا مساعدته .

وكان فولك قد تسلم لتوء نداء عاجلا من أنطاكية ؛ لكنه لا يستطيع تجاهل التهديد الاسلامي لطرابلس . فأسرع شمالا مع كل ما استطاع جمعه من رجال كي يلحق برموند . وانطلقا معا في مسيرة اضطرارية حول سفوح تلال النصيرية إلى مونت فرات . وكانت رحلة شاقة سرعان ما جعلت الجيش في حالة يرثى لها . وكان زنكى قد ابتعد باقزايهما ، لكنه عندما سمع بمحلتهم عاد وأطبق عليهم من حوله عندما كانوا خارجين من التلال بالقرب من القلعة . وبلغت الفرنج المرهقون . وحاربوا بشجاعة لكن المعركة سرعان ما انتهت ، تاركة أغلب الفرنج جثثا ملقاة في الميدان ، والآخرين في الأسر ، بمن فيهم كونت طرابلس ، بينما هرب فولك مع قلة من حرسه الشخصي إلى داخل القلعة<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١١٣٧ م : استسلام قلعة بعين

بادر الملك فولك ، قبل أن يتمكن زنكى من محاصرة القلعة ، بارسال الرسل إلى بطريق القدس ، وكونت الرها ، وأسير أنطاكية ، متوسلا ارسال العون العاجل . واستجاب الثلاثة لندائه متجاهلين المخاطر الأخرى ، إذ أن وقوع الملك وكل فرسانه في الأسر قد يعنى فعلا نهاية المملكة . فقام البطريق ولیم بتجميع باقي الميليشيات المتبقية في فلسطين وقادها - والصليب المقدس على رأسها - شمالا إلى طرابلس . وهبط جوسلين الرها من الشمال متناسيا هجومه المحلي ، وانضم إليه في الطريق رموند أمير أنطاكية الذي اضطر إلى مغادرة عاصمته في هذه اللحظة على مضض . وكانت

(٢٦) William of Tyre, xiv, 25m 00,643-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 242-3 (٢٦) بلقاء ذكر التحالف الدمشقي الفرنجي) Ibn al-Athir, pp. 420 Kemul ad-Din, pp. 672-3;



فلسطين حسنة الحظ جدا ، إذ لم يكن جيرانها في مزاج عدواني ، وقد تعرضت من كل رجالها المحاربين . فكانت مصر مشلولة بثورة في القصر أدت إلى الاستعاضة عن الوزير الأرمني باهرام واستبداله بوزير آخر عنيف مناهض للمسيحيين هو رضوان بن الوحشي ، الذي كان مشغولا تماما بقتل اصدقاء سلفه والمراك مع الخليفة . وأغاريت حامية عسقلان على ليديا ، لا أكثر<sup>(٢٧)</sup> . وكان المملوك بزواج والي دمشق أكثر عطوبة ، فما أن غادر البطريق مملكة القدس حتى سمح لنفسه بنهب البلاد في طريقه جنوبا حتى مدينة نابلس المفتوحة فقتل سكانها ، لكنه بالنسبة لدمشق كان يتخفى ما يترتب على مجتمع زنكي بانتصار ساحق ، بحيث لم يكن يرغب في الضغط على الفرنج إلى آخر المدى<sup>(٢٨)</sup>.

وتجمعت قوات الإغاثة في نهاية يولية في البقاع ، بينما كان يأس الملك آخذا في التزايد في قلعة بعين ، إذ انقطعت عنه أخبار العالم الخارجي ، وأخذ يحوميه يتناقص ، وزنكي يستخدم آلات المنجنيق العشر ليل نهار يرمي بها الحجارة فتدق أسوار القلعة . وأخيرا بعث فولك رسولا إلى زنكي يسأله عن شروطه . وليهتته التي تغالطها الريبة ، طلب مجرد تسليم قلعة بعين ، وبإمكان الملك الانصراف مع كل رجاله في حرية . وفضلا عن ذلك ، سوف يطلق سراح الفرسان البارزين المأسورين في المعركة بمن فيهم كونت طرابلس ويدون أية فدية . فقبل فولك في الحال . وحافظ زنكي على كلمته ، وجيء بالملك فولك وحرسه الخاص أمام زنكي الذي عاملهم بكامل مظاهر التشريف ، وأمدى الملك رداء فاخرا وسمح لهم باصطحاب اخدانهم ، وساروا في طريقهم آمنين . وقابلوا جيش الإغاثة في البقاع ، أقرب مما كانوا يظنون . واغتشاط البعض لاكتشافهم انهم لو صمدوا قليلا فرما أمكن انتقاذهم ، على أن آخرين أكثر تعقلا أسعدهم أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب<sup>(٢٩)</sup>.

والحقيقة أن ما كان عليه زنكي من وفق وأناة ما يفتأ يتسبب في ذهول المؤرخين . لكن زنكي كان على دراية تامة بما يفعله . فليست بعين بالباطرة الحفيرة ، وامتلاكها سيمتد الفرنج من التوغل في وادي العاصي الأعلى . كما أنها في موقع يتحكم تماما

(٢٧) William of Tyre, xrv, 26-45-7.

(٢٨) *Idem*, xrv, - p. 647.

(٢٩) William of Tyre, xrv, 28-9, pp. 545-51; Ibn al-Qalanisi, *loc. cit.*; Kemal ad-Din, *loc. cit.*; Ibn al-Athir, pp. 421-3.

فى حماء وحصص الدمشقية ، والحصول عليها بلا مزيد من الحرب فيه الغناء ، لأنه كان  
راغبا عن المجازفة بمعركة مع قوة الإغاثة الفرثية على مثل هذا القرب القريب من تقوم  
دمشق التى لن يزدد حكامها فى انتهاز ما قد يعانیه من هزيمة . فضلا عن ذلك كان  
زنكى ، كشأن أعدائه الفرنج ، يشعر بالقلق من الأنباء الآتية من الشمال.



---

## الفصل الثالث:

### مطالب الإمبراطور



## مطالبج الامبراطور

"لَا يَنْجِلْ عَلَى السَّوَاءِ يَفْزِلْ لَأَنَّ السَّوَاءَ يَكُونُ أَجْرَةً"  
(أوب ١٥ : ٣١)

أما الأنباء التي تسببت في رتق سلام بين الفرنج والأرمن ، والتي جعلت الأمير  
ويعوند يشعر كارها لمغادرة أنطاكية ، والتي دفعت زنكسى إلى إظهار الرحمة لأعدائه ،  
فهى أنباء تحرك جيش ضخيم قسى داخل كيليكيا يقوده الامبراطور جون كومنينوس  
بشخصه . فمتد أن فشل الامبراطور الكسيوس قسى الحضور إلى أنطاكية أثناء الحملة  
الصليبية الاولى ، اعتاد السياسيون في الشرق الغربي على تجاهل بيزنطة تجاهلا لا يخلو  
من تلاف ، وحتى مع فشل محاولة بوهمند غزو الامبراطورية من الغرب فشلا ذريعا ،  
فقد عجز الكسيوس تماما عن ضمان تنفيذ شروط المعاهدة التي وقعها بوهمند . وكما  
يعلم فرنج أنطاكية جيدا ، كانت همومه الأقرب إلى وطنه هى التي صرفته عن ذلك .  
واستمرت تلك الموم لما يقرب من ثلاثين سنة ، نظرا للحروب المتقطعة المنتشرة

في كل مكان من تخوم الامبراطورية ؛ فكانت هناك غزوات البولوفستين<sup>(١)</sup> عبر الدانوب الأسفل ، كما حدث في عامي ١١١٤م و ١١٢١م . وكان هناك التوتر المستمر مع المنجاريين في الدانوب الأوسط ، الذي اندلع حربا صريحة عام ١١٢٨م ، ووصل الغزو المنجاري لشبه جزيرة البلقان حتى صوفيا ، لكن الامبراطور دحر هذا الغزو وهزم المنجاريين في أراضيهم . ودأبت المدن التجارية الإيطالية على الاغارة من حين لآخر على الامبراطورية كي تسترعى مزايا تجارية ، فحصلت بيزا على معاهدة تفضيلية عام ١١١١م ، وأما البندقية ، فاستمرت الحرب بينها وبين بيزنطة أربع سنوات بعد أن رفض الامبراطور جون تجديد الامتيازات التي منحها أبوه ، وفي ١١٢٦م استردت بعد تلك الحرب كافة ما كان لها من حقوق . وكان نورماندير جنوب إيطاليا ، في حالة من الجبن منذ هزيمة يوهنند في دورازو (ديرهاكيوم) ، وأصبحوا مصدر خطر مرة أخرى عام ١١٢٧م عندما قام روجر الثاني الصقلي بضم إقليم أبوليا . ثم أن روجر الثاني ، الذي اتخذ لنفسه لقب ملك عام ١١٣٠م ، تلبسته كراهية عائلته لبيزنطة ، رغم ميله إلى اقتباس أساليبها ورعاية فنونها . لكن طموحاته كانت من الاتساع بحيث كان من اليسير دائما العثور على حلفاء لكبح طموحاته . فلم يكتف بالسعى للسيطرة على إيطاليا وحسب ، وإنما كان يطالب بانطاكية باعتباره الممثل الوحيد الباقي على قيد الحياة من ذكور بيت هوتفيل ، بل والقدس نفسها استنادا إلى المعاهدة التي أبرمتها امه أديلايدى مع بلدون الأول<sup>(٢)</sup>.

#### الأيام الأخيرة من حكم الكسيوس الأول

ولم يكن هناك سلام في آسيا الصغرى . وخلال الحملة الصليبية الأولى وبعدها عزز الكسيوس قبضته على الثلث الغربى من شبه الجزيرة وعلى السواحل الشمالية والجنوبية ، ولو أنه تعامل مع الأمراء الأتراك فقط لاستطاع الاحتفاظ بأملكه سليمة ، لكن جماعات من التركمان دأبت على التسلل داخل البلاد بحيث تضاعفت أعدادهم

(١) (الخرم) : البولوفستون Polovstians بالروسية أو الكومان Kuman بالبيزنطية أو الكيشاك Kipchak : القزاق قبائل احتل مناطق شاسعة من السهول الآسيوية الأوروبية ، من شمال بحر الآرال وحتى شمال البحر الأسود.

(٢) عن روجر الثاني انظر: 1-51. Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 1-51. وقام Basil of Edessa الميعقوبى بعمل وصف تخطيطى عن الغزو البولوفستى عام ١١٢٦م ، وقد أعاد منه ميخائيل السوري (III, p. 207) . Michael the Syrian

وقطمانهم ، وكان حتما أن يتدفقوا في الوديان الساحلية سعيا وراء مناخ ألطف ومراع أكثر ، ومن ثم، كان لابد من انهيار الحياة الزراعية المستقرة للمسيحيين . وفي واقع الأمر ، كلما كان ضعف الأمراء يزداد كلما زاد رعاياهم البدو ضراوة وعطوارة على الامبراطورية<sup>(٣)</sup>.

وفي الوقت الذي مات فيه ألكسيوس عام ١١١٨م، كانت الأناضول التركية مقسمة بين السلطان السلجوقي مسعود ، الذي كان يحكم من قونية الجزء الجنوبي من وسط شبه الجزيرة ، من نهر صغاري إلى جبال طوروس ، والأمير الدانشمندی غازی الثاني، الذي كانت أراضيه ممتدة من نهر هاليس إلى نهر الفرات . وقد ابتلعا ما بينهما من الإمارات الأصغر ، باستثناء ملطية في الشرق حيث كان أخو مسعود الأصغر ، طغرل، يحكم تحت وصاية له وزوجها الثاني ، بلك الأرئقي . وعلى الرغم مما أحرزه البيزنطيون من انتصار في فيلوميلوم عام ١١١٥م ، وما أعقب ذلك من محاولة رسم الحدود ، استعاد الأتراك في السنوات التالية لآوديكيا الفريجية وتوغلوا داخل وادي نهر المياندر وقطعوا الطريق الذاهب إلى أضايا . وفي الوقت ذاته كان الدانشمندی يشدد هجماتهم باتجاه الغرب داخل باغلاجونيا . وكان الامبراطور الكسيوس ينقطع لحملة يسترد بها مناطق الحدود الأناضولية عندما عرض له مرضه الأخير<sup>(٤)</sup>.

#### ١١١٨م : ولاية عهد جون كومنينوس

جلبت ولاية عهد الامبراطور جون قوة جديدة لبيزنطة . وكان جون ، الذي يطلق عليه رعاياه (كالويونيس) ، أي جون الطيب ، واحدا من تلك الشخصيات النادرة التي لا يجد فيها أي مؤرخ من معاصريه ما يعيبها ، باستثناء مؤرخ واحد، هو أخته المؤرخة أنا كومنينيا التي كانت أكبر أولاد الكسيوس . وكانت في طفولتها قد غطبت إلى ولى العهد الامبراطوري الصغير كونستنتين دو كاس ، الذي حدث وأن وعده ألكسيوس باستخلافه امبراطورا . على أن موته المبكر ، بعد مولد أخيها مباشرة ، كان بمثابة ضربة

(٣) براد موزر جيد حول مسار وكر الغزوات الرومانية في 'حرب المسلم والمسيحي لاستلاك آسيا الصغرى' ، *Ramsay, War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor*, in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp. 295-8.

(٤) Anna Comnena, xv, i, 6-vi, 10, pp.187-213; Chalandon, *Règne d'Alexius I Comnène*, pp. 26871.



قاسية لطموحاتها ، ودأبت فيما بعد ساعية لإصلاح ما ألحقته بها العناية الإلهية من ظلم، بمحاولة إقناع والدها ، وبموافقة أمها ، بأن يترك العرش الامبراطوري لزوجها القيصر نيسفوروس برينيوس ، حتى عندما كان الامبراطور راقداً في فراش الموت ، بين زوجته وابنته تمرّضانه بغاية جهدهما ، ودأبت المراتان أثناء تمرّضه على المطالبة بعدم توريث جون . لكن الكسيوس قرر أن يخلّفه ابنه . وعندما دخل عليه ابنه جون لتوديعه ، ناوله الرجل المحتضر عائلته الامبراطورية في هدوء ، وأسرع جون لإغلاق بوابات القصر ، فأفادته السرعة ، اذ هتف به الجيش ومجلس الشيوخ (السّينيت) امبراطورا حاكما في الحال ، وأسرع البطريق إلى تأييد قرارهما باقامة حفل تربيجه في كنيسة القديسة صوفيا . وهكذا غلبت الحيلة والدها أنا وأمها الامبراطورة . على أن جون كان يخشى من أن يحاول أشباغهما الاعتداء على حياته ، حتى انه رفض حضور جنازة أبيه بعدما توفرت له معلومات قوية بوجود مخطط لاغتياله في هذه المناسبة . وبعد أيام قليلة دبرت أنا مؤامرة للتخلص منه أثناء وجوده في قصر الضاحية المأدبة فيلوباتيوم . غير أن المؤامرة كان بها نقطة ضعف خطيرة ، إذ أن ترتيبها كان يقضي بتتويج نيسفوروس برينيوس ، ولكنه لم يكن راغبا في العرش ، وربما كان هو الذي انذر الامبراطور . وعاقب جون المتآمرين برفق شديد ، وربما لم تكن الامبراطورة الأم على علم بالمؤامرة ، لكنها مع ذلك تقاعدت في أحد الأدبرة . وصودرت ممتلكات أبرز المؤيدين لأننا ، لكن الكثير منهم استعادها فيما بعد . وحُرمَت أنا نفسها من ممتلكاتها لفظة ، ثم عاشت منذ آنذاك في عزلة تامة . ولم يعاقب نيسفوروس الذي امتنعت مع زوجته مهنة التأريخ ذات التبعات الأقل، عزاءً لهما عن ضياع التاج<sup>(٥)</sup>.

وأصبح جون آمنا الآن . وكان في الثلاثين من عمره رجلا نحيفا صغيرا ذا كفن الشعر والعينين والبشرة خضراء . وكان صارما في معالجة للأمور ، فلم يكن يشارك أغلب أفراد أسرته ما كانت تسعد به من مناقشات أدبية ودينية . فهو فوق كل شيء جتدي ، يشعر بالسعادة في الحملات أكثر مما يشعر بها في القصر . على انه كان إداريا دقيقا ومقتدرا ، وبرغم قسوته على نفسه كان كريما مع أصدقائه ومع الفقراء وعلى استعداد أن يظهر في أبهة حافلة إذا دعت الحاجة . وكان حنوناً حليماً مع أسرته ومخلصاً لزوجته ، الأميرة المنجارية بيريسكا ، ثم سميت اسما مسيحيا إيرمين ، غير أن تأثيرها عليه كان ضئيلاً برغم مشاركتها له في صرامته وأوجه احسانه . وكان صديقه

(٥) Anna Comnena, xv, xi, 1-23, pp. 229-42; Zonaras, iii, p. 759 (رواية زونارس أقل تحيزاً)؛ نشر 18, pp. 273-6, and Les Comnènes, pp. 18.

الحميم الوحيد هو كبير خدمه ، وهو تركي يدعى أكسوخ الذي أسر وهو صبي عند الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧م ونشأ في القصر . وكان تصور جون لندوره الامبراطوري تصورا رقيقا ، وقد ترك له أبوه أسطولا قويا وجيشا مؤلفا من خليط من الأجناس لكنه كان جيد التنظيم والتجهيز ، كما ترك له خزانة فيها ما يكفي لتدبير سياسة نشطة . ولم يكن يرغب في الحفاظ على حدود الامبراطورية وحسب ، وإنما يسترجع كذلك حدودها القديمة ، ويحيل المطالب الامبراطورية في شمال سوريا إلى واقع<sup>(٦)</sup>.

وبدأ جون حملته الأولى ضد الأتراك في ربيع ١١١٩م . فهبط خلال فريجييا واستعاد لاوديشيا . واضطر للعودة إلى القسطنطينية لدواعي عاجلة ، لكنه عاد بعد شهر ليستولى على سوزوبوليس وبعيد فتح الطريق إلى أضايا . وبينما كان بهاجم السلاجقة بنفسه في الغرب ، كان قد جهّز لمهاجمة الدانشمند في الشرق . وقد استغل كونسطنطين جابرلس ، دوق طرابزون ، شجارا بين الأمير غازي وزوج ابنته الأمير التركي ابن منجو الذي أثنذ في طارناغي بأرمينيا مقرا له ، فهب لمساعدة الأخير . لكن غازي ومعه حليفه طغرل أمير ملطية هزماء واحتفاه أسيرا ، فاضطر إلى دفع ثلاثين ألف دينار ليفتدي نفسه . وحدث خلاف بين غازي وطغرل في ذلك الوقت حال دون أن يتابع الترك انتصارهم<sup>(٧)</sup>.

#### ١١٣٧م : جون يعد العدة لغزو سوريا

لم يتمكن جون من التدخل في الأناضول في السنوات القليلة التي تلت ، إذ شهدت تلك السنوات تعاظم قوة الدانشمند ينذر بالخطر . ففي سنة ١١٢٤م ، وعندما مات بلك الأرتقي زوج ام طغرل أمير ملطية ، انشأ القتال في الجزيرة ، هاجم الأمير غازي ملطية وضمها ، الأمر الذي أنهج المسيحيين الوطنيين هناك إذ وحدوا حكمه يسيرا ومنصفا . ثم استدار غازي غربا وانتزع من البيزنطيين أنقرة وجنحرة وقسطمونية ووسع سلطانه جنوبا حتى ساحل البحر الأسود ، مما عزل كونسطنطين جابرلس برا عن القسطنطينية فأعلن نفسه حاكما مستقلا في طرابزون . وفي ١١٢٩م ، وبعد موت

(٦) Chalandon, *op. cit.* pp.8-11, 19.

(٧) *Ibid.*, pp. 35-48

الأمير الروماني ثوروس ، تحول اهتمام غازي إلى الجنوب ، وفي العام التالي ، وتحالفه مع الأرمن ، ذبح الأمير يوهنن الثاني أمير انطاكية على ضفاف نهر جيحان . ومهما كانت آراء جون حول انطاكية ، فإنه لم يكن يرغب في أن تنتقل إلى أمير مسلم قوي ، فشن هجوماً فورياً على بافلاجونيا مما حال بين غازي وبين متابعة انتصاراته . ولحسن الحظ كان سلاحقة الأناضول في حالة من الضعف بسبب خلافات عائلية . ففي ١١٢٥م تمكن الأمير عرب من انتزاع عرش أخيه السلطان مسعود الذي هرب إلى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور بمظاهر التشريف . ثم ذهب بعد ذلك إلى زوج امه غازي الدانشمندی واستطاع بمساعدته ، وبعد أربع سنوات من الكفاح ، من استعادة عرشه . ولأذ أخوه عرب بدوره إلى القسطنطينية حيث مات<sup>(٨)</sup>.

وبتداء من ١١٣٠م إلى ١١٣٥م دأب جون على الخروج بحملة ضد الدانشمندی كل سنة . وفي مرتين توقف الحملة بسبب مكايد من أخيه ، اسحق سيستوكراتور ، الذي هرب من البلاط . وفي ١١٣٠م وامتضى السنوات التسع التالية في التآمر مع شتى الأمراء المسلمين والأرمن . وفي ١١٣٤م عاد من الحروب لموت الامبراطورة المفاجئ . وفي سبتمبر ١١٣٤م ، عندما هدد الموقف بموت الأمير غازي ، تمكن من استعادة كل الأراضي التي فقدتها باستثناء جنجرة التي استعادها في العام التالي . وأما ابن غازي وخليفته ، محمد ، فقد ضايقته المشاجرات العائلية فلم يعد يوسع معودة هجماته . وأما مسعود ، الذي حُرم من مساعدة الدانشمندی ، فقد توصل إلى اتفاق مع الامبراطور<sup>(٩)</sup>.

ومثل الخوف أترك الأناضول ، ففدا جون مهياً للتدخل في سوريا . بيد أنه من الضروري أن يحمي ظهره أولاً . ولذا وصلت سفارة بيزنطية في عام ١١٣٥م إلى ألمانيا في بلاط الامبراطور الغربي لوثير ، وعرضت عليه نيابة عن جون معونات مالية ضخمة مقابل الهجوم على روجر الصقلي . وتواصلت المفاوضات عدة أشهر إلى أن وافق لوثير على مهاجمة روجر في ربيع عام ١١٣٧م<sup>(١٠)</sup> وهزم المنجاريون عام ١١٢٨م ، وزحفت حملة عام ١١٢٩م إلى الصرب فأخضعهم . وبذا تحقق الأمان للدفاع على

(٨) Chalandon, pp. 77-91; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, iii, pp. 223-4, 227, 237.

(٩) Cinnamus, pp. 14-15; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, iii, pp. 237-49.

(١٠) Peter Diaconus, in *M.G.H.Ss.* vol. vii, p. 833.

الدانوب الأسفل<sup>(١١)</sup> وأدت معاهدة أبرمت في ١١٢٦م إلى عزل أبناء بيزا عن حلفائهم النورمانديون ، وأمسى الامبراطور الآن على علاقة طيبة بكل من البندقية وجنوا<sup>(١٢)</sup>.

وفي ربيع عام ١١٣٧م ، تجمع الجيش الامبراطوري وعلى رأسه الامبراطور وأبنائه في أضايا وتقدم شرقا داخل كيليكيا ، وكان الاسطول الامبراطوري يحرس ميمنته ، فبوغت الأرمن بأنباء اقترابه كما بوغت الفرنج بنفس القدر. وحاول ليو الروماني ، وهو الآن سيد سهل كيليكيا الشرقي ، أن يوقف تقدمه بمحاولة الاستيلاء على القلعة الحدودية البيزنطية سيلوقية ، لكنه أجبر على التقهقر . واكتسح الامبراطور مرسين ، وطرسوس ، وأذنه ، والمصيصة ، والتي استسلمت له كلها في الحال . وفي عين زربة ، اعتمد الامير الارمني على تحصيناتها المائلة في صده ، وقامت حاميتها طوال سبعة وثلاثين يوما ، غير أن آلات الحصار التي كانت في حوزة البيزنطيين سحقت أسوارها ، واضطرت المدينة إلى التسليم ، وانسحب ليو داخل جبال طوروس العالية ، ولم يعبأ الامبراطور بمطاردته آنذاك . وبعد أن طهر عدة حصون أرمنية في الجوار من حامياتها ، قاد قواته جنوبا مرورا بإسوس والإسكندرونة ، والبوابات السورية إلى داخل سهل انطاكية . وفي ١٩ أغسطس ظهر أمام أسوار المدينة وضرب معسكره على الضفة الشمالية لنهر العاصي (الأرند)<sup>(١٣)</sup>.

وكانت انطاكية بغير أميرها ، إذ ذهب ريموند (أرف بواتيه) لإنقاذ الملك فولك من بعيرين وكان معه جوسلين أمير الزها . ووصلا القلاع ليحدا الملك قد نجا من القلعة. وانتوى فولك الذهاب بنفسه إلى انطاكية لمقابلة البيزنطيين ، لكنه فضل العودة إلى القدس بعد التجارب التي مر بها مؤخرا . وسارع ريموند بالعودة إلى انطاكية ليجد الامبراطور قد بدأ حصاره للمدينة ، ولكن الحصار لم يكن مستكملا بعد ، فتمكن من أن يتسلل داخلا مع حرسه الشخصي من خلال البوابة الحديدية تحت القلعة.

(١١) Chalandon, *op.cit.* pp. 59-63, 70-1.

(١٢) *Ibid.* pp. 158-61

(١٣) Cinnamus, pp. 16-18; Nicetas Choniates, pp. 29-35; William of Tyre, xiv, 24, pp. 341-2; Matthew of Edessa, ccliv, p. 323; Sambat the Constable, pp. 616-17; Gregory the Priest, pp. 152-3; Michael the Syrian, iii, p. 45; Ibn al-Athir, p. 424; Ibn al-Kiyalyani, I.e. Qalanisi, pp. 2401 (في صفحة ٢٤٠، ملحوظة ٢، يورد الناشر قراءة مغايرة في Kiyalyani, I.e. Imanyal, Emmanuel. Kalosounnes غير أنه جون هو الذي يتحدث عنه المؤرخ).

## ١١٣٧ م : ريموند يقدم فروض الولاء للإمبراطور

ظلت الآلات البيزنطية تدق التحصينات عدة أيام . ولم يكن في مأمول ريموند الحصول على مساعدة من الخارج ، ولم يكن واتقا من مشاعر السكان داخل الأسوار ، وقد بدأ الكثير من الناس ، حتى من باروناته هو نفسه ، يدركون الحكمة من سياسة اليس العنيدة . ولم يمض وقت طويل حتى بادر ريموند بإرسال رسالة إلى الامبراطور يعرض عليه الاعتراف بسيادته مقابل الاحتفاظ بالإمارة باعتباره مندوبا امبراطوريا ، وكان رد جون هو الاستسلام بلا قيد أو شرط ، وعندئذ أحبره ريموند بأن عليه استشارة الملك فولك ، وأرسلت الرسائل بغاية السرعة إلى القدس . على أن رد فولك كان عقيما ، إذ قال الملك : "نعلم جميعا ، وقد دأب كيراؤنا من قديم على تعليمنا ، أن أنطاكية كانت جزءا من امبراطورية القسطنطينية إلى أن اخذها الأتراك من الامبراطور واحتفظوا بها أربع عشرة سنة ، وأن مطالب الامبراطور الواردة في المعاهدات المبرمة مع أسلافنا صحيحة . أفنبغي لنا إذن إنكار الحقيقة والتكرار لما هو صحيح؟" ولم يكن بوسع ريموند أن يتردد أكثر من ذلك ، بعدما عرض عليه الملك ، سيده الأعلى ، هذه النصيحة . ووجد مبعوثوه أن الامبراطور على استعداد لتقديم تنازلات . وتقرر أن يأتي ريموند إلى معسكره ويقسم كامل قسم الولاء له ، وأن يصبح رجلا من رجاله ويمكنه من دخول المدينة والقلعة . وفضلا عن ذلك ، وفي حالة تعاون الفرنج مع البيزنطيين في الاستيلاء على حلب وما جاورها من المدن ، يعيد ريموند أنطاكية إلى الامبراطورية ويأخذ بدلا منها إمارة تتألف من حلب وشيزر وحماه ومحض . وأذعن ريموند . وركع أمام الامبراطور وقدم له فروض الولاء والطاعة . ولم يصبر جون عندئذ على دخول انطاكية ، لكن الراية الامبراطورية رفرت فوق القلعة<sup>(١٤)</sup>.

وقد أظهرت المفاوضات موقف الفرنج المضطرب إزاء الامبراطور . وربما كانت احتياجات اللحظة العاجلة هي التي أملت الرد الذي كتبه فولك ، الذي كان يعلم تماما أن زنكي هو العدو الأكبر للمملكة الفرنجية ، وليس بوسع الملك الإساءة إلى القوة المسيحية الوحيدة القادرة على صد المسلمين ، وربما مارست الملكة ميليسند نفوذها لصالح سياسة من شأنها أن تبرئ احتها أليس وتلحق الخزي بالرجل الذي خدعها . على أن هذا الرأي الذي كتبه فولك ربما كان هو الرأي الذي ارتآه محاموه . ويرغم كل

(١٤) William of Tyre, xiv, 30, pp. 651-3; Orderic Vitalis, xiii, 34, pp. 99-100; Cinmarous, pp. 18-19; Nicetas Choniates, pp. 36-7

ما أتاه بوهيموند الأول من دعاية ، كان رأى الصليبيين الأكثر ارتياها أن المعاهدة المقترحة بين ألكسيوس وأبائهم في القسطنطينية ما تزال صالحة ، وأن انطاكية كان ينبغي أن تعود إلى الامبراطورية ، وأن حنث بوهمند وتكريد بما أقسماء من قسم إنما هو تفريط لأية مزاعم قد يزعمونها . وكان ذلك رأيا امبراطوريا أكثر تطرفا مما كان يراه الامبراطور نفسه . والحكومة الامبراطورية تتصف بأنها دائما واقعية ، وقد رأت أن طرد الفرنج من انطاكية دون تقديم تعويض أمر غير عملي ويقتل من الحكمة . وفضلا عن ذلك ، كانت تود تحديد التخوم مع الدويلات التابعة بحيث يسيطر الامبراطور على سياستها العامة وفي نفس الوقت تتحمل تلك الدويلات صدمات هجوم الأعداء . ولذلك لم يرتكز موقف الامبراطور على معاهدة القسطنطينية ، وإنما على المعاهدة الموقعة مع بوهمند في ديفول . إذ طلب استسلام انطاكية غير المشروط باعتبار ذلك استسلاما من تابع منمرد ، غير أنه كان على استعداد لأن يترك انطاكية تستمر كدولة تابعة . ومطلبه العاجل هو أن تتعاون معه في حملاته ضد المسلمين<sup>(١٥)</sup>.

بات الوقت متأخرا هذا العام للقيام بعملية ولذا عاد جون ، إلى كيليكيا ليستكمل غزوها ، بعد أن رسخ سلطته . وهرب امامه الأمراء الروميون إلى داخل جبال طوروس العالية ، ولذا ثلاثة من أبناء ليو وهم مليخ ، وستيفن ، وقنسطنطين الضريس ، باين عمتهم جوسلين أمير الرها . وصمدت فاهكا التي تعد بمثابة قلعة الأسرة ليضع اسايغ بقيادة قائدها المقدم قنسطنطين الذي كان لنزاه مع ضابط من الكتيبة المقدونية يدعى إيوسراتيوس ، أبلغ الأثر في الجيش الامبراطوري كله . وبعد سقوط فاهكا مباشرة ألقى القبض على ليو وولديه الكبيرين روين وثوروس ، وأرسلوا إلى السجن في القسطنطينية حيث أعدم روين ثوره ، لكن ليو وثوروس فازا بالرأفة من الامبراطور الذي سمح لهما بالعيش تحت المراقبة في البلاط . ومات ليو هناك بعد أربع سنوات ، وانتهى أمر ثوروس بفراره وعودته إلى كيليكيا . وبعدما استكمل جون غزو المنطقة ، ذهب إلى متجع شتوى في السهل الكيليكى حيث جاءه بلدين حاكم مرعش ليقدم له فروض الولاء ويلتمس حمايته من الأتراك . وفي الوقت ذاته ، أرسلت سفارة امبراطورية إلى زنكى كسي يتولد لديه الانطباع بأن البيزنطيين غير راغبين في الشروع في مغامرة عدوانية.

## ١١٣٨ م : المسيحيون محاصرون شيزر

وفي فبراير التالي ، وبأوامر من الامبراطور ، اعتقلت سلطات أنطاكية فجأة كل التجار والمسافرين من حلب والمدن الإسلامية المجاورة ، كي لا ينقلوا في أوطانهم ما شاهدوه من استعدادات عسكرية . وفي أواخر مارس تحرك الجيش الامبراطوري إلى أنطاكية حيث انضم إليه جنود أمير أنطاكية وكونت الرها وكذلك كتيبة من فرسان المعبد . وفي أول ابريل عبر الحلفاء إلى اراضى الأعداء واحتلوا مدينة بلاط . وفي الثالث من الشهر ظهروا أمام البزاعة التي صمدت خمسة أيام بقيادة زوجة القائد . وانقضى اسبوع آخر في جمع الجنود المسلمين في المنطقة وقد لاذ أغلبهم بمخازن البواب حيث أحبرهم البيزنطيون على الخروج بيت الأديعة في المغارات . وكان زنكي مع جيشه أمام حماه يحاول أن يخرج منها الحامية الدمشقية عندما أخبره الكشافون بالغزوات المسيحية . فسارع بإرسال الجنود بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب . وكان جون يمتنى نفسه بمباغتة حلب ، لكنه عندما وصل أمام أسوارها يوم ٢٠ ابريل وشن عليها هجوماً وحدها في حالة دفاع قوى ، فقرر عدم المضي مع أثقال الحصار واستدار جنوباً . وفي ٢٢ ابريل احتل أنارب ، وفي ٢٥ معرة النعمان ، وفي ٢٧ كفرطاب . وفي يوم ٢٨ كان جيشه أمام بوابات شيزر .

كان صاحب شيزر هو الأمير المنقذ أبو العساكر سلطان ، الذي تدبر استقلاله عن زنكي . ولذا ربما كان جون يأمل في أن يصرف زنكي اهتمامه عن مصر حلب . غير أن امتلاكها سوف يتيح للمسيحيين السيطرة على أواسط العاصي وسوف يعوق زنكي عن مزيد من التقدم في سوريا . وشدد البيزنطيون الحصار ، وسرعان ما احتلوا جزءاً أسفل المدينة ، وأحضر الامبراطور ما لديه من راجحات الحجارة الضخمة لرحم أعلى المدينة في التل شديد الانحدار المطل على نهر العاصي . وتروى المصادر اللاتينية والإسلامية على السواء ما بدا من شخص الامبراطور من شجاعة ونشاط ، وكفاءة الرجم كذلك ، فقد بدا كما لو كان في كل مكان في ذات الوقت في حوزته النهائية ، يتفقد الآلات ، ويشجع المهاجمين ، ويؤاسى الجرحى . وشاهد أسامة ابن أخي الأمير ما أحدثته المنحنيقات البيزنطية من دمار مرعب إذ كانت القذيفة الواحدة منها تدمر بيوتا بكاملها ، بينما انسحقت السارية الحديدية التي تحمل علم الأمير ، وهوت إلى أسفل فنفذت في بدن رجل كان في الشارع فقتلته . على أنه بينما دأب الامبراطور ومهندسوه على العمل بلا كلل ، تخلف الفرنج . إذ كان ريموند يخشى الإقامة في شيزر حال الاستيلاء عليها وهي في خط المواجهة للعالم المسيحي ، تاركاً أسباب الراحة في

أنطاكية ، بينما لم يكن حوسلين ، الذي كان يعمل الكراهية لريموند ، يود أن يراه وقد وُثِدَ نفسه في شيزر وربما في حلب لاحقاً ، ولذا كان لمسانة أثرها في تشجيع ما يجعله ريموند من تراخٍ طبيعي ومن عدم ثقة في البيزنطيين . وبدلاً من أن يشترك الأميران في القتال ، أمضيا أيامهما في عييتيهما يلعبان النرد . ولم يكن لتويخات الامبراطور من أثر سوى أن دفعتهما دفعا إلى بعض النشاط الخامل لفرة وحيرة . وفي ذات الوقت وقع زنكي حصاره عن حماء وتقدم باتجاه شيزر . وكان مبعوثوه قد أسرعوا إلى بغداد ، حيث كان السلطان عازفاً عن تقديم المساعدة أول الأمر ، إلى أن اندلعت أعمال شغب صارخة بالجهاد ، مما اضطره إلى إرسال حملة . ووعد الأمير داود الأرمني بجيش قوامه خمسين ألفاً من التركمان من الجزيرة . كما أرسلت رسائل إلى الأمير الدانشمندى بطلب شن هجوم في الأناضول . وفضلاً عن أن زنكي كان مدركاً تماماً لما يسود البيزنطيين والفرنج من شقاق ، راح عملاؤه في الجيش المسيحي يفتنون ما يمكنه الأمراء اللاتين من ازدراء للإمبراطور.

#### ١١٣٨ م : دخول جون أنطاكية

على الرغم من كل ما بذله جون من قوة ، فإن صخور شيزر ، وشجاعة المدافعين عنها ، وبلادة الفرنج ، اجتمعت كلها وهزمت . واقترح عليه بعض حلفائه الخروج لملاحقة زنكي خاصة وأن جيشه اصغر من جيش المسيحيين ، لكنه لم يشأ أن يترك آلات الحصار دون حراسة ، ولا أن يثق بالفرنج الآن . لقد كانت المجازفة فاتكة الضخامة . وتدبر أمره واحتل جزء المدينة الأسفل كله ، وفي حوالي ٢٠ مايو أرسل إليه أمير شيزر يعرض دفع تعويض ضخيم واهدائه أجود خيوله وأردية حريرية وأنفس كنزين لديه : متضدة مرصعة بالجواهر ، وصليب بفصوص اليواقيت سبق وأن أخذ من الامبراطور رومانوس ديوجينيس في متزكيت قبل سبع وثلاثين سنة ، فضلاً عن قبوله الاعتراف بالامبراطور سيده الأعلى ودفع جباية سنوية له . فما كان من جون ، الذي كان يشعر بالغثبان من حلفائه اللاتين ، إلا أن قبل الشروط ، ورفع الحصار في ٢١ مايو . وبينما كان الجيش الامبراطوري العظيم يتحرك عائداً إلى أنطاكية ، جاء زنكي إلى شيزر . وبعد عدة مناوشات قليلة ضئيلة الخطر لم يشأ أن يمازف بمطاردة الانسحاب البيزنطي<sup>(١٦)</sup>.

(١٦) -William of Tyre, xv, 1-2, pp.655-8; Cinnamus, pp.19-20; Nicetas Choniates, pp. 37



وصل جون بجيشه إلى أنطاكية وأصر على دخول المدينة في موكب حافل، فتقدم على صهوة جواده وسار على جانبيه أمير أنطاكية وكونت الرها على الأقدام كما لو كانا سالكين لفرسه . وقابله عند البوابة البطريق وكل رجال الدين ومشوا بين يديه خلال الشوارع المزدانة بأعلام الزينة الملونة حتى الكندراية حيث أقسم قداس وقور ، ومنها إلى القصر حيث اتخذ مكان إقامته . واستدعى ريموند ، وألح أن الأمير فشل مؤخراً في وأحياته كسابع ثم طلب أن يدخل الجيش المدينة ويتسلم القلعة ، إذ أن الحملات المقبلة ضد المسلمين يتعين التخطيط لها في أنطاكية ، وهو في حاجة إلى القلعة لتخزين ما لديه من أموال ومواد الحرب . وارتاع الفرنج . والتمس ريموند بعض الوقت للنظر في هذا الطلب بينما اتسل جوسلين خارجاً من القصر . وما أن خرج من القصر حتى طلب من جنوده نشر شائعة بين السكان اللاتين في المدينة بأن الإمبراطور يطلب طردهم في الحال ، وحثهم على مهاجمة السكان اليونانيين . ولدى تفحّر أعمال الشغب اندفع عائداً إلى القصر ، صائحا بالإمبراطور أنه جاء بمجازفا بحياته ليحذره من الخطر المحدق به . وبقينا كانت هناك ضجة وهرج في الشوارع ، وكان اليونانيون الغافلون يقتلون . ولا أحد يعلم في الشرق أين ينتهي الشغب . ولم يكن جون يحب المعاناة لليونانيون في المدينة ولا أن تغلق عليه ابواب القصر مع حرسه الخاص فقط ، وقد انقطع الاتصال بجيشه البعيد على ضفاف نهر العاصي . فضلاً عن أنه علم أن سلاحقة الاناضول قاموا بغزو كيليكيا وأغاروا على أذنة ، بفضل دبلوماسية زنكسي . ولم يتخذ بحيلة جوسلين ، لكنه قبل أن يضاطر بعداوة صريحة مع اللاتين لا بد وأن يؤمن تماماً عخطوط مواصلاته ، فأرسل إلى ريموند وجوسلين قائلاً إنه في الوقت الراهن لا يطلب أكثر من تحديد قسم التبعية وأنه لا بد من أن يرجع إلى القسطنطينية . وغادر القصر عائداً إلى جيشه ، وعلى الفور هدأت أعمال الشغب بأوامر من الأميرين . غير أنهما كانا ما يزالان في حالة من التوتر وفي تلهف كبير لاسترداد حسن نوايا الإمبراطور ، حتى أن ريموند عرض تواجد موظفين إمبراطوريين في المدينة وهو يظن - صواباً - أن جون لن يقبل بهذا العرض الذي يخلو من الانعلاص . وبعد وقت قصير ودع جون كلا من ريموند وجوسلين بمظهر عارحي يحمل الصداقة وكامل الريبة المتبادلة . ثم قاد جيشه

41; Michael the Syrian, *loc.cit.*; Usama, ed. Hitti, pp.26, 124,143-4; Ibn al-Qalanisi, pp.248-52; Kemal nd-Din, pp. 674-8; Ibn al-Athir, pp.426-8. قصيدة التهمة 8-426; Ibn al-Athir, pp. 674-8; Kemal nd-Din, pp. 248-52; Usama, ed. Hitti, pp. 124, 143-4; Michael the Syrian, *loc.cit.* 41; التي وجدها Prodomus إلى الإمبراطور بأن الجيو هو الذي انقذ شيزر (M.P.G. vol. cxxxiii, cols. 1344-9).

عائنا إلى كيليكيا<sup>(١٧)</sup>.

#### ١١٣٩ م : جون في الأناضول

والجدير بالملاحظة عدم التعرض للكنيسة طوال مفاوضات جون حول انطاكية . وكانت سلطات الكنيسة اللاتينية تخشى أن يصر الامبراطور على تنفيذ البند الوارد في معاهدة ديفول بأن تعود البطريركية إلى الحظيرة الاغريقية . ذلك انه في مارس ١١٣٨م ، أصدر البابا اينوسنت الثاني أمرا يحظر على أى عضو فى كنيسة البقاء مع الجيش البيزنطي في حالة إقدام هذا الجيش على أى عمل مضاد للسلطات اللاتينية فى انطاكية وليس هناك أدنى شك في أن البابا أصدر هذا الأمر استجابة لطلب انطاكية . ولا بد وأن جون كان عازفا عن إثارة أية مشكلة دينية إلى أن ترسخ أقدامه على أرض صلبة سياسيا واستراتيجيا ، ولو أنه استطاع تقديم إمارة أخرى بدلا من انطاكية إلى ريموند ، لتمكن من إعادة بطريق يوناني إلى المدينة . لكنه فى الوقت ذاته ، وعلى الملأ ، كان متساعفا إزاء الوجود اللاتيني عندما كان فى موكبه الوقور داخل المدينة إذ جاء رادولف (أوف دومفرت) وحياء وسار بين يديه إلى القديس الذى تم فى الكندرية<sup>(١٨)</sup>.

وعاد جون متباطئا إلى القسطنطينية بعد أن أرسل قسما من جيشه لمعاينة مسعود السلجوقي على غارته فى كيليكيا، فطلب مسعود السلام ودفع تعويضا . وخلال عامي ١١٣٩م و ١١٤٠م انشغل الامبراطور مع الامير الدانشمندى الذى كان عدوا أخطر بكثير من السلاجقة . إذ لم يكف محمد بغزو كيليكيا العليا عام ١١٣٩م والاستيلاء على قلعة فاهكا ، وإنما قاد أيضا حملة باتجاه الغرب توغلت حتى نهر صغاري . وتحالفه مع قسطنطين جابرس ، دوق طرابزون المتمرد ، تمكن من حراسة جانبه الشمالى . وخلال صيف ١١٣٩م أفلح جون فى دحر الدانشمند خارج بيثينيا وباغلاجونيا ، وفى الحريف سار شرقا بمحاذاة ساحل البحر الأسود . واستسلم

(١٧) William of Tyre, xv,3-5,pp.658-65; al-Azimi (p.352) is the only other chronicler to mention the plot.

(١٨) William of Tyre, xv,3,p.659. ولكن ابن القلايسى يقول (ص ٢٤٥) ان جون طلب بطريقا يونانيا لانطاكية . وربما اضطر عليه الأمر بين مطالب جون والطلب اللاحقة التى طالت بها ماثول . ويرد عطاب اينوسنت ، المورخ فى ٢٥ مارس ١١٣٨م فى *Cartulaire du Saint-Sépulcre*, ed. Rozière, p.86.

قسطنطين جابرلس ، وقبول الجيش الامبراطوري إلى داخل البلاد محاصرة قلعة نقصار الدانشمندية . وكانت مهمة صعبة ، إذ وهبتها الطبيعة القوة والحماية الجيدة ، وفي تلك البلاد الجبيلة الوعرة يصعب الحفاظ على خطوط المواصلات . وتأسى جون لخسارته الجسيمة في جنوده ، ولقرار ابن أخيه ، جون بن أخيه اسحق ، إلى صفوف الاعداء وقبوله إلى الاسلام وزواجه من ابنة مسعود . ويدعى السلاطين العثمانيون انهم من نسله . وفي خريف ١١٤٠ م تخلى جون عن مواصلة الحملة وأعاد جيشه إلى القسطنطينية وفي نية استئناف الحملة في العام التالي . لكن الأمير محمد مات في العام التالي ، وتوقفت القوة الدانشمندية عن نشاطها مؤقتاً بما دار لديها من حرب أهلية اشتعلت بين الورثة ، ومن ثم يستطيع جون العودة إلى مشروعه الأكبر وأن يحول انتباهه مرة أخرى إلى سوريا<sup>(١٩)</sup>.

وسرعان ما خسر في سوريا ما فازت به حملته ضد المسلمين عام ١١٣٧ م ، إذ استعاد زنكي كفرطاب من الفرنج في مايو ١١٣٧ م ، ومعركة النعمان وبزاعة وأتارب في الحريف . وفي السنوات الأربع التالية كان زنكي مشغولاً تماماً بمحاولة الاستيلاء على دمشق ، وقد فشل فرنج شمال سوريا الكسالي في انتهاز فرصة الصعوبات التي يواجهها زنكي . وفي كل سنة يتبادل رموند وسوار والي حلب الغارات في أراضي بعضهما البعض ، ولكن لم تحدث معركة كبرى<sup>(٢٠)</sup> . وفازت كونتية الرها بسلام نسبي ، نظراً للنزاعات المهلكة بين امراء المسلمين حول الحدود ، والتي تفاقمتم بحرب محمد الدانشمندی . وكان الامبراطور جون يراقب الأحداث بعناية من القسطنطينية ، وبدأ له بوضوح أن فرنج شمال سوريا لا قيمة لهم كجنود للعالم المسيحي.

#### ١١٣٩ م : خلع البطريق رادولف

ويرجع ما ظهر على رموند من عدم المبالاة إلى نقص القوة العاملة من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى شجاره مع البطريق رادولف . ولم يكن في نية قطع أن يحترم قسمه بطاعة البطريق في كل شيء ، وكانت عجرفة رادولف تشير تأثرته . وعشر على حلفاء في بعض رجال الكنيسة الملحقين بالكندراكية بتزعمهم رئيس الشمامسة ،

(١٩) Nicetas Choniates, pp. 44-9; Michael the Syrian, III, p. 248

(٢٠) Kemal ad-Din, pp. 681-5

لاميرت ، وكاهن يدعى أرنولف (أوف كلايريا) . وبتشجيع من ريموند ، رحلوا إلى روما في أواخر عام ١١٣٧م للشكوى من انتخاب رادولف بطريركة غير كنسية ، وعند مرورهم في أراضي الملك روجر الثاني ، استثاره أرنولف - المولود من بين رعاباه - ضد رادولف بأن أكد له أن رادولف قد ضمن لريموند عرش انطاكية ، وهو العرش الذي طالما كان روجر الثاني يشتبهه . واضطر رادولف إلى اللحاق بهم في روما للدفاع عن نفسه ، وعندما وصل بدوره إلى جنوب إيطاليا اعتقله روجر . لكنه أوتي من سحر البديهة وإغواء اللسان ما جعله يفوز بالملك إلى جانبه بسرعة . وواصل الرحلة إلى روما حيث انتصر سحره مرة أخرى . ونظما عن نفسه طيلسانه الأسقفى ووضعه على مذبح القديس بطرس ، ثم استرده من البابا . وفي طريق عودته خلال إيطاليا لاستئناف مسؤوليات عرشه البطريرقي ، عامله الملك روجر معاملة ضيف الشرف ، لكنه عندما وصل انطاكية ، رفض أتباعه من رجال الدين - يؤازرهم ريموند - أن يحبره التحية المألوفة وهي مقابلته عند أبواب المدينة . فظفاهم رادولف بمظهر الرجل الوديع المحروح ، وتقاعد سرا في دير بالقرب من السويدية ، وبقي هناك إلى أن دعاه جوسلين أمير الرها - الساعى دائما إلى إحراج ريموند - إلى زيارة رسميه لعاصمته ، حيث استقبل رئيس الأساقفة استقبال السيد الروحي الأعلى . وسرعان ما قرر ريموند أن الأسلم له شخصيا أن يعود البطريرك إلى انطاكية ، ولما عاد لقي من التحية كل آهات التشريف التي يودها.

على أن ملف التحقيق أعيد فتحه من جديد في روما نظرا لما أثاره ريموند من هياج واضطراب. وفي ربيع ١١٣٩م ، أرسل بطرس ، رئيس أساقفة ليون ، لينظر الحالة في مكانها . وذهب بطرس الذي كان طاعنا في السن لزيارة الأماكن المقدسة ، وأثناء رحلة العودة إلى الشمال مات في عكا. وكان موته حزينا على أعداء رادولف ، وحتى أرنولف (أوف كلايريا) عرض خضوعه لرادولف الذي منعه غطرسته من قبول ذلك العرض ، فتأثرت ثائرة أرنولف وعاد إلى روما وحث البابا على إرسال مندوب آخر ، ألبريك ، أسقف أوستيا . ووصل المندوب الجديد في نوفمبر ١١٣٩م ، وعقد على الفور مجمعا كنسيا حضره كل مطارنة الشرق ، بمن فيهم بطريرك القدس . وكان حليبا أن تعاطف الجمع يميل إلى جانب الأمير ورجال الدين المعارضين ، وكان رئيس أساقفة أناميا سيرلون يحاول الدفاع عن البطريرك رادولف فطرده من الجمع ، ومن ثم رفض رادولف حضور جلسات الجمع المنعقدة في كندراية القديس بطرس ، عندما طرد مؤيده الوحيد. وبعد رفضه الاستدعاء لثالث مرة ليدفع عن نفسه الاتهامات الموجهة إليه ،

أعلن المجمع خلعه . وانتخب المجمع مكانه أميري (أوف ليحوج) رئيس كهنة الكنيسة ، وهو رجل ضخم ، نشيط ، ويكاد يكون أميًا ، ومدين لأرنولف بأول درجات تقدمه ، لكنه كان حصبًا عندما أنشأ علاقة الصداقة مع ريموند . وبناء على قراره المكسب أُلقي ريموند البطريق السابق في غيابة السجن . وفيما بعد هرب رادولف وذهب إلى روما حيث فاز مرة أخرى بتأييد البابا والكرادلة . لكنه قبل أن يتمكن من استغلال مساعدتهم لإعادة توطين مكانته وافتت النية في وقت ما من عام ١١٤٢ م ، وحامت الشكوك حول السم . وضمنت تلك الحادثة التعاون المخلص من كنيسة أنطاكية ، على أن ما كان يتصف به البطريق من معاملة جائرة ، ترك انطباعًا قبيحًا حتى بين رجال الدين الذين كانوا يكرهونه الكراهية كلها<sup>(٢١)</sup>.

#### ١١٤٢ م : جون يعود إلى كيليكيا

وفي ربيع ١١٤٢ م كان جون مهيبًا للعودة إلى سوريا . وكما حدث عام ١١٣٦ م ، احتاط لحماية ظهره بتحالف مع المعامل الألماني ضد روجر الصقلي ، وزار سفراؤه بلاط كونراد الثالث ، خليفة لوثير ، لعمل الترتيبات الضرورية ولكي توضع اللمسات الأخيرة للصداقة بتاتم الزواج ، وعادوا عام ١١٤٢ م ومعهم اخت زوجة الملك كونراد ، بيرثا (أوف سولزباخ) ، التي تقرر أن تصبح زوجة أصغر أبناء جون - مانويل تحت اسم إيرين . كما ضمن جون النوايا الحسنة للمدن البحرية الإيطالية<sup>(٢٢)</sup> . وفي ربيع ١١٤٢ م قاد جون وأبنائه الجيش عبر الأناضول إلى أضايا ، وهو يدحر في مسيرته السلاحقة ورعاياهم التركمان الذين كانوا يحاولون مرة أخرى شق طريقهم إلى قريشيا ، ويقوى الدفاعات الحدودية . وبينما كان الامبراطور منتظرًا في أضايا ، أصابته مصيبة جسيمة . إذ أن أكبر أبنائه ألكسيوس ، المعين وريثًا ، سقط مريضًا ومات هناك . وتقرر أن يعهد إلى ابنه الثاني والثالث - أندرونيكوس وأسحق - بنقل الجثة بحرا إلى القسطنطينية ، وأنشاء الرحلة مات أندرونيكوس هو الآخر<sup>(٢٣)</sup> . وبرغم هاتين

(٢١) William of Tyre, xiv, 10, pp. 619-20, xv, 12-16, pp. 671-85. وهو مصدرنا الوحيد.

(٢٢) Chalandon, op. cit. pp. 161-2, 171-2

(٢٣) Cinnamus, p. 24; Nicetas Choniates, pp. 23-4. إن جون كان بنو توريت الامبراطورية لألكسيوس ، وأن يحصل مانويل ، أصغر أبنائه ، على إمارة تكلف من أنطاكية و أضايا وقبرص.

الفاحشيتين، واصل جون زحفه شرقا معلنا أن الهدف هو كيليكيا العليا لاستعادة ما أخذه الدانشمند من قلاع، إذ لم يرغب في إثارة شكوك الفرنج<sup>(٢٤)</sup>، وشق الجيش طريقه الوعر خلال كيليكيا وعبر سلسلة جبال امانوس العليا المسماة جياورداغ، وفي منتصف سبتمبر ظهر فجأة أمام تل بشير، العاصمة الثانية ليوسلين أمير الرها. وبرت جوسلين فسارع إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للإمبراطور وقدم له رهينة، ابنته ايزابيلا. فاستدار جون واتجه نحو انطاكية، وفي ٢٥ سبتمبر وصل إلى قلعة باجرلس وهي قلعة فرسان المعبد العظيمة التي تحكم في الطريق من كيليكيا إلى انطاكية. ومن هناك أرسل إلى ريموند طالبا تسليم المدينة كلها له، وكرر ما سبق أن عرضه من تقديم إمارة جديدة للأمير من الغزوات المقبلة.

وانزعج ريموند. فبقينا عقد الإمبراطور عزمه الآن على متابعة مطالبه والحصول عليها بالقوة، ويبدو أن المسيحيين الوطنيين كانوا على استعداد لمساعدة البيزنطيين. وحاول الفرنج كسب الوقت. فرد ريموند بأنه لا بد وأن يستشير أتباعه، وبهذا غير تماما الوضع القانوني الذي ارتكز عليه عام ١١٣١م وانعقد مجلس في انطاكية أعلن فيه الأتباع - وربما استدعاهم بالطريق الجديد على وجه السرعة - أن ريموند يحكم كمجرد زوج وريثة انطاكية، ومن ثم لاحق له في التعلي عن أراضيها، بل إن الأمير والأميرة معا لا يستطيعان تغريب الإمارة أو مبادلتها دون موافقة أتباعهما الذين سوف يطيحون بهما من على العرش إذا حاولا ذلك. وحمل اسقف حيلة رد المجلس إلى جون الذي استشهد بسلطة البابا في تأييد رفض المطلب الإمبراطوري غير أنه عرض على جون أن يدخل انطاكية في موكب يكلله الوقار. ولم يكن في هذا الرد الذي يتعارض تماما مع كل تمهيدات ريموند السابقة أي خيار يختاره جون سوى الحرب. على أن الموسم كان متقدما جدا بحيث لا يسمح بالعمل الفوري، ولذا راح جون ينهب ممتلكات الفرنج في جوار المدينة، ثم انسحب إلى داخل كيليكيا لاستعادة القلاع التي أخذها الدانشمند ولكي يمضي الشتاء<sup>(٢٥)</sup>.

(٢٤) William of Tyre, xv, 19, p. 688، بشر وليم إلى أن ريموند دعا جون للتدخل خشية من زنكي، ولكن Nicetas Choniates (p. 52) يتحدث عنه بحفا حطوطه وإن وصوله الفعلي إلى سوريا كان مفاجأة (William of Tyre, *ibid.* p. 689).

(٢٥) William of Tyre, xv, 19-20, pp. 688-91; Nicetas Choniates, pp. 52-3; Gregory the Priest, p. 156; Matthew of Edessa, cclv, p. 325.

ومن كيليكيا أرسل جون سفارة إلى القدس لتعلن للملك فولك عن رغبته في زيارة الأماكن المقدسة ولكي يناقش مع الملك عملاً مشتركاً ضد الكفرة . واسقط في يد فولك . فهو لا يرغب في نزول الجيش الامبراطوري العظيم إلى فلسطين ، وسوف يكون لمن ما يقدمه الامبراطور من مساعدة هو حتما الاعتراف بسيادته . وانطلق أسقف بيت لحم ، انسيلم ، وبصحبه آمر قلعة القدس ، وورد ، ورئيس رهبان فرسان المعبد جيوفري الذي كان دارساً جيداً لليونانية ، ليشرحوا لجون أن فلسطين بلد فقير لا يستطيع توفير الطعام لإعاشة جيش ضخم كجيش الامبراطور ، ولكنه اذا تعطف بالحضور مع حرس صغير فسوف يكون الملك في غاية السرور للترحيب به . وقرر جون عدم الاصرار على طلبه أكثر من ذلك حالياً<sup>(٢٦)</sup>.

في مارس ١١٤٣ م ، عندما أتم الامبراطور استعداداته للاستيلاء على أنطاكية ، منح نفسه عطلة قصيرة يذهب فيها لصيد الخنزير البري في جبال طوروس . وأثناء الصيد أصيب عرضاً بسهم فحرقه . ولم يعبأ كثيراً بهذا الجرح . لكن الجرح تعفن وسرعان ما دخل في مرحلة الاحتضار بسبب تسمم الدم . وواجه جون نهايته رابط الجأش ، وظل حتى آخر لحظة يعمل في الترتيب لاستخلافه واستمرار الحكومة استمراراً سلساً . لقد مات أكبر ابنين من ابنائه الأربعة . وكان الثالث اسحق ، الموجود الآن في القسطنطينية ، شاكياً متقلب المزاج . فقرر جون أن يورث الامبراطورية للأصغر والأحد ذكاءً ، مانويل ، وحث صديقه العظيم ، أكسوك كبير متبوعيه ، مساندة مانويل في مطلبه . وبيديه الضعيفتين وضع التاج على رأس مانويل واستدعى جنرالاته للتهنأف للامبراطور الجديد وبعد أن نطق باعتزافه الأخير لراهب جليل من بامقيليا، مات يوم ٨ أبريل<sup>(٢٧)</sup>.

وكان موت جون بمثابة الخلاص لأنطاكية الفرنجية . وفي الوقت الذي أسرع فيه

(٢٦) William of Tyre, xv, 21 pp. 691-3. ويقول (Cinnamus, p.25) إن جون أعدّ قريتين للقدس.

(٢٧) William of Tyre, xv, 22-3, pp. 693-5; Cinnamus, pp. 26-9; Nicetas Choniates, pp. 56-64; Matthew of Edessa, cclv, p. 325; Gregory the Priest, p. 156; Michael the Syrian, m.p. 254; Ibn al-Qalanisi, p.264; Buxton, p. 537.

أكسوك إلى القسطنطينية يسبق الأنباء لحماية القصر والحكومة من أية محاولة من جانب اسحق بن جون للمطالبة بالعرش ، كان مانويل يقود الجيش عائدا به عبر الأناضول. وإلى أن يتأكد أولا من عاصمته ، ليس هناك مجال للمزيد من المغامرات في الشرق . ونحى المشروع الامبراطوري جانبا ، ولكن ليس لفترة طويلة<sup>(٢٨)</sup>.

(٢٨) Cinnamus, pp. 29-32 يتحدث عن سفارة انطاكية تتصف بالوقاحة ذهبت الى مانويل الذي رد بأنه سوف يعود لتأكيد حقوقه, William of Tyre, xv, 23, Nicetas Choniates, pp. 65-9. p.696.





---

## الفصل الرابع:

### سقوط الرها



## سقوط الرها

"رَبِّ مُلْكٍ مُّجْتَلٍ فِي أَوَّلِهِ . أَنَا آخِرُهُ فَلَا تَبَارَكْ"  
(أسفل ٢٠ : ٢١)

تنفس فرنج الشرق الصعداء لدى سماعهم نبأ وفاة الامبراطور ، ولم يلحظوا في تنهيدات راحتهم كم كان الأتابج زنكي أكثر منهم ارتياحا بكثير وهو ألد أعدائهم<sup>(١)</sup>. وقد أمضى زنكي فترة سنتين ، من ١١٤١ م ، وهو يعاني الحرج من رغبة السلطان مسعود في إعادة تأكيد سلطته عليه . ولم يتمكن زنكي من تجنب غزو السلطان لأراضي الموصل إلا بالتظاهر في الوقت المناسب بالخضوع له ، إلى جانب هدية مالية وإرسال ابنه كرهينة<sup>(٢)</sup>. ولو قد حدث غزو بيزنطي لسوريا في تلك اللحظة ، لانتهت مخططات زنكي في الجهة الغربية ، بل زاد تهديد تلك المخططات من جراء تحالف بين

(١) يمثل الموقف الاسلامي حيال البيزنطيين فيما ذكره ابن الفلاني (ص ٢٥٢) عندما كان يتحدث عن انسحاب الامبراطور عام ١١٣٨ م فيقول : "طمأن كل القلوب بعد حزنها وعرفها".

(٢) Ibn al-Athir, pp. 241-2

ملك القدس وأتابج دمشق ، نشأ نتيجة لخوفهما المشترك منه .

وبعد انهيار التحالف القرشي البيزنطي عام ١١٣٨ م ، عاد زنكي إلى ما كان فيه من محاولة الاستيلاء على دمشق . وكان حصاره لحمص قد توقف مرتين ، المرة الأولى بتقدم الفرنج إلى قلعة بعربين ، والمرة الثانية بحصار الفرنج لشيزر . وقد عاد الآن في كامل قوته إلى حمص ، وأرسل إلى دمشق طالبا يد أم الأتابج للزواج ، الأميرة زمرد ، عارضا حمص مهرا لها . ولم يكن الدمشقيون في موقف يساعدهم على الرقض . وفي يونيو ١١٣٨ م تزوجت السيدة الأرملة من زنكي ودخلت حنوده حمص . وإظهارا لحسن النوايا، أقطع زنكي حاكم حمص المملوك المسن أنر إقطاعية تضم قلعة بعربين التي احتلها حديثا وبعض الحصون في الجوار<sup>(٣)</sup>.

وكانت أسرة بورى الحاكمة في دمشق حسنة الحظ ، إذ لم يتخذ أنر مقامه في قلعة بعربين وإنما جاء إلى دمشق . وهناك قُتل الأتابج الصغير شهاب الدين محمود في فراشه على يد ثلاثة من أقرب غلمانه ، وكان ذلك في ليلة ٢٢ يونيو ١١٣٩ م . ولو كان زنكي - الذي حامت حوله شكوك التواطؤ - يأمل بذلك في الاستيلاء على الحكم فقد خاب أمله ، إذ باشر أنر في الحال تسيير دفة الأمور ، فصلب القنلة ، واستدعى الأخ غير الشقيق للأتابج ، جمال الدين محمد ، حاكم بعلبك ، ليتسلم عرش محمود . وفي المقابل أعطى محمد بعلبك لأنر الذي تزوج من أم الأتابج الجديد . لكن أنر بقي في دمشق مسؤولا عن الحكومة . ولم يصادف ذلك هوى لدى زنكي ، وخاصة بتشجيع زوجته زمرد وأخ محمد ، هو باهرام شاه الذي كان يعمل عداوة شخصية لأنر . وفي أواخر صيف ١١٣٩ م حاصر بعلبك بجيش ضخم وأربع عشرة آلة من آلات الحصار ، فاستسلمت المدينة يوم ١٠ أكتوبر ، كما استسلمت يوم ٢١ من الشهر حامية القلعة - والتي شُيّدت من بقايا معبد بعل الكبير - بعد أن أقسم زنكي على القرآن بالإبقاء على حياة أفراد الحامية ؛ لكن زنكي حنث بوعده ، إذ قتلوا جميعا شر قتلة وبيعت نساؤهم سبايا . ولم يكن زنكي يقصد من ذلك سوى ترويع الدمشقيين ، لكنها جعلت مقاومتهم أكثر صلابة وأدت بهم إلى النظر إلى زنكي على أنه عدو خرج عن العقيدة<sup>(٤)</sup>.

وفي الأيام الأخيرة من تلك السنة عسكر زنكي بالقرب من دمشق ، وعرض على

(٣) Ibn al-Qalanisi, p. 252; Kemal ad-Din, pp. 678-9

(٤) Ibn al-Qalanisi, pp. 253-6; Ibn al-Athir, p. 431

الأتابج محمد بعلبك أو حمص بدلا من دمشق . وكان الأمير الصغير حريما بالقبول  
لوسمح له أن . وبرفض هذا الأخير ترك زنكي لماصرة المدينة . وفي خضم تلك الأزمة  
مات محمد يوم ٢٩ مارس ١١٤٠ م . بيد أن الدمشقيين كانوا يعملون الولاء لآل  
هورى، ولم يجد أنر صعوبة في رفع ابن محمد الشاب بحمر الدين أبقي إلى العرش . وفي  
ذات الوقت قرر أنر أن لديه من المبررات الدينية والسياسية ما يدفعه إلى طلب مساعدة  
المسيحيين ضد عدوه الغادر . فانطلقت من دمشق سفارة يرأسها الأمير أسامة بن منقذ  
قاصدا القدس<sup>(٥)</sup>.

#### ١١٣٩ م : التحالف الفرنجي مع دمشق

كان الملك فولك يحاول انتهاز فرصة ما يعانيه الدمشقيون من ارتباك كي يحكم  
قبضته على منطقة ما وراء نهر الأردن . وفي صيف ١١٣٩ م زاره ثييري (أوف ألزاس)،  
كونت فلاندرز ، زوج سيبيل ابنة فولك من زواجه الأول . وبمساعدة ثييري أغار  
فولك على حلداد ، وبشيء من الصعوبة استولى على حصن صغير بالقرب من عجلون،  
وذبح المدافعين عنه<sup>(٦)</sup> . ولم ينج من كده سوى القليل . إذ أنه عندما عرض عليه أنر  
عشرين ألف بيزنت شهريا وإعادة قلعة بانياس لقاء طرد زنكي من دمشق ، لم يتردد في  
تغيير سياسته . ولم تكن فكرة هذا التحالف جديدة ، فقد سبق وأن حدث في أوائل  
١١٣٨ م أن رحل أسامة إلى القدس نيابة عن أنر لمناقشة حدود التحالف . وبرغم ما  
استقبله به البلاط الفرنجي من مظاهر التشريف ، إلا أنه رفض ما عرضه من مقترحات .  
أما الآن ، فالبلاط الفرنجي يفهم ما تشكله الأخطار الناجمة عن تعاطف قوة زنكي ،  
وعندما استدعى فولك مجلسه لينظر في العرض ، كان هناك شعور عام بأنه ينبغي  
قبوله<sup>(٧)</sup>.

بعد تسلم الفرنج رهائن من دمشق ، انطلق جيشهم في أبريل قاصدا الجليل .  
وسار فولك متوجها جانب الحذر ، وتوقف بالقرب من طبرية بينما استمر الكشّافون .  
وهبط زنكي على الساحل المقابل لبحر الجليل كي يراقب تحركاته ، فوجده مأكثا لا

(٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 256-9

(٦) William of Tyre, xv, 6, pp. 665-8

(٧) Ibid. xv, 7, pp. 668-9; Ibn al-Qalanisi, pp. 259-60

يتحرك ، فعاد لماصرة دمشق . وعلى الأثر انطلق فولك شمالا . ولم يكن زنكي ليحاذف بأن يقع بين فكّي الفرنج والدمشقيين ، ولذا انسحب مبتعدا عن دمشق . وعندما قابل فولك قوات أنر إلى الشرق قليلا من بحيرة الحولة في وقت مبكر من يولية ، علموا أن زنكي انسحب إلى بعلبك . وعادت بعض قوات زنكي في وقت متأخر من الشهر للإغارة حتى وصلت إلى أسوار دمشق ، لكن زنكي انسحب بجيشه الرئيسي إلى حلب ولم يصبه أذى<sup>(٨)</sup> . وبهذا أنقذ التحالف دمشق دون معركة . والتزم أنر بشروط الصفقة ، وكان جنوده يحاصرون بانياس حصارا منقطعا لعدة شهور حلت . وانتهر أحد قادة زنكي - إبراهيم بن طرغوث - فترة حمود في الحصار وراح يغير على الساحل بالقرب من صور حيث بوغت بجيش فرنجي أنطاكي يقوده ريموند جاء جنوبا لمساعدة فولك في الحملة الدمشقية . وهزم إبراهيم وقتل . وسرعان ما قرر المدافعون عن بانياس التسليم عندما شاهدوا أنر نفسه وبصحبه فولك وريموند ، اللذين شجعتهم زيارة المندوب البابوي ، ألبريك (أوف بوفيه) . ورتب أنر تعويض المدافعين عن بانياس بأراض بالقرب من دمشق ، ثم سلم المدينة للفرنج الذين نصبوا فيها حاكمها السابق ، رينيه (أوف بروس) ، بينما تقرر تعيين آدم ، رئيس شمامسة عكا ، أسقفا لها<sup>(٩)</sup> .

وتأكد تحالف فولك وأنر بزيارة قام بها الأخير بعد ذلك مباشرة إلى بلاط الملك في عكا يصبح فيها أسامة . ولقيا استقبالا ساداه الورد والتملق ، ثم ذهبوا إلى حيفا والقدس ، وعادا خلال نابلس وطبرية . وتمت الجولة في جو مميز بمحسن النية الباذغة ، رغم أن أسامة لم يوافق البتة على كل ما شاهده<sup>(١٠)</sup> . وفضلا عن ذلك ، أظهر فولك رغبته المخلصة في صداقة الدمشقيين . إذ شكروا له مما يقوم به رينيه (أوف بروس) من غارات من بانياس على قطعانهم ، فأصدر فولك أوامره الصارمة بأن يكف رينيه عن غاراته وأن يدفع تعويضات للضحايا<sup>(١١)</sup> .

(٨) William of Tyre, xv, 8, pp. 669-70; Ibn al-Qalanisi, p.260; Kemal ad-Din, p. 682

(٩) William of Tyre, xv, 9-11, pp. 770-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 260-1

(١٠) Usama, ed. Hitti, pp. 166-7, 168-9, 226

(١١) Ibid. pp.93-4

## ١١٤٠ م : بناء القلاع على الحدود الجنوبية

شعر الملك فولك بالاطمئنان على حكومته في حوالى عام ١١٤٠ م. وكانت الأحوال في شمال سوريا قد تدهورت منذ أيام أسلافه ، ولم يكن يشعر بأن له مكانة أو سلطة هناك . بل ومن المشكوك فيه ما إذا كان جوسلين أمير الرها يعترف بسلطته هناك . لكنه كان آمناً في نطاق سلطانه الخاص به . وقد لقن الدرس الذى يفرض على الفرنج تخفيف حصونهم للمسلمين إذا أرادوا العيش هناك ، وبينى لهم أن يكونوا على استعداد لمد يد الصداقة لأقلهم خطورة ، وقد طوّع الملك نبلاءه بحيث ساروا معه على نفس درب سياسته . واحتهد في الوقت نفسه كي يوفر الحماية للبلد . فشيدت على الحدود الجنوبية ثلاث قلاع للحراسة من غارات المصريين الآتية من عسقلان: ففي ينة ، الواقعة على مسافة عشرة أميال تقريباً جنوب غرب اللد ، وفي بقعة وفيرة المياه تتحكم في تلاقي الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة ، استغل أطلال المدينة الرومانية القديمة مبنية لتشييد قلعة رائعة عهد بها إلى باليان ، وشهرته "العجوز" ، شقيق فيكونت تشارترز . وكان بليان يمتلك الأرض في ظل لوردات يافا ، وفاز بعطف فولك عندما ساندته الملك ضد هيو (لوف لو بواسيه) . ولأنه أمر قلعة ينة ، فقد رفع إلى مصاف كبار مستأجرى الأرض ، وتزوج هيلفيس ، وريثة الرملة . وكانت ذريته تشكل أشهر عائلة نبيلة في الشرق الفرنجي<sup>(١٢)</sup>.

وإلى الجنوب من ينة يقع الطريق المباشر من عسقلان إلى القدس ، تحرسه قلعة (الحراسة البيضاء Blanchegarde) ، على التل الذى يسميه العرب تل الصافية ، أى المشرقة . وقد أصبح وكيلها ، أرنولف ، من أغنى وأقوى بارونات المملكة<sup>(١٣)</sup>. وبنيت القلعة الثالثة في بيت حبريل عند القرية التى يسميها الصليبيون خطأ بشر سبع . وكانت تتحكم في الطريق من عسقلان إلى الخليل ، وعهد باستحكاماتها إلى فرسان المستشفى<sup>(١٤)</sup>. ولم تكن تلك الاستحكامات على ما يكفى من الاكتمال بحيث تمنع كل الغارات المنطلقة من عسقلان . ففي ١١٤١ م ، احترق المصريون تلك

(١٢) William of Tyre, xv, 24 pp.696-7. For Balian's origin, see Ducange, *Familles d'Orient Mer*, ed.Roy, pp.360-1

(١٣) William of Tyre, xv, 25, pp. 697-9.

(١٤) *Ibid.* xiv, 22, pp.638-9. Martin, "Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem. II", *Journal Asiatique*, 8 me série, vol. XIII, pp.34-5, gives Syrian evidence suggesting that the castle was being built in 1135.



الاستحكامات وهزموا قوة صليبية صغيرة في سهل شارون<sup>(١٥)</sup>، غير أن تلك التحصينات كانت قادرة على صد أي هجوم جاد من الجنوب على القدس، وكانت بمثابة مراكز للإدارة المحلية.

وفي الوقت ذاته اتخذ فولك الخطوات الكفيلة بإخضاع البلاد شرقي وجنوبي البحر الميت للرقابة الصارمة. وقد ساعدت أقطاعية الشوبك، بقلعتها الواقعة في واحة في تلال إيدوم، في تحكم الفرنج المطلق في طرق القوافل الناهية من مصر إلى الجزيرة العربية وسوريا، على أن القوافل الإسلامية كانت ما تزال تمر آمنة على الطرق، وكان المغيرة من الصحراء ما يزالون قادرين على الاختراق والوصول إلى يهودا. ومنذ أن تولى فولك العرش منح رومان (أوف لو بوي) الشوبك ومنطقة ما وراء الأردن نحو عام ١١١٥م. لكن رومان ساند هيو (أوف لو بواسيه) ضد الملك، الذي صاددهما وحرم ابنه من وراثتهما، ومنح الاقطاعية لباجان السافني الذي كان من أرفع مسؤولي بلاطه. وكان باجان إدارياً قوياً حاول إحكام رقابته على المنطقة الكبيرة التي يحكمها. ويبدو أنه أفلح في أن يستتب الأمن في البلاد حتى جنوب البحر الميت، ولكن عندما كان فولك مشغولاً في جلعاد عام ١١٣٩م تمكنت جماعة من المسلمين من عبور نهر الأردن على مقربة من اتصاله بالبحر الميت والإغارة على يهودا، حيث نصبت شركاً - بمساعدة تقهقر زائف - قضت فيه على جماعة من فرسان المعبد كانت قد أرسلت للتصدي لها. ورعا نقل باجان مقره من الشوبك في الشراء إلى مواب لكي يسيطر على الطرف الشمالي للبحر الميت وطرفه الجنوبي أيضاً. وهناك في مواب، وبموافقة الملك عام ١١٤٢م، وعلى تل يسميه المؤرخون بحجرة الصحراء Petra Deserti، بنى قلعة عظيمة تعرف باسم كرك مواب. وكانت ذات موقع رائع يسيطر على الطرق الوحيدة التي تربط مصر عملياً بغربي الجزيرة العربية والداخلية إلى سوريا، ولم تكن تلك القلعة تبعد كثيراً عن مخاضات نهر الأردن الأسفل. وكان بلدوين الأول قد أنشأ فعلاً مرقباً أسفل شاطئ خليج العقبة، عند إبلين أو أبلة. ونصّب باجان حامية أقوى هناك، وكذا في حصن وادي موسى بالقرب من البواء القديمة. وقد ساعدت تلك الحصون، مع الشوبك وكرك، في توطيد سيادة لورد منطقة الأردن على أراضي إيدوم (الشراء) ومواب، وعلى ما يحيطها من حقول غنية بالحبوب، ومنخفضات الملح على البحر الميت على الرغم من أن الفرنج لم يستعمروا تلك المناطق بجدية، وواصلت قبائل

البدو حياتها البدوية القديمة في المناطق الفاحشة ، تدفع أحيانا مجرد إتاوة للقرنح<sup>(١٦)</sup>.

وتعسنت الحالة الأمنية الداخلية في المملكة في عهد فولك . إذ كان الطريق بين يافا والقدس في وقت استخلافه ما يزال محفوقا بالمخاطر بسبب قطاع الطرق الذين لم يعتادوا على التحرش بالحجاج وحسب ، وإنما كانوا يقطعون كذلك امتدادات الطعام الذاهبة إلى العاصمة . وفي ١١٣٣ م ، وبينما كان الملك غائبا في الشمال ، نظم البطريق وليم حملة ضد قطاع الطرق وشيّد حصنا سمي (شاسيل إيرنوت) بالقرب من بيت نوبه ، حيث يصعد الطريق القادم من اللد إلى داخل التلال . وكان تشييدها تسهيلات للسلطات في حراستها للطريق ، وبعد انقاص التحصينات على الحدود المصرية ، لم يكن المسافرين يواجهون صعوبة أثناء رحلتهم من الساحل إلا فيما ندر<sup>(١٧)</sup>.

#### ١١٤٣ م : مؤسسات الملكة مليسند

ليس لدينا سوى القليل عن حكومة الملكة في السنوات الأخيرة من حكم فولك . فبعد سحق تمرد هيو (أوف لو بواسيه) ، بعد أن هدأت رغبة الملكة في الانتقام ، أبدت البارونات التاج بغاية الإخلاص . وكانت علاقات فولك بكنيسة القدس طيبة على الدوام . إذ أن البطريق وليم (أوف ميسين) الذي توجّه والذي قدّر له أن يعيش من بعده ، ظل صديقه الوثيق الذي يرعاه . ويتقدم الملكة مليسند في السن اتجهت اهتماماتها إلى أعمال التقى والورع ، برغم أن المقصود من أهم مؤسساتها هو زيادة مجد أسرتها . وكّرت نفسها لأخواتها ، فغدّت أليس أميرة لأنطاكية ، وهوديرنا الآن كوثيسة طرابلس ، أما الصغرى جوفينا التي أمضت سنة من طفولتها رهينة لدى المسلمين ، فلم تعثر لها على زوج مناسب . وقد اغترطت في التدين وأصبحت راهبة في دير القديسة آن في القدس . و اشترت الملكة عام ١١٤٣ م من كنيسة القبر المقدس قرية بيتاني ، كبديل لأراضي قرية من الخليل ، وبنت هناك ديرا للراهبات تقليدا

(١٦) William of Tyre, xv, 21, pp.692-3. وعن متنتحات المنطقة انظر Abel, GÉOGRAPHIE DE LA PALESTINE, I, p 505. وعن الآثار فواقع على التجارة الإسلامية انظر Wiet, op.cit pp.320-1. في Rey, 'Les Seigneurs de Montréal et de la Terre d'Oultre Jourdain' انظر l'Orient Latin, vol. iv, pp. 191f. والقلة في وادي موسى تقع على تل شديد الانحدار يعرف الآن باسم وير Wueira خارج ضواحي البراء، حيث تبدو أطلال خراب صليبية كثيرة عبر وادي موسى. كما توجد أطلال قلعة صغيرة من العصور الوسيطة على تل الخاس في وسط البراء.

(١٧) William of Tyre, xiv, 8, p. 617

للقديس لازاروس وأختيه مارتا وماري ، وجعلت أريحا بكل بساطتها ومزارعها المحيطة وقفا على الدبر، وحصنته برج . وحتى لا تنطرح دواجن الملكة غايمة الوضوح ، عيّنت أول رئيسة لدير الراهبات راهبة ممتازة محجوز ترديد أن تحتضر ، وقد ماتت بعد شهرين قليلة بمهارة شديدة . ومن باب الواجب انتخب دير الراهبات رئيسة له حوفينا البالغة من عمرها أربعة وعشرين ربيعاً . وبذا كانت حوفينا تقوم بدور مزدوج ، أميرة بحري في عروقها الدماء الملكية ، ورئيسة أغنى أديرة الراهبات في فلسطين ، ومن ثمّ كانت تشغل مكانة متميزة مبدلة مابقي لها من عمرها الطويل<sup>(١٨)</sup>.

كان ذلك أكثر عطايا الملكة مليسند الحرة إسرافاً ، على أنها حرّضت زوجها على أن يهب كنيسة القبر المقدس عدة هبات على هيئة أراضٍ ، ودأبت على إنشاء دور دينية على درجة من السخاء طوال فترة ترميلها . كما كانت مسؤولة عن تحسين العلاقات مع الكنيستين اليقونية والأرمينية . وقبل الاستيلاء الصليبي على القدس كان اليعاقبة قد هربوا كلهم معاً إلى مصر . وعندما عادوا وجدوا الضياع التي كانت تملكها كنيستهم في فلسطين قد منحت لفارس فرنجي ، حوفير ، الذي أسره المصريون عام ١١٠٣م ومن ثمّ استعاد اليعاقبة أراضيهم . غير أن حوفير ، الذي فنه الجميع ميتاً ، عاد عام ١١٣٧م من الأسر وطالب بممتلكاته . وبدخل الملكة تدخلها مباشراً ، مُنح لليعاقبة الاحتفاظ بممتلكاتهم ، بعد دفع ثلاثة بيزانت لجوفير على سبيل التعويض . وفي عام ١١٤٠م بُعث كاثوليكوس بطريق الأرمن وقد حضر مجعاً كنسياً للكنيسة اللاتينية هناك . كما وهبت مليسند العطايا لدير القديس ساباس الأرثوذكسي<sup>(١٩)</sup>.

أما سياسة فولك التجارية فكانت امتداداً لسياسة سلفه . فكان يحرم التزاماته حيال المدن الإيطالية التي تسيطر الآن على تجارة تصدير البلد . غير أنه رفض مطلقاً منح حق الإحتكار ، وفي ١١٣٦م عقد معاهدة مع تجار مرسيليا ، وأعدا منحهم أربعمائة بيزانت سنوياً من عوائد يافا ، لصيانة منشآتهم هناك<sup>(٢٠)</sup>.

(١٨) William of Tyre, xv, 26, pp. 699-700 كانت حوفينا مسؤولة عن تعليم حفيدة اختها ميللا ملكة اللسقل (انظر أدناه ص ٤٦٥) . وماتت في وقت ما قبل عام ١١٧٨م ، إذ قتلت رئيسة دير الراهبات ، يُلفا (أوف بيشاني) إنها قد خلقتها في رئاسة الدير (Cartulaire de Ste Marie Josaphat, ed. Kohler, p. 122)

(١٩) Nau, 'Le croisé Lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique*, 9me série, vol 421-31 é Rohricht, *Regesta*, pp. 1067. xiv, pp. 421-31 é Rohricht, *Regesta*, pp. 1067.

(٢٠) Rohricht, *Regesta*, p. 40. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 272 . وبعد ١٦ سنة أعطاهم بلدوين الثالث حيا في القدس . Rohricht, *Regesta*, p. 70.

## ١١٤٣ م : موت الملك فولك

في خريف ١١٤٣م كان البلاط في عكا يستمتع بالقدّاة التي أتاحها انسحاب زنكي من دمشق . وفي ٧ نوفمبر رغبت الملكة في الخروج لنزهة خلوية . وبينما الجماعة الملكية على جياها متجهة إلى داخل البلد فزع أرب ، وركض الملك يتهيب الأرض وراءه . وفجأة تعثر جواده وألقى الملك من على ظهره ، وسقطت صهوة الفرس الثقيلة مرتطمة برأسه . وعادوا به فاقد الوعي والجراحات فظيعة في رأسه إلى عكا حيث مات بعد ثلاثة أيام . وكان ملكا طيبا لملكة القدس ، لكنه لم يكن بالملك العظيم ولا بقائد فرنج الشرق<sup>(٢١)</sup>.

وصدرت عن الملكة مليسند ألفاظ الأسى ، التي حرّكت مشاعر البلاط كله ، لكن ذلك لم يصرفها عن تولي شؤون المملكة . وكان من بين أولادها من فولك إبنان : بلدوين ابن ثلاث عشرة سنة ، وأماريك ابن سبع سنين . وكان فولك قد تولي العرش باعتباره زوجها ، وكانت حقوقها كورثة معترف بها كلها . غير أن فكرة وجود ملكة وصيّة بمفردها لم تحالط أذهان البارونات . ولذا عيّنت ابنها بلدوين زميلا لها وباشرت هي الحكومة . واعتُبر تصرفها تصرفا دستوريا مثاليا وآيدته مجلس الملكة عندما قام البطريرك وليم بتتويجها هي وبلدوين يوم عيد الميلاد<sup>(٢٢)</sup> . وكانت مليسند امرأة ذات اقتدار وكان حكمها خليقا بالنجاح في أوقات أكثر سعادة . واتخذت مستشارها ابن عمها الوكيل (الكونستابل) مناس (أوف هيرجنز) ابن اللورد الوالوني الذي تزوج ابنت الملك بلدوين الثاني ، هوديرنا (أوف ريثيل) . وقد برز مناس الشاب في بلاط عمه ، حيث كفلت له قدراته وعلاقاته الملكية تقدما مطردا . وعندما مات باليان المحجوز في بينة ، بعد موت فولك مباشرة ، تزوج مناس أرملة هيلفيس ، وريفة الرملة التي كانت تسيطر على السهل الفلسطيني كله بحقها الشخصي وبحق أولادها . وكان مقدر أن يشعر البارونات بالاستياء عاجلا أو آجلا من قوة مناس ، إذ كان هو والملكة يميلان إلى الحكم الاستبدادي على أنه لم تكن في الوقت الراهن أية معارضة للملكة<sup>(٢٣)</sup>.

(٢١) William of Tyre, xv, pp.700-2; Matthew of Edessa, cclvi, p. 325; Ibn al-Qalanisi, (no. 354, M.P.L. vol. CLXXXII, cols. 556-7) . كتب سان برنار خطاب تعزية للملكة مليسند .

(٢٢) La Monte, *Feudal* William of Tyre, xvi, 3, p.707 . وعن مليسند الدستوري أنظر *Monarchy*, pp. 14-18

(٢٣) William of Tyre, xvi, 3, p.707 ، يقرط الملكة . وعن مناس (انظر أدناه ص ٣٨٦) . وزواجه سحله وليم . وكثيرا ما يظهر اسم هيلفيس Helvis في صكوك عقود ، e.g. Rohricht, *Regesta* .

وكان لتوليها العرش عيب خطير . ففى ظل حكم الملك فولك ، كان وضع ملك القدس كسيد أعلى للدويلات الصليبية يتنامى نظريا وليس عمليا ، ومن غير الراجح أن يولى أمراء الشمال انتباهها اكبر إلى سيادة امرأة وطفل . وعندما كانت المشاحرات تنفجر بين أمير أنطاكية وكونت الرها، كان ملك القدس القوي - كيلدوين الثاني - يشد الرحال شمالا ويهدئ الخلافات قسرا . وهذا مالا نستطيعه ملكة ولا ملك صبي ، وليس هناك من يملك السلطة الغالبة .

أما ريموند أمير أنطاكية فعمد أن مات الاميراطور جون ، وصد زنكي أمام دمشق، بُعثت من جديد ثقتة فى نفسه ، فأرسل فى الحال إلى الاميراطور الجديد مانويل طالبا إعادة كيلىكيا إلى إمارته ، وعندما رفض مانويل طلبه هنا قام بغزو المنطقة، وقد اضطر مانويل نفسه أن يبقى فى القسطنطينية فى الشهور الأولى من حكمه ، لكنه أرسل حملة برا وبحرا بقيادة الأخوين كوتستيفانوس وبرسق الزكى المرتد وأمير البحار ديميتريوس براناس ، ولم تكف الحملة بطرد ريموند من كيلىكيا ، وانما طاردت جنوده حتى أسوار أنطاكية<sup>(٢٤)</sup> . وكان ريموند قبل ذلك بأشهر قليلة قد أضاف أراض حلبية وصلت إلى البراعة بينما تقدم جوسلين أمير الرها حتى الفرات لمقابله . غير أن جوسلين وقع فجأة هدنة مع سوار ، حاكم حلب ، حطمت مخططات ريموند . وزادت العلاقات سوء بين ريموند وجوسلين . ويبدو أن جوسلين قد اضطر منذ نحو عام ١١٤٠م إلى أن يقبل ريموند كسيد أعلى له ، بيد أن الود كان غائبا عنهما تماما . وكان جوسلين قد أغاظ ريموند بتدخله لصالح البطريق رادولف ، وجاءت هذه الهدنة تكاد أن تقطع العلاقات بينهما<sup>(٢٥)</sup> .

#### ١١٤٤م : حصار الرها

كان زنكي يراقب تلك المشاحنات . وقد حرره موت الاميراطور من أعظم عدو كامن ، ولن يتخذ الدمشقيون أى عمل ضده بدون مساعدة الفرنج ، ولا يمتثل أن

pp.22,76

(٢٤) Cinnamus, pp. 33-4

(٢٥) Azimi, p.537; Ibn al-Qalanisi, p. 266. يضع جوسلين تاريخ وثيقة رسمية فى عام ١١٤١م (Raimundo Antiochie prince regnante' (Rohricht, Regesta, p.51) ويحمله وليس الصورى (xvi, 4, p.710) بلبع ال ريموند على انه سيده عام ١١٤٤م .

تشرع مملكة القدس الآن في مغامرات ، وإذن فلا ينبغي تفويت الفرصة . وفي عشرين  
١٤٤١م هاجم زنكي قره أرسلان أمير ديار بكر الأرتقي ، الذي تحالف مؤخرًا مع  
جوسلين . وتميزًا لهذا التحالف خرج جوسلين من الرها بأكثر جيشه هابطًا باتجاه  
الفرات ، لقطع اتصالات زنكي مع حلب فيما يبدو . وقام مراقبون مسلمون في حران  
بإخطار زنكي بتحركات جوسلين . وفي الحال أرسل زنكي فصيلة بقيادة ياغي سياني  
أمير حماه كى يباغت مدينة الرها ، لكن ياغي سياني ضل طريقه في ظلام ليلة مطيرة  
من ليالي نوفمبر ، ووصل الرها ليحد زنكي قد سبقه إليها بالجيش الرئيسي يوم ٢٨  
نوفمبر . وكان أبناء الرها وقتئذ قد أُنذروا وتجهزت الدفاعات بالمدافعين .

وتواصل حصار الرها أربعة أسابيع . وكان جوسلين قد اصطحب معه أبرز جنوده  
كلهم ، ولذا عُهد بالدفاع إلى رئيس الأساقفة اللاتيني هيو الثاني ، وسانده بإخلاص  
الأسقف الأرمني جون والأسقف اليعقوبي بازل . وربما كان زنكي يأمل في إغواء  
المسيحيين الوطنيين بالتخلي عن الولاء للفرنجة ، لكن خابت آماله كلها . واقترح بازل  
اليعقوبي طلب هدنة ، لكن الرأي العام عارضه . على أن المدافعين ، برغم بسالتهم ،  
كانوا في قلة من عددهم ، وقد تراجع جوسلين نفسه إلى تل بشير . ويتقده المؤرخ  
وليم الصوري انتقادًا لاذعًا لثراحيه عن اتخاذ عاصمته . غير أن جيشه لم يكن من القوة  
بحيث يجازف بمعركة مع جيش زنكي . وكان جوسلين واثقًا من صمود التحصينات  
العظيمة في الرها لبعض الوقت ، وبإمكانه وهو في تل بشير أن يعرض أية تميزات قد  
يستدعيها زنكي من حلب ، وكان يعول على مساعدة جيرانه الفرنجة . وكان قد أرسل  
من فوره إلى أنطاكية وإلى القدس . وفي القدس عقدت الملكة مليسند مجلسًا سمح بجمع  
جيش أرسلته بقيادة الوكيل مناس (الكونتابل)، وقيليب أمير نابلس ، وإيليساندا (أوف  
بور) أمير الجليل . وفي أنطاكية ، لم يفعل ريموند شيئًا ، وضاعت هباء كل مناشدات  
جوسلين له باعتباره سيده الأعلى ، وبدون مساعدته لم يكن جوسلين ليحرق على  
مهاجمة زنكي ، فلبث في تل بشير منتظرًا وصول جيش الملكة .

لكن جيش الملكة وصل بعد أن سبق السيف العذل . إذ أن جيش زنكي أخذ  
يتضخم بمجموع الأكراد والتركمان التي انضمت إليه من وادي دجلة الأعلى ، فضلًا عن  
آلات الحصار الجيدة التي كانت معه . وفي داخل الرها ، كان رجال الدين  
والتجار ، الذين يشكلون حُلَّ الحامية ، يفتقرون إلى الخبرة الحربية ، ومن ثم فشلت  
هجماتهم المضادة وعمليات التلغيم المضادة . وساد الظن أن هيو رئيس الأساقفة يحتجز  
الأموال التي اكتنزها برغم شدة الحاجة إليها للدفاع . وفي عشية عيد الميلاد انقض

جدار في السور بالقرب من بوابة الساعات وتدفق سيل المسلمين خلال الفجوة فهرب السكان في فرج إلى القلعة ليحدثوا بواباتها مغلقة في وجوههم بأسر رئيس الأساقفة ، الذي بقى هو نفسه خارجها في محاولة بالسة للحفاظ على النظام . وهلك الألفوف تحت الأقدام في الفرج والمرج ، وجد جنود زنكي في أعقابهم يقتلون ألفوا أكثر عن فيهم الأسقف ، إلى أن دخل زنكي نفسه على حواده وأمر بإيقاف المذبحة . وابقى على حياة المسيحيين الوطنيين . أما الفرنج فقد جُمعوا كلهم وقتلوا ، وبيعت نساؤهم في الرق . وبعد يومين ، استسلم لزنكي القس اليعقوبي بارسوما ، الذي كان يتولى قيادة القلعة<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١١٤٥ م : سياسة زنكي في الرها

عامل زنكي المدينة معاملة طيبة بعد أن خلصها من الفرنج ، وعين عليها كوجك على والي إربل، مع السماح للمسيحيين ، الأرمن واليعاقبة وحتى اليونانيين ، بتدبير معين من تدابير الحكم الذاتي. وعلى الرغم من تدمير الكنائس اللاتينية ، لم تمس كنائسهم ، ووجدوا تشجيعا على جلب اخوانهم في الدين لإعادة إسكان المدينة ، وعلى نحو خاص فاز الأسقف السوري بآزل بعطف الغزاة بسبب رده المتكبر على مؤامراتهم له ما إذا كان حديرا بالثقة ، إذ أحاب بأن ولاءه للفرنج أظهرت مدى ما يتمتع به من قدرة على الولاء . أما الأرمن ، وكانت أسرة كورتنای الحاكمة دائما مشهورة بينهم ، فكانوا أقل ميلا إلى النظام الجديد<sup>(٢٧)</sup>.

ومن الرها توجه زنكي إلى سروج ، وهي ثاني قلعة فرنجية عظيمة شرقى الفرات ، فسقطت هي الأخرى له في بناهر . ثم انه تقدم إلى البيرة ، وهي المدينة التي تحكم في أهم مخاضة عبر نهر الفرات ، على أن الحامية الفرنجية أظهرت مقاومة شديدة .

(٢٦) William of Tyre, xvi, 4-5, pp. 708-12; Matthew of Edessa, cclvii, pp.326-8; Michael the Syrian, iii, pp. 259-63; Chron. Anon. Syr., pp.281-6. أكثر اكتمالا بالتفاصيل Bar Hebraeus, *Elegy on the fall of Edessa*, pp. 21f; Kemal ad-Din, pp.685-6; Ibn al-Qalanisi, Hebraeus, trans. Budge, pp. 268-700; pp.266-8; Ibn al-Athir, pp.443-6 الشئ . وترد إشارة إلى سقوط الرها في خطاب القديس برنارد، M.P.L.vol. CLXXXI, no. 256, col. 463, ويخبرنا ابن الأثير أن مسلما في ملاط اللك روجر في صقلية حاشته رؤيا تخاطرية (تلياني) بالاستيلاء على الرها.

(٢٧) Michael the Syrian, loc. cit.; Chron. Anon. Syr. loc. cit.

وكان جوسلين قريبا في المتناول ، وحيش الملكة يقترب ، وفي تلك الأوقات سمع زنكي شائعات بوجود اضطرابات في الموصل . فرجع الحصار عن البيرة وأسرع باتجاه الشرق . وكان لا يزال من الناحية الإسمية مجرد أتابع الموصل يحكمها للأمير السلجوقي الصغير ألب أرسلان ابن مسعود . وعاد إلى الموصل ليحدد أن ألب أرسلان حاول تأكيد سلطته فقتل القائد التابع للأتابيج ، حنقر . وقد جاء اختيار الوقت غاية في السوء ، إذ أن زنكي ، الذي قهر عاصمة فرنجية ، قد بلغ ذروة الهيبة في العالم الإسلامي . فخلع ألب أرسلان عن العرش وأعدم مستشاريه ، وفي ذات الوقت بعث الخليفة سفارة إلى زنكي ، محملة بالهدايا، لتخلع عليه شرف تلقيه بالملك الغازي<sup>(٢٨)</sup>.

وتردد صدى سقوط الرها في العالم كله . فكان للمسلمين بمثابة أمل جديد حاجهم ، إذ انهارت دولة مسيحية دخيلة في قلب أراضيهم ، واقتصر وجود الفرنج على الأراضي المطلة على البحر المتوسط . وتطهرت الآن الطرق التي تربط بين الموصل وحلب من الأعداء ، وتم خلع الإسفين المشهور بين أتركاء إيران وأتراك الأناضول . وكان زنكي حديرا بلقبه الملكي . أما الفرنج ، فقد هبط عليهم النبأ هبوط القنوط والإنذار ، ووقع من مسيحيي غرب أوروبا موقع الصدمة المرعبة . ولأول مرة يتحققون من أن الأمور ليست على مايرام في الشرق ، ومن ثم نشطت حركة للتبشير بحملة صليبية جديدة.

كان من الضروري إرسال حملة صليبية جديدة في واقع الأمر، إذ كان أمراء فرنج الشرق لا يزالون عاجزين عن التعاون مع بعضهم البعض برغم المخاطر المحيطة بهم . وقد حاول جوسلين إعادة بناء إمارته في الأراضي التي يحتلها إلى الغرب من الفرات ، وأن يجعل من تل بشير عاصمته<sup>(٢٩)</sup> . على أنه ، وعلى الرغم من أن زنكي سرعان ما سوف يهاجمه ، فإنه لم يغفر لريموند رفضه المساعدة . وجاهر بخلافه معه ، وأنكر سيادته عليه . وكان ريموند رافضا للمصالحة بنفس القدر، ولكنه كان مدركا لخطر العزلة . وفي عام ١١٤٥ م ، وبعد أن هزم غارة من التركمان قرر الرحيل إلى القسطنطينية ملتصقا بالمساعدة من الامبراطور مانويل الذي رفض استقباله فور وصوله . ولم يأذن له بمقابلة إلا بعد أن ركع ريموند في ندامة متضعة أمام قبر الامبراطور جون . ثم أن مانويل عامله

(٢٨) Chron. Anon. Syr. pp. 286-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 268-9; Ibn al-Athir, pp. 445-8; Ibn al-Furrt, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 371 n. 11.

(٢٩) كان جوسلين ما يزال يمتلك الأراضي الواقعة من سمساط ، سرورا بمرعش (وهي في حوزة شايخ بلدوين) جنوب البيرة وعنتاب وروندان وتل بشير.



معاملة رقيقة كئيسة ، وحمله بالهدايا ووعدته بمعونة مالية . لكنه لم يعد بمساعدة عسكرية عاجلة ، إذ أن البيزنطيين يخوضون حرباً تركية على أراضيهم ، ونجدنا عن حملة في المستقبل وباتت الزبارة في نظر باروناته مهينة وممحوجة ، لكنها مع ذلك أثمرت لمرة واحدة مفيدة . إذ أنها لم تمر دون أن يلحظها زنكى ، فقرر تأجيل المزيد من المحرم على فرنج الشمال وأن يمول انتباهه مرة أخرى إلى دمشق<sup>(٣٠)</sup>.

#### ١١٤٦م : مصرع زنكى

في شهر مايو ١١٤٦م سار زنكى إلى حلب كي يعد العدة لحملة على سوريا . وبينما كان يعبر الرها علم بمغامرة دبرها الأرمن حاولوا بها التخلص من حكمه وإعادة جوسلين ، وقد سحقها كوجك على بسهولة . وأمر زنكى بإعدام زعماء المؤامرة ، ونفى جزءاً من السكان الأرمن حل محلهم ثلاثمائة أسيرة يهودية جلبهم زنكى لما كانوا يشتهرون به من استعداد لتأييد المسلمين ضد المسيحيين<sup>(٣١)</sup> . وفي الصيف قاد زنكى جيشه جنوباً إلى مدينة قلعة جعير الواقعة على الطريق المباشر الذهاب من القنات إلى دمشق ، كان بها أمير ضيق الشأن رفض الاعتراف به سيداً أعلى له . وبينما كان يحاصر المدينة ، حدثت في ليلة ١٤ سبتمبر ١١٤٦م مشاجرة بينه وبين أحد الخنصيان من أصل فرنجي عندما ضبطه يشرب من قدحه الخصاص به . فاحتدم الخنصى غيظاً مما سمعه من توبيخ ، فانتظر حتى نام ثم قتله<sup>(٣٢)</sup>.

كان اختفاء زنكى المفاجئ نياً سار تلقاه كل أعدائه الذين راودهم الأمل في تمزيق مملكته لما سوف ينشأ من خلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وهو خلاف عادة ما يعقب وفاة أمراء المسلمين . وبينما كان جسده ساحياً وحيداً لم يدفن بعد ، أسرع أكبر ابنائه سيف الدين غازي ، يصحبه الوزير جمال الدين الأصفهاني ، إلى الموصل لتولي الحكومة هناك ، بينما استولى ابنه الثاني ، نور الدين ، على عاتق الوزارة من اصبع الجنة وانطلق إلى حلب كي ينادى به شريكوه الكردي ، الذي أنقذ أخوه أيوب حياة زنكى عندما

(٣٠) Cinnamus, p. 35; Michael the Syrian, III, p. 267.

(٣١) Michael the Syrian, III, pp. 267-8; Chron. Anon. Syr. p.289; Ibn al-Qalanisi, p. 270; Ibn al-Furat, loc. cit.

(٣٢) William of Tyre, xvi, 7, p.714; Michael the Syrian, III, p.268; Chron. Anon.Syr. p.291; Ibn al-Qalanisi, pp.270-1; Kemal ad-Din, p.688.

هزمه الخليفة عام ١١٣٢ م . وكان انقسام المملكة بمثابة العلامة للأعداء كى يبدؤوا غزوهم . ففي الجنوب استعاد جنود أتر الدمشقيون بعلبك ، وأحضروا أمير حمص ، وباقى سباني أمير حماة فأصبحت تابعين لدمشق . وفي الشرق أقدم ألب أرسلان على محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة ، بينما استعاد أراتقة ديار بكر مدنا كانوا قد فقدوها<sup>(٣٣)</sup> . وفي الوسط قاد ريموند أمير انطاكية غارة حتى أسوار حلب نفسها ، بينما خطط جوسلين لإعادة احتلال الرها . وأجرى عملاؤه اتصالات مع الأرمن في المدينة وفازوا بتأييد اليعاقبة ، فانطلق جوسلين نفسه مع جيش صغير انضم اليه بلدوين أمير مرعش وكيسوم . ومرة أخرى رفض ريموند مساعدته ، ولكنه رفض له ما يجره هذه المرة ، لسوء تخطيط الحملة . إذ كان جوسلين يأمل في مباغتة الرها ، ولكن المسلمين كانوا على استعداد ، وعندما وصل أمام أسوار المدينة يوم ٢٧ أكتوبر لم يتمكن - إلا بالمساعدة الوطنية - من اقتحام طريقه إلى داخل المدينة ذاتها ، غير أن حامية القلعة كانت في انتظاره . وكان جنوده من ضالة العدد بحيث تغلغل اقتحام تحصنها عنوة . فلبث في المدينة حائرا لا يدرى ماذا يفعل . وفي تلك الأثناء وصل الرسل من نور الدين في حلب ، الذي كان جيشه الآن يهاجم ريموند هجوما مضادا في أراض انطاكية ، فاستدعى الجيش للعودة في الحال وطلب المساعدة من الحكام المسلمين في الجوار . وفي يوم ٢ نوفمبر ظهر أمام الرها ، وبنا وقع جوسلين بينه وبين القلعة ، وارتأى أن فرصته الوحيدة في الجلاء العاجل . وتمكن خلال الليل من التسلل خارجا مع رجاله ومع عدد كبير من المسيحيين الوطنيين ، وبهم وجهه شطر الفرات . وتبعه نور الدين عن كثب . وفي اليوم التالي دارت رحى المعركة . وصمد الفرنج صمودا جيدا إلى أن أمر جوسلين في تهوّر يهجوم مضاد دحره المسلمون ، وتفتت الجيش الفرنجي مذعورا . وقتل بلدوين أمير مرعش في ميدان المعركة ، وأصيب جوسلين بجرح في رقبته ، وتمكن من الهرب مع حرسه الخاص ولاذ بسميساط حيث لحق به الأسقف اليعقوبي بازل . وألقى القبض على الأسقف الأرمني جون واقتيد إلى حلب . وأما المسيحيون المحليون الذين تخلّوا عنهم الفرنج فقد قتلوا جميعا ، وباتت نساؤهم إماء وأطفالهم رقيقا . وفي الرها تقرر نفي السكان المسيحيين جميعا . وأصبحت المدينة العظيمة ، التي يُدعى بأنها كانت أقدم كومونيلت مسيحي في العالم ، خاوية موحشة ، ولم تترك قط حتى يومنا هذا<sup>(٣٤)</sup> .

(٣٣) Ibn al-Qalanisi, pp.272-4; Ibn al-Athir, pp.455-6; see Cahen, 'Le Diyarbakr' in *Journal Asiatique*, 1935, p.352.

(٣٤) William of Tyre, xvi, 14-16, pp.728-32; Matthew of Edessa, cclviii, pp.328-9 (giving the wrong date 1147-8); Michael the Syrian, iii, pp.270-2. Basil the Doctor,

## ١١٤٧ م : الفرنج يتخاصمون مع أنر

أيقن أعداء زنكي أنهم لم يكسبوا من وفاته سوى القليل . فضلا عن أن ولديه ، برغم قلة المودة فيما بينهما ، كانا من الحكمة بحيث لم يتشاجرا . وبادر سيف الدين غازي ، برغم انشغاله الشديد مع الأباطقة ، بالترتيب لمقابلة مع أخيه ، ثم فيها الاتفاق بسلام على تقسيم الميراث . فأخذ سيف الدين أراضي العراق ونور الدين أراضي سوريا . وفي نفس تلك الأثناء على وجه التقريب تعزز وضع نور الدين نتيجة لتصرف أحمق غير متوقع ارتكبه فرنج القدس . ففي وقت مبكر من عام ١١٤٧ م ، قام أحد قواد أنر ، ألتوتناش ، وإلى بصرى وصلحد الواقعة في حوران ، وكان أرمينيا ثم تحول إلى الإسلام ، بإعلان استقلاله عن دمشق وذهب إلى القدس ملتصقا بتأييدها عارضا تسليم الفرنج بصرى وصلحد إذا نصّبوه في لوردية في حوران . وكان تصرف الملكة مليسند سليما جدا بدعوتها مجلسها لمناقشة الاقتراح . وكان قرارا هاما ذلك الذي سوف يتخذه؛ إذ أن مساندة ألتوتناش تعني تمزيق التحالف مع دمشق . غير أنه كان عرضا مغريا ، فأغلب سكان حوران من المسيحيين الملكيين<sup>(٣٥)</sup> ، من الطائفة الأرثوذكسية . وبهذه المساعدة المسيحية سيكون من اليسر احتلال حوران ، والسيطرة عليها سوف تضع دمشق تحت رحمة الفرنج . وتردد البارونات ، ثم أمروا بأن يتجمع الجيش عند طبرية ، غير أنهم أرسلوا إلى أنر سفارة تقول إنهم اقترحوا تنصيب ألتوتناش . فغضب أنر ، لكنه رغب في تجنب الانفصال خوفا من نورالدين ، فرد على الملكة بذكرها بأنه وفقا لقانونها هي الخاص بالاقطاع ، لا يستطيع أي حاكم تأييد تابع لحاكم آخر تربطه بالأول علاقة صداقة إذا تمرد ذلك التابع على سيده ، وعرض تسديد أجرة مصروفات تكون قد تكبدتها من جراء تجهيز الحملة . فأرسلت الملكة فارسا يدعى برنارد فاشير إلى دمشق يقول إنها لسوء الحظ ملتزمة بتأييد ألتوتناش الذي سوف يعيده جيشها إلى بصرى ، وتعهدت بعدم الخاق أي أذى بالأراضي الدمشقية بأي حال . وسرعان ما عاد برنارد وقد اقنع أنر بأن الاقتراح يخلو من الحكمة والصواب . وأقنع الملك الصغير

*Elegy on Baldwin*, p.205; *Anon. Chron. Syr.* pp.292-7; Ibn al-Qalanisi, pp.274-5; Ibn al-Athir, pp.455-8 (and *Atabegs*, p. 156); *Bustan* p. 541.

(٣٥) (المرحوم) الملكيون Melchites أو Melkites: تسمية تطلق على من أخذوا من مسيحي سوريا ومصر بما انتهى اليه مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية . وللتفصيل انظر الجزء الأول ، ص ٣٢ ، الحاشية رقم (١).

بالمدين بآرائه ، وعندما نوقش الأمر مرة أخرى في المجلس تقرر التعلل عن الحملة . ولكن حماس الجنود كان قد اشتد الآن ، وحق قادة الدعاة في الجيش لإلغاء غارة على الكفرة كانت ستعود عليهم بالأسلاب ، فأنكروا برنارد ورموه بالخيانة وأصروا على الحرب . فعاف الملك والبارونات وأذعنوا للدعاة .

وفي شهر مايو ١١٤٧م عمر الملك على رأس الجيش الفرنجي نهر الأردن ودخل الجولان . غير أن الأمر لم يكن ما توقعه الجنود من نصر مؤزر ، ذلك أن أنس كان قد أعد العدة محاماً ، فراح جنوده الزكمان خفيقو الحركة ومعهم أعراب المنطقة يضابطون جنود الفرنج أثناء كدحهم أعلى وادي اليرموك باتجاه درعا . وكان أنس نفسه قد أرسل سفارة إلى حلب ملتمسا العون من نور الدين الذي انتهج لهذه المناشة . وولد تحالف . ووافق أنس على منح يد ابنته إلى نور الدين ، الذي وعد بالحضور فوراً لمساعدته ، وقد تقرر أن تعود حماء إلى نور الدين ولكن عليه أن يحرم استقلال دمشق . وفي نهاية مايو وصل الفرنج إلى درعا الواقعة على أكثر قليلا من منتصف المسافة بين الحدود وبصري ، بينما سارع أنس إلى صلح الواقعة أبعد إلى الشرق ، والتي طلبت فيها حامية التوتناش الفدنة . وتحرك أنس غربا كي ينضم إلى نور الدين الذي هبط من حلب بالسرعة القصوى . وزحفا معا إلى بصرى فما كان من زوجة التوتناش إلا أن سلمتها إليهما ووصلت أنباء الاستسلام مساءً إلى الفرنج عندما وصلوا على مرمى البصر من بصرى وقد عانوا في ترحالهم غاية الرهق وشدة الظمأ ، ومن ثم لم يتمكنوا من مهاجمة المسلمين ، ولم يكن يوسعهم سوى التقهقر . وكانت رحلة الإياب أصعب من رحلة الذهاب ، إذ سرعان ما تناقص الطعام ، والكثير من الآبار قد دمرت ، وتعلق الأعداء بمخبرتهم يضابطونهم ويقتلون الجماعات الشاردة . وأبدى الملك الصبي بطولية عظيمة عندما رفض اقتراحا بأن يترك الجيش الرئيسي ويسرع إلى مأسن مع حرس شخصي يجري اختياره ، وبفضل ما ضربه من مثل ظل الانضباط في حالة جيدة . وأخيرا قرر البارونات عقد السلام مع أنس ، وأرسلوا رسولا يتحدث العربية ، ربما كان برنارد فاشر ، يلتبس هدنة ، لكنه قتل في الطريق . ومع ذلك ، وبوصول الجيش إلى الرحبة الواقعة على سفح جبل عجلون ، جاء رسول من أنس عارضا إعادة تموين الفرنج . ذلك أنه لم يشأ أن يحو الجيش الفرنجي محاماً مع وجود نور الدين على مقربة منه ، ورفض الملك العرض في غطرسة ، على أنه لوحظ ظهور فارس غريب غامض على فرس أبيض يرفع راية قرمزية قاد الجيش بأمان إلى حدر . وبعد مناوشة أخيرة هناك عبر الجيش نهر الأردن عائداً إلى داخل فلسطين . وكانت الحملة باهظة التكاليف ولا مغزى لها .

وكشفت عن حماقة الفرنج في السياسة والاستراتيجية برغم ما قد ينسب عليهم من مهارة في القتال<sup>(٣٦)</sup>.

#### ١١٤٧ م : ارتفاع نجم نور الدين

لم تعد الحملة بالنفع على أحد سوى رجل واحد فقط هو نور الدين . واستعاد أنكر حران في الواقع . وعندما ذهب التوتانش إلى دمشق واحيا المغفرة ، فقت عيناه والقي في غياهب السجن ، ولحق الخزي بأصدقائه . على أن أنكر بات مدركا إدراك اليأس لما أصبح عليه نور الدين من قوة . وشعر بالخطر على مستقبله وظل مشتاقا لاستعادة التحالف الفرغبي . ومع ذلك ، التزم نور الدين بمعاهدته مع أنكر ، وعاد شمالا لمواصلة مهمته في تجميد الإمارة الأنطاكية من كل أراضيها الواقعة شرق العاصي . وفي نهاية ١١٤٧ م ، كان قد استولى على أرتاح وكفرلاتا وبسرفوت والبلات<sup>(٣٧)</sup>.

وهكذا برز نور الدين العدو الرئيسي للمسيحيين . وهو الآن في التاسعة والعشرين من عمره ، غير أن حكمته كانت أكبر من سنه ، بل كان معارضوه يمجّبون بتزوعه إلى العدالة والاحسان والورع الصادق . وربما لم يبلغ مبلغ والده زنكي في ذكائه العسكري ، لكنه كان أقل قسوة وغدرا وأبعد شأوا في صواب حكمه على الرجال . وكان وزراؤه وقواده على اقتدار وإخلاص ، ومصادره المادية أقل مما كان عليه أبوه ، إذ كان بمقدور زنكي أن يطلب ثروات العراق الأعلى ، التي أمست الآن في حوزة سيف الدين . ولذلك ورث سيف الدين مصاعب زنكي مع الأراقة ومع الخليفة ومع السلطنة السلجوقية ، تاركاً نور الدين يوجه كل انتباهه إلى الغرب لا يشغله شغل . وفضلا عن ذلك ، بقي ولدا زنكي مخلصين لرباطهما العائلي . إذ أن سيف الدين علق بأن يرسل العون إلى نور الدين وقت الشدة دون أن يطمع في ضم نصيبه من أراضي الأسرة . وكان هناك ابن ثالث ، تم تنصيبه في حران كنائب لنور الدين ، بينما كان أصغر أفراد الأسرة قطب الدين ، ينشأ في بلاط أخيه الأكبر في الموصل . وغدا نور

(٣٦) William or Tyre, xvi, 8-13, pp. 715-28; Ibn al-Qalanisi, pp. 276-9; Abu Shama, pp. 50-3.

(٣٧) Kemal ad-din, ed. Blochet, pp. 515-16; Ibn al-Athir, pp. 461-2.

الدين ، بمثانة روابطه الأسرية ، وتحالفه مع أنبر ، في مأمن مما قد يشككه رفاقه المسلمون من أخطار ، ومن ثم صار الرجل المناسب لمما ليقود الإسلام في هجومه المضاد، ولكي لا يعمل مسيحيو الشرق على تركيز جهودهم ضده<sup>(٢٨)</sup>.



---

## الباب الثالث:

### الحملة الصليبية الخامسة



\_\_\_\_\_

---

## الفصل الأول:

### اجتماع الملوك

\_\_\_\_\_

## اجتماع الملوك

”قُمْ وَاعْمَلْ وَلْيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ“  
(أخبار الأيام الأول ٢٢ : ١٦)

ما أن علمت القدس بسقوط الرها حتى أرسلت الملكة ميليسيند مبعوثيها إلى أنطاكية للنشاور مع حكومتها بصدد إرسال سفارة إلى روما لإبلاغ البابا وطلب إرسال حملة صليبية جديدة . وتقرر اختيار هيو أسقف جبلة ليكون سفيراً ، لما أصاب من شهرة بين المسيحيين اللاتينيين لمعارضته مطالب الامبراطور جون . وبرغم حالة العاجلة التي اتصفت بها سفارته لم يصل الأسقف إلى المقر البابوي قبل خريف عام ١١٤٥ م . وكان البابا إيوجينيوس الثالث في مدينة فينيزيا ، إذ كانت روما تحت سيطرة جماعة تزدري الحكم البابوي . وكان بصحبته المؤرخ الألماني أوتو (أوف فريزنجن) ، الذي سجل تلقى البابا للأبناء المريعة على الرغم من أنه كان أكثر اهتماماً هو نفسه بالمعلومات التي حملها أحد أساقفة عاجل مسيحي في شرق فارس ، يدعى جون من

النساطرة، ويبرز تقدما ناجحا ضد الكفرة<sup>(١)</sup>. وكان قد غزا فعلا العاصمة الفارسية Ecbatana (همدان) ، غير أنه اتجه إلى منطقة ثلجية في الشمال حيث فقد عددا كبيرا من رجاله مما اضطره إلى العودة . وكان ذلك إيذانا بدخول بريستر جون الأسطوري في صفحات التاريخ<sup>(٢)</sup>.

ولم يشارك البابا إيوجينيوس المؤرخ في آماله التي عقدها على بريستر جون في انقاذ العالم المسيحي. وكان في حالة من القلق البالغ . وفي ذات الوقت جاءه وفد من أساقفة الأرمن من كيليكيا، يتلهفون على المساعدة ضد بيزنطة<sup>(٣)</sup> . ولم يكن بوسع البابا أعمال واجباته نحو الشرق . وبينما ذهب الأسقف هيو لإطلاع عواهل فرنسا وألمانيا بأنباء الرها ، قرر البابا إيوجينيوس التبشير بحملة صليبية<sup>(٤)</sup> . على أن البابوية لم تكن في وضع يمكنها من توجيه الحركة على النحو الذي حاوله البابا إيربان ، فمنذ أن اعتلى إيوجينيوس عرش البابوية في فبراير لم يتمكن من دخول روما ، فضلا عن ذلك لم يكن قادرا على السفر عبر الألب . ولحسن الحظ كان على علاقة طيبة بالمعالين الرئيسيين في أوروبا الغربية ، إذ كان كونراد (أوف هوهينشتافن) ملك ألمانيا مدينا بعرشه للمساندة الكنسية وقد قام الممثل البابوي بتوجيهه . وكانت العلاقات البابوية أكثر ودا مع لويس السابع ملك فرنسا الورع النائب من بعض الجرائم التي ارتكبها في وقت مبكر بسبب نفوذ زوجته إلسانور الأكيثانية ، وارتضى أن يُسلم قياد أمره كله للمستشارين الكنتيين ، وبصورة ملحوظة لرئيس دير رهبان كليرفو ، القديس برنارد. وقرر البابا أن يكون الملك لويس هو المستهدف لتقديم المساعدة للشرق ، أما كونراد ملك ألمانيا فكان في احتياج لمساعدته في إيطاليا لإخضاع الرومان وبيع طموحات روجر الثاني الصقلي ، ولم يشأ أن يتولى كونراد التزامات أخرى . وكان لويس ملكا للأراضي التي جاء منها أغلب أمراء ولوردات فرنج الشرق ، ومن ثم كان هو القائد المرشح لقيادة الحملة التي سوف تخلصهم . وفي أول ديسمبر ١١٤٥م أصدر إيوجينيوس أمرا بابويا إلى الملك لويس وكافة الأمراء والمخلصين في المملكة الفرنسية

(١) (المترجم) : النسطورية Nestorianism ملهب مسيحي هرملقي يعزى إلى الطريق نسطوريوس Nestorius (طريق القسطنطينية ٤٢٨-٤٣١) القائل بوجود طبيعتين للمسيح ، إلهية وبشرية .

(٢) Otto of Freisingen, *Chronica*, pp. 363-7. See Gelber, *Papst Eugen III*, p. 36.

(٣) Tournebize, *Histoire Politic et Religieuse de l'Arménie*, pp.235-9. انظر

(٤) *Chronicon Mauriniacense*, R.H.F. vol II, p.88; Otto Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.54-7.

يحثهم على الذهاب لانتفاذ العالم المسيحي الشرقي واعداء إياهم بالحفاظ على ممتلكاتهم في الحياة الدنيا وغفران خطاياهم في الحياة الآخرة<sup>(٥)</sup>.

#### حملات صليبية متفرقة

ارتاع الغرب لسقوط الرها . وكانت جذوة الحملة الصليبية الأولى وحماسها قد هدأت بعد أن لُهب احتلال القدس خيال الرجال ، فكانوا يسارعون طواعية إلى تلبية النداءات الآتية من الشرق بطلب التعزيزات ، كما اتضح من الحملات الصليبية عام ١١٠١ م . غير أن الحملات الصليبية عام ١١٠١ م كانت نهايتها فاجعة ، وبرغم ذلك صمدت دويلات الشرق الفرنجية وعززت مواقعها . وكانت التعزيزات ما تزال تغد على الشرق ، على ضآلتها البالغة، ولم ينقطع سيل المهاجرين الذين بقى الكثير منهم فترات طويلة بما يكفي لاشتراكهم في إحدى الحملات الصيفية . وكان من بين هؤلاء الحجاج زعماء من مثل سيحورد التروبيجي ، أو كانت هناك جماعات كبيرة من الرعايا، كالإنجليز، والفلاندرز من البلجيك والدانمركيين ، ممن جاءوا عام ١١٠٦ م . وكانت المدن البحرية الإيطالية ترسل من حين لآخر أسطولا للمساعدة في الاستيلاء على بعض الموانئ ، وإن كانت دوافعها المعلنة تتمثل في المصالح التجارية ، كما كانت تجلب معها أعدادا متزايدة من التجار الإيطاليين . غير أنه منذ حكم بلدوين الأول قلّت حملات الحجاج المسلحة هذه ، وكانت الحملة الوحيدة الملموحة في السنوات الأخيرة الحملة التي قادها صهر الملك فولك ، ثيرى كونت فلاندرز . وتواصل تدفق المهاجرين - من أصغر الأبناء المفلسين - مثل باليان (أوف تشارتر) مؤسس بيت إيبيلين (بنية)، أو بارونات من أمثال هيو (أوف لو بواسيه) أو مناس (أوف هيرج) ممن كانوا يعتقدون الآمال على استغلال علاقة القرابة بالبيت المالكي . ومن العوامل الأكثر دواسا ونفعا الفرسان الذين جاعوا للانضمام إلى النظامين العسكريين الكبيرين : فرسان المعبد وفرسان المستشفى ، اللذين أخذوا تدريجيا في مباشرة مهام الجيش الدائم للمملكة ، وكانت هبات الأراضي الكبيرة التي أغدقها التاج عليهم شاعدا على مدى التقدير الذي ينالونه . على أنه منذ أن تبعثرت جيوش الحملة الصليبية الأولى ، لم تكن هناك قوة

(٥) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 8796, vol. II, p. 26. Caspar, 'Die Kreuzzugsbulen', in *Neues Archiv*, vol. XLV, pp. 285-306K. ويثبت كاسبار أن تاريخ الأمر البابوي هو قطعا أول ديسمبر ١١٤٥، الأمر الذي ينسف النظرية الفرنسية القائلة بأن لويس السابع هو الذي حرّض على الحملة الصليبية.

فرنجية في الشرق لديها من القدرة ما يكفي لشن هجوم كبير على الكفرة.

كانت صدمة الكارثة في الرها ضرورية لإثارة الغرب مرة أخرى . ففي ذلك الوقت بدت الدويلات الصليبية في سوريا في منفلور أوروبا الغربية مجرد الجناح الأيسر للحملة المضادة للإسلام باتساع البحر الأبيض المتوسط ، وأسبانيا جناحها الأيمن حيث كانت ما تزال هناك مهام يقوم بها الفارس المسيحي . وكان تقدم الصليب في اسبانيا قد توقف في العقد الثاني والثالث من القرن الثاني عشر بسبب المشاجرات التي جرت بين الملكة أوركا ملكة قشتالة وزوجها الملك ألفونسو الأول ملك أراجون . غير أن ابن الملكة ألفونسو السابع، ووريثها من زواجها الأول الريحندي أحدث نهضة في قشتالة . وبعد ست سنوات من استخلافه بدأ سلسلة من الحملات ضد المسلمين جاءت به في عام ١١٤٧م إلى بوابات قرطبة حيث تم الاعتراف بسيادته العليا . وقد سبق أن اتخذ لنفسه عام ١١٣٤م لقب امبراطور ليظهر انه السيد الأعلى لشبه الجزيرة وأنه ليس تابعا لأحد . وفي تلك الأثناء تحرر ألفونسو الأول من مشاكل كاستيل المعقدة بموت زوجته أوركا، فأمضى سنواته الأخيرة وهو يبادر بالهجوم في مورسيا Murcia بدرجات متفاوتة من النجاح . وعلى طول الساحل راح ريموند برينجار الثالث كونت برشلونة ، يوسع من سلطانه جنوبا . ومات ألفونسو الأول عام ١١٣٤م ، وحكم أخوه الراهب السابق راميرو حكما مشغوما لثلاث سنوات . وفي عام ١١٣٧م زوجت ابنته البالغة من العمر سنتين - الملكة بترونيا - من ريموند برينجار الرابع عاهل برشلونة ، واتحدت قطالونية وأراجون في قوة واحدة مكنتها بحريتها القومية من استكمال استعادة شمال شرق اسبانيا وهكذا كانت الأمور في عام ١١٤٥م تسير على ما يرام على المسرح الأسباني ، غير أن عاصفة كانت تتجمع . ذلك أن المرابطين، الذين سيطروا على أسبانيا المسلمة طوال النصف الأخير من القرن ، وقعوا فريسة اضمحلال لا مخرج يربح منه . وحل محلهم في إفريقيا الموحدون ، وهم يمثلون طائفة من المصلحين النساك ، تكاد عقيدتهم اللاهوتية أن تكون غنوصية<sup>(٦)</sup> . وكانوا يصرون على أنهم طبقة من المقتدرين ، أسسها ولي من أولياء البربر يدعى ابن تومرت ، وواصل خليفته عبد المؤمن نشاط هذا المذهب بمزيد من العنف فهزم زعيم المرابطين - تاشفين بن علي - وقتله بالقرب من تلمسان عام ١١٤٥م ، وفي العام التالي استكمل الاستيلاء

(٦) (المترجم) : الغنوصية Gnosticism or Gnosis : معرفة الأمور الروحية . وتطلق عموما على طائفة مسيحية هرطقية في القرن الأول حتى القرن الثالث كان أفرادها يتبعون معتقداتهم بالأمور الروحية.

على المغرب وأصبح على استعداد للانتقال إلى إسبانيا<sup>(٧)</sup>. ونتيجة لتلك التوقعات لم يلق الفرسان المسيحيون في إسبانيا بالآ للنداء الآتي من الشرق. ومن الناحية الأخرى، وبعد أن تأسست الممالك الأسبانية بصورة مضمونة الآن، لم يعد هؤلاء الفرسان يوفرون لفرسان وامراء فرنسا نفس النطاق الذي كان سائدا في القرن المنصرم.

#### الملك روجر الثاني الصقلي

احتل الملك روجر الثاني الصقلي مركز الصدارة في ميدان القتال ضد الاسلام. وكان قد وحد كافة الأراضي النورماندية في ايطاليا واتخذ لنفسه اللقب الملكي عام ١١٣٠ م. وقد وعى جيدا ما لملكته من أهمية استراتيجية، إذ كانت ذا موقع مثالي للسيطرة على البحر المتوسط. غير أنه لكي يستكمل تلك السيطرة كان ضروريا أن يكون له موطن قدم على الساحل الافريقي قبالة صقلية. واتيحت لروجر الفرصة لما ساد بين الاسر الحاكمة الاسلامية من مشاحنات وتذبذب في شمال افريقية، فاقم من حدتها اضمحلال قوة المرابطين في المغرب وضعف السيادة الفاطمية في تونس، فضلا عن أن المدن الافريقية كانت تعتمد على واردات الحبوب من صقلية. غير أن حملاته الأولى من ١١٢٣ إلى ١١٢٨ م لم تعد عليه بنفع يذكر سوى حصوله على جزيرة مالطة. وفي عام ١١٣٤ م، وبمساعدة قضائية جاءته في وقتها، استمال الحسن - صاحب مهدية - إلى قبول سيادته العليا، وفي العام التالي احتل جزيرة جربة الواقعة في خليج قابس وافتتحت شهيته بفارات ناجحة على السفن الاسلامية، فبدأ في مهاجمة المدن الساحلية، وفي يونيو ١١٤٣ دخل جنوده طرابلس لكنهم أخرجوا على الانسحاب. وبعد ثلاث سنوات كاملة أعاد احتلال المدينة، وفي وقت اندلاع ثورة داخلية فيها كانت تنصب أميرا من امراء المرابطين حاكما عليها، وتعذر إخراجها منها هذه المرة، وغدت طرابلس نواة لمستعمرة نورماندية في افريقيا<sup>(٨)</sup>.

وهكذا أصبح الملك روجر مناسبا بصورة تثير الإعجاب للاشتراك في الحملة الصليبية الجديدة. غير أنه كان موضع ريبة. فلم يكن سلوكه سلوك من يستشعر الواجب إزاء البابوية قط وتادرا ما كان يوليها المراعاة الواجبة. وقد شعر ذوو السلطان

(٧) عن المهادين انظر *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España*، Codera، ومقال Bel عن 'Almohads' في دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam*.

(٨) Chalandon، *Domination Normande en Italie*، pp. 158-65.



الأخرون في أوروبا بالامتعاظ من تخرؤه على تنويع نفسه ملكاً؛ وقد علق القديس برنار في رسالته إلى لوثير ملك ألمانيا قائلاً: "إن من يجعل من نفسه ملكاً لصقلية فإنما يهاجم الامبراطور"<sup>(٩)</sup>. ويعني اعتراض القديس برنار عدم موافقة الرأي العام الفرنسي . وكان روجر ما يزال يفتقر إلى الشعبية بين أمراء الشرق ؛ إذ أظهر بجلاء أنه لم يفتقر البتة لمملكة القدس اساءة معاملتها لوالدته أدبلاهدى ، وفشلها في استخلاصه ملكاً للقدس على نحو ما ينص عليه عقد الزواج ، وكان يطالب بأنطاكية ميراثاً باعتبارها الوريث الوحيد من المذكور من ذرية ابن عمه بوهمند . لقد كان وجوده في الحملة الصليبية غير مرغوب فيه ، لكن الآمال كانت معقودة عليه للمضي في حربه على الإسلام في منطقته الخاصة به<sup>(١٠)</sup>.

ومن اليسر تفهم اختيار البابا لملك فرنسا ، لويس ، لتنظيم الحملة الصليبية الجديدة ، وقد استجاب الملك للنداء متلهفاً . وعندما وصل الأمر البابوي ، الذي جاء بعد وقت قصير من وصول الأنباء التي حملها أسقف جبله ، كان لويس قد أصدر لشوه استدعاء لكبار مستأجري الأرض لمقابلته في يوم عيد الميلاد في بروج . وعندما اجتمعوا احبرهم أنه قد قرر أن يأخذ الصليب ورجاهم أن يمدوا حذوه . وداهنته مشاعر الأسف في عيبة أمله من ردهم ؛ فلم يظهر عوام النبلاء حماساً لطلبه ، وأعرب رجل الدولة البارز في المملكة - سوجر ، رئيس دير رهبان سانت دينيس - عن عدم موافقته على غياب الملك المتوقع . ولم يفصح أحد عن موازرتة لسيدته سوى أسقف لانجر<sup>(١١)</sup>.

#### ١١٤٦ م : التجمع في فيزيلاي

ثبطت همة الملك لويس لما أظهره أتباعه من عدم المبالاة ، فقرر لإرجاء مناشدته ثلاثة أشهر ، واستدعى تجمعا آخر لمقابلته في فيزيلاي يوم عيد القصح ، وفي ذات الوقت كتب يطلع البابا على رغبته في قيادة حملة صليبية ، وأرسل إلى الرجل الوحيد في فرنسا الذي كان له من السلطة ما يفوق سلطته هو نفسه ، ألا وهو برنار رئيس دير رهبان كليرفو . وكان القديس برنار الآن في ذروة شهرته . ومن العسير علينا الآن

(٩) Saint Bernard, letter no. 139, in M.P.L. vol. CLXXXII, col. 294.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 22-3.

(١١) pp. 393 ff.; Odo of Deuil, p. 121 Vita Sugerii Abbatis.

أن تلتفت وراءنا عبر القرون لتعرب عن تقديرنا لما كان له من نفوذ رائع على كل من عرفوه ؛ إذ أن لحيب فصاحته فقد رواه فيما بقي من كلمات مكتوبة . ولكونه لاهوتيا مجادلا هذا الآن صارما فقط حافيا ، لكنه منذ اليوم الذي عُيِّن فيه رئيسا لدير وهبان كليرفو عام ١١١٥ م ، وهو آنذاك في الخامسة والعشرين من عمره، وحتى وفاته بعد ذلك بأربعين سنة تقريبا ، كان صاحب الأثر المهيمن على الحياة الدينية والسياسية في أوروبا الغربية : فهو الذي أعطى النظام البندكتي قوته الدافعة ، وهو وحده - دون معين في الأغلب - الذي انتقد البابوية من رغام الصدع الذي كساد بسببه أناكليستوس<sup>(١٢)</sup>، إذ كان في وعظه حماس وإخلاص ، وكان شجاعا قويا ، وقد خللت حياته مما يعيبها، فكانت تلك المزايا تجتمع لديه وتمكّنه من الانتصار لأمة قضية بمنحها موازرتة ، باستثناء قضية واحدة فقط هي حالة طائفة الكشار المريرة في لانجدوك<sup>(١٣)</sup>. وكان مهتما منذ زمن طويل بمصير العالم المسيحي الشرقي وسبق أن أسهم هو نفسه عام ١١٢٨ م في وضع مبدأ إنشاء نظام فرسان المعبد . وعندما ترجاه البابا والملوك

(١٢) (المترجم): بعد وفاة البابا هونوريوس الثاني عام ١١٣٠م انتخب أغلب الكرادلة أناكليستوس الثاني Anacletus II ، وانتخبت أقلية الكرادلة يونسث الثاني Innocent II ، ورُسم البابا كلاهما مما أنذر بصدع في الكنيسة حسيم . ودعا الملك الفرنسي لويس السادس ملك فرنسا (السمين) مجلسا لتقرير شرعية البابوية عام ١١٣٠م ، فاختار المجلس البابا يونسث لكن أناكليستوس أحضره فرمحه يونسث على الحرب إلى فرنسا حيث آذنه الرابع القديس برنار (أوف كليرفو) الذي حاضم المجدار أناكليستوس من أسلته اليهود . ورغم تحالف أناكليستوس مع الملك روجر الصقلي الطموح ، فقد تغلب مناصرو يونسثت بمن فيهم الإمبراطور البيزنطي جون الثاني كومنينوس والإمبراطور الألماني لوثير الثاني على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي اصطحب يونسثت وقاد جيشا ألمانيا عام ١١٣٢م واحتل روما كلها ساعدا الجزء الذي يحتله انتصار أناكليستوس . وبعد رحيل لوثير أصبح أناكليستوس فرمحه يونسثت على الحرب من روما مرة أخرى فلجأ إلى بيزا حيث عقد مجلسا عام ١١٣٤م وأعلن الحكم على أناكليستوس بالهرمان الكيسي . وتمكن الإمبراطور لوثير في حملته الثانية (١١٣٦-٧) من طرد روجر الصقلي من جنوب إيطاليا ، وبذا تمس أناكليستوس بقتل من الناصرين، فمات منها بذلك الصدع الوشيك ، ولكن الآراء منقسمة حول تلك المسألة حتى يومنا هذا .

(١٣) (المترجم) : Cathari : طائفة مسيحية هرطقية ازدهرت في القرنين ١٢ و ١٣ في لانجدوك Languedoc في جنوب فرنسا وانحاء من أوروبا الغربية. اعتنقت ثنائية ماثوية جديدة ذات مبدئين : مبدأ الخير ومبدأ الشر ، قالت إن المادة شر والإنسان مغلوب في هذا العالم الشرير . كانت لها قواعد صوم صارمة منها الامتناع التام عن أكل اللحوم . حظرت المضاحمة الجنسية ونادت بالثبوت التام السكبي من العالم . أعادت كتابة القصة الإلهية وطوّرت معرفة مدروسة لتحل محلها بعد أن تحققت على أغلب العهد القديم الذي أنكره بعض أفرادها برمته . ورفضت مبدأ التجسد Incarnation وليس عيسى عليه السلام سوى ملاك ، وما آلامه البشرية وموته إلا مجرد وهم . وهاجمت فساد الكنيسة الكاثوليكية واعتمدتها الدنيوية مجرما لانعا. جرّدت الكنيسة الكاثوليكية ضدّها الحملة الصليبية الألبنسية the Albigensian Crusade وراح بارونات شمال فرنسا بخربون تولوز وبروفانس ويقتلون الكشار والكاثوليك على السواء.

للمساعدة في التبشير بالحملة الصليبية لتي النداء بشغف<sup>(١٤)</sup>.

وتجمعت الحشود في فيزيلاي Vézelay يوم ٣١ مارس ١١٤٦ م ، وبانتشار الأنباء بأن القديس برنار سوف يبشر في هذا الجمع ، جاء الزائرون من سائر أنحاء فرنسا . وكما حدث في كليرمونت منذ نصف قرن ، كان الحشد من الضخامة بحيث تعذر اجتماعه في الكاتدرائية ، فتحدث القديس برنار وهو يعتلي منصة أقيمت في حقل خارج المدينة الصغيرة . ولم تسجل الأجيال كلماته ، وإنما نعرف فقط أنه قرأ الأمر البابوي الداعي إلى حملة مقدسة مع وعد المغفرة لكل من يشارك فيها ، ثم استغل فصاحته التي لا تبارى كي يوضح المعجزة التي تتطلبها الدعوة البابوية . وسرعان ما وقع الحاضرون أسرى لنفوذه الطاغى ، وبدأ رجال يصيحون طالبين الصليب - "الصليب ، أعطونا الصليب !" - ولم يمض طويلا وقت قبل أن تنفذ المواد التي سبق إعدادها لحياطة الصليب ، فنضى القديس برنار رداءه الخارجي والقي به لتمزيقه إلى صلبان صغيرة ، وغربت الشمس ولا زال هو ومساعدوه ينيطون الصليب ، إذ كان المخلصون الذين نذروا أنفسهم للذهاب في الحملة الصليبية يقدون بأعداد أخذت في التزايد<sup>(١٥)</sup>.

وكان الملك لويس أول من أخذ الصليب . وتلهف أتباعه على أن يخذوا حذوه وقد نسوا ما أبدوه من برود سابق . وكان من بينهم أخوه روبرت كونت دربر ، وألفونسو - حوردان كونت تولوز الذي ولد هو نفسه في الشرق ، ووليم كونت نغرس الذي قاد أبوه إحدى الحملات الفاشلة عام ١١٠١ م ، وهنري وريث كونتية شامباني ، وثيري (أوف فلاندرز) الذي سبق له أن حارب في الشرق وكانت زوجته ابنة (فولك) زوج الملكة ميليسيند ، وأمادويس (أوف سافوي) عم الملك ، وأرخبالد كونت بوربون ، وأراس وليزيو من أساقفة لانجر وكثير من نبلاء المرتبة الثانية . وجاءت الاستجابة الأعظم حتى من رعايا الناس<sup>(١٦)</sup> . واستطاع القديس برنار أن يكتب للبابا

(١٤) Odo of Deuil, p. 21. واستنادا إلى Otto Freisingen فإن البارونات رغبوا في استشارة القديس برنار قبل أن يلزموا أنفسهم (Gesta Friderici, p. 58) وعن القديس برنار وفرسان القبط ، انظر: Vacandard, Vie de Saint Bernard, II, pp.227-49.

(١٥) Odo of Deuil, p. 22; Chronicon Mauriniacense, loc. cit; Suger, Gesta Ludovici, ed. Molinier, pp. 158-60.

(١٦) كان أسقف لانجر هو Godfrey de la Roch Faillée ، وكان راعب كليرفو وبعث إلى القديس برنار بصفة قرابة . ولا نعرف سوى القليل عن أسقف أراس Alvisus الذي كان سابقا رئيسا لدير أنشيت . وجعلته الأساقفة الشاذرة أمينا لـ Suger دون أي أساس لذلك . وكان أسقف ليزيو Arnulf of Soez.

بعد ذلك بأيام قليلة قائلا : "أنت أمرت . وأنا أطعت . وسلطة من أعطى الأمر جعلت طاعتي مشمرة . قد فتحت قمي . تكلمت . وعلى الفور تضاعفت أعداد الصليبيين إلى ما لا نهاية . القرى والمدن الآن مهجورة . متجدد بالكساد رجلا واحدا لكل سبع نساء . وفي كل مكان ترى أراميل لا يزال أزواجهن على قيد الحياة".<sup>(١٧)</sup>

#### ١١٤٦م : القديس برنار في ألمانيا

وإذ تشجع القديس برنار بما صادفه من نجاح ، قام بجولة في برجندي واللورين وفلندرز ، يشر بالحملة الصليبية في طريقه . وبينما كان في فلاندرز تلقى رسالة من رئيس أساقفة كولونيا يترجاه الحضور على الفور إلى أراضي الراين ؛ ذلك أنه كما حدث في أيام الحملة الصليبية الأولى ، فإن ما أثارته أنباء الحركة من حماس انقلب ضد اليهود . ففي فرنسا اشتكى رئيس دير رهبان كلاني ، بطرس الموقر ، من أن اليهود لا يدفعون أسهاما ماليا لإنقاذ العالم المسيحي ؛ وفي ألمانيا اتخذ الأزدراء لليهود شكلا أكثر شراسة ؛ إذ أن راهبا بندكتيا متعصبا يدعى رودولف راج بنفث الإيحاء بمذابح لليهود في كافة أنحاء أراضي الراين : في كولونيا ومينز وورمز وسير وسراسبورج . وبذل رئيسا أساقفة كولونيا ومينز ما فسي وسعهما لإنقاذ الضحايا ، إلى أن استدعيا برنار أخيرا للتعامل مع البندكتي . فسارع برنار بالرحيل من فلاندرز وأمر بعودة رودولف إلى دير . وعندما عاد الهدوء مكث برنار في ألمانيا ، إذ بدا له أن على الألمان كذلك الانضمام إلى الحملة الصليبية<sup>(١٨)</sup>.

ولم يكن للألمان دور متميز حتى الآن في الحركة الصليبية . وإنما كان حماسهم

دارسا كلاسيكيًا للأدب العلمانية المنيرة . وقد اعتبر أسقفًا لانيرو ولزوي نفسيهما أنهما وقد منحوا وضع التديوين البابويين، رغم أن التديوين البابويين كانوا في الواقع هما Theodwin الأثني كاردينال بورتو، Florentine كاردينال جوبنو . واعتبر John of Salisbury في *Historia Pontificalis* pp. 54-5 أن المشاهدات التي دارت بين الأسقفين والأزدراء المشوك للكاردينالين تعزى بدرجة كبيرة إلى فشل الحملة الصليبية . وكان يعتقد أن Godfrey of Langres أكثر تعقلا من Arnulf of Lisieux.

(١٧) St Bernard, letter no. 247, in *op. cit.* col.447

(١٨) St. Bernard, letters no. 363, 365, in *op. cit.* cols. 564-8, 570-1; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 58-9; Joseph ben Joshua ben Meir, *Chronicle*, trans. Biellablotsky, I, pp. 116-29. تورويش على التارة المشاهر ضدهم . انظر Vacandard, *op.cit.* II, pp. 274-81.

المسيحي موجهها نحو التنصير القسري للسلافين الوثنيين على حدودهم الشرقية . فمنذ بداية القرن كان العمل التبشيري والاستعمار الألماني يجريان على قدم وساق في المقاطعات السلافية في بوميرانيا وبراندنبورج ؛ وقد اعتبر اللوردات الألمان أن توسع العالم المسيحي هذا عمل يفوق في أهميته الحرب ضد الإسلام الذي بدأ تهديده لهم ناكيا ونظريا ، ومن ثم أعرضوا عن الاستجابة لتبشير القديس برنار . كما لم يكن ملكهم كونراد (أوف هوهنشتافن) ، برغم إعجابه الشديد بالقديس ، أكثر تلهفا للإنصاف إليه . فكانت لديه اهتمامات في البحر المتوسط ، غير أنها كانت مقيدة بإيطاليا حيث وعد البابا بتقديم المساعدة ضد الرومان المتمردين وضد روجر الصقلي ، لقاء تنويجه الامبراطوري الذي يمتناه . كما أن وضعه في ألمانيا نفسها لم يكن مستقرا . فبرغم انتصاره في فينسرغ عام ١١٤٠م إلا أنه كان يلقي العداوة من مناصري بيت ويلف ، وفي الوقت ذاته كانت التصرفات الغريبة من اخوته وأخواته غير الأشقاء تثير له المتاعب بطول جناحه الشرقي . وكتب القديس برنار إلى الأساقفة الألمان ليضمن تعاونهم . ثم قابل الملك في فرانكفورت في خريف عام ١١٤٦م ، لكن كونراد رلوعه؛ ونهيا برنار للعودة إلى كليرفو لولا أن توصل إليه الأساقفة مواصلة تبشيره بالحملة الصليبية في فريبورج ، وبازل ، وشافهاوزن ، وكونستانس . وسرعان ما تجمعت الجولة حتى مع ضرورة ترجمة المواقف الدينية بمعرفة مترجم الماني . وتدافعت قطعان الرعاع ليأخذوا الصليب . وفشلت المحاصيل في ألمانيا ذلك العام وانتشرت المجاعة . والتصور جوعا حليق بأن يولد شعورا غامضا بالنشوة ؛ والأرجح أن الكثيرين ممن استمعوا إلى برنار قد ظنوا - كشأن حجاج الحملة الصليبية الأولى - أن الرحلة ستوصلهم إلى فردوس اورشليم الجديدة في السماوات<sup>(١٩)</sup>.

ووافق الملك كونراد على مقابلة القديس برنار مرة أخرى في يوم عيد الميلاد من عام ١١٤٦م أثناء عقده لمجلس تشريعي في مدينة سباير . ومرة ثانية طلب القديس برنار من الملك في موقعه يوم عيد الميلاد أن يأخذ الصليب ، لكن نداه لم يحرك من الملك ساكنا . على أنه بعد يومين التقى برنار موعظة أخرى أمام البلاط ، وتحدث كما لو كان هو المسيح نفسه مطوقا الملك ومذكرا إياه بالأفضال التي أمطرها

(١٩) Bernhardt, Konrad III, oo, 563-78k الذي يورد موجزا كاملا للحملة الصليبية ضد السلافين . وفي St Bernard's letter no. ٤٥٧ (op. cit. cols. 651-2) يذكر القديس مسيحي ألمانيا بالخروج في الحملة الصليبية في الشرق . وفي رقم cols. 652-4٤٥٨ بمصدر نفس الأمر الملك يوهانما وشعبها . والمؤرخون من مثل William of Tyre, Odo of Deuil وأغلب المؤرخين المعاصرين يشيرون إلى كونراد على أنه امبراطور ، غير أنه في الواقع لم يتلق قط تويجا امبراطوريا .

السماء عليه ، وصاح به قائلا : " يا إنسان ، ما الذى كان ينبغي لى أن افعله لك ولم افعله ؟" فتحركت مشاعر كونراد فى اعماقه ووعد باتباع اوامر القديس<sup>(٢٠)</sup>.

ورحل القديس برنار عن ألمانيا وقد تملكته الغبطة بما أجزه من عمل . وسافر خلال شرقى فرنسا يشرف على ترتيبات الحملة الصليبية وراح يكتب للبيوت البندىكية فى كافة أنحاء أوروبا بأمرها بتشجيع الحركة . وعاد إلى ألمانيا فى شهر مارس للمساعدة فى مجلس فى فرانكفورت عندما تقرر ارسال حملة صليبية ضد السلاف شرقى أولدنبرج . وكان المقصود من وجوده أن يظهر أنه بينما يناصر حملة صليبية فى الشرق فإنه لا يرغب فى أن يهمل الألمان وأحيائهم الأقرب . وعلى الرغم من أن البابا سمح للمشركين بارتداء الصليب فى هذه الحملة الصليبية، إلا أنها أخفقت إخفاقا تاما بسبب بدرجة كبيرة فى تأخر تحول السلاف إلى المسيحية . وسارع برنار من فرانكفورت إلى دير رهبانه فى كليرفو ليستقبل البابا الزائر<sup>(٢١)</sup>.

#### ١١٤٧ م : البابا إيوجينيوس فى فرنسا

كان البابا إيوجينيوس قد امضى عيد الميلاد من عام ١١٤٥م فى روما ؛ غير أن المتاعب مع أهل روما أجبرته على سرعة انسحابه مرة أخرى فى فيزيو ، بينما حضعت روما نفسها لتأثير المخرض على الاثارة ضد الكنيسة ، أرتولد (أوف بريشيا) . وتحقق إيوجينيوس من أنه بدون مساعدة الملك كونراد لن يتسنى له إعادة تنصيب نفسه فى المدينة المقدسة ، وفى ذات الوقت قرر عبور جبال الألب إلى فرنسا لمقابلة الملك لويس والإشراف على الحملة الصليبية ، فغادر فيزيو فى شهر يناير ١١٤٧م ووصل مدينة ليون يوم ٢٢ مارس . وتلقى أثناء ترحاله أنباء عما بذله القديس برنار من أنشطة، فلم يسر تماما لذلك . ذلك أن احساسه العملى جعله يتخيل حملة صليبية فرنسية خالصة تحت الزعامة العلمانية للملك فرنسا وبدون القيادة المنقسمة التى كادت أن تعطل الحملة الصليبية الأولى ، وها هو القديس برنار قد حول الحركة إلى مغامرة دولية ؛ ومن الجائز

(٢٠) Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 60-3; *Vita S. Bernardi*, cols. 381-3. ان يكون كونراد قد تأثر بسماعه ان غريمه Welf VI of Bavaria قرر ان يأخذ الصليب . (انظر Cosack, 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug' in *Mitteilungen des Instituts für Österreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV غير ان قرار ويلف أعلن لكونراد فى وقت قصير جدا بحيث لم يكن هذا الأخير ان يسمح به أنظر 4-53 pp. cit. (Gleber, op. cit. pp. 297-8

(٢١) See St Bernard, letter no. 457, loc. cit; Vacandard, op.cit. II, pp. 297-8

حدا عمليا أن ترجح كفة المنافسة بين الملوك على كفة تصوراته الرائعة. وفضلا عن ذلك ، سوف يحرم البابا من مساعدة الملك كونراد التي يعلق عليها الآمال في إيطاليا . فاستقبل أبناء الاشتراك الألماني استقبالا غاية في البرود . لكنه لم يكن بوسعهم منع الألمان من الاشتراك<sup>(٢٢)</sup>.

وقابل البابا الملك لويس في ديجون أثناء الرحلة في فرنسا في الأيام الأولى من أبريل، ووصل كليرفو يوم ٦ أبريل . وأرسل إليه الملك كونراد سفارة هناك يلتزم مقابلته في ستراسبورج يوم ١٨ من الشهر ؛ لكن إيوغينيوس كان قد وعد بتعضية عيد الفصح - يوم ٢٠ أبريل - في سانت دينيس ولن يغير من خطته . وأعد كونراد العدة للرحيل إلى الشرق دون مباركة من البابا شخصيا . وفي تلك الأثناء أجرى إيوغينيوس مقابلات عديدة مع الراهب سوجر الذي كان مقررا أن يحكم فرنسا أثناء غيبة الملك لويس. وعقد مجلسا في باريس للتعامل مع هرطقة جيلبرت (أوف دي لا بوريه) ، وقابل لويس مرة أخرى في سانت دينيس يوم ١١ يونيو . وبينما كان لويس يستكمل ترتيباته الأخيرة ، رحل البابا ببطء جنوبا للعودة إلى إيطاليا<sup>(٢٣)</sup>.

وفي الوقت الذي كان ملكا فرنسا وألمانيا بعدان فيه العدة للحملة الصليبية وبتعطّلان لرحلة برية طويلة ، كانت هناك حملة أكثر تواضعا تتألف من إنجليز مع بعض البلجيكيين من الفلاندرز وأبناء شمال هولندا (من الفرزيين) ، استلهموا ما قام به عملاء القديس برنار من تشير بالخروج بحرا إلى فلسطين . فأبحرت السفن من إنجلترا في أواخر الربيع من عام ١١٤٧ م ؛ وفي أوائل يونيو أبحرها سوء الأحوال الجوية على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل البرتغالي . وقابلهم ميعوثو ألفونس هنري ، كونت البرتغال ، الذي كان قد حقق استقلال بلاده مؤخرا وكان يتفاوض مع البابوية على منحه لقب ملك بحري يحاحه في حملاته ضد المسلمين. وكان قد استغل ما يواجهه المرابطون من صعوبات وانتزع نصرا كبيرا في عريق عام ١١٣٩ م ، وفي عام ١١٤٧ م كان قد وصل إلى ضفاف نهر التاجة بعد استيلائه على شنترين. وقد رغب الآن في مهاجمة العاصمة الإسلامية لشبونة وكان في حاجة إلى مساعدة بحرية . وجاء وصول الصليبيين في وقت المناسب. إذ أكد لهم ميعوثو ، أسقف أوبورتو ، عدم الحاجة إلى القيام برحلة طويلة إلى فلسطين إذا كانوا يريدون الحرب من أجل الصليب ؛ فهنا كفر

(٢٢) See Gleber, *op. cit.* pp. 22-7, 48-61

(٢٣) Odo of Deuil, pp. 24-5

في تناول اليد ، ولن ينال الصليبيون الجدارة الروحية فحسب ، وإنما أمامهم ضياع غنية يمكنهم الفوز بها هنا والآن . فوافق البلجيكيون والفرنسيون من فورهم ، لكن أفراد الفصيلة الإنجليزية ترددوا ، إذ أخذوا على أنفسهم العهد بالنهب إلى القدس ، وكان الأسقف قد أفلح في اقناع قائدهم ، هنري حلاتفيل حاكم سافوك ، بالبقاء . واضطر قائد الفصيلة الإنجليزية إلى بذل كل ما في وسعه من نفوذ لتحريض أفراد فصيلته على البقاء . وبعد أن تم الاتفاق على الشروط أبحر الأسطول الصغير جنوب نهر التاجه للانضمام إلى الجيش البرتغالي ؛ وبدأ حصار لشبونة . ودافع المسلمون عن مدينتهم ببسالة ، ولم تستسلم الحامية إلا في أكتوبر ، بعد أربعة أشهر ، بعد ضمانات بالمحافظة على أرواح أفرادها وممتلكاتهم . وعلى الفور نقض الصليبيون عهدهم وانغمست أيديهم في مذبحه كبيرة للكفرة قام بعدها أفراد الفصيلة الإنجليزية بتبادل التهينة على ما قدموه من "فضيلة" ، مع أنهم لم يلعبوا فيها سوى دور ضئيل . وبعد انتهاء الحملة واصل بعض الصليبيين رحلتهم إلى الشرق ، غير أن أغلبهم بقي في حالة استيذان تحت التاج البرتغالي . ورغم أن هذه الحادثة كانت إيذانا بتحالف طويل بين إنجلترا والبرتغال ، وبرغم أنها كانت بمثابة إرساء القواعد لانتشار المسيحية وراء المحيطات ، فإنها لم تفعل سوى القليل لمساعدة المسيحيين في الشرق حيث كانت القوة البحرية بالغة الأهمية للقضية<sup>(٢٤)</sup>.

#### ١١٤٧ م : الملك كونراد يغادر ألمانيا

في الوقت الذي تأخر فيه الشماليون في البرتغال كان ملكا فرنسا وألمانيا قد شرعا في الرحيل برا إلى الشرق . وكان الملك روجر الصقلي قد أرسل إلى كل منهما يعرض نقلهما ونقل جيشيهما بحرا . وكان طبعيا أن يرفض كونراد ذلك العرض إذ كان لفترة طويلة عدوا لروجر ، وكذلك فعل لويس . ولم يكن البابا راغبا في تعاون روجر ؛ ومن المشكوك فيه ما إذا كانت البحرية الصقلية من الضخامة بحيث تعمل كل الجنود الذاهبين في الحملة الصليبية . ولم يكن لويس راغبا في أن يسلم نفسه - وقد انفصل عن نصف جيشه - إلى رجل اشتهر بمضاي نفاقه الحافل فضلا عن كونه عدوا لدودا لعم الملكة

(٢٤) المصدر الرئيسي الأصلي للحملة الصليبية البرتغالية هو Osborn, *De expugnatione Lyxbonensi*, Stubbs *Memorials of the Reign of Richard I*, vol. I, pp. ١٠٠-١٠١. أيضا CXLIV-CLXXXII. Ermann, "Die Kreuzzugegedanke in Portugal" in *Historische Zeitschrift*, vol. CXL.I, pp. 23-53.



الفرنسية . فكان السفر برا أكثر أماناً وأقل تكلفة<sup>(٢٥)</sup>.

وانتري الملك كونراد مغادرة ألمانيا في عيد الفصح من عام ١١٤٧م ، وكان قد تلقى سفارة بيزنطية في ديسمبر في مدينة شير ، أخبرها برحيله القوي إلى الشرق . على أنه لم يبدأ رحلته في واقع الأمر إلا في نهاية مايو . وغادر راتيسون في الأيام الأخيرة من الشهر وعبر إلى هنجاريا . وكان الجيش بالغ الضخامة . إذ تحدث المؤرخون المرتاعون عن مليون جندي ؛ والأرجح أن العدد الإجمالي للرجال المسلحين والحجاج قد بلغ عشرين ألفا . وجاء مع كونراد اثنان من الملوك التوابع : فلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا . وكان على رأس النبلاء الألمان فريديريك ، دوق سوابيا ، وهو ابن أخي كونراد ووريثه . وكانت هناك كتبة من اللورين بقيادة ستيفن أسقف ميتز ، وهنري أسقف تول . ولقد كان جيشا مشاغبا؛ فكان الأقطاب الألمان يغارون من بعضهم البعض ، ودامت الاحتكاكات بين الألمان والسلاف وأبناء اللورين من الناطقين بالفرنسية . ولم يكن كونراد بالرجل الذي يسيطر على الجيش ويقيه في حالة انضباط، إذ تجاوز عمره الآن الخمسين بكثير ، وصحته لا هي بالجيده ولا بالسيئة ، ومزاجه ضعيف قلق . وقد بدأ في تفويض الكثير من سلطاته إلى يدي ابن أخيه فريديريك القويين غير المتمرسين<sup>(٢٦)</sup>.

وعبر الجيش الألماني هنجاريا في شهر يونيو . وكان ملك هنجاريا الصغير (جيزا) ودودا جدا ، ولم تحدث حادثة سيئة . وفي هنجاريا جاءت سفارة بيزنطية برأسها ديميتريوس ماكريمبولائيس والإيطالي ألكسندر (أوف جرافينا) وقابلت كونراد وسأته - نيابة عن الامبراطور - ما إذا كان قد جاء صديقا أم عدوا ، ولكي تترجأه أن يقسم القسم بألا يأتي من الأفعال ما يضر بمصالح ورعاية الامبراطور . وقد أحسن اختيار قسم عدم الإضرار هذا ؛ إذ كان القسم المعتاد في أجزاء معينة من الغرب يؤخذ من تابع لسيده؛ وهو الذي أقسمه ريموند التولوزي لألكسيوس أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ومع ذلك كان القسم مصاغاً بحيث إذا رفضه كونراد فمعنى هذا أنه قد وصم نفسه بعداوة الامبراطور . ولقد أقسم كونراد هذا القسم . فوعده السفراء البيزنطيون بتقديم

(٢٥) كان الملك لويس قد أعلن لروجر عن الحملة الصليبية (Odo of Deuil, p.22)، على أنه عندما اقترح روجر أن يشارك في الحملة بصورة إيجابية هذا الملك لويس مساعدته مما تسبب في استعادة المورخ Odo لأحرزه (ibid, p.24).

(٢٦) Odo of Freisingen, *Chronica*, p. 354 and *Gesta Friderici*, pp. 63-5.

كل المساعدة أثناء عبوره أراضي الامبراطورية<sup>(٢٧)</sup>.

#### ١١٤٧ م : الألمان في البلقان

في يوم ٢٠ يولية تقريبا دغسل كونراد أراضي الامبراطورية عند برانيتشوف . وساعدت السفن البيزنطية في نقل رحاله عبر نهر الدانوب . وفي نيش ، قابله حاكم المقاطعة البلغارية ، ميخائيل براناس وزود الجيش بالطعام الذي سيق تخزينه استعدادا لوصوله . وفي صوفيا ، التي وصلها بعد ذلك بأيام قليلة ، أقام حاكم نيسالونيك ، ميخائيل باليولوجوس ابن عم الامبراطور ، ترحيبا رسميا لكونراد من الامبراطور . وحتى الآن سارت الأمور على ما يرام . وكتب كونراد إلى اصدقاء له في المانيا يخبرهم بأنه راض عن كل شيء . على انه بعد مغادرته صوفيا بدأ رحاله في نهب الريف رافضين أن يدفعوا للمقربين مقابل ما يأخذونه منهم ، بل انهم قتلوا من اعترض عليهم . وعندما تلقى كونراد الشكاوى اعترف بأنه عاجز عن فرض الانضباط على الغوغاء . وفي فيلويبوليس حدثت أحداث فوضوية أسوأ ، إذ سُرق المزيد من الطعام ، وحدثت أعمال شغب عندما قام أحد المشعوذين ببعض الخيل وفي مأموله الحصول على بعض المال من الجند ، فاتهمه الألمان بالسحر . واضرمت الحرائق في الضواحي ، بيد أن اسوار المدينة كانت من القوة بحيث تعذر على الألمان مهاجمتها . وكان احتجاج رئيس الأساقفة ميخائيل اتاليكوس لدى كونراد من القوة بحيث شعر الأخير بالحرج وعاقب زعماء العصابات . ثم أن مانويل أرسل الجنود لمصاحبة الصليبيين وضمان عدم خروجهم عن الطريق . ولم يزد ذلك إلا إلى عمل فريد من أعمال الفوضى الأسوأ ؛ إذ تكرر الصدام بين البيزنطيين والألمان . وبلغت الأمور ذروتها من سوء بالقرب من أدورته عندما هاجم بعض قطاع الطرق البيزنطيين وجيها المانيا كان قد تخلف لمرصه وقتلوه ؛ فما كان من فريديريك (أوف سوابيا) إلا أن حرق ديرا كان بالقرب من مكان ارتكاب الجريمة وقتل قاطنيه . وانتقاما لذلك ، دأب البيزنطيون على قتل الشاردين المحمورين - وكانوا بأعداد غفيرة بين الألمان - أينما وقعوا عليهم . وعندما تمكن القائد البيزنطي بروسوخ من تهدئة الأمور واستأنف الجيش مسيرته ، جاءت سفارة من مانويل ، الذي شعر بالخطر الشديد ، تحت كونراد على أن يسلك الطريق الناهب إلى سيستوس على بوزغاز الدردنيل والعبور من هناك إلى آسيا . ولما كان مقررا أن تستمر

مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ، فقد اعتُبر طلب مانويل عملاً غير ودي لم يوافق عليه كوتراد . ويبدو أن مانويل قرر آنذاك مقاومة الصليبيين بالقوة ، لكنه في آخر لحظة ألغى أوامره المرسلة إلى بروسوخ . وسرعان ما نزل بالألمان عقاب الهسي . فبينما كانوا مستلقين في معسكرهم في شيرفاس الواقعة في سهل تراقيا ، فاجأهم سيل مغرق أطاح بغيامهم وأغرق الكثير من الجنود ودمّر الكثير من ممتلكاتهم ، ولم ينج من الأذى سوى فصيلة فريديريك التي كانت تعسكر فوق ربوة أكثر ارتفاعاً . ولم تحدث حوادث أخرى جسيمة إلى أن وصل الجيش القسطنطينية في العاشر من سبتمبر على وجه التقريب<sup>(٢٨)</sup>.

وجاء الملك لويس والجيش الفرنسي في أعقابهم بعد شهر تقريباً . وكان الملك نفسه قد انطلق من سانت دينيس في الثامن من يونيو ، وبعد أيام قليلة استدعى أتباعه لمقابلته في ميتز . والأرجح أن حملته كانت أصغر من حملة كوتراد . وقد جاء معه كل النبلاء الذين أخذوا الصليب معه في فيزيلاي للوفاء بعهودهم ، وكان مع الملك زوجته ، إليانورا الأكيثانية ، أعظم وريثة في فرنسا وابنة اخت أمير أنطاكية . وكانت كونتيسات فلاندرز وتولوز وكثيرات من السيدات الفخيمات قد ارتحلن مع أزواجهن . وانضم إلى الجيش السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إيفيرارد (أوف بار) مصطحباً معه فصيلة من الذين جندهم في نظام فرسانه<sup>(٢٩)</sup> . وكان عمر الملك نفسه ستة وعشرين عاماً ، وقد اشتهر عنه الورع وليس قوة الشخصية ، وقد مارس كل من أخيه وزوجته نفوذهما عليه ؛ وكفائد كان يفتقر إلى التدريب والحسم<sup>(٣٠)</sup> . وعلى الجملة كان جنوده أكثر انضباطاً وأقل شيطنة من الألمان ، ورغم وجود حالات من الفوضى حدثت في مدينة فورمز عند عبور نهر الراين.

(٢٨) Cinnamus, pp. 69-74; Nicetas Choniates, pp. 82-7; Odo of Deuil, p. 38. وكان المؤرخ Odo of Freisingen, *Gesta* . ٣٦. قد سبق له أن ذكر الخيال من قبل في صفحة ٣٦. *Friderici*, pp. 65-7.

(٢٩) ترد قصة الصليبين لوردتها Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp.158-60. القائلة بأن الملكة إليانورا جاءت على رأس مجموعة من الأمازون تقوم على أسس ملحوظة Nicetas p.80 بأن الجيش الألماني كان يشتمل على عدد من النساء المسلحات تسليحاً كاملاً .

(٣٠) تدل صورة شخصيته التي لوردتها Suger في مؤلفه *Gesta* وفي رسائله الخاصة به على أنه لم يكن رجلاً حاسماً.

## ١١٤٧ م : وصول الفرنسيين إلى القسطنطينية

وعندما انضمت جميع الفصائل الفرنسية إلى الملك ، انطلق الجيش عبر بافاريا . وفي راتيسبون التي وصلها يوم ٢٩ يونية ، كان هناك سفيران من الامبراطور مانويل في انتظاره ، هما ديميتريوس ماكريمبولانس الذي سبق وان أجرى مقابلة مع كوتراد في هنجاريا ، وآخر يدعى موروس . وطلبيا ضمانا بأن يتصرف لويس كصديق أثناء توأجه في الأراضي الامبراطورية وأن يعد بأن يعيد إلى الامبراطورية أية ممتلكات سابقة لها قد يستول عليها في الحملة . وكان واضحا انهما لم يطلبيا منه أن يقسم قسم عدم الإضرار ، إذ كان خليفه بأن يعي مغزاه تماما . وأعلن لويس رسميا أنه جاء كصديق ، لكنه لم يعد شيئا بشأن الغزوات المقبلة ، إذ وجد الطلب مبهما بصورة خطيرة<sup>(٣١)</sup> . ومن راتيسبون ارتحل الجيش في سلام خمسة عشر يوما خلال هنجاريا ووصل الحدود البيزنطية في نهاية أغسطس<sup>(٣٢)</sup> . وعبر المرتحلون الدانوب عند برانتشيفو وسلخوا الطريق الرئيسي خلال البلقان . ووجدوا بعض الصعوبة في شراء ما يكفي من الطعام ، إذ سبق أن استهلك الألمان كل ما كان متاحا ، وما ارتكبه الألمان من تجاوزات أثار الريبة لدى السكان المحليين الذين باتوا عازفين عن المساعدة . فضلا عن ذلك ، لم يكن التجار المحليون على استعداد لمنح أية تخفيضات في الأسعار بعد تصميمهم على الدفع أولا . غير أن المسؤولين البيزنطيين كانوا ودودين ، واستطاع القادة الفرنسيون السيطرة على انضباط رجالهم . ولم تحدث مشاكل جسيمة إلى أن اقرب الجيش من القسطنطينية رغم أن الفرنسيين بدأوا يشعرون بالازدراء تجاه كل من البيزنطيين والألمان . وفي أدركه حاولت السلطات دون جدوى ما حاولته مع كوتراد من حث لويس على تجنب العاصمة وعبور الدردنيل إلى آسيا . وفي ذات الوقت ، كان بعض الفرنسيين قد نفد صبرهم من تمهل الجيش في سيرة ، فأسرعوا قُدما ليلحقوا بالألمان . لكن الألمان كانوا يفتقرون إلى الود ، إذ رفضوا منحهم مخصات الطعام . لذا قامت فصائل اللورين - وكانت على غير وفاق مع زملائها الألمان - بالانضمام إلى الجنود الفرنسيين وأشعلت رأيا عاما فرنسيا مناهضا للألمان<sup>(٣٣)</sup> . وهكذا ، وقبل أن يصل الملك الفرنسي إلى القسطنطينية ، كانت العلاقات بين الجيشين الصليبيين مصطبغة بصيغة الريبة والمرارة ،

(٣١) Cinnamus, p. 82; Odo of Deuil, pp. 28-30 .  
عن

Odo of Deuil, pp. 30-4. (٣٢)

pp. 35-44 Ibid (٣٣)

وقد اتخذ الألمان والفرنسيون سواء بمواء موقفا عدائيا إزاء بيرنطة ؛ وليس ذلك بشعرا  
بتحاح الحملة الصليبية .

---

## الفصل الثانى:

### الشقاق المسيحى

\_\_\_\_\_

## الشفاق المسيحي

”خُصُومَاتٌ وَنَحَاسَاتٌ وَسَخَطَاتٌ وَخَزَنَاتٌ وَمَدَنَاتٌ  
وَبِيْعَاتٌ وَكُجَرَاتٌ وَتَشْوِيْعَاتٌ“

(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ : ٢٠)

عندما وصلت أنباء الحملة الصليبية إلى القسطنطينية أول الأمر كان الامبراطور مانويل مستغرقاً في شؤون الأناضول . وبرغم الحملات التي أطلقها أبوه وحده من قبل في المقاطعات الآسيوية للامبراطورية ، بقى الوضع مشيراً للقلق ، إذ لم يسلم من الغزوات التركية سوى المقاطعات الساحلية ، أما في داخل البلاد فكانت الغارات التركية تكاد أن تكون سنوية ، تكتسح البلاد بجنتية الحصون الكبيرة وهي تراوغ الجيش الامبراطوري، وقد هجر سكان المواجهة قراهم وهربوا إما إلى المدن أو إلى الساحل . وأقام مانويل سياسته على أساس إنشاء خط حدودي محدد تحرسه سلسلة من القلاع المتصلة ببعضها البعض عن قرب . وكانت دبلوماسيته وحملاته تستهدف الحفاظ على هذا الخط.

وكان الأمير الدانشمندى محمد بن غازى قد مات في ديسمبر عام ١١٤١ م ،



وكان يمثل القوة الإسلامية الرئيسية في آسيا الصغرى ، فاندلعت بعد موته الحروب الأهلية بين ابنائه وأخوته ، وقبل نهاية سنة ١١٤٢م انقسمت الإمارة إلى ثلاثة أجزاء احتفظ ابنه ذو النون بقيصرية مزكا ، بينما احتفظ أخواه يعقوب أرسلان بن غازي وعين الدولة بن غازي بسيواس وملطية على التوالي . وقد رأى مسعود سلطان قوية السلجوقي في هذا الانقسام فرصته في السيطرة على أترك الأناضول . فغزا أراضي الدانشمند وبسط سلطانه على المقاطعات الممتدة حتى نهر الفرات ، فتسبب هذا العدوان في إثارة مشاعر الخوف لدى الأخوين يعقوب أرسلان وعين الدولة فسعى إلى التحالف مع بيزنطة . وبموجب معاهدة ربما عقدت عام ١١٤٣م أصبحا تابعين للإمبراطور بدرجة ما . وبعد ذلك حول مانويل انتباهه نحو مسعود الذي توغلت غاراته إلى ملاحيته الواقعة على الطريق بين نيقية ودوريليوم ، ورد تلك الغارات على أعقابها ، لكنه سرعان ما عاد إلى القسطنطينية لاعتلال صحته ، وللمرض الميت الذي أصيب به اخته المحبوبة ماريا ، التي دلت على إخلاصها له عند تأمر زوجها ، القيصر جون روجر النورماني المولد ، على العرش وقت استخلاف أخيها . وفي عام ١١٤٥م غزا مسعود الامبراطورية مرة أخرى واستولى على حصن براكانا الصغير في إيسوريا ، وبذا هدد خطوط المواصلات البيزنطية مع سوريا ، وسرعان ما أغار بعد ذلك على وادي نهر المياندرو وحتى البحر تقريباً.

#### ١١٤٦م : حملة مانويل ضد قونية

قرر مانويل أن الوقت قد حان ليضرب مسعود بشدة ويحذف على قوية . وكان قد تزوج حديثاً ، وقيل إنه أراد أن يُطلع زوجته الألمانية على روائع الفروسية البيزنطية . وفي صيف عام ١١٤٦م أرسل إلى السلطان إعلاناً رسمياً بالحرب ، وانطلق في مركب فخيم بطول الطريق ماراً بدوريليوم جنوباً إلى فيلوميلوم حيث حاولت فصائل تركية التصدي له لكنها اندحرت . وتراجع مسعود باتجاه عاصمته التي عزز حاميتها، لكنه رغم ذلك بقى في الأراضي المفتوحة وأرسل يطلب التعزيزات من الشرق على عجل . وعسكر الجيش البيزنطي لعدة شهور أمام قونية التي كان السلطان يدافع عنها . وكان موقف مانويل إزاء أعدائه يتصف بالكياسة ؛ ذلك أنه عند انتشارت الشائعات بمقتل السلطان ، أرسل إلى السلطانة يخبرها بأن القصة غير حقيقية ؛ وحاول - دون طائل - أن يفرض على جنوده احترام مقابر المسلمين خارج المدينة . وفجأة أصدر أمره

بالانسحاب . وقيل فيما بعد انه قد سمع شائعات بتحريك الحملة الصليبية ؛ لكنه مع ذلك لم يكبد يعلم بالقرار المتخذ في فيزيلاي ذلك الربيع . وكان بالقطع مرتابا في النوايا الصقلية ، وربما تيقن فعلا من أن هناك شيئا يأخذ بحمراه . كما انه علم أن مسعود تلقى تعزيزات كبيرة لجيشه ، فكان يخشى من الإمساك به ووراءه محطوط مواصلات طويلة محفوفة بالأخطار . فتقهقر ببطء في غاية النظام عائدا إلى أراضيه<sup>(١)</sup>.

وقيل إمكان الترتيب لحملة أخرى ضد قونية ، وجدد مانويل نفسه بواجبه الواقع الفعلي للحملة الصليبية ، فانتابه القلق وله العنزة؛ إذ لم تكن تحارب البيزنطيين مع الصليبيين باعثة على الطمأنينة ، ولذا وافق مانويل على ما اقترحه عليه مسعود في ربيع ١١٤٧م من عقد هدنة وإعادة براكانا وما استولى عليه في غزواته الأخيرة . وبسبب هذه المعاهدة نعت العالم المسيحي بالخيانة . غير أن عداوة كونراد التي اتضحت قبل أن يتلقى الألمان نيا المعاهدة تظهر أن توجهات الامبراطور نابعة من منيع الحكمة وليس هناك ما يجعله ملتزما إزاء رفيق مسيحي يفكر علنا في مهاجمة القسطنطينية . كما لا يستطيع مانويل أن يخطئ بحملة لا شك في انها سوف تشجع أمير أنطاكية على تناسي احترامه وتبعيته . وإذا ما دخل في حرب جادة مع الأتراك فرما كانت عوننا للصليبيين في مرورهم عبر الأناضول ، غير انها كانت ستجعلهم يلحقون أضرارا لا حد لها بالامبراطورية التي تعتبر حصنا للعالم المسيحي . فقطل عدم التورط الذي ربما يضعفه في ذلك الوقت الحساس لا سيما وأن هناك حربا وشيكة مع صقلية<sup>(٢)</sup>.

#### ١١٤٧م : الألمان يعبرون إلى آسيا

كانت العلاقات طيبة بين مانويل وكونراد حتى ذلك الحين ؛ إذ جمع بينهما الخوف المشترك من روجر الصقلي ؛ فضلا عن أن مانويل تزوج حديثا من أخت زوجة كونراد<sup>(٣)</sup>. على أن سلوك الجيش الألماني في البلقان ، ورفض كونراد اتخاذ الطريق الذي يعبر مضيق الدردنيل جعله يشعر بالخطر . وعندما وصل كونراد أمام

(١) أنظر Chalandon, les Comnènes, pp. 248-58. ويقول ميخائيل السوري Michael the Syrian (III, p. 275) إن مانويل عقد سلاما مع الأتراك خشية الصليبيين ، وأنه تمكن من صدعهم لستين.

(٢) Chalandon, op. cit., pp. 266-7. اندلعت الحرب مع صقلية في الواقع في صيف ١١٤٧م (Odo of Deuil (p. 53) ويشير إليها (po. cit. p. 318 n. 1).

(٣) وقد تم الزواج في يناير ١١٤٦م. (Chalandon, op. cit. p. 262 n. 3).

القسطنطينية خصص لإقامته قصر فيلوباتيوم بالقرب من الأسوار ، وعسكر جيشه حوله . على أنه في غضون أيام قليلة راح الألمان ينهبون القصر بحيث لم يعد صالحا للإقامة وانتقل كونراد عبر رأس القرن الذهبي إلى قصر بيكرديوم، في مواجهة ناحية فانار . وفي تلك الآونة ارتكب جنوده أعمال العنف ضد السكان المحليين ، وأرسلت فصائل من الجنود البيزنطيين لقمعهم ، وتلى ذلك سلسلة من المناوشات . وعندما طلب مانويل الانتصاف قال كونراد بادية الأمر إن الاعتداءات لم تكن هامة ؛ ثم هدد بالعودة في العام التالي والاستيلاء على العاصمة . ويبدو أن الامبراطورة - أخت زوجة كونراد - تمكنت من تهدئة العاهلين . وكان مانويل يبحث الألمان على سرعة عبور البوسفور لما كان يخشاه مما سوف يترتب على اتصال الألمان بالفرنسيين، وحقبة أذعن الألمان ، إذ اتهم بدأوا بالفعل في مشاجرات مع أول القادمين الفرنسيين . وأمكن تحقيق وفاق ظاهري ، وعبر كونراد وجيشه إلى خلقيدونية ومعهم الكثير من الهدايا النفيسة وقد تلقى كونراد نفسه بعض الخيول الجميلة . غير أنه رفض اقتراحا بترك بعض رجاله للخدمة مع الامبراطور لقاء حصوله على بعض الجنود البيزنطيين في كيليكية ، وكان ذلك الترتيب ملائما لمانويل في حربه مع روجر الصقلي<sup>(٤)</sup>.

وعندما وصل كونراد إلى خلقيدونية طلب من مانويل تزويده بمارشدين يأخذونه عبر الأناضول ، وعهد مانويل بتلك المهمة إلى رئيس الحرس الفارنجي، ستيفن . وفي الوقت ذاته نصح الألمان بتجنب الطريق المستقيم العابر لشبه الجزيرة ، واختار طريق الساحل الملتف إلى أضايا، وبذا يسلكون طريقهم في الأراضي الواقعة تحت السيطرة الامبراطورية . كما اقترح مراعاة الحكمة وإعادة جميع الحجاج غير المقاتلين إلى بلادهم إذ ليس في وجودهم سوى إحراج للحيش . ولم يعيا كونراد بهذه النصيحة وإنما انطلق إلى نيقية . وبوصوله هناك أعاد التفكير وقرر تقسيم الحملة . فقرر ان يصطحب أوتو (أوف فريسينجن) فرقة تضم أغلب الحجاج غير المقاتلين ، في طريق يخترق لادوفيا على نهر ليكوس إلى أضايا ، بينما يسلك هو نفسه ومعها القوة المقاتلة الرئيسية طريق الحملة الصليبية الأولى مخترقا داخل البلاد<sup>(٥)</sup>.

(٤) Cinnamus, pp.74-80; Nicetas Choniates, p.87; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Annales Epistolae in Jaffé, Bibliotheca, t.p.166. يقول إن الامبراطور استقبله استقبالا حسنا. Odo of Deuil, pp.39-40 ويقول Herbipolenses, pp.4-5; Romaald of Salerno, p.424; طبقا للحسابات الأخرى عبر البوسفور ٩٠٠٥٦٦ من الجنود والحجاج الألمان . والأرجح ان الرقم الصحيح هو ٩٠٦٦ شخصا. كما يقول إن كونراد لم يقابل مانويل مقابلة شخصية.

(٥) Cinnamus, pp. 80-1 .

غادر جيش كونراد نيقية يوم ١٥ أكتوبر مع ستيفن الفارنجي كبير المرشدين . وطوال الأيام الثمانية الأولى ، أثناء تواجدهم في أراضي الامبراطور ، كانوا يحصلون على جيد الطعام ، رغم أنهم فيما بعد اشتكوا من ان عملاء الامبراطور خلطوا ما كانوا يزودونهم به من دقيق بالطباشير ، كما اتهم كانوا يعطونهم عملات منخفضة القيمة . على انهم لم يزودوهم بالطعام أثناء سيرهم في الأراضي التركية التي اقتفروا فيها إلى الماء بصورة خاصة . وبوصولهم في ٢٥ أكتوبر إلى نهر باثي الصغير بالقرب من دوريليوم ، في حوار المرقع الذي شهد الانتصار الصليبي العظيم قبل ذلك بنصف قرن ، انقض عليهم الجيش السلجوقي كله . وكان مشاة الألمان في حالة من التعب والعطش ، والكثير من الفرسان متحولون لإتاحة الراحة لحيلوهم المرهقة ؛ فوغثوا بفرسان الأتراك الخفاف يهجمون عليهم في هجمات متكررة سريعة مفاجئة . وكانت في حقيقتها مذبة لا معركة . وحاول كونراد أن يلم شعث رجاله ، ولكن دون جدوى . وبحلول المساء كان يساق الرياح هربا مع قليلين ممن بقوا على قيد الحياة عائدا إلى نيقية . لقد فقد تسعة أعشار جنوده وكل ما كان يشتمل عليه معسكره . وباع المتصورون الغنائم في الاسواق المنتشرة في سائر انحاء الشرق الاسلامي حتى فارس<sup>(٦)</sup> .

#### ١١٤٧ م : الفرنسيون يعبرون إلى آسيا

وفي تلك الأثناء كان الملك لويس والجيش الفرنسي في الطريق إلى القسطنطينية التي وصلها يوم ٤ أكتوبر ، ليحدا حرس المقدمة وجيش اللورين في حالة احتجاز سببها وحشية الألمان من ناحية ، وأبناء هدنة مانتويل مع الأتراك من ناحية أخرى . وحالت السلطات البيزنطية دون اتصال فصائل اللورين مع الفرنسيين برغم توصلات ميخو لويس ، إيفرارد (أوف بارو) السيد الأعظم لفرسان المعبد<sup>(٧)</sup> . فاقترح أسقف لانغرز - راهب كليرفو بتعصبه غير المسيحي - على الملك وجوب تغيير سياسته وعقد تحالف مع روجر الصقلي ضد الغدر اليوناني (البيزنطي) . على ان الوساسوس المتسلطة على لويس منعت من الأخذ بهذا الاقتراح مما أثار الشعور بخيبة الأمل لدى باروناته .

(٦) Cinnamus, pp. 81-2; Nicetas Chonistes, p. 89; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.152; Annales Palidenses p.82; Annales Herbipolenses, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.53, 56-8; William of Tyre, xvi, 21-2, pp.740-4; Michael the Syrian, iii, p.276.

(٧) Odo of Deuil, pp. 40-1 .

لقد شعر بالرضا من استقباله في البلاط الامبراطوري وفضل الأخذ بالصيحة الرقيقة التي نصيح بها أسقف ليزيو ذو النوازع الانسانية ، وأقام في قصر فيلوباتيوم الذي جرى تنظيفه بعد الاحتلال الألماني ، ودعى إلى مأدب في القصر الامبراطوري في بلاشيرناي حيث لقي ضروب الحفاوة ، واصطحبه الامبراطور في جولة شاهد فيها معالم المدينة العظيمة . واثنى كثيرون من نبلائه بنفس القدر لما لاقوه من الاهتمام بهم<sup>(٨)</sup>. على ان مانويل تدبر سرعة عبور الجيش مضيق اليوسفور ، وعندما استقر الجيش في خلندونية ، قطع الامدادات عن الفرنسيين متذرعا بأعمال شغب أثارها حاج فلمنكي ظن أنه عدو. ورغم ان لويس شق من ارتكب الجريمة في الحال، امتنع مانويل عن إعادة تموين الجيش إلى ان أقسم لويس أخيرا بأن يعيد إلى الامبراطورية ما يمكنه أن يعين على استعادته من ممتلكاتها المفقودة ، ووافق على أن يعترف البارونات بولائهم مقدما للامبراطور في كل أرض جديدة يحتلونها ، فاعترض النبلاء الفرنسيون ؛ غير أن لويس اعتبر الطلب مقبولا نظرا لحاجته الشديدة للمساعدة البيزنطية ، لاسيما بوصول شائعات حول الكارثة الألمانية<sup>(٩)</sup>.

وفي أول نوفمبر وصل الجيش الفرنسي نيقية حيث أيقن من هزيمة كونراد ، إذ وصل فريديك (أوف سوابيا) على جواده إلى المعسكر الفرنسي وأخبرهم بالقصة وطلب من لويس ان يذهب من فوره لمقابلة كونراد . وسارع لويس إلى مقر الرئاسة الألماني ودارت المشاورات بين الملكين . وقررا كلاهما أن يتحذا طريق الساحل المتجه جنوبا ليكونا في داخل الأراضي البيزنطية . وكان الجيشان على وفاق في تلك اللحظة. ولم يجد الألمان طعاما في المنطقة التي يعسكرون فيها بعد أن استولى الفرنسيون على كل ما كان متاحا ، فأغار الألمان على القرى المجاورة، فما كان من الشرطة البيزنطية إلا أن هاجمتهم في الحال ، ولم يتقدم سوى فصيلة فرنسية يرأسها كوت سواسون الذي سارع لإنقاذهم بناء على طلب كونراد . وفي تلك الأثناء كان كونراد قادرا على المحافظة على نوع من الانضباط بين جنوده . وقد تركه أغلب الحجاج الباقين على قيد الحياة عائدين يتلمسون طريقهم إلى القسطنطينية ، ولا تعلم عنهم شيئا بعد ذلك<sup>(١٠)</sup>.

(٨) Cinnamus, pp. 82-3; Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, p.488; Odo of Deuil, pp. 45-6, 47-8

Odo of Deuil, pp. 48-51. (٩)

Odo of Deuil, pp. 58-60; William of Tyre, xvi, 23, pp. 744-5. (١٠)

وانطلق الجيشان معا . وفي ١١ نوفمبر ضربا معسكريهما في إيسرون بالقرب من باليق سراى الحديثة ، وهناك غيرا الخطة مرة أخرى . وبرجح أنهما تلقيا تقارير حول الرحلة التي قام بها أوتو (أوف فريسينجين) بطول الطريق المباشر الناهب إلى فيلادلفيا ولاوديفيا . ولا نعلم عن تلك الرحلة سوى القليل ، عدا وصول تلك الحملة فسي نهاية الأمر إلى أضايا وهي مرهقة وقد انخفض عدد أفرادها ، تاركة على جانبي الطريق الكثير من الموتى الذين سقطوا صرعى تضرورهم جوعا أو ضحايا المغيرين الأتراك . وقرر الملكان السير على مسافة أقرب إلى الساحل خلال الأراضي الأكثر خصوبة ، ومداومة الاتصال بالأسطول البيزنطي . وواصلتا سيرهما خلال أدراميتيوم وبرجاموم وأزمير وهديا إلى إفسوس . وكان جيش لويس في الطليعة بينما كان الألمان يشقون طريقهم في الخلف بحسرة يوم تقريبا وقد باتوا موضع سخريه مهينة من حلفائهم الملتصكين . ويسجل المؤرخ البيزنطي سيناموس Cinnamus الصيحة الفرنسية "نمركوا يا ألمان" التي قذفهم بها الفرنسيون بازدراء<sup>(١١)</sup>.

#### ١١٤٧ - ١١٤٨ م : الفرنسيون في آسيا الصغرى

وعندما وصلوا إلى إفسوس كانت صحة كونراد قد تدهورت بحيث تخلف هناك . وما أن سمع مانويل بذلك حتى أرسل له الهدايا الثمينة وحشده على العودة إلى القسطنطينية حيث استقبله استقبالاً طيباً وأنزله في القصر . وكان مانويل شديد الاهتمام بالطب وأصر على أن يكون طبيباً لضيافته واستعاد كونراد صحته وقد مس أعماق مشاعره ما لمس من اهتمام الامبراطور والاميرة الطيرة . وأثناء هذه الزيارة تمت ترتيبات زواج أخيه هنري ، دوق النمسا ، من ثيودورا ، ابنة أحمى الامبراطور، أندرونيكوس . وبقي الملك الألماني وأهل بيته في القسطنطينية حتى أول مارس ١١٤٨ م عندما نقلهم أسطول بيزنطي صغير إلى فلسطين<sup>(١٢)</sup>.

وأثناء الأيام الأربعة التي أمضاها الملك لويس في إفسس ، تلقى رسالة من مانويل

(١١) Odo of Deuil, pp.61-3. وناقش سيناموس Cinnamus الفرق بين الجيشين . إذ كان الفرنسيون أفضل حالاً على حيولهم ومعهم الرماح ، بينما كان الألمان راجلين ومعهم السيوف . وقد نورد عبارة "نمركوا يا ألمان" بالخطوط الإغريقية.

(١٢) Cinnamus, pp.85-6; letters of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.153; Annales Hdrbipolenses, p.6; Odo of Deuil, pp.63-4; William of Tyre, xvi, 23, pp. 745-6.

يُعتبر فيها أن الأتراك يعدون العدة للحرب ونصحهم بتجنبهم وأن يبقى في نطاق المسارى الذى توفره الغابات البيزنطية . ومن الواضح ان مانويل كان يخشى أن يعاني الفرنسيون من الدرك فتلقى عليه الملامة ؛ وفي ذات الوقت لم يكن رافيا في أن يحدث ما يعكر السلام المعقود بينه وبين السلطان ، ولا سيما وأن الحرب الصقلية على الأبواب . ولم يرد لويس . كما لم يرد عندما كتب له مانويل محذرا من ان السلطات البيزنطية لن تمنح مواطنيها من الانتقام لأية اضرار بسببها الصليبيون . ذلك ان انضباط الجيش الفرنسى كان آخذا في الانهيار ، وكانت العاصمة تتلقى شكاوى المواطنين من تمرد الصليبيين على القانون<sup>(١٣)</sup>.

وشق الجيش الفرنسى طريقه الملتوى أعلى وادى نهر مياندر . وفى ديسمبر يوم ، حيث أمضوا عيد الميلاد ، ظهر الأتراك وبدأوا في مضايقة الصليبيين حتى وصلوا إلى الجسر الذى يعبر النهر في أنطاكية البيسيدية<sup>(١٤)</sup>، حيث دارت معركة مدروسة، غير ان الفرنسيين شقوا طريقهم فوق الجسر وانسحب الأتراك داخل أسوار أنطاكية البيسيدية . ولا نعرف شيئا عن الظروف التى مكنت الأتراك من اللجوء إلى تلك القلعة البيزنطية ، وهى الحادثة التى اعتبرها الفرنسيون بمثابة خيانة للعالم المسيحى ، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ؛ على أنه سواء كانت الحامية المحلية للقلعة قد مالَت إلى القوة الأقوى ، أو كان هناك نوع من التريب الخاص مع الكفرة ، فمن غير المحتمل أن يكون الامبراطور نفسه قد أحاز الخطة<sup>(١٥)</sup>.

وكانت المعركة التى دارت أمام الجسر في أنطاكية البيسيدية قد حدثت في أول يناير ١١٤٨م تقريبا . وبعد ذلك بثلاثة ايام وصل الصليبيون إلى لارديقيا ليجدوها مهجورة ؛ إذ أن سمعتهم دفعت بالسكان إلى النزوح إلى التلال ومعهم كل المون . وتعذر على الجيش ان يجمع أية أطعمة للمرحلة الشاقة التى تنتظره، إذ أن الطريق إلى أضايا كان ملتقا حول مجموعة من الجبال العالية المقفرة ؛ فكانت الرحلة شاقة فى أحسن الظروف . أما بالنسبة لجيش حائع يكافح عواصف شهر يناير ، والأتراك متعلقون بأطرافه يتصيدون الشاردين والمرضى بلا هوادة ، فكانت الرحلة بمثابة كابوس.

(١٣) . Cinnamus, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.63-5.

(١٤) (المزحم) بيسيدا : Pisidia كوتية قديمة كانت تقع في لواسط جنوب آسيا الصغرى ، جنوب فرجييا.

(١٥) Odo of Deuil, pp. 65-6; William of Tyre, xvi, 24, pp. 746-7.

فعلى طول الطريق كان الجنود يرون جثث الحجاج الألمان الذين هلكوا في سيرهم قبل ذلك بأشهر قليلة . ولم تعد هناك محاولات لفرض الانضباط ، فيما عدا مجموعة فرسان المعبد . وكانت الملكة والسيدات المصاحبات لها يرتعدن في عفافتهن وقد أقسمن ألا يواجهن مرة أخرى قط مثل تلك المحنة . وفي عصر أحد الأيام ، وبينما بدأ الجيش بهبط باتجاه البحر ، عصى جودفري (أوف رانكون) قائد حرس المقدمة ، أوامر الملك بأن يضرب المعسكر فوق قمة المسر ، وهبط إلى اسف التل ففقد الإتصال بالجيش الرئيسي ، فكانت فرصة سانحة لمجوم الأتراك . وثبت الصليبيون في موقعهم ؛ غير أن هبوط الظلام هو وحده الذي أنقذ حياة الملك ، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة<sup>(١٦)</sup>.

#### ١١٤٨ م : الفرنسيون في أضايا

ومن هنا قدما كان الطريق أيسر ، إذ لم يغامر الأتراك بالمحيط إلى السهل . وفي بداية فبراير وصل الصليبيون إلى أضايا حيث كان حاكمها البيزنطي إيطاليا يدعى لاندولف . وبناء على أوامر الامبراطور بذل ما أمكنه في التخفيف عن الغربيين . غير أن أضايا ليست بالمدينة الكبيرة التي تتوفر فيها موارد الطعام الضخمة ، وإنما كانت في موقع سيئ في الريف وقد انتهبها الأتراك مؤخرًا . وأتذاك تقلصت مخزونات الشتاء ، بعد أن أخذ الحجاج الألمان الجزء المخصص للتخزين ، فلا عجب من قلة المتاح من اللون وارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا . على أنه في نظر الفرنسيين الغاضبين المحيطين ، كان كل ذلك بمثابة دليل آخر على الخيانة البيزنطية . والآن قرر الملك لويس أن تتواصل الرحلة بحرا ، وتفاوض مع لاندولف للحصول على السفن . ولم يكن من اليسر في ذلك الوقت من العام بجميع اسطول في ميناء على الساحل الكاراماني الموحش . وأثناء الانشغال في جمع السفن الناقلة ، هبط الأتراك وشنوا هجوما مفاجئا على معسكر الصليبيين . ومرة أخرى ألقي الفرنسيون باللائمة على البيزنطيين ، الذين ربما لم يبدلوا أى جهد للدفاع عن هؤلاء الضيوف الثقيل الذين لولا وجودهم لما كانت هناك غارات تركية . وعندما وصلت السفن كانت من قلة العدد بحيث يتعذر نقل الجيش كله ، ولذا

(١٦) Ibid. pp. 67-7, 71-2; William of Tyre, xvi, 25, pp. 747-9. القائل بأن الملكة إيلنورا مسؤولة عن الكارثة ، أنظر Walker, 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain' in American Historical Review, vol. LV, pp. 857-61. وكان Odo of Deuil من الكسبر من الأعمال الطيبة في تزيين الجيش بالطعام . وهو متراضع للغاية بحيث لم يذكر ذلك (William the Monk, Dialogus Apologeticus).



ملأها لويس بأهل بيته هو وبأكبر عدد ممكن أخذ من الفرسان ، وأبحر إلى ميناء السويدية الذي وصله يوم ١٩ مارس. ومداواة من الملك لضميره لتخليه عن جيشه ، ترك مع لاندولف خمسمائة مارك كس يقوم على رعاية المرضى والجرحى ، ويرسل الباقي بحرا - إذا أمكن - وترك كونت فلاندرز وكونت بوربون ليتوليا مسؤولية الإشراف . وفي اليوم التالي لرحيل الملك اندفع الأتراك هابطين إلى السهل وهاجموا المعسكر . واستحال دحرهم دحرا فعلا نظرا لعدم كفاية الفرسان ، ولذا حصل الصليبيون على إذن باللجوء إلى داخل الأسوار ، حيث عولجوا علاجا جيدا وحصل المرضى منهم على الرعاية الطبية ؛ وضاعف لاندولف من نشاطه لجمع المزيد من السفن. ومرة أخرى لم يجد ما يكفي من السفن للحملة كلها، ولذا هذا تيسر كونت فلاندرز، وأرشيمالد كونت بوربون، حذو مليكهما وركبا السفن مع أصدقائهما وباقي الفرسان، تاركين المشاة والحجاج لمواصلة طريقهم برا بقدر استطاعتهم<sup>(١٧)</sup>. وأعد لاندورف معسكرا خارج المدينة لمن تبقى من الجيش، لكن الجنود التعساء الذين هجرهم قادتهم رفضوا الإقامة على الساحل خوفا من تعرضهم لهجمات رماة الأتراك، وبدلا من ذلك انطلقوا مرة أخرى يشقون طريق العذاب إلى كيليكيا، ووراءهم من تبقى من مشاة كونراد الألمان يهيمون أقدامهم، والجميع على حافهم من الجهل وعدم الانضباط والريبة في مرشدتهم، والمضايقات تتواصل من جانب الأتراك المقتنعين كذلك بأن البيزنطيين متحالفين معهم. وفي أواخر الربيع وصل أقل من نصفهم إلى انطاكية<sup>(١٨)</sup>.

#### ١١٤٧ - ١١٤٨ م : السياسة البيزنطية أثناء الحملة الصليبية

في إحدى الرسائل الكثيرة المرسلة من الملك لويس إلى الراهب سوجر - وموضوعها جميعا لا يتغير وهو طلب المزيد من المال - نسب الملك ما نزل بالصليبيين من كوارث في الأناضول إلى "خيانة الامبراطور وأخطائنا أيضا". ودأب المؤرخ الفرنسي الرسمي للحملة الصليبية - أودو اوف دويل Odo of Deuil - على مهاجمة الامبراطور مانويل بصورة دائمة وبجملة زائدة وردد صداه المؤرخون الغربيون حتى يومنا

(١٧) Odo of Deuil, pp. 73-6. *بحار عجالات مريكة التنويه على تغلب الملك عن الجيش* William of Tyre, xvi, 26, pp. 749-51

(١٨) Odo of Deuil, pp. 76-80.

هذا ، باستثناءات قليلة<sup>(١٩)</sup> ، وتسببت النكبات التي منى بها الصليبيون في تنغيص العلاقات بصورة شديدة بين العالم المسيحي الغربي والشرقي بحيث ينبغي فحص الاتهامات فحوصا دقيقا . فيشكو أودو من أن البيزنطيين لم يقدموا ما يكفى من امدادات الغذاء التي تقاضوا عنها أسعارا فادحة ، ولم يقدموا ما يكفى من وسائل النقل ، ولا ما يكفى من المرشدين ، والأسوأ من هذا كله أنهم تحالفوا مع الأتراك ضد رفاقهم المسيحيين . والاتهامات الأولى سخيفة . فلا توجد دولة في القرون الوسطى - حتى وإن كانت منظمة تنظيما جيدا كبيزنطة - تمتلك ما يكفى من مخزونات الطعام بالقدر الذى يمكنها من امداد جيشين كبيرين بصورة غير عادية هبطا عليها دون دعوة وبخطار مسبق بفترة وجيزة ؛ وعندما يندبر الطعام ترتفع الأسعار حتما . وأما محاولات الكثير من التجار وبعض المسؤولين الحكوميين خداع الغزاة ، فهذا أمر يقينى . فمثل هذا السلوك لم يكن قط فاعلة نادرة في التجارة ، ولا سيما في العصور الوسطى وفي الشرق . وليس من المعقول أن يُترفع من لاندولف إمداد العدد الكافى من السفن لجيش يكامله في ميناء أضايا الصغير فى منتصف الشتاء ؛ كما لا يمكن إلقاء اللوم على المرشدين - ونادرا ما يؤخذ بنصائحهم - إذا كان غالبا عنهم آخر ما قام به الأتراك من تدمير الجسور والآبار ، أو فى حالة هربهم إزاء التهديدات والأعمال العدوانية من جانب الرجال الذين يرشدونهم . ومسألة التحالف التركي أكثر حسامة ، على أنه ينبغي النظر إليها من وجهة نظر الامبراطور مانويل ، الذى لم يوجه الدعوة إلى الحملة الصليبية ولا كان راغبا فيها . وكان له أسبابه المعقولة لاستنكارها . ذلك أن الدبلوماسية البيزنطية آنذاك قد تعلمت جيدا كيف توقع الفتنة بين شتى الأمراء المسلمين ضد بعضهم البعض ومن ثم تعمل كلا منهم بدوره ؛ إذ من شأن حملة أعد لها إعلام جيد كالحملة الصليبية أن توحّد حتما جبهة الأعداء ضد العالم المسيحي . وفضلا عن ذلك ، ومن أجل الاستراتيجية البيزنطية ضد الاسلام ، كان من الضروري السيطرة على أنطاكية ؛ وقد فازت بيزنطة أخيرا بهذه السيطرة عندما أعلن الأمير ريموند عن خضوعه المذل فى القسطنطينية . ولابد حتما أن يفرض وصول حملة صليبية على رأسها ابنة اخته (اليانور) وزوجها (لويس السابع) بالتخلي عن تبعيته ؛ ولم يكن تصرف الصليبيين ، عندما كانوا ضيوفا فى أراضي الامبراطور ، هو السلوك الذى من شأنه أن يزيد من حب الامبراطور لهم ؛ فقد دأبوا على النهب ، وهاجموا شرطته ، وتماهلوا

(١٩) Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, pp.495-6 وموقف Odo of Deuil الشامل مناعض للبرناتين بصورة مستترة.

طلباته بأن يسلكوا طرقاً معينة ، وجاهر الكثير من وجهائهم بضرورة الهجوم على القسطنطينية . وفي ضوء هذه الحقائق، تبدو معاملته لهم كريمة متحملة بالصبر ، وهذا ما تحقق منه بعض الصليبيين . غير أن الغربيين لم يفهموا ولم يغفروا معاهدته مع الأتراك، إذ كانت الاحتياجات العريضة للسياسة البيزنطية بعيدة عن إدراكهم ، ولقد اختاروا أن يتحاملوا - وغشم إدراكهم يقينا - الحقيقة التي مفادها أنه بينما كانوا يطلبون العون من الامبراطور ضد الكفرة كانت أراضيه هو نفسه خاضعة لهجوم حقوق من قوة مسيحية أخرى ؛ ذلك أنه في خريف عام ١١٤٧م احتل الملك روجر الصقلي جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشاً للإغارة على شبه الجزيرة اليونانية . وخربت طيبة (ثيبس) ، واحتطف الألو من عمالها للمساعدة في صناعة الحرير الوليدة في باليرمو، وحتى كورينث نفسها - وهي القلعة الرئيسية في شبه الجزيرة - استولوا عليها وجردوها من كنوزها . وعاد النورمانديون الصقليون محملين بالأسلاب إلى كورفو التي عطلوا الاحتفاظ بها لتكون بمثابة تهديد دائم للامبراطورية وقبضة خانقة على البحر الأدرياتيكي . وانما كانت شدة الهجوم النورماندي هي التي دفعت مانويل إلى اتخاذ قراره بالانسحاب من قونية عام ١١٤٦م وقبول ما قدمه السلطان من عروض للسلام في العام التالي . وإذا كان مانويل يوصم بأنه خائن للعالم المسيحي ، فيقينا تكون للملك روجر الصقلي الأسبقية عليه.

#### ١١٤٧ - ١١٤٨م : دور الامبراطور

كان الجيش البيزنطي كبيراً ، لكن وجوده لم يكن مطلقاً في كل مكان وفي كل وقت . وكانت الحاجة تستلزم استخدام أفضل الجنود ضد روجر . ثم كانت هناك شائعات بوجود غلاقل في السهول الروسية ، حدث أن أسفرت في صيف عام ١١٤٨م عن غزو بولوفتسياني للبلقان . ومع وجود الصليبيين على مقربة ، لم يستطع مانويل تعرية حدوده في كيليكية من الرجال ؛ إلى جانب أن مرور الصليبيين خلال الامبراطورية كان يعني ضرورة زيادة الشرطة العسكرية زيادة كبيرة . وبكل تلك المشاغل ، لم يتمكن الامبراطور من توفير قوات حدودية كاملة لتغطية حدوده الطويلة في الاناضول ، ففضّل هدنة تساعد رعاياه في الاناضول على أن يعيشوا حياتهم متحررين من تهديد الغارات التركية . وقد تسبب الصليبيون في تعريض هذه الهدنة للخطر ؛ إذ كان تقدم كونراد إلى دوريليوم بمثابة استفزاز مباشر للأتراك . أما لويس ،

فدغم بقائه داخل الأراضي البيزنطية ، إلا أنه جاهر بإعلانه أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء داخل المدى الذي تحرسه الحاميات البيزنطية . ومن المحتمل تماماً أن يكون مانويل - وهو يواجه هذه المشكلة - قد أعد ترتيباً مع الأتراك تفاضلياً بمقتضاه عن الإغارة على أراضيه طالما أنهم يهاجمون الصليبيين فقط ، وأن الأتراك التزموا بالصفقة ، مما يولد انطباعاً واضحاً بأنهم كانوا في حلف مع السكان المحليين الذين كان يستوى عندهم الصليبيون والأتراك في سرقة قطعانهم وعزومات طعامهم ، والذين كانوا في تلك الظروف يفضلون الأتراك بطبيعة الحال<sup>(٢٠)</sup> على أنه من المستحيل أن تصدق ما أكده أودو (أوف دويل) من أن السكان المحليين انضموا إلى جانب الأتراك في الهجوم على الصليبيين. فهو يرجع هذا الاتهام إلى سكان أرمينيا بعد أن قال مباشرة إن الامبراطور عاقبهم فيما بعد لتعاطفهم مع الصليبيين<sup>(٢١)</sup>.

إن المسؤولية الرئيسية عن الكوارث التي حلت بالصليبيين في الأناضول ينبغي أن تقع على حماقتهم هم أنفسهم . وكان الامبراطور حرياً في الواقع أن يفعل من أجلهم أكثر مما فعل ، وإنما لا يكون ذلك إلا على حساب المخاطرة الحساسة بامبراطوريته . بيد أن المسألة الحقيقية أعمق من ذلك . فهل كان الأفضل للعالم المسيحي أن تكون هناك حملات عرضية فخمة تأتي إلى الشرق ، بقودها خليط من المثاليين الحمقى والمغامرين الغلاظ ، لإنقاذ دولة متفحمة يتوقف وجودها على تشتت المسلمين ؟ أم أن تستمر بيزنطة التي غلّت طويلاً حارسة للحدود الشرقية في القيام بدورها دون أن يسبب لها الغرب المخرج ؟ لقد أظهرت قصة الحملة الصليبية الثانية بصورة حتى أوضح مما أظهرت الحملة الصليبية الأولى أن السياستين ليستا متفقتين . وعندما سقطت القسطنطينية نفسها وراح الأتراك يهدرون هدير الرعد على أبواب فينسا ، كان يمكن أن تفهم أي السياستين هي السياسة الصحيحة.

(٢٠) للاطلاع على مشاغل مانويل في ذلك الوقت أنظر Chalandon ويكرر ميخائيل السوري الكبير من اتهامات الفرنج للبيزنطيين (III, p. 276) على أن المصادر الإسلامية ، مثل أبو شامة في صفحة ٥٤ ، تقول إن مانويل كانت له قضية مشتركة مع الفرنج.

(٢١) Odo of Deuil, p. 79.



---

## الفصل الثالث:

### الإخفاق التام



## الإخفاق التام

"تَشاوَرُوا مَشُورَةَ قَبِيلٍ"

(اشعيا ٨ : ١٠)

في ١٩ مارس ١١٤٨ م وصلت أنطاكية أنباء نزول الملك لويس إلى البر في ميناء السويدية ، فهبط إليها الأمير ريموند وأهل بيته كلهم للترحيب به ومرافقته إلى المدينة. ومضت الأيام الأولى في حقول وسرور . وبذل الوجهاء من نبلاء أنطاكية ما في وسعهم لإدخال البهجة على ملكة فرنسا وعقيلات السيدات في حاشيتها ؛ ونسى الزائرون المشاق التي مروا بها في هذا الربيع السوري البهيج وسط مقاعر البلاط الأنطاكي . وما أن انتعشوا حتى بدأ ريموند يناقش القادة الفرنسيين خطط حملة ضد الكفرة ؛ إذ كانت الآمال العراض تداعب خيال ريموند بمحى الحملة الصليبية . ولقد كان في وضع محفوف بالمخاطر ؛ إذ كان نور الدين يوطد سلطانه الآن على طول الحدود المسيحية من الرها إلى حماة ، وقد أمضى خريف عام ١١٤٧ م ينتزع القلاع الفرنجية الواحدة تلو الأخرى شرق نهر العاصي ، وكان الكونت جوسلين منشغلا



للغاية في الحفاظ على كوثنته في تل بشير . وفي حالة هجوم إسلامي على أنطاكية بأعداد كبيرة فإن القوة الوحيدة القادرة على مساعدة رموند هي بيزنطة ، والأرجح أن لا يصل جنود بيزنطة إلا بعد فوات الأوان ، وعلى أية حال سوف تصير بيزنطة على تشديد تبعية أنطاكية . وقدم الجيش الفرنسي - رغم أن حوادث الرحلة قللت من قوة المشاة - هذا التعزيز الهائل من الفرسان بحيث يتمكن فرنج أنطاكية من أخذ زمام المحوم . ودأب رموند على تخريب الملك على ضرورة أن يضربا معا قلب قوة نور الدين - مدينة حلب - وحث الكثير من الفرسان الفرنسيين على الانضمام إليه في استطلاع مبدئي حتى أسوارها ، مما تسبب في انتشار الذعر بين سكانها<sup>(١)</sup>.

#### ١١٤٨ م : لويس وإينور في أنطاكية

غير أنه عندما حانت لحظة العمل تردد الملك لويس ، قائلا إن قسمه الصليبي يجبره على أن يتجهب إلى القدس أولا قبل أن يبدأ في أية حملة . غير أن العذر كان مجرد قناع يخفي وراءه عجزه عن اتخاذ قرار . لقد كان أمراء الشرق الفرنجى كلهم يطلبون مساعدته ؛ فالكونت جوسلين يعلق عليه الآمال في استعادة الرها ، أليس سقوطها هو الذى حرك الحملة الصليبية كلها؟ وكان رموند أمير طرابلس يطلب بمحق رابطة أبناء الخوالة ، إذ كانت أمه أميرة فرنسية ، فسعى إلى مساعدته لاستعادة قلعة بعرين . ثم حدث أن جاء إلى أنطاكية في شهر إبريل بطريق القدس نفسه ، مرسلا من البلاط الأعلى للملكة ، يلتمس منه الإسراع جنوبا ، وليخبره بأن الملك كونراد موجود بالفعل في الأراضي المقدسة<sup>(٢)</sup>. وفي نهاية الأمر كان هناك دافع شخصي محض هو الذى جعل الملك يستقر على رأى. ذلك أن الملكة إينور كانت أذكي من زوجها للغاية ؛ وكانت قد أدركت في الحال الحكمة التى ينطوى عليها مخطط رموند ، على أن ترددها لعواطفها البادية ومساندتها لحالها (رموند) لم يكن لها من أثر سوى إثارة غيرة زوجها لويس . وبدأت الألسن فى القيل والقال ، وكانت الملكة والأمير يشاهدان معا أغلب الأوقات . ودارت المسامات بأن افتتاح رموند يتجاوز اهتمام حال بانيه اخته . وشعر لويس بالخطر على شرفه ، فأعلن عن رحيله فى الحال ، فما كان من الملكة إلا أن

(١) William of Tyre, xvi, 27, pp.751-3; Williams of Nangis, i, p. 44.

(٢) البطريق هو Fulcher of Angoulême ، رئيس أساقفة صور الأسبق ، عهته ملبسند عقب وفاة William of Messines عام ١١٤٧ م.

اعلنت عن بقائها في أنطاكية وعزمها على السعي للحصول على الطلاق من زوجها ؛ وردا على ذلك حصر لويس زوجته بالقوة من قصر خالها وانطلق إلى القدس مع جنوده جميعا<sup>(٣)</sup>.

وكان الملك كونراد قد هبط إلى الر في عكا مع أهم أمراءه في منتصف إبريل ولقي في القدس استقبالا وديا ومشرفا من الملكة ملسيند وابنها<sup>(٤)</sup>. وبعد ذلك بشهر استقبل الملك لويس بمظاهر تشريف مماثلة عند دخوله الأراضي المقدسة . ولم تشهد القدس قط مثل هذا الحشد الرائع من الفرسان والعقيلات<sup>(٥)</sup>. غير أنه قد غاب كثير من بصورة ملحوظة . ذلك أن ريموند أمير أنطاكية لم يملكه الحق مما آتاه لويس ، ففرض يديه من الحملة الصليبية برمتها . وعلى أية حال لم يكن يرسمه أن يترك إمارته وهي تعاني من الضغط الشديد من أجل بعض المغامرات في الجنوب . كما لم يستطع الكونت جوسلين أن يترك قل بشر . وأما غيبة كونت طرابلس فتعزى إلى حادثة عائلية قاحلة . إذ كان من بين الصليبيين الذين أقسموا القسم في فيزيلاي ، ألفونسو - جورردان ، كونت تولوز . وكان قد ركب البحر مع زوجته وأولاده من القسطنطينية وهبط في عكا بعد كونراد بأيام قليلة . وكان لوصوله مع كتيبة كبيرة أن أشعل حماس فرنج الشرق إذ كان بالنسبة لهم شخصية خيالية ، فهو ابن الصليبي القديم ريموند (لوف تولوز) وقد ولد في الشرق على جبل الحجاج أثناء أن كان والده يحاصر طرابلس . بيد أن محبته كان إحراجا للكونت الذي يحكم طرابلس ، وهو حفيد برتراند ، الإبن غير الشرعي للكونت ريموند . فإذا ما طالب ألفونسو - جورردان بطرابلس ، يصعب إنكار ذلك عليه ؛ ويبدو أنه أحب أن يذكر حقوقه . وفي طريقه شمالا من عكا إلى القدس ، توقف قليلا في قيصرية . وهناك ، مات فجأة من الألم . وربما كان سبب موته مرض حاد مثل التهاب الزائدة الدودية ، إلا أن الجميع فكروا في السم فورا ، وجاهر إبن الميت - برتراند - باتهام ابن عمه ريموند أمير طرابلس بتدبير قتله . واعتقد آخرون أن الملكة ملسيند هي التي ارتكبت الجرم عملا بوصية اختها المحبوبة - الكونتيسة هوديرينا - زوجة ريموند . ولم يثبت شيء من ذلك ؛ غير أن ريموند شعرا بالسخط من الاتهام

(٣) William of Tyre, loc.cit. ، الذي يطلق على إينور : المرأة "قبياء" لكنه لا يفرض أنها غير عقيمة. وقد أورد شكوك الملك (John of Salisbury *Historia Pontificalis*, p.53).

(٤) William of Tyre, xvi, 28, pp. 753-4; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.88-9.

(٥) William of Tyre, xvi, 29, pp. 754.

قامت عن أى تعامل مع الحملة الصليبية<sup>(٦)</sup>.

#### ١١٤٨ م : قرار الهجوم على دمشق

عندما وصل كل الصليبيين إلى فلسطين ، وجهت الملكة ملسيند والملك بلدوين الدعوة إليهم لحضور تجمع كبير تقرر عقده فى عكا يوم ٢٤ يونية ١١٤٨ م . وكان حشداً مؤثراً . فكان المضيفون الملك بلدوين ، والبطريق فولشر مع رئيس أساقفة قيسارية والناصر ، والسيد الأعظم لفرسان المعبد والمستشفى ، وأبرز أساقفة وبارونات المملكة . وجاء مع كونراد أخوه غير الشقيقين ، هنرى جاسوميرجوت أمير النمسا ، وأوتو (أوف فريسينجن) ؛ وابن أخيه فريدرىك (أوف سوابيا) ، وويلف (أوف بافاريا) والكثير من الأمراء الأقل . وكان مع الملك لويس أخوه روبرت (أوف دروو) وعطيب ابنه هنرى (أوف شامباني) ، ونيرى كونت فلاندرز ، وكذلك برتراند الصغير ، الابن غير الشرعى لألفونسو - جوردان . ولا نعرف المسار الذى سارت فيه المناقشة ولا الذى تقدم بالاقتراح الأخير . وقرر الجمع ، بعد قليل من المعارضة ، ترميز كل قوته فى الهجوم على دمشق<sup>(٧)</sup>.

ولقد كان القرار هو الحماسة عينها . فدمشق ستكون فى الواقع جائزة ثمينة ، واستيلاء الفرنج عليها سوف يقطع الصلة تماما بين مسلمى مصر وأفريقيا وبين اخوانهم فى الدين فى شمال سوريا والشرق . غير أنه من بين الدول الإسلامية جميعا كانت المملكة البورية الدمشقية هى وحدها التى كانت تتطلع إلى أن تبقى على علاقة صداقة مع الفرنج ؛ إذ أنها - كشأن ذوى البصرة من الفرنج - كانت تعتبر عدوها الرئيسى هو نور الدين . والمصلحة الفرغية تقضى بالحفاظ على صداقة دمشق إلى أن يتم سحق نور الدين ، وأن يظل الخلاف مفتوحا بين دمشق وحلب . ويعتبر الهجوم على الأولى أنجح وسيلة لأن يرمى حكامها فى أحضان نورالدين ، كما أظهرت أحداث العام الفات . لكن بارونات القدس كانوا يشتبهون الأراضى الخصبة التى تدين بالولاء لدمشق ، وكانوا يعانون مرارة الألم فى تذكرهم للخزى الذى أصابهم مؤخرًا ، ولا بد

(٦) William of Tyre, xvi, 28, p. 754d؛ ويذكر William of Nangis, i, p. 43 أن ملسيند - مستورطة فى القتل.

(٧) William of Tyre, xvii, i, pp. 758-9؛ الذى يورد قائمة بأبرز الحاضرين من رجال الدين والعلمانيين؛ Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, p. 89؛ Suger, *Gesta Ludovici*, pp. 403-4.

أن ملكهم الشاب ذا المعنويات المرتفعة كان متلهفا على النار. ولم تكن حلب تعني شيئا للصليبيين الزائرين ، وإنما كانت دمشق هي المدينة المحيطة في الأسفار المقدسة والتي ستكون استعادتها من الكفرة بمثابة مجيد للرب وليس هناك من حدود في توزيع الملامة في اتخاذ هذا القرار ، غير أن المسؤولية الأكبر ينبغي أن تقع على عاتق البارونات المحليين الذين كانوا يعرفون الوضع ، أكثر من وقوعها على عاتق الوافدين الجدد الذين كانوا ينظرون إلى المسلمين كلهم نفس النظرة<sup>(٨)</sup>.

وفي منتصف يولية ، انطلق الجيش المسيحي ، من الجليل خلال باتياس ، وهو أكبر جيش على الإطلاق يدفع به الفرنج إلى ميدان القتال . وفي يوم السبت ٢٤ يولية ضرب معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق . وفي بداية الأمر لم يأخذ الأمير أنباء الحملة الصليبية مأخذاً جادا ، بعد أن سمع بتخسارها الجسيمة في الأناضول ، وعلى أية حال فإنه لم يتوقع أن تجعل الحملة من دمشق هدفا لها . لكنه عندما اكتشف الحقيقة سارع بإصدار الأوامر لحكام المقاطعات بإرسال كل من يمكن الاستغناء عنه من الرجال ؛ بينما هرع رسول إلى حلب طالبا المساعدة من نور الدين . وتوقف الفرنج أولا في الموضع المسمى مناكل العساكر على بعد حوالي ثمانية أميال جنوب دمشق التي كانت أسوارها وأبراجها البيضاء تومض من خلال ما تعج به البساتين من أوراق كثيفة ؛ غير أنهم سرعان ما تقدموا شمالا إلى قرية الميزة حيث المياه الوفيرة . وهناك حاول الجيش الدمشقي وقف تقدمهم لكنه أجبر على الانسحاب وراء الأسوار . وانهج زعماء الصليبيين بانتصارهم ، فأرسلوا جيش القنس إلى داخل البساتين لتطهيرها من مقاتلي حرب العصابات ؛ وما أن حل عصر اليوم حتى كانت البساتين الواقعة جنوب المدينة في قبضة الفرنج الذين راحوا يغرزون متاريس الحسائك الخشبية من الأشجار التي كانوا يقطعونها . وبعد ذلك ، وبفضل شجاعة كونراد شخصيا ، شقوا طريقهم إلى قرية الربوة الواقعة على نهر بردى أسفل أسوار المدينة تماما. وظن مواطنو دمشق الآن أن كل شيء قد ضاع وبدأوا في وضع المتاريس والخواجهز في الشوارع إبانها بالصراع الأخير اليأس . لكن المد تحول في اليوم التالي ؛ إذ أن التعزيزات التي طلبها أنر بدأت تندفق إلى داخل المدينة من خلال البوابات الشمالية للمدينة ، وبمساعدها شن هجوما مضادا دحر المسيحيين بعيدا عن الأسوار . وأثناء اليومين التاليين كرر المحجمات ، بينما زاد توغل رجال حرب العصابات داخل الحدائق

والبسائيين . وكانت عملياتهم من الخطورة البالغة للمعسكر بحيث اجتمع كونراد وبلدوين وقرروا إخلاء البسائيين جنوب المدينة والانتقال إلى الشرق وضرب المعسكر في بقعة لا يجد فيها العدو مثل هذه التغطية . وفي يوم ٢٧ يولية تحرك الجيش كله إلى السهل خارج الأسوار الشرقية . ولقد كان القرار بمثابة كارثة ؛ إذ كان الموقع الجديد يفتقر إلى المياه ويواجه أقوى قسم في الأسوار ؛ وتستطيع الآن فرق الهجوم الدمشقية أن تتحرك بحرية أكبر في أنحاء البسائيين . وفي واقع الأمر ، اعتقد الكثير من جنود الفرنج أن البارونات الفلسطينيين الذين نصحوا الملكين ، لا بد وأنهم تلقوا الرشاوى من أوتو لقاء نصيحتهم . ذلك أن انتقامهم أضاع آخر فرصة للاستيلاء على دمشق . وكان جنود أوتو يتزايدون في أعدادهم ، وكان يعلم أن نور الدين في طريقه جنوباً ، فراح يحدد هجماته على المخيم الفرنجي . ومات الجيش الصليبي - وليس المدينة المحاصرة - هو الذي يحارب حرباً دفاعية<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٤٨ م : مشاجرات في المعسكر المسيحي

في الوقت الذي ترددت فيه المهمات عن الخيانة في أنحاء الجيش المسيحي ، اختلف قواده جهاراً حول مستقبل دمشق بعدما يحتلونها . فتوقع بارونات مملكة القدس إدماجها إقطاعية في المملكة ، واتفقوا على تعيين جوى بريسار - لورد بيروت - لورداً لها ، ويبدو أن الملكة ملسيند وكونستابل مناس قد وافقا على هذا الترشيح . غير أن ثيرى (أوف فلاندرز) كان يشتبه دمشق التي كان يرغب في الاحتفاظ بها إقطاعية شبه مستقلة على غرار طرابلس . وفاز بتأييد كونراد ولويس والملك بلدوين الذي كانت اخته غير الشقيقة زوجة ثيرى . ولما علم البارونات الخليون بتأييد الملوك لثيرى تآلى نشاطهم ؛ وزاد مؤيدوا من كانوا دائماً يعارضون الهجوم على دمشق ، وربما كانوا على صلة عنفية بأوتو ، إذ كانت هناك همسات حول مبالغ طائلة من الأموال المدفوعة المزيفة - وهذا صحيح - التي عثر عليها أثناء مرورها بين دمشق وبين بلاط القدس وأمير الجليل (إليناند). وربما قال لهم أوتو إنهم إذا انسحبوا في الحال فسوف يتخلى عن تحالفه مع نور الدين . وسواء استغل أوتو هذا الجدل استغلالاً محمداً أم لا ، فلا شك في أنه كان له أثره على نبلاء المملكة . وكان نور الدين قد وصل

(٩) -William of Tyre, xvii, 2-5, pp. 760-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 282-6; Abu Shama, pp. 55 9; Usama, ed. Hitti, p. 124.

بالفعل إلى حمص وراح يتفاوض على شروط مساعدته لأوثر ؛ فطلب ضرورة السماح لجنوده بالدخول إلى دمشق ؛ وكان أوثر يناور كسبا للوقت ؛ إذ كان الجيش الفرنجى فى وضع صعب أمام دمشق ، ولا يتوقع وصول تعزيزات ، بينما يستطيع رجال نور الدين أن يكونوا فى ساحة القتال فى غضون أيام قليلة. وفى حالة مجيئهم ، فلن تحت شأفة القوة الصليبية عن آخرها وحسب ، وإنما سوف تكون دمشق فى قبضة نور الدين يقينا<sup>(١٠)</sup>.

والآن اقتنع بارونات فلسطين كلهم - بعد فوات الأوان - بمحاكمة مواصلة الحرب ضد دمشق ؛ وراحوا يضغطون برأيهم على الملك كونراد والملك لويس . وأصيب الاعلان الفرنجى بالصدمة ؛ وليس باستطاعتها المضي فى الجدل السياسى الخبيث ، لكنهما كانا يعلمان أنهما لا حيلة لهما بدون مساعدة الفرنج المحليين . واشتكى الملكان علانية من عدم الطاعة التى وجدوها بين الفرنج المحليين وانقارهم إلى الخامس للقضية . لكنهما أصدرتا الأمر بالانسحاب<sup>(١١)</sup>.

وفى فجر يوم الأربعاء ٢٨ يولية ، أى فى اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق ، هدم الجيش المعسكر وبدأ طريق العودة باتجاه الجليل . ورغم أن أسوال أوثر وما كانت لمن انسحابهم فإنه لم يدعهم يرحلون فى سلام . إذ أن فرسان الزكمان الخفاف تعلقوا بمناحيهم ومؤخرتهم طوال اليوم كله والأيام القليلة التالية ، وهم يحطرون حشودهم بسهامهم ، وتحول الطريق إلى فراش لجثث الرجال والحيول ، تسببت عفونتها فى تلوث السهل طوال أشهر كثيرة تالية . وفى أوائل أغسطس عادت تلك الحملة العظيمة إلى فلسطين وعاد الجنود المحليون إلى منازلهم . وكانت كل إنجازاتها أنها فقدت العديد من رجالها والكثير من مواردها وعانت من عجزى مرعب . إن ما أتاه هذا الجيش الجرار بتخليه عن هدفه بعد مجرد أربعة أيام يعد بمثابة لظمة مريرة للكروياء المسيحي.

(١٠) William of Tyre, xvii, 6, pp. 767-8. Rey, 'Les Seigneurs de Barut', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 14-15. ويحدد Rey البارون المرحّل على أنه Guy of Beirut ، وذلك من Assise, n.p.458. ويورد ميخائيل السورى (iii,p.276) شائعة الأسوال التى دفعت للملك بلويسين ولإيناسند ، والتى قلاها عشية من طموحات كونراد. ويقول Bar Hebraeus (trans. Budge, p.274) إنه لم يجد القصة لدى أى كاتب عربى . ويقول ابن القلايس فى صفحة (٢٦٤) إن الفرنج شعروا بالخطر من اقواب الجيوش الإسلامية . ويقول ابن الأثير (pp. 469-70) إن أوثر بالقطع حذر الفرنج المحليين من تلك الجيوش وبذر الخلاف بينهم وبين ملك ألمانيا.

(١١) William of Tyre, xvii, 7, pp. 768-70. وتدرج الترجمة الفرنسية هجوما على (الولاني) أى الفرنج الذين نشأوا فى الشرق . ويعلق كونراد باللوم على البارونات المحليين . انظر *Wibald's Epistolae*, pp. 225-6.

وتحطمت تماما أسطورة فرسان الغرب الذين لا يُفهمون ، التي اكتسبت هبتها إبان المغامرة العظيمة للحملة الصليبية الأولى . وعادت الحياة إلى معنويات العالم الإسلامي<sup>(١٢)</sup>.

#### ١١٤٨ م : الملك كونراد يغادر فلسطين

لم يمكث الملك كونراد في فلسطين بعد عودته من دمشق ؛ وإنما اصطحب حاشيته يوم ٨ سبتمبر وركب سفينة متجهة إلى نيسالونيكيا . وبوصوله إليها تلقى دعوة ملحة من الامبراطور مانويل لثمنضية أعياد الميلاد في بلاطه الامبراطوري . والآن ساد الوفاق التام بين العاهلين . واستمر ابن اخيه الصغير فريديريك في ضيافته للبيزنطيين وتوجيه اللوم اليهم عن الخسائر الألمانية في الأناضول ، ورغم ذلك لم يفكر كونراد إلا في تحالفه النفيس مع الامبراطور ضد روجر الصقلي ، وبات أسيرا لجاذبية مانويل الشخصية وضيافته البهيجة . وأثناء زيارته تمت مراسم زواج أخيه هنري كونت النمسا من ابنة أخي مانويل ثيودورا بأعظم مظاهر الأبهة . وبكى البيزنطيون في ذهولهم لرؤيتهم أميرتهم الشابة المحبوبة تذهب ضحية لهذا المصير البربري - وكما كتب أحد شعراء البلاط موسيا أمها: "راحت قربانا لوحش الغرب" . غير أن الزفاف كان علامة على المصالحة التامة بين البلاطين الألماني والبيزنطي . وغادر كونراد القسطنطينية في فبراير ١١٤٩م عائدا إلى ألمانيا ، وحاملا معه تحالفا بينه وبين مانويل ضد روجر الصقلي ، يقضي بتقسيم أراضي الواقعة على شبه الجزيرة الإيطالية<sup>(١٣)</sup>.

وفي الوقت الذي كان فيه كونراد يستمتع بما تقدمه القسطنطينية من أسباب الراحة ، لبث الملك لويس مريشا في فلسطين . وكتب له الراهب سوجر المرة تلو الأخرى راحيا منه العودة إلى فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على حسم أمره . إذ كان بلا شك راغبا في تخضية عيد من أعياد الفصح في القدس . وكان يعلم أن عودته سيعيقها طلاق وما يترقب عليه من كافة الملتزمات السياسية . فسمي إلى تأجيل اليوم الثوم .

(١٢) William of Tyre, loc. cit.; Ibn al-Qalanisi, pp. 286-7.

(١٣) William of Tyre, xvii, 8, pp. 770-1; Cinnamus, pp. 87-8; *Annales Palidense*, p. 83; Otto of Saint Blaise, p. 305; Otto of Freising, *Gesta Friderici*, p. 96. من الشعر قائلًا Prodrum على شرف زواج ثيودورا في 772. P. R.H.C.G. II, P. 772 ؛ لكنه يشير إليها قصيدة مرسلة لأمها على أنها راحت ضحية "وحش من الغرب". Ibid. p. 768

وفي الوقت ذاته ، وبينما جدد كونراد صداقته مع بيزنطة ، كان لويس يزداد مقنا للإمبراطور كلما خطر بذهنه ، وغير سياسته وسعى إلى التحالف مع روجر الصقلي. وكان خلافه مع ريموند أمير أنطاكية بمثابة تنحية أهم عقبة في طريق هذا التحالف الذي سوف سيزيد الشحنة مع بيزنطة . وأخيرا غادر لويس فلسطين في أوائل صيف عام ١١٤٩م في سفينة قيصية سرعان ما انضمت إلى أسطول صقلي يبحر في المياه الشرقية من البحر المتوسط . وكانت الحرب الصقلية ضد بيزنطة ما تزال دائرة ؛ وبينما كان الأسطول يدور حول بيلوبونيز<sup>(١٤)</sup> هاجمته سفن البحرية البيزنطية . فسارع الملك لويس باصدار الأوامر برفع العلم الفرنسي على سفينته ، وبذا سُمح له بمواصلة الانحياز ؛ غير أن سفينة أخرى تحمل الكثير من أتباعه وممتلكاته وقعت في أيدي البيزنطيين الذين أخذوها إلى القسطنطينية غنيمة حرب . ومرت أشهر كثيرة قبل أن يوافق الإمبراطور على إعادة الرحال والقتاع إلى فرنسا<sup>(١٥)</sup>.

وهبط لويس إلى التري في كلايريا في نهاية يولية ، واستقبله الملك روجر في بورتزا. وعلى الفور اقترح الملك الصقلي شن حملة صليبية جديدة يكون هدفها الأول الانتقام من بيزنطة . ووافق لويس ومستشاروه بسهولة ، وواصل رحلته إلى فرنسا وهو ما يقتضئ تغير كل شخص في طريقه بما لقيه من غدر البيزنطيين وضرورة معاقبتهم . وكان البابا إيوجينوس - الذي قابله لويس في تيفولي - فاطر الخماس ، غير أن الكثير من أعوان البابوية رحبوا بالمخطط . وبدأ الكاردينال ثيودوين في البحث عن مبشرين لتشجيعها ، فمنحه بطرس الميجل مؤازرته . وعندما وصل لويس إلى فرنسا حرض الراهب سوجر على الموافقة . والأهم من كل ذلك أن القديس برنارد أصابته الحيرة من تصارييف العناية الإلهية التي قضت مشيئتها بانتهاء حملته العظيمة مثل هذه النهاية المؤسفة ، فقبل متلهفًا اعتبار بيزنطة مصدرا لكل ما لحق بالحملة الصليبية من كوارث ، وأطلق طاقاته جميعها في استنزال النار من السماء على الإمبراطورية الالهة . بيد أنه لكي تنجح الحركة لابد لها من الاستعانة بمساعدة الملك كونراد الألماني ؛ وكونراد الألماني لن يتعاون معها، إذ أنه كان يرى بوضوح شديد أصابع عدوه روجر ، ولم يجد سببا في التخلي عن تحالفه

(١٤) (الترجم): بيلوبونيز: Peloponnesus or Peloponnesos شبه جزيرة تكون الجزء الجنوبي من اليونان حاليا.

(١٥) Cinnamus, p.87; letter of Suger (*Suger's Opera*, ed. de la Marche, pp. 258-60); William of Nangis, i, p. 46. وقد احتجز البيزنطيون السفينة التي نقل الملكة إليسور لفسرة (John of Salisbury, *Historia Pontificalis*, p. 61).



مع مانويل لكي يزيد روحه قوة على قوة . وجاءته المناشدات من الكاردينال ثيودور ومن بطرس المحل ولكن بلا جدوى ؛ وتوسل إليه القديس برنارد نفسه وأطلق الرعود في وجهه ، بلا طائل كذلك ؛ إذ كانت المرة الأخيرة التي أخذ فيها كونراد بنصيحة القديس هي نصيحة الحملة الصليبية الثانية . ولن يسمع لنفسه بأن يقع في الفخ مرة أخرى . ويرفض الملك كونراد تقديم المساعدة ، لم يكن هناك مقر من التخلي عن المخطط . وهكذا تأجلت الحياة العظمى للعالم المسيحي التي نفتها القديس برنارد إلى ما بعد نصف قرن آخر .

#### ١١٤٩ م : برتراند التولوزي

ولم يكتف في الشرق سوى أمير واحد من أمراء الحملة الصليبية الثانية ؛ ولم تكن اقامته هناك من اختياره . ذلك أن برتراند التولوزي ، وهو ابن الكونت ألفونسو من الزنا ، لم يتحمل رؤية ميراث طرابلس الكبير في حوزة ابن عمه الذي يرتاب في أنه قاتل أبيه . فلبث في فلسطين إلى أن غادرها الملك لويس ، ثم سار شمالا برحاله أبناء لانجدوق (في جنوب فرنسا) كما لو كان ينوي ركوب البحر من ميناء شمالي سوري . وبعد أن عبر السهل الذي يفتح فيه وادي البقاع باتجاه البحر تحول فحشا إلى داخل البلاد واحتل قلعة العرمة ، ومن هناك تحدى الجنود الذين أرسلهم الكونت ريموند من طرابلس لإقتلعه . وكانت القلعة في موقع مرتفع جيد كما لو كان وكبرا للانسار ؛ إذ أنها تسيطر على الطرق الموصلة من طرابلس إلى طرطوس ومن طرابلس إلى داخل البلاد أعلا البقاع . ولم يجد الكونت ريموند من يتعاطف معه بين الأمراء من رفاقه المسيحيين ، ولذا أرسل إلى دمشق طالبا المساعدة من أوثر الذي استجاب بسرور ودعا نور الدين للاتضمام إليه ؛ وبذا أظهر استعدادا للتعاون مع نور الدين ضد المسيحيين دون الإضرار بمحاولته الحفاظ على علاقات طيبة مع مملكة القدس . وفي واقع الأمر فإنه بذلك يرضى الملكة مليسند بمساعدة زوج أختها . وقد هبط الأميران المسلمان على العرمة التي لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا الحشد الكبير . ونهب المسلمون القضاة عن آخرها ثم دمروها تدميرا وتركوها للكونت ريموند ليجتليها مرة أخرى وانسحبوا وفي أثرهم صف طويل من الأسرى . وكان برتراند وأخته من نصيب نور الدين الذي أخذهما إلى حلب حيث أمضيا اثني عشر عاما في الأسر<sup>(١٦)</sup> .

(١٦) -Ibn al-Qalanisi, pp. 287-8; Ibn al-Athir, pp. 470-1, and Arabegs, p. 162; Kemal ad

ولقد كانت خاتمة ملاتمة للحملة الصليبية الثانية ، أن يقع آخر صليبي فيها أسيرا لدى المسلمين الخلفاء لرفيقة الأمير المسيحي الذي حاول أن يسلبه أمارته . وليست هناك مغامرة في العصر الوسيط بدأت بأمال أكثر روعة منها . إذ أن الحملة الصليبية الثانية ، وقد خطط لها البابا ، وبشرت لها وأوحىها فصاحة القديس برنارد النهبية ، وقادها العاهلان الرئيسيان في أوروبا الغربية ، كانت واعدة بالكثير من أحل مجد وخلاص العالم المسيحي . على أنها عندما وصلت إلى نهايتها المخزية بانسحابها الكتيب من دمشق ، كان كل ما حققته من إنجاز هو تنغيص العلاقة بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين حتى كادت أن تصل إلى مرحلة الصدام ، وزرع بذور الريسة بين الصليبيين من الواقدين الجدد والفرنح المقيمين في الشرق ، والمباعدة بين الأمراء الفرنج الغربيين عن بعضهم البعض ، والتقريب الأوثق بين المسلمين من بعضهم البعض ، وإلحاق أضرار مهلكة بما اشتهر به الفرنج من الإقدام العسكري . وربما حاول الفرنسيون أن يلقوا لائحة الإخفاق التام على غيرهم ، على الأميراطور مانويل الخنؤون ، أو على بارونات فلسطين فاتري الحماس ، وربما راح القديس برنارد يهدير رعوته ضد الأسرار . ممن تدخلوا في مشيئة الرب ؛ غير أن الحملة الصليبية في واقع الأمر قد انتهت إلى لا شيء بسبب قاداتها ، بضرأوتهم وجهلهم وحمائتهم العقيمة.



---

## الباب الرابع:

### تحول المد



---

## الفصل الأول:

### الحياه فى الشرق الفرنجى (أوتريميه)

---

## الحياة في الشرق الفرنجي (أوتريميه)

”بَلْ عَمَلٌ حَسَبَ أَحْكَامِ الْأُمَمِ الَّذِينَ خَلَقْتُمْ“  
(جزئيات ١١ : ١٢)

فشلت الحملة الصليبية الثانية ، فكان فشلها نقطة تحول في قصة الشرق الفرنجي . وكان سقوط الرها بمثابة اكتمال المرحلة الأولى من البعث الإسلامي ، ثم انهارت الحملة العظيمة انهيارا يرثي له ، وهي الحملة التي كان يفترض لها أن تعيد السيادة الفرنجية ، وبذا جاء انهيارها تبييتا لمكاسب الإسلام.

ومن أهم أسباب ذلك الفشل اختلاف العادات والتوقعات بين الفرنج المقيمين في الشرق وأبناء عموماتهم في الغرب . ذلك أن الصليبيين صدموا بعد أن اكتشفوا وجود مجتمع في فلسطين غير أفرادهم أسلوب حياتهم على مدى جيل واحد. كانوا يتحدثون لغة فرنسية ، وكانوا أتباعا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، وحكومتهم تتبع التقاليد التي نطقت عليها التقاليد الإقطاعية . على أن هذا التشابه المصطنع لم يكن له من أثر سوى أن زاد من حيرة الوافدين الجدد بسبب تلك الفروق.



ولو كان المستعمرون أكثر عدداً لتمكنوا من الاستمرار بأساليبهم الغربية ، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة في بلد كان مناخه وأسلوب حياته غريبين عنهم . وليس في الامكان معرفة الأعداد الحقيقية إلا حدساً ؛ لكن يبدو أنه لم يحدث في أى وقت أن زاد عدد البارونات والفرسان المقيمين إقامة دائمة في مملكة القدس عن ألف شخص . وأما أقاربهم من غير المقاتلين ، من النساء والمسنين ، فلم يزدوا كثيراً على ألف أخرى . وكانت مواليد الأطفال كثيرة ، لكن القليل منهم يبقى على قيد الحياة . وباعتبار آخر ، وبخلاف رجال الدين الذين كان عددهم مئات قليلة ، وفرسان النظامين العسكريين ، لم يكن هناك سوى عدد يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف شخص من البائعين في الطبقات العليا الفرنجية<sup>(١)</sup> . وربما كان مجموع سكان طبقات الفروسية في إمارة أنطاكية وكونتيتي طرابلس والزها هو نفس العدد<sup>(٢)</sup>، وبقيت تلك الطبقات نقيّة العرق عموماً . أما في الزها وأنطاكية فكانت هناك زيجات مختلطة مع اليونانيين المحليين والأرستقراطية الأرمنية ؛ إذ تزوج كل من بلدوين الأول وبلدوين الثاني - عندما كان كل منهما كونت الزها - من زوجة أرمنية من الطائفة الأرثوذكسية ، وقيل لنا إن بعض نبلائهم قد حذبوا حذبهما . وكانت زوجة إيلين الأول وزوجة فاليريان أمير البيرة أرمنيتين من أتباع الكنيسة المنفصلة على أنه لم يكن في الجنوب أرستقراطية مسيحية محلية ، وإنما كان العنصر الشرقي الوحيد يتألف ممن يقرى في عروشهم دماء أرمنية في العائلة المالكة وآل كورتناي ، وفيما بعد ذرية الملكة البيزنطية ماريما كومنينيا - سواء الذرية المالكة أو ذرية إيلين<sup>(٣)</sup> .

(١) ربما كان في الجيش العظيم الذي هزم في حطين ١٢٠٠ فارس ، منهم ٣٠٠ فارس من فرسان المعبد، وربما منهم من فرسان المستشفى . وكما البارونات والفرسان العلمانيين فلا يمكن لعددهم أن يزيد على ٧٠٠ شخص ، ومع ذلك اشترك جميع الفرسان في المعركة . ولم يتحلف في القدس سوى اثنين فقط . وكان هذا الجيش يشتمل على القليل من الفرسان الأكرين من طرابلس أو أنطاكية . وكان عدد معين من الفرسان قد عاهد الملكة مع بلدوين (أوف إيلين) أنظر أدناه صفتحي ٤٥٤، ٤٦٤ . وفي تقديرات حيون (أوف إيلين) أن الملكة كانت تستطع في عهد بلدوين الرابع استدعاء ٥٧٧ فارساً بخلاف فرسان نظامين العسكريين ، و ٥٢٥ ضابطاً من ضباط النظام (ibelin, pp. 422-7).

(٢) ليس في الإمكان معرفة أرقام أنطاكية وطرابلس إلا حدساً . وربما لم تكن الزها تشتمل على ما يزيد على ١٠٠ أسرة من أسير النبلاء وفرسان الفرنج . وربما كانت كونتيتي طرابلس تشتمل على ٢٠٠ أسرة وأنطاكية أكثر بكثير . وفي عام ١١١١م ، يقول Albert of Aix (XI, 40-4, pp. 182-3) إن ثل بشير قدمت ١٠٠ فارس والرها ٢٠٠ فارس ، غير أنه لا يبدى أن كان أكثر منهم من الأرمن.

(٣) أنظر أدناه ، شعرات الأناضول.



أما طبقة "ضباط الصف" فكانت أكثر عدداً ؛ وكان أفرادها أصلاً بمثابة دعامة المشاة الفرنجية كاملة التسليح ، وقد استقروا في أقطاعات اللوردات . ولما كانوا بلا مفاخر أنساب يفاخرون بها ، كانوا يتزوجون من المسيحيات الوطنيات ؛ وبحلول عام ١١٥٠م بدأوا يشكلون طبقة من "المخلطين" التي برزت بالفعل مع المسيحيين الوطنيين. وفي عام ١١٨٠م كان عدد ضباط الصف يقدر بأكثر قليلاً من ٥٠٠٠ شخص ؛ لكننا لا نستطيع أن نعرف النسبة المتبقية ممن بقي في عروقهم الدماء الفرنجية الخالصة . وربما كانت طبقة جنود المرتزقة "sodeers" تدعى هي الأخرى بأنها من نسل فرنجي . وأما طبقة "أنصاف الأثراك" Turcopoles التي نشأت محلياً وتسلمت وتدرجت على غرار الفرسان البيزنطيين الخفصاف ، والتي أخذت اسمها منهم ، فكانت تتألف جزئياً من المسيحيين الوطنيين والمختلطين ، وجزئياً من أنصاف الطبقات ، وربما كان هناك فرق بين أنصاف الطبقات المتحدثين لغة آبائهم وبين المتحدثين لغة أمهاتهم . وربما كان "أقطاب الأثراك" يتحدثون من تلك الأخيرة<sup>(١)</sup>.

وكان المستوطنون كلهم تقريباً من أصل فرنسي فيما عدا المدن الكبيرة . وكانت لغة المعاطبة في مملكة القدس وإمارة انطاكية هي اللغة المألوفة لدى الفرنسيين الشماليين والنورمان والتي تدعى Langue d'oeil . وفي كورنتية انطاكية يختلفتها التولوزية وربما كانت تستخدم بادئ الأمر لغة البروفنسال القديمة Langue d'oc وقد اغتباط الحاج الألماني جون (أوف فورزبرج) ، الذي زار القدس حوالي عام ١١٧٥م ، لعدم وجود أي دور للألمان في المجتمع الفرنجي رغم ادعائه أن جودفري وبلدوين الأول كانا من أصل ألماني . وابتهج عندما عثر أخيراً على منشأة دينية كل العاملين فيها على وجه الحصر من الألمان.

وكانت المدن تشتمل على مستعمرات إيطالية كثيرة . إذ كان البنادقة وأبناء جنوا يمتلكون شوارع في القدس نفسها . وكانت هناك منشآت لأبناء جنوا - مضمونة بمعاملة - في كل من باغا وعكا والسويدية وانطاكية ، ومنشآت للبنادقة في أكبر تلك المدن . وكان لأبناء بيزا مستعمرات في صور وعكا وطرابلس واللاذقية . وكانت كلها كميونات تدار بالحكم الذاتي ، وكان مواطنوها يتكلمون الإيطالية ولم يختلطوا اجتماعياً بغيرهم . وكانت هناك على شاكلتها منشآت يملكها أبناء مرسيليا في عكا

(١) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.160-2; Munro, *The Kingdom of the Crusaders*, pp.106-7, 120-1.

وبافا وصور وجبيل ، ومنشآت يملكها أبناء برشلونة في صور . وباستثناء عكا ، كان عدد الأشخاص في كل من تلك المستعمرات لا يزيد على مئات قليلة<sup>(٥)</sup>.

#### المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود

كانت الأغلبية الساحقة من السكان تتألف من المسيحيين . وفي مملكة القدس كان هؤلاء المسيحيون من أصل مختلط ، أغلبهم يتحدث العربية ، وقد أطلق عليهم بلا اكترات اسم المسيحيون العرب ، وكلهم تقريبا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفي كونية طرابلس كان بعض السكان أعضاء في الطائفة المونوفيزية (التي تؤمن بوحدة إرادة المسيح ذي الطبيعتين) والتي تسمى الطائفة المارونية . وفي المناطق الأبعد إلى الشمال كان السكان في أغلبهم من الونديطيين Monophysites<sup>(٦)</sup> التابعين للكنيسة البعقورية ، غير أنه كانت هناك مستعمرات كبيرة جدا للأرمن ، وكل أفرادها تقريبا من أتباع الكنيسة الأرمنية المنفصلة ، وكان في أنطاكية واللاذقية وكيليكيا مجموعات كبيرة من الأرثوذكس المتحدثين باليونانية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان في الأراضي المقدسة مستعمرات دينية من كل طائفة دينية . وكانت الأديرة أرثوذكسية أساسا وتحدث اليونانية ؛ ووجدت كذلك منشآت جورجية أرثوذكسية ، كما كان في القدس خاصة مستعمرات للونديطيين من الأقباط المصريين والاثيوبيين على السواء ، ومن اليعاقبة السريان ، وجماعات لاثينية قليلة كانت قد استقرت هناك قبل الحملات الصليبية<sup>(٧)</sup> . وقد هاجرت جماعات إسلامية كثيرة بعد إنشاء المملكة المسيحية ، على

(٥) Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7. يشير إلى أن الأنشطة التجارية للاتاليين خلال القرن الثاني عشر كانت تركز أساسا على مصر والقسطنطينية. وكانت الموانئ الساحلية السورية أقل بكثير في أهميتها بالنسبة لهم.

(٦) (لذبحهم): نرى القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، بخلاف الطائفة القائلية بوجود طبيعتين له بشرية وإلهية

(٧) ليس هناك سوى أدلة قليلة على وجود مسيحيين وطنيين في فلسطين أثناء القرن الثاني عشر. انظر أدناه الصفحات ٣١٩-٢٣٠. و Rey, *Les Colonies Françaises*, pp.75-94. ع. لأكباط والإثيوبيين أنظر Gerull, *Etiopi in Palestina*, pp. 8 ff.

أن هناك قرى إسلامية كانت ما تزال موجودة حول نابلس<sup>(٨)</sup>، وبقي سكان مقاطعات كثيرة على إسلامهم بعد أن احتلها الفرنج في وقت لاحق . وفي شمال الجليل ، بطول الطريق من نابلس إلى عكا ، كان الفلاحون على وجه الحصر تقريباً مسلمين . وأبعد إلى الشمال ، في البقاع وجبال النصيرية ووادي نهر العاصي، كانت هناك طوائف إسلامية هرطيقية تعترف بالحاكم الفرنجي<sup>(٩)</sup>. وبطول الحدود الجنوبية وما وراء نهر الأردن كانت هناك قبائل رحّل بدوية . وأدت مذابح اليهود والتهديد بها إلى تقليص أعداد اليهود بدرجة كبيرة في فلسطين وسوريا المسيحية . وشعر بنيامين تيودل بالأسى عندما زار البلاد لضآلة عدد مستعمراتهم<sup>(١٠)</sup>، وكان عددهم في دمشق وحدها أكثر من عددهم في كل الدويلات المسيحية<sup>(١١)</sup>، على أنهم في وقت ما خلال القرن الثاني عشر اشترؤا احتكار صناعة الصباغة من الناج ؛ وكانت صناعة الزجاج في أيديهم بدرجة كبيرة<sup>(١٢)</sup>، وكان في نابلس طائفة سامرية<sup>(١٣)</sup> صغيرة تعيش هناك<sup>(١٤)</sup>.

وكانت تلك المجتمعات المختلفة تشكل قاعدة الدويلات الفرنجية ؛ ولذا لم يكن الأسياد الفرنج يتسبون في إزعاجهم ، إلا فيما ندر . وحيثما تمكن الوطنيون من إثبات ملكيتهم للأرض كان يسمح لهم بالاحتفاظ بها ؛ غير أن أصحاب الأرض في فلسطين وطرابلس كانوا كلهم تقريباً من المسلمين، باستثناء الأراضي التي تملكها الكنائس المحلية، وقد هاجروا فراراً من الغزو الفرنجي تاركين أراضٍ شاسعة تساعد الحكام الجدد على تثبيت أتباعهم من بني جلدتهم . وهذا أنه لم تعد هناك قرى حرة باقية مثل تلك

(٨) تسبب المسلمون حول نابلس في انتشار الخطر للفرنج بعد حطين، (Abu Shama, pp.302؛ وعن المسلمين في عكا وحولها انظر . Ibn Jubayr, ed. Wright, pp.8 ff.)

(٩) انظر . Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 170 ff. ويشير Burchard of Mt Sion إلى شتى الطوائف الإسلامية في شمال سوريا. (P.P.T.S. vol. XII, p. 18)

(١٠) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, pp. 26-47

(١١) *Ibid.* pp. 47-8.

(١٢) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, p. 35 (dye-monopoly at Jerusalem). *Ibid.* pp.26-47. وصور.

(١٣) (المزحم): نسبة إلى طائفة من اليهود توشك الآن على الانقراض، وتزعم أنها تنسب إلى السامرة القديمة، ويسمون أنفسهم بني إسرائيل (أو الشيميريم) أي "المراعين" لأنهم لا يعتدون كمرجع لهم إلا التوراة محصورة في الأسفار الخمسة الأول من العهد القديم.

(١٤) *Ibid.* pp.33-4 وأستادا إلى بنيامين (pp. 32-44). كانت هناك كيف أسرة ووجدت غيرها في قيسارية وعسقلان.

التي كانت موجودة في العهد البيزنطي المبكرة . وكان كل مجتمع من مجتمعات القرى مرتبطاً بالأرض ويدفع حصة من انتاجها للسيد ؛ غير أن تلك الحصة لم تكن موحدة . ففي الجزء الأكبر من البلد ، حيث كان القرويون يتبعون نظام الزراعة المختلطة البسيط ، ربما كان السيد يتوقع ما يكفي من الإنتاج لإطعام أهل بيته والتابعين له من "المحلفين وأنصاف الأتراك" الذين كانوا يعيشون في جماعات حول القلعة ؛ إذ لم يكن الفلاح المحلي مناسباً هو نفسه لأن يكون جندياً . وكانت الزراعة تدار في السهول الخصبة على أساس تجاري بصورة أكثر . فكان السيد يستغل البساتين وحدائق الكروم ، وقبل كل ذلك مزارع قصب السكر ، وربما كان الفلاح يتقاضى ما يزيد قليلاً عن قوته . ولم تكن هناك أعمال عبودية فيما عدا بيت السيد ، رغم أن أسرى المسلمين ربما كانوا يعملون مؤقتاً في أراضي الملك أو أراضي السيد الأعظم . وكان التعامل بين القرويين وسيدهم يجري عن طريق رئيسهم ، وأحياناً كان يسمى بالإسم العربي (الرئيس) وأحياناً بالشكل اللاتيني ويجولوس regulus وكان السيد يستخدم إلى جانب أحد مواطنيه على أنه الترجمان (dragoman) ، وهو سكرتير يتحدث العربية بإمكانه مسك الدفاتر<sup>(١٥)</sup>.

#### إقطاعيات المملكة

على الرغم من التغير الطفيف الذي حدث في حياة الفلاحين ، أعيد تنظيم مملكة القدس تنظيمًا ظاهرياً على غرار الإقطاعيات التي تطلق عليها "إقطاعية" . فكان نطاق السلطة الملكية يتألف من المدن الثلاث القدس وعكا وناپلس ، وفيما بعد مدينة دارون الحدودية وما حولها من أراض . وكان نطاقاً يشغل جزءاً كبيراً من المملكة ، إذ أن الملوك الأراثل ، وخاصة الملكة ملسيند ، دأبوا على الإسراف في إهداء الأراضي لأصدقائهم وللكنيسة وللنظاميين العسكريين الدينيين . وكانت هناك أجزاء أخرى تقتطع كبادرة للأراثل من الملكات . وكانت أهم الإقطاعيات الأربع للمملكة هي كونتية يافا التي كانت تخصص عادة لأحد المتعلمين من البيت الملكي ؛ وإمارة الجليل ، التي تدعى بإسمها الفخيم لطموح تنكريد ؛ وإقطاعية صيدا السيادية ؛ وإقطاعية ما وراء الأردن

(١٥) أنظر Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. II. Le régime rural syrien au temps de la domination franque', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29<sup>me</sup> année, no. 7, نفيسة حول هذه المسألة العربية.

السيادة . ويبدو أن حازى تلك الإقطاعيات كان عندهم موظفون كبار تقليدا لما كان عليه الملك . وهذا ما كان يفعله كذلك لورد قيسارية ، الذى كانت إقطاعيته بنفس الأهمية تقريبا ، رغم أن تصنيفها جاء مع الإقطاعيات الإثنى عشرة الثانوية . وبعد حكم بلدوين الثانى، كانت حيازة الأرض تقوم على أساس الحق الوراثى بحيث تؤول إلى الإناث فى حالة عدم وجود وريث من الذكور . وليس فى الإمكان إخلاء المستأجر إلا بقرار من المحكمة العليا إذا ارتكب بعض الأعمال الشريرة . غير أنه كان مدينا للملك أو لسيده الأعلى بعدد محدد من الجنود فى حالة طلبهم منه ، ويبدو أنه لم تكن هناك فترة زمنية محددة لخدمتهم . وكان كل من كونت يافا ولورد صيدا وأمير الجليل مدينا بحاماة فارس كاملى التسليح ، وأما لورد منطقة الأردن فكان مدينا بستين فارسا<sup>(١٦)</sup> .

وقد اختلفت أحجام الإقطاعيات . فكانت الإقطاعيات العلمانية تتحدد بالغزو وكانت عبارة عن قطع محددة من الأرض . على أن ممتلكات الكنيسة والنظاميين العسكريين ، كانت آخذة فى التضخم بسبب الهبات الخيرية ووصايا التوريث ، أو ما يتلصق استراتيجيا فى حالة النظاميين الدينيين العسكريين ، وقد تبحرت تلك الممتلكات فى أنحاء الدويلات الفرنجية . وكانت وحدة القياس التى تقاس بها الأرضى هي القرية ، أو الدار *casal* ، أو نادرا جدا نصف القرية أو ثلثها ؛ لكن القرى كانت تختلف فى أحجامها كذلك . وفى شمال الجليل حول صفد ، يبدو أن القرى كانت تشمل فى المتوسط على مجرد أربعين من السكان الذكور ، لكننا نسمع عن قرى أكبر حول الناصرة ، وقرى أصغر حول صور حيث كان السكان عموما أكثر كثافة مع ذلك<sup>(١٧)</sup> .

كما كان هناك لوردات عاديون يتحصلون على إقطاعيات نقدية ، أى كانوا يحصلون من مدن وقرى معينة على إيراد مالى ثابت لقاء التزامهم بتوفير الجنود بأعداد متناسبة . وكانت تلك الإقطاعيات المالية وراثية ويكاد يستحيل أن يلغىها الملك<sup>(١٨)</sup> ، وإنما كان يأمل - كما هو الحال فى إقطاعيات الأرضى - أن يموت صاحب الإقطاعية المالية دون أن يترك وريثة ، أو على الأقل يترك بنتا ثرته ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يختار لها زوجا أو أن يصير على أن تختار هي زوجا من ثلاثة رجال يرشحهم هو<sup>(١٩)</sup> .

(١٦) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.138-65; Rey, *op.cit.* pp. 1-56, 109-64.

(١٧) Cahen, *op. cit.* pp. 291-8.

(١٨) La Monte, *op. cit.* pp. 144-51.

(١٩) يقول Grandclaude, 'Liste d'Assises de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*, p. 340 إن تاريخ القانون الذى يسمح للتوريثة باختيار زوج من بين ثلاثة

وكانت المدن الملكية بحيرة على توفير الجنود بحسب ثرواتها . فكان على القس توفير واحد وستين حنديا ، وثلاثين خمسة وسبعين حنديا ، وعكا لثمانين حنديا . على أن الجنود لم يكتفوا من الطبقة البورجوازية ، وإنما من النبلاء المقيمين في المدينة ، أو أصحاب المنازل فيها . وكان رجال الدين البارزون مدينين بالجنود كذلك في مقابل ضياع الأراضي التي في حوزتهم أو ملكيتهم للمنازل . أما الطبقة البورجوازية فكانت تدفع للحكومة ضرائب مالية . وكانت الضرائب المنتظمة مفروضة على الموانئ والصادرات ، وعلى المبيعات والمشتريات ، وعلى رسوم السفن والحجاج ، وعلى استخدام الموازين والمقاييس . كما كانت ضريبة الأرض *terraticum* مفروضة على ممتلكات الطبقة البورجوازية ، ولا تعرف عنها سوى القليل . وبالإضافة إلى ذلك ، قد تدفع ضريبة خاصة لبعض الحملات . ففي عام ١١٦٦م كان على غير المقاتلين أن يدفعوا عشرة في المائة من قيمة متقولاتهم ؛ وفي عام ١١٨٣م كانت هناك ضريبة رأسمالية مقدارها واحد في المائة على الممتلكات والديون يدفعها جميع السكان ، مقترنة بنسبة اثنين في المائة على إيرادات المنشآت الكنسية وممتلكات البارونات . وكان على كل فرد من الفلاحين أن يدفع ضريبة الرأس الشخصية لسيده إلى جانب ما تدفعه القرية على انتاجها ؛ وكان على الرعايا المسلمين دفع العشر أو الدائم *dime* (أي مبلغ ضئيل) يذهب إلى الكنيسة . ودأبت الهرميات اللاتينية على محاولة تهدد ضريبة الدائم هذه لتطبق على المسيحيين المنتمين إلى كنائس هرطقية . لكن تلك الهرميات اللاتينية لم تفلح رغم أنها أجمعت الملك أمالريك على رفض عرض من الأمير الأرمني ثوروس الثاني بارسال مستعمرين إلى المقاطعات الفلسطينية الخالية من السكان لأن رجال الهرمية اللاتينية أصروا على أن يدفع هؤلاء المستعمرون الجدد الدائم<sup>(٢٠)</sup> . على أن المسلمين قد وجدوا في هذا الدائم مستوى ضريبي عام أقل في ظل الحكم الفرنسي عن مستواه في ظل الحكام المسلمين المهاجرين . كما أنهم - أي المسلمين - لم يُستبعدوا من الالتحاق بالوظائف الحكومية البسيطة ، إذ كان بإمكانهم - والمسيحيين كذلك - الالتحاق بوظائف مسؤولي الجمارك ومحصيل الضرائب<sup>(٢١)</sup>.

يرشحهم الملك برجع إلى ما بعد عام ١١٧٧م . غير أن بلدوين الثالث عرض على كورنستانس في أنطاكية الاختيار من بين ثلاثة عطايا في عام ١١٥٠م . ومع ذلك لا يستطيع الملك إجبارها على قبول أي منهم (انظر أدناه صفحة ٣٣١).

(٢٠) Cahen, *op. cit.* pp. 299-302. وأورد Ernoul, pp. 27-30 عرض ثوروس.

(٢١) Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 305.



### الدستور

من المحال أن نذكر شيئا دقيقا عن دستور الدويلات العثمانية لأنه لم يكن هناك دستور ثابت في أى وقت . وعندما قدم القانونيون المتأخرون ما جمعه من مثل "كتاب للملك Livre au Roi" أو "قوانين القدس Assises de Jerusalem"، إنما كانوا يحاولون اكتشاف المحالات التي تسببت فيها القرارات المحددة في تغيير العادات المقبولة ، وليس وضع قانون حكومي راسخ . وكانت هناك اختلافات عملية . إذ لم يكن أمير أنطاكية أو كونت الرها أو كونت طرابلس يصادف مشاكل من الأتباع سوى القليل . بينما كان ملك القدس في وضع أضعف . فهو ممسوح الرب ، وزعيم الفرنج المقبول في الشرق ، لا غريم له ، بعد أن وضع بلدوين حدا لطموحات البطريركية . على أنه في الوقت الذي كان يستطيع فيه أميرا أنطاكية وطرابلس توريث سلطانهما بقواعد الاستخلاف الوراثي المقبولة ، كانت الملكية انتخابية ، وإن كان الشعور العام ربما يؤيد الحق الوراثي . ففي عام ١١٧٤م كان بلدوين الرابع مقبولا دون منازع ليخلف أباه، رغم أنه كان في الثالثة عشرة فقط من عمره فضلا عن إصابته بالجذام . على أن تبييت الملك بالانتخاب كان ضروريا . وكان الناصيون أحيانا يضعون شروطهم ، كما حدث عندما أجبر أماليك الأول على تطبيق زوجته آجنس قبل أن يسمحوا له بتتويجه . وعندما يكون الوريث الطبيعي امرأة تكون هناك تعقيدات أخرى ؛ إذ يتعين انتخاب زوجها كملك ؛ غير أن هذا الملك الزوج ربما اعتُبر أنه يستمد حقوقه من خلالها . وفي حالة الملكة ملسيند وابنها بلدوين الثالث ، لم يكن هناك أحد يعلم جيدا ما يكون عليه الوضع القانوني ؛ واتضح المشكلة الدستورية برمتها بصورة قاحلة بعد موت بلدوين الخامس عام ١١٨٦م<sup>(٢٢)</sup>.

### الحكمة العليا

كان الملك هو قمة الهرم الاجتماعي ، لكنها قمة منخفضة . فباعتباره ممسوح الرب، كانت له مكانة ما ، ومن ثم فالإساءة إليه خيانة عظيمة . وهو رئيس المحكمة العليا، والقائد الأعلى لقوات المملكة ، وهو المسؤول عن الإدارة المركزية وبعين المسؤولين فيها . وباعتباره السيد الأعلى لأتباعه ، يستطيع منعهم من التصرف في

(٢٢) في أساكين متفرقة من La Monte, op. cit. pp. 87-137 وانظر أعلاه ص ٢٧١ وأثناءه ص ٣٨٦ ، ٥٠٢ .

أراضيهم ، وبماكانه اختيار الأزواج للورثيات . ولأنه ليس له سيد أعلى فوقه ، يستطيع أن يهب الهبات كما يخلو له من ممتلكاته الخاصة ، رغم انه عادة ما كان يُشترك زوجته وأولاده في منح الهبة - كما كان يفعل نبلاؤه عندما يتصرفون في أراضيهم - خوفاً من أن تثار لاحقاً بعض الشكاوى حول بائة الأرملة أو ميراث الإيمن . غير أن السلطة الملكية كانت تنتهى عند هذا الحد . وكانت الإيرادات الملكية مقيدة وتنقص بسبب ما يهبه من هبات سخية . ولقد كان الملك دائماً في حاجة إلى المال . وكان على رأس المملكة ، لكنه تحت قانون المملكة الذى كانت المحكمة العليا تمثله . وتتألف المحكمة العليا من كبار مستأجرى الأرض في المملكة، وهم اللوردات الذين يدينون بالولاء المباشر للتاج . وكان أبرز رجال الدين يحضرون بفضل حيازتهم للأراضي . أما المجتمعات الأحيائية التي تمتلك الأراضي في المملكة ، مثل البنادقة وأبناء جنوا ، فكانوا يرسلون ممثلين عنهم . ومن الجائز دعوة كبار الزائرين للحضور ، رغم انهم لا يمثلون جزءاً من المحكمة ولا يحق لهم التصويت<sup>(٢٣)</sup> .

والمحكمة العليا هي أساساً محكمة قانونية ، ومن ثم كان لها وخليفان رئيسيان . الأولى أن توضح الجانب القانوني المتصل بنقطة معينة . ومعنى ذلك أنها كانت تصدر تشريعات ؛ إذ كانت كل قاعدة *assise* من الناحية النظرية مجرد بيان للقانون ، لكنها كانت في الواقع تحديدًا لقانون جديد كذلك . وثانياً ، كانت تحاكم المذنبين من اعضائهم وتنظر في القضايا التي قد يرفعها بعضهم ضد بعض . وكانت المحكمة عن طريق الأنداد ملحقاً أساسياً في التقاليد الفرثية ؛ وكان مركز الملك هو الأول بين الأنداد *primus inter pares* من كبار مستأجرى الأرض، رئيسهم وليس سيدهم . والنظرية التي تؤسس ذلك الوضع هي أن المملكة لم يقهرها ملك ، وإنما مجموعة من الأنداد الذين انتخبوا ملكهم بعد ذلك . وهي النظرية التي تبرر للمحكمة أن تنتخب ملوكاً على التعاقب ، وفي الحالة التي يكون الملك فيها دون سن الرشد أو في حالة وقوعه في الأسر ، تنتخب المحكمة وصياً أو مشرفاً ملكياً *bailli* كما كانت المحكمة العليا تستشار في أهم المسائل السياسية ، وكان ذلك تطوراً محتملاً ، إذ لا يستطيع الملك بدون تعاون أتباعه تنفيذ سياسته إلا نادراً . وفي عام ١١٦٦م توسعت المحكمة العليا لتشمل أتباع الأتباع *arrière-vassals* ، كجزء من مخطط أساليب الأول كي يجد مساندة للتاج ضد أتباعه الرئيسيين . وفي عام ١١٦٢م أجازت المحكمة على إصدار

قاعدة assie تسمح لأنواع الأتباع بالاستئناف ضد أسياهم أمام المحكمة العليا . وفي حالة رفض السيد الاستجابة للاستدعاء ، يستطيع كبار مستأجره أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف التاج . ورغم أن هذا القانون قد زود الملك بسلاح نافع ضد نبلائه ، إلا أنه على المدى البعيد زاد من سلطة المحكمة العليا لا أكثر ، بل وأمكن استخدامه ضد الملك . ويبدو أن المحكمة كانت تنظر في القضايا بعناية وبما يحلله الضمير ، ورغم ذلك كانت نتيجة المحاكمة عن طريق النزال مقبولة كدليل . ولم يكن لها مكان انعقاد محدد ، وإنما يستطيع الملك استدعائها في أي مكان يراه ملائماً . وفي عهد الملكة الأولى عادة ما كانت تعقد في القلنس أو عكسا . وبدأ النبلاء المتهلفون على حضورها ، بهملون اقضاعياتهم ويتخذون لأنفسهم أماكن للإقامة في أي من المدينتين<sup>(٢٤)</sup> . غير أن قوتهم كهيئة جماعية ضعفت بمشاجراتهم المتكررة والضغائن العائلية التي تضخمتم وتعقدت بمرور الزمن ، وكانت أسر النبلاء كلها تقريبا مرتبطة بعلاقات زواج فيما بينها .

ويعتقضي مبدأ المحاكمة عن طريق الأنداد ، كان للمستوطنين الفرنج من غير النبلاء محاكمهم البورجوازية الخاصة بهم cours des bourgeois . وكانت تلك المحاكم البورجوازية موحدة في كل مدينة كبيرة ، ويرأسها دائما فيكونت المدينة Viscount ولكل محكمة هيئة محلفين من اثني عشر محلفا يختارهم السيد من رعاياه اللاتينيين المولودين أحرارا ، وكانوا يعملون عمل القضاة ، رغم استطاعة أحد أطراف الخصومة اختيار احدهم ليكون محاميه ، وفي هذه الحالة لا يشترك هذا المحامي المحلف في إصدار الحكم . كما كان يُطلب من المحلفين أن يشهدوا على أي عمل أو وثيقة في المحكمة . وعلى خلاف الممارسة في المحكمة العليا ، كانت هناك سجلات دقيقة لكافة الإجراءات القانونية . وكانت المحاكم البورجوازية تجتمع بصفة منتظمة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع ، فيما عدا أيام الأعياد . وكانت تنظر في الدعوى المرفوعة بين أحد النبلاء وأحد البورجوازيين . وكانت المحكمة البورجوازية تقدر التحاكم بالنزال والتحاكم بالماء<sup>(٢٥)</sup> .

وبادئ الأمر كان للمجتمعات الوطنية محاكمها الخاصة بها في القضايا البسيطة برئاسة الزعيم المحلي الذي يعينه الفيكونت ، حيث تطبق قوانينها العرفية . غير أنه في

(٢٤) Ibid pp.106-13. ويذكر Usama أمثلة لحاكمات عن طريق النزال العرفي . الماء (ed. Hitti, pp.167-9)

(٢٥) La Monte, op. cit. pp. 105-8

عهد الملك امالريك الأول أنشئت محكمة الدعوى Cour de la Fonde في كل مدينة من المدن الثلاث والثلاثين التجارية الرئيسية . وكانت تنظر في الشؤون التجارية وكافة الدعاوى الأخرى ، حتى الجنائية ، التي يتنازع فيها السكان الوطنيون . وكان يرأسها مشرف ملكي Balli ، يعينه السيد المحلي ، وتتألف من ستة محلفين اثنان من الفرنج وأربعة من الوطنيين . وكان المتخاصمون الوطنيون يقسمون القسم كل على كتابه المقدس ؛ ويستطيع المسلمون أن يقسموا على القرآن ؛ وقد أعجب الزائرون المسلمون بنزاهة الإجراءات القانونية . كما كانت محكمة الدعوى تسجل المبيعات والمبايعات من كافة الممتلكات فيما عدا العقارات وكانت بمثابة مكتب لجميع ضرائب المشتريات . وفي الامكان الاستئناف لدى المحكمة البورجوازية بنفس إجراءاتها . كما أنشأ أمالريك محكمة السلسلة Cour de la Chaine في جميع المدن البحرية ، للنظر في القضايا المتعلقة بالملاحة ولكي تكون بمثابة مكان لتسجيل الرسوم الجمركية ورسوم رسو السفن . وكان محلفوها يختارون من التجار والبحارة . وبالإضافة إلى ذلك كان للمجتمعات التجارية الإيطالية والبروفنسالية محاكمها الاستشارية الخاصة بها للنظر في شؤونها الداخلية . وكان لكبار الاقطاعيين محاكمهم الخاصة بهم "محكمة البارونات" لتساول النزاعات التي تنشأ بين أتباعهم من الفرسان . وكان هناك اثنان وعشرون محكمة من تلك المحاكم وكذلك أربع محاكم لأملاك الملك . وكان لكل محكمة من تلك المحاكم الكثيرة مجالها المحدد بوضوح ؛ وحيثما تكون هناك دعوى تشتمل على خصمين من مرتبتين مختلفتين، كانت الدعوى تنظر في المحكمة الملزمة لأدناهما<sup>(٢٦)</sup>.

وبسبب مفهوم القانون في العصور الوسطى الذي لم يكن يتطلب قوانين محددة ، إلا عندما تنشأ الحاجة إلى تحديد نقطة معينة ، يبدو أن النشاط التشريعي للحكومة كان متعسفا ذا نزوات . ومن بين القوانين الواردة في القرن الثالث عشر في قواعد القدس Assise de Jérusalem ، الأرجح أن ستة قوانين يرجع تاريخها إلى عهد الدوق جودفري ، وتسعة عشر قانونا آخرين من الفترة حتى عام ١١٨٧ م ، ومنها أحد عشر قانونا يمكن تحديد تواريخها بالتقريب<sup>(٢٧)</sup>.

(٢٦) pp. 108-9/bid

(٢٧) ff. 322. Grandclaudon, op. cit. pp. 322 ff. ، سرورد قائمة بالقواعد التي يمكن إرجاعها إلى قبضة ١٠٩٩-١١٨٧ م. ويحدد ستة قواعد لعهد جودفري وإحدى عشرة قاعدة للملوك من بلدوين الأول إلى بلدوين الرابع (رغم أنه يظن أن إحدى تلك القواعد التي تقضي بمعاقبة الاقطاعيات التي لا ورثة لها لنفع قديم الملك يرجع تاريخها إلى ما بعد وقوع City في الأسر في حطين . ومع ذلك ، ربما تشير إلى أسر بلدوين الثاني). كما توجد ست قواعد يعزى

## الإدارة

كان المسؤولون الرئيسيون في الأسر الكبيرة يباشرون الإدارة بعد أن يختارهم من كبار مستأجرى الأرض في المملكة. وكان للقهرمان Seneshal الترتيب الأول في الأسبقية فهو الذي يرأس الاحتفالات ، ومن ثم يعمل الصوفجان أمام الملك في حفل التتويج ، وهو رئيس الخدمة المدنية ، والمسؤول بصورة خاصة عن الخزانة (الأمانة Secrete) وهو الذي يشغل المركز الذي تدفع فيه الأموال المستحقة للنتاج ، وتؤخذ منه الرواتب ، وهو الذي يحتفظ بسجلات لكافة التعاملات المالية التي تشترك فيها الحكومة. وكانت الأمانة Secrete عبارة عن مكتب واسع التنظيم أخذته القرنج عن العرب الذين سبق أن أخذوه بدورهم عن البيزنطيين . ويأتي بعد القهرمان الياور أو الكونستابل Constable الذي كان ذا سلطة فعلية أقوى ، إذ كان رئيس الجيش - تحت الملك - والمسؤول عن كافة جوانب تنظيمه وإدارته . وفي حفل التتويج يعمل راية الملك ويمسك بلجام حصانه، وهما مهمتان زائدتان على مسؤولياته . وكان مسؤولاً عن الإمدادات العسكرية والعدالة العسكرية . وكان المرتزقة الذين يستأجرهم الملك أو أحد النبلاء يخضعون لنطاق سلطته الخاصة ، ويستثنى من تسلمهم لرواتبهم على النحو الملائم . وفي حالة غياب الملك أو نائبه الملكي bailli عن الحملة تكون له كامل السيطرة عليها . وكان يساعده المارشال الذي كان بمثابة القائم مقامه في كل شيء . وكان حاجب الملك Chamberlain مسؤولاً عن أسرة الملك وأمواله الشخصية . وكان ينتفع بمركزه هذا، بالهدايا التي يقدّمها عليه الأتباع الآتين للإعراب عن احترامهم للملك . وكانت هناك أراض معينة مخصصة لهذا المكتب ؛ على أنه في عام ١١٧٩م باعها حاجب الملك جون (أوف بيليزم) دون أن تكون هناك إساءة ظاهرة للملك . أما مهام كبير الخدم Butler فليست معروفة ، وربما كانت واجباته تقتصر على الاحتفالات . وكان المستشار Chancellor - كشأنه في الغرب - رجل دين دائماً، رغم أنه لم يكن قسيس الملك على نحو ما اعتاد عليه الغرب . وباعتباره رئيساً للديوان الملكي كانت مهمته صياغة كافة المواثيق وتسجيلها وختمها بالخاتم الملكي . وظل الديوان الملكي مكتب سجلات . ولمّا لم تكن هناك عدالة ملكية ولا قانون عام ، فلم يُطلب منه البتة أن يصدر أوامر رسمية أو أن ينشئ محكمة خاصة به ، ويبدو أن السجلات كانت محفوظة جيداً برغم بقاء القليل منها . وكانت لغة الديوان الملكي في القرن الثاني عشر

هي اللاتينية ، وتحديد التواريخ بالسنة الميلادية والخمسة عشرية الرومانية<sup>(٢٨)</sup>، وأحيانا إضافة السنة الملكية أو عدد السنوات المنصرمة منذ الاستيلاء على القدس. وتبدأ السنة في عيد الميلاد. وكان الملوك يضعون لأنفسهم أرقاما ابتداء من بلدين الأول بغض النظر عن أسمائهم . ولم يكن لقب الملك يأخذ صيغة محددة بادئ الأمر ، لكنه أصبح في نهاية الأمر لقبا معياريا<sup>(٢٩)</sup> "ملك القدس اللاتينية المدينة المقدسة بفضل الرب" (per Dei gratiam in sancta civitate Jerusalem Latinorum Rex).

وكان الفيكونت أهم المسؤولين المحليين ، إذ كان يمثل الملك في المدن الملكية، وهو اللورد في المدن البارونية . وكان يجمع الضرائب المحلية ويرسلها إلى الخزنة بعد أن يستبقى حاجته من مصروفات الحكومة المحلية، وكان مسؤولا عن المحاكم القانونية المحلية وعن حفظ النظام عموما في مدينته . وبأني اختياره من أسرة نبيلة لكن مركزه لم يكن وراثيا . وكان الذي يليه في القيادة ما يعرف باللقب العربي المختسب Mathesep، وأحيانا رئيس ضباط النظام Master-Sergeant ، الذي كان مسؤولا أصلا عن لوائح التسويق<sup>(٣٠)</sup>.

#### الدويلات التابعة

نادى ملك القدس بالسيادة على كل الدويلات الفرنجية في الشرق ، واعتبر أن من حقه مطالبة حكامها بتسيير الجنود للانضمام إليه في حملاته . وواقع الأمر أن تلك السيادة لم تكن موجودة إلا عندما يكون الملك قريبا بما يكفي لغرضها ، بل لم تكن أنطاكية ولا طرابلس من الناحية النظرية تعتبر جزءا من المملكة . وقد تمكن الملوك الأوائل من فرض السيادة الشخصية على طرابلس . وقدم الكونت برتراند فروس الولاء لبلدوين الأول عام ١١٠٩م لما منحه من الأراضي . وسعى الكونت بونز إلى انكار تبعيته لبلدوين الثاني عام ١١٢٢م لكن محكمته العليا هي التي أبحرته على الخضوع ، وفي عام ١١٣١م رفض السماح للملك فولك المروزي في أراضيها ، لكن الملك عاقبه وأبحره على الخضوع مرة أخرى . وفي الفترة من عام ١١٦٤م إلى ١١٧١م كان الملك

(٢٨) (المترجم) الخمسة عشرية الرومانية Roman Indiction : دورة زمنية من ١٥ سنة أسسها الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ باعتبارها دورة ضريبة.

(٢٩) La Monte, *op.cit.* pp. 114-37، حيث يرد أفضل موجز لوظائف مسؤول الدولة.

(٣٠) *Ibid.* pp. 135-6, 167-8.

أماليك وصيا على طرابلس للكونت الطفل ريموند الثالث ، غير أن ذلك لكونه أقرب الأقرباء الذكور للوصي وليس كسيده الأعلى. وعندما شب ريموند الثالث عن الطوق لم يعترف قط بالسيادة للملك رغم أنه كان تابعاً للملك فيما يتصل بإمارة الجليل التي تملكها زوجته . وأثناء حملة عام ١١٨٧م التي اشترك فيها كأمير للجليل ، أعلنت كونتية طرابلس التابعة له عن حيادها . وأما علاقة القدس بكونتية الرها ، فكانت الرابطة الشخصية هي التي تربط الملكين ؛ فعندما عين بلدوين الأول بلدوين الثاني ليخلفه في الرها ، أخذ منه قسم التبعية ، وحذا بلدوين الثاني حذوه مع جوسلين (أوف كورتناي) . على أن جوسلين اعترف في أواخر أيامه بأمر انطاكية سيداً أعلى له . وكانت انطاكية في وضع مختلف ، إذ أن بوهمند لم يعترف بأي سيد أعلى له ، وهذا ما لم يفعله الوصيان تنكريد وروجر اللذان عينتهما كلاهما المحكمة العليا في الإمارة. وكان بلدوين الثاني يقوم بأعمال الوصي على الأمير الصغير بوهمند الثاني من عام ١١١٩م إلى عام ١١٢٦م ، بيد أنه يبدو أن ذلك كان بناء على دعوة من المحكمة العليا وليس بالحق القانوني . ودعى مرة أخرى عام ١١٣١م لسبب آخر زائد وهو كونه جد الأميرة كونستانس الصغيرة ، التي بدا للمحكمة أن مصالحها معرضة للخطر بسبب أمها أليس . وبعد موته ، وعندما حاولت أليس مرة أخرى الاستيلاء على السلطة ، دعت المحكمة العليا الملك فولك ليتسلم الوصاية بدلاً منه . ومرة أخرى كان الملك هو أقرب الأقرباء الذكور للأميرة باعتباره زوج خالتها . ولو كان في الشرق آنذاك أحد أفراد آل هرتفيل الذكور لكان هو المختار كوصي . وبالمثل ، عندما اختار الملك زوجاً للأميرة كان يتصرف بناء على طلب المحكمة العليا وليس كسيد أعلى . وكان بلدوين الثاني قد طلب من ملك فرنسا اختيار زوج لوريثته ملسيند دون أي اعتراض بأنه قبل السيادة الفرنسية . وعندما حان الوقت كمن تختار كونستانس زوجاً ثانياً ، اختارته بمحض اختيارها كأميرة ذات سيادة . وإذا كانت قد طلبت الإذن من الملك بلدوين الثالث ، فذلك لأن زوجها الذي اختارته كان تابعاً للملك . وفي عام ١١٦٠م دعا الأنطاكيون الملك بلدوين الثاني كي يتولى الوصاية ؛ ومرة أخرى لأن الملك كان أقرب الأقرباء الذكور لأميرهم . إن الوضع القانوني لم يتضح بجلاء قط . وربما كان أمير انطاكية يعتبر ملك القدس أعلى منه مكانة ولكن ليس سيده الأعلى<sup>(٣١)</sup>.

(٣١) La Monte, *op. cit.* pp.187-202. وانظر أيضاً Caban, *La Syrie du Nord*, pp.436. وجمع ذلك كان بوهمند الثاني تابعاً لأماليك بسبب الإقطاعية القديمة التي كان يتقاضاها في عكا.

وكانت أنطاكية هي الأخرى متميزة عن طرابلس والرها في نظام حكمها . ولا نعرف عن الرها سوى القليل ، وقد ضاعت المراتب التي ربما يكون الكونت قد أصدرها . ويفترض أن كان له بلاط من أتباعه كأي لورد إقطاعي عظيم ؛ غير أن موضع الكونتية كأول المخافر الأمامية للعالم المسيحي حال دون أي تطور دستوري . فكانت معيشة أميرها شديدة الشبه بحياة أحد الأمراء الأتراك ممن كانوا يحيطون به ، وكان المستعمرون الفرنج قليلين ، وكذلك كانت الإقطاعيات الكبيرة قليلة . وكان الكونت يعتمد بدرجة كبيرة على المسؤولين الأرمن المدربين على النمط البيزنطي ، وقد اضطرت الحروب شبه الدائمة إلى أن يحكم حكما فرديا مطلقا بصورة أكبر مما لو كان الحال عليه في أراض هادئة . ويبدو أن دستور كونتية طرابلس كان مماثلا لدستور القدس . وكان للكونت حكمته العليا التي تقيد به أحكامها . بيد أن لقبه كان وراثيا وليس اختياريا ، وكانت أملاكه الشخصية أكثر بكثير من أملاك أي من أتباعه . وباستثناء أمر أو أمرين من أمور السياسة الجسام ، لم يكن الكونت يصادف متاعب من بارونات سوى القليل ، إذ كان البارونات منحدرين من الأتباع التولوزيين لأسلافه ، فيما عدا لوردات جبيل من أبناء جنسها . وكان لأهم مسؤولي البلاط نفس القاب ووظائف مسؤولي بلاط القدس . وبالمثل كان الفيكونت يدير مدن الإمارة<sup>(٣٢)</sup>.

#### إمارة أنطاكية

كانت المؤسسات في إمارة أنطاكية مماثلة في ظاهرها مثيلاتها في مملكة القدس . فكانت هناك محكمة عليا ومحكمة بورجوازية ونفس المسؤولين الكبار . وكان لأنطاكية قوانينها الخاصة بها Assises ، غير أن مغزاهما العام كان متسقا مع مغزى قوانين القدس . ومع ذلك ، كانت هناك فروق كثيرة مستترة تحت السطح ؛ فكان لقب الأمير وراثيا ، ولم تكن المحكمة العليا تتدخل إلا لتعين وصي إذا دعت الحاجة ، وكان الأمير يسيطر منذ البداية في أهم مدن الإمارة والكثير من أراضيه ، وكان ضيفا في منح هبات الأرض فيما عدا المقاطعات الحدودية ، وإنما كانت الإقطاعيات النقدية تناسبه بصورة أفضل . ويبدو أن القضاة المعينين من قبل الأمير يقتصرون على المحكمة العليا ، وأن ممثليه الخصوصيين يسيطرون على المحاكم البورجوازية . أما إدارة المدن والأملاك الأميرية ، فقد تبنى الأمير النظام البيزنطي بما له من بيروقراطية مقتدرة ووسائل معنية في

La Monte, *op. cit.*, loc. cit.; Richard, *Le Comté de Tripoli*, pp. 30-43. (٣٢)



جمع الضرائب . وكان لكل من أنطاكية واللاذقية وجبله دوقها الذى كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن البلدية . والأمير هو الذى يعينه أو يفصله كما يحلو له ، لكنه أثناء فترة توليه لمنصبه يبدو انه كان عضواً من أعضاء المحكمة العليا . ودائماً ما كان دوق اللاذقية ودوق جبله يعينون من بين السكان الوطنيين ، أما دوق أنطاكية فكان ذا مولد فرغى نبيل ، وانما يساعده فيكونت قد يكون وطنياً . وقد عزز أمراء أنطاكية أنفسهم - كشأن أبناء عموماتهم في صقلية - إزاء طبقة النبلاء باستغلالهم للمسؤولين المولودين محلياً والذين كانوا يعتمدون كلية على ما كان الأمراء يولونهم من معروف . وقد وحدوا في أنطاكية مجتمعاً محلياً متعلماً من أصل يوناني وسيرباني وأرميني، باقياً منذ العصور البيزنطية . وكانت هناك رقابة زائدة على المحكمة العليا من خلال تعيين القضاة للبت في المسائل القانونية الخالصة كما هو الحال في المحاكم البورجوازية . وقد ورث الأمراء ما كانت تتبعه بيزنطة من نظام تقييم الضرائب وجمعها، وكان لخزائنها Secrétaire بيروقراطيتها الخاصة بها ، ولا تعتمد في إيراداتها على المحاكم المحلية كما هو الحال في القدس . وكانوا يوجهون السياسة بقليل من الاعتبار للمحكمة العليا ، ويمرمون معاهداتهم الخاصة بهم مع القوى الأجنبية . وكان تنظيم الإمارة كله مرتبطاً ببعضه البعض بصورة أوثق وأكثر مما كان عليه في الدويلات الفرنجية الأخرى . ولولا الحروب الدائمة في أنطاكية ، وضالة شأن الأمراء أو وقوعهم في الأسر واستبدال أسرة حاكمة نورماندية بأخرى فرنسية ، لتطورت حكومة أنطاكية بحيث تصبح على نفس القدر من كفاءة حكومة صقلية<sup>(٣٣)</sup>.

#### السيادة الإمبراطورية

وزادت أهمية أنطاكية الفريدة بعلاقتها الخاصة مع الإمبراطور البيزنطي . إذ كان الإمبراطور ، وفقاً للنظرية البيزنطية ، رئيساً للكونتوليت المسيحي . ورغم أنه لم يحاول قط ادعاء السيادة على عوالم الغرب ، كان يعتبر العالم المسيحي الشرقي بماله الخاص به . ذلك أن المسيحيين الأرثوذكس في ظل الخلافة الإسلامية كانوا تحت حمايته ، وكان المسلمون يعترفون بالتزاماته إزاءهم ، ولم تكن لديه أية نية في التدخل عن واجباته بسبب الغزو الفرنجي . على أنه كان هناك فرق بين أنطاكية والرها من ناحية وبين القدس وطرابلس من الناحية الأخرى . فلم يكن البلدان الأخيران يشكلان جزءاً

(٣٣) Cahen, *op. cit.* pp.435 ff. حيث يرد مقال كامل عن الدستور الأنطاكي وتطوره.

من الامبراطورية منذ القرن السابع ، على خلاف البلدان الأولين اللذين كانا مقاطعتين امبراطوريتين أثناء حياة الامبراطور الكسبيوس الأول . وعندما كان الكسبيوس يمتح زعماء الحملة الصليبية الأولى على الاعتراف بسيادته ، كان يفرق بين الأراضي الامبراطورية السابقة التي كان يتعين إعادتها إليه كأنتاكية ، وبين الفزوات الأخرى التي لم يكن يدعى سوى سيادة غير محددة عليها . وفشل الصليبيون في احترام ما أقسموا عليه ، ولم يستطع الكسبيوس إرغامهم على ذلك . بيد أن السياسة البيزنطية كانت دائما واقعية ؛ إذ أن الكسبيوس عدّل من طلباته بعد انتصاره على بوهمند بالسماح للنورماندين - في معاهدة ديفول - بحكم أنطاكية وانما كأتباع له بصورة صارمة ، وطلب ضمانات معينة مثل تنصيب بطريرك يوناني . وكانت تلك المعاهدة بمثابة حجر الأساس للمطالب البيزنطية ، لكن الفرنج تجاهلوا . ويبدو أن الرأي العام الفرنجي كان يرى أن بوهمند قد تصرف تصرفا سيئا إزاء الامبراطور ، لكن الامبراطور ضيق قضيته بعدم ظهوره شخصيا . ومع ذلك ، كانت حقوق الامبراطور تتأكد عند ظهوره شخصيا ، وتعتبر آخر ، وبالحكم من نصيحة الملك فولك عام ١١٣٧ م ، فإن مطالبته بالسيادة تصبح مقبولة كمطلب معقول من الناحية القضائية عندما يكون في وضع يمكنه من فرض مطالبته ، وإن احتار ألا يفعل ذلك ، ففي الامكان غض النظر عنها . وكانت هناك مناسبات أخرى قليلة عومل فيها الامبراطور كسيد أعلى ، مثلا عندما طلبت الأميرة كونستانس من الامبراطور مانويل اختيار زوج لها ؛ على أنها لمّا وجدت اختياره لا يسرها تجاهلته . وهكذا كانت السيادة الامبراطورية متقطعة خفيفة في ثقلها ، غير أن أمراء أنطاكية وعامليهم كانوا يشعرون بالقلق ازاعاجا ؛ وبقيت بمثابة تقييد كامن لاستقلال سيادة الأمير .

وقد اعترف كونت الرها بالسيادة الامبراطورية عام ١١٣٧ م؛ لكن الرها كانت بعيدة عن الحدود الامبراطورية ، وكانت المسألة أقل إلحاحا . ووافق الرأي العام الفرنجي على أن تبع كونتيسة الرها عام ١١٥٠ م ما تبقى من اراض في الرها للامبراطور؛ على أنه من الواضح أن ذلك قد حدث لتعذر الدفاع عن تلك الأراضي ضد المسلمي . وكان ريموند التولوزي على استعداد للاعتراف بسيادة الامبراطور ، وفي عام ١١٠٩ م قدم ابنه برتراند فروض الولاء للامبراطور الكسبيوس عن كونتيته المقبلة . وكرر ريموند الثاني هذا الولاء للامبراطور جون عام ١١٣٧ م . ورغم أن ريموند الثالث هاجم بيزنطة عام ١١٥١ م ، إلا أنه تلقى مساعدة من البيزنطيين عام ١١٦٣ م ، وربما كانت لغته من مانويل لإظهار سيادته العليا . بيد أن هذا الولاء ربما كان قاصرا على طرطوس وجيرانها

التي كانت تنتمي من الناحية التقليدية لأراضي أنطاكية كجزء من "موضوع" اللاذقية. أما العلاقات الشرعية بين بيزنطة ومملكة القدس فكانت ما تزال أقل دقة. إذ أن بلدوين الثالث قدم فروض الولاء للإمبراطور مانويل في أنطاكية عام ١١٥٨ م؛ وفي عام ١١٧١ م قام أمالريك بزيارة القسطنطينية كتابع - وإن عومل كتابع رفيع المستوى. وكان كل من بلدوين وأمالريك يعتبر الصداقة البيزنطية جانباً أساسياً في سياستهما، ومن ثم كانا على استعداد لمنح بعض التنازلات. ورغم ذلك، يبدو أن محابيهما لم ينظروا إلى هذه التبعة بأكثر من كونها تبعية نفعية مؤقتة<sup>(٣٤)</sup>.

#### التنظيم الكنسي

إذا كان هناك سيد أعلى للملك القدس فهو البابا. إذ كانت الحملة الصليبية الأولى تتوقع قيام دولة دينية ثيوقراطية في فلسطين؛ ولو عاش البطريرق أديمار (أوف لو بوى) لرعا أمكن تطوير شيء من مثل هذا التنظيم، وربما كانت تلك الفكرة هي التي جعلت جودفري يحجم عن قبول تاج ملكي. وأما البطريرق ديامبرت - خليفة أديمار - فكان يتخيل دولة يسيطر عليها بطريرق القدس. وعكس بلدوين الآلية بالتنازع والتنازل وباستغلال أعداء ديامبرت داخل الكنيسة. وكان واضحاً أن البابوية لن تقر قيام بطريرقية شديدة القوة في القدس، إذ قد تعمل على ترسيخ دعائمها هي نفسها كما كان ديامبرت يأمل، لما لها من موضع خاص وثروة آخذة في التنامي، بحيث تصبح كفوفاً شرقياً لروما، ومن ثم كان من اليسير على الملك الاستفادة من البابا ضد البطريرق. وكانت التقاليد تفرض عليه تقديم فروض الولاء للبطريرق في حفل التتويج، غير أنه سعى إلى ترسيخ لقبه من البابا. وكانت تلك التبعة للبابا أكثر قليلاً من التبعة الاسمية، ولا صرامة فيها أكثر مما كان الباباوات يدعون من تسيد على الممالك الأسبانية؛ على أنها كانت تبعية مفيدة للمملكة، إذ كان الباباوات يشعرون بأنهم مسؤولون عن مواصلة امتداد الأراضي المقدسة بالرجال والمال، وتقديم المساعدة الدبلوماسية كلما دعت الحاجة إليها. وفي الإمكان كذلك استخدام البابوية في كبح البطريرقية وممارسة بعض

(٣٤) عن علاقات أنطاكية بيزنطة أنظر Cahen, *op.cit.* pp.437-8 وعن علاقات طرابلس بيزنطة أنظر Richard, *op.cit.* pp. 26-30 وعن كامل مسألة النزاع البيزنطية المتصلة بالدول الصليبية أنظر La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States?" in *Byzantium*, vol.vii

السيطرة على النظامين العسكريين . غير انه من الناحية الأخرى قد يساعد البابا النظامين العسكريين ضد الملك ؛ وكثيرا ما تدخل البابا عندما كان الملك يحاول كبح جماح المدن التجارية الإيطالية<sup>(٣٥)</sup>.

وكانت الكنيسة في المملكة خاضعة لبطريق القدس . وعندما سببته طموحات ديامونت من اضطراب بادئ الأمر ، أصبح هو نفسه في واقع الأمر خادما للتاج . وكانت الهيئة العامة للكنيسة القبر المقدس ترشح اثنين من البطارقة يختار الملك واحدا منهما . وتحت البطريرق كان هناك أربعة من رؤساء الأساقفة لصور ، وقيسارية ، والناصرية ، ورعيوت - مواب ؛ وتسعة أساقفة ، وتسعة رؤساء أديرة رهبان يحق لهم وضع تاج الأسقف ، وخمسة نواب لرؤساء أديرة الرهبان ؛ على انه كانت هناك أديرة أخرى معينة تعتمد على البابوية مباشرة ، وتقوم بأعمال النظامين العسكريين . وكانت كنيسة فلسطين ذات ثراء فائق سواء ثراء أقطاعات الأراضي أو الإقطاعيات النقدية . وعادة ما كان أبرز رجال الكنيسة مدينيين بتقديم جنود خدمات ضباط النظام وليس جنود خدمات الفرسان ؛ فكان البطريرق والهيئة العامة للكنيسة القبر المقدس مدينيين بتقديم محسنة من ضباط النظام ، وأسقف بيت لحم مائتين ، ورئيس أساقفة صور مئة وخمسين ، وكذلك رؤساء أديرة رهبان القديسة ماري جوزافات وجبل صهيون . وكان دير راهبات بيتاني - الذي أسسته الملكة مليسند لأختها - يمتلك مدينة أرمحا كلها . وفضلا عن ذلك ، كانت لدى البطريرقية والكثير من الأديرة الأكثر شهرة أراض شاسعة وعقارات في سائر أنحاء أوروبا الغربية ، وكانت إيراداتها ترسل إلى فلسطين . وكان للكنيسة محاكمها الخاصة بها لتتعامل مع الحالات التي تتصل بالهرطقة والانضباط الديني والزواج ، بما في ذلك الطلاق والزنا ، والمواثيق الدينية ، وكانت تلك المحاكم تسير على خطى القواعد والاجراءات المعتادة في محاكم القانون الكنسي في الغرب<sup>(٣٦)</sup>.

وكانت أراضي أنطاكية وطرابلس وأرها تابعة كنسيا لبطريرق أنطاكية . وتسبب رسم حدود نطاق سلطة البطريرق في إثارة المشاكل ؛ إذ أن صور كانت داخلة من الناحية التقليدية في بطريرقية أنطاكية ، رغم أنها كانت تشكل جزءا من مملكة القدس بطريرق الغزو . وحكم باسكال الثاني بنقل صور ، بأسقياتها المستقلة في عكا وصيدا

(٣٥) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 203-16.

(٣٦) La Monte, *op. cit.* pp.215-16; Rey, *op. cit.* pp. 268-9

وبيروت ، إلى القدس ؛ وقد تم ذلك لاتساقه مع الحقائق السياسية . غير أن المحاولات التي بذلها بطارقة القدس للفوز بنطاق السلطة على الأسقفيات الطرابلسية الثلاث في طرابلس وطرموس وحيلة فشلت برغم تأييد البايوية من حين لآخر . ويبدو أن محمود التولوزي كان يمتن نفسه بكنيسة مستقلة في كونتيته المقبلة ؛ غير أن خلفاءه سلموا بالسيادة الكنسية لأنطاكية ، إذ كان الأمر يسيرا عليهم لأنهم كانوا يعينون أساقفتهم دون تدخل.

وكان بطريق أنطاكية - كشأن زميله بطريق القدس - يُنتخب عن طريق الهيئة العامة للكنيسة ، لكن تعيينه في الواقع يتم بمعرفة الحاكم العلماني الذي كان بمقدوره أن يعزله كذلك . وتعرف أن أمراء معينين قدموا فروض الولاء للبطريق أثناء تنصيبهم ، لكن الأرجح أن ذلك كان فقط في ظل الظروف الاستثنائية . وكان بطريق أنطاكية يرأس أساقفة البارة وطرسوس والمصيصة ، وكذلك الرها . أما رئاسة أسقفية تل بشير فقد أنشئت فيما بعد باللقب الرسمي "هيرابوليس (مينيج) Hierapolis (Menbij)" ، وكان عدد الأسقفيات يختلف باختلاف الظروف السياسية . فكان هناك تسعة رؤساء ونائبان لأديرة الرهبان اللاتينية . وأهم منشأتين رهبانيتين هما دير القديس بول ودير القديس جورج ، حيث يبدو أن الرهبان البندكتيين قد حلوا محل الرهبان اليونانيين ، ودير القديس سيميون حيث كانت الطقوس اللاتينية والطقوس اليونانية موجودة جنباً إلى جنب . ولم تكن كنيسة أنطاكية على نفس المستوى المرتفع من الثراء الذي كانت عليه كنيسة القدس ؛ إذ كان هناك في واقع الأمر الكثير من المنشآت الفلسطينية تمتلك ضياعاً في الإمارة<sup>(٣٧)</sup>.

#### النظامان العسكريان

قبل نهاية القرن الثاني عشر بوقت طويل كان النظامان العسكريان قد بسطاً كامل سلطانهما على الكنائس العادية في الدويلات الفرنجية . فمنذ إنشائهما كانت أعداد أفرادها وثروتهما آخذة في الارتفاع بصورة مطردة ، وبحلول عام ١١٨٧م كان النظامان العسكريان يمثلان أهم ملاك الأراضي في الشرق الفرنسي ؛ إذ أخذت ضياعهما تتزايد باستمرار عن طريق الهبات والشراء على السواء . وانضم الكثير من

(٣٧) Cahen, *op. cit.* pp.501-10

النبلاء الفلسطينيين إلى صغرفهما ، وكان الجنود يقدرون اليهما من الغرب بصورة منتظمة ؛ إذ كانوا يشعرون حاجة عاطفية فيهم كانت سائدة آنذاك ، عندما كان الكثير من الرجال تواقين إلى أن يسلوكوا حياة دينية وتعمل في أنفسهم الرغبة الدفينة في عمل ايجابي والقتال من أجل العقيدة . كما كانوا يشعرون حاجة سياسة يملئها النقص المتواتر في جنود الشرق الغربي ؛ إذ كان التنظيم الإقطاعي يعتمد بصورة مقرطة على ما يحدث في الحياة العائلية للنبلاء من حوادث لتقديم البديل عن الرجال من ضحايا المعارك أو المرضى ، فكان الصليبيون الزائرون يشاركون في الحرب مشاركة ايجابية طوال فصل أو فصلين ثم يعودون إلى أوطانهم ، بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، إذ كانوا يقدمان امدادا لا ينقطع من الجنود المحترفين المكرسين الذين لا يكلفون الملك شيئا إلى جانب ما كانوا عليه من ثراء بحيث بنوا الحصون وحافظوا عليها على نطاق لم يكن يقدر على الإضطلاع به من اللوردات العلمانيون سوى القلة ، ولولا مساعدتهم لهلكت الدويلات الفرنجية في مهدها . وليس لدينا معلومات عن أعداد أفرادهما سوى ما تدل عليه الأحداث . ففي عام ١١٥٨م شارك فرسان المستشفى في الحملة المصرية بإرسال خمسمائة فارس وعدد متناسب من الجنود الآخرين ؛ وكان عدد فرسان المعبد الذين اشتركوا في حملة عام ١١٨٧م ثلاثمائة تقريبا . وفي كل من الحالتين ربما كانت تلك الأعداد تمثل الفرسان القادمين من مملكة القدس فقط ، بخلاف عدد معين كان يستبقى كحمايات . وربما كان نظام فرسان المستشفى هو النظام الأكبر والأكثر ثراء من نظيره ، غير أن فرسان المستشفى دأبوا على الانشغال بالأعمال الخيرية . وكانت دور الضيافة التابعة لهما في القدس تسع لآلاف حاج ، وكانت لديهم مستشفى للمرضى المعدمين الباقين على قيد الحياة بعد الغزوات العربية المضادة . وكانوا يوزعون الصدقات يوميا على الفقراء بسخاء أدهش الزائرين . وكانوا - مع فرسان المعبد - يحرصون طرق الحجاج ويهتمون بصفة خاصة بآماكن الاستحمام المقدسة في الأردن . كما كان فرسان المعبد يوزعون الصدقات ، وإنما يتبذروا أقل من فرسان المستشفى . وكان حل الاهتمام منصبا على الأمور العسكرية ، وقد اشتهروا بالشجاعة في المعجم وكانوا يعتبرون أنفسهم متخصصين في الحرب المحرورية ؛ كما اتقنوا الأعمال المصرفية وسرعان ما جعلوا من انفسهم وكلاء ماليين للصليبيين الزائرين ؛ وفيما بعد ساءت سمعتهم لما كان يشوب طقوسهم الخفية الغربية من ريبة وتشكك ؛ لكنهم حتى ذلك الوقت كانوا محل تقدير عام لشجاعتهم وفروسيته<sup>(٣٨)</sup>.

(٣٨) للإطلاع على المراجع المتصلة بالنظامين العسكريين انظر أعلاه ص ١٥٨ ، للمحاضرة رقم ١

والى جانب مزايها النظامين العسكريين كانت هناك المساوئ كذلك ، إذ لم يكن للملك سيطرة على النظامين وإنما كان السيد الأعلى الوحيد لهما هو البابا ؛ وكانت الأراضي التي توجب لهما تتحول إلى وقف عليهما ، وليس هناك خدمات يلتزمان بها ، ورفضاً أن يدفع كبار مستأجرى أراضيها العثور المستحقة للكنيسة . وكان فرسانهما يحاربون مع جيوش الملك كحلفاء متطوعين لا أكثر . وربما وضع الملك أو اللورد من حين لآخر حصناً تحت السيطرة المؤقتة لفرسانهما ، وكان يطلب منهما أحياناً العمل كأوصياء على بعض القصر . وفي تلك الحالات كانوا حذيرين بالقيام بالخدمة على صورة ملائمة . وكان السيدان العظميان ، أو نائباهما ، يحضران المحكمة العليا للمملكة؛ وكان ممثلوهما يحضرون في المحاكم العليا التابعة لأمر انطاكية وكونت طرابلس . غير أن ما كانوا يشيرون به من نصيح يخلو من أية مسؤولية ، فإذا لم تلق السياسة الرسمية هوى في أنفسهم يرفضون التعاون ، كما حدث عندما قاطع فرسان المعبد الحملة على مصر عام ١١٥٨م . وكان تواتر المنافسة بين النظامين بمثابة مصدر خطر دائم ، فنادراً ما أمكن إقناعهما بالاشتراك معا في حملة . وكان كل نظام يسير طبقاً لما اختطه لنفسه من خطط دبلوماسية بغض النظر عن السياسة الرسمية للمملكة . فنجد كلا النظامين يرم المعاهدات مع حكام المسلمين ، وليست قصة المفاوضات مع الحشاشين عام ١١٧٢م سوى دليل على استعداد فرسان المعبد للتضحية بترتيب تتضح الحاجة الماسة إليه ، وذلك من أجل مصالحهم المالية ، وازدراوتهم الصريح لسلطة البلاط الملكي . وكان فرسان المستشفى طوال تاريخهم أكثر اعتدالاً ولا يتصفون بالأنانية ، على أن النظام ، حتى مع هذا ، كانت له الأسبقية على المملكة .

وهناك توازن مماثل بين المزايا والمساوئ يظهر في علاقات الدويلات الفرنجية بالمدن التجارية الإيطالية والمدن التجارية في البروفانس الفرنسي<sup>(٣٩)</sup> . لقد كان المستعمرون الفرنج جنوداً لا بحارة . وفيما بعد طورت كل من طرابلس وانطاكية أسطولا صغيراً ، وبنى النظامان العسكريان أساطيل أصغر ؛ لكن المملكة نفسها ، بموانئها القليلة الجيدة ، والنقص العام في الأخشاب ، لم يكن لديها قط مؤسسة بحرية ملائمة . فكان من الضروري لأية حملة تشتمل على قوة بحرية لغزو المدن الساحلية ، أو الحملات التي شُردت على مصر ، الاستعانة ببعض القوى البحرية ، وكانت القوتان البحريتان العظيمتان في الشرق هما بيزنطة ومصر . على أن مصر كانت دائماً عدواً كامناً

(٣٩) أنظر أدناه الفصلين الثاني والثالث ، في أماكن متفرقة.

حقيقيا ، وبيزنطة محل ريبة دائما . وكان ممكنا أن ترجى الفائدة من الأسطول المصغى لولا أن السياسة المصغى لم تكن حديرة بالثقة . ومن ثم بات الإيطاليون والفرنسيون الشماليون هم الحلفاء الأفضل ؛ وزاد من أهمية مساعدتهم الحاجة إلى إبقاء الطرق البحرية الموصلة بالغرب مفتوحة ولتقلل الحجاج والجنود والمستعمرين إلى الشرق الغربى . بيد أنه كان يتعين دفع مقابل للمدن التجارية التى طلبت تسهيلات وحقوق تجارية ، وأن يكون لها أحيائها الخاصة بها فى المدن الأكبر ، والإعفاء التام أو الجزئى من الرسوم الجمركية ؛ وكان من الضرورى منح مستعمراتهم امتيازات زائدة فيما يتصل بالأرض . ولم تسبب تلك الامتيازات فى جعلها استياء لدى السلطات الغربىة . فأيمة عسارة فى الإيرادات سوف يوازنها ما يجفونه من انتعاش التجارة ؛ ولم تر المحاكم الملكية ما يضطرها إلى إنفاذ قوانين جنوا أو البندقية ، خاصة وإن القضايا التى تشتمل على مواطن من مواطنى المملكة ، أو على جريمة جسيمة مثل القتل ، كانت تترك لهم . وكانت هناك منازعات من حين لآخر ؛ إذ كان البنادقة فى حالة عداء دائم مع رئيس أساقفة صور ، ودام شجار طويل بين أبناء جنوا والمملك أمالريك الأول . وفى كل من الحالتين أبدت البابوية الإيطاليين ، وربما كان الحق القانونى فى جانبهم . على أن المدن التجارية لم تخرج من أجل رفاهية العالم المسيحى ، وإنما وراء مجرد الكسب التجارى . وعادة ما كانت المصلحتان تحدتان فى آن واحد ؛ لكنهما إذا ما اصطدمتا كانت المصلحة التجارية العاجلة هى السائدة . ومن أجل ذلك ، لم يكن الإيطاليون والفرنسيون الشماليون على علاقة صداقة منتظمة مع المملك . وفضلا عن ذلك ، كانت غير النظاميين من بعضهما البعض زادت شحوب طفيف إذا قورنت بما كانت عليه الغيرة المتفشية فيما بين المدن التجارية ؛ فكانت البندقية على استعداد لمساعدة المسلمين على نحو أسرع بكثير من مساعدتها لجنوا أو بيزا أو مرسيليا ، وصدق نفس الشئ على ما كانت تراه غريمتها المدن الأخرى . وهكذا، وبينما كانت المساعدة التى تقدمها تلك المدن جميعا أمرا أساسيا للحفاظ على بقاء الشرق الغربى ، فإن ما كان سائدا بين مستعمراتها من مكائد وشغب ، واستعدادهم الطوعى للإقدام على خيانة القضية المشتركة من أجل منفعة لحظية ، قضى على الكثير من القيمة المرتجاة منها<sup>(٤٠)</sup>.

وبدوا فى نظلر الحجاج خاصة فى صورة جنشعة مخزية ، وبصورة غير مسيحية؛ ذلك أن الغزو كان حافزا كبيرا لرواج حركة مرور الحجاج ، بحيث كان النزل الضخم

(٤٠) Heyd, *op. cit.* pp.129-63، حيث يرد مرجع كامل



الذي يمتلكه فرسان المستشفى كامل العدد دائما . وبرغم الهدف الأصلي للحملة الصليبية ، ظل الطريق العابر للأناضول على حاله غير الآمنة ؛ إذ لا يجرؤ على تحدى أخطاره سوى جماعة مسلحة تسليحا جيدا ، ومن ثم كان الحاج العادى يفضل السفر بحرا بعد أن يجد له مضجعا فى سفينة إيطالية حيث كانت أجرة السفر باهظة التكلفة . وربما يجتمع عدد من الحاج لاشتجار سفينة بكاملها ، وحتى مع هذا كان اشتجار القبطان والبحارة باهظ التكلفة كذلك . وكان الأرحص للحاج من شمال فرنسا أو إنجلترا أن يرحل مع إحدى القوافل الصغيرة التى كانت تبحر سنويا من أحد موانئ القنال الإنجليزي إلى الشرق . غير أنها كانت رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ؛ ففيها التعرض لمواصف الأطلنطي ؛ فضلا عن سفن القرصنة الإسلامية المنتظرة فى مضيق جبل طارق وبطول الساحل الأفريقى ، ولم تكن هناك موانئ من أويورتو أو لشبونة وحتى صقلية يمكن الحصول منها على الماء والمؤن بسلام ، وكان من العسير أن تحمل السفينة من الإمدادات ما يكفى للرجال والخيول الذين تقلهم . فكان الأيسر بكثير السفر برا إلى بروفانس أو إيطاليا لركوب سفن اعتادت على الرحلة اعتيادا حسنا . وبالنسبة لمن ينجح بمفرده كان العثور على مضجع فى سفينة أيسر وأرخص فى موانئ ملك صقلية ، لكن الجماعات الكبيرة كانت تعتمد على أساطيل المدن التجارية الكبيرة<sup>(١١)</sup>.

#### الملابس

وعندما كان المسافر يهبط فى عكا أو صور أو السويدية ، يجد نفسه فى الحال فى جو غريب . إذ كانت البنية الفوقية للشرق الغربى تخفى تحتها أرضا شرقية . وكانت حياتها الفاضحة تصدم الغربيين وتترك فيهم أثرا ، خاصة وإن الحياة فى أوروبا الغربية كانت ما تزال بسيطة متقشفة ؛ إذ كانت الملابس مصنوعة من الصوف وتدار ما تغسل ، إذ كانت تسهيلات الغسيل قليلة ، فيما عدا بعض المدن القديمة التى تعلقت بها تقاليد الحمامات الرومانية . وحتى فى أعظم القلاع ، كان الأثاث خشنا ولا يرقى منه أكثر من تأدية الغرض ، وكادت السجاجيد أن تكون مجهولة . وكان الطعام رديئا

(١١) أنظر Cahen, "Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant", in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, p. 333

يفتقر إلى النوعية ولا سيما خلال أشهر الشتاء الطويلة . وفي كل مكان تقل الراحة وتتضاءل الخصوصية . أما الشرق الغربي فكان على نقىض منهل . وربما لم يكن هناك الكثير من البيوت التي تصل ضخامتها وروعها ما كان عليه القصر الذي بناه آل إبلين في أوائل القرن الثاني في بيروت ، بأرضياته الفسيفسائية ، وحواطة الرخامية ، وسُفُفهِ المظلية ، ونوافذه الكبيرة السخية ، التي يطل بعضها على البحر غربا ، وبعضها الآخر على الجبال شرقا حيث الحدائق والبساتين . وبقينا كان القصر الملكي في القلنس - المنشأ في جزء من المسجد الأقصى - أقل تواضعا ، مع أن قصر عكا كان صرحا شاعرا . على أن جميع النبلاء والبيروقراطيين الأثرياء ملأوا منازلهم في المدن بمخاضر مماثلة؛ فكانت تسمى البُسُط ، والسُتُر الدمقسية ، والموائد وصناديق التفاليس ذات النقوشات الرائعة ، وأكسية الفُرش والموائد الخالية من العيوب ، ومعدلات الطعام الذهبية والفضية ، وسكاكين الموائد ، والخزف المزخرف الرائق ، وحتى صحائف الخزف الصيني المجلوبة من الشرق الأقصى . وكانت المياه في أنطاكية تنقل من عيون دافني إلى كافة المنازل الكبيرة خلال قنوات المياه المبنية والأنابيب . والكثير من المنازل الواقعة بطول الساحل اللباني كانت لها إمداداتها الخاصة بها . أما في فلسطين ، حيث تقل وفرة المياه ، فكان للمدن صهاريج تغزين منتظمة تنظيما جيدا ؛ وفي القلنس كانت شبكة المجاري التي شيدها الرومان ما تزال في حالة مثالية . وكانت أماكن القلاع الحدودية الكبيرة محدة لتكون مريضة كمنازل المدن تقريبا ، على الرغم من تجهيز الحياة وشراستها خارج الأسوار . فكانت فيها حمامات ، ومخادع مزدانة لسيدات الأسرة وقاعات استقبال رائعة . وأما الحصون التابعة للنظامين العسكريين فكانت أبسط بقدر طفيف ، أما في المقار الأسرية العظيمة ، مثل قلعة الكرك في مواب أو غيرها في طبرية ، كان أمر القلعة يعيش عيشة تريد في روعتها عن حياة أي ملك في أوروبا الغربية<sup>(٤٢)</sup>.

وسرعان ما اصطفت ملابس المستوطنين بالصبغة الشرقية الفاحشة بنفس القدر الذي اصطفت به مقروشاتهم . فعندما يخلع الفارس أرديته الخيرية ، يرتدي مُرْنا حريريا يطل رأسه منه ، وعادة ما يحيط رأسه بتوربان (عمامة ضيقة لا حروف لها) ؛ وكان عند خروجه في حملة يرتدي معطفا كُتانيا فوق دروعه ، لحماية الدروع المعدنية من الشمس، وكوفية على النمط العربي فوق خوذته . وانفذت ملابس السيدات الزى الشرقي التقليدي الذي يتألف من ثوب داخلي طويل (روب) ، وسُرة (بلوزة) قصيرة

(٤٢) Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.129-32. Rey, *op.cit* pp.3-10. وسورد كاهن. مغالا عن أنطاكية وأسباب الراحة فيها.

أو معطف قصير ، بتطريز كثيف بخيوط الذهب ، وربما مطرزة بالجوهرات . وكن في الشتاء يرتدين الفراء كما كان يفعل أزواجهن . وكن خارج المنزل يضعن حمارا كالنساء المسلمات ، وذلك لحماية بشرتهن المظلمة بوافر الطلاء أكثر من كونه حمارا للعفة ، وكن يمشين مشية رقيقة متكلفة . بيد أنه على الرغم من جو الرقة والزخى هذا كله ، كان فيهن شجاعة كأزواجهن وإخوتهن ، فكانت الكثرات من نبيلات النساء يتسلعن قيادة الدفاع عن حصونهن في غيبة يعولتهن . وقد حذت زوجات التجار حذو سيدات الطبقة الأرستقراطية وكثيرا ما يرتفن في سخاء زيتتهن . وكانت المحظيات الناجحات - وهي طبقة لم تكن معروفة حتى آنذاك في المجتمع الغربي - والتعت بنفس القدر . ويقول المؤرخ وليم الصوري عن السيدة باشيا دى ريفيرى ، وهي زوجة صاحب حانوت من نابلس أوقعت البطريرك هيراكليوس في حبائل فتنتها، إنك قد تظن أنها كوثيسة أو بارونة مما ترتديه من حرير وجواهر<sup>(٤٣)</sup>.

ولأن بدت تلك الفخامة غريبة للحاج الغربي، فقد كانت شيئا طبيعيا للزائر القادم من الشرق الإسلامى أو من بيزنطة. ولم يكن للمستعمرين الفرنج متدوحة من محاولة التكيف مع بيئتهم الجديدة، ولا مهرب من الاتصال باتساعهم وحيوانهم. وكان المناخ من الأمور التي تعين وضعها في الاعتبار؛ فشتاء فلسطين وسوريا يكاد يطابق شتاء أوروبا الغربية في كآبته وبرودته ، لكن فترة دوائه أقل. وأما الصيف الطويل القاتل فسرعان ما تعلم منه المستعمرون أن لا غنى لهم عن ارتداء ملابس مختلفة، وتناول أطعمة مختلفة، وتعديل أوقاتهم اليومية. ولا محل لعادات الشمال القفلة، وبدلا منها كان عليهم أن يتعلموا الأساليب الوطنية. وعليهم توظيف الخدم الوطنيين ، وكانت المربيات الوطنيات يقمن على رعاية أطفالهم، وسائسوا الحياض يعتنون بحيادهم. وكانت هناك أمراض غريبة في الأغصاء، ومن ثم كان أطباؤهم فاقدي الخبرة حياضاً، وسرعان ما اضطروا إلى الاعتماد على الطب الوطنى<sup>(٤٤)</sup>. وكان حتما عليهم أن يتفهموا الوطنيين

(٤٣) تظهر صورة تذكير على العملات النقدية وهو يرتدى ثوبان أو عمامة السركى الضيقة بلا حافة (انظر إعلال ص ٦٤) وفي عام ١١٩٢م شكر هنرى (أوف شامباني) صلاح الدين على هدية الثوبان التي أهداها له معلنا أن تلك الأشياء تلقى استحسان زملائه وأنه سوف يرتديها دائما (انظر Rey, op. cit. pp.11) ويصف ابن جبر، Ibn Jubayr (ed. Wright, 309) ملابس زفاف مسيحي في عكا عام ١١٨٤. (وعن باشيا أنظر أدناه ص ٤٨٢).

(٤٤) الطبيب الطرابلسي الذي يفرض أنه من السم ليلدوين الثالث كان وطنيا (انظر أدناه ص ٤١٤). وعندما كان أميرك على غرلس الموت أبت الأطباء الوطنيين أنهم أكثر حكمة من أطباء الفرنج (انظر أدناه ص ٤٥٥). وعين أميرك رجلا يدعى سليمان بن داود وإنه الأكبر في منصب طبيى البلاط ، بينما كان الابن الثاني لسليمان يشغل منصب معلم

وان يمتزجوا بهم؛ ومما ساعد على ذلك غيبة الأرستقراطية الوطنية، التي كانت خليفة بتحدى حكمهم، بعد أن هرب المسلمون من مملكة القدس وكونتية طرابلس. أما في الأماكن الأبعد إلى الشمال، فكانت الطبقتان الأرستقراطيتان اليونانية والأرمينية تشعران بالغيرة منهم، وتدخلت السياسة في تفاهمهما المتبادل، رغم أن الأرمن في نهاية الأمر تقابلوا معهم في منتصف الطريق وتبنوا الكثير من العادات الفرنجية<sup>(٤٥)</sup>.

#### الصدقة مع المسلمين

لم يكن من الممكن قط أن يجل السلام الدائم بين الفرنج وحيرانهم المسلمين، وإنما كانت هناك اتصالات آخذة في التزايد. إذ كانت إمبرادات الدويلات الفرنجية تتألف بدرجة كبيرة من الضرائب المفروضة على التجارة بين داخل البلاد المسلمة وبين الساحل؛ فكان يتعين السماح لتجار المسلمين بحرية الحضور إلى الموانئ البحرية ومعاملتهم معاملة معقولة. ومن العلاقات التجارية نبعت الصداقة. ذلك أن نظام فرسان المعبد - بأنشطته المصرفية الضخمة - كان على استعداد لتوسيع عملياته بحيث يصبح دائما للعملاء الكفرة، والاحتفاظ بمسؤولين متخصصين في شؤون المسلمين. وفي ذات الوقت، كان الساسة الأعقل بين الفرنج يرون أن لا دوام لمملكتهم إلا إذا بقي العالم الإسلامي مشتتا، ومن أجل ذلك باتت البعثات الدبلوماسية في حيثة وذعوب. وكان لوردات الفرنج والمسلمين على السواء يُستقبلون بآيات التشريف في كل من بلاط غريم العقيدة. وكثيرا ما كان الأسرى أو الرهائن بمضون سنوات في حصون الأعداء أو قصورهم. ورغم المعاناة التي تجسمها مسلمون قليلون في تعلم اللغة الفرنسية، كان الكثير من الفرنج - نبلاء وتجار - يتكلمون العربية، بل إن القليل منهم اهتم بالأدب العربي مثل رينالد أمير صيدا. وفي وقت الحرب كان كل جانب يعرب عن التقدير لما يلمسه من لفئات الكياسة والفروسية. وفي أوقات السلم كان اللوردات من كل جانب يشاركون لوردات الجانب الآخر في رحلات الصيد<sup>(٤٦)</sup>.

ركوب الخيل في البلاط. أنظر، Cahen, 'Indigènes et Croisés', Syria, 1934 ولم يدرك الطب الفرنجي أي انطباع لدى أسامة وأنظر أدناه ص ٣٦٩.

(٤٥) أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.561-8.

(٤٦) (عن رينالد أمير صيدا أنظر أدناه ص ٥٢٦). عندما كان المسلمون يتفاوضون مع الحكام المسيحيين، كان المسلمون يهضرون على أن يدفع فرسان المعبد ضمانات مالية - مثلا المؤرخ أبو شامة 32. Abu Shama, p. وكان رينولد الثالث كونت طرابلس يتحدث اللغة

كما غاب كامل التعصب الديني . إذ كانت للعقيدتين العظيمتين خلفية مشتركة ؛ فحيثما تُكتشف في الحليل آثار يعتقد أنها لإبراهيم واسحق ويعقوب كان المؤرخون المسلمون على نفس القدر من الاهتمام الذي كان عليه المسيحيون<sup>(٤٧)</sup>. وحتى في أوقات الحرب كان حجاج الفرنج يستطيعون التوغل حتى مزار سيدة سارديناي Our Lady of Sardenay على التلال خلف دمشق<sup>(٤٨)</sup>، وكان البدو الذين يهرسون دير سانت كاترين العظيم في صحراء سيناء يهرسون دائما زائريه<sup>(٤٩)</sup>. وتنسب المعاملة الوحشية التي كان رينالد (أوف شاتيلون) يعامل بها الحجاج المسلمين في أن شعر رفاقه في العقيدة بصدمة كادت أن تكون مساوية لما شعر به صلاح الدين من حقن . وكان المؤرخ وليم الصوري William of Tyre على استعداد للاعتراف لنور الدين عن تقديره لورعه رغم اختلافه معه في العقيدة . وكثيرا ما كان الكتاب المسلمون يعربون عن إعجابهم بالفروسية الفرنجية<sup>(٥٠)</sup>.

ويرد أروع وصف للحو السائد آنذاك في مذكرات أسامة بن منقذ في شيزر . وكان بنو منقذ يؤلفون أسرة حاكمة ضئيلة الشأن تعيش في خوف دائم من أن يستولي عليها مسلمون آخرون يفوقونها قوة ، ولذا كانوا على استعداد للتفاهم مع الفرنج ، وأمضى أسامة نفسه سنوات كثيرة في كل من بلاط دمشق والقاهرة عندما كان كلاهما على علاقة دبلوماسية وثيقة بالقدس . وكثيرا ما كان أسامة يقوم بزيارات للأراضي الفرنجية ، كمبعوث وكسائح وكرهاضي ؛ ورغم أنه في كتابته يحدد لكل تلك الأنشطة سوء المصير في الآخرة ، كان له أصدقاء كثيرون من الفرنج يستمتع بمناقشاتهم . وقد صدمته فحاجة ما كانوا عليه من الطب ، رغم أنه تعلم منهم علاجا ناجعا لنوع من أنواع مرض الدرن الورمي ، وصيغ لمدى الحرية المسموح بها لنسائهم،

العربية ، ويكاد يكون من اليقين أن المؤرخ وليم الصوري William of Tyre كان بقرا العربية ، أو كان يستخدم أسماء يعرفون اللغات الشرقية . (انظر أدناه ص ٥٣٤).

(٤٧) . يشو ابن قلانيسي إل الاكتشاف. 161. Ibn al-Qalanisi, p. 161. 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 477 ff.

(٤٨) عن سيدة سارديناي Our Lady of Sardenay ، انظر . Rey, op. cit. pp. 291-6.

(٤٩) عن دير سانت كاترين وحججه انظر . Rey, op. cit. pp. 287-91.

(٥٠) مثلا ، يطلق William of Tyre (xx, 31, p. 1000) على نور الدين (الأمير العادل) الفطين الحنيف، والأصل الثاني للتقليد الدينية princeps justus, vafer et providus, et secundum gentis suae traditiones religiosus).

وشعر بالخرع عندما عرض عليه صديق فرنجي إرسال ابنه كي يتعلم في أوروبا الغربية . وكان براهم برابرة بعض الشيء ، ويضحك منهم مع أصداقائه للمسيحيين الوطنيين ، غير انه كان يستطيع أن يتوصل إلى تفاهم معهم . وكان الوافدون الجدد من الغرب بمثابة العقبة الواحدة التي تعوق الصداقة ، ففي إحدى المرات كان جالسا مع فرسان المعبد في القدس وقام يوصل في ركن من المسجد الأقصى بعد أن استأذنهم ، فأهانته أحد الفرسان إهانة فظة ، وسارع فارس آخر من فرسان المعبد يشرح له أن ذلك الرجل اللفظ قد جاء لتوه من أوروبا وهو لا يعرف بعد أي سلوك حسن<sup>(٥١)</sup>.

#### الكنيسة الأرثوذكسية

دأب المهاجرون في الواقع، بطبيعتهم الفجة، على تدمير سياسة الشرق الفرنجي، وهم الذين جاءوا لحرب من أجل الصليب وقد عقدوا العزم على عدم السماح بأي تأخير في تحقيق غايتهم. وكانوا أقوياء في الكنيسة بوجه خاص . ولم يكن أي من بطارقة القدس اللاتين في القرن الثاني عشر قد ولد في فلسطين ، وليس هناك من عظام رجال الكنيسة اللاتينية سوى وليم رئيس أساقفة صور الذي أنكر عليه منصب البطريرقية . ونادرا ما كان نفوذ الكنيسة مؤيدا للتفاهم مع الكفرة ؛ بل كان نفوذها فاجعا بشكل أكبر في علاقاتها حتى مع المسيحيين الوطنيين . وكان للمسيحيين الوطنيين نفوذ عظيم لدى عوالم المسلمين ، وكان الكثير من أشهر مشاهير الكتاب والفلاسفة العرب ، وجميع الأطباء تقريبا مسيحيين . وكانوا خليقين بتشكيل جسر بين العالمين الشرقي والغربي.

وقد قبلت طوائف الأرثوذكس في فلسطين المجرمية اللاتينية نظرا لوجود رجال الدين الأرثوذكس الأعلى جميعا في المنفى وقت الغزو . وحاول البطريرق دهايمرت أن يهرم قساوستهم من مراكزهم في كنيسة القبر المقدس ، غير أنه حدثت أحداث في قداس النار المقدسة عام ١١٠١م ، وأبقى نفوذ الملك على رجال الدين في الكنيسة وسمح بإقامة الشعائر الأرثوذكسية فيها . وكان التاج صديقا دائما للأرثوذكس ، فكانت مورفيا - مليكة بلديون الثاني وأم مليسيند - أميرة أرثوذكسية ، وكذلك كانت الملكتان زوجتا ولديّ مليسيند أرثوذكسيين . وكان بلديون الأول يظهر آيات

التشريف في تعامله مع رئيس دير القديس ساباس ، وهي الهرمية الأرثوذكسية الراقدة التي بقيت في فلسطين ؛ ووهبت للملكة مليسند الأراضي للدير الذي ربما كان مدينا للتاج ببعض الخدمات . وتمكن الامبراطور مانويل من الحفاظ على مكانته الحامية للمصالح الأرثوذكسية ، ويتضح ذلك مما قام به من اصلاحات كان مسؤولا عنها في الكنيستين الكبيرتين : كنيسة القبر المقدس وكنيسة الميلاد . وفي ذات الوقت تقريبا ، ورعا بمساعدة الامبراطور ، أعيد بناء وزخرفة دير القديس إيونيوس في برية يهودا . على أن المودة لم تتزايد بين رجال الدين اللاتين واليونانيين ؛ ففي عام ١١٠٤م استقبل الحاج الروسي دانيال بحفاوة في المنشآت اللاتينية ، لكن الحاج اليوناني فوكاس الذي حج عام ١١٨٤م ، ورغم زيارته لمنشآت لاتينية ، لم يستلطف اللاتينيين ، باستثناء راهب اسباني عاش في وقت ما في الأناضول ، ويقص مرحا معجزة أربكت الكاهن اللاتيني الذي يطلق عليه أسقف اللد "المتحسم" . والأرجح أن محاولة الهرمية اللاتينية لفرض دفع العشور على الأرثوذكس، إلى جانب ازدهارها للأرثوذكس حتى أنه كان نادرا ما تسمح لهم الكنائس الكبيرة باقامة شعائر عقيدتهم ، هو الذي قلل استحباب الأرثوذكس للحكم الغربي ، وجعلهم على استعداد لقبول استرداد صلاح الدين للميلاد - بل وللرحيب به - بعد أن انتهت حماية مانويل لهم . وفي انطاكية ، أسفر وجود مجتمع يوناني قوي ، وما حدث من تطورات سياسية عن ظهور العداء علانية بين اليونانيين واللاتين ، مما أضعف الإمارة على نحو جسيم<sup>(٥٢)</sup>.

(٥٢) انظر Daniel the Higuemene في اساكين متفرقة ، وانظر ايضا John Phocas, *A Brief Description*, في اساكين متفرقة . وانظر ايضا Rey, op.cit. pp.75-93. وCahen, loc.cit. عندما كانت الحامية الروسية إيونيوسين (Euphrosyne of Polotsk) تجتو في فلسطين التمت من رئيس دير القديس ساباس أن يحسد لها مقبرة ملائمة باعتباره رئيس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . انظر de Khitrowo, 'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne', في *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 325. وكتاب الأرثوذكس المشاهير - مثل دوتيسوس Dositheus في القرن السادس عشر - والذين كرهوا التسليم بحقيقة أن الأرثوذكس قبلوا البطارقة اللاتين من ١٠٩٩م إلى ١١٨٧م ، بإصدار قائمة بستة بطارقة أو سبعة في الفترة بين وفاة سيميون عام ١٠٩٩م وحتى ١١٨٧م، Le Quien, *Oriens Christianus*, III, p.1243. وSoterichus (pp.498-503) وهناك من يدعي John ، بطريق القدس ، الذي أكد إدانة Soterichus عام ١١٥٧م ، وحين آخر بطريق القدس - ويدعى أنه نفس الشخص - الذي كتب بحثا ضد اللاتين في نفس الفترة تقريبا (Drumbacher, *Gesch. der Byz. Literatur*, p.91). ويحتمل أن الإمبراطور مانويل كان يفكر في إعادة الاستيلاء على بطريركية القدس ، واحتفظ بطريق لذلك اليوم . غير أنه من الواضح أن الأرثوذكس في فلسطين عارضوا للطريق اللاتيني . ويتأكد وجود قسيسة يونانية في كنيسة القبر المقدس ، في *Carulaire du Saint Sépulture*, ed. Razière, p.177.

وفى المملكة ذاتها ، لم تكن طوائف المراطقة بذات أهمية خسارج القدس ، حيث كانت كلها تقريبا تحتفظ بمنشآت فى كنيسة القبر المقدس . وحاول ديامبرت دون جدوى طردهم هم ايضا ؛ فقد حفظ لهم التاج حقوقهم . وكانت الملكة مليسند فى الواقع قد منحت تأييدها شخصيا للسيريان اليعاقبة عند نظر الدعوى التى رفعوها ضد فارس فرنجى ، وفى كونية طرابلس كانت أهم كنيسة هرطيقية هى كنيسة الموارنة ، وأتباعها هم الباقون من العقيدة المونوثيلية<sup>(٥٣)</sup> وعاملتهم الكنيسة المسيحية بما يندر من اللباقة والصبر ؛ وفى عام ١١٨٠م وافقت الطائفة على الاعتراف بسيادة الكرسي الأسقفى الرومانى ، شريطة أن يحتفظ رعاياها بطقوسهم الدينية وعاداتهم السيرية ولم يتخلوا عن معتقدتهم الهرطيقى القائل بوجود إرادة واحدة للمسيح . وأما عن مفاوضاتهم - التى لا نعرف عنها سوى النذر اليسير - فقد أدارها باقتدار البطريرق لئرى بطريق انطاكية . إن القبول بهذه الكنيسة المتحدة الأولى<sup>(٥٤)</sup> يظهر أن البابوية كانت على استعداد للسماح بأعراف منشعبة ، وحتى بلاهوت مشكوك فيه ، شريطة الاعتراف بسلطانها النهائية<sup>(٥٥)</sup>.

#### رفاهية الشرق الفرنجى

كانت الكنيسة الأرمنية المنفصلة فى اشارة انطاكية قوية وتلقى التشجيع من الأمراء ، الذين رأوا فيها غربا نافعا ضد الكنيسة الأرثوذكسية . وفى الرها كان الأرمن يغلطون بصداقة آل كورتناى رغم أنهم كانوا محل ريبة من بلدوين الأول وبلدوين الثانى . وجاء الكثير من أساقفة الأرمن للاعتراف بسيادة البابا ، وحضر البعض منهم عددا من المجالس الكنسية التى عقدتها الكنيسة اللاتينية ، وهم يغفرون فى التعاليم اللاتينية مالا يغفر فى التعاليم اليونانية . وفى بادئ الأمر كان السيريان اليعاقبة فى عداوة صريحة للصليبيين ويفضلون الحكم الاسلامى ؛ ولكن بعد سقوط الرها ، أصبحوا فى حالة صلح مع أمير انطاكية ، إسميا بسبب معجزة عند قبر القديس بارسوما ، وقعليا

(٥٣) (المترجم): المونوثيلية Monothelism : معتقد لاهوتى يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٥٤) (المترجم): الكنيسة المتحدة Uniate Church : كبة كنيسة مسيحية شرقية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإنما تمارس طقوسها الخاصة بها وأعرافها وما إلى ذلك.

(٥٥) انظر Dib, article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, vol.x, 1.



لشعورهم شعورا عاما بخسوف من بيزنطة وكراهنسها . وكان البطريق البيقوبي ميخائيل - وهو احد عظام مؤرخى عصره - صديقا للبطريق ليمرى ، وقام بزيارة ودية للقدس . ولم يكن هناك من كنائس المراقبة الأخرى كنيسة تعتر ذات أهمية فى الدويلات الفرنجية<sup>(٥٦)</sup>.

وأما المسلمون من رعايا الفرنج ، فقد قبلوا اسيادهم بهدوء ، واعتزفوا بعدالة ادارتهم ؛ ومن الواضح أنهم لا يعتمد عليهم اذا ساءت أمور المسيحيين . وأما اليهود ، فكانوا على حق فى تفضيلهم حكم العرب الذين كانوا يعاملونهم دائما بأمانة وشفقة ، ولو بازدياد معين<sup>(٥٧)</sup>.

كان الشرق الفرنجى ، فى نظر الحاج الغربى المعاصر ، بمثابة صدمة لما كان عليه من رفاهية وفجور . وأما المؤرخ العصرى فكان بالأحرى يتأسى لتعصب الصليبيين وبربريتهم المشينة . ومع ذلك ، يمكن تفسير كلا الجانبين بالجو الذى كان سائدا هناك . فكانت الحياة بالنسبة للمستعمرين الفرنج غير يسيرة ومحفوفة بالمخاطر . إذ كانوا فى أرض ازدهرت فيها المكائد والقتل ، والعدو يتربص عبر الحدود القريبة . ولم يكن أحد يعلم متى سوف يسلم من طعنة خنجر تأتيه من أحد الخشاشين المخلصين ، أو متى ينجو من سم يدسه له خدعه . وتفشيت بينهم امراض غامضة لا يعرفون عنها سوى القليل ؛ وحتى بمساعدة الأطباء المحليين ، لم يعش فرنجى طويلا فى الشرق . وكانت النساء أكثر حفا من الرجال ؛ لتحنيهن عناطر القتال . ونظرا للمعرفة الطبية الأفضل فى الشرق ، كانت الولادة أقل خطورة منها فى الغرب . بيد أن وفيات الاطفال كانت مرتفعة ، ولا سيما بين الأولاد . فكانت الإقطاعية تلو الإقطاعية تقع فى يد وريثة ، يغوى ميراثها مغامرى الغرب المتوردين للنساء ؛ على انه فى الأغلب الأعم كانت الضياع الضخمة تفتقر إلى سيد لها وقت الأزمة ، ولم تكن أية زبنة سوى مسألة نزاع وتآمر . وغالبا ما كان الزواج عقيما ، إذ فشل الكثيرون من أعنف المحاربين فى أن ينجب طفلا . وأدى التزاوج بين العائلات النبيلة القليلة إلى زيادة التنافس الشخصى . وكانت الإقطاعيات توهب وتقسّم بقليل من الاعتبار للضرورات الجغرافية ؛ وتواترت المشاجرات بين أقرب الأنساب.

(٥٦) انظر أدناه ص ٤٢٨ ، وكذلك مقدمة . Nau's edition of Michael the Syrian .

(٥٧) ابن جوبار ، ed. Wright, pp. 304-5 . وتظهر احصائيات Benjamin of Tudela ازدهارا أعظم لليهود فى ظل الحكم الإسلامى .

وكان الهيكل الاجتماعي الذي جلبه الفرنج من الغرب يستلزم نظام استغلال وراثي منتظم ، واعتناء بالقوة العاملة . وكان الانحطاط المادي للعنصر الانساني غاية في الخطورة ؛ فأحاطهم الخوف وحوشا وبعوضة ، وأطلق الإرتياب حيهم للمباهج النافهة . وبينما كانت سيطرتهم آخذة في الضعف والوهن ، زاد اسرافهم في مباريات الفروسية ومظاهر البطولة . وكان الزائرون والوطنيون على السواء يرتاعون لما يرونه حولهم من فسوق وتطرف ، وكان أسوأ المسيئين هو البطريرق هيراكليوس<sup>(٥٨)</sup> بيد أن الزائر الأعقل كان يفهم أن تحت هذا السطح الرائع كان كل شيء سيئا ؛ فالملك الذي كان مثقلا بالحرير والذهب كان دائم الحثاج إلى المال لدفع رواتب جنده . وربما يتلقى فارس المعبود المتعجرف - الذي يعد أكليس تقوده عدا - استدعاء في أية لحظة ليقاتل بشراسة تفوق ما عرفه الغرب . وقد ينهض المهربدون - كضيوف قلعة كيراك في ١١٨٣م - من المائدة على أصوات آلات المنحنيق يقذفها الكفرة لتدق أسوار القلعة . إن زعراف الحياة الأنيقة المرححة في الشرق الغربي كانت معلقة بخيط رفيع من القلق ، والريبة ، والخوف ؛ وقد يتساءل المتفرج بحق ما اذا كانت المغامرة تستطيع أن تستمر طويلا ، حتى في ظل أفضل الحكام.

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, II, p.88; Ernoul, pp.83-7; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp.5  
 6; Caesarius of Heisterbach, *Dialogus Miraculorum*, I, p. 188  
 الأبحر سقوط القدس إلى فساد فرنج الشرق.



---

## الفصل الثانى:

### ارتفاع نجم نور الدين



## ارتفاع نجم نور الدين

”وَنَجَّ غَالِبًا وَلَكِنَّ يُغْلَبُ“  
(رؤيا يوحنا اللاهوتي ٦ : ٢)

كان ريموند أمير أنطاكية مصيبا في حته زعماء الحملة الصليبية الثانية على السير للاستيلاء على حلب . ولقد جنى عليه فشله في اقتاعهم ، فكلفه حياته . ذلك أن نور الدين كان العدو الرئيسي للعالم المسيحي ؛ ولو كان هناك جيش كبير لدى ريموند في ١١٤٧م لكان خليقا بأن يسحقه . كان نور الدين سيد حلب والرها ، ولم يكن أوثر صاحب دمشق ولا صغار الأمراء المستقلين في وادي العاصي ليخفوا لثيقتهم ؛ كما لم يكن ليعتمد على مساعدة أخيه سيف الدين صاحب الموصل الذي كانت له مشاكله الخاصة به في العراق . غير أن حماة الصليبيين دفعت بأوثر إلى الدخول في تحالف معه يبقى طالما بقي الخطر ؛ وواتته فرصة التدخل في شؤون طرابلس فراح يحكم قبضته على أواسط سوريا .

وكان لريموند كذلك ما يحرر رفضه الانضمام إلى الحملة الصليبية . فلم يكن

يسعه، لا هو ولا حوسلين كونت الرها، ترك أراضيها مكتشوفة لنور الدين، وحتى عندما كان الصليبيون أمام دمشق أغار جنود من حلب على الأراضي المسيحية. وذهب حوسلين نفسه - تحت علم المدة - إلى معسكر نور الدين متوسلا بالرحمة؛ وكان كل ما حصل عليه فترة راحة مؤقتة<sup>(١)</sup>. وفي تلك الأثناء كان مسعود سلطان قونية في سلام مع بيزنطة، فانتهاز ما كان فيه الفرنج من ارتباك وهاجم مرعش. فاستعد رموند للاقتات، ولذا أرسل مسعود إلى نور الدين للقيام بهجوم مضلل، فأجيب إلى طلبه؛ غير أن رموند كان قد تحالف مع كردى من زعماء الخشاشين - على بن وفا - الذي كان يحمل من الكراهية لنور الدين ما يفوق كراهيته للمسيحيين، فباغت رموند ونور الدين في نوفمبر ١١٤٨م أثناء زحفه خلال القرى الواقعة في سهل السواد في أفايا، على الطريق من أنطاكية إلى مرعش. وكان قائدا نور الدين الرئيسيان - شيركوه الكردي وابن الدابة من وجهاء حلب - قد تشاجرا، ورفض الأول الاشتراك في المعركة؛ واضطر الجيش الإسلامي كله إلى أن يتسحب انسحابا سريعا مشينا. وفي الربيع التالي هاجم نور الدين البلاد مرة أخرى وهزم رموند في بمراس بالقرب من ساحة القتال السابقة. ثم تحول جنوبا لمحاصرة قلعة إنباب، وهي واحدة من المعاقل القليلة المتروكة للمسيحيين شرقي نهر العاصي، فسارع رموند لانقاذها ومعه جيش صغير وقليل من حلفائه الخشاشين يقودهم على بن وفا؛ وتلقى نور الدين معلومات خاطئة عن قوة رموند، اضطرت إلى الانسحاب. وفي حقيقة الأمر، كان جيش نور الدين الذي يتألف من ستة آلاف فارس يفوق جيش الفرنج المؤلف من أربعة آلاف فارس وألف راجل. وإزاء نصيحة على ابن وفا قرر رموند تعزيز حامية إنباب. على أن نور الدين أدرك الآن ضعف رموند. ففي ٢٨ يونيو ١١٤٩م كان الجيش المسيحي معسكرا في قاع واد من الوديان بالقرب من نبع مراد في الوادي بين إنباب ومستنقع الغاب، فزحف جنود نور الدين أثناء الليل وحاصروا الجيش المسيحي. وفي الصباح تحقق رموند من أن فرصته الوحيدة للخروج هي الهجوم؛ غير أن طبيعة الأرض كانت ضده، وهبت رياح قذفت بالأتربة في أعين فرسانه أثناء شق طريقهم على خيولهم أعلى المنحدر، ولم تمض ساعات قليلة حتى اجتثت شأفة الجيش كله. وكان بين القتلى رينالد أمير مرعش وزعيم الخشاشين على ابن وفا. وهلك رموند نفسه، قتله شيركوه وبذا استعاد استحسان سيده الذي فقد في أفايا. ووضعت جمجمة الأمير في صندوق فضي، وأرسلها نور الدين هدية لسيده

(١) Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 382.

## ١١٥٠ م : إعتقال الكونت جوسلين

كان جوسلين كونت الرها هاتنا بهدنة مرعزة مع المسلمين ، ولذا رفض مساعدة غريمه القديم ريموند . والآن جاء دوره . إذ أن نور الدين اخذت الأراضي الأنطاكية مستوليا على أرزغان وتل كشافان ، ثم داهم حاميي أرتاح وحارم الواقعتين أبعد إلى الشمال ، وبذا استكمل إحكام قبضته على أواسط وادي العاصي ، ثم تحول غربا ليظهر أمام أسوار أنطاكية نفسها وراح يغير على الجوار حتى على ميناء السويدية<sup>(٣)</sup> . ولم يبدل جوسلين أية محاولة لإنقاذ رفاقه الفرنج ، وإنما سار إلى مرعش يحدوه الأمل في الاستيلاء على ميراث رينالد الذي كان زوج ابنته . ودخل المدينة ، لكنه تركها باقتراب السلطان مسعود ، تاركاً فيها حامية سرعان ما استسلمت للسلاحقة نظير الوعد بالإبقاء على حياة المسيحيين ؛ لكنهم عندما انطلقوا مع قساوستهم على الطريق الذاهب إلى أنطاكية ، قتلوا عن آخرهم . وطارد مسعود جوسلين حتى جوار تل بشير . بيد أن التعزيزات كانت تقرب ، ولم يكن نور الدين راغبا في أن يرى جوسلين - الذي كان لا يزال عميله - يفقد أراضيه ليفوز بها السلاحقة . ووجد مسعود أن من السياسة أن ينسحب . وبعد ذلك ، سعى أرناؤة الجزيرة - الذين حدد لهم نور الدين وأخبره حدودهم الجنوبية - إلى التوسع بطول الفرات على حساب الأرمن في كركر الذين كانوا أتباعا يدفعون الجزية لرينالد . وبدد جوسلين طاقاته عيشا بارسال المساعدة إلى بازل حاكم كركر ، إذ استولى قرة أرسلان الأرمني على كامل مقاطعة كركر وخرتوت ، مما أبهج المسيحيين الباقية الذين كانوا يفضلون حكم أرسلان بصورة لا حدود لها على حكم رينالد لتحيذه الشديد إلى جانب الأرمن ، ومشاعره البغيضة نحو الباقية<sup>(٤)</sup> . وفي شتاء عام ١١٤٩ م خاصم نور الدين جوسلين ؛ ولم تنجح هجماته

(٢) William of Tyre, xvii, 9, pp. 771-3p وعطاب قهرمان نظام فرسان المعبد إلى السيد الأعظم Everard ، الوارد في R.H.F. vol. xv, p. 541 وكيشا Michael the Syrian, pp. 122-3; Cinnamus, pp. 288-9; Chron. Anon. Syr. Syriac edition, p. 296; Matthew of Edessa, cclix, p. 329; Gregory the priest, p. 142; Ibn al-Qalanisi, pp. 288-92; Abu Shama, pp. 10-12; Ibn al-Furat, loc. cit. ويعمد ابن الفرات موقع المعركة بأنه أرض الحام .

(٣) William of Tyre, xvii, 10pp. 774-5; letter to Everard, loc. cit.; Chron. Anon. Syr. (Syriac edition), p. 299; Ibn al-Qalanisi, p. 293; Ibn al-Athir, Atabegs, p. 180.

(٤) Matthew of Edessa, cclix, pp. 330-1; Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian,



الأولى ، لكنه في أبريل ١١٥٠م ، وبينما كان حوسلين متجهين إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها هناك ، انفصل عن حرسه المرافق له ووقع في أيدي بعض التركمان المنفصلين من الباحثين عن المغام ؛ وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية لمينة ، لولا أن سمع نور الدين باعتقاله فأرسل فصيلة من الفرسان لتأخذه من أسرته . وفقت عيناه وسجن في حلب حيث مات بعد تسع سنين في ١١٥٩م<sup>(٥)</sup>.

وهكذا ، وبحلول صيف عام ١١٥٠م ، كانت كل من إمارتي أنطاكية وما تبقى من كونتية الرها قد فقدتا سيديهما . ولم يغامر نور الدين بالمضي إلى أكثر من ذلك . وعندما وصلت أنطاكية أنباء موت ريموند ، حول الطريق ليمري المدينة إلى حالة دفاع وسارع بإرسال مبعوث جنوبا يلتزم من الملك بلدون أن يخف للنجدة . ثم انه حصل من نور الدين على هدنة قصيرة بعد أن وعد بتسليم أنطاكية في حالة عدم وصول الملك بلدون . وكان ذلك ملائما لنور الدين الذي توخى جانب الحذر في عدم محاصرة أنطاكية ، بينما كان قادرا على الاستيلاء على أفاميا وهي آخر القلاع الأنطاكية في وادي نهر العاصي . وهرع الملك بلدون شمالا مع فرقة صغيرة تتألف في أغلبها من فرسان المعبد . وأغرى ظهوره نور الدين للقبول بهدنة أطول ساعدت على كبح مسعود من مهاجمة تل بشير . بيد أنه على الرغم من إنقاذ أنطاكية ، تقلصت الإمارة لتقتصر على وادي أنطاكية نفسها والساحل من الإسكندرونة إلى اللاذقية<sup>(٦)</sup>.

iii, 294-6 and Armenian version, p.346.

(٥) William of Tyre, xvii, ii, pp. 776-7; Matthew of Edessa, celix, pp. 331-2; Michael the Syrian, iii, p. 295; *Chron. Anon. Syr.*, p. 300; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, op.cit. p.386; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 523-4; Huston, p.544; Ibn al-Qalanisi, p.300; Ibn al-Athir, p.481; Sibit ibn al-Djauzi, p. 122. المراجع . فيقول ولهم إنه كان داعيا إلى أنطاكية تلبية لنداء من البطريق ؛ بينما يقول كل من سائير (أوف إنديسا - الرها) وابن الفرات إنه كان يسعى إلى الحصول على المساعدة من أنطاكية ؛ ويرد في التاريخ المجهول Anonymous Chronicle أنه ذهب ليضمن الوصاية على أنطاكية . ويعزو ولهم انفصاله عن صحبته إلى تلبية لنداء الطبيعة ؛ بينما يعزو بيت بن الجوزي إلى علاقة حب مع فتاة تركمانية ؛ وابن الفرات إلى سقوطه من على جواده أثناء اصطدام الجواد بشجرة - واستنادا إلى ميخائيل السورى لم تكن الشجرة موجودة إلا في خياله (ويرى المؤرخون السوريون أن اعتقال حوسلين جاء انتقاما إلهيا لأخطائه البعاقبة) ؛ ويقول المؤرخون السوريون إن يهوديا تعرف عليه . والتاريخ المجهول هو فقط الذي يقول بتعميته . ويضيف ميخائيل السوراني أنه لم يسمح له بالأعراف - وهو على فراش الموت - على يد قس لاتيني ؛ وأما تلقى اعترافه أسقف يعقوبى من الرها.

William of Tyre, xvii, 15, pp. 783-4; Ibn al-Qalanisi, pp. 293-4, 300-1.

(٦)

## ١١٥٠ م : استسلام تل بشير لبيزنطة

بقى بعد ذلك ترتيب حكومة الامارتين العاريتين من رئيسيهما . وكان نور الدين قد هاجم تل بشير بعد اعتقال حوسلين ، غير أن الكونتيسة بياتريس أعدت دفاعا شجاعا أجبر نور الدين على الانسحاب . ومع ذلك ، كان من الواضح عدم امكان الاحتفاظ بتل بشير ؛ إذ كانت مكثفة باللاجئين من الفرنج والأرمن القادمين من المقاطعات البعيدة عنها . وكان المسيحيون اليعاقبة يجهرون بالعصيان ، وقد انعزلت المنطقة كلها عن انطاكية بغزوات نور الدين . وأنشاء أن كانت الكونتيسة تعد العدة للتخلي عن أراضيها جاءتها رسالة من الامبراطور مانويل ، الذي كان مدركا للموقف ، عارضا أن يشترى منها كل ما تبقى من بلدها . والتزمت بياتريس بواجبها فأحالت العرض إلى الملك بلدوين الذي كان في انطاكية . وناقش العرض لوردات مملكته المرافقين له ، ولوردات انطاكية ، الذين شعروا بالاشمئزاز لفكرة تسليم أية أراض ليوناني بغرض ؛ غير أنهم قرروا بعد الموافقة أنه لو فقد العالم المسيحي تلك الأماكن الآن فيكون الامبراطور هو المخطئ . وأحضر حاكم كيليكيا البيزنطي - توماس - أحولة من الذهب ، لا تدرى عددها ، إلى كونتيسة انطاكية ، التي سلمت جنوده في المقابل القلاع الست : تل بشير وواوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة . وصاحب جيش الملك الحاميات البيزنطية في رحلتها ، وفي طريق العودة قام بحراسة الكثير من اللاجئين الفرنج والأرمن المرتابين في الحكم البيزنطي والذين فضلوا الأمان الأكبر في انطاكية . واحتفظت الكونتيسة من الصفقة بقلعة واحدة هي قلعة الروم الواقعة على الفرات بالقرب من سميساط ، والتي اعطتها لكاثوليكوس بطريق الأرمن . وبقيت القلعة مكان إقامة تحت السيادة التركية لقرن ونصف من الزمان . وبينما كان الجيش الملكي واللاجئون في طريق عودتهم حاول نور الدين مباغتتهم في عيتاب ، غير أن التنظيم الرائع الذي نظمته الملك حافظ عليهم . وتوسل اليه أبرز باروناته - همفري (أوف تورون) وروبرت (أوف سورديفال) - السماح لهم بالاستيلاء على عيتاب بإسمه ، لكنه التزم بالصفقة التي عقدها مع الامبراطور<sup>(٧)</sup>.

(٧) William of Tyre, xvii 16-17, pp.784-9. لم يذكر المؤرخون البيزنطيون الصفقة . وللإطلاع على التاريخ والأدلة التي أوردها المؤرخون المسلمون انظر Michael Cahen, op.cit.p.388 n.24; the Syrian, iii, p.297, and Armenian version, p.343. ويرد التعليق عن روم قلعة في Vartan, p.435, and Vahram, Rhymed Chronicle, p.618. الكونتيسة طلبت من كاثوليكوس مساعدة لورد أرمني في روم قلعة ، ولكن كاثوليكوس نصب نفسه فيها بالخدبة .

أما لماذا عرض الامبراطور الصفقة ، فليس يقينيا . إذ ظن الفرنج أن كبرياء الامبراطور جعله يعتقد أن بإمكانه الاحتفاظ بتلك القلاع . ولا يشمل انه كانت تنقصه المعلومات بهذه الدرجة . بل انه كان يتطلع إلى المستقبل ؛ إذ انه كان يأمل منذ وقت طويل أن يأتي بقواته إلى سوريا ، فإذا فقدوا الآن فسوف يمكنه استعادتها فيما بعد ، ولن يكون هناك نزاع حول مطالبته . وفي حقيقة الأمر ، فقد لها في أقل من سنة ، عندما تحالف نور الدين مع مسعود السلجوقي . ولقد ولد التحالف في اليوم التالي لاعتقال جوسلين ، وتبنت بزواج نور الدين من ابنة مسعود ، وتقرر أن تكون تل بشير مهرها . على أن مسعود لم ينضم إلى زوج ابنته في الهجوم على بياتريس ، وإنما راح يتولى العيش باستيلاته على كيسوم وبهستا في شمال البلاد ، وقد منحهما لابنه قلع أرسلان . وفي ربيع ١١٥١م راح نور الدين ومسعود كلاهما بهاجمان الحاميات ، وسارع الأرتقة للحصول على نصيبهم . فسقطت عيتاب ودلوك في يد مسعود ، وحميساط والبيرة في يد عمرتاش الأرتقي صاحب ماردين ، ورواندال في يد نور الدين . وفي تل بشير نفسها قاوم البيزنطيون لفترة ، لكن الجماعة أجبرتهم على الخروج والتسليم لنائب نور الدين حسان أمير منج في يولية ١١٥١م<sup>(٨)</sup> وذهب كل ماتيفي من أثر لكونتية الرها . وتفاعدت الكونتيسة بياتريس في القلس مع ولديها جوسلين وأجنس ، اللذين قدر لهما فيما بعد أن يلعبا أدوارا فاجعة في سقوط المملكة<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٥٠م : خطاب الأميرة كونستانس

ضاعت الرها ، وبقيت انطاكية . وترك موت ريموند الأميرة كونستانس أرملة بأربعة أطفال صغار . وكان العرش عرشها بحق الميراث ؛ غير أنه ساد الشعور بضرورة أن يحكم رجل في مثل هذه الظروف . وكان ابنها الأكبر - بوهيموند الثالث - في الخامسة من العمر عندما مات أبوه ؛ ولابد من وجود وصي من الذكور إلى أن يتشب عن الطوق . وكان البطريرك ليمرى قد تولى المسؤولية وقت الأزمة ، لكن الرأي العام العلماني لم تعجبه فكرة وجود وصي من رجال الكنيسة . واتضح ضرورة زواج

(٨) William of Tyre, loc.cit.; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p.277; Michael, Armenian version, p.297; Ibn al-Qalanisi, p.309; Ibn al-Athir, *Al-Nabagga*, p. 132 (with the wrong date).

(٩) ربما كانت إيزابيلا - ابنة جوسلين الثاني الأخرى - (انظر اعلاه ص ٢٢٢) ميتة آنذاك ، رغم ان وليم الصوري (ص ٧٧٧) يذكرها عندما مات أبوها على أنها على قيد الحياة .

الأميرة الشابة مرة أخرى . وفي الوقت ذاته يتعين أن يكون الوصي الملائم ابن خالتها، الملك بلدوين ، بصفته أقرب أقربائها الذكور وليس السيد الأعلى . وكان الملك قد سارع إلى انطاكية لدى وصوله نبأ موت ريموند ، وعالج الموقف بحكمة تنذر مع صبي مثله في التاسعة عشرة من عمره ، وقبلت سلطته قبولاً عاماً . وعاد في أوائل صيف ١١٥٠م ليعتمد صفقة بيع أراضي الكونتيسة بياتريس . وكانت مشغولياته في الجنوب من الكثرة بحيث لم يكن راغباً في البقاء في انطاكية ليكون مسؤولاً عنها. فحث كونستانس - التي لم تكن قد تجاوزت الثانية والعشرين - على اختيار زوج آخر ، واقترح عليها ثلاثة مرشحين : الأول ، ييف (أوف نيسيل)، كونت سواسون ، وهو نبيل فرنسي ثرى جاء إلى فلسطين في أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، وكان يعد العدة للاستقرار؛ والثاني ، وولتر (أوف فالكونبرج) ، من أسرة سانت أومير التي احتفظت فيما مضى بلوردية الجليل ؛ والثالث ، وألف (أوف ميرل) ، البارون الشجاع في كونية طرابلس . لكن كونستانس لم تكن راغبة في أي منهم ؛ واضطر بلدوين إلى العودة إلى القدس تاركاً الحكومة في يديها<sup>(١٠)</sup>.

وأخطط كونستانس الحاح ابن خالتها الصغير ، فقبرت سياستها في الحال وأرسلت سفارة إلى القسطنطينية تلتزم من الامبراطور ، باعتباره سيدها الأعلى ، أن يختار لها زوجاً . وكان مانويل توافاً إلى إجابة رغباتها ؛ فالنفوذ البيزنطي كان آخذاً في التدهور بطول الحدود الجنوبية الشرقية للامبراطورية . وحوالي عام ١١٤٣م ، كان الأمير الأرمني - ثوروس الرويني - قد هرب من القسطنطينية ولاذ ببلاد ابن عمه جوسلين الثاني كونت الرها ، حيث جمع فرقة من بني وطنه تمكن بها من استعادة قلعة العائلة - فاهكا ، الواقعة شرقي جبال طوروس . وانضم إليه اثنان من اخوته - ستيفن ومليخ - وأنشأ صداقة مع لورد فرنجي في الجوار ، سيمون حاكم رعيان الذي زوجه ابنته . وفي عام ١١٥١م ، وبينما كان المسلمون يحثرون البيزنطيين بهجومهم على تل بشير ، زحف جنوباً إلى داخل سهل كيليكيا وهزم توماس الحاكم البيزنطي وقتله عند بوابات المصبصة ؛ مما دفع مانويل على الفور إلى إرسال ابن عمه أندرونيكوس على رأس جيش لاسترجاع الأراضي التي استولى عليها ثوروس ؛ والآن جاءت الفرصة في وقتها المناسب لكي يضع من يرشحه هو على عرش انطاكية .

(١٠) William of Tyre, xvii, 18 pp. 789-91. يقترح وليم الصوري أن فيليرسي إيمري شجع كونستانس على رفض المرشحين خشية أن يهزم سلطان. Cinnamus, p. 178.

ولم يقتر النجاح لأي من المشروعين . ذلك أن أندرونيكوس كومنينوس كان أكثر أفراد عائلته الموهوبة اتقاداً للذكاء وأكثرهم فتنة ، لولا ما كان فيه من تهوّر وأعمال . فبينما كان في طريقه لمحاورة ثوروس في المصيصة ، هاجمه الأرمن بخروج مفاجئ وأطبقوا عليه على حين غرة ، فهزم جيشه هزيمة منكرة وهرب هو نفسه عائداً إلى القسطنطينية بغير اذبال العار . وفي اختيار زوج للأميرة كونستانس ، أظهر مانويل من الرعاية أكثر مما أظهر من التعقل ؛ إذ أرسل زوج أخته القيصر جون روجر ، وهو أرمل أخته المفضلة ماريا . وكان جون روجر نورمانديا بالمولد ، ورغم أنه تأمر مرة ليستأثر بالعرش الامبراطوري ، أصبح الآن صديقاً يثق فيه الامبراطور الذي أدرك أن بالامكان الإعتماد على ولائه ، وانما اعتقد أن أصله اللاتيني يرشحه للقبول لدى النبلاء الفرنج ، ولقد نسي التفكير في كونستانس نفسها . إذ كان حلياً أن جون روجر في أواسط العمر ، وقد فقد سحر شبابه كله ؛ فلا ينتظر من الأميرة الشابة ، التي اشتهر زوجها الأول بوسامته ، أن تقبل هذا القرن الذي يفتقر إلى الرومانتيكية . وهكذا ودعت الأميرة القيصر في رحلة العودة إلى الامبراطور . كان الأفضل للامبراطور أن يرسل أندرونيكوس إلى أنطاكية ، وجون روجر إلى كيليكيا للقتال<sup>(١١)</sup>.

#### ١١٥٢ م : اغتيال ريموند الثاني

كان الملك بلدوين مهياً لأن يرحب بأي زوج لابنة حالته ؛ إذ جاءته مؤخرًا مسؤولية جديدة . ذلك أن الحياة الزوجية التي عاشها الكونت ريموند الثاني كونت طرابلس وزوجته هوديرنا التي جاءت من القدس لم تكن حياة سعيدة تماماً . إذ كانت هوديرنا - كشأن أختها مليسند واليس - عتيقة طروب . ودارت همسات الرية حول شرعية ابنها مليسند ، مما دفع ريموند في غيرته عليها إلى محاولة حبسها في عزلة على النمط الشرقي . وبلغت العلاقة بينهما في أوائل عام ١١٥٢ م من سوء ما جعل الملكة مليسند تشعر أن من واجبها التدخل ؛ فسافرت مع ابنها الملك إلى طرابلس لترقيع مصالحة عاجلة . وانهز بلدوين الفرصة واستدعى كونستانس إلى طرابلس حيث راحت الخالتان توخمانها على إصرارها العنيد على البقاء مزملة . على أنه ربما لأنهما

(١١) Cinnamus, pp.121-4, 178; Matthew of Edessa, cclxiii, pp.334-6; Gregory the Priest, p. 166; Sambat the Constable, p. 619; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 504-6; Michael the Syrian, iii p. 281.

كلتاها لم تنحنا تماماً في الحياة الزوجية ، ذهبت نصانحهما أدراج الرياح ، وعادت كونستانس إلى أنطاكية دون أن تعد بشئ . غير أن تدخل الملكة كان فعالاً بصورة أكبر مع ريموند وهوديرنا اللذين وافقا على تسوية شجارهما ، وارتضى أنه من الأفضل أن تخفى هوديرنا أحازة طويلة للاستحمام في القدس ، وقرر ريموند البقاء في طرابلس لفترة نظراً لما أشيع من أن نور الدين سوف يهاجم الكونتية . وانطلقت الملكة والكونتيسة على الطريق الناهب جنوباً وقد صاحبهما الكونت مسافة ميل أو ميلين . وأثناء عودته ، وبينما كان يعبر البوابة الجنوبية لعاصمته ، وثبت عليه عصبة من الحشاشين وطعنوه إلى أن أسلم الروح . وقد حاول ألف (أوف ميرل) وفارس آخر كانا معه حمايته فلقيا حتفهما كذلك . وقد تم الأمر بسرعة شديدة بحيث لم يتمكن حراسه من الإمساك بالقتلة . وكان الملك يلعب الترد عندما جاءته الصيحات من أسفل المدينة ؛ واندفعت الحامية إلى سلاحها ونزلت كالسيل في الشوارع تقتل كل مسلم تراه. غير أن الحشاشين تمكنوا من اقرب ولم يعرف قط الدافع الذي دفعهم إلى ذلك<sup>(١٢)</sup>.

وأرسل من يدعو الملكة والكونتيسة للعودة ، وباشرت هوديرنا الوصاية باسم ابنتها ريموند الثالث البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة . لكن الوضع كان يتطلب - كشأن أنطاكية - وجود رجل وصى على الحكومة ؛ واضطر بلدوين إلى تولي الوصاية بصفته أقرب الأقرباء الذكور . وفي الحال شن نور الدين غارة وصلت حتى طرطوس التي احتلها جنوده لفترة ، لكنهم سرعان ما دحروا منها ، وسلمها بلدوين - بموافقة هوديرنا - إلى فرسان المعبد<sup>(١٣)</sup>.

#### ١١٥٢ م : الملكة مليسند ترضخ لابنها

أسعد الملك أن تمكنه الظروف من العودة إلى القدس . وكانت الملكة مليسند المدركة لحقها الوراثي عازفة عن تسليم السلطة لابنها . لكنه تجاوز الآن الثانية والعشرين من عمره ، والرأي العام يطالب بتويجه كحاكم ناضج . ولذلك ، رتبته الملكة مع البطريق فولشر أن يعيد تويجها إلى جانبته حتى تكون مشاركتها السلطة

(١٢) William of Tyre, xvii, 18-19, pp.789-92.

(١٣) Ibid., loc. cit.; Ibn al-Qalanisi, p. 312.

مقبولة بوضوح . وكان من المقرر أن يتم التتويج يوم أحد الفصح ٣٠ مارس ، لكن بلدوين أرجأه . ثم إنه دون أن ترتأب أمه في شيء دخل كنيسة القبر المقدس يوم الثلاثاء مع حرس من الفرسان وأجرى البطريق الغاضب على تتويجه بمفرده . وكان ذلك علامة على صدع بين في المملكة . إذ كان للمملكة الكثير من الأصدقاء ؛ مناس (أوف هيرج) ، حاميهما الذي كان لا يزال المسؤول عن الأمن (كونستابل) ، وكانت لعائلته اتصالات كثيرة من بينها عشيرة إيلين الكبيرة التي تسيطر على السهل الفلسطيني ، وكان الكثير من نبلاء جنوب فلسطين من شيعته . والجدير بالملاحظة أنه عندما ذهب بلدوين إلى انطاكية عام ١١٤٩م ، لم يصحبه سوى القليل من النبلاء ، إذ أنها كانت بعثة لا تهتم بها المملكة . وكان النبلاء الذين صحبوه تحت زعامة همفري (أوف تورون) ووليم (أوف فالكونبرج) ، وكانت ضياعهما في الجليل . ولم يغازم الملك باللجوء إلى القوة ، وإنما عقد مجلسا كبيرا للمملكة دافع فيه عن مطالبه . وبفضل نفوذ رجال الدين أجمروا على قبول حل وسط يقضي بتخصيص الجليل والشمال كمملكة له ، وأن تحتفظ مليسند بالقدس نفسها ونابلس ، أي يهودا والسامرة ، وأن يوضع الساحل - حيث يحتفظ الأخ الصغير للملك ، أسالريك ، بكونتية يافا - تحت سيادتها . وكان حلا مستحيلا . وبعد أشهر قليلة طلب الملك من أمه التنازل له عن القدس التي يحدونها - كما قال - لا يستطيع الاضطرار بحماية المملكة . وبتعاطف قوة نور الدين يوما بعد يوم ، قويت الحجة ، وبدأ حتى أهم مؤيدي المملكة يتخلون عن قضيتها . غير أنها صمدت بقوة وحصنت القدس ونابلس ضد ابنها ؛ وللسوء حظها ماغرت جنود الملك حاميهما الكونستابل مناس واعتقلوه في قلعة ميرابيل الواقعة على حافة السهل الساحلي ، وأبقى على حياته في مقابل الوعد بالرحيل عن الشرق وعدم العودة مطلقا ؛ وعلى الأثر استسلمت نابلس للملك . أما المملكة ، التي هجرها نبلاؤها العوام ، والتي كانت ما تزال تحظى بتأييد البطريق ، فحاولت الصمود في القدس . بيد أن المواطنين انقلبوا عليها أيضا وأرغموها على الكف عن النزاع ، وبعد أيام قليلة سلمت المدينة لابنها الذي لم يتخذ حيالها اجراء قويا نظرا لأن الرأي القانوني قد ارتأى ذلك مناسبا فيما يبدو . وسمح لها بالاحتفاظ بنابلس وما حولها كبائنة لها ؛ ورغم أنها تقاعدت من الحياة السياسية ، فقد احتفظت بحق رعاية الكنيسة . والآن وقد أمسى بلدوين هو الأعلى في الحكومة العلمانية ، استبدل الكونستابل مناس بصديقه همفري أمير تينين<sup>(١٤)</sup>.

(١٤) William of Tyre, xvii, 13-14 pp. 779-83. كانت نابلس في حوزة Philip of Milly الذي كان يؤيد الملكة . وفي ٣١ يولية ١١٦١م وقبل أسابيع قليلة من موت الملكة ، منح لسيادة على ما وراء الأردن بدلا من نابلس (Rohrich, Regesta, p.96). ولم تستشر الملكة مليسند ، ربما لمرضها

كان نور الدين يراقب تلك الاضرابات في الأسر الحاكمة الفرنجية بغاية الاستحسان. ولم يجشم نفسه عناء شن هجمات جادة ضد المسيحيين خلال تلك السنوات ؛ إذ كانت أمامه مهمة أكثر إلحاحاً ، ألا وهي غزو دمشق . ولقد واصل أوتو الدمشقي حروباً متقطعة ضد المسيحيين لعدة شهور بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، غير أن عشيته من نور الدين دفعته إلى قبول عروض السلام من القنص بكل سرور ، وفي مايو ١١٤٩م ، أعدت هدنة لمدة سنتين . وبعد ذلك مباشرة مات أوتو في شهر أغسطس ، وتولى الحكومة الأمير مجير الدين ابن بوري ، حفيد تغتكين والذي كان أوتو يحكم باسمه<sup>(١٥)</sup> . وكان ضعيفاً ، مما أتاح لنور الدين فرصته ، على أن نور الدين لم يتصرف في الحال ، إذ مات أخوه سيف الدين في شهر نوفمبر ، وكان لزاماً إعادة ترتيب أراضى الأسرة على الأثر . وورث الأخ الأصغر قطب الدين الموصل والأراضى الواقعة في العراق ، وقد اعترف بسيادة نور الدين عليه فيما يبدو<sup>(١٦)</sup> . وفي شهر مارس من العام التالي زحف نور الدين على دمشق ، لكن الأمطار الغزيرة أبطأت من تقدمه ، وأتاح مجير الدين الوقت الكافي لطلب المساعدة من القنص ؛ ولذا انسحب نور الدين بعد أن تلقى وعداً بأن ينقش اسمه على العملة ويذكر في الصلوات العامة في مساجد دمشق بعد اسم الخليفة وسلطان فارس . ومن ثم تأكدت حقوقه في سيادة عليا غير واضحة.

وفي مايو ١١٥١م ظهر نور الدين مرة أخرى أمام دمشق ، وجاء الفرنج ثانية لإنقاذها . وبعد أن عسكر نور الدين بالقرب من المدينة مدة شهر ، انسحب إلى بعلبك المجاورة التي كان يحكمها قائده أيوب ، أخو شريكوه . وفي تلك الأثناء سار الفرنج بقيادة الملك بلدوين إلى دمشق ، وسمح للكثير منهم بزيارة الأسواق داخل الأسوار ،

الشديد رغم أن ابن احتها هودبيرن ، كوتيسة طرابلس الأرملة وافقت على الصفقة . ويدعى أن فيليب كان يمتلك أراضيه التي منحها له ملبيند وليس بلدوين الذي لم يتمكن من تنفيذ التبادل إلا على فراش موته ، وإلا حرمت من صديقها وتابعها الرئيسي . وكانت زوجة فيليب ، إيزابلا أو إليزابيث ، ابنة اخت Pagan of Oultrejourdain ، والوريثة في نهاية الأمر لخليفته Maurice الذي انضم إلى فرسان المعبد بعد موته . ويدعى أن زوج احتها ماريا Walter Brisebarre III of Beirut أصبح لورد ما وراء الأردن في حصل عليها بدلاً من إقطاعيته في بيروت ، ولكن بعد موت زوجته وابنتها الرضيعة يبدو أنه فقد الإقطاعية التي انتقلت إلى ابنة فيليب Stephanie. Rey, 'Les Seigneurs de Barut' في أماكن متفرقة.

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p. 295. يقول ابن نور الدين مات بخرى الدستارياً .

(١٦) Ibn al-Qalanisi, pp. 295-6. Ibn al-Athir, Atabegs, pp. 171-5. وللإطلاع على مصادر المعلومات انظر p. 393 n. 12. Cahen, op. cit.



بينما قام بجير الدين بزيارة ودية للملك في المعسكر المسيحي ؛ لكن قوة الخلفاء لم تكن بالقدر الكافي لتعقب نور الدين ، وبدلاً من ذلك زحفوا على بصرى التي حشد أميرها سرخاك على دمشق وقيل المساعدة من نور الدين . ولم تفلح حملة الفرنج ؛ غير أنه سرعان ما تصادق سرخاك مع الفرنج ، كما هي عادة صغار أمراء المسلمين في النقلب السريع ، واضطر بجير الدين إلى الاستنجاد بنور الدين لإرغام سرخاك على الطاعة . وعندما اتجه نور الدين شمالاً مرة أخرى ، تبعه بجير الدين وقام بزيارته في حلب حيث وقعت معاهدة صداقة . لكن أمراء دمشق كانوا لا يزالون رافضين التخلي عن التحالف مع الفرنج . وفي ديسمبر ١١٥١م حاولت عصبة من الزعماء الإغارة على باتياس ، وربما كان ذلك بأوامر من أيوب ؛ وقامت الحملة بغارة مضادة على أراضي بعلبك دحرها أيوب . وتوخى بجير الدين جانب الحذر وأعلن براءته من أية علاقة له بتلك الأعمال الخيرية . وشعر بمسرح أكثر في عريف ١١٥٢م عندما جاءه فجأة الأمير الأرتقي ممرتاش صاحب مردين على رأس جيش من الزعماء قاده خلال المستنقعات حول حافة الصحراء ، وطلب مساعدته في شن هجوم مفاجئ على القدس ، وربما سمع بالمشاجرات التي دارت بين بلدوين ومليسيند فظن أن توجيه ضربة قوية قد تفلح . وتصرف نور الدين تصرفاً وسطاً بأن سمح له بشراء المسون ، ثم سعى إلى اقناعه بعدم المضي أكثر من ذلك . ثم إن ممرتاش اندفع اندفاعاً عنيفاً عبر الأردن ، وضرب معسكره أينما اتفق فوق جبل الزيتون ، بينما كان نبلاء الفرنج مجتمعين في مجلسهم في نابلس ، للترتيب بلا شك لبائنة مليسيند . غير أن حماية القدس خرجت في هجوم مفاجئ على الزعماء الذين وجدوا أن هجومهم المفاجئ قد فشل ، فاضطروا إلى الانسحاب إلى الأردن ، حيث هجم عليهم جيش المملكة وهم على ضفة النهر وفاز بنصر كامل<sup>(١٧)</sup>.

#### ١١٥٠م : مكائد في مصر

خلال الأشهر التالية تحول انتباه المسيحيين والمسلمين على السواء إلى مصر . إذ بدت الخلافة الفاطمية هناك على وشك التصدع . فمنذ مقتل الوزير الأفضل ومصر تفتقر إلى حاكم مقتدر . وقد حكم الخليفة الأمر حتى أكتوبر ١١٢٩م إلى أن اغتيل هو الآخر ، وتعاقد على تصريف شؤون الحكم سلسلة من الوزراء الضعاف . وأظهر الحافظ - الذي خلف الأمر - شخصية أقوى وحاول التخلص من اصفاة الوزارة بتعيين

ابنه هو نفسه ، حسن ، في منصب الوزير . بيد أن حسن لم يكن بالوزير المطيع وقتل بأوامر من أبيه عام ١١٣٥م . وراح الوزير الثالث ، فاهرام الأرميني المولد ، بحسب الإدارة بأبناء جلدته ، لا لشيء سوى إشارة رد فعل عام ١١٣٧م عندما حُجرت في شوارع القاهرة دماء المسيحيين لعدة أيام . ولم يكن الخائف أكثر حظاً من آخر وزرائه رغم أنه تَشبَّث بالعرش إلى أن مات عام ١١٤٩م . وبدأ عهد ابنه الظافر بترب أهلية صريحة بين أبرز قاتليه ، ففاز أمير بن صلاح وأصبح وزيراً ، لكي يُغتال هو نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات<sup>(١٨)</sup> . وتسيبت مكائده وما سأل من دماء لا نهاية لها في ارتفاع الأسال لدى أعداء مصر ؛ فبدأ الملك بلدوين عام ١١٥٠م في ترميم تحصينات غزة ، وكانت عسقلان ما تزال قلعة فاطمية ، وقد دأبت حاميتها على الإغارة على الأراضي المسيحية . فتقرر أن تكون غزة قاعدة للعمليات ضد عسقلان ؛ مما أثار مشاعر الحظر لدى الوزير ابن صلاح . وكان من بين اللاحقين في البلاط الفاطمي الأمير أسامة بن منقذ ، وكان من قبل في خدمة زنكي . فأرسله ابن صلاح إلى نور الدين ، الذي كان معسكراً الآن أمام دمشق ، طالباً منه القيام بهجوم مضلل في الجليل ، وسيقوم الأسطول المصري في الوقت نفسه بالإغارة على الموانئ الفرنجية . ولم تفلح السفارة ، إذ كانت هناك مشاغل أخرى تشغل نور الدين . وتوقف أسامة في طريق عودته في عسقلان لعامين للقيام بعمليات عسكرية ضد الفرنج المحليين ، ثم عاد إلى مصر في الوقت المناسب ليشهد المكائد التي تلت مقتل ابن صلاح على يد عباس ، ابن زوجته ، بتسر من الخليفة<sup>(١٩)</sup> .

#### ١١٥٣م : الإستيلاء على عسقلان

وقد حدثت تلك الفرجة في أعقاب انتصار الملك بلدوين على أمه مباشرة ، فقرر مهاجمة عسقلان وراح يعد لها عدتها بعناية ، وفي ٢٥ يناير ١١٥٣م ظهر أمام أسوارها جيش المملكة كله بكل آلات الحصار التي استطاعت المملكة تعبئتها . وكان مع الملك السيدان العفليمان لنظامي فرسان المستشفى وفرسان المعبد مع نخبة رجالهما ، وعظام لوردات المملكة العلمانيين ، والبطريرق ، ورؤساء أساقفة صور وقيسارية وأناصرة،

(١٨) . Ibn al-Athir, pp. 475-7. See Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 190-5 .

(١٩) . Usama, ed. Hitti, pp. 40-3; Ibn al-Qalanisi, p. 314. كورد ابن القلانيسي pp. 307-8 الغارة المصرية على الساحل الفرنجي عام ١١٥١م ، كما كورد غارة مصرية انطلقت من عسقلان في ابريل عام ١١٥٢م (p.312).

وأسقف بيت لحم وعكا . وكان الصليب الحقيقي بصحبة البطريق . وكانت عسقلان قلعة هائلة ، ممتدة من البحر في شبه دائرة عظيمة ، وتحصيناتها مرممة ترميما رائعا ؛ وكانت الحكومة المصرية تحتفظ فيها دائما بمخزونات الأسلحة والمؤن . وظل الجيش الفرنجي لعدة شهور عاجزا عن التأثير في أسوارها رغم قدرته على حصارها حصارا كاملا . وأضافت سفن الحجاج التي وصلت في وقت عيد الفصح تقريبا قوة إلى صفوف رجال الجيش الفرنجي ، غير أن وصول الاسطول المصري في شهر يونية وازن الموقف . ولم يغامر الفاطميون بانقاذ عسقلان برا ، وإنما أرسلوا اسطولا من سبعين سفينة محملة بالرجال والسلاح والامدادات من كل لون . ولم يجرؤ حورارد أمير صيدا - الذي كان قائدا للسفن العشرين وهي كل ما تملكه المملكة - على مهاجمة الاسطول المصري ، وأبحرت السفن المصرية منتصرة إلى داخل الميناء مما أشعل حماس المدافعين، لكن السفن أبحرت بعيدا بعد أن أفرغت حمولتها ، وتواصل الحصار . وكان أروع آلات الحصار لدى الفرنج برج خشبي هائل تجاوز ارتفاعه قمة الأسوار وراح يقذف الأحجار والحزم المشتعلة في شوارع المدينة مباشرة . وفي إحدى الليال ، في أواخر يولية ، زحف بعض أفراد الحامية خارجين من المدينة وأشعلوا فيه النيران ؛ لكن رياحا هبت ودفعت الكتلة الهائلة المحترقة لوتطم بالصور ، وتسببت الحرارة الشديدة في تفكك بناء الصور ، وفي الصباح كانت هناك فجوة في الصور . وقرر فرسان المعبد - الذين كانوا يشغلون ذلك القطع - أن يكون لهم وحدهم شرف النصر . فوقف بعض رجالهم بمنعون أي مسيحي آخر من الاقتراب ، واندفع أربعون فارسا إلى داخل المدينة . وفلت الحامية يادئ الأمر أن كل شيء قد ضاع ، لكنها بعدما رأت ضالة عدد فرسان المعبد ، أحاطوا بهم وقتلوه . وأصلحت فجوة الصور على عجل ، وعلفت جثث فرسان المعبد خارج الأسوار .

وأثناء الهدنة التي عقدت لتمكين كل جانب من دفن موته ، عقد الملك مجلسا في عيتمه ، أمام الصليب الحقيقي . وثبطت همة النبلاء العلمانيين مما حدث ، فرغبوا في التخلي عن الحصار ؛ غير أن البطريق ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفين - ريموند (أوف لو بوي) حثا الملك على مواصلة الحصار ، وكان لقصاحتهما فعلها في إثارة مشاعر البارونات ، وعاد المحجوم بأعنف مما كان .

وفي ١٩ أغسطس ، وبعد قصف المدينة قصفا شرسا ، قررت الحامية التسليم ، بشرط السماح للمواطنين بالرحيل الآمن مع منقولاتهم . وقبل بلدوين الشرط والنزيم به باحلاص . وبينما كانت الجموع الغفيرة من المسلمين تندفق خارج المدينة برا وبحرا

للعودة إلى مصر ، دخل الفرنج المدينة في حالة من الإثارة واستولوا على الحصن بما فيه من مخزونات الثروة والأسلحة الماثلة . وعهد بسيادة عسقلان إلى أخى الملك أمالريك ، كونت بافا . وتحول المسجد الكبير إلى كنيسة القديس بول ورسم البطريرق أحد قساوستها أسقفا وهو أبسالوم . وفيما بعد حصل أسقف بيت لحم ، جيرارد ، على مرسوم من روما باستقلال المقر الأسقفى<sup>(٢٠)</sup>.

كان الاستيلاء على عسقلان آخر الانتصارات العظيمة للملك القدس ، ورفعت مكانتهم ارتفاعا كبيرا. ذلك أن الفوز أخيرا بالمدينة التي كانت تعرف بأنها عروس سوريا ، يعتبر إنجازا مدويا ؛ بيد أنه في واقع الأمر لم يعد بفائدة حقيقة . وعلى الرغم من أن تلك القلعة كانت قاعدة انطلاق غارات صغيرة في الأراضي الفرنجية ، لم تعد مصر تمثل تهديدا خطيرا للمسيحيين . لكن الفرنج ، وقد باتت عسقلان في أيديهم ، أصبحوا هدفا لكما من المغامرات الخطيرة التي تأتيهم من النيل . وربما كان هذا هو السبب الذي جعل نور الدين ، ببصيرة سياسته ، يحجم عن محاولة التدخل في الحملة ، فيما عدا ما كان يخطط له من حملة على بانياس اشترك معه في التخطيط لها بحمر الدين صاحب دمشق ، والتي لم تسفر عن شيء نظرا للمشاحنات المتبادلة بينهما . ولم يكن بوسع التأسى لإضعاف مصر ، ولا لتحول انتباه الفرنج نحو الجنوب . أما بحمر الدين صاحب دمشق ، فقد تأثر بسهولة أكبر ، وسارع يؤكد لبلدوين صداقته المخلص ، ووافق على أن يدفع له إتاوة سنوية. وبينما راح لوردات الفرنج يتحولون ويغيرون على الأراضي الدمشقية كما يحلو لهم ، كان سفراء الفرنج يأتون إلى المدينة لجمع المال لملكهم<sup>(٢١)</sup>.

#### ١١٥٤ م : نور الدين يأخذ دمشق

كان بحمر الدين ومستشاروه حريصين على سلامتهم الشخصية ، ولذا فضلوا أن تكون دمشق محمية فرنجية من أجل مصيرهم على أن يصبح نور الدين سيدهم . لكن المواطن العادي في دمشق كان يشعر بأن غطرسة المسيحيين فوق الإحتمال وأن الأسرة

(٢٠) William of Tyre, xvii, 1-5, 27-30, pp.794-802, 804-13; Ibn al-Qalanisi, pp.314-17; Abu Shama, pp.77-8; Ibn al-Athir, p.490.

(٢١) Ibn al-Qalanisi, pp. 315-16 (الذي أترجم التحفظ حول النفوذ الفرنجي في دمشق)؛ Ibn al-Athir, p.496, and *Atabegs*, p.189.

المالكة البورية ما تفتأ تثبت حياتها للعقيدة ، فانتهاز أيوب أمير بعلبك تلك المشاعر ، وأرسل عملاءه يتوغلون في المدينة يحثون على الازدراء من مجير الدين ، وحدث في تلك الآونة أن نقص الطعام في دمشق ؛ فاحتجز نور الدين القوافل التي كانت تغلب الحبوب من الشمال، وراح عملاء أيوب ينشرون الشائعات بأن ذلك خطأ مجير الدين لرفضه التعاون مع رفاقه المسلمين . ثم إن نور الدين أقنع مجير الدين بأن الخطأ من وجهاء دمشق يتآمرون ضده ، مما أثار الذعر لدى مجير الدين فنكل بهم . وهكذا حصر مجير الدين كلا من الأغنياء والفقراء ، وعندئذ جاء شيركوه ، أخو أيوب ، أمام دمشق كسفير من نور الدين ، مصطحباً قوة مسلحة كما تجرى عليه عادة البعثات الصديقة ، غير أنه كان يضمر الشر . ولم يسمح له مجير الدين بدخول المدينة ولا خرج لمقابلته ؛ فاعتبر نور الدين ذلك التصرف اهانة لسفيره وزحف على دمشق بجيش كبير . وذهبت رسل مجير الدين تناشد في رأسها مساعدة الفرنج ، لكنها أرسلت بعد قوات الأوان ؛ إذ ضرب نور الدين معسكره أمام أسوار دمشق يوم ١٨ أبريل ١١٥٤ م ؛ وبعد أسبوع واحد بالضبط ، حدث أثناء بعض المناوشات خارج السور الشرقي ، ساعدت امرأة يهودية بعض رجاله على دخول الحى اليهودى ، وعلى الفور فتحت الجماهير البوابة الشرقية ليدخل سواد الجيش . وفر مجير الدين إلى القلعة ، لكنه استسلم بعد ساعات قليلة فقط ؛ ووهبت له حياته وأمانة حمص . على أنه بعد أسابيع قليلة حامت الريب حول تأمره مع أصدقائه قدامى في دمشق ؛ فطرد من حمص . ورفض مدينة باليس التي عرضت عليه في الفرات ، وتقاعد في بغداد .

وفي تلك الأثناء استقبل مواطنو دمشق نور الدين بآيات البهجة البالغة . ومنع جنوده من النهب ، وملا الأسواق من غوره بالمواد الغذائية ، وألغى الضرائب على الفاكهة والخضروات . وعاد نور الدين إلى حلب بعدما ترك أيوب لتصرف شؤون دمشق . وعهد إلى أحد النبلاء المحليين بمدينة بعلبك ، لكنه تمرد فيما بعد على نور الدين وكان لزاماً إخضاعه للطاعة<sup>(٢٢)</sup>.

رجحت كفة الميزان رجحانا شديدا باستيلاء نور الدين على دمشق وفاقست استيلاء بلدوين على عسقلان . إذ امتدت أراضيه الآن جنوبا بطول الحدود الشرقية للدويلات الفرنجية ، من الرها إلى ما وراء الأردن ؛ ولم يبق في سوريا الإسلامية سوى القليل من

(٢٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 318-21; Ibn al-Athir, pp. 496-7, and Atabegs, pp. 190-2; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 527-8.

الإمارات الصغيرة التي احتفظت باستقلالها ، مثل شيزر . وعلى الرغم من أن الممتلكات الفرنجية كانت أوسع في مساحتها وأغنى في مواردها ، كان لممتلكات نور الدين ميزة الوحدة في ظل سيد واحد لا يكاد يضاهيه أحد من أتباعه كما كان يعاني الفرنج من اتباعهم المتحرفين . لقد كان نجمه آخذاً في الصعود . لكنه كان شديد الحذر من مواصلة انتصاراته بسرعة سريعة ؛ ويبدو أنه أعاد تأكيد التحالف بين دمشق والقنس وحدد الهدنة في ١١٥٦م لستين آخرين عندما دفع ثمانية آلاف وحدة من عملة الدوقانية<sup>(٢٣)</sup> استمراراً للإثارة التي كان يدفعها بحمر الدين . ويمرّز صبره أساساً إلى تنافس مع سلاحقة الأناضول ، إذ كان يرغب في الاستيلاء على نصيبهم من كوتية الرها السابقة<sup>(٢٤)</sup>.

ومات السلطان مسعود عام ١١٥٥م ؛ وعلى الفور تشاجر ولداه قلعج أرسلان الثاني وشاهنشاه على الميراث . وفاز الأول بتأييد الأميرين الدانشمندان ذوالنون صاحب قيسارية وذوالقرنين صاحب ملطية ؛ وفاز الثاني بتأييد أكبر الدانشمندان ، ياغي سيان صاحب سيواس . وطلب ياغي سيان مساعدة نور الدين الذي استجاب بالمحرم على الحصنة السلجوقية من الرها السابقة ، فضم مدن عيتاب ودولوك ، وربما المصيصة . وهزم قلعج أرسلان أخيه . ورغم أنه حاول التحالف مع الأرمن والفرنج ضد نور الدين ، إلا أنه أجبر على قبول خسارته لمقاطعة الغراتية<sup>(٢٥)</sup>.

ولما أمن نور الدين على نفسه في الشمال ، عاد إلى الجنوب مرة أخرى . وفي شهر فبراير ١١٥٧م نفّض بلدوين هذنته مع نور الدين . ذلك أن أعداداً غفيرة من التركمان ، وقد اعتمدوا على الهدنة ، جاءوا بقطعان أغنامهم وحيولهم لزعى في المراعي الخصبة بالقرب من الحدود عند بانيس . ولم يستطع الملك بلدوين - المنقل بالديون لحبه للرفاهية لا غير - مقاومة إغراء مهاجمة الرعاة في غير ارتياب منهم واحتطاف قطعانهم . وقد أكسبه هذا الخسران المخزي لالتزاماته ، أنفس الغنائم التي غنمتها فلسطين لعقود كثيرة ؛ لكنها أنهضت نور الدين للشار . ففي الوقت الذي توقف فيه في بعلبك لإحضار أميرها المتمرد ، كان قائده شيركوه قد هزم بعض

(٢٣) (المترجم): نسبة إلى اللغة الإيطالية *Ducento* أي عملة ذهبية أو فضة تحمل صورة دوق Duke، كانت تستعمل فيما سبق في بعض البلدان الأوروبية.

(٢٤) Ibn al-Qalalnsi, pp. 322, 327.

(٢٥) Ibid. pp. 324-5; Nicetas Choniates, pp. 152-4; Gregory the Priest, p. 176.

الغارات اللاتينية في البقاع ؛ واحتشد أخوه نصر الدين شأفة جماعة من فرسان المستشفى بالقرب من نابلس . وفي شهر مايو انطلق نور الدين نفسه من دمشق لخصار بانياس ؛ وقهر شيركوه قوة إغاثة صغيرة ثم لحق بسيدته أمام أسوار بانياس . وسرعان ما استولى على أسفل المدينة ، لكن القلعة - التي تبعد مسافة ميلين على قمة جبل شديد الانحدار - صمدت بقيادة الكونستابل همفري (أوف تورون) ، الذي أوشك على الاستسلام لولا أن جاءت الأنباء باقترب الملك ؛ فأشعل نور الدين النيران في أسفل المدينة وانسحب تاركاً بلدوين يدخل بانياس ويصلح الأسوار . وبينما كان الفرنج في طريق عودتهم جنوب الأردن ، انقض عليهم نور الدين شمال بحر الجليل مباشرة ونال نصرا مؤزرا . وبشق الأنفس هرب الملك إلى صفد ، وتمكن المسلمون من العودة لمحاصرة بانياس . على أنه بعد أيام قليلة جاءت الأنباء من الشمال بتوقع هجوم من قلج أرسلان ، الأمر الذي دفع نور الدين إلى التخلي عن محاولة الحصار وأسرع عائدا إلى حلب<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١١٥٦ م : زلزل في سوريا

وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى الرغبة في تجنب حرب صريحة في تلك الآونة . ففي أوائل خريف عام ١١٥٦ م ، حدثت في سائر أنحاء سوريا سلسلة من الزلازل . ولم تحدث في دمشق أضرار جسيمة ، وإنما جاءت أنباء الدمار من حلب وحماه ، بينما اتهار موقع محصن في أنقيا . وفي نوفمبر وديسمبر حدثت هزات أخرى عانت منها مدينة شيزر . وفي الربيع التالي حدثت هزات أخرى كان لها تأثيرها على قرص والمدن الساحلية الواقعة شمالي طرابلس . وفي أغسطس ١١٥٧ م عانى وادي نهر العاصي من هزات أكثر حسماء . وسقط ضحايا عديدون في محص وحلب . وفي حماة كان الدمار من البشاعة بحيث أطلق المؤرخون على الزلزال زلزال حماة . وفي شيزر كانت عائلة المنقذين قد تجمعت لتحتفل بختان أمير صغير عندما انقضت أسوار القلعة الضخمة على أفرادها ؛ ولم يبق على قيد الحياة من كبل الأسرة الحاكمة سوى أميرة شيزر التي أخرجت من بين الأنقاض ، وأسامة الذي كان بعيدا في مهمته الدبلوماسية . وكان المسلمون والمسيحيون سواء بسواء منهكين تماما في إصلاح القلاع المتهالكة ولم يفكروا في حملات هجومية جادة لبعض الوقت<sup>(٢٧)</sup>.

(٢٦) William of Tyre, xviii, ii-15, pp. 834-45; Ibn al-Qalanisi, pp. 325-6, 330-7

(٢٧) Robert of Torignz, i, p. 309; Michael the Syrian, iii, pp. 315-16, Armenian version.

وفي أكتوبر ١١٥٧م ، وبعد أن عاد نور الدين من بانياس ، سقط فجأة مريضا في حالة مؤسفة في سارمين . وفلنا منه أن قد حان أجله ، أصر على أن يُنقل على محفة إلى حلب ؛ حيث أوصى بوصيته التي تقتضي بأن يخلقه أخوه نصر الدين في دويلاته ، على أن يحكم شيركوه دمشق تحت سيادته . على أنه عندما دخل نصر الدين حلب للاستعداد لتسلم الميراث ، لقي معارضة من حاكمها ، ابن الداية ، وحدثت اضطرابات في الشوارع لم تهدأ إلى أن استدعى وجهاء حلب إلى فراش أميرهم ، فوجدوه ما يزال على قيد الحياة، وقد مرت الأزمة المرضية الآن وبدأ يستعيد صحته ببطء . لكنه بدأ وقد فقد شيئا من مبادرته وطاقته ؛ فلم يعد المحارب الذي لا يقهر . لقد كانت هناك قوى أخرى أخذت في الظهور في سوريا تنهيا للسيطرة على مسرح الأحداث<sup>(٢٨)</sup>.

p.356; *Chron. Anou. Syr.*(Syriac edition), p. 302; Ibn al-Qalanisi, pp. 338-41; Ibn al-Noradine, p. 529; Kemal ad-Din, ed.Blochet, p. 503; Althir, p. 503; Kemal ad-Din, ed.Blochet, p. 529. واستنادا الى ابن الفلاني ، عيسى نور الدين أن بهائم الفرنج حصونه العاربة من الحماية ولذا انقضى على تجمع الجيش فتح أية حركة كهذه . ويرد عند أبي شامة طبعه القاهرة، المجلد الأول ص ١١٤، المراتلة الشعبية لأسماء على دمار عائلته ، التي كان قد تشاجر معها.

William of Tyre, xviii, 17 pp. 847-8; Ibn al-Qalanisi, p. 341; Kemal ad-Din, (٢٨) ed.Blochet, pp. 531-4; Abu Shama, p. 110 (in R.H.C.Or.).



\_\_\_\_\_

.....

.....

---

## الفصل الثالث:

### عودة الإمبراطور

\_\_\_\_\_

## محوقة الامبراطور

"فِيرْجُ مَلِكُ الشِّمَالِ وَيُقيمُ جُمهوراً أَكْثَرَ مِنَ الأوَّلِ وَيَأْتِي بَعْدَ  
حِينَ بَعْدِ سَنَيْنَ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ وَثَرَوَةٍ جَزِيلَةٍ"  
(دانيال ١١ : ١٣)

فى عام ١١٥٣ م ، وبينما كان نور الدين يركز انتباهه على دمشق ، وأثناء أن كان الملك بلدوين وجيشه أمام عسقلان ، قررت أميرة انطاكية أن تختط مصرها بنفسها . ذلك أنه كان هناك فارس من بين الفرسان الذين تبعوا لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية يدعى رينالد ، هو الابن الأصغر للفلس الجيوفرى (كونت حين ولورد شاتيلون سير لوان) . وكان المستقبل مظلماً أمام رينالد (أوف شاتيلون) فى بلده، ولذا لم ينضم إلى الصليبيين عندما عادوا إلى بلادهم ، وإنما مكث فى فلسطين حيث التحق بخدمة الملك بلدوين الصغير ، وصحبه إلى انطاكية عام ١١٥١ م ؛ وسرعان ما التقطته عينا الأميرة المزملة . ويبدو أنه بقى فى امارتها، بعدما ملكك اقطاعية صغيرة طيعا ؛ وربما كان وجوده هو الذى دفعها إلى رفض الأزواج المرشحين من الملك والامبراطور . وفى ربيع عام ١١٥٣ قررت أن تتزوجه . وقبل أن تعلن عن نيتها التمسست الاذن من الملك، إذ أنه الرضى على دولتها والسيد الأعلى لعريستها ، وسارع

رينالد إلى عسقلان حيث معسكر الملك وسلمه رسالة كونستانس . ولم يعترض الملك لمعرفة أن رينالد جندى شجاع ، وقبل كل شئ وجد فيه الخلاص من مسؤوليته عن أنطاكية ؛ وما أن عاد رينالد إلى أنطاكية حتى انعقد الزواج ونُصّب رينالد أميرا . على أنه لم يكن بالزوج الذي يحظى بالقبول إذ ساد الاعتقاد ، ليس فقط لدى عظماء الأسر في أنطاكية وإنما أيضا لدى رعابا الأميرة الأكثر تواضعا ، بأنها قد حطت من قدرها بتسليم نفسها لهذا المغرور بمجدانة النعمة<sup>(١)</sup>.

وكان من اللائق والصواب أن تطلب كونستانس الإذن من الامبراطور مانويل كذلك ؛ إذ أن القسطنطينية استقبلت أبناء الزواج استقبالا سيئا ، على أن مانويل كان مشغولا آنذاك في حملة ضد السلاجقة ؛ ولم يكن بوسعها أن يعرب عن حنقه بصورة عملية ؛ وإدراكا منه لحقوقه الأنطاكية أرسل يعرض الاعتراف بالأمير الجديد إذ حارب فرنج أنطاكية إلى جانبهم ضد ثوروس الأرميني . وامتثل رينالد طواعية؛ فالتأيد الامبراطوري سيقوى من مركزه شخصيا ؛ فضلا عن أن الأرمن توغلوا في مقاطعة الإسكندرونة التي يزعم الفرنج انها جزء من الإمارة الأنطاكية ؛ وتصدى لهم رينالد في معركة قصيرة بالقرب من الإسكندرونة ودحرهم إلى كيليكيا ، وأهدى البلد الذي استعاده إلى نظام فرسان المعبد الذي راح يعمل على حماية مدخلها بإعادة بناء قلعتي قسطنطين ويغراس اللتين تتحكمان في البوابات السورية . وكان رينالد قد قرر تنسيق تعاونه مع نظام فرسان المعبد ، ومن ثم بدأ معه علاقة صداقة قدر لها أن تكون مهلكة للقدس<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن ضمن رينالد الأراضي التي أرادها، طلب الإعانة المالية من الامبراطور ، الذي رفض مشيرا إلى أن المهمة الرئيسية لم تنجز بعد، فما كان من ريموند إلا أن غير سياسته . وبتشجيع من فرسان المعبد، توصل إلى سلام مع ثوروس وأخوته؛ وفي الوقت الذي كان الأرمن يهاجمون فيه القلاع البيزنطية المتبقية فسي كيليكيا، قرر تسيير حملة ضد جزيرة قبرص الغنية. لكنه كان يفتقر إلى المال اللازم لهذه الحملة. وكان بطريق

(١) William of Tyre, xvii, 26 p. 802 ، يقول إنها تزوجت سرا قبل حصولها على إذن الملك . ويطلق عليه Cinnamus, p.178 "واحد اسمه رينالد" Michael the Syrian, Armenian version ، ورد أصل منشأه في Schlumberger (Renauld de Châtillon, p.3). وقد تم الزواج قبل شهر مايو، عندما أكد رينالد امتيازات القيادة في أنطاكية (Rohricht, Regesta, p.72).

(٢) William of Tyre, xviii, 10 pp. 834-5; Michael the Syrian, iii, p. 314 and Armenian version, p. 349 Bar-Hebraeus, trans. ويرد ميخائيل السوري في تاريخه ما يؤيد ثوروس ؛ Bodge, p. 283

انطاكية، إيمري، على جانب كبير من الثراء، وكان قد جاهر بعدم موافقته على زواج كونستانس، ففقد رينالد العزم على معاقبته على النحو الذي يعود عليه بالنفع. وكان إيمري قد نال احترام الأنطاكيين بما كان له من شجاعة ونشاط في الأيام السوداء التي أعقبت موت الأمير ريموند؛ لكن البطريق إيمري كان أميًا منحلّ الخلق مما نال من سمعته وجعلته معرضا للهجوم. وطلب منه رينالد المال، ولمّا رفض فقد رينالد أعصابه وألقى به في غيابة السحن، حيث شرب الأسقف ضربا مبرحا على رأسه، ثم لَطَّخت جراحات رأسه بالعسل وترك على سطح القلعة مقيدا بالسلاسل تحت الشمس المحرقة طوال يوم كامل من أيام الصيف ليكون ضحية لكافة الحشرات في الجوار. وألمر هذا العقاب؛ إذ أسرع البطريق البائس إلى الدفع بدلا من أن يقضي يوما آخر في العذاب. وفي تلك الأثناء وصلت القصة إلى القدس، فارتاع الملك بلدوين وأرسل في الحال مستشاره وألف وأسقف عكا للإصرار على إطلاق سراح البطريق في الحال. وأطلق رينالد سراحه بعد أن حصل على المال، وعاد إيمري بصحة متقذبة إلى القدس حيث استقبله الملك والملكة مليسيند وأخوه البطريق بأسمى آيات التشريف؛ ورفض العودة إلى انطاكية<sup>(٣)</sup>.

#### ١١٥٦ م : رينالد يُغيّر على قبرص

صدمت تجربة البطريق الدوائر الفرنجية المسؤولة، لكن رينالد لم يتجمل، وبماكانه الآن مهاجمة قبرص. وفي ربيع عام ١١٥٦ م، هبط هو وثوروس على الجزيرة فجأة. وكانت قبرص قد تجنبت الحروب والغزوات التي أشاعت الاضطراب في القارة الآسيوية خلال القرن المنصرم، وكانت راضية ومزدهرة في ظل الحكام البيزنطيين. وقبل نصف قرن، كانت طرود الطعام القبرصية ذات عون كبير لفرنج الحملة الصليبية الأولى عندما كان أفرادها يتضورون جوعا أمام انطاكية، وكانت العلاقات بين الفرنج وحكومة الجزيرة تنعم بدفء الود، باستثناء بعض الخلافات الإدارية الموقته. وما أن سمع الملك بلدوين بخطة رينالد حتى أرسل رسالة عاجلة لتحذير الجزيرة، لكنها وصلت بعد فوات الأوان؛ وتعذر دفع التعزيزات لتصل في الوقت المناسب. وكان حاكم الجزيرة هو جون كومتينوس، ابن أخي الامبراطور، وكان معه في الجزيرة الجندي البارز ميخائيل براناس. وبوصول أنباء الهبوط الفرنجي على الجزيرة، اندفع براناس بميليشيات الجزيرة

(٣) William of Tyre, xviii, 1, pp. 816-17; Cinnamus, p. 181.

إلى الساحل وانتزع نصرا مبدئيا صغيرا ؛ غير أن الغزاة كانوا بأعداد غفيرة ، وسرعان ما تغلبوا على جنوده واسروه هو نفسه ؛ وعندما خف جون كومنينوس لمساعدته أمير هو الآخر . ثم أن الفرنج والأرمن المتصرين انساحوا في أرجاء الجزيرة يسلبون وينهبون كل ما تقع عليه أعينهم من المباني التي تستوي فيها الكنائس والأديرة والخوانيت والمنازل الخاصة . وأحرقت الجثث ، وجمعت قطعان الماشية مع السكان كلهم وسبقوا إلى الساحل . واغتصبت النساء ، أما الأطفال والطاعون في السن غير القادرين على الحركة ، فقد قطعت السيوف حناجرهم . وكان نطاق القتل والسلب من السعة والبشاعة بحيث يثير الحسد لدى المغول والمسلمون<sup>(٤)</sup> . وتواصل الكابوس نحوًا من ثلاثة أسابيع ، وبانتشار شائعة بأن الأسطول الامبراطوري في الأفق ، أصدر رينالد أوامره بالعودة إلى السفن التي كانت مكتظة بالأسلاب . فبيعت القطعان والأسراب لأصحابها بأسعار مرتفعة . وأجبر كل قبرصي على أن يفتدي نفسه ، ولم يبق في الجزيرة من المال يدفع للقديسة . ولذا أخذ الغزاة معهم إلى انطاكية الحاكم وبرتاس ، بالإضافة إلى كبار رجال الكنيسة وأبرز الملاك وأهم التجار بعلاماتهم ، ليمنحوا في السجن إلى أن تصل أموال القديسة ، فيما عدا البعض ممن مُرقت أوصالهم وأرسلوا في هيئة ساحرة إلى القسطنطينية<sup>(٥)</sup> . ولم تبق جزيرة قبرص قط من الخراب الذي أحدثته الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن . واكتمل البؤس بزلزل شديدة ضربت قبرص ضربات قاسية عام ١١٥٧م ؛ وفي عام ١١٥٨م أغار الأسطول المصري - الذي لم يهاجم قط بدخول المياه القبرصية - ببعض الغارات العارضة من الحماية ، والأرجح أن ذلك قد حدث بدون إذن رسمي من حكومة الخليفة ؛ إذ كان من بين المأسورين أخو حاكم الجزيرة الذي استقبل في القاهرة استقبالا مشرفا وأعيد في الحال إلى القسطنطينية<sup>(٦)</sup> .

#### ١١٥٧م : الفرنج يهاجمون شيزر

في عام ١١٥٧م ، عاد كونت فلاندرز - ثيرى - إلى فلسطين مع فصيلة من

(٤) (المؤرخ) Huns : شعب مغول احتاح أجزاء كبيرة من أوروبا الشرقية والوسطى تحت زعامة أتيل عام ٤٥٠م تقريبا.

(٥) William of Tyre, xviii, ١0, pp. 834-5; Cinnamus, pp. 78-9; Michael the Syrian, iii, p. 315, and Armenian version, p. 350; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 184 Gregory the Priest, p. 187 إن رينالد قطع أنوف القساوسة اليونانيين الذين أسرههم

(٦) Ibn Moyassar, p. 473.

الفرسان ، وفي الخريف قرر بلدوين انتهاز مجيئه وممرض نور الدين لإعادة ترسيخ الأوضاع الفرنجية في وسط وادي العاصي ، وشجع رينالد على الانضمام إلى الجيش الملكي في الهجوم على شيزر . وكانت قلعتها ، بعد زلزال أغسطس المدمر ، قد سقطت في أيدي عصبة من المغامرين الحشاشين . ووصل الجيش إلى هناك في نهاية العام ؛ وفي الحال استولوا على اسفل المدينة ، وبدأ سقوط القلعة المحطمة وشيكا لولا أن ثارت مشاجرة بين المحاصرين ؛ إذ وعد بلدوين بأن يهب المدينة لتبقى لتكون نواة لإمارة يحتفظ بها تحت سيادة التاج ؛ غير أن رينالد ادعى بأن المنقذين من رعايا أنطاكية ، ومن ثم طلب من ثيرى أن يقدم له فروض الولاء نظير حصوله عليها . وكان الكونت يرى أنه من المحال التفكير في تقديم فروض الولاء لمثل هذا الرجل المجهول الأصل . ولم يستطع بلدوين تسوية المشكلة إلا بتخليه عن الأراضي المتنازع عليها ، وتمركز الجيش ميتعنا باتجاه الشمال للإستيلاء على أطلال أقاميا ثم محاصرة حارم . وهذه الأراضي أراض أنطاكية بلا شك ، لكن بلدوين وثيرى كانا على استعداد لمساعدة رينالد على استعادتها نظرا لأهميتها الاستراتيجية . وبعد قصف شديد بالمنحنيقات استسلمت في فبراير ١١٥٨ م ، وبعد وقت قليل عهد بها إلى أحد فرسان ثيرى هو رينالد (أوف سانت فاليري) الذي احتفظ بها تحت سيادة أمير أنطاكية<sup>(٧)</sup> .

لم يرض الملك عن تصرف أمير أنطاكية وقرر إعادة توجيه سياسته . وكان مدركا لعلاقة رينالد السيئة مع الامبراطور الذي لا يُحتمل أن يغفر الغارة على قبرص ، كما كان مدركا لحقيقة أن الجيش البيزنطي لا يزال أقوى الجيوش في العالم المسيحي . وفي صيف عام ١١٥٧ م أرسل سفارة إلى القسطنطينية ملتصقا بختيار عروس من العائلة الامبراطورية . وكان علي رأس السفارة أشار ، رئيس اساقفة الناصرة ، الذي مات أثناء الرحلة ، وهمفري الثاني أمير تينين . واستقبل الامبراطور مانويل السفارة استقبالا حسنا ؛ وبعد شيء من المفاوضات عرض ابنه اخته ثيودورا مع بائة مقدارها مائة ألف قطعة هيربري ذهبية بالإضافة إلى عشرة آلاف أخرى لمصروفات الزفاف ، وهدايا تعادل ثلاثين ألفا أخرى . ولقاء ذلك بتعين منحها عكا والأراضي التابعة لها كبائة تحتفظ بها في حالة موت زوجها دون ذرية . وبعودة السفارة وتأكيد الملك قبوله

(٧) William of Tyre, xviii, 17-19, pp. 847-53; Robert of Torigny, i, p.316; Michael the Syrian, Armenian version, pp.351-3, Ibn al-Qalanisi, pp.342, 344 فاليري) لا يزال أحد بارونات القدس في ١١٦٠ م (Rohricht, *Regesta*, p.94) لكنه عاد إلى الغرب بعد ذلك مباشرة . والمؤرخ الوحيد الذي يخبرنا بأنه شُح حران هو Robert of Torigny.



الشروط ، أبحرت الأميرة الصغيرة من القسطنطينية ووصلت عكا في سبتمبر ١١٥٨ م ، وارتحلت في أبيه إلى القدس ، حيث تزوجت الملك بحراسم زواج قام بها البطريق ايمري الأنطاكي ، إذ لم يكن البابا قد ثبت بعد بطريق القدس المنتخب . وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وانما كانت فارعة القامة وجيلة . وشُرَّ بها بلدين ، وسار سيرة الزوج المخلص بعد أن تخلى عن أبيهم عزوبته المنحلة<sup>(٨)</sup>.

ويبدو أن مانويل وعد أثناء المفاوضات بالانضمام في تحالف ضد نور الدين ، وإن بلدين وافق على ضرورة اخضاع رينالد . وفي تلك الأثناء أغار الملك على الحدود الدمشقية . وفي مارس ١١٥٨ م قام هو وكونت فلاندرز بزحف مفاجئ على دمشق نفسها يوم أول ابريل محاصرا قلعة داريا وضواحيها . بيد أن نور الدين ، بعد أن هائل للشقاء ، كان في طريقه بالفعل جنوبا ليضع نهاية للمكائد التي أُنعت هناك أثناء مرضه ، فوصل دمشق في السابع من ابريل مما أثار مشاعر البهجة البالغة لدى سكانها، ورأى بلدين الحكمة في أن ينسحب . فقام نور الدين بهجوم مضاد ؛ وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضى صيدا ، كان هو نفسه يهاجم قلعة الحبيس جلدك التي بناها الفرنج كمخفر امامى جنوب شرق بحر الجليل على ضفاف نهر اليرموك . وكان الهجوم شديدا على الحامية بحيث سارعت إلى الموافقة على التسليم في حالة عدم وصول العون في غضون عشرة ايام ؛ ولذا خف بلدين مع الكونت ثري لتحدثها . غير انه بدلا من أن يذهب اليها مباشرة ، سلك الطريق الواقع شمال البحيرة والمؤدي إلى دمشق. وأقلحت الحيلة ؛ إذ حشى نور الدين على عطلوط مواصلاته فرفع الحصار . وتقابل الجيشان عند قرة البطيحة الواقعة شرقي وادي الأردن الأعلى . وما أن لمح الفرنج المسلمين حتى هاجموا وهم يظنونهم مجرد فرقة كشافة . لكنهم سمعوا صهيل جنود كان الملك قد اعطاه لأحد الشيوخ المعروف انه مع نور الدين - وقد تعرف الجنود على رائحة أصدقائه القدامى بين غيول الفرنج - فتلهم ذلك الصهيل على أن القوة المسلحة كلها قد وصلت. ووجد نور الدين، الذي لم يكن بكامل عافيته، من حته على مغادرة ساحة القتال، وبرحيله استدار الجيش كله متسحبا بشئ من عدم النظام . وكان النصر الفرنجي كافيا لاقتناع نور الدين بطلب الهدنة. وللسنوات القليلة التالية لم تكن هناك أعمال حربية جادة على الحدود السورية الفلسطينية؛ وبذا تمكن كل من بلدين ونور

(٨) William of Tyre, xviii, 16, 22, pp. 846, 857-8; Gregory the Priest, pp. 186-9; Matthew of Edessa, ccxciii, pp. 352-8.

الدين من تحويل اتباعه إلى الشمال<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٥٨ م : الامبراطور مانويل يدخل كيليكيا

انطلق الامبراطور من القسطنطينية في خريف عام ١١٥٨ م على رأس جيش عظيم ميمما وجهه شطر كيليكيا . وبينما كانت القوة الرئيسية تتبعه بطيئة بطول الطريق الساحلي الوعر شرقا أسرع هو إلى الأمام مع قوة تتألف من مجرد خمسمائة فارس . وكانت استعداداته من السرية وحركته من السرعة بحيث لم يعلم أحد في كيليكيا بحجته . وكان الأمير الأرمني ثوروس في طرسوس لا يرتاب في شيء ، إلى أن حدث فجأة في يوم ما في أواخر أكتوبر أن اندفع إلى بلاطه حاج لاتيني كان على سابق معرفة به ، يخبره أنه شاهد جنود الامبراطورية على مسيرة مجرد يوم واحد . فجمع ثوروس عائلته وأصدقاءه المقربين وأمواله وهرب من فوره إلى الجبال . وفي اليوم التالي دخل مانويل سهل كيليكيا . وفي الوقت الذي احتل فيه صهره ثيودور فاتانيسيس طرسوس ، وأصل هو تقدمه بسرعة ؛ وفي غضون أسبوعين كانت كل مدن كيليكيا حتى عين زربه في قبضته . على أن ثوروس نفسه كان ما يزال يراوغه ؛ فبينما راحت الفصائل تجوب الوديان بحثا عنه ، كان هو يهرب من قمة تل إلى قمة أخرى إلى أن وجد الملاذ أخيرا على قمة صخرة شائعة يطلق عليها داجيج ، بالقرب من منابع نهر اليردان التي لم يسكن أطلاقا أحد لأجيال غلت . ولم يعرف أحد مكان اختبائه سوى خادميه اللذين يثق فيهما ثقة عمياء<sup>(١٠)</sup>.

بات رينالد هلوغا لوصول الامبراطور . وكان يدرك تمام الإدراك أن لا قبل له بمقاومة جيشه الامبراطوري العرمرم ؛ وقد انقذه ادراكه هذا . إذ سارع بالخضوع من فوره وهو يعلم أنه بذلك يستطيع الحصول على شروط أفضل للغاية منها في حالة هزيمته في معركة . وأكد له حيرار - أسقف اللاذقية - وهو أكثر مستشاريه فطنة وفراغة ، أن دوافع الامبراطور هي الكبرياء وليس الغزو . فسارع رينالد بارسال من يعرض تسليم قلعة انطاكية لحامية بيزنطية ، وعندما جاءه مبعوثه ليخبره بأن ذلك لا يكفي ، ارتدى هو نفسه رداء النائب وأسرع إلى معسكر الامبراطور خارج اسوار

(٩) William of Tyre, xviii, 21 pp. 855-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 346-8; Abu Shama, pp. 97-100. (ويقول أبو شامة إن بلندين طلب الهدنة، وربما اعتمد على حملة مبهمة عند ابن القلايس).

(١٠) Cinnamus, pp. 179-81; Matthew of Edessa, loc. cit.; Gregory the Priest.

المصيبة . وكان المبعوثون من كافة الأمراء في الجوار يتوافدون لتحية الاميراطور ، من نور الدين ، ومن الدانشمند ، ومن ملك جورجيا ، وحتى من الخليفة . وأمر مانويل بترك رينالد ينتظر قليلا . ويبدو أن الاميراطور قد تسلم في تلك اللحظة رسالة من البطريق المنفى ليمرى يقترح فيها إحضار رينالد أمامه مكبلا بالسلاسل وعلمه . غير أن الاميراطور رأى الأفضل له أن يحتفظ به عميلا وضيعة . وفي جلسة وقورة للاميراطور على عرشه في عيسته العظيمة ، وقد تحلقت حوله جماعات حاشيته والسفراء الأحياتب ، واصطلت فصائل بديعة من الجيش على المداخل ، كان عضوع رينالد : فسار هو وأتباعه حفاة الأقدام عاري السرووس خلال المدينة ثم خارجها إلى المعسكر ، حيث سجد في التراب أمام منصة الاميراطور ، بينما رفع أتباعه أيديهم في تضرع . ومرت دقائق كثيرة قبل أن يتنازل مانويل ويلاحظ وجوده ، ثم مُنح المغفرة بشروط ثلاثة : أن يسلم القلعة إلى حامية اميراطورية في اى وقت يُطلب منه ذلك ؛ وعليه أن يقدم كتيبة إلى الجيش الاميراطورى ؛ وأن يقبل بطريقا يونانيا لأنطاكية بدلا من البطريق اللاتينى . وأقسم رينالد على أن يلتزم بتلك الشروط ، ثم صرفه الاميراطور وأعيد إلى انطاكية .

لدى وصول أنباء اقتراب مانويل سارع الملك بلدوين ومعه اخوه أمثالريك والبطريق ليمرى شمالا فوصلوا انطاكية في أعقاب عودة رينالد مباشرة . ولما علم بلدوين بالعفو عن رينالد شعر بشئ من غيبة الأمل وكتب لمانويل في الحال ملتصبا بالاحتماع به . وتردد مانويل لأنه ظن على ما يبدو أن بلدوين كان يرغب في أن يستأثر بالامارة ؛ وربما كان ذلك جزءا من مقترحات ليمرى . ولما أصر بلدوين وافق الاميراطور . وركب بلدوين خارجا من انطاكية يودعه مواطنوها متوسلين اليه أن يصالحهم مع الاميراطور . ونجحت المقابلة نجاحا بالغا ؛ إذ اتفق مانويل بالملك الصغير وأتباعه ضيفا لديه لعشرة ايام . وبينما كانا يناقشان خطط التحالف ، نجح بلدوين في الحصول على عفو عن ثوروس الذى قام بنفس الخطوات التى قام بها رينالد وسمح له بالاحتفاظ بأراضيه في الجبال . وربما يُعزى إلى بلدوين عدم اصرار الاميراطور على التنصيب القورى لبطريق يونانى ، واعيد تنصيب ليمرى رسميا في عرشه البطريقى وأجريت مصالححة رسمية بينه وبين رينالد . وعاد بلدوين عميلا بالهدايا إلى انطاكية وقد خلف وراءه أعداء مع الاميراطور .

## ١١٥٩ م : الاميراطور في أنطاكية

وفي أحد الفصح ١٢ أبريل ١١٥٩ م جاء مانويل إلى أنطاكية ودخل المدينة في موكب وقور . وحاولت السلطات اللاتينية أن تبقى خارج المدينة قائلة إن هناك مؤامرة لاحتلاله هناك ؛ لكنه لم يعبأ بالتهويل ، ولم يطلب سوى بعض الرهائن من المواطنين ، وأن يُحرد الأمراء اللاتينيين المشتركين في الموكب الزياحي من سلاحهم ، وارتدى هو نفسه درعا تحت أرديته ، ولم تحدث حادثة سيئة . وبينما كانت الرعايات الاميراطورية ترغف أعلى القلعة ، كانت حاشيته تعبر الجسر المحصّن داخل المدينة . وأتى أولا الحرس الاميراطوري الاسكندنافي الفخيم ؛ ثم الاميراطور نفسه على صهوة جواد منشحاً برداء أرجواني وعلى رأسه تاج مرصع بذر اللؤلؤ ، وريثاً على قدميه محسكاً بلحام حواده، ومشى لوردات فرنج آخرون بجوار الجواد . وتبعه بلنديون على حواده بلا تاج وبلا سلاح . ثم جاء خلفهما كبار مسؤولي الاميراطورية . وفي داخل البوابات مباشرة كان الطريق ليرى منتظراً ، بكامل أرديته البابوية ومعه رجال كنيسته كلهم ليقود الموكب الزياحي خلال شوارع المدينة، التي فرشت باليسط والزهور، إلى كنيسة القديس بطرس أولاً ثم إلى القصر .

ومكث مانويل في أنطاكية ثمانية ايام قضاه في حفول من بعدها حفول . ورغم انه كان هو ذاته ذا كبرياء وجلال في المناسبات الجديرة بالوقار ، إلا أنه أشاع من حاذيته وتودده ما أسر الجموع ، وزادت البهجة في مجملها بما كان يفتقه من سخاء هداياه على النبلاء والعوام على السواء . وفي لفته إلى أبناء الغرب نظم بعض العاب الفروسية وأشرك رفاقه معه في المقاتلة ؛ وكان فارساً بارعاً وأدى دوره بمظاهر الشرف؛ غير أن رفاقه - وكانت الفروسية عندهم وسيلة لا غاية - تركوا انطباعاً أقل بالمقارنة بفارسان الغرب . وقويت عرى الود بين الاميراطور وبين ابن اخته بالزواج - الملك . وعندما كسرت ذراع بلنديين أثناء الصيد ، أصر مانويل على أن يعالجه بنفسه، فحما كما كان يقوم بدور المستشار الطبي لكونراد الألماني<sup>(١١)</sup>.

(١١) William of Tyre, xviii, 23-5 pp. 859-64; Cinnamus, pp. 181-90; Nicetas Choniates, pp. 141-5; Prodromus, in R.H.C.G. II, pp. 752, 766 Matthew of Edessa, cclxxiv, pp. 354-5; Gregory the Priest, pp. 188-9; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 505; Ibn La Monte 'To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?' in *Byzantion*, vol. VII

## ١١٥٩ م : الهدنة بين مانويل ونور الدين

كان الأسبوع الرابع علامة على انتصار كبرياء الامبراطور ؛ وكان حيرار أسقف اللاذقية على حق عندما قال إن ما يريده الامبراطور هو الكبرياء وليس الغزو . وعندما انتهت الاحتفالات كلها انضم إلى جيشه مرة أخرى خارج الأسوار وانطلق شرقا إلى الحدود الإسلامية ؛ حيث قابله في الحال تقريبا سفراء نور الدين ومعهم كامل السلطة للتفاوض على هدنة ؛ فاستقبل السفراء وبدأت المناقشات مما أشعل حنق اللاتين الذين كانوا يتوقعونه أن يزحف على حلب . وباقتراح نور الدين إطلاق سراح جميع أسراه من المسيحيين البالغ عددهم ستة آلاف أسير في سجنونه ، وتسيير حملة ضد الأتراك السلاجقة ، وافق مانويل على إلغاء حملته .

وربما لم يكن في نية مانويل الاستمرار في حملته قط، وبزعم ما صدر عن الصليبيين والمدافعين عنهم من المؤرخين العصريين من صرخات توهم الامبراطور بالخيانة ، فمن العسير علينا أن نتصور ما كان يستطيع الامبراطور أن يفعله غير ذلك . لقد كانت سوريا بالنسبة للصليبيين تمثل الأهمية كلها ، لكنها كانت بالنسبة لمانويل مجرد واحدة من المناطق الحدودية الكثيرة ، وليست بالمنطقة الحيوية لامبراطوريته . ولم يكن بوسعهم البقاء شهورا طويلة في نهاية خط مواصلات طويل ومعرض للمخاطر ، ولا أن ينامر بتسليم جسيمة جليشه - وإن كان عظيمًا - ثم يتصل من الملامة . وفضلا عن ذلك ، لم يكن راغيا في كسر قوة نور الدين ، إذ كان يدرك من التجربة المبررة أن الفرنج لم يرحبوا به إلا عندما خشوا سطوته ، ومن ثم يكون من الحمق أن يقضى على مصدر خوفهم الرئيسي؛ إلى جانب أن التحالف مع نور الدين يعد بمثابة أصل من الأصول النفيسة في حروبه مع أعداء أعظم علي الامبراطورية بكثير ، ألا وهم أتراك الأناضول . غير أنه يقدم المساعدة ، كما تظهر الأحداث اللاحقة ، ليمتص نور الدين من غزو مصر؛ إذ أن ذلك يقلب الموازين بصورة قاتلة . وربما تسرع في الهدنة ، إذ كان بوسعهم الحصول على شروط أفضل ؛ لولا أنه تلقى أنباء تشير القلق بوجود مؤامرة في القسطنطينية واضطرابات على حدوده الأوروبية . وعلى أية حال ، لم يكن بوسعهم البقاء أكثر من ذلك في سوريا<sup>(١٢)</sup> .

(١٢) William of Tyre, xviii, 25, p. 864 (لا يوجه لوما إلى الامبراطور بأي حال) ; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, p. 229; Cinnamus, pp. 188-90; Gregory the Priest, pp. 190-1; Matthew of Edessa, cclxcv, pp. 355-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 353-5.

ومع ذلك ، كانت هدته مع نور الدين عطاء نفسيا . إذ كان الفرنج آنذاك على استعداد لقبوله سيدا لهم ؛ لكن الحكيم من ذوى البصيرة يراه وقد أظهر نفسه مهتما بمصير الامبراطورية بصورة اكثر من اهتمامه بمصيرهم . كما أنهم لم يبدوا كثير تعزية في الإفراج عن الأسرى المسيحيين الذين يضمنون بعض أهم البحارين المحليين ، ومن بينهم السيد الأعظم لفرسان المعبد برتراند (أوف بلانسفورت) ؛ إلا أن أغلبهم كانوا من الألمان الذين وقعوا في الأسر إبان الحملة الصليبية الثانية ، وفيهم برتراند (أوف تولوز) المطالب بامارة طرابلس ، والذي قد يكون ظهوره مرة أخرى سببا للحرج لولا أن حال الأسر دون موته<sup>(١٣)</sup>.

بعد أن عقد الامبراطور الهدنة انسحب مع جيشه غربا ، بطيئا أول الأمر ، ثم بدأ يسرع بمرور أنباء من عاصمته تثير المزيد من الانذار . وحاول بعض اتباع نور الدين مناوشة الجيش على غير رغبة سيدهم . ولإختصار المسافة ، اتجه الجيش من خلال الأراضي السلجوقية ، وحدثت مناوشات مع جنود السلطان ؛ غير أن الجيش وصل سالما إلى القسطنطينية في أواخر الصيف . وبعد ثلاثة اشهر تقريبا عبر مانويل مرة أخرى إلى آسيا في حملة ضد السلاجقة ، يجرب فيها معهم شكلا من التكتيكات أكثر حركة، بينما كان مبعوثوه يعملون على تعزيز التحالف ضد السلطان السلجوقي قلعج ارسلان الثاني . وشعر نور الدين بالارتياح العميق لرحيل مانويل ، فتوغل في الأراضي السلجوقية من أواسط الفرات ؛ وهاجم الأمير الدانشمندى يعقوب ارسلان من الشمال الشرقي هجوما بلغ من نجاحه أن اضطر السلطان إلى أن يتنازل له عن الأراضي المحيطة بالبستان في جبال طوروس المقابلة . وفي تلك الأثناء ، كان القائد البيزنطي جون كوتوستيفانوس يجمع فصائل الجنود التي التزم بتقديمها بموجب المعاهدة كل من رينالد وثوروس ، إلى جانب فصيلة من البجناك تركها مانويل ماكثة في كيليكيا ، ثم تحرك بكل هذا الجمع خلال مضائق جبال طوروس ؛ وزحف مانويل مع الجيش الامبراطوري الرئيسي أعلى وادي المياندر ، بعد أن عزز الجيش بجنود أرسلها امير الصرب ، وبالحجاج الفرنج الذين جندوا عندما رست سفنهم في جزيرة رودس . وكان على السلطان أن يقسم قواته . وبعدها أحرز كوتوستيفانوس نصرا كاملا على الأتراك الذين تصدوا له ، كف قلعج ارسلان عن الحرب ؛ وكتب إلى الامبراطور عارضا السلام لقاء إعادته كل المدن اليونانية التي احتلها المسلمون في السنوات الحديثة ، والتأكد من

احترام الحدود وتوقف الغارات ، وتقديم فصيحة لتجارب في جيش الامبراطور متى يُطلب منه ذلك . ووافق مانويل على الشروط ؛ لكنه احتفظ لديه احتياطيا بأعلى السلطان المتمرد ، شاهنشاه ، الذي جاءه طالبا الحماية . ولذا ، وكى يؤكد قلعج ارسلان المعاهدة ، أرسل مستشاره المسيحي كريستوفر إلى القسطنطينية مقترحا القيام بزيارة رسمية للباط الامبراطوري . وتوقفت الأعمال الحربية في صيف عام ١١٦١ م ، وفي الربيع التالي استقبل قلعج ارسلان في القسطنطينية . وكانت الاحتفالات رائعة ، وعومل السلطان باسمي آيات التشريف وأمطروه بالهدايا ، لكنه عومل كأمر تابع . وكان للزيارة أثرها في أمراء الشرق كلهم<sup>(١٤)</sup>.

وعند الحكم على سياسة مانويل الشرقية ، لا بد لنا من أن نحكم في هذا الضوء العام . فقد فاز بنصر كبير على نفيس ، وأخضع السلاجقة - على الأقل مؤقتا - وهم الذين يمثلون التهديد الرئيسي لامبراطوريته . وقد جلب هذا النجاح على الفرنج بعض المزايا المعينة ؛ فمع أن نور الدين لم يهزم ، إلا أنه خاف ، ولن يحاول شن هجوم مباشر على الأراضي المسيحية ؛ وفي الوقت نفسه تسبب السلام مع السلاجقة في إعادة فتح الطريق البري للحجاج القادمين من الغرب الذين كانت أعدادهم أخذت في التزايد ، وأما عن الأعداد الأكثر التي لم تصل ، فذلك يعزى إلى السياسات الغربية ، وإلى الحروب الدائرة بين الموهينشتافن وبين البابويين<sup>(١٥)</sup> في ألمانيا وإيطاليا ، وبين الكاثوليك والبلاتاجونيت<sup>(١٦)</sup> في فرنسا . ومع أنه كان مقدرا أن يبقى ليزنطة أعظم نفوذ في شمال سوريا للسنوات العشرين التالية ، كان أصدقاؤها الأصلاء بين الفرنج قليلين .

(١٤) Cinnamus, pp. 191-201, 204-8; Nicetas Choniates, pp. 152-64; Gregory the Priest, pp. 193-4, 199; Matthew of Edessa, cclxxxii, p. 364; Michael the Syrian, iii, p. 320; Chron. Anon. Syr. p. 302; Ibn al-Athir, p. 544.

(١٥) (المؤرخ) الموهينشتافن Hohenstaufen: إن اسم الأسرة التي حكمت ألمانيا (١١٣٨-١٢٠٨م) وصقلية (١١٩٤-١٢٦٨م) . والبابويين Papalists نسبة إلى الدول البابوية Papal State في وسط وشمال إيطاليا والتي حكمتها البابوية من القرن الثامن وحتى عام ١٨٧٠م .

(١٦) (المؤرخ) الكاثوليكيون أو الكاثوليك Capetians: نسبة إلى الأسرة الحاكمة الفرنسية (٩٨٧-١٣٢٨م) التي أسسها هيو كابيت Hugh Capet . والبلاتاجونيت Plantagenets: اسم الأسرة التي حكمت إنجلترا (١١٥٤-١٣٩٩م) .

## ١١٦٠ م : رينالد يقع في الأسر

أظهرت أحداث عام ١١٦٠ م طبيعة السيادة الامبراطورية على انطاكية وقيمتها سواء بسواء . وكان الملك بلدوين قد عاد إلى الجنوب ، وانتشغل ببعض الغارات القليلة الضئيلة على الأراضي الدمشقية متنهزا انتشغال نور الدين في الشمال ، إلى أن سمع بأن رينالد قد وقع في أسر نور الدين . ذلك أن حركة القطعان الموسمية من جبال طوروس المقلبة إلى سهول الفرات ، أغرت الأمير بالإغارة أعلى وادي النهر في نوفمبر ١١٦٠ م. وأثناء عودته البطيئة نظرا لما كان يسوقه من قطعان الماشية والجمال والحياد التي جمعها ، وقع في كمين نصبه له حاكم حلب مجد الدين ، وهو أخو نور الدين في الرضاع . وقد حارب بشجاعة ، لكن رجاله كانوا قلة أمام عدوهم ، وأخير هو نفسه على الترحل واقتيد أسيرا . وأرسل مع رفاقه وهم مقيدون ، على ظهور الجمال إلى حلب حيث قدر له أن يبقى في السجن ستة عشر عاما . ولم يسارع أحد لإفئدائه ، لا الامبراطور ولا ملك القدس ولا حتى أهالي انطاكية . وفي سجنه وجد حواريين الصغير (أوف كورتناي) كونت الرها باللقب فقط ، الذي سبق أن أسرف في غارة قبل ذلك بشهور قليلة<sup>(١٧)</sup>.

وأثارت إزاحة رينالد مشكلة دستورية في انطاكية التي كان يحكم فيها كنزوح للأرمية كونستانتس، التي طالبت الآن بتحويل السلطة إليها؛ غير أن الرأي العام أبد حقوق ابنها من زواجها الأول ، برهمند الذي اشتهر باسم "المتحليج" ، وهو مع ذلك في الخامسة عشرة من عمره . وكان ذلك الوضع شبيها بوضع الملكة مليسند وبلدوين الثالث في القدس قبل ذلك بسنوات قليلة . ولم يكن هناك خطر محقق، إذ أن عشية نور الدين من مانويل صدته عن مهاجمة انطاكية نفسها . على أنه يتعين وجود نوع من الحكومة الفعالة . وبصيغة مباشرة ، كان للإمبراطور - المقبول كسيد أعلى لانطاكية - أن يسوى المسألة . لكن مانويل بعيد ، والأنطاكيون لم يقبلوه بدون تحفظات ؛ وكان نورمانديو انطاكية من الأمراء يعتبرون أنفسهم أمراء ذوي سيادة . غير أن كثرة وجود أمراء من القصر بين خلفائهم كانت تجبر ملوك القدس على التدخل بصفاتهم من الأقارب أكثر من كونهم ملوكا . ومع ذلك ، شبت في انطاكية عاطفة تعتر الملك السيد الأعلى ، ولا شك في أن مانويل أصبح مقبولا بيسر كبير لأن بلدوين كان يوافق

(١٧) William of Tyre, xviii, 28 pp.868-9; Matthew of Edessa, cchocci, pp. 363-4; Chron. Anon. Syr. p.302; Gregory the Priest, p.308; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 533; Cahen (op. cit. p.405 n.1) ويرد كاهن Cahen مصادر اضافية ويناقش طوغرافية الأرض.



على هذه الترتيبات . وانتهت أنظار أبناء انطاكية الآن إلى بلدوين لا مانويل ، لايجاد حل ؛ وبناء على دعوتهم جاء إلى انطاكية ، وأعلن أن يوهنن الثالث هو الأمير الشرعي ، وعهد بالحكومة إلى البطريق إيمري إلى أن يثبت الأمر عن الطوق . وكان قرارا أغضب كونستانس ، وكان أسلوبا أغضب مانويل . وفي الحال ناشدت الأميرة البلاط الامبراطوري التدخل للانتصاف<sup>(١٨)</sup>.

#### ١١٦٦ م : مليسند الطرابلسية

في نهاية ١١٥٩ م ماتت امبراطورة بيزنطة إيرين - المولودة باسم بيرثا (أوف سولزياخ) - تاركة وراءها طفلة وحيدة . وفي عام ١١٦٠ م ، وصلت القلمس سفارة يرأسها جون كوتوستيفانوس ، بصحبها رئيس مترجمي البلاط ، ثيوفيلكت الإيطالي ، تلتزم من الملك ترشيح إحدى أميرات الشرق الغربي تكون عروسا مناسبة للإمبراطور البيزنطي الأرملة . وكان هناك اثنتان من المرشحات - ماريا ابنة كونستانس أميرة طرابلس ، ومليسند ابنة ريموند الثاني أمير طرابلس . وكلتااهما من بنات عرولة بلدوين ، وقد اشتهرتا كلتااهما بالجمال . وارتاب بلدوين في تحالف عائلي وثيق الصلة بين الامبراطور وانطاكية ، ولذا رشح مليسند ؛ وارتحل السفراء إلى طرابلس لإبلاغ الأميرة التي حياها الشرق الغربي كله على انها امبراطورة المستقبل ؛ وانتشى بالفخار ريموند أمير طرابلس بقرار منح أمته مهرا يليق بها ، واتفق المبالغ الطائلة على تجهيزها . وانهمرت الهدايا من امها هوديرنا وعائلتها الملكة مليسند . وهول الفرسان من سائر الأنحاء إلى طرابلس يداعبهم أمل دعوتهم إلى الزفاف . على أن القسطنطينية لم تبعث بتأكيد الزواج . وأرسل السفراء إلى مانويل أوصافا متلألئة لشخصية مليسند ، لكنهم سجلوا كذلك شائعة حول مولدها تستند إلى الشجار الشهير بين أمها وأبيها . ويبدو أن لم تكن هناك ريبة حول شرعيتها في حقيقة الأمر ، ويبدو أن تلك الشائعة الباطلة جعلت الامبراطور يزداد . ثم إنه سمع بتدخل بلدوين في أنطاكية ، ثم تسلم مناشدة كونستانس للانتصاف . وفي باكورة صيف ١١٦٦ م ، نفذ صير ريموند ، فأرسل أحد فرسانه - أوتو (أوف ريسيرج) - ليسأل عن التطورات ؛ وعاد أوتو في

(١٨) William of Tyre, xviii30, p.874؛ ويقول ميخائيل السوري Michael the Syrian, iii, p.324 إن ثوروس أبعد كونستانس عن حكم انطاكية.

أغسطس تقريبا ينبع بأن الامبراطور تخلى عن الارتباط<sup>(١٩)</sup>.

فأما مليسند ، فكانت الصدمة والإهانة فوق احتمالها ، فقال منها الضعف وسرعان ما ذوت مثل "الأميرة بعيدة المنال" *Princesse Lointaine* ، في رومانسية العصور الوسطى الفرنسية . وأما أحوالها وموتها فقد احتدم غيظا ، وفي ثورته طلب تعريضه عن المبالغ الطائلة التي أنفقها على جهازها ؛ ولما رُفض طلبه جهز السفن الإثنى عشرة التي وصلته لتتقل العروس إلى القسطنطينية وحوّلها إلى سفن حربية مسلحة وقادها للإغارة على سواحل قبرص<sup>(٢٠)</sup> . وأما الملك بلدين ، الذي كان ينتظر مع بنات عروسته يتربّأ الأبناء ، فقد شعر بالقلق ، خاصة عندما تلقى السفراء البيزنطيون أوامر بالذهاب إلى أنطاكية ؛ فهزول وراهم ليحد في أنطاكية سفارة فخيمة من الامبراطور ، يرأسها الكسيوس برينيوس كومنينوس ابن أُنّا كومنين ، ووالى القسطنطينية ، جون كاماتيروس . وكانوا قد تفاوضوا فعلا على عقد زواج بين سيدهم وبين الأميرة ماريا الأنطاكية ؛ وكان وجودهم كافيا لتثبيت كونستانس حاكمة للإمارة . واضطر بلدين إلى قبول هذا الوضع . وأما ماريا ، التي كانت أجهل حتى من ابنة خالتها مليسند ، فقد أبحرت من ميناء السويدية في سبتمبر ، بملأها الفخار أن تصبح امبراطورة ، وتشملها السعادة وقد غاب عنها ما سيكون عليه مصيرها في نهاية مطافها . وعقد زواجها إلى الامبراطور في ديسمبر في كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية بمعرفة ثلاثة بطارقة ، ليوك بطريق القسطنطينية ، وسوفرونوس بطريق الإسكندرية ، وأثناسيوس الثاني ، صاحب لقب بطريق أنطاكية<sup>(٢١)</sup>.

#### ١١٦٢ م : موت بلدين الثالث

أدرك بلدين قيمة التحالف البيزنطي ؛ لكن نجاح ماتويل كان أعظم مما كان يرغبه في الشمال السوري المسيحي وأقل فعالية ضد نور الدين ، رغم أن التحالف

(١٩) William of Tyre, xviii, 30, pp. 874-6. ويقول سنابوس pp. 208-10 Cinnamus, إن صحة مليسند لم تكن مرضية ، فضلا عن الشائعات حول عدم شرعيتها. وقد ذكرت مليسند على أنها امبراطورة قسطنطينية للقبلة في ميشاق ٣١ برولية ١١٦١ م ، عندما منح شرق الأردن إلى فيليب (أوف ميلف) ، ووقعه كانت هي وأسوهلح الملك في الناصرة (Rohrich, *Regesta*, p. 96).

(٢٠) William of Tyre, xviii 33, 31, pp. 876-9.

(٢١) Nicetas Choniates, p. 151 وورد *Ibid.* xviii, 31, pp. 875-6; Cinnamus, p. 210-II, بالغا لجمال الامبراطورة الجديدة .

جعل المسلمين في حالة من الهدوء طوال الستين التاليين . وعاد الملك بلدوين إلى مملكته بعد هزيمته الدبلوماسية في زواج الامبراطور . وقد سارت حكومته في القدس سيرا سلسا منذ إقصاء والدته عن السلطة . وكانت قد برزت عام ١١٥٧م لولاس مجلسا للرعاية أثناء أن كان بلدوين بعيدا في الحروب ، واحتفظت لنفسها برعاية الكنيسة . وبعد وفاة البطريرك فولشر في نوفمبر من ذلك العام - ١١٥٧م - ضمنت تعيين خليفته أمالريك (أوف نيسيل) ، وهو قس بسيط كانت تعرف عنه تعليمه الجيد ، إلا أنه لا يهتم بالحياة الدنيوية وغير عملي . وعارض ترقية هرنيس رئيس أساقفة قيصرية ، ورالف أسقف بيت لحم ؛ فاضطر البطريرك أمالريك إلى إرسال أسقف عكا ، فريديريك ، إلى روما لضمان التأيد البابوي . وأفلحت براعة فريديريك ورشايه - كما أُلح - في الحصول على تأييد الحكومة البابوية<sup>(٢٢)</sup> . وجاءت في المرتبة الثانية بعد مليسند ابنة زوجها ، سيبيل (أوف فلاندرز) التي رفضت العودة إلى أوروبا مع زوجها ثيرى عام ١١٥٨م وبقيت كراهبة في الدير الذي كانت مليسند قد أنشأته في بيتاني . وبعد أن ماتت مليسند في سبتمبر ١١٦١م ، بينما كان الملك في أنطاكية ، خلفتها سيبيل في ممارسة نفوذها في العائلة الملكية وفي الكنيسة إلى أن ماتت بعد ذلك بأربع سنوات<sup>(٢٣)</sup> .

وبينما كان الملك بلدوين مارا خلال طرابلس سقط مريضا . وأرسل كونت طرابلس طبيبه الخاص - براك السيرياني - لمداراه ، لكن حالة الملك ازدادت سوءا ؛ وانتقل إلى بيروت حيث مات يوم ١٠ فبراير ١١٦٢ . وكان طويل القامة ، قوي البنية ، وكانت بشرته النضرة ولحيته الكتلة الشقراء توشحان بالصحة والرحولة ؛ فظن العالم كله أن عقاقير براك قد شتته . وكان في ربيع الثالث والثلاثين ، ولو قدر له أن يعيش أكثر من ذلك ، لأصبح ملكا عظيما لما كان لديه من طاقة وبصيرة نافذة وحاذية شخصية لا تقاوم . وكان يجيد القراءة والكتابة ، وعلى علم بكل من التاريخ والقانون . وبكاه رعاياه بمرارة ، وجاء حتى الفلاحون المسلمون من التلال للإعراب عن تقديرهم في موكبه الجنائزي الذي تحرك بطيما إلى القدس . واقترح البعض من أصدقاء نور الدين على الأتابج أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم على المسيحيين ، غير أن نور الدين

(٢٢) William of Tyre, xviii, 20p. 854. وترد أمثلة على الأعمال الخيرية الدينية التي قامت بها مليسند في علي ١١٥٩م و١١٦٠م في Rohricht, *Regesta*, pp. 88, 94.

(٢٣) William of Tyre, loc. cit. يذكر اشراك سيبيل . وبذكر Ernoul, p.21 ورفض سيبيل مغادرة الأراضي المقدسة.

الذى وصل لنوره من حجه في مكة بعد كثرة التأجيل رفض إزعاج الناس وهم يتحبسون  
على فقد مثل هذا الأمير العظيم<sup>(٢٤)</sup>.

(٢٤) William of Tyre, xvi, 2, pp. 705-6، يذكر وصفا تقريبا لشخصية بالدرين الثالث .

---

---

## الفصل الرابع:

### تربص مصر

\_\_\_\_\_

10/10/10

## قرص مصر

"لا ، بل إلى أرض مصر نذهب"

(لارميا ٤٢ : ١٤)

مات بلديون الثالث بلا ذرية ، وترملت الملكة اليونانية ثيودورا ولما تجاوز ربيعها السادس عشر ، وغدا أخوه أمالريك كونت يافا وعسقلان وريثا للمملكة وتوجه البطريرق أمالريك بعد ثمانية أيام من موت بلديون ، برغم المشكلة التي أثارت حول استخلافه ؛ إذ لم يكن البارونات راغبين في التحلي عن حقهم في الانتخاب ، حتى ولو لم يكن هناك مرشح آخر . وكانت لهم مظلمة مشروعة ؛ إذ كان أمالريك قد تزوج قبل ذلك بنحو أربع سنوات من أجنيس (أوف كورتناي) ، ابنة جوسلين الثاني كونت الرها ، وكانت من بنات عمومته من الجيل الثالث وتقع من ثم في الدرجات التي تحرم الكنيسة الزواج منها ، وقد رفض البطريرق اعتماد الزواج . وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى النفور من أجنيس ؛ إذ كانت أكبر من أمالريك بكثير ، وقد قتل زوجها الأول ، رينالد أمير مرعش ، عام ١١٤٩م عندما كان أمالريك في الثالثة



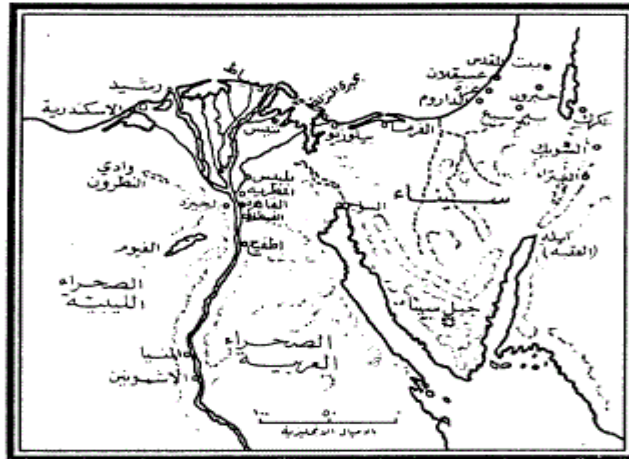
عشرة من عمره ، ولم تكن عفيفة السمعة . وطالب البطريق والبارونات بالغاء الزواج ، فرفض أمالريك في الحال ، لكنه أصر على الإعتراف بشرعية حقوق ولديه في الميراث، بلنديون وسيبيل<sup>(١)</sup>.

#### ١١٦٢م : الملك أمالريك

بلغ أمالريك الآن الخامسة والعشرين من عمره ، وكان طويل القامة<sup>(٢)</sup> وسيما كأبيه، بنفس لون البشرة المتوردة واللحية الكثة الشقراء ، رغم ما يقوله النقاد من أنه مفرط السمعة في صدره . وكان أقل تعليما ، برغم معوماته الجيدة المتصلة بالمسائل القانونية . وعلى غير شاكلة أخيه الذي كان شغوفاً بالثرثرة ، كانت لديه بعض اللحظة ولذا كان سكوتا ، غير أنه كان كثيرا ما تعارده نوبات من القهقهة الضاحكة، فتحرمه بعضا من وقاره . ولم يكن يتمتع قط بشعبية كأبيه ، إذ كان يفتقر إلى الجاذبية والانفتاح على الغير ، فضلا عن أن حياته الخاصة لم تكن خليقة بالثناء<sup>(٣)</sup>. وفي غضون أشهر قليلة من استخلافه اتضحت نوعيته التي كان عليها كرجل دولة ، عندما أقدم جيرارد - لورد صيدا وشقيق أرنون - بنزع ملكية أحد رعاياه بلا سبب يدعو إلى ذلك، ولجأ التابع إلى التاج شاكيا؛ فأصر أمالريك على أن تنظر الدعوى أمام المحكمة العليا للمملكة ، ثم إنه أصدر قانونا assise ، يستند إلى سوابق أخرى مماثلة يحول الأتباع الاستئناف من أسيادهم أمام المحكمة العليا ، وفي حالة عدم حضور السيد أثناء نظر الجلسة في المحكمة يحكم في الدعوى غيابيا ، ويُنصف المدعى بإعادة الأمور كما كانت عليه. وهذا القانون، الذي يؤسس علاقة مباشرة بين أتباع كبار مستأجري الأرض والملك الذي ينبغي لهم أن يقدموا له فروض الطاعة المخلصة ، من شأنه أن يضفي سلطات لا

(١) Robert of Torigny, t. p.309 ويحدد William of Tyre, xix, 1, 4, pp.883-90. أمالريك بعام ١١٥٧م . وعن زوج أجنيس الأول أنظر أعلاه ص ٣٢٦. وقد كرمها متبعو وليام الصوري كراهية شديدة لأسباب وحيية (انظر أدناه ص ٤٠٧) . وربما بالغوا في إعطائها، غير أنه من غير المحتمل أن تكون قرابة الدم البعيدة هي التي جعلت البارونات يصرون على طاعتها. واستادا إلى وليام ، أكد علاقة القرابة ستيغفاني رئيسة الدبر ، وهي ابنة جوسلين الأول ، وماريا (أوف سالوت) : بيد أنه لابد وأن كان معروفا جيدا أن بلنديون الأول وجوسلين الأول كانا أبناء عمومة من الدرجة الأولى ، وقد رفض البطريق فعلا مباركة الزواج . والأرجح أن أجنيس قد ولدت عام ١١٣٣م، إذ مات تول زوج لأمها بتريس عام ١١٣٢م ، وتزوجت جوسلين كونت الرها بعد ذلك مباشرة.

(٢) William of Tyre, xix, 2-3, pp. 884-8.



خريطة رقم (٥) مصر في القرن الثاني عشر

حدود لها على ملك قوى يهيمن على المحكمة العليا . غير أن المحكمة العليا ذاتها كانت تتألف من نفس تلك الطبقة الموحدة صدها القسانون . فإذا كان الملك ضعيفا، يمكن استخدام القانون ضده بتطبيقه على كبار مستأجرى الأراضي الملكية<sup>(٣)</sup> . وأعقب هذا القانون قواعد أخرى تنظم علاقات الملك بأتباعه .

وبعدما وطد أماليك دعائم سلطته الملكية في الداخل ، أصبح بإمكانه الانتباه إلى الشؤون الخارجية . ففي الشمال كان على استعداد للتضحية بأنطاكية للبيزنطيين . وفي أواخر عام ١١٦٢م على وجه التقريب حدثت اضطرابات في كيليكيا في أعقاب اغتيال ستيفن أخى ثوروس الذى كان في طريقه إلى مأدبة دعاء اليها الحاكم الامبراطورى أندرونيكوس . وإن كانت هناك لدى ثوروس أسبابه الخاصة التي تثير لديه الرغبة في التخلص من ستيفن ، فإنه اتهم أندرونيكوس بالتواطؤ واكتسح طريقه مستوليا على المصبصة وعين زربة وفاهكا ، بمباغنة أفراد حامياتها اليونانيين وقتلهم . وسارع أماليك بعرض المساعدة على الامبراطور الذى استبدل أندرونيكوس بقائد هنجارى المولد ذى اقتدار هو قسطنطين كولومان ؛ الذى جاء إلى كيليكيا بالتعزيزات، فانسحب ثوروس عائدا إلى الجبال بعد أن قدم بعض التفسيرات<sup>(٤)</sup> . وأصبح بوهمند أمير انطاكية الآن في الثامنة عشرة من عمره أي بلغ سن الرشد ليحكم . لكن أمه كونستانس ، كانت رغبة في الاحتفاظ بالسلطة فناشدت كولومان تقديم المساعدة العسكرية . وبانتشار شائعة استنحادها بكولومان ، اندلعت أعمال الشغب في انطاكية؛ الأمر الذى أدى إلى نفى كونستانس وتصيب بوهمند الثالث مكانها، وسرعان ما ماتت بعد ذلك مباشرة<sup>(٥)</sup> .

ولم يعترض الامبراطور على تغيير نظام الحكم، ربما لأن أماليك كفل احترام

(٣) عن هذا القانون المسمى *assise* ، انظر أملاء من ٣٠١-٣٠٢، La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 22-3, 99, 153; also Grandclaude, "Liste d'Assises de Jérusalem" in *Mélanges Paul Fournier*, p. 329 ff. وهذا الأمر يحدد تاريخ هذا القانون *assise* بعام ١١٦٦م ويذكر قائمة بالقوانين الأخرى *assises* التي يمكن أن تعزى إلى أماليك.

(٤) Cinnamus, p. 227; Gregory the Priest, p. 200; Sambat the Constable, p. 621; Michael the Syrian, III, p. 319, Armenian version, pp. 349, 356

(٥) Michael the Syrian, III, p. 324 الذى يؤيد تاريخ سوريا المجهول. *Chron. Anon. Syr.* ويبدو أن التاريخين يرحضان أحداث ١١٦٠م والقدرة ١١٦٢-١١٦٣م. ويقتبس Ughelli, *Italia Sacra*, VII, p. 203 من وثيقة في عام ١١٦٧م يطلق فيها بوهمند الثالث على نفسه "أمير أنطاكية ولورد اللاتينية وحيلة". Prince of Antioch, Lord of Laodicea and Gibeil. وحيث أن اللاتينية وحيلة كانتا مهرا لأمه ، فيفرض أنها قد ماتت آنذاك.

سيادته. وليضمن ذلك، دعا ابن كونستانس الثاني - بلدوين - وفيما بعد أطفالها من رينالد إلى القسطنطينية. وانضم بلدوين إلى الجيش الامبراطوري وقتل في الحرب<sup>(٦)</sup>. وفي الوقت الذي كان فيه الملك أماريك يهدد البيزنطيين علنا كتب إلى الملك لويج السابع ملك فرنسا يسأله إن كان هناك أي أمل في إرسال المساعدة للاتين في سوريا<sup>(٧)</sup>.

#### ١١٥٤ م : مكائد في القاهرة

كان ضروريا لأماريك أن يضمن حسن النوايا لبيزنطة كي يحظى مع أهم طموحاته السياسية ألا وهي السيطرة على مصر. وكما يفهم جيدا فإن وجود الدويلات اللاتينية يتوقف على تشتت جيرانها المسلمين وقد اتحدت الآن سوريا المسلمة، بيد أنه طالما بقيت مصر في حالة عداء مع نور الدين، فلن يكون الوضع باعثا على اليأس. وكانت الخلافة الفاطمية، مع ذلك، في حالة من الوهن بحيث بدت نهايتها وشيكة، لكنها لا ينبغي قط أن تقع في قبضة نور الدين. ومنذ سقوط عسقلان والفوضى أخذت في التزايد في بلاط الخليفة؛ إذ تمكن الوزير عباس من البقاء سنة برغم الكارثة، وكان ابنه نصر هو المفضل لدى الخليفة الصغير الظافر؛ وأثار ما بينهما من وداد شائعات فاضحة مما أثار ثائرة عباس، لا لدوافع أخلاقية، وإنما لأنه ارتاب - بحق - أن الظافر كان ينوي الوقعة بين الابن والأب. وعلم أسامة الذي كان ما يزال في البلاط أن نصر وافق في الواقع على اغتيال عباس؛ فسارع إلى مصالحتهما وسرعان ما حرض نصر على أنه من الأفضل اغتيال الخليفة بدلا من عباس. ودعا نصر من أنعم عليه إلى حفل ماجن في منتصف الليل في منزله حيث طعنه. وتصنع عباس الاعتقاد بأن القتل هم أخوة الخليفة ذاتهم وأعدمهم. وبينما صادر ثروة الخليفة وضع على العرش ابن الظافر - الفائز - وهو صبي في الخامسة من عمره شاهد موت أعمامه، وفيما بعد عانى من نوبات التشنج المزمته. وارتابت أميرات العائلة في حقيقة

(٦) عن بلدوين، انظر أدناه ص ٤١٣. وفيما بعد تزوجت ابنة كونستانس من رينالد - أحسن - من الكيسوس المدعى المنحاري أو بيلا الثالث، الذي أصبح ملك منجارية عام ١١٧٣ (Nicetas Choniates, p. 221).

(٧) ترد خطابات أماريك في Bouquet, R.H.F. vol. xvi, pp. 36-7, 39-40 ويتحدث الخطاب الثاني عن التهديد البيزنطي لأطليكية. وفي ذات الوقت تقريبا كتب بوهمند الثالث إلى الملك لويج Ibid. pp. 27-8

ماحدث ، وسارعن باستدعاء محافظ مصر العليا ابن رزيق الأرميني المولد لإتقادهن . فزحف على القاهرة واستمال ضباط الحامية إلى جانبه . فحمل عباس ونصر أموالهما وهربا يوم ٢٩ مايو ١١٥٤م من العاصمة ، مصطحبين معهما أسامة الذي بدأ يتآمر مع ابن رزيق . وبينما هم يخرجون من صحارى سيناء ، هبط عليهم جنود الفرنج من حصن مونتريال ، وتمكن أسامة من الهرب سالما ووصل إلى دمشق في نهاية الأمر؛ وقتل عباس وألقى القبض على نصر وصودرت الأموال ، وسُلم نصر إلى فرسان المعبد ، وأعلن على الفور رغبته في التحول إلى المسيحية ؛ غير أن البلاط في القاهرة عرض دفع ستين ألف دينار مقابل تسليمه ، ولذا أوقف تعليمه الدين الجديد وأرسل مقيدا بالسلاسل إلى القاهرة حيث قامت أراميل الخليفة الأربع بتمزيق أوصاله بأنفسهن . ثم إنه شنق ، وعُلقت جثته على باب زويلة طوال عامين<sup>(٨)</sup>.

وحكم ابن رزيق حتى عام ١١٦١م . وفي ١١٦٠م مات الخليفة الصبي ليخلفه ابن عمه العاضد البالغ من العمر تسع سنوات ، والذي أجبر في العام التالي على الزواج من ابنة ابن رزيق . على أن عمه الخليفة ، وهى أخت الظافر ارتابت فى طموحات الوزير ، فحرضت أصدقائها على طعنه فى ساحة القصر . وكان قبل وفاته قد تمكن فى سبتمبر ١١٦١م من استدعاء الأميرة إليه وقتلها بنفسه . وخلفه ابنه العادل فى منصب الوزير وحكم خمسة عشر شهرا . وجاء دوره فخلفه محافظ مصر العليا - شاور - وقتله ، وحكم ثمانية أشهر حتى أغسطس ١١٦٣م عندما خلعته ياوره العربى ضرغام الذى قتل كل من كان ينجس طموحه حرصا على بقائه فى السلطة الأمر الذى جعل الجيش المصرى يكاد أن يكون خاليا من كبار الضباط<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٦٣م: هزيمة نور الدين فى الكرك

فى عام ١١٦٠م هدد بلدوين الثالث بغزو مصر التى اشترت سكوته بتعهد بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار ولم تدفع هذه الإتاوة قط . وفى عام ١١٦٣م، اقتذ أماريك ذلك ذريعة وهبط فجأة على مصر عابرا برزخ السويس بلا

(٨) ( Usama, ed. Hitti, pp. 43-54 ) وروايته لا تكشف بوضوح خيانات الخليفة. ( Ibn al-Athir, pp. 492-3; William of Tyre, xviii, 9, pp. 832-4. وللاطلاع على تاريخ مصر فى هذه الفترة انظر Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 191 ff.

(٩) Ibn al-Athir, p. 529; Abu Shama, p. 107.

صعوبة وحاصر الفرما . لكن النيل كان في موسم الفيضان ، وتمكن ضرغام من إرغامه على الانسحاب بأن كسر سداً أو سدّين من سدود النيل<sup>(١٠)</sup> . ولم يقب عن نور الدين ما أقدم عليه أماليك من تدخل في مصر ، فانتهاز غيابه للهجوم على أضعف الدويلات الصليبية - طرابلس ؛ فقام بغزو البقاع كى يضرب الحصار حول قلعة الكرك التي كانت تسيطر على سهل ضيق . ولحسن حفظ الفرنج كان هيو ، كونت لوسيتان ، وجيوفري مارتل ، أخو كونت أنبوليم ، يمران خلال طرابلس باتباعهما في طريق عودتهما من الحج في القدس ، فانضمّا إلى الكونت ريموند ، وأرسلت استغاثة عاجلة إلى أنطاكية جاء على أثرها من الشمال لا يوهمنه الثالث وحسب ، وإنما أيضا القائد الامبراطوري قسطنطين كولومان ؛ وسار الجيش المسيحي المتحد مسرعاً خلال النلال وباهت المسلمين في معسكرهم أسفل قلعة الكرك . وبعد معركة قصيرة أظهر فيها كولومان وجنوده مجزهم بصورة خاصة ، هرب نور الدين بلا نظام إلى حمص ، حيث أعاد تجميع جيشه وتلقى تعزيزات مما دفع المسيحيين إلى التخلي عن المطاردة<sup>(١١)</sup> .

وسرعان ما ظهر بعد ذلك الوزير السابق شاور الماربر من مصر في بلاط نور الدين ، يعرض عليه أن يرسل جيشاً لإعادة تنصيبه في القاهرة ، وفي هذه الحالة يدفع شاور مصروفات الحملة ، ويتخلى له عن مقاطعات على الحدود ، ويعترف بسيادة نور الدين ، ويدفع له ضريبة سنوية تعادل ثلث إيرادات البلد . وتردد نور الدين خشية المجازفة بجيش يحمي بطول الطرق التي يسيطر عليها الفرنج أو في طرق ما وراء نهر الأردن . ولم يتخذ قراراً إلا في إبريل ١١٦٤ م ، بعد أن استخار آيات القرآن الذي فتحه كيفما اتفق ، وأمر بأن ينطلق أكثر قواده لإخلاص - شيركوه - بكية ضخمة ويذهب مع شاور عبر الصحراء ، بينما قام هو بهجوم مضلل على باتياس . واصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين - وهو ابن نجم الدين أيوب - الذي كان شاباً في السابعة والعشرين من عمره ، ولم يكن شديد الشغف بالانضمام إلى الحملة . وارتاع ضرغام ، فأرسل يطلب المساعدة من أماليك ؛ غير أن شيركوه كان قد انطلق بسرعة عبر برزخ السويس قبل أن يتهيأ الفرنج للتدخل . وبالقرب من الفرما هزم أخو ضرغام

(١٠) William of Tyre, xix, 5, pp. 890-1; letter of Amalric, R.H.F. vol. xvi, pp. 59-60. ويؤكد أماليك في خطابه للملك لويس أن بالاسكان هزيمة مصر بقليل من المساعدة الإضافية ؛ Michael the Syrian, iii, p. 317.

(١١) William of Tyre, xix, 8, pp. 894-5; Ibn al-Athir, p. 531, and *Atabegs*, pp. 207-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 534. Michael the Syrian, iii, p. 324. فيرتظن كانوا الأكثر رعباً في الجيش المسيحي.

مع عدد ضئيل من الجنود الذين تمكن من جمعهم . وشهدت القاهرة في الأيام الأخيرة من شهر مايو ١١٦٤م إعادة تنصيب شاور وموت ضرغام<sup>(١٢)</sup>.

وما أن استعاد شاور سلطانه حتى تكرر لوعوده وطلب من شيركوه العودة إلى سوريا . فرفض شيركوه واستولى على بليس ، فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك أمالريك ، وحثه على الإسراع عارضا عليه ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرين مرحلة، وواعدا بهدايا أخرى لفرسان المستشفى المصاحين له ودفع تكاليف أعلاف حيادهم . فأعد أمالريك سبل الدفاع الجيد لمملكته ، ثم انطلق بسرعة في أوائل أغسطس إلى فاقوس الواقعة على النيل ، حيث انضم إليه شاور وانطلقا لمحاصرة شيركوه في بليس . وصمدت القلعة ثلاثة أشهر، ولاح احتمال سقوطها . لكن أمالريك جاءته أنباء من سوريا فقرر رفع الحصار بشرط أن يخلو شيركوه عن مصر . ووافق شيركوه ، وسار الجيشان الفرنجي والسوري في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء ، وقد تركا شاور مسيطرا على مملكته . وكان شيركوه آخر من رحل من أصحابه . وعندما كان يودع الفرنج سأل أحدهم من الوافدين الجدد إلى الشرق : ألا تفتش الخيانة ؟ فأجابته بفخر بأن جيشه كله سينار له ، ورد عليه سائله الفرنجي بعبارة الشهامة بأنه يفهم الآن سبب ارتفاع شهرة شيركوه بين الصليبيين<sup>(١٣)</sup>.

#### ١١٦٤م : كارثة في أوتاج

ولقد كانت أنطاكية هي مصدر الأنباء التي دفعت أمالريك إلى أن يسرع بالعودة إلى بلده . ذلك أن نور الدين عندما علم أن أمالريك رحل إلى مصر ، ضرب الإمارة الشمالية وحاصر قلعة حارم التي تعتبر القلعة الأساسية ، وكان معه جيش أخيه الذي جاء من الموصل وجنود من أمراء الأرتقة في ديار بكر وماردين وديرت وكير . وبينما كان لورد حران - رينالد (أوف سانت فاليري) يدافع عن القلعة ببسالة ، استنجد الأمير بوهمند برعموند أمير طرابلس ، وثوروس الأرميني ، وكولومان البيزنطي .

(١٢) William of Tyre, xix, 5, 7, pp. 891-2, 893; Abu Shama, p. 107; Ibi al-Athir, p. 533, and *Atabegs*, pp. 215-6; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 46-8.

(١٣) William of Tyre, xix, 7, pp. 893-4; Ibi al-Athir, pp. 534-6 and *Atabegs*, pp. 217-9; Abu Shama, p. 125.

فانطلقوا معا في منتصف أغسطس ، ولما جاءت نور الدين اخبار تحركهم رفع الحصار . وقبل لنا إن نور الدين شعر بالخطر بوجه خاص من وجود الكتبة البيزنطية . وبينما كان بوهمند ينسحب ومعه نحو ستمائة فارس تقريبا قرر مواصلة المطاردة ضاربا عرض الحائط بتضيعة رينالد (أوف سانت فاليري) الذي كان يرى أن الجيش الإسلامي أكبر بكثير . واصطدم الجيشان يوم ١٠ أغسطس بالقرب من أرتاح . وتجاهل بوهمند ما حذره منه ثوروس ، وهاجم على الفور . وتظاهر المسلمون بالمغرب فاندفع بوهمند وراءهم مباشرة ، لا لشيء إلا ليقع في كمين ويجد نفسه وفرسانه وقد طوقهم جيش الموصل . وتمكن ثوروس وأخوه مليخ - وكانا أكثر حذرا - من الهرب من ساحة القتال ، أما باقي الجيش المسيحي فقد وقع ضحية الأسر أو القتل ، وكان من بين الأسرى بوهمند ، وبمووند أمير طرابلس ، وقنصلين كولومان ، وهيو (أوف لوسينيان) ، وقد اقتيدوا وهم مقيدون معا في قيد واحد إلى حلب<sup>(١٤)</sup>.

وراح مستشارو نور الدين يحثونه على الزحف على مدينة أنطاكية العارية من أي دفاع ؛ لكنه رفض قائلا إنه لو زحف على أنطاكية فسوف يسرع اليونانيون بإرسال حامية داخل القلعة ، وإنه برغم إمكان استيلائه على المدينة ، تستطیع القلعة الصمود إلى أن يأتي الامبراطور . كان يعتقد أن وجود دولة فرنجية ضئيلة الشأن أفضل من أن تصبح جزءا من امبراطورية عظيمة . وكان بالغ الحرص على عدم الإساءة إلى بيزنطة بحيث أطلق سراح قنصلين كولومان على الفور تقريبا مقابل مائة وخمسين رداء حريريا . ومرة أخرى أنقذت أنطاكية للعالم المسيحي بفضل هبة الامبراطور.

وبينما كان أماليك يغذ السير مسرعا باتجاه الشمال ، انضم إليه ثوري (أوف فلاندرز) الذي جاء إلى فلسطين في حجة الرابعة . وبهذا التعزيز توقف أماليك في طرابلس لترسيخ حقه في أن يكون الوصي على الكونتية أثناء أسر الكونت ، ثم واصل مسيرته إلى أنطاكية ، حيث دخل في مفاوضات مع نور الدين الذي وافق على إطلاق سراح بوهمند أمير طرابلس وثوروس لقاء فدية ضخمة ، وإنما فقط لأنهما من أتباع الامبراطور ؛ ولم يكن ليطلق سراح بمووند أمير طرابلس ولا سحبه الأقدم - رينالد

(١٤) Robert of William of Tyre, xix, 9, pp. 895-7 الذي يحدد التاريخ خطأ بعام ١١٦٥ ؛ Torigny, i, p. 355 ؛ خطابات أسلافك الأول وخطابات Gaufred Fulcher الموجهة إلى لويس السابع في: R.H.F. vol. xvi, pp. 60-2 ؛ ويشير Cinnamus, p. 216 إشارة مقتضبة جدا حول أسر كولومان ؛ Michael the Syrian, iii, p. 324 ؛ Bustan, p. 559 ؛ Chron. Anon. Syr. p. 304 ؛ Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 510 ؛ Abu Shama, p. 133 ؛ Ibn al-Athir, Atabegs, pp. 220-3.



(أوف شاتيلون)<sup>(١٥)</sup>. وانتاب أماريك نفسه القلق عندما جاءه مبعوث امبراطوري يسأله عن سبب وجوده في أنطاكية ؛ فكان رده أن أرسل إلى القسطنطينية رئيس أساقفة قيسارية ، وعازله - أودو (أوف سانت أماند)، بطلب يد إحدى الأميرات الامبراطوريات ، واقتراح عقد تحالف لغزو مصر<sup>(١٦)</sup>. واحتجز الامبراطور مانويل السفارة مدة عامين لإعطائها الرد . وفي تلك الأثناء لم يكن لأماريك يد من أن يعود إلى الجنوب إذ أن نور الدين ، بدلا من مهاجمة أنطاكية ، ظهر فجأة في أكتوبر أمام بانيلس التي كان أميرها همفري الثاني (أوف تورون) مع جيش أماريك . وكان قد أشاع شائعات بأن المهدف هو طبرية ؛ فتركزت الميليشيات الفرنجية المحلية هناك . أما حامية بانيلس ، فقد قاومت بشجاعة بهاء الأمر ، وكان المأمول أن يخف لتحدثها ثييري (أوف فلاندرز) ، الذي وصل لتوه إلى فلسطين ، لكن القلعة استسلمت فجأة ، وبما بسبب الخيانة . واحتل نور الدين البلاد المحيطة وهدد بالتوغل في الجليل فسارع باروناتها بالوعد بدفع إتاوة<sup>(١٧)</sup>.

#### ١١٦٥ م : بطريق يوناني في أنطاكية

ما أن أطلق سراح بوهمند أمير أنطاكية حتى ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته ، ولكي يتوصل إلى زوج أخته (الامبراطور) دفع جزء من القعدة التي لا يزال مدينا بها لنور الدين ؛ فأعطاه مانويل المعونة المطلوبة وفي المقابل عاد بوهمند إلى أنطاكية ومعه بطريق يوناني - أناسيوس الثاني ؛ أما البطريق اللاتيني ليمري الذي اعترض فقد ذهب إلى منفاه في قلعة قصير<sup>(١٨)</sup>. وطوال السنوات الخمس التالية سيطر اليونانيون على الكنيسة الأنطاكية ؛ ولا يبدو أن الأساقفة اللاتينيين قد طردوا ، وإنما كان اليونانيون يشغلون المناصب الشاغرة . وأدى هيء اليونانيين إلى إرماء الكنيسة اليعقوبية في أحضان

(١٥) William of Tyre, xix, 10, ii, pp. 898, 900-1; Buntan, p. 561; Michael the Syrian, iii, p. 360, Armenian version, p. 360. ويقول ميخائيل السرياني ، في النسخة الأرمنية ، إن نوروس الذي أطلق سراحه أولا أمر على إطلاق سراح بوهمند.

(١٦) Cinnamus, pp. 237-8; William of Tyre, xx, i, p. 942.

(١٧) William of Tyre, xix, 10, pp. 898-900; Ibn al-Athir, pp. 540-2, and Atohegs, p. 234; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 541.

(١٨) William of Tyre, xix, ii, p. 901; Michael the Syrian, iii, p. 326. بطريقا لأنطاكية عام ١١٥٧ م عندما اتهم البطريق المعين Panteogenes Soterichus بالمرتقة.

اللاتينيين ، إذ كانوا على علاقة ودودة منذ عام ١١٥٢م عندما حدثت معجزة عند قبر القديس السرياني بارسوما أسفرت عن شفاء طفل فرنجي أعرج ؛ وفي عام ١١٥٦م سُمح لليعاقة ببناء كنديالية جديدة ساعد في تخصيص الوقف لها الأميرة كونستانس والأمير الأرمني ثوروس ، مما أدخل البهجة على بطريقتهم - ميخائيل السوري المؤرخ. والآن ذهب البطريق ميخائيل لزيارة إيمري في القصر ليؤكد له تعاطفه معه . وبلغت كراهية ميخائيل لليونانيين شأوا بعيدا بحيث رفض عام ١١٦٩م دعوة ودبة من الامبراطور للحضور إلى القسطنطينية للاشتراك في إحدى المناظرات الدينية التي كان الامبراطور مانويل شغوقا بها<sup>(١٩)</sup>.

وأمضى نور الدين عامي ١١٦٥م و١١٦٦م في القيام بهجمات مفاجئة على القلاع الواقعة شرقي متحدرات لبنان ، بينما راح شيركوه يغير على منطقة الأردن ، ودمر حصنا كان فرسان المعبد قد بنوه في مغارة جنوب عمان<sup>(٢٠)</sup>. وفي نهاية عام ١١٦٦م حصل شيركوه أخيرا على إذن سيده في غزو مصر مرة أخرى ؛ وحث الخليفة في بغداد على المساعدة بهذا المشروع كحرب مقدسة ضد هرطقة الخلافة الشيعية الفاطمية ؛ وربما كان لهذا الجدل أثره على نور الدين الذي أصبح عميق التدين منذ مرضه ، وزود شيركوه وحيشه بتعزيزات من حلب . وانطلق شيركوه من دمشق في يناير ١١٦٧م ، واصطحب معه صلاح الدين مرة أخرى . ولم يخف نواياه ، مما أتاح الوقت لساور كي يستنجد بالملك أمالريك . واستدعى الملك باروناته لمقابلته هناك ؛ وبعد تأكيده للخطر المهدق بفلسطين في حالة غزو السوريين السنيون لمصر ، وافقت المحكمة العليا على إرسال حملة كاملة لإنقاذ ساور . وكان على قوة المملكة المقاتلة كلها أن تشترك في الحملة أو أن تبقى على الحدود للحراسة في غيبة الملك ؛ ولذا كان على كل شخص لا يستطيع الحضور أن يدفع عشر دخله السنوي . وقبل أن يتهيأ الجيش جاءت الأنباء بأن شيركوه يعبر صحراء سيناء ؛ فسارع أمالريك بإرسال ما كان

(١٩) Michael the Syrian, III, pp. 301-4, 332, 334-6.

(٢٠) William of Tyre, xix, II, pp.901-2; Beha ed-Din, P.P.T.S. p.501  
الاستيلاء على مونتوا بعد الحملة المصرية عام ١١٦٧م ، بينما استولى شيركوه  
Ibn al-Athir, pp.545-6 and Atabegs, pp.235-6 استولى نور الدين على مونتوا ، على الطريق من جبل الـ بعلبك ، بينما استولى شيركوه  
على شقيب تبتون ، أو كهف تيرون ، الذي يحدده (Rey Colonies Franques, p.513) بأنه قلعة  
نينا، الواقعة على مسافة ١٥ ميلا تقريبا شرق صيدا . ومكان قلعة فرسان المعبد القريبة من عمان غور  
معروف . ويطلق عليها بهاء الدين آكاف ، وربما تكون مغارة كفاف الواقعة جنوب شرق عمان  
والتي تضم أطلالا رومانية ، ولكن ليس هناك ما يدل على وجود أطلال من العصور الوسطى.

جاءها من الجنود لإعترض طريقه ، لكن السيف كان قد سبق العذل<sup>(٢١)</sup>.

#### ١١٦٧م : السقراء الفروج في القاهرة

هبت عاصفة رملية مرعبة كادت أن تسحق جيش شيركوه ؛ لكنه وصل برزخ السويس في الأيام الأولى من فبراير تقريبا ، وهناك سمع بأن الجيش الفرنجى انطلق يوم ٣٠ يناير ؛ ولذا سار باتجاه الجنوب الغربى ، خلال الصحراء ، ليصل إلى النيل عند أطفح ، على بعد أربعين ميلا جنوب القاهرة . وعبر النيل وهبط على الضفة الغربية وضرب معسكره في الجزيرة أمام العاصمة . وفي تلك الأثناء اقترب الجيش الفرنجى من القاهرة من الشمال الشرقى ؛ وقابله شاور في مكان ما خارج المدينة وقاده إلى حيث يعسكر على الضفة الشرقية للنيل ، على مسافة ميل من أسوار المدينة . ورفض شاور اقتراحا من شيركوه بالانحداد ضد المسيحيين ، وعقد حلفا مع أمالريك يدفع بموجبه للفرنج أربعمائة ألف بيزانت نصفها في الحال والنصف الآخر بعد وقت قصير ، شريطة أن يقسم أمالريك بعدم مغادرة مصر إلا بعد طرد شيركوه منها . وبعث الملك إثنان هما هيو (لورد قيسارية) وفارس من فرسان المعبد يدعى حيوفرى - ربما كان يتحدث العربية - إلى داخل القاهرة للحصول على تصديق رسمى من الخليفة على الحلف . واستقبلا في القصر استقبالا فخيميا؛ إذ اقتيدا عبر صفوف أشجار وينابيع وحدائق ، حيث ما كان يحتفظ به البلاط من وحوش وأقفاص ضخمة للطيور ، ومن قاعة إلى أخرى تتدل فى كل منها الستائر الكثيفة المحلاة بخيوط الحرير والذهب وأزوار البهورات ، إلى أن رُفعت ستارة ذهبية ضخمة ، لتكشف عن الخليفة الصبى من وراء ستر على عرشه الذهبى . وأقسم المقسمون بالحفاظ على المعاهدة . ثم إن هيو - ككتاب عن الملك - رغب فى اتباع الطريقة الغربية للتصديق على التحالف بأن يشد على يد الخليفة العارية . وارتاع رجال الحاشية الملكية ، وأخيرا تم اقتناع سيدهم ، وهو يتسم ابتسامة فيها الإزدراء ، بأن يخلع قفازه . وانسحب السفيران وقد تأثرا تأثرا عميقا - كما كان مقصودا - بما كان للامبراطورية الفاطمية من ثروة هائلة<sup>(٢٢)</sup>.

(٢١) William of Tyre, xix, 13, 16, pp. 902-4, 907-8; Beha ed-Din, P.P.T.S. p.48  
بهاء الدين ابن نور الدين أحمد صلاح الدين على مصاحبة شيركوه  
Ibn al-Athir, p. 547, and Atabegs, p. 236.

(٢٢) William of Tyre, xix, 17-19, pp.908-13; Ernoul, p.19  
في القسطنطينية هو غلط الأكثر ثراء من بسلط القاهرة .  
Abu Shama, p. 130. ويرأصل وأبسم

ومعنى شهر والجيشان يحمل كل منهما فى الآخر ، لا يقدر أى منهما على عبور النهر فى وجود الآخر قبائله . ثم تمكن أمالريك من تنفيذ عبور إلى جزيرة على رأس الدلتا - إلى الشمال قليلا - ومنها إلى الضفة اليسرى ، حيث باغت إحدى فرق شيركوه . ووجد شيركوه أن جيشه ضئيل العدد أمام الفرنج والمصريين ، فانسحب باتجاه الجنوب أعلا النيل ، وتبعه أمالريك وشاور ، متوخين جانب الحذر بمزك حامية قوية فى القاهرة تحت قيادة ابن شيركوه ، الكامل ، وهيو (أوف إبلن). وتسبب دخول كتيبة هيو إلى القاهرة والسماح للضيابط بحرية دخول القصر ، فى إشارة الذعر لدى دوائر المسلمين الأكثر تشددا فى المدينة .

وفى مكان ما لا يبعد كثيرا عن مدينة المنيا فى وسط مصر ، تهيأ شيركوه لعبور النيل مرة أخرى وفى ذهنه العودة لغزو الحدود السورية . فعسكر فى أحمونين بين أطلال هرموبوليس القديمة ؛ حيث لحق به الجيش الفرنجى المصرى - الذى كان أكبر من جيشه حتى بدون الحامية التى خلفت فى القاهرة . غير أن جيش شيركوه كان مؤلفا أساسا من فرسان الأتراك خفيفى الحركة ، بينما كان الجيش المصرى يتألف من المشاة ومع الجيش الفرنجى مجرد بضع مئات من الفرسان ؛ وبخلاف ما أشار عليه أمراء الجيش ، قرر شيركوه الاشتباك فى معركة . وتردد أمالريك من ناحيته ، وعندئذ حدثت إحدى تدخلات القديس برنارد التعمية فى التاريخ الصليبي ؛ فقد ظهر للملك فى حلم وراح يريخه توبيخا مهينا بأنه غير جدير بهذه القطعة الخشبية من الصليب الحقيقى التى يعلقها حول رقبته ، وأنه لن يبارك هذا الأثر إلا عندما يقسم الملك بأن يكون مسيحيا أكثر إخلاصا . وبهذا التشجيع ، شن أمالريك فى الصباح التالي ، ١٨ مارس ١١٦٧ م ، هجوما على السوريين . واتبع شيركوه التكتيكات التركية المعتادة ؛ فقد تهاوى القلب من جيشه بقيادة صلاح الدين ، وعندما انطلق الملك وفرسانه فى عدوهم يطاردون القلب ، دفع شيركوه ميمته إلى ميسرة الفرنج والمصريين فانهسرت . ووجد أمالريك نفسه وقد أحيط به . وإنما يُعزى تمكنه من الهرب على قيد الحياة - كما يُظن - إلى الأثر المبارك المعلق فى رقبته ؛ على أن الكثيرين من أفضل فرسانه قتلوا وأسر آخرون ، من بينهم هيو كونست فيسارية . واندفع أمالريك وشاور وبقايا جيشهما متسحين إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية<sup>(٢٣)</sup>.

الصورى بيان الفرق بين الطائفتين السنية والشيعة.

(٢٣) William of Tyre, xix, 22-5, pp. 917-28 (متضمنا وصفا لشعر والفيل) Ibn al-Athir, pp. 547-9. يحدد تاريخ معركة أحمونين فى ١٨ مارس ، وفى Itabagge, p. 23. يحدد تاريخها فى ١٨

## ١١٦٧م : صلاح الدين محاصر في الإسكندرية

لقد انتصر شيركوه ؛ لكن هناك جيشا متحالفا لا يزال في ساحة القتال . ومدلا من محاولة الهجوم على القاهرة ، عبر النهر مرة اخرى واتجه بسرعة إلى الشمال الغربي من خلال الفيوم ؛ وفي غضون أيام قليلة ظهر امام الإسكندرية . وفتحت له هذه المدينة العظيمة بواباتها لما كان يعرف عن كراهيتها لساور . وفي تلك الأثناء أعاد أماليك وشاور تشكيل جيشهما خارج القاهرة . ورغم الحسائر كان لا يزال أكبر من جيش شيركوه ؛ ولذا تبعاه إلى الاسكندرية وضربا حصارا حول المدينة ؛ ووصلت تعزيزات قليلة من فلسطين ، وأبحرت سفن فرنجية لتحكم الحصار . وبعد انقضاء شهر تقريبا وجد شيركوه الجماعة تهدده ، فترك صلاح الدين مع حوالى ألف من رجاله للدفاع عن المدينة ، وتسلل خارجا في إحدى ليالي شهر مايو مع القسم الأكبر من جيشه ، مارا بمعسكر أماليك ونعم وجهه شطر مصر العليا . وشعر أماليك بالخطر ورغب في مطاردته ؛ غير أن شاور أخبره بأن الأهم استرجاع الإسكندرية ، ولا مانع لديه من أن ينهب شيركوه مدن مصر العليا إذا شاء . وبنهاية شهر يونية أصبح وضع صلاح الدين داخل المدينة باعنا على اليأس بحيث توصل إلى عمه أن يعودوا . وتحقق شيركوه من أنه ليس هناك ما يمكنه أن يفعله ، فاقرب من الإسكندرية وأرسل أحد أسراه الفرنج ، وهو أرنولف أمير تل بشير - بعد أن رفض هيو أمير قيسارية المهمة - إلى معسكر أماليك يقترح عقد السلام على أساس أن يخلو هو والفرنج عن مصر ، وعلى أن يعد شاور بعدم معاقبة رعاياه في الاسكندرية وغيرها من الذين أيدوا الغزاة . وقبل أماليك بالشروط ، إذ كان في حالة عصية لانشغاله بشؤون فلسطين وطرابلس . وفي أغسطس ، دخل الجيش الفرنجي الاسكندرية وعلى رأسه الملك . وخرج صلاح الدين وجيشه بأسمى آيات الشرف العسكري تحت الحراسة ، رغم أن السكان تخفوا لم يمزقوه إربا بعدما ألقوا عليه باللائمة لما هم فيه من يؤس . على أن متاعبهم لم تكن قد انتهت بعد ؛ فما أن دخل مسؤولو شاور المدينة حتى اعتقلوا كل من حامت حوله الشكوك في التعاون مع السوريين ، مما دفع صلاح الدين إلى الشكاية لأماليك الذي أمر شاور بإطلاق سراح السجناء . وقدم هو نفسه قوارب لنقل الجرحى من جيش شيركوه بحرا إلى عكا ، ولسوء الحظ أرسل من شفى من جراحاته للعمل في مزارع السكر إلى أن جاء الملك بنفسه للإفراج عنهم . وأثناء المفاوضات ، صادق صلاح الدين الكثيرين من

بين الفرنج ، وساد الاعتقاد فيما بعد بأنه نال درجة الفروسية على يد الكونستابل همفري (أوف تورون) . وغادر شيركوه وصلاح الدين مصر يوم ١٨ أغسطس تقريبا ووصلا دمشق في سبتمبر . واتفق أمالريك وحيشه إلى القاهرة لإعفاء هيو (أوف إبلين) من مهمته في الحامية ، غير أنه انتهى مع شاور إلى أن وقع الأخير على معاهدة بعد فيها بدفع إثارة سنوية قدرها مائة ألف قطعة ذهبية ، والاحتفاظ بمندوب سام فرنجي وحامية فرنجية صغيرة في القاهرة تسيطر على بوابات المدينة . وبعد ذلك عاد الملك إلى فلسطين ووصل عسقلان يوم ٢٠ أغسطس<sup>(٢٤)</sup>.

وخلن بعض لوردات الفرنج أن كان من الممكن الحصول على صفقة أفضل ، لكن أمالريك لم يشأ المجازفة بقواته أكثر من ذلك في مصر وترك فرنج سوريا بلا حماية من هجمات نور الدين ؛ وحدث عندما كان في مصر أن أغار نور الدين على أراضي طرابلس ، ولكن دون أن يستول على أية حصون هامة ؛ فكان من الضروري إعادة تنظيم الدفاع عن البلاد . على أن مشكلة للمشاكل هي دائما الرجال ؛ وكانت أعداد الأسر المقيمة تتناقص بسبب الموت أو الرفوع في الأسر ، وأما الصليبيون الزائرون - مثل ثييري (أوف فلاندرز) - فليس في الامكان الاستعانة بهم إلا في حملات محددة ؛ ومن ثم كان حُل اعتماد أمالريك على النظامين العسكريين اللذين منجبا في عام ١١٦٧م والأعوام التالية أعدادا كبيرة من القلاع والأراضي المحيطة . وكانت الهبات على جانب من الأهمية بالنسبة لطرابلس خاصة ، إذ كان أميرها ما يزال أسيرا ولم يكن فيها من الأسر النبيلة الكبيرة سوى القليل . وكانت طرطوس وشمال البلاد كله تقريبا تحت سيطرة فرسان المعبد ، أما فرسان المستشفى - الذين ربما كانوا قد استولوا فعلا على الكرك التي يسمونها "حصن الفرسان des Chevaliers" - فقد عهد اليهم باليقاع . وفي المملكة ، كان فرسان المعبد - الذين وطلدوا دعائهم بالفعل في غزة - قد منحوا صنف في الشمال ، بينما حصل فرسان المستشفى على قلعة كوكب التي تتحكم في مخاضات نهر الاردن الواقعة إلى الجنوب من بحر الجليل . وفي انطاكية حذا بوهمند الثالث حذو أمالريك ؛ فرادت حيازات فرسان المعبد من المناطق المحيطة بهجراس ، على البوابات السورية ، وخصص لفرسان المستشفى مساحة ضخمة من الأراضي جنوب الامارة ، كان أغلبها في الواقع في أيدي المسلمين . ولو أن الغيرة المتفشية بين النظامين

(٢٤) William of Tyre, xix, 26-32, pp.928-39; Abu Shama, pp. 130-4; Ibn al-Athir, pp. 547-51, and *Atabegs*, pp. 236-46; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 49-51; Imad ed-Din, *p.9 Itinerarium Regis Ricardi*, في وترد قصة فروسية صلاح الدين .

كانت أقل والشعور بالمسؤولية كان أكبر ، لاستطاعا الحفاظ على دفاعات المملكة بما لهما من قوة<sup>(٢٥)</sup>.

#### ١١٦٦-١١٦٧م: مغامرات أندرونيكوس كومنينوس

بينما تقرر أن يقود النظامان الدفاع عن المملكة ، سعى أماليك كذلك إلى عقد تحالف أوثق مع بيزنطة . وفي أغسطس ١١٦٧م ، وكان قد عاد لتوه من مصر ، وصلته أنباء بأن سفيره في القسطنطينية، رئيس أساقفة قيسارية والتادل أودو، قد هبطا في ميناء صور مع ابنة أخي الامبراطور الجميلة الشابة ماريا كومنينيا ؛ فسارع إلى مقابلتها ؛ وشهدت كندراكية صور حفل زواجهما الفاخر الذي عقده البطريق أماليك يوم ٢٩ أغسطس . ومنحت الملكة ناهلس والأراضي المحيطة بها مهرا لها . وكان بصحبتهما اثنتان من كبار المسؤولين في بلاط عمها، وهما ابنا عمومته جورج بالايولوجوس ومانويل كومنينوس، وكانا مزودين بسلطة مناقشة التحالف مع اماليك.

وكانت العلاقات الحسنة بين امراء الفرنج والامبراطور قد تعرضت مؤعرا للخطر بسبب ماكان عليه ابن عم آخر لمانويل ، هو أندرونيكوس كومنينوس من رعونة، وكان أكثر امراء عائلته ذكاء ووسامة ؛ وكان هذا الامر في أحط درجات الخزي لمغازلته إحدى قريباته ، وهي إيدوشيا ابنة اخت الامبراطور ، التي تحدثت الشائعات بأن الامبراطور نفسه كان بالغ الشغف بها . وفضلا عن ذلك ، أتى من التصرفات ما يبدل على افتقاره إلى الحكمة عندما كان محافظا في كيليكيا عام ١١٥٢م ؛ غير أنه عثر مرة أخرى في هذا المنصب عام ١١٦٦م . وكان سلفه الكسيوس أكسوخ - الذي أوفد مكان كولومان أثناء أسره - قد فشل في تنفيذ أوامر الامبراطور في التوفيق بين الأرمن، وقت أن كانت الآمال معلقة على نجاحه مع ثوروس لما كان يتمتع به أندرونيكوس من جاذبية شخصية ، إلى جانب الكثير من المعونات. بيد أن أندرونيكوس، الذي بلغ من العمر السادسة والأربعين ، كان أكثر اهتماما بالمغامرة منه بالادارة ؛ وسرعان ما اتاحت له الفرصة لزيارة انطاكية حيث أصابته الاميرة الشابة فيليبيا - اخت بوهمند - بسهم جملها . ونسى أو تناسى واجباته الحكومية ومكث في انطاكية يتودد لفيليبيا بسلسلة من الأناشيد العاطفية الليلية حتى هلمت ولم تملك أن

(٢٥) انظر 6-74 pp. Delaville Le Roulx, op. cit. وترد أمثلة متواترة عن الهبات الممنوحة للنظاميين في Rohricht, *Regesta*, pp. 109 ff..

ترفض له طلبا . واغتاض بوهمند ولجأ في شكواه إلى زوج أخته مانويل، الذي تملكه الغضب فاستدعى أندرونيكوس وأرسل مكانه قنسططين كورومان . كما صدرت الأوامر لكورومان بالتوجه إلى انطاكية ومحاولة الفوز بقلب فيليبيا؛ لكن الأميرة وحدها بسيطة قصيرا في منتصف عمره بالمقارنة بحبيبتها الرائع . ومع هذا ، كانت دوافع أندرونيكوس بدرجة كبيرة مضايقة القيصرة التي كان يبغضها ، والآن اتخذ سبيل الحراسة ففتح انطاكية وعظيته ؛ وأخذ معه نصيبا ضخما من الإمدادات الامبراطورية من كيليكييا وقبرص وبم وجهه شطر الجنوب عارضا خدماته على الملك أمالريك . وسرعان ما عاشر على زوج للأميرة المهجورة ، الكونتسابل هغفري الثاني (أوف تورون) الأرملة المسن.

واقفن أماريك بأنثرونيكوس، وأثرت فيه شجاعته الشخصية، فوهبه اقطاعية بيروت التي كانت شاذرة آنذاك. وبعد ذلك مباشرة ذهب أنثرونيكوس إلى عكا، وهي مهر ابنة عمه الأرملة للملكة ثيودورا التي كانت وقتئذ في ريعها الحادى والعشرين من العمر. وكانت قصة حب من كلا الجانبين، والتصق كل منهما بالأخر بحيث لم يكن للزواج بينهما ضرورة، وانتقلت الملكة بلا حجل إلى بيروت حيث مكثت عليله له. وعندما سمع مانويل بهذه الصلة الجديدة، رما من سفرائه الذين رافقوا الملكة ماريا إلى فلسطين، فتجرت لديه سورة الغضب. ولذا، وعندما ذهب سفراؤه بعد ذلك إلى فلسطين طلبوا سرا تسليم الجاني. ووقعت التعليمات المخطئة للسفراء في يد ثيودورا. ولما كان معروفا أن أماريك يسعى إلى الفوز بتوابعه الإمبراطور الحسن، أرتأى اندرونيكوس أن الحكمة تدعوه إلى الرحيل وأعلن عن نيته في العودة إلى وطنه، وجاءت ثيودورا إلى عكا مرة أخرى لتوديعه. وما أن التقيتا حتى تركا كل ممتلكاتهما ولاداً بالفرار دون مرافق عابرين الحدود إلى دمشق. واستقبلهما نور الدين استقبالاً طيباً؛ وأمضيا السنوات التالية يتحولا في أرجاء الشرق الإسلامي، وزارا حتى بغداد، إلى أن منحهما أحد الأمراء المسلمين حصناً بالقرب من حدود الإمبراطورية عند بافلاخونيا، حيث استقر أنثرونيكوس بعدما حكم عليه بالرد من الكنيسة، سعيداً بحياة قطع الطريق. ولم يأس أماريك لرحيلهما، إذ استعاد مهر ابنت زوجته النفيس من عكا<sup>(٢٦)</sup>

William of Tyre, xx, 2, pp. 943-4; Cinnamus, pp. 250-1; Nicetas Choniates, pp. 180-6. (٢٦)  
(وعن تاريخ أند. ونيكوس بعد ذلك انظر أدناه الصفحات ١٨٠-١٨٦).



## ١١٦٨م : التحالف مع بيزنطة

ومن الواضح أن امالريك أرسل مع جورج بالايولوجوس إلى مانويل يقترح غزو مصر . وحملت السفارة التالية لمانويل - التي رأسها إيطاليان هما الكسندر (أوف كونفرسانو) كونت جرافينا، وميخائيل (أوف اوترانتو) - شروط الامبراطور التي يبدو أنها كانت تتألف من حصص في أسلاب مصر وإطلاق يده تماما في انطاكية ، وربما التنازل عن أراض فرنجية أخرى . كانت الشروط قاسية ؛ ولذا بعث امالريك رئيس شمامسة صور ، ولیم - مؤرخ المستقبل - إلى القسطنطينية لاستئناف المناقشات . وعندما وصل ولیم هناك علم أن الامبراطور في حملة في الصرب فتبعه إلى هناك وقابله في موناستير حيث استقبله مانويل بما اعتاد عليه من سخاء الكرم وعاد معه إلى عاصمته . وأبرمت المعاهدة التي تقضي بأن يقتسم الامبراطور والملوك غزوتهم لمصر . وعاد ولیم إلى فلسطين في أواخر عريف ١١٦٨م<sup>(٢٧)</sup>.

وللحظ التمس ، لم ينتظر البارونات عودته . إذ وردت الأنباء بأن شاوور يفتقر إلى الأمان، وأنه متبرم من الحماية الفرنجية في القساعة ، وقد تأخر في دفع الإتاوة ، إلى جانب انتشار الشائعات بأن ابنه الكامل يتفاوض مع شيركوه ، وطلب يد أخت صلاح الدين . وكان لوصول الكونت ولیم الرابع كونت نفرس إلى فلسطين في أواخر الصيف ومعه صحبة رائعة من الفرسان ، أن شجع أولئك المتعجلين للعمل . وعقد الملك مجلسا في القدس راح فيه السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جيلبرت (أوف أسيلي) بحث بعنف على الانطلاق إلى مصر إذ لم يعد هناك مجال لأي تأخير ؛ وأيده أغلب البارونات العلمانيين ؛ وزاد التأيد بما أضافه كونت نفرس ورجاله ، الذين جاءوا للحرب من اجل الصليب . وعارض فرسان المعبد صراحة ارسال اية حملة وأعلنوا انهم لن يشتركوا فيها . وربما ترجع معارضتهم إلى غيرتهم من فرسان المستشفى ، الذين قرروا بالفعل الحصول على الفرما (بيلويزوم) باعتبارها نصيبهم في الحملة ، كمقابل لحصن غزة الذي يحتله فرسان المعبد . على أن لفرسان المعبد أيضا علاقات مالية مع المسلمين ومع المدن التجارية الايطالية التي أصبحت تجارتها الآن مع مصر أكثر من تجارتها مع سوريا المسيحية . ووافق الملك امالريك على أنه من الضروري القيام بعمل عاجل نظرا لضعف شاوور وعدم امكان الاعتماد عليه ، لكنه اعرب عن رغبته في الانتظار إلى أن تصل مساعدة الامبراطور . لكنهم تغلبوا عليه . وأمام الإصرار المتعنت من فرسان المستشفى

ومن أتباعه هو نفسه ، الذين لم يجدوا ما يبرر حصول اليونانيين على حصص من أسلحتهم، وضع أمالريك . وتقرر التخطيط لحملة في أكتوبر<sup>(٢٨)</sup>.

#### ١١٦٨ م : أمالريك يتقدم نحو القاهرة

عاد وليم الصوري بمعاهدته من القسطنطينية ليجد الملك قد رحل فعلا . وكان أمالريك قد أذاع أنه سيهاجم حمص ودعا لنور الدين عن الإقدام على أى عمل ، فعلا كان نور الدين راغبا في تجنب أى حرب مع الفرنج نظرا لمناعبه الخاصة به في شمال شرق سوريا . كما أن شاور لم يتحقق مما كان حاربا إلى أن خرج الجيش الفرنجى من عسقلان يوم ٢٠ أكتوبر ليصل بعد ذلك بعشرة أيام أمام بلبيس ، الأمر الذى أصابه بالملح فما كان يظن قط أن يفرق أمالريك بمعاهدته معه على هذا النحو المستهتر . وقابل سفيره الأول - الأمير بدران - الملك في الداروم على الحدود ، لكنه ارتضى . وأما سفيره الثانى - شمس الخلافة - فقابل الملك في الصحراء بعد مروءة على بلبيس بحسرة أيام قليلة فراح يؤنبه تأنيبا مريرا على غدره ؛ فكان رد الملك على ذلك أن المير لتصرفه ما قام به الكامل - ابن شاور - من مفاوضات مع شمر كوه ، وعلى أية حال ، فإن الصليبيين الوافدين مؤخرا من الغرب عقدوا العزم على مهاجمة مصر ، وإن وجوده إنما ليكبح جماحهم. وأضاف أنه قد ينسحب لو تسلم مليونين آخرين من الدنانير . غير أن شاور ارتاب الآن في نوايا الملك . ولدهشة الملك ، قرر شاور المقاومة ورفض ابنه طئ - وكان أمر الحامية في بلبيس - فتح بواباته للفرنج . لكن قواته كانت ضئيلة العدد ، فبعد ثلاثة أيام من القتال اليائس ، الذى لم يكن أمالريك يظن أن المصريين قادرين عليه، دخل الجيش الفرنجى القلعة يوم ٤ نوفمبر ، أعقبه مذبحه مروعة للسكان . وربما كان أبطال المذبحة هم رجال نفرس ، الذين كانوا متقدمين حماسا وفوضى كشأن أغلب الوافدين الجدد من الغرب ، وكان زعيمهم الكونت قد مات في فلسطين من الحمى قبل بداية الحملة ، ولم يكن هناك من يقدر على السيطرة عليهم . وحاول أمالريك المحافظة على النظام ، وعندما أفلح أخيرا اضطر هو نفسه إلى أن يشتري من الجنود من بقى على قيد الحياة من أخذهم الجنود رهائن . على أن المحظور كان قد وقع. وكان الكثير من

(٢٨) ( William of Tyre, xxi, 5, pp. 948-9 ) يذكر وصول كونت نفرس في الفصل السابق Michael the Syrian (iii, pp. 332-3) ، وكان للورجون العرب، Atabegs, pp 553-4, and Ibn al-Athir, pp 112-13 and Abu Shama, pp. 246-7, and ذكر كون أن الملك وضع لخب.

المصريين الكارهين لشارور على استعداد للترحيب بالفرنجة كمخلصين ، وكانت الطوائف القبطية وهي بأعداد كبيرة في مدن الدلتا خاصة ، على استعداد للتعاون مع الرفاق المسيحيين ؛ غير أن الأقباط والمسلمين على السواء قد هلكوا في المذبحة ، فانحد الشعب المصري كله في بغضه للفرنجة . وبعد أيام قليلة وصل اسطول فرنجى صغير محمل في أغلبه بالفرجين ، وكان مقررا أن يحترق أعلى مصب النيل في تانيس ، إلى بحيرة المنزلة وهبط فجأة على مدينة تانيس ؛ وتكررت نفس مشاهد الرعب ، وكان الأقباط هم الذين عانوا أكثر من غيرهم.

ومجهل امالريك لأيام قليلة في بلبس ، لإعادة محاولة السيطرة على جيشه بلا شك . وفاته فرصة مياغنة القاهرة ، وانما ظهر يوم ١٣ نوفمبر امام اسوار القسطنطين ، وهي الضاحية القديمة الواقعة جنوب المدينة العظيمة . وتشكك شارور في قدرة القسطنطين على الصمود فأشعل فيها النيران ، وأرسل سفيره شمس مرة أخرى إلى الملك ليقول له إنه قبل أن تسقط القاهرة في أيدي الفرنجة سيحرقها هي أيضا إلى أن يسويها بالأرض بكل ما فيها من ثروة . وكان الاسطول محجوزا في أعلى الدلتا بمواجز وضعت في مجرى النهر، فتحقق امالريك من أن الحملة سلكت مسلكا خاطئا . وأخذ بتصيحة قهرمانه - مابلز (أوف بلانس) - جعل شارور يفهم أن في الامكان رشوة الملك . فراح شارور يتلاعب كسبا للوقت ؛ فبدأ يساوم على المبلغ الذي يستطيع دفعه ؛ فدفع مائة ألف دينار فدية ابنه طي ، وراح يتحدث عن مدفوعات أخرى . وفي تلك الأثناء انتقل الجيش الفرنجى بضعة اميال شمالا وعسكر في المطرية ، حيث شجر الجميز الذي أوقف ظله السيدة العذراء أثناء هروبها في مصر . وانتظروا هناك ثمانية ايام إلى أن جاءت الأنباء فجأة بأن شيركوه يزحف داخل مصر التي جاءها بدعوة من الخليفة الفاطمى<sup>(٢٩)</sup>.

#### ١١٦٩ م : شيركوه يفوز بمصر لنور الدين

لم يكن شارور يرغب في اتخاذ تلك الخطوة اليائسة ؛ لكن ابنه الكامل فرض عليه رأيه وأرغم سيده الإسماعيلي - الخليفة العاضد - على الكتابة إلى حلب عارضا على نور الدين ثلث أرض مصر واقطاعات لقواده . ولا بد أن الخليفة الصغير أدرك خطر

(٢٩) William of Tyre, xx, 6-9, pp.949-56; Abu Shama, pp. 114-15, 136-40 من عماد الدين ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. P. 52; Ibn al-Athir, pp. 554-6, and Atabegs, pp. 247-50.

التمس الحماية ممن يبدو في عينه هرطيقى مدّع ، لكنه كان فاقد الخليفة . وعندما تسلم نور الدين الدعوة أرسل مبعوثاً إلى شيركوه في حمص التي يقيم بها ؛ على أن المبعوث وجد شيركوه فعلاً على بوابات حلب . ولم يتردد نور الدين هذه المرة ، فزود شيركوه بشمانية آلاف فارس وخراتة مجهول الحرب تموى مائتي ألف دينار للإنفاق على جيش دمشق لغزو مصر ، وأمر صلاح الدين بمصاحبه . ولم يكن شاور على يقين بعد أمّن تكمن مصالحه ، فأنذر أمالريك الذي تحرك مع جيشه ناحية برزخ السويس أملاً أن ينقض على شيركوه عندما يبرز من الصحراء ؛ لكن شيركوه أفلت منه بأخطاره جنوباً ، وبذا لم يكن للفرنج الآن بد من الجلاء . وبدأ أمالريك اتسحابه يوم ٢ يناير ١١٦٩م بعد أن أمر أسطول بالعودة إلى عكا وبعد أن استدعى الحامية التي تركها في بلبس للانضمام إليه<sup>(٣٠)</sup>.

وبعد ستة أيام دخل شيركوه القاهرة تاركاً جيشه معسكراً عند باب اللوق ، وذهب إلى القصر حيث منحه الخليفة الهدايا الرسمية ووعد بالمال والطعام لجنوده . وحيّاه شاور بمرارة ؛ ودأب على زيارته يومياً في الأيام التالية لمناقشة الترتيبات المالية وتقسيم الوزارة . وتلقى شيركوه تلك العروض بكياسة ؛ غير أن ابن أخيه صلاح الدين، الذي كان أهم مستشاريه ، أصر على اتخاذ إجراء أكثر شدة . وأفلح في اقناع الخليفة بالحضور متكرراً إلى مقر شيركوه ؛ وفي ١٨ يناير تلقى شاور دعوة لمرافقة شيركوه في زيارة دينية لقم الإمام الشافعي ، وعندما شرع شاور في الذهاب ، انقض عليه صلاح الدين وأمرأوه ، وحردوا حراسه من أسلحتهم والقى القبض عليه . وفي أقل من ساعة صدر أمر من الخليفة بضرب عنقه، ووضعت رأسه عند قدمي الخليفة. ولكي يتجنب شيركوه أية محاولة تنال منه أعلن أن بيت الوزير مفتوح لمن يرغب في نهبه، وبينما كانت الجماهير تتدفق إلى هناك، انتقل هو والخليفة إلى القصر وتولى زمام الحكومة بهدوء. ولقد كان حكم شاور أبعد ما يكون عن الشعب، وكان اعتبار شيركوه للشرعية غاية في الرتبة بحيث لم يلق النظام الجديد معارضة أي من حكام المقاطعات. ولم تمض أسابيع قليلة حتى غدا شيركوه سيد مصر كلها؛ وتسلم أمرأوه الاقطاعات التي كانت لدى شاور وأسرته، وحصل هو نفسه على لقب الوزير

(٣٠) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 52-3; Ibn al-Athir, p. 563, and *Atabegs*, p. 250; Abu Shama, p. 117 واستناداً إلى رواية إيهووالدين التي تكررها ابن الأثير بحزب من الإكمال ، كان صلاح الدين عاجزاً بشدة عن الانضمام إلى حملة.

الملك<sup>(٣١)</sup>.

ولم يعيش شيركوه طويلا في رفعته؛ إذ مات يوم ٢٣ مارس ١١٦٩م بسبب التخمّة. ولقد حُجبت شهرته في التاريخ بظلال سيده نور الدين وابن أخيه صلاح الدين. ومع ذلك، كان هو الذي أدرك بجلاء بفوق أي مسلم آخر، أن غزو مصر بما لها من موقع استراتيجي وموارد لا تنضب، هو المقدمة الضرورية لاسترجاع فلسطين؛ وبرغم تردد نور الدين ويقتله ضميره، ظل شيركوه يعمل بلا كلل لتحقيق هذه الغاية. وكان لابن أخيه أن يحصد ما دأب على غرسه. كان ذا مظهر ينل من أهمية، وكان قصيرا، ربلا، أحمر الوجه، يبصر بعين واحدة، وكانت ملامحه تنسم عن وضاعة مولده. غير أنه كان حنديا عبقريا. والقليل من القادة يتفاني جنودهم في حبهم<sup>(٣٢)</sup>.

ولقد تحقق الفرنج جيدا من الأهمية القائلة لاتتصار شيركوه. وبينما ألقى بعضهم باللائمة على جشع مايلز (أوف بلانسي)، الذي جعل الملك يقبل المال بدلا من الحرب، بحث آخرون عن كبش فداء فوجدوه في السيد الأعظم لفرسان المستشفى، الذي أجبر على التخلي عن منصبه والعودة إلى بلاده في الغرب. وأما أمالريك نفسه فقد أرسل النداء إلى الغرب لتسيير حملة صليبية جديدة. فانطلقت في باكورة عام ١١٦٩م سفارة لتحريك العواطف، يرأسها البطريق أمالريك ورئيس اساقفة قيسارية، تحمل رسائل إلى الامبراطور فريديريك، ولويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنجلترا، ومارجريت الملكة الوصية على صقلية، وإلى كونتات فلاندرز وبلوا. ويروى أنه بعد مئتي يومين في البحر، هبت عاصفة هوجاء أعادت سفن السفراء إلى عكا، ولم يرض أحد من الركاب المجازفة مرة أخرى بأخطار الأعماق. وانطلقت سفارة ثانية يرأسها فريديريك رئيس اساقفة صور، ومساعد الأسقف، وجون أسقف باتياس، وجيزرت مرشد نظام فرسان المستشفى. ووصلوا روما في يولية ١١٦٩م حيث أعطاهم البابا ألكسندر الثالث خطابات توصية موجهة إلى جميع رجال الدين اتباعه. بيد أن تلك الرسائل جميعها لم تجد فتيل؛ إذ احتجزهم الملك لويس لأشهر

(٣١) (Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 53-5) Beha ed-Din من عماد الدين؛ (Ibn al-Athir, pp. 558-60 and Anabegh, pp. 251-3; Abu Shama, pp. 118-19, 142-5; William of Tyre, xx, 10, pp. 956-8.

(٣٢) (Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 55; Ibn al-Athir, pp. 560-1 (xx. 5. p. 892) بنفس العبارات كالتى استخدمها الكتاب العرب. ويصف بهاء الدين (pp. 50-1) غرمة التلطف على ضم مصر إلى ملك سيده.

كثيرة في باريس ، حيث مات أسقف بانيس ، بينما كان الملك يشرح لهم مشاغله مع أسرة البيلانتاجينيس (الحاكمة في إنجلترا) . فواصلوا رحلتهم إلى إنجلترا حيث حادتهم الملك هنري عن متاعيه مع الكايتيون . ولم يكن هناك معنى لزيارة ألمانيا نظرا للخلاف بين البابا والامبراطور . وبعد عامين من الاستجداء المقيم عادوا إلى فلسطين بقلوب متفطرة<sup>(٣٣)</sup>.

#### ١١٦٩م : حملة تحالف ضد مصر

وأحرزت السفارة المرسلة إلى القسطنطينية نجاحا أكبر . ذلك أن مانويل أدرك جيدا أن ميزان القوى في الشرق قد انقلب بصورة خطيرة ، فعرض على أماليك تعاون الأسطول الامبراطوري العظيم في حملته التالية<sup>(٣٤)</sup> ، فوافق الملك مسرورا . وربما أمكن مع ذلك استعادة مصر ، إذ أن نور الدين في غيبة الانشغال في الشمال على ما يبدو . فقد نتج عن موت قرّة أرسلان ، أمير ديار بكر الأرتقي عام ١٦٨١م ، وما تلى ذلك من خلاف حول الميراث ، أن أفسد النظام على نور الدين وعلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ؛ فضلا عن أن غازي بن حسان ، حاكم منبج ، تمرد بعد ذلك مباشرة ومضت عدة أشهر قبل تسوية أمره . والآن كان قطب الدين يتضرر ، وسرعان ما سوف تثار مسألة الاستخلاف على الموصل<sup>(٣٥)</sup> . وفي مصر انتقلت ألقاب شيركوه وسلطته إلى ابن أخيه صلاح الدين . ولكن صلاح الدين ليس بالحاكم المخلص ، وكان هناك آخرون من أمراء شيركوه يطمنون استخلافهم مكانه ، غير أن الخليفة اختار صلاح الدين وهو على ثقة من أن اقتضاه إلى الخبرة ستدفعه إلى الاعتماد على المسؤولين الفاطميين . وفي ذات الوقت كتب كبير الطواشي لدى العاضد - وهو نوبى يدعى المؤمن - سرا إلى القدس بعد بالمساعدة في حالة غزو الفرنج لمصر . ولكن لسوء حظه ، لاحظ أحد عملاء صلاح الدين شكلا غير طبيعي لحقن مع أحد سعاة البلاط مما أثار ريته ، فأخذهما وقطع خياطتهما ووجد الرسالة فيهما . وانتظر المؤمن

(٣٣) William of Tyre, xx, 12, pp. 960-1; letters of Amalric in *R.H.F.* vol. xvi, pp. 187-8; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp. 258-9. «مات السيد الأعظم لفرسان المستشفى غرقا وهو يعبر من ديبى إلى إنجلترا». انظر Le Roux, *Les Hospitaliers*, pp. 76 ff.

(٣٤) William of Tyre, xx, 13, pp. 961-2.

(٣٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P.52; Abu Shama, pp. 188-9; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 264; Michael the Syrian, in pp. 339-42; «مات قطب الدين في العام التالي (١١٧٠م)».

ثار صلاح الدين ، غير أن أنباء انعدام الأمن لديه شجعت المسيحيين<sup>(٣٦)</sup>.

وأرسل أمالريك إلى الامبراطور يستعجله ؛ وفي ١٠ يولية ١١٦٩م انطلق الأسطول الامبراطوري الضخم من الدردنيل بقيادة الدوق العظيم أندرونيكوس كونتستيفانوس . وأبحر الأسطول الرئيسي إلى قبرص مستوليا على سفينتين مصريتين في طريقه ، وأبحر أسطول أصغر مباشرة إلى عكا يحمل معونات مالية لجنود أمالريك . وقيل لأمالريك بأن يرسل إلى قبرص مستدعيا الأسطول عندما يرغب في ذلك . لكن أمالريك لم يكن جاهزا ، إذ أن حملة عام ١١٦٨م سببت الاضطراب في قواته ، وكانت خسائر فرسان المستشفى جسيمة جدا . وأما فرسان المعبد فكانوا لا يزالون يرفضون الاشتراك ، وقد خبت جذوة الحماس عند البارونات عما كانت عليه ، إذ أن التجربة السابقة أضعفت عزائمهم ، ولم يرسل أمالريك إلى قبرص لاستدعاء الأسطول إلى عكا إلا في سبتمبر ، وقد أثار منظرة الرائع مشاعر البهجة لدى السكان ؛ ولم تنهيا الحملة كلها للمسير إلى مصر إلا في منتصف أكتوبر . وضاعف التأخير من الحسب التعس ؛ ذلك أن مانويل ، الذي أدخلوا في روعه التفاؤل ، أعد العدة لحملة تستغرق وقتا قصيرا وزود سفنه بالملون التي تكفي ثلاثة أشهر فقط ، وقد قاربت الأشهر الثلاثة على الانقضاء . ولم تستطع قبرص المساعدة في إعادة تموين الأسطول وهي التي لم تترأ بعد مما سببه رينالد من غراب ، وليس في عكا مؤن يمكن الحصول عليها<sup>(٣٧)</sup> . وفي ذات الوقت تلقى صلاح الدين تحذيرات كثيرة عن الحملة ؛ ولكي يوفر لنفسه الأمان في القاهرة اعتقل في ٢٠ اغسطس ١١٦٩م الخنصي المؤمن وضرب عنقه ، وطرد جميع خدام القصر ممن يعرف عنهم الولاء للخليفة واستبدلهم بصنائه هو نفسه . وطرد بعض المسؤولين الذين شجعهم الخليفة على تخريب حرس القصر النوبيين على الثورة ومهاجمة جنود صلاح الدين . وقام آخر صلاح الدين ، فخر الدين ، بهجوم مضاد لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إلى أن أشعل صلاح الدين النيران في ثكنات الحرس في الفسطاط التي كان بها زوجات وأولاد أفراد الحرس النوبيين ، فما كان من الحرس إلا أن هربوا هربا لانقاذهم؛ فانقض عليهم فخر الدين وقتلهم جميعا على وجه التقريب . أما الخليفة الذي كان يرقب المعركة ، فقد سارع ليؤكد ولاءه لصلاح الدين . وأدى تخلي الخليفة عن النوبيين إلى القضاء على الحرس كله ؛ إذ أن الحرس الأرمني ، الذي لم يشترك في

(٣٦) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 55-6; Ibn al-Athir, pp. 566-8; Abu Shama, p.146. التي اصدرها الخليفة بتعيين صلاح الدين موجودة في برلين ، folios long. ٩٨ .

(٣٧) Nicetas Choniates, pp. 208-9; William of Tyre, loc. cit..

المعركة ، قد حُرِق حتى الموت في التكنات . وهكذا أفلح صلاح الدين في إسكات معارضية<sup>(٣٨)</sup>.

#### ١١٦٩م : حصار دمياط

انطلق الجيش المسيحي نحوها يوم ١٦ أكتوبر . وعرض أندرونيكوس كونتوستيفانوس ، الذي أغاظه تأخير امالريك ، نقل جُل الجنود بحرا ؛ لكن الفرنج أصروا على الطريق البري . وفي ٢٥ أكتوبر دخل الجيش مصر عند الفرما بالقرب من بليوزيوم . وكان صلاح الدين يتوقع هجوما على بليس ، فركز قواته هناك ؛ لكن السفن البيزنطية كانت قد نقلت الفرنج عبر فروع النيل الشرقية ، وانحدرت بمحاذاة شاطئ بطول الشاطئ ، فزحف الفرنج بصورة خاطئة على دمياط ، تلك القلعة الغنية التي تنحكم في فرع النيل الرئيسي ، ومنها يستطيع الأسطول الإبحار باتجاه القاهرة . وبوغت صلاح الدين . ولم يجرؤ هو نفسه على مغادرة القاهرة خشية أن يتشجع مناصرو الفاطميين للقيام بثورة ؛ لكنه أرسل التعزيزات إلى دمياط ، وكتب بنفسه إلى سوريا يلتمس المساعدة من نور الدين . وكانت الحامية في دمياط قد ألقت بسلسلة عظيمة بعرض النهر ؛ ولم تتمكن السفن اليونانية - التي أعانتها أيضا رياح معاكسة - من الإبحار مروراً بالمدينة كسي تعترض تعزيزات الجنود والملون الآتية في البحر من القاهرة . وربما استطاع المسيحيون الاستيلاء على القلعة بهجوم مفاجئ ؛ غير أنه برغم الحاح كونتوستيفانوس للقيام بهجوم فوري - وقد شغله تناقص الإمدادات - فقد شعر امالريك بالرهبة من التحصينات المروعة ، وأبدى رغبته في تشييد المزيد من أبراج الحصار . وبقرار خاطئ وضع البرج الأول أمام أقوى جزء في الأسوار ؛ وأطلق اليونانيون آلات حصارهم تقصف ناحية مقدسة تضم كنيسة صغيرة مكرسة للسيدة العذراء ، وهي ناحية كانت السيدة العذراء قد توقفت فيها أثناء رحلتها إلى مصر؛ فذهب الملح بين السكان المحليين من المسيحيين والمسلمين على السواء . وفي كل يوم يتدفق جنود جدد إلى داخل المدينة . وفي كل يوم كانت حصص البحارة اليونانيين ورفاقهم على الشاطئ تتناقص ، دون أن يساعدهم حلفاؤهم الفرنج بما لديهم من وفرة في الإمدادات . وفي كل يوم كان كونتوستيفانوس يناشد امالريك المجازفة بهجوم شامل على الأسوار ، ويرد امالريك بأن المجازفة بالغة الخطر ، وبهمس له قواده المرتابون



في اليونانيين بأن الذي يحرك حماس كونتوستيفانوس هو رغبته في الاستيلاء على دمياط كجزء من الغنائم الامبراطورية . وما أن أهل شهر ديسمبر حتى بدأ حليا أن الحملة قد فشلت . فبدون طعام لا يستطيع اليونانيون المضي في الحرب . وأطلق المدافعون غاربا مشتعلا في وسط الأسطول ، فأنزل باليونانيين خسائر فادحة ، رغم أن تدخل امالريك العاجل قتل من الأضرار . وصارت القلعة الآن مزودة جيدا بالرحال والامدادات ، وقبل إن الجيش الإسلامي الآتي من سوريا يتحزب ؛ وعندما هطلت الأمطار هطولا مبكرا وأحالت المعسكر المسيحي إلى مستنقع ، كان الوقت قد حان لرفع الحصار . ولا تعرف على وجه اليقين ما إذا كان امالريك هو الذي بدأ التفاوض مع العرب أم كونتوستيفانوس ، ولا الشروط التي اتفق عليها . وربما أعطى المسيحيون تعويضا ماليا ؛ وبكل اليقين كان امالريك يأمل في عزل صلاح الدين عن نور الدين بمظهر من مظاهر الصداقة مع صلاح الدين خاصة وأن علاقات امالريك بنور الدين يشوبها السرود على الأرجح.

وفي ١٣ ديسمبر حرق المسيحيون آلات حصارهم كلها حتى لا تقع في أيدي المسلمين وحلوا عن دمياط ، ووصل الجيش إلى عسقلان في الرابع والعشرين . أما الأسطول فكان أقل حظا ؛ فبينما كان مبحرا باتجاه الشمال هبت عاصفة شديدة ، ولم يستطع البحارة الذين كانوا يتضورون جوعا السيطرة على سفنهم التي امتلأ الكثير منها بالماء وغاص في الأعماق . وكانت مياه البحر تلقى بالبحث اليونانية على شواطئ فلسطين لأيام ؛ وهرب كونتوستيفانوس نفسه وأبحر إلى كيليكية ومنها ارتحل برا لرفع تقريره إلى الامبراطور . ووصلت بقايا الأسطول العظيم إلى مياه البوسفور في وقت مبكر من العام التالي<sup>(٣٩)</sup>.

وأدت النتيجة الفاجعة للحملة حتما إلى تبادل السباب والإتهامات . وألقى الفرنج باللائمة على اليونانيين لنقص الامدادات ؛ وألقى اليونانيون ، بتعقل أكثر ، باللوم على

(٣٩) William of Tyre, xx, 14-17, pp.962-71; Cinnamus, pp. 278-80. الحملة أرسل صلاح الدين إلى مانويل عارضا دفع إثارة سنوية ، لكن مانويل رفضها؛ ومن الناحية الأخرى، يستنتج Nicetas Choniates, pp. 209-19 ضمنا أن مانويل عقد السلام مع مصر ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 56-9; Abu Shama, pp.151-13; Ibn al-Athir, pp. 668-70 and (70) أن اليونانيين أعتدوا بغشوة من صلاح الدين للتعليق عن الحملة . ودليله على ذلك مناهض لليونانيين على نحو ثابت بحيث يفقد قيمته . ويقول وليم الصوري إن كونتوستيفانوس كان هو أول من طلب وقف القتال ، بينما يقول Nicetas إنه كان الثلث.

الفرنج للتأخير الذي لم تكن له نهاية . على أن امالريك والاميراطور أدركا أنه لا ينبغي كسر التحالف . إذ أن صلاح الدين الآن سيد مصر بلا منازع.

وكان صلاح الدين من الحكمة بحيث لم يقع في الشرك الدبلوماسي الذي أعده له امالريك . ولقد كان نور الدين يتقن شيركوه ، لكنه كان مرتابا في طموحات حاكم مصر الجديد ؛ ومع ذلك لزم صلاح الدين جانب الاستقامة التالية . ذلك أن نور الدين بعث في ابريل ١١٧٠م إلى صلاح الدين والده نجم الدين أيوب مع صحة من الجنود السوريين ، في لفقة من لفقات الصداقة من ناحية ، وربما كتلميح من ناحية أخرى ، إذ كان أيوب شديد الولاء لسيده . وصاحب القافلة أعداد كبيرة من التحار السوريين المثلثين على تبادل التجارة مع القاهرة ، ولكن يساعد نور الدين هذه القافلة الضخمة على العبور بصورة مأمونة عبر أراضي الأردن ، قناد استعراضا عسكريا ضد الكرك<sup>(٤٠)</sup> . وكان ذلك التحرك هو الحركة الوحيدة التي اقدم عليها نور الدين ضد الفرنج ؛ وكان قد تركهم في سلام أثناء حملتهم على مصر ، بل اتهم تمكنوا في يناير ١١٧٠م من استعادة قلعة عكار جنوب البقعة ، والتي ربما كانوا قد فقدوها عام ١١٦٥م . وقد سلمها امالريك وكذلك مدينة أرقا - بصفته وصيا على طرابلس - إلى فرسان المستشفى الذين باتوا يسيطرون على الوادي كله الآن<sup>(٤١)</sup>.

#### ١١٧٠م : زلزال يضرب أنطاكية

في يوم ٢٩ يولية ١١٧٠م زلزلت سوريا بزلزال مروع ألحق بها من الدمار نفس القدر الذي سببه زلزال ١١٥٧م ؛ وفي الأشهر القليلة التالية انهزمك المسيحيون والمسلمون سواء يسوء في اصلاح ما أصاب قلاعهم من أضرار . وقد أصيبت حلب وشيزر وحماه وحمص بدمار شديد وكذلك الكرك وطرابلس وجبيل . وفي انطاكية كان الدمار هائلا ، وجد فيه الفرنج عدالة الهية ؛ إذ كان البطريرق اليوناني ورجال كنيسته يقيمون قداسا في كنيسة القديس بطرس عندما انهار عليهم المبنى . وبينما كان أنطاسيو يحضر تحت الأنقاض أسرع الأمير بوهمند ورجال بلاطه إلى القصر

(٤٠) Beha ed-Din, P.P.T.S. PP. 59-60; Abu Shama, pp. 153-4; Ibn al-Athir, *Araabegs*, pp.260-1.

(٤١) Abu Shama, p. 149. وجدت اهداء عكار وأرقا إلى فرسان المستشفى بعد وقوع الزلزال في يولية. (Rohricht, *Regesta*, p.125).

يتوسلون إلى غريمه ليمرى (اللاتيني) العودة إلى كرسية البطريرقي . وهكذا انتهت الفترة القصيرة من الحكم الكنسي اليوناني<sup>(١٢)</sup>.

ولم يتمكن الامبراطور من التدخل رغم تلقيه الأنباء بمشاعر الغضب . ذلك أن الأمور كانت تسير سيرا سيرا في كيليكيا ؛ فقد مات الأمير ثوروس عام ١١٦٨م تاركا طفلا ليخلفه - روبرت الثاني - تحت وصاية لورد فرنجي يدعى توماس كانت امه أخت ثوروس . لكن أمنا ثوروس ، مليح ، أثار نزاعا حول الاستخلاف ؛ وكان في وقت ما قد أخذ على نفسه العهد كفارس من فرسان المعبد ، وبعد مشاجرته مع ثوروس ومحاولة اغتياله هرب إلى نور الدين وتحول إلى الاسلام . وفي وقت مبكر من عام ١١٧٠م أمده نور الدين بالجنود وتمكن بذلك من خلع ابن اخيه ، ليس هذا وحسب وإنما توغل ايضا في سهل كيليكيا واستولى على المصيصة وأدنه وطرسوس من حامياتها اليونانية . ثم أنه هاجم فرسان المعبد في باجراس ، مما دفع بوهمند إلى الاستنجاد بأمالريك ، الذي توغل داخل كيليكيا ، ويبدو أنه أعاد الحكم الامبراطوري مؤقتا . ومن الجائز أن يكون عمله هذا البودود قد أحدث وفقا لدى مانويل وتعويضاً لخسارة سيطرته الكنسية في انطاكية . لكن مليح لم يرتدع . وبعد عام أو بعض عام تمكن من أسر قسطنطين كولومان وغادر مرة اخرى على كيليكيا<sup>(١٣)</sup>.

وكان نور الدين في تلك الأثناء مشغولا في الشرق الأبعد . فقد مات أخوه قطب الدين صاحب الموصل في صيف ١١٧٠م ؛ وتنازع ابناء سيف الدين وعماد الدين على الميراث ، ومرت بضعة اشهر قبل أن يتمكن نور الدين من تسوية المسألة بما يتفق ورغبته<sup>(١٤)</sup> . وكانت المهلة ذات فائدة للفرنج . غير أن مشكلة مصر بقيت بلا حل . وبقي امالريك متمسكا بسياسة ذات الشيعتين : التحالف الوثيق مع الامبراطور واستمرار المناشدة للغرب . وفي ربيع ١١٧١م قرر القيام بزيارة شخصية إلى

(١٢) Michael the Syrian, III, p.339; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 262; William of Tyre, XX, 18, pp.971-3.

(١٣) William of Tyre, XX, 26, pp. 991-2; Nicetas Choniates, p.183; Michael the Syrian, III, pp. 331, 337; Sambat the Constable, pp. 622-5; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-9. ومن غير الممكن البت في التاريخ . إذ أن ولسم الصوري يحدد تلك الأحداث بعد زيارة أمالريك للقسطنطينية ، وميخائيل الصوري قبل زوال عام ١١٧٠م . وكانت طرسوس ما تزال يونانية عندما عاد هنري الأسد Henry the Lion من حملته الصليبية عام ١١٧٢م (Arnold of Lübeck, pp.22-3).

(١٤) أنظر المراجع أعلاه ص (٤٤١) للمحولة (٣٥)، وأدناه ص (٤٥٠).

## القسطنطينية.

وتأخر رحيله بسبب هجوم مفاجئ قام به صلاح الدين على حدوده الجنوبية .  
ففى وقت مبكر من عام ١١٧٠م ظهر جيش مصرى ضخم أمام الداروم ، وهى آخر  
قلعة فرنجية جنوبية على البحر المتوسط . وكانت دفاعاتها ضعيفة ، ورغم عدم توفر  
آلات حصار لدى صلاح الدين فقد بدأ سقوطها وشيكا . فسارع امالريك ، ومعه  
البطريق وقطعة من اثر الصليب الحقيقى ، إلى عسقلان التى وصلها يوم ١٨ ديسمبر ،  
وواصل مسيرته إلى قلعة فرسان المعبد فى غزة ، حيث ترك مايلاز (أوف بلانسى)  
لقيادتها إذ رافقه فرسان المعبد فى مسيرته إلى الداروم . وتمكن من اختراق الجيش  
المصرى ودخل الداروم ، وعلى الأثر رفع صلاح الدين الحصار وسار إلى غزة ، فاستولى  
على أسفل المدينة ، رغم ما أبداه مايلاز من مقاومة عتيمة ، وقتل سكانها . على أن  
القلعة كانت هائلة بحيث لم يغامر صلاح الدين بمهاجمتها . وبنفس الفجأة التى جاء  
بها صلاح الدين ، اختفى مرة أخرى عائدا إلى الحدود المصرية . ثم إنه أرسل أسطولاً  
صغيراً أعلى خليج العقبة واستولى على المخفر الفرنجى الأمامى المسمى أبلة الواقع على  
رأس الخليج ، وذلك فى الأيام الأخيرة من السنة<sup>(٤٥)</sup>.

## ١١٧١م أمالريك فى القسطنطينية

غادر امالريك عكا قاصداً القسطنطينية يوم ١٠ مارس ، ومعه حاشية كبيرة تضم  
اسقف عكا ومارشال البلاط جيرار (أوف بوجى) . وكان سيد فرسان المعبد ، فيليب  
(أوف ميلى) قد استقال من منصبه ليسبق الملك كسفير . وبعد الرسو فى طرابلس ،  
واصل الملك انخاره إلى الشمال . وفى يناير/يوليى قابله صهره وكانت الرياح المعاكسة قد  
اضطرتته إلى الذهاب برا إلى هرقله . ومن هناك ركب الملك البحر مرة أخرى كى  
يدخل العاصمة من بوابة القصر فى ميناء بوكوليون ، وهو شرف لا يتاله سوى الملوك  
المتوجين.

واستقبل امالريك استقبالا ملأه بهجة هو وحاشيته . وكان مانويل يستلطف  
الفرجين عموماً ، وقد وجد امالريك متعاطفاً معه . وأظهر كرمه السخى المعتاد .  
وشاركت عائلته كلها - خاصة صهره - فى الاحتفاء به . وأقيمت قداسات دينية

(٤٥) William of Tyre, xx, 19-20, pp. 973-7; Ibn al-Athir, pp. 577-8.

واحتفالات لا نهاية لها . وأجرى استعراض راقص في هيبودروم ، ورحلة بحرية أعلا السفور وأسفله<sup>(٤٦)</sup>. وفي وسط السفور ناقش الامبراطور والملوك المستقبل . وعقدت معاهدة وتم التوقيع عليها ، لكن بنودها لم تسجل . ويدنو أن الملك اعترف فيها على نحو مبهم بسيادة الامبراطور على المسيحيين الوطنيين ، وأن مانويل وعد بالمساعدة البحرية والمالية وقتما تنهيا حملة اخرى للهجوم على مصر ، وأنه يتعين القيام بعمل مشترك ضد ملجح الأرمني . والأرجح أن كانت هناك بنود بشأن الكنيسة اليونانية في انطاكية ، بل وربما في المملكة ، التي تولت فيها مانويل بالفعل في عام ١١٦٩م مسؤولية إعادة زخرفة كنيسة الميلاد في بيت لحم ، التي تحمل نقشا مكتوبا بالفسيفساء يشهد بأن الزخرفة أجراها إيفرايم بناء على أوامر الامبراطور . كما تولت مسؤولية اجراء الاصلاحات في كنيسة القبر المقدس<sup>(٤٧)</sup>.

وأما ما كانت عليه تفاصيل المعاهدة ، فقد رضى الفرنج بزيارتهم الرضا كله ، وأعجبوا بمضيفهم بما إعجاب . وفي ١٥ يونيو أبحروا من القسطنطينية عائدين إلى بلدتهم محدومهم الآمال العراض للمستقبل.

وأما مناشدة الغرب إرسال حملة صليبية فكانت أقل نجاحا ؛ ذلك أن فريديريك رئيس أساقفة صور كان ما يزال يتحول نحو الا عقيما بين بلاطى فرنسا وإنجلترا . وفي نهاية ١١٧٠م تقريبا كتب له أمالريك كى يوجه الدعوة إلى ستيفن (أوف شامباني)، كونت سانسير ، للحضور إلى فلسطين ليتزوج الأميرة سيبيللا<sup>(٤٨)</sup>. كانت هناك مأساة

(٤٦) William of Tyre, xx, 22-4, pp. 980-7; Cinnamus, p. 280 يقول فيه ان امالريك وعد الامبراطور بمنحه قلعة ؛ Michael the Syrian, iii, p. 343.

(٤٧) 99-103 De Bogue, *Les Eglises de la Terre Sainte*, الذي يورد وصفا للفسيفساء في كنيسة بيت لحم . ويشير اليها الرحالة اليوناني فوكاس Phocas ويتحدث عن الاصلاحات في كنيسة القبر المقدس (pp. 19, 31) ويناقش La Monte في "أى مدى كانت الامبراطورية البيزنطية متسيدة على الدولات الصليبية ؟ the suzerain of the Crusading States?" To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States? مانويل ، كاسلاف قبل الصليبيين ، ربما اعتبر نفسه مسؤولا عن رعايته الأرثوذكس في فلسطين . لكن حقه في التدخل لصالحهم كان معروفا به . انظر أعلاه ص ٣٦٩ عن بطريرك القدس الذي احتفظ به مانويل احتياطيا في القسطنطينية . وربما يعزى إلى مانويل اجراء الاصلاحات حول آنذاك لدى المنشآت الأرثوذكسية في فلسطين ، مثل (Lavra of Calamon) انظر Vailhé, 'Les Laures de Saint Gerasime et de Calamon' in *Echos d'Orient*, vol. II, p. 117. ليوثيموس . ( انظر محاولة الصليبيين استعمار فلسطين وسوريا The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria Journal of the Royal Central Asian Society, vol. xxi, pp. 292-3.

(٤٨) William of Tyre, xx, 25 mo, 988. وكان ستيفن حفيد كونت بلوا الصليبي وأحفاد ابنه تيساليد.

حدثت في البيت الملكي عجالت بهذا الاقتراح . فقد أرسل ابن امالريك - بالدوين - وهو الآن في التاسعة من عمره مع رفاق من سنه لتلقي التعليم لدى وليم رئيس شمامسة صور . وكان صبيًا وسيما ذكيا ، وفي يوم ما ، بينما كان التلاميذ يختبرون قوة التحمل لدى كل منهم بغرز أطرافهم في أذرع بعضهم البعض ، لاحظ معلمهم وليم أن الأمر هو فقط الذي لم يفلح قط ؛ فراح يراقبهم بعناية وسرعان ما تحقق من أن الولد عديم الإحساس بالألم لأنه كان يحدو ما<sup>(٤٩)</sup>. كان ذلك من تصارييف الرب بسبب زواج سفاح القرابي الذي أقدم عليه والداه ، أمالريك وأجنيس ؛ وكانت الحادثة نذير شوم للمملكة . وحتى عندما يكبر بلدوين لن تتمكن الأسرة الحاكمة من الاستمرار من خلاله ، وربما تحمل الملكة اليونانية الشابة ابنة بعده ؛ على أنه في تلك الآونة، وتوخيا للسلامة ، رأت حكمة امالريك أن تتزوج ابنة الكيري سيبيلا من أمير غربي عتلك ثرى يستطيع التصرف وقت الضرورة كوصي أو حتى كملك . وقبل ستيفن الدعوة وهبط شاطئ فلسطين في صيف ١١٧١م مع صحة من الفرسان ، وكان ذلك قبل وصول امالريك من القسطنطينية بأيام قلائل . غير أنه لم يرض عن مظهر فلسطين . وقطع فجأة مفاوضات الزواج بطريقة فظة ، وبعد تأدية النذر في الأماكن المقدسة وحل مع صحبته إلى الشمال متوجها زيارة القسطنطينية . وأثناء عبوره كيليكيا ترصده مليح الأرمني وسلبه كل ما كان معه<sup>(٥٠)</sup>.

وفي العام التالي جاء إلى فلسطين زائر أكثر أهمية ، هنري الأسد ، دوق ساكسونيا وبافاريا ، وحفيد الامبراطور لوثر ، وزوج ابنة هنري الثاني ملك إنجلترا . غير أنه رفض هو الآخر أن يجارب من أجل الصليب قاتلا إنه جاء كمجرد حاج ، ورحل إلى ألمانيا بأسرع ما يمكن<sup>(٥١)</sup>.

كونت بلوا وتشارترز وتروى. وقد ولد حوالي ١١٣٠م ، وفي عام ١١٥١م غر هارما بروجيه من ماتيلدا (لوف دوزي). (انظر 847, p. ١٢, *Hist. Généalogique de la France*, II, Anselme) ولما كانت زوجته تدعى أحيانا أليكس ، وأحيانا أخرى ماري ، فمن المرجح أنه تزوج أكثر من مرة وأنه كان أرملًا في عام ١١٧٠م.

(٤٩) William of Tyre, *xxi*, ١, pp. 1004-5.

(٥٠) *Ibid.* *xx*, 25, p. 988.

(٥١) ر. ج. Joranson "The Crusade of Henry the Lion" وصفًا مطولا لحملة الصليبية في *Medieval Essays presented to G.W. Thompson* Arnold of Lübeck المراجع هو

## ١١٧١ م : انتهاء الخلافة الفاطمية

تسببت لا مبالاة الغرب في عيبة أمل مريرة . على أنه ربما لم تكن هناك ضرورة عاجلة لتسيير حملة ضد مصر ، إذ بدا أن علاقات صلاح الدين بنور الدين وصلت إلى نقطة القطع . ففي عام ١١٧١م كان نور الدين قد وضع حامية خاصة به في الموصل ، حيث يحكم ابن أخيه سيف الدين ، وكان قد ضم نصيبين ووادي نهر حابور إلى نطاق سلطته ، ومنح سنجار لابن أخيه المفضل لديه عماد الدين . وبموازع التقى لنصرة الإسلام الأصولي ، كتب إلى صلاح الدين طالبا الكف عن ذكر اسم الخليفة الفاطمي في المساجد المصرية واستبداله باسم الخليفة في بغداد . ولم يرغب صلاح الدين في الامتنال لهذا الطلب ؛ إذ بعد قرنين من الحكم الفاطمي بات النفوذ الشيعي قويا في مصر . وفضلا عن ذلك ، ورغم أنه قد يعترف بنور الدين سيدا له ، فإن سلطته في مصر مستمدة من الخليفة الفاطمي . فراح يراوغ ، إلى أن هدد نور الدين في أغسطس بالحضور شخصيا إلى مصر . وبعد أن اتخذ صلاح الدين احتياطات الشرطة ، أعد العدة للتغيير ؛ بيد أنه لم يجرؤ أحد على الإقدام على أول خطوة ، حتى أول يوم جمعة من السنة الإسلامية ٥٦٧ هجرية عندما خطبوا إلى المسجد برباطة جأش زائر سني من الموصل واعتلى منبر الجامع الكبير ودعا للخليفة المستضيئ . وحذت القاهرة كلها حذوه . وكان الخليفة الفاطمي العاضد راقدا في القصر يحتضر ، ومنع صلاح الدين الخدم من إخطاره بالنبا قائلا : "إن يرا من مرضه ، فسرعان ما سيعلم ، وإن يموت ، فليمت في سلام" . على أن الشاب البائس عندما طلب رؤية صلاح الدين قبل وفاته بضع ساعات ، رفض طلبه خوفا من وجود مكيدة . وندم صلاح الدين على رفضه بعد فوات الأوان ، وكان لا يذكره إلا بالخير . وهكذا هلكت الأسرة الحاكمة الفاطمية بموت العاضد . وجمع شمل من تبقى من الأمراء والأميرات ، وأرسلوا حيث عاشوا حياة فائرة ولكن دون أي اتصال بالعالم<sup>(٥٢)</sup>.

وبعد أيام قليلة انطلق صلاح الدين لمهاجمة قلعة الشوبك جنوب البحر الميت ، وشدد الحصار حوفا . وخف الماريك لانفاذها ، لكنه رحل عن القدس متأخرا للغاية بسبب معلومات خاطئة . وعندما كانت الحامية تنهيا للتسليم ، ظهر نور الدين فجأة على الطريق إلى الكرك ؛ وفي تلك اللحظة رفع صلاح الدين الحصار ، قائلا لنور الدين

(٥٢) Ibn al-Athir. pp.575-80, and Atabegs. pp. 202-3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.551; Beha ed-Din, P.P.T.S.pp.61-2.

إنه مضطر إلى العودة إلى القاهرة بسبب حروب اخوته في مصر العليا. وبدا ذلك لنور الدين محض خيانة يتعين المعاقبة عليها بالقوة. وعندما سمع صلاح الدين بغضه شعر بالخطر واستدعى مجلساً من أفراد عائلته وقواده، ونصح الشباب من أفراد الأسرة بالتحدي؛ غير أن أبا صلاح الدين، نعم الدين أيوب المسن، وقف وقال إنه هو نفسه محلل لسيدته وانتهر ابنه لظموحه، وعندما خلا به وبخه مرة أخرى على أن جعل ظموحه بيتاً جلياً. فأخذ صلاح الدين بنصيحته وأرسل باعتذاراته اليائسة إلى نور الدين الذي قبلها إلى حين<sup>(٥٣)</sup>.

#### ١١٧٢ م: إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس

وفي صيف ١١٧١ م خطط نور الدين لحملة على الجليل، لكنه كف عنها. وفي أواخر الخريف ارتكب الفرنج أعمال قرقنة من اللاذقية هاجموا فيها سفينتين بحاريتين مصريتين، مما أثار سورة غضبه، فراح يخرّب الأراضي الأنطاكية والطرابلسية، ودمر حصن صافيتا وأريحا، مما اضطر الفرنج إلى دفع تعويض باهظ حتى يتوقف<sup>(٥٤)</sup>. غير أنه في عام ١١٧٢ م فضل استمرار السلام، جزئياً لعدم ثقته في صلاح الدين من ناحية، ولأنه كان يرغب في الحصول على مساعدة السلاحقة في الهجوم على أنطاكية من ناحية أخرى. لكن السلطان السلجوقي، بعد أن تلقى تحذيراً صارماً من القسطنطينية، تخلى عن تقدمه وبدلاً من ذلك بدأ حرباً ضد الدانشمند استمرت عامين. وبذا أنقذ التحالف البيزنطي أنطاكية على الأقل، رغم أنه لم يحقق شيئاً يذكر، من ائتلاف بين حلب وقونية<sup>(٥٥)</sup>. وفي الوقت نفسه على وجه التقريب، وافق نور الدين في نهاية الأمر على إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس لقاء مبلغ مائتين ألف دينار. واشترك الملك وفرسان المستشفى معاً في جمع أغلب المبلغ؛ وسمح لريموند بالعودة إلى

(٥٣) William of Tyre, *xc*, 27, pp. 992-4; Ibn al-Athir, pp. 581-3, and *Atabegs*, pp. 286-8; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 552; Magrisi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. viii, p. 506. وكرره بهاء الدين P.P.T.S. pp. 62-3 سرداً ماعراً مبهماً، مخالفاً الحملات في عامي ١١٧١ م و ١١٧٢ م. كما أنه يجعل صلاح الدين يقول إنه هو فقط رفض التفكير في معارضة نورالدين. (p. 65).

(٥٤) Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 279; Kemal ed-Din, p. 584; Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 62. ويقول بهاء الدين أن نورالدين استول على أرقا، وهو اسم خطأ بدلاً من كركا.

(٥٥) Cinnamus, pp. 291-2; Imad ed-Din, pp. 159-60. وكان تلج كركسان قد استقبل هنري الأسد استقبالاً حسناً أثناء مروره بالأناضول في طريقه من فلسطين.



بلده . ولكنه لم يدفع أبداً باقى المبلغ المستحق لنور الدين وقدره ثلاثين ألف دينار<sup>(٥٦)</sup>. وبدأت الحرب عام ١١٧٣ م . ذلك أن أماليك بعدما شعر بما يكتفى من الأمان اتجه شمالاً داخل كيليكية لمعاوية مليح على ما أخفقه بستيغن (أوف شامباني) من إساءة ولكى ينفذ وعده للإمبراطور . ولم تنجز الحملة شيئاً سوى الخيلولة دون أن يزيد مليح من التوسع<sup>(٥٧)</sup>. وانتهاز نور الدين الفرصة وغزا منطقة الأردن واستدعى صلاح الدين لمساعدته . وفى اخلاص صلاح الدين لنصيحة أبيه ، اتجه شمالاً بجيش من مصر وضرب الحصار حول الكرك ، بينما سار نور الدين جنوباً من دمشق . وباقتزائه رفع صلاح الدين الحصار وعاد إلى مصر قاتلاً - بحق - إن والده يعاني مرضاً خطيراً . غير أنه من الواضح أن صلاح الدين لم يكن راغباً فى القضاء على الدولة الفرنجية الحاضرة الواقعة بينه وبين سيده المتعسف . فعسكر نور الدين بدوره أمام الكرك ، التى كانت عاصمة منطقة الأردن ، وكانت تنتمى إلى وريثة هى ستيفانى (أوف ميلى). وكان زوجها الأول - همفرى - وريث تبين ، قد مات قبل ذلك بستوات قليلة ؛ وكان زوجها الثانى ، وهو قهرمان أماليك - مابلز (أوف بلانسى) - بعيداً مع الملك ؛ وكان أول من خف لنجدتها صهرها ، الكونتسابل المسن ، همفرى الثانى أمير تبين . وتبعته القوات المتبقية فى المملكة انسحب نور الدين ، وقد ملأه الحنق على صلاح الدين . وعندما سمع فى أغسطس بوفاة نجم الدين أيوب ، أخلص أتباعه فى مصر ، نذر أن يغزو مصر بنفسه فى الربيع التالى<sup>(٥٨)</sup>.

#### ١١٧٣ م : اغتيال سفراء الحشاشين

كان فى هذه الفرقة بين المسلمين تعزية للفرنج . وفى خريف ١١٧٣ م تلقوا عروضا من مكان آخر لم يكن متوقعا . ولم يكن يُسمع عن الحشاشين سوى القليل

(٥٦) Abu Shama, p. 168; William of Tyre, xx, 28, p. 995. غامضة . انظر Baldwin, Raymond III of Tripoli, p. 11 and n. 23. ويقع التاريخ بين سبتمبر ١١٧٣ م وأبريل ١١٧٦ م.

(٥٧) William of Tyre, xx, 26, pp. 991-2. (انظر المراجع أعلاه ص ٤٤٩ (للحولة ١٤٩)) وربما حبط وتيم بين هتلى أماليك.

(٥٨) Ibn al-Athir, pp. 587-93, and Atabegs, p. 293; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 553; Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. viii, pp. 509-11. إثر سقوطه من فوق جواده وهو يمارس لعبة الجركان (البولو).

خلال العقود المنصرمة ، بخلاف اغتيالهم التعسفي لريموند الثاني أمير طرابلس عام ١١٥٢م ، إذ كانوا يوطدون مقارهم بهدوء في جبال النصيري . وعلى الجملة لم يظهر عداوتهم للفرنج ، وإنما كان عدوهم المقيت هو نور الدين الذي تسببت قوته في تقييدهم شرقاً . لكنه كان عاجزاً عن قمعهم ، وفي إحدى الليالي عُثر على خنجر فوق وسادته ، كان بمثابة إنذار له كي لا يمحى شأواً بعيداً . ولكون عواطفهم تميل إلى الشيعة وليس السنة ، فقد صدمهم انتهاء الخلافة الفاطمية . وفي عام ١١٦٩م أرسلت قيادة الحشاشين من مقرها في قلعة (الموت) في فارس عاقظاً حديثاً لمقاطعة النصيري ، هو رشيد الدين سينان من مصرى . وبدأ هذا الشيخ الرهيب ، الذي كان يعرفه الفرنج باسم عجزو الجبل ، سياسة أكثر نشاطاً . إذ أرسل الآن إلى أمالريك يقترح انشاء تحالف وثيق ضد نور الدين ، والمبح بأنه هو وأتباعه كلهم يفكرون في التحول إلى المسيحية ، وكان حلياً أن المقابل لذلك هو إلغاء الإتاوة التي أفلح فرسان المعبد في طرطوس في فرضها على مختلف قرى الحشاشين . وسواء كان أمالريك يظن أن الحشاشين سيتحولون إلى المسيحية أم لا ، أقبل على تشجيع صداقتهم في سرور . وعاد مبعوثو الشيخ سينان باتجاه الجبال يعملون وعدا بأن تلحق بهم حالا سفارة فرنجية . وبينما هم في ترحالهم عبر طرابلس ، سقطوا قتلى في كمين نصبه لهم فارس من فرسان المعبد ، وولتر (أوف مينسيل) ، بتواطؤ مع سيده الأعظم . وارتاع الملك أمالريك ، فقد دمرت سياسته ولطخت سمعته بجراد أن نظام فرسان المعبد كان بالغ الخشع بحيث يرفض التضحية بجزء صغير من إيراداته . وأمر السيد الأعظم ، أودو (أوف سانت أماند) بتسليم الجاني . ورفض أودو ، وإنما عرض بجراد إرسال وولتر كي يحاكمه ألياً ، إذ أنه لا يعترف بأية سلطة أخرى عدا . غير أن أمالريك كان في قمة الغضب بحيث لم يعبأ بدستور نظام فرسان المعبد . وأسرع مع بعض الجنود إلى صيدا حيث السيد الأعظم وهيئة الكنييسة ، واقتحم عليهم مجلسهم بالقوة وخطف وولتر وعاد به والقاء في غيابة السجن في صور . وأرسل من يؤكد للحشاشين أن العدالة اخذت مجراها ، فقبل الحشاشون اعتذارات الملك . وفي تلك الأثناء عزم أمالريك أن يطلب من روما حل نظام فرسان المعبد العسكري<sup>(٥٩)</sup>.

وكانت فاتحة عام ١١٧٤م فاتحة حسنة للمسيحيين ، إذ أصبح الحشاشون أصدقاء ، وأمسى التحالف البيزنطي في أحسن أحواله ، ووعد ملك صقلية الصغير ، ولیم الثاني ،

بتقديم المساعدة البحرية للربيع ، وبلغ الشقاق بين نور الدين وصلاح الدين حد الأزمة. ولم يكن صلاح الدين نفسه آمناً قط في مصر التي راحت فيها رؤوس الشيعة تحبك ضده المكائد بينما كانت على اتصال بالفرنج . وفي عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر ، توران شاه ، لاحتلال السودان كي تكون بمثابة ملاذ للعائلة في حالة الضرورة ، واحتل توران البلد حتى إبريم بالقرب من وادي حلفا ، حيث قتل الأسقف القبطي وأتباعه وجمهوره وخنزيره السبعائة على السواء . لكنه أبلغ أن الأرض غير ملائمة للملاذ . فأرسله صلاح الدين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فوجدها توران شاه أفضل من سابقتها ، واحتلها باسم أخيه وحكمها نائبا عنه حتى ١١٧٦م<sup>(٦٠)</sup>.

على أنه لم هناك ما يدعو صلاح الدين للهروب من سخط نور الدين . ففي ربيع عام ١١٧٤م ، جاء الأتابغ نور الدين إلى دمشق للتخطيط لحملة على مصر . وبينما كان على جواده صباح يوم ما مع اصداقائه يتريضون خلال البساتين ، حدثهم عن انعدام الثقة في الحياة الإنسانية . وبعد مضي تسعة ايام ، أي في ١٥ مايو ، مات متأثرا بالتهاب اللوزتين . لقد كان حاكما عقيما ورجلا من كبار الرجال ، أحب العدل فوق كل ما يحب . وكان بعد مرضه السابق قبل تسع عشرة سنة قد فقد شيئا من طاقة نشاطه ؛ وزادت الأوقات التي كان يقضيها في الورع والتقوى . وقد أكسبه ورعه برغم محدوديته احترام رعيته وأعدائه . كان جادا نادرا ما يتسم ، وعاش حياة بسيطة وألزم أسرته بها ، مفضلا أن ينفق إيراداته المائلة في أعمال الخير . وكان إداريا معنيا مرتقبا ، وعززت حكومته الحكيمة أراضيها التي انتزعها بسيفه . وسعى خاصة إلى كبح جماح أمراءه الأتراك والكرديين بتزويجهم في إقطاعيات يدفعون إيجارها على هيئة جنود ، وتمكنت محاكمه القانونية التابعة له من أن تسيطر عليهم . وأسهم هذا الوضع الإقطاعي المخفف اسهاما كبيرا في ازدهار سوريا بعد ما يقرب من قرن حكمها فيه البدو . وكان طويل القامة أسمر اللون يكاد يكون بلا لحية ، ذا ملامح متناصفة ، وعلى وجهه انطباع حزين هادئ . وكانت لعبة الجوكان (البولو) هي نشاطه الخفيف الوحيد<sup>(٦١)</sup>.

(٦٠) Ibn al-Athir, pp. 599, 602-3, and *Atabegs*, p.293; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65-6.

(٦١) Ibn al-Athir, pp. 604-5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65.

## ١١٧٤ م : موت الملك أمالريك

ورث نور الدين ابنه الملك الصالح إسماعيل وهو صبي في الحادية عشرة، وكان معه في دمشق. وهناك استولى على الوصاية الأمير ابن المقدم، توارثه أم الصبي، بينما أعلن جرموشكين، حاكم حلب التي كانت العاصمة الرئيسية لنور الدين، عن نفسه وصيا. وتدخل ابن عم الصبي، سيف الدين صاحب الموصل، لضم نصيبين والجزيرة كلها حتى الرها. وكتب صلاح الدين، كأمر لأغنى مقاطعات نور الدين، إلى دمشق بأن الوصاية هي وصايته، لكنه كان في تلك اللحظة فاقصد الحيلة كي يتابع مطالبته<sup>(٦٢)</sup>. وأتاح انهيار الوحدة الإسلامية لأمالريك فرصة سرعان ما احتفظها. ففي يونية زحف على بانياس. وخرج له ابن المقدم لملاقاته وربما حدث ما كان يقصده أمالريك، إذ عرض المقدم على الفور أن يشري أمالريك بمبلغ ضخم من المال وعده به، والإفراج عن جميع الفرنج الأسرى في دمشق، وتحالف في المستقبل ضد صلاح الدين<sup>(٦٣)</sup>. وقبل أمالريك العرض، وكان قد بدأ يعاني من نوبات الدوسنتاريا؛ وبعد توقيع المعاهدة عاد خلال طرية ونابلس إلى القدس، محتلياً جواده ورافضاً الراحة على الخفة. ووصل القدس وهو في حالة مرضية شديدة. واستدعى الأطباء من اليونانيين والسوريين إلى جانب فراشه، وطلب منهم أن يفصدوه حتى ينزف دما ثم يعطوه شراباً مسهلاً. لكنهم رفضوا، إذ كانوا يرون أنه في حالة من الضعف لا يتحمل معها الجهد. ولذا استعان بطيبيه الثرغمي الذي لم تكن لديه تلك الوسواس. ويبدو أن العلاج قد أفاده، ولكن بمرور يوم أو يومين. وفي ١١ يولية ١١٧٤ م، مات وهو في الثامنة والثلاثين من عمره<sup>(٦٤)</sup>.

وإذا كان التاريخ مجرد التحدي والاستجابة، يكون نجاح الوحدة الإسلامية تحت زنكي ونور الدين وصلاح الدين رد فعل حتمي لإزاء الحملة الصليبية الأولى. على أن صروف القدر لا تكف عن فرض أهواء أحكامها. ففي بداية ١١٧٤ م بدأ أن نجم صلاح الدين في طريقه للأفول، ومات أمالريك ونور الدين، دون توقع الموت لأي منهما، فأنقذه القدر منهما وفتح له طريق انتصاراته المقبلة. وقد رأى فرنج الشرق في

(٦٢) Ibn al-Athir, pp. 606-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 558-60.

(٦٣) William of Tyre, xx, 31, p. 1000; Abu Shama, p. 162; Ibn al-Athir, p. 611.

(٦٤) William of Tyre, xx, 31, pp. 1000-1. وربما كان الطبيب السوري هو سليمان بن داود. (انظر أعلام ص ٣٦٦ المزمرة (٤٤)).

موت أماليك ، فى هذه اللحظة ، والنائب التى حلت بأسرته ، نذير سوء بنهاية مملكتهم ؛ إذ كان أماليك آخر ملوك القدس المسيحية الجدير بعرشه . ولقد كانت له أخطاء ، وقد تأرجح بحماس نبلاؤه عام ١١٦٨ م ، وبزدهم عام ١١٦٩ م . وكان أكثر استعدادا لقبول عطايا الأموال ، التى تحتاجها الحكومة آنيا ، من أن ينفذ سياسة تنسم بعيد النظر . وكانت طاقته وعزيمته بلا حدود . وأثبت أنه لا مجال لأن يتحداه أتباعه ولا النظامين العسكريين دون أن يلحق بهم الضرر . ولو أنه عاش أطول مما عاش ، لتحدى حتمية انتصار الاسلام .

---

## الباب الخامس:

### إنتصار الإسلام

---

---

## الفصل الأول:

### الوحدة الإسلامية



\_\_\_\_\_

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

## الوحدة الإسلامية

”الحكام يرون مجداً والحقى يحلون هواناً“

(أشبال ٣ : ٣٥)

مكث صلاح الدين في القاهرة قلقاً يترقب، ورأى في موت الملك أمالريك نعمة وفضل من الله. وكانت مكائد الشيعة قد بلغت ذروتها في شهر ابريل عندما اقتضحت مؤامرة لقتله. فضرب ضربه لم يزد، وقضى على زعماء التآمر؛ لكنه لم يكن على ثقة من عدم وجود آخرين على استعداد للتآمر إذا جاء الجيش المسيحي لمعاونتهم، بينما سينقل ميراث نور الدين بقينا إلى غيره<sup>(١)</sup>. والآن وقد مات أمالريك فقد تبدد خطر الغزو برا. لكن هناك فعلاً أسطولاً قبرصياً في الأفق؛ إذ لم يكن الملك وليسم الثاني قد سمع بانتهاء المؤامرة ولا بموت أمالريك. وفي ٢٥ يولية ١١٧٤ م، ظهر أمام الإسكندرية فحاة مائتان وأربع وثمانين سفينة قبرصية تحمل الرجال والماشية والمؤن، تحت قيادة تنكريد كورت ليشي. لكنهم لم يجدوا المساعدة التي كانوا يحولون عليها؛

(١) Ibn al-Athir, p. 600.

وكانوا قد رفضوا قبول أية مساعدة من الامبراطور بعدما تشاجر ولیم مع مانويل الذى عرض عليه يد ابنته ماريما ثم سحب العرض ؛ وعلى أية حال ، فقد رغب ولیم القيصري في أن يظهر أنه أكفأ مما كان عليه البيزنطيون عام ١١٦٩ م . وبفشلهم في مباغتة المدينة ، وباقتراب صلاح الدين على رأس جيش ، عادوا بسفنتهم مرة أخرى وانصروا بمتعددين يوم ١ أغسطس . وبهذا تحرر صلاح الدين كي يزحف على سوريا<sup>(٢)</sup>.

وشعر ابن المقدم والى دمشق بالخوف ، فناشد الفرنج تقديم المساعدة ؛ وزادت خشيته عندما هرب الصالح الصغير بن نور الدين مع امه إلى حلب حيث الوصى الأقوى جوموشكين . وبعد ذلك استنجد ابن المقدم بسيف الدين صاحب الموصل كى يخف لتجديته ؛ لكن سيف الدين فضل تعزيز ما حصل عليه في الجزيرة . وأصر الدمشقيون على أن يرسل اليهم مستدعيًا صلاح الدين . وانطلق صلاح الدين من قوره مع سيمانة فارس احتارهم ، وعبر منطقة الأردن عبورا خاطفا دون أن يتعرض الفرنج لإيقافه هناك ، ووصل دمشق يوم ٢٦ نوفمبر ، حيث استقبل بمشاعر البهجة . وامضى الليل في منزل ابيه القديم . وفي صباح اليوم التالي فتح له ابن المقدم أبواب القلعة . ونصب صلاح الدين أخاه طغتكين واليا على دمشق باسم الصالح بعد أن أمطر الدمشقيين بالهدايا النفيسة من ثروة الصالح ، ثم زحف شمالا ضد جوموشكين<sup>(٣)</sup>.

#### ١١٧٤ م : ريموند كونت طرابلس وصيًا

بات الفرنج بعد موت أمالريك بلا قوة فلا يقدرّون على التدخل . وكان الأمير الوحيد الباقي في البيت الملكي هو بلدوين الصبي المخلوم ابن الثالثة عشرة سنة ؛ ولم تكن اخته سيللا التي تكبره بعام قد تزوجت بعد . ولم تلد زوجة أبيه ، الملكة ماريما كومينا ، سوى بنتين ماتت إحداهما والأخرى في الثانية من عمرها . ووافق البارونات على قبول بلدوين ملكا لهم دون اعتراض . وبعد أربعة أيام من وفاة أمالريك، توج البطريرق بلدوين . ولم يكن هناك وصى تم تعيينه . وتولى الحكومة القهرمان مايلز ، الذى كان أقرب الأصدقاء إلى الملك ، وكان من اللوردات بما تملكه زوجته من اقطاعية

(٢) Abu Shama (مقتبس من عماد الدين)، pp.164-5؛ ويحدد بهاء الدين تاريخ وصول القنطرة يوم ٧ سبتمبر 1007. Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 66-7; William of Tyre, xxi, 30p.

(٣) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.67-70; Ibn al-Athir, pp.614-16; Maqrissi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. viii, p. 517.

منطقة الاردن الضخمة . لكن مايلز لم يكن يتمتع بالشعبية ، ولا سيما بين افراد الأرستقراطية المولودين محليا ، والذين ناصروا الكونت ريموند كونت طرابلس في المطالبة بالوصاية . وكان ريموند هو اقرب الأقرباء للملك - بعد أخواته - من الجانب الملكي للأسرة . فكانت أمه ، هوديرنا الأميرة في القدس ، عمالة اماليك . وعلى الرغم من أن بوهمند أمير انطاكية من ذرية أخت هوديرنا الكبرى - أليس - إلا أنه كان من جيل بعيد عن التاج ، فضلا عن أنه كان يقيم في مكان بعيد ؛ بينما تزوج ريموند مؤخرا من ثانياً أكسر الوريثات في المملكة ، إيشيفا (أوف بور) ، وأميرة الجليل ، وأرملة وولتر (أوف سانت أومير) . وراح مناصرو ريموند ، يتزعمهم الكونستابل القديم همفري الثاني أمير تينين ، وأسرة إيبيلين ، ورنالد أمير صيدا ، يلحون على أن تعرض حقوق ريموند على المحكمة العليا . وراوغ مايلز أطول فترة يستطيعها ، لكنه اضطر إلى الرضوخ . وفي وقت متأخر من الخريف نُصِّب ريموند وصيا ، وبذا هوى مايلز من سلطته غير مأسوف عليه . وبعد أسابيع قليلة ، اغتيل مايلز في ليلة ظلماء في أحد شوارع عكا<sup>(٤)</sup>.

كان ريموند آنذاك في الرابعة والثلاثين من عمره ، طويلًا ، نحيفًا ، أسود الشعر والجلد ، يسيطر على وجهه أنف ضخمة ، بارد الشخصية ، ضابطًا لنفسه ، يفتقر شيئا ما إلى الكرم . ولم يكن فيه ما يدل على حمية القروسية التي كان يتمتع بها الصليبيون الأوائل . وكان خلال سنوات أسره الطوال قد قرأ قراءة متعمقة ، وتعلم اللغة العربية ، وتدارس عادات المسلمين . وكان ينظر إلى الدويلات الفرنجية ومشاكلها بمنظور محلي ؛ وكان مهتما ببقائها، وليس بدورها كرأس حربة للعالم المسيحي العدواني . وكان ذا اقتدار ، وقد ساندته أصدقائه ، غير أنه لم يكن سوى وصي ، وكان له أعداء<sup>(٥)</sup>.

وكانت وصايته بداية انشقاق في المملكة . إذ كانت هناك شيع من قبل ولا سيما في أيام الملكة مليسند لكنها لم تعش طويلا نظرا لسيطرة التاج ، والآن برزت فرقتان محددتان ، تتألف أحدهما من البارونات المحليين وفرسان المستشفى وتسعى بقيادة الكونت ريموند إلى إحياء تفاهم مع الجيران الأجانب ، وليست مستعدة للمحازفة بمغامرات ؛ وتتألف الثانية من الوافدين الجدد من الغرب وفرسان المعبد . وكانت هذه الفرقة عدوانية تصبغها المسيحية العسكرية ؛ ووجدت قائلها عام ١١٧٥م عندما أفرج

(٤) William of Tyre, xca, 4-3, pp.1007-9.

(٥) William of Tyre, xca, 5 pp.1010-12.

أخيرا عن رينالد (أوف شاتيلون) من سجنه لدى المسلمين ، إلى جانب جوسلين كونت الرها - وقد غدا كوتنا بلا كورتية - فتحول مصيره إلى أن يصبح مغامرا<sup>(٦)</sup>. وكانت العداوات الشخصية أعنف حتى من الاختلافات السياسية . وأغلب النبلاء الآن أبناء عمومته بين بعضهم البعض ؛ والمشاكرات العائلية هي الأكثر مرارة. فأما زوجنا أمالريك فكانت كل منهما تذكره الأخرى . وأما آجنس (أوف كورتناى) ، أخت الكونت جوسلين فكانت قد تزوجت مرتين منذ طلاقها ، وقد مات زوجها الثاني ، هيو (أوف إيبيلن) بعد الزواج بسنوات قليلة ، وأبهج خليفته - رينالد أمير صيدا - أن يكتشف أنه شديد الالتصاق بزوجته من حيث القرابة - كيشان أمالريك - فحصل على إبطال الزواج<sup>(٧)</sup>، وانضمت آجنس إلى جانب أخيها وفرسان المعبد ، بينما انضم هو إلى الفرقة الأخرى ؛ وأما الملكة ماري كومتينا ، فسرعان ما تزوجت من هيو (أوف باليان - أعي إيبيلن) ، وقد وهبته أقطاعية مهرها نابلس ، وكان زوجها سعيدا ، ولعبت الأرملة الملكة دورا كبيرا في حزب زوجها<sup>(٨)</sup>. وبعد إطلاق سراح رينالد (أوف شاتيلون) بأشهر قليلة تزوج وريثة منطقة الأردن ، سنيفاني ، أرملة مابلز (أوف بلانسي) ، التي اعتبرت الكونت ريموند قاتل زوجها<sup>(٩)</sup>. وقد بدأ شجار ريموند الطويل مع فرسان المعبد على مسألة شخصية ؛ ذلك أن فارسا بلجيكيًا فلمنكيًا ، جبرار (أوف ريدفورت) ، جاء إلى طرابلس عام ١١٧٣م والنحى بالخدمة تحت إمرة الكونت الذي وعده بتزوجه من أول وريثة ملائمة في كورتيته . غير أنه عندما مات لورد البطرون بعد أشهر قليلة ، تاركًا أراضي لابنته لوسيا ، تجاهل ريموند وعده بجبرار ، وزوجها لأحد أثرياء بيزا ويدعى بليفانو ، الذي وضع الفتاة - على نحو يقتصر إلى الكياسة - على ميزان ومنح الكونت وزنها ذهبًا. وغضب جبرار وتملكته خيبة الأمل ، فانحاز إلى فرسان المعبد ، وسرعان ما غدا أكثرهم نفوذًا وأصبح قهرمانهم . ولم يغفر لريموند قط<sup>(١٠)</sup>.

(٦) عن إطلاق سراح رينالد وجوسلين ، انظر أدناه ص ٤٦٧.

(٧) مات هيو (أوف إيبيلن) عام ١١٦٩م تقريبًا، وكان مندوبًا لأمالريك في القاهرة عام ١١٦٧م . وكان حطبا لآجنس قبل أن تتزوج لأمالريك (William of Tyre, xix, 40, p.890). كما يتحدث ولیم عن طلاق رينالد أمير صيدا. ويظهر أبو رينالد وآجنس على علاقة ببعضهما البعض . ولا شك أن هذه العلاقة كانت من خلال أمها بياتريس أرملة ولیم (أوف صهيون) ، ولم يستقل اسمها قبل زواجها .

(٨) William of Tyre, xxi, 180, p. 1035; Ernoul, p.44.

(٩) Ernoul, pp.30-1.

(١٠) Ernoul, p.114; *Estoire d'Eracles*, pp.51-2. دفع بليفانو عشرة آلاف بيزانت لقاء عروسه . ولو

أما الملك الصغير ، الذي كان مدركا في بكورة فضجة للمكائد التي تدور من حوله ، فقد حاول الحفاظ على التوازن بين الفرق . وبقي ريموند وصيا عليه لثلاث سنوات ، لكن روابط القرابة جعلت علاقة بلدوين بآل كورتساي أوثق . فعين خاله جوسلين قهرمانا عام ١١٧٦م ؛ وعادت أمه - الليدي أجنس - إلى البلاط حيث مارست نفوذاً غربياً . كانت شريرة وحشعة ، لا نهاية لشرعتها للرجال ولا للمال ، ولم يسمح لها بتربية اولادها ؛ إذ كان بلدوين قد أرسل إلى وليم الصوري لتربيته ، وسبيللا إلى جدتها خالتها الأميرة رئيسة الدبر ، حوفيتا (أوف يشاني) . وبدأت الآن تندخل في معيشتهم ، وكان بلدوين يأخذ بآرائها المخالفة لآرائه الأفضل ، وسيطرت على سبيللا<sup>(١١)</sup>.

#### ١١٧٤م : صلاح الدين يهاجم حلب

كان أول واجبات ريموند الوصي هو كبح تعاطف قوة صلاح الدين . ولم يكن باستطاعة الفرنج الحيلولة دون اتحاد دمشق والقاهرة ؛ ولكن حلب على الأقل ما تزال منفصلة . وما أن وصلت صلاح الدين التعزيزات من مصر حتى زحف على حلب من دمشق . وفي ٩ ديسمبر ١١٧٤م دخل حمص وترك جنوده يحاصرون قلعتها التي صمدت أمامه ، ومر خلال حماء إلى حلب . ولما أغلق جومشتكين البوابات في وجهه ، بدأ يحاصر المدينة الحصار المعتاد في ٣٠ ديسمبر . وكان المواطنون مذبذبين في الاستسلام له ؛ لكن الصالح الصغير هبط إليهم بنفسه ووقف في وسطهم وناشدتهم الحفاظ عليه من الرجل الذي اختلس ميراثه ؛ فمس كلامه قلوبهم فلم يهتوا أبداً . وفي تلك الأثناء كان جومشتكين قد استغاث بالحشاشين وبالفرنج . وبعد أيام قليلة عُثر على بعض الحشاشين في قلب معسكر صلاح الدين في نفس خيمته فقتلوا بعد دفاع يائس . وفي أول فبراير ظهر الكونت ريموند على رأس جيش فرنجي أمام حمص ، وبمساعدة حامية القلعة بدأ مهاجمة أسوار المدينة . وأتى ذلك بشماره ، إذ رفع نور الدين

كان محتواها من الذهب الخالص لكان وزنها ١٠ أبحار . (المترجم): الحجر stone وحدة وزن القبلية تساوي ٦٣٥ كيلوجرامات.

(١١) هناك ما يؤكد أن جوسلين كان قهرمانا من ١١٧٧م قديما (Rohrich, *Regesta*, p.147). وكان دائما يسمى "الكونت جوسلين". وفي الوثائق تسمى أجنس كوتيسية ، لأنها كانت كوتيسية باقا وعسقلان أثناء زواجها من أماليك . ولم تكن ملكة قبة ، ولم يطلق عليها لقب ملكة قط . (وعن تربية سبيللا انظر William of Tyre, xxi, 2, p.1006، وعن تربية بلدوين انظر أعماله ص ٤٥٠).

الحصار عن حلب وأسرع جنوباً ، ولم ينتظره ريموند . وطوال الشهر التالي كان صلاح الدين مقيداً بحصار قلعة حمص . وبحلول إبريل كان سيد كل سوريا حتى حماء في الشمال ؛ لكن حلب بقيت مستقلة . واعتزاًفاً من جومشتكين بالجميل للفرنج أطلق سراح رينالد (أوف شاتيلون) وجوسلين (أوف كورتناي) وكل السجناء المسيحيين الذين ذبلت أبدانهم في غياهبات سجون حلب<sup>(١٢)</sup>.

وأثار نجاح صلاح الدين ابن أخى نور الدين ، سيف الدين ، صاحب الموصل الذي أرسل أخاه عز الدين مع جيش كبير إلى سوريا للانضمام إلى جومشتكين . وعرض صلاح الدين ، على جومشتكين أن يتنازل له عن حماء وحمص ، أملاً ربما في إثارة المشاكل بين حلب والموصل . ورفض العرض . لكن صلاح الدين انقض بجنوده المحتكين على جيش الحلفاء أثناء عبوره الحدود بين التلال شمالي حماء ، ومزق الجيش تمزيقاً . ولم يشعر صلاح الدين بأنه قوى بما فيه الكفاية لمتابعة نصره . وعقدت هدنة تسمح لصلاح الدين باحتلال مدن قليلة شمالي حماء ، وبخلاف ذلك بقيت الأمور كما كانت عليه<sup>(١٣)</sup>.

والآن نفّض صلاح الدين عن نفسه تبعيته للصالح ، قائلاً إنه فعل ما في وسعه لخدمته باخلاص ، لكن الصالح فضّل مستشارين آخرين ورفض مساعدته ، ولذا اتخذ لنفسه لقب ملك مصر وسوريا وسك العملة باسمه فقط . وأيده الخليفة في بغداد تكريماً وأرسل له أردية ملكية وصلته في حماء في مايو<sup>(١٤)</sup>.

#### ١١٧٦ م : صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل

لم تمش الهدنة مع آل زنكي طويلاً . ففي مارس ١١٧٦ م عبر سيف الدين نفسه الفرات مع جيش كبير وانضم إليه جنود جومشتكين خارج حلب ؛ فأتجه إليه صلاح

(١٢) William of Tyre, *loc. cit.*, 6, pp. 1012-13; Abu Shama, pp. 167-8; Ibn al-Athir, pp. 618-20; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 562-4.

(١٣) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.70-1; Ibn al-Athir, pp.621-2. Kemal ed-Din, ed Blochet, p. 564. فرج حماء .

(١٤) يرجع تاريخ أول العملات التي تحمل لقب صلاح الدين الملكي إلى عام ٥٧٠ هجرية (١١٧٤-١١٧٥ م) . ولم يتخذ لقب سلطان أبداً ، ولكن الكتاب العرب ، وحتى معاصريه ، عادة ما يمنحونه لقب سلطان . (مثلاً ابن حبير وبهاء الدين). انظر Wiet, *op.cit.* pp.335-6.

الدين شمالا بعد أن جاءت التعزيزات مرة أخرى من مصر . وفي ١١ أبريل حدث كسوف للشمس ، رأى فيه رجاله نذيرا سيئا أثناء عبورهم وادي العاصي بالقرب من حماه ، وبعد عشرة أيام باغتهم سيف الدين بينما كانوا يسقون جيادهم . غير أن سيف الدين تردد في الهجوم في الحال . وفي الصباح التالي ، وعندما جاء سيف الدين بكل قواته لمهاجمة معسكر صلاح الدين على رابية السلطان الواقعة جنوب حلب بعشرين ميلا تقريبا ، اكتشف أنه جاء متأخرا للغاية ؛ إذ كاد هجومهم الأول أن يتجح ، لكن صلاح الدين قام بهجوم مضاد على رأس قواته الاحتياطية وشنت صفوف الأعداء ، وباقتراب المساء كان سيد الساحة . وكان سيف الدين قد ترك ثروته عندما ولى هاربا ، فأعطاه صلاح الدين كلها جائزة لرجاله ، وأحسن معاملة الأسرى وسرعان ما أعادهم إلى بيوتهم . لقد ترك كرمه ورأفته انطباعا رائعا<sup>(١٥)</sup>.

وكانت حلب ما تزال ترفض فتح أبوابها لصلاح الدين ، ولذا هاجمها واحتل القلعة الواقعة بين المدينة ونهر العاصي والتي تتحكم في الطريق الذاهب شمالا . وهنا كاد أن يهلك مرة أخرى عندما دخل أحد الحشاشين الخيمة التي يستريح فيها ، ولم يتقده سوى القلنسوة المعدنية التي كان يضعها تحت عمامته الضيقة . واستسلمت عزاز يوم ٢١ يونيو . وفي يوم ٢٤ يونيو ظهر مرة أخرى أمام حلب ؛ لكنه وافق الآن على المصالحة ؛ إذ أن الصالح و أمراء حصن كيفا وماردين الأراقة الذين كانوا يناصرونه وافقوا على التخلي لصلاح الدين عن كل الأراضي التي غزاها ، وأقسموا هم وصلاح الدين على أن يحافظوا على السلام . وبعد التوقيع على معاهدة السلام يوم ٢٩ يولية ، جاءت اخت الصالح الصغرى لزيارة معسكر صلاح الدين ، وطلب منها بكنيسة أن تختار الهدية التي تحبها ، فقالت : "قلعة عزاز" . فأعادها صلاح الدين إلى أخيها<sup>(١٦)</sup>.

ورغم أن صلاح الدين لم يتمكن بعد من الاستيلاء على حلب ، كان الصالح وبنوعمومته يشعرون بأنه يتهددهم . وباستطاعة صلاح الدين أن يتحول للتعامل مع الحشاشين والفرنج ؛ فدخل جبال النصيري محاصرة مصياف ، وهي المعقل الرئيسي للحشاشين ، وكان الشيخ سينان بعيدا عن المعقل ، وعندما أسرع بالعودة إلى معقله

(١٥) Beha ed-Din, P.P.T.S PP. 71-4; Ibn al-Athir, pp. 625-6. (١٦) حدثت في تل السلطان وفي قرني حماه .

Beha ed-Din, P.P.T.S ,PP.74-5; Kemal ad-Din, ed. Blochet,pp.146-7; Ibn al-Athir, (١٦) ..loc.cit واستنادا إلى كمال الدين ، كان الرأي العام في حلب متعاضدا للمعاهدة ومناصرا للصالح بقوة .



كان باستطاعة صلاح الدين وجنوده القبض عليه لولا أن ثبّتهم قوة غامضة معينة . وشمل الجو نوع من السحر ؛ إذ اضطرب صلاح الدين نفسه بأحلام رهيبة . وفي إحدى الليالي هب من نومه فجأة ليجد بعض قطع الكعك الساخنة على فراشه من النوع الذي لا يخبزه سوى الخشاشين ، ومع الكعك خنجر مسموم وورقة مكتوب عليها بيت من الشعر يتهدده ؛ واعتقد صلاح الدين أن شيخ الجبل العجوز كان هو نفسه في الخيمة . وانهارت أعصابه ؛ فأرسل رسولا إلى الشيخ سينان يلتمس منه العفو عن ذنوبه ويعد ، في المقابل ، مروراً آمناً منذ ذلك الوقت قدما تاركاً الخشاشين دون إزعاج . وعفا عنه الشيخ العجوز ، وتم الوفاء بالمعاهدة<sup>(١٧)</sup>.

ولم يكن إبرام مثل هذه المعاهدة ممكناً بين صلاح الدين والفرنج . إذ كانت هناك هدنة عام ١١٧٥م أطلق بموجبها صلاح الدين ما كان لديه من أسرى مسيحيين كي يتمكن من التعامل مع سيف الدين<sup>(١٨)</sup> . على أن الفرنج نقضوا الهدنة في العام التالي . فبينما كان صلاح الدين يحاصر حلب ، أغار ريموند من البقيعة على إقليم البقاع في الوقت الذي صعد فيه من الجنوب جيش ملكي بقيادة همفري (أوف تورون) والملك ابن الخامسة عشرة ربيعاً . ويبدو أن ابن المقدم ، وهو والي بعلبك الآن ، هزم ريموند هزيمة طفيفة ؛ غير أن المسيحيين أقاموا اتصالاً فيما بينهم وهزموا أخيراً صلاح الدين توران شاه وميليشيات دمشق هزيمة فادحة ، وما أن شعروا باقترب صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا مرة أخرى على الفور . ولم يطاردتهم ، إذ كان يتعجل عودته إلى مصر . وبعد أن ترك توران شاه قائداً لجيش قوى في سوريا ، تسلسل مرة أخرى خلال منطقة الأردن ووصل القاهرة في نهاية سبتمبر<sup>(١٩)</sup>.

#### ١١٧٦م : زواج سبيللا الأول

ومضت فترة راحة من القتال طوال عام كامل ، لقيت ترحيباً من كل من الجانبين.

(١٧) Abu Firas, ed. Guyard, *Journal Asiatique*, 7 me série, vol. ix, 1877, Arabic text, pp.455-9; Ibn al-Athir (*loc.cit*) . وسجل ابن الأثير خطاب التهديد المرسل من سينان إلى صلاح الدين ، شهاب الدين .

(١٨) William of Tyre, xxi, 8, pp. 1017-19. وهو يوتيج همفري (أوف تورون) ، الذي كان مسؤولاً عن الهدنة ، لتضيق فرصة المحرم على صلاح الدين عندما كان في وضع عرج .

(١٩) William of Tyre, xxi, ii, pp. 1021-3; Ibn al-Athir, p. 627.

إذ راح صلاح الدين يعيد تنظيم مصر ويعيد بناء القاهرة وتحصينها من حديد ، وفي ذات الوقت كانت حكومة القدس تواجه أهم مشاكلها الداخلية . ففي عام ١١٧٧م شب الملك بلدوين عن الطوق ببلوغة السادسة عشرة ، وكف ريموند عن الوصاية . بيد أن مرض الجدّام الذي يعاني منه الملك ازداد سوءا ، وبقينا لن يعيش سنوات كثيرة . ولكي تتأهل الأميرة سيبلا للاستخلاف ، كان لابد لها من أن تتزوج . ولذا ، وجه بلدوين الدعوة في عام ١١٧٥م ، وربما باقتراح من لويس السابع ملك فرنسا ، إلى وليم طويل السيف (William Long-Sword) ، وهو أكبر أبناء مركيز مونتفرات ، للحضور إلى فلسطين وقبول يد سيبلا . وكان اختيارا حسنا . إذ كانت لوليم اتصالات جيدة ؛ إذ كان والده أغنى الأمراء في شمال إيطاليا ، وكان من أبناء عمومة كل من الامبراطور فريدرىك بارباروسا والملك لويس . وكان هو نفسه ، رغم أنه لم يعد شابا ، على ما يكفي من الشجاعة والرسامة بحيث يرضى الأميرة الطروب . وخطط في ميناء صيدا في أكتوبر من عام ١١٧٦م ، وبعد أيام قليلة ، مُنح كورتية عسقلان وكورتية يافا ، في نفس يوم زواجه من سيبلا ، وكان مقبولا عموما كوريث للعرش . على أن الآمال التي كانت معقودة على شجاعته واتصالاته ذهبت أدراج الرياح . ففي عام ١١٧٧م سقط فريسة مرض الملاريا الذي تواصل بضعة أشهر ، إلى أن مات في بونية . ووضعت أرملة ابنه في أواخر الصيف ؛ ورثا للمملكة ، لكنه الوريث الذي جعل الوصاية لا مفر منها . وراح مبعوثو الملك يتقنون في أوروبا مرة أخرى للعثور على زوج ثان للأميرة<sup>(٢٠)</sup>.

كما كان مبعوثو الملك يتقنون أوروبا بحثا عن حلفاء ضد صلاح الدين ؛ إذ أن هدوء القتال بقينا لن يستمر طويلا . غير أن أمراء الغرب كانوا غارقين إلى آذانهم في شؤونهم الخاصة بهم ؛ وحتى القسطنطينية لا تستطيع تقديم نفس العون كما كانت تفعل من قبل . إذ كان عام ١١٧٦م بمثابة نقطة تحول في تاريخ بيزنطة . ذلك أن السلطان السلجوقي قلع أرسلان الثاني زاد عنادا ضد الامبراطور ؛ بعدما كان مقيد الشكينة أثناء حياة نور الدين ، الذي تدخل في الأناضول عام ١١٧٣م للحيلولة دون أن يتطلع السلاجقة أراضي الدانشمند . فقد حافظ أحد قواد نور الدين ، وهو عبد المسيح ، وكان وزيرا سابقا لدى أخيه قطب الدين ، على قصرية مازاكا لدى النون

(٢٠). William of Tyre, xxi, 13, pp. 1025-6. كانت أم ولیم أمنا غير شقيقة للملك كونراد ولأبى فريدرىك بارباروسا . وكان أبوه ، وأم الملك لويس - أدولف (لوف مورين) - ألقالا من زهين عتقنين لـ . Gisela of Burgundy.

الدانشمندی ، وبقي هو نفسه مع حامية في سيواس . وفي نفس الوقت ثبت لأخي قلعج ارسلان ، شاهنشاه ، امتلاك أنقرة حيث كان الامبراطور قد نصبه فيها قبل عدة سنوات . على أن موت نور الدين حرر قلعج ارسلان من القيود ؛ وفي نهاية عام ١١٧٤م أعيد عبد المسيح إلى الموصل ، وكان ذوالنون وشاهنشاه في المنفى في القسطنطينية ، وبنا مملك قلعج ارسلان أراضيها . ثم إنه تحول ضد بيزنطة ، وفي صيف عام ١١٧٦م ، قرر مانويل أن يتعامل مع الأتراك مرة وإلى الأبد . وتنشعب عما حققه في الصيف السابق من بعض النجاح الطفيف فكتب إلى البابا ليعلم أن الوقت قد أصبح ملائما لحملة صليبية جديدة . وسوف يؤمن الطريق الآن عبر الأناضول إلى الأبد . وبينما أرسل جيشا بقيادة ابن عمه أندرونيكوس فاتانيسيس خلال بافلاجونيا لصد ذى النون عند حدوده ، قاد مانويل نفسه الجيش الامبراطوري العظيم ، الذي تضخم بكل التعزيزات التي امكنه الحصول عليها ، وزحف على عاصمة السلطان - قونية . وما أن سمع قلعج ارسلان بالحملة حتى أرسل طالبا السلام . لكن مانويل لم يعد يثق في كلمته .

#### ١١٧٦م : معركة ميريسيفالوم

في وقت مبكر من سبتمبر واجهت الحملة البفلاجونية كارثة أمام أسوار نقصار . وقد أرسل مختار رأس فاتانيسيس إلى السلطان كعلامة على الانتصار ؛ وبعد أيام قليلة تحرك جيش مانويل خارجا من وادي نهر مياندس ، مرووا بمحصن كان قد بناه في سوبالايوم قبل ذلك بعام ، وملتقا حول قمة بحيرة إيجريدير إلى داخل التلال التي تصعد حتى سلسلة الجبال الضخمة واسمها جبال السلطان داغ . وتباطأت العربات الثقيلة التي تحمل آلات الحصار والأعلاف ؛ وكان الأتراك قد خربوا الأراضي التي كان لتلك العربات أن تمر خلالها . وكان الطريق يؤدي إلى ممر يطلق عليه اليونانيون تسيبريتسي ، وتظهر في الطرف البعيد أطلال قلعة ميريسيفالوم . وهناك تجمع الجيش التركي على مرأى فوق جانب التل المقفر . وحذر قواد مانويل من ذوى الحنكة من أن يمر جيشه البطيء المتناقل في ممر صعب في مواجهة الأعداء ؛ ولكن الأمراء الأصغر كانوا على ثقة من شجاعتهم وإقدامهم وكانوا من طالبي الأجداد ؛ فحثوه على المضي . وكان السلطان قد جمع الجنود من حلفائه وأتباعه جميعا ، بحيث أصبح جيشه كبيرا بنفس القدر كجيش مانويل ، وإن كان أقل في جودة التسليح ولكنه أكثر قدرة على الحركة . وفي ١٧ سبتمبر شق حرس الطليعة طريقه خلال الممر ، وتحتى الأتراك أمامهم ، كى يلتفوا

حول التلال ويندفعوا هابطين المنحدرات إلى الممر حيث كان الجيش الامبراطوري الرئيسي يشق طريقه بطول الطريق الضيق . وكان زوج أخت الامبراطور - بلندوين أمير انطاكية - على رأس كتبة للفرسان ، فقام بهجوم مضاد صاعدا التل إلى الأعداء ، لكنه قتل مع رجاله جميعا ، وشاهد الجنود في الوادي الضيق هزيمته ؛ وكانوا مكذسين مع بعضهم البعض بحيث لا يكاد أحدهم أن يكون قادرا على تحريك يديه . وكان لا يزال بإمكان القيادة الشجاعة أن تنفذ اليوم من أن يشهد الهزيمة ، لكن شجاعة مانويل عذبة ؛ إذ كان هو نفسه أول من أصابه الذعر فولى دبره وكر هاربا من الممر . والآن حاول الجيش كله اللحاق به ؛ لكن عربات النقل سدت الطريق في عظم الفوضى المتلاطمة . ولم يستطع الفرار سوى القليل من الجنود . وراح الأتراك يقتلون كما يحلو لهم ، وهم يلوحون بتمثال رأس فانتاسيس ، إلى أن هبط الفلام . ثم إن السلطان أرسل رسولا إلى الامبراطور الذي كان يحاول تنظيم صفوف جنوده المرعوبين في الوادي، عارضا عليه السلام شريطة أن ينسحب في الثور ، ويزيل التحصينات من قلعتي سوبلايرم ودوريليرم . وقبل مانويل الشروط بامتنان . وعاد من الممر حرس الطليعة الذي أفلت من الهزيمة وانضم إلى البقايا المفجعة التي يقودها مانويل الآن باتجاه الوطن ، يتحرش بها الأتراك الذين استعصى على فهمهم ما أبداه قلع أرسلان من رغبة . وربما لم يدرك السلطان قيمة تمام انتصاره ؛ إذ كان سأل اهتمامه منصبا الآن على الشرق ، ولم يكن يعبأ آنذاك بالتوسع غربا . فكل ما كان ينشده هو الأمان<sup>(٢١)</sup>.

ومع ذلك كان مانويل متروكا لدى حسامة الكارثة التي قارنها هو نفسه بكارثة منزكيرت التي وقعت قبل ما يزيد قليلا على قرن من الزمان<sup>(٢٢)</sup> . لقد دُمرت آلة الحرب العظيمة التي دأب جده وأبوه على بنائها ، وسوف تنقضي سنوات كثيرة قبل إعادة بنائها ، وفي واقع الأمر لم يعاد بنائها قط . وخلال السنوات الثلاث التالية

(٢١) Chaladnon, Nicetas Choniates, pp. 236-48; Michael the Syrian, III, pp. 369-72. (٢٢) Les Commènes, pp. 506-13, and Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 417 n. 3. النظر Ramsay, 'Preliminary report', in *History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp. 235-8.

(٢٢) Nicetas Choniates, p. 249. ومن ناحية الأخرى حاول مانويل لتقليل من الكارثة إلى أدنى الحدود في خطابه بشأنها المرسل إلى ملك إنجلترا هنري الثاني (مقتبس في Roger of Hoveden, *Chronica*, II, p. 101). ولاحتل المعركة كثيرون من المؤرخين الغربيين.

S. Rudberti Salisburgensis II, p. 435, and *Liber Pontificalis, Vita Alexandri*, in *Annales* p. 777.

كان هناك ما يكفي من الجنود للدفاع عن الحدود ، بل والفوز بانتصارات قليلة بسيطة. على أن الامبراطور لم يعد قادرا أبدا بعد ذلك اليوم على الزحف على سوريا وإملاء إرادته على انطاكية ؛ كما لم يبق لديه شيء من كبرياله العظيم الذي كان فيما مضى يردع نور الدين وهو في ذروة قوته من زيادة تشديده على العالم المسيحي . وتكاد كارثة ميوسيفالوم أن تكون قاتلة للفرنج بنفس القدر الذي قضت به على بيزنطة ؛ فبرغم كل ما كان بينهما من تبادل انعدام الثقة وسوء الفهم ، كان الفرنج يعلمون أن وجود امبراطورية شديدة القوة يعتبر ضمانا آمنا ضد انتصار الإسلام ؛ ففى لحظتها، وعندما كان الولد الضعيف الصالح يحكم شمال سوريا ، لم يلحظ الفرنج أهمية المعركة. ولكن عندما ذهب وليم الصوري لزيارة القسطنطينية بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلم بما حدث كاملا ، تحقق من الأخطار التي تنتظر الفرنج<sup>(٢٣)</sup>.

#### ١١٧٧ م : فيليب كونت فلاندرز في فلسطين

على الرغم من هلاك جيش مانويل كان أسطول له لا يزال قويا ، وكان على استعداد لاستخدامه ضد صلاح الدين . ومرة أخرى وعد في عام ١١٧٧ م بإرساله للمساعدة في هجوم فرنجي على مصر . وخلال صيف ذلك العام ، راحت شائعات بحملة صليبية جديدة آتية من الغرب ، وقيل إن كلا من لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا قد أخذ الصليب<sup>(٢٤)</sup> . ولكن الذي ظهر في فلسطين كان عاجلا واحدا فقط . ففي سبتمبر ، وأثناء أن كان الملك بلدوين في طريقه إلى الشغاء من نوبة ملاريا حادة ، هبط في ميناء عكا فيليب كونت فلاندرز ومعه أتباع كثيرون . وهو ابن كونت ثيرى وسبيللا كونتيسة أنجو ؛ وتذكر الفرنج اشتراك أبيه في أربع حملات صليبية ، وكانوا يعلمون مدى ما تكنه أمه من الحب الورع للأرض المقدسة ، فعلقوا عليه الآمال الجراض . وأسفرت أنباء حضوره عن إرسال الامبراطور أربعة سفراء من أصل عريق يعرضون المال لتسيير حملة ضد مصر ، ووصل في أعقابهم إلى ميناء عكا أسطول بيزنطي من سبعين سفينة تحمل المحاربين المحنكين . ونظرا لما كان عليه الملك

(٢٣) William of Tyre, xxi, 12, p. 1025.

(٢٤) في معاهدة إيفري Ivry بتاريخ ٢١ سبتمبر ١١٧٧ م ، اتفق كل من لويس السابع وهنري الثاني على الذهاب في حملة صليبية مشتركة (Benedict of Peterborough, 1, pp.191-4). لكن المشروع سرعان ما انهار بعد ذلك .

بلدوين من شدة المرض الذي أتعده عن الذهاب إلى الحرب ، فقد سارع بعرض الوصاية على فيليب إذا قبل الخروج على رأس حملة ضد مصر . لكن فيليب تردد وراوغ قائلاً إنه قد حضر أولاً لمجرد الحج ، وثانياً لأنه لا يستطيع تحمل مثل تلك المسؤوليات بمفرده ؛ وعندما اقترح الملك تعيين رينالد (أوف شاتيلون) قائداً مشاركاً معه ، انتقد فيليب شخصية رينالد . وجذبوا أتباعه إلى أن الأسطول البيزنطي موجود هنا وعلى استعداد للتعاون ، فكان رده مجرد التساؤل لماذا يتعين إلزام اليونانيين . وأخيراً كشف عن أن هدفه الوحيد من حضوره إلى فلسطين هو أن يتزوج ابنتي عمه ، الأمرتين سيبيلا وإيزابيلا من ابني أفضل أتباعه لديه - روبرت أوف بيتون . وكان ذلك فوق ما يتحمله بارونات القدس ؛ فعندما تقدم الكونت بطلبه لدى البلاط ، صرخ في وجهه بلدوين (أوف إيبيلين) قائلاً : "كنا نظن أنك قد جئت لتحارب من أجل الصليب ، وأنت لا تتحدث إلا عن الزواج " . وأخذ الكونت فيليب بعد العدة للرحيل ثانية وهو غارق في مشاعر الإحباط والحزن . وكان للمشاحنة وقع الصدمة على سفراء الامبراطور ؛ وانضح بجلالة أنه لن تكون هناك حملة ضد مصر . وانتظروا قرابة شهر ، ثم أبحروا مع الأسطول تصحبهم أحاسيس الغيظ ، كي يحذروا سيدهم الامبراطور من عبث الفرنج الذي لا دواء له<sup>(٢٥)</sup>.

وغادر كونت فلاندرز القدس قاصداً طرابلس في نهاية أكتوبر . وربما بدأ ضميره يضايقه الآن ، إذ أنه وافق على مصاحبة الكونت ريموند في حملة ضد حماء ؛ وقدم الملك جنوداً من المملكة لتعزيزه . وفي الوقت الذي أغارت فيه كتيبة على أراضي حمص ، فقط لكي تقع في كمين وتفقد كل ما غنمته من أسلاب ، ضرب الكونت ريموند والكونت فيليب الحصار حول حماء التي كان حاكمها في شدة المرض . غير أنه عندما جاء الجنود من دمشق ، انسحبوا دون أن يحققوا شيئاً . ومن طرابلس ارتحل الكونت فيليب قاصداً أنطاكية حيث وافق على مساعدة الأمير بوهمند في الهجوم على مدينة حارم ، التي كان يحكمها والي صلاح الدين السابق ، حومشكين ، الذي تشاجر مع سيده صلاح الدين فقتله ، ولذا تمرد أتباعه في حارم ضد الصالح ، لكن تمردهم

(٢٥) William of Tyre, xxi, 18-14, pp. 1027-35. يفرض أن كلا من ريموند أمير طرابلس وبوهمند أمير أنطاكية كان يعارض تسيير حملة ضد مصر وتطبا من عزيمة فيليب . لكن آل إيبيلين كانوا بشعرون بالغيثان من فيليب ، ونظراً لاعتقادهم التداخل مع ريموند ، فمن الحماز القبول بأن وليس القسوى قد بالغ . إذ كان مسؤولاً عن التحالف البيزنطي ، ومن ثم اكتفه التعلل عن هذا التحالف ، وربما كان ما أبداه فيليب لاحقاً من استعداد لمساعدة ريموند وبوهمند قد جعله يرتاب فيهما. أنظر أيضاً Ernoul, p.33 الذي يذكر سخرية بلدوين (أوف إيبيلين) .

انتهى باقتراب الفرنج . وبعمزة فائقة حاصر بوهمند وفيليب المدينة ، إذ لم تفلح محاولاتهما نسف أماكن في الأسوار ، ولمكن الصالح من إرسال فصيحة احترقت صفوفهم لتعزير الحامية . وعندما أرسل الصالح اليهما مبعوثيه يؤكدون أن العدو الحقيقي لكل من حلب وانطاكية هو صلاح الدين الذي عاد إلى سوريا ، وافقا على رفع الحصار . وعاد فيليب كونت فلاندرز إلى القدس في عيد القصح ، ثم أبحر على ظهر سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١١٧٧ م : هزيمة صلاح الدين في تل الجزر

كان صلاح الدين قد عبر الحدود من مصر يوم ١٨ نوفمبر . وكان جهاز استخباراته دائما واعيا دائما؛ إذ علم أن ألتخالف الفرنجى البيزنطى قد انهار وأن كونت فلاندرز غائب في الشمال ؛ فقرر شن هجوم مضاد مفاجئ أعلى الساحل داخل فلسطين . واستدعى فرسان المعبد كافة فرسان النظام للدفاع عن غزة ؛ بيد أن الجيش المصرى تقدم إلى عسقلان مباشرة . وكان الكونستابل همفري (أوف تورون) مريضا مرضا شديدا ، وقد نهض الملك لنوه من فراش المرض ، فجمع ما استطاع جمعه من الجنود - ومجموعهم خمسمائة فارس - وأصطحب معه أسقف بيت لحم حاملا الصليب الحقيقى ؛ وأسرع إلى عسقلان ودخل القلعة قبل وصول الأعداء مباشرة . وكان قد استدعى كل قادر على حمل السلاح ليلحق به هناك ، لكن صلاح الدين اعترض السرايا الأولى وأسرها . وبعد أن ترك صلاح الدين قوة صغيرة لضمان بقاء الملك في عسقلان، زحف على القدس . ولمرة واحدة فقط كان صلاح الدين مغرط الثقة بالنفس ؛ فلم يعد هناك أعداء بينه وبين العاصمة المسيحية ، ولذا أرحى جنوده حبل الانضباط وسمح لهم بالتحول في انحاء الريف للنهب . وبشجاعة اليأس تدبر بلدوين إرسال رسالة إلى فرسان المعبد يطلب منهم التحلى عن غزة والانضمام إليه ؛ وعندما اقترعوا شق طريقه خارجا من عسقلان وسار بكل رجاله شمال الساحل إلى بينة ومنها تحول إلى داخل البلاد . وفى يوم ٢٥ نوفمبر كان الجيش المصرى يعبر واديا صغيرا ضيقا بالقرب من قلعة تل الجزر جنوب شرق الرملة بأميال قليلة ، وفجأة هبط عليه فرسان الفرنج قادمين

(٢٦) William of Tyre, xxi, 25, 19, pp. 1036, 1047-9; Ernoul, p.34; Michael the Syrian, m, pp. 75-6; Abu Shama, pp. 189-92; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 76-7; Ibn al-Athir, pp. 630 3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 148-53.

من الشمال . ولقد كانت مفاجأة كاملة . وكان البعض من جنود صلاح الدين غائبين يجمعون المرعى ، ولم يكن لديه وقت لإعادة تجميع الباقين الذين هرب الكثير منهم قبل الصدمة الأولى . ولم ينقذ صلاح الدين نفسه سوى حرسه المملوكي ، وأما الفصيلة التي صمدت فقد هلكت كلها أو كادت . وكان بلدوين في المقدمة بين المسيحيين ؛ وساعد على احراز النصر شجاعة أمراء بيته ، بلدوين وباليان ، وكذلك شجاعة ابنى زوجة ريموند ، هيو ووليم من أمراء الجليل . وشوهد القديس جورج نفسه يحارب إلى جانبهم .

وفي غضون ساعات قليلة كان الجيش المصري يسابق الريح فرارا إلى مصر ، وقد تغلب على كل ما استلبه وعن الأسرى الذين أسرهم ؛ بل إن الجنود ألقوا بأسلحتهم ليتسنى لهم الفرار الأسرع . وتمكن صلاح الدين من الحفاظ على بعض معايير النظام ؛ غير أن عبور صحراء سيناء كان مؤلما ، مع مضايقات البدو الرحل للهاربين بلا حماية . وأرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسلا من المجاندة إلى القاهرة يؤكدون لمن تسول لهم أنفسهم التمرد أنه مازال على قيد الحياة ؛ وأعلن عن عودته إلى القاهرة في سائر أنحاء مصر بالحمام الزاجل . لكن هيئته أصيبت إصابة شديدة<sup>(٢٧)</sup> .

لقد كان نصرا عظيما أنقذ المملكة إلى حين . لكنه على المدى البعيد لم يغير الوضع؛ فموارد مصر لا حدود لها بينما الفرنج لا يزالون يعانون من نقص الرجال . ولو كان ممكنا للملك بلدوين أن يطارد الأعداء داخل مصر ، أو يهاجم دمشق هجوما خاطفا ، لأفلح في سحق قوة صلاح الدين ، لكنه لا يستطيع المجازفة بجيشه هذا الصغير بهجوم في غيبة المساعدة الخارجية ؛ وبدلا من ذلك قرر تشييد حصون قوية بطول الحدود الدمشقية ، إذ أن فقد بانياس قد أحدث الاضطراب في النظام الدفاعي للمملكة . فبينما راح همفري أمير تينين يحصن منطقة تل هونين على الطريق من بانياس إلى طورون، شرع الملك في بناء قلعة في منطقة الأردن الأعلى بين بحيرة حولة وبحر الجليل ، لكي تسيطر على المخاضة التي شهدت المصارعة بين يعقوب والملوك<sup>(٢٨)</sup> ، وهي المخاضة التي تعرف أيضا بمخاضة الأحزان ؛ وكانت الأراضي الواقعة على جانبيها يقطنها المسلمون من الفلاحين والرعاة ، البعض يدين بالولاء لدمشق ، والبعض الآخر

(٢٧) William of Tyre, xci, 24-20, pp. 1037-47; Ernoul, pp. 41-5; Michael the Syrian, iii, p. 375; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 75-6; Abu Shama, pp. 184-7; Ibn al-Athir, pp. 627-35.

(٢٨) (المزجم): أنظر سفر التكوين، الإصحاح الثاني والثلاثين، الآيات ٢٤ وما بعدها.



للمسيحيين ، وكانوا يتمتعون بحرية الذعاب والإهاب عبر الحدود التي كانت علامتها الوحيدة شجرة بلوط ضخمة ، وكان الفرنج قد تعهدوا بعدم تحصين مناطق العبور قط. وقد رغب بلديون في الالتزام بالمعامدة وتشديد القلعة في مكان آخر ، لكن فرسان المعبد فرضوا عليه رأيهم . وشكى المسلمون المحليون نقض العهد لصالح لادين ، الذي عرض على بلديون أولا ستين ألف قطعة ذهبية ، ثم مائة ألف قطعة ذهبية للتخلي عن البناء . ولما رفض الملك ، أقسم صلاح الدين أن يتخذ اجراء هو نفسه<sup>(٢٩)</sup>.

وبعد الكارثة التي نزلت بصلاح الدين في تل الجزر مكث في مصر بضعة أشهر إلى أن أبقن أن كل شيء على مايرام تحت سيطرته . وفي نهاية ربيع عام ١١٧٨م عاد إلى سوريا وأمضى ما تبقى من العام في دمشق . وكانت الأعمال الحربية الوحيدة في ذلك العام تتألف من غارات قليلة وغارات مضادة<sup>(٣٠)</sup> . وأما في المناطق الأبعد إلى الشمال فكان هناك سلام بين انطاكية وحلب ، وتحالف بين انطاكية وأرمينيا ، التي أطيح بأميرها الخائن ، ملبيح ، بعد موت نور الدين مباشرة على يد ابن أخيه رومين الثالث . وكان رومين صديقا للفرنج الذين ساعدتهم في حصار حارم العقيم<sup>(٣١)</sup> . كما سعى يوهنند الثالث إلى مصادقة الامبراطور ، وفي عام ١١٧٧م تزوج إحدى قريبات مانويل وتدعى ثيودورا ، كزوجه الثانية<sup>(٣٢)</sup>.

(٢٩) William of Tyre, xxi, 26, pp. 1050-1; Ernoul, pp. 51-2; Abu Shama, pp. 194-7; Ibn al-Athir, p. 634. وكان صلاح الدين مشغولا آنذاك بتمرد على في بعلبك . ويعبر غاندة يعقوب الآن جسرا يعرف باسم "جسر بنات يعقوب".

(٣٠) Ibn al-Athir, p. 633.

(٣١) Sembat the Constable, p. 624; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 509. انظر ادناه ص ٤٨٠.

(٣٢) William of Tyre, xxii, 5, p. 1069. تاريخ هذا الزواج ، وحتى اسم العروس ، محل خلاف . إذ أن Lignages v, p. 446 يسميها إيرين Irene ، ويجعل لها ابنة تسمى كونستانس ، ليست معروفة مع ذلك . وليس معروفا ما إذا كانت من آل كومنينوس أم أنها على صلة قرابة بالامبراطور عن طريق اسمها . ويعتقد Roy ، في *Histoire des Princes d'Antioche, Revue de l'Orient Latin*, 1896, pp. 379-82 ، أنها زوجة يوهنند الأولى . والأرجح ان زوجته الأولى هي Orgilliosa of Harene ، التي تظهر في الوثائق (1170-5, 1399, pp. 125, 1399). ويقول ولم بقينا: "إن يوهنند ترك ثيودورا ليعيش مع ميبيللا".

## ١١٧٩ م : موت همفري أمير تبتين

وفي ربيع ١١٧٩ م ، عندما بدأت الحركة الموسمية للقطعان ، انطلق الملك بلدوين لجمع الأغنام التي سوف يمر باتجاه باتياس من السهول الدمشقية ، وأرسل صلاح الدين ابن أخيه فاروق شاه ليرى ما يحدث هناك . وكان مقررا أن يتنر عنه عن طريق الحمام الزاجل بالاتجاه الذي يسلكه الفرنج . وفي يوم ١٠ ابريل انقض فاروق شاه فجأة على الأعداء في واد ضيق في غابة باتياس ، وبوغت الملك الذي لم يستطع تخليص جيشه الا بما أبداه الكونستابل القديم ، همفري أمير تبتين من بطولة ، إذ صمد للمسلمين مع حرسه الشخصي إلى أن هرب الجيش الملكي . وجرح همفري جرحا مميتا ، وقضى نفيه في حصنه الجديد في هونين يوم ٢٢ ابريل . وأعرب الجميع ، بل والمسلمون ، عن تقديرهم لشخصيته . لقد كان موته ضربة رهبة للمملكة ، إذ كان هو وحدها من السياسيين الكبار الذي حظى باحترام الجميع .

وتابع صلاح الدين الانتصار بمحاصرة قلعة مخاضة يعقوب ، لكن الدفاعات كانت من القوة بحيث انسحب بعد أيام قليلة كى يعسكر أمام باتياس ، ومنها راح يرسل المغيرين إلى داخل الجليل وحلال لبنان لتدمير حصاد الحاصل بين صيدا وبيروت . وجمع الملك بلدوين قوات المملكة واستدعى ريموند أمير طرابلس للانضمام اليه ، وساروا أعلى طرية وصفد إلى تبتين . وهناك علموا أن فاروق شاه وفرقة من المغيرين في طريق عودتهم من الساحل وهم يحملين بالغنائم ، فانتقلوا إلى الشمال لمهاجمتهم في وادي مرج عيون الواقع بين نهر الليطاني والأردن الأعلى . غير أن صلاح الدين لاحظ من مرقب فوق تل شمال باتياس أن القطعان في الجهة المقابلة من الاردن تجري مبصرة في فرع ، فتحقق من أن الجيش الفرنجي يمر بها ، فانطلق بطارده . وفي يوم ١٠ يونية ١١٧٩ م ، وبينما كان الجيش الملكي يهزم فاروق شاه في مرج عيون ، انتقل الكونت ريموند وفرسان المعبد متقدمين قليلا باتجاه الأردن . وفي مدخل الوادي هبطوا على جيش صلاح الدين ، وشارك فرسان المعبد في المعركة على الفور ؛ بيد أن هجوم صلاح الدين المضاد دحرهم إلى الخلف منكبين على جنود بلدوين ، الذين كانوا يتدحرون هم كذلك ؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان الجيش الفرنجي كله موليا الأدبار . وتمكن الملك والكونت ريموند ، مع بعض رجالهما ، من عبور نهر الليطاني والدخول إلى حصن الشقيف أرنون الواقع على مكان مرتفع على الضفة الغربية للنهر . وقتل من تبقى عبر النهر من الرجال جميعا ، أو جمعوا فيما بعد . ولم يتوقف بعض الحاربين في قلعة الشقيف ، وانما انطلقوا مباشرة إلى الساحل ؛ حيث قابلوا في طريقهم

رينالد أمير صيدا مع جنوده المحليين ، وأخبروه أنه جاء بعد أن سبق السيف العذل ، ولذا عاد أدراجه رغم أنه لو تقدم إلى الليطاني لانتقد الكثير من الهارين الآخرين .

وكان من بين أسرى صلاح الدين أودو (أوف سانت أماند) ، السيد الأعظم لفرسان المعبد ، الذي كان تهرره السبب الرئيسي للهزيمة النكراء ، وبلدوين أمير بنية ، وهيو أمير الجليل . وسرعان ما اتخذ هيو بعد أن دفعت أمه ، كوتيس طرابلس ، خمسة وخمسين ألف دينار من دينارات صور . وأما بلدوين أمير بنية فقد طلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف دينار ، وهي فدية ملك ، وكذلك كان صلاح الدين يقيس أهمية بلدوين . وبعد أشهر قليلة أفرج عن بلدوين لقاء الإفراج عن ألف أسير مسلم وبالوعد بأن يبحث عن المال . واقترح مبادلة أودو بأسير مسلم هام ، لكن السيد الأعظم كان بالغ الغرور بحيث لم يوافق على أن هناك من يعادله في أهميته . فبقى في غيابة الجب في دمشق إلى أن مات في العام التالي .

#### ١١٨٠ م : هدنة عامين

لم يتابع صلاح الدين نصره بغزو فلسطين ، ربما لأنه سمع بوصول جماعة كبيرة من الفرسان القادمين إليها من فرنسا بقيادة هنري الثاني (أوف شامباني) ، وبطرس (أوف كورتناي) ، وفيليب أسقف بوفيه ، وبدلاً من ذلك هاجم قلعة بلدوين في عثاضة يعقوب ، وبعد أن حاصرها خمسة أيام ، من ٢٤ إلى ٢٩ أغسطس ، أفلح في نصف جزء من الأسوار واقتحمها وقتل المدافعين عنها ودمرها إلى أن سولها بالارض . ولم يخرج الزالزون الفرنسيون لمحاولة انتقاذ القلعة وإنما سارعوا بالعودة إلى بلدنهم . ومرة أخرى أثبت صليبي الغرب أنهم بلا فائدة البتة<sup>(٢٢)</sup>.

وبعد أن قام الأسطول المصري بغارة ناجحة في أكتوبر على حركة السفن في نفس ميناء عكا، وبعد غارة إسلامية ضخمة داخل الجليل في وقت مبكر من العام الجديد ، أرسل الملك بلدوين يطلب الهدنة من صلاح الدين . فوافق صلاح الدين . وقد

(٢٢) William of Tyre, xxi, 30-27, pp. 1052-9; Ernoul, pp. 53-4; Abu Shama, pp. 194-202; بعض الشكوك حول ما إذا كان أودو (أوف سانت أماند) قد قتل ، لكن كتابا بابويًا مرموعا بالرمس أرسله البابا ألكسندر الثالث يبدؤ أن عاش كاسير . انظر d'Agbon, "La Mort de Saint-Amand" in *Revue de l'Orient Latin*, vol. xii, pp. 279-82.

حدث جفاف شديد طوال الشتاء وبأكورة الربيع وأحدثت المجاعة بسوريا كلها ، وليس هناك من يرغب في غارة تدمير المحاصيل المزيلة ، وربما قرر صلاح الدين ضرورة أن يسبق غزو حلب غزو القدس . وفي مايو من عام ١١٨٠م وقع ممثلو بلدوين وصلاح الدين على هدنة لمدة سنتين ، واستبعدت طرابلس من الهدنة . على أنه بعدما أغارت البحرية المصرية على ميناء طرطوس ، وبعد صد صلاح الدين من غارته على البقاع ، عقد معاهدة مماثلة مع ريموند<sup>(٣٤)</sup> . وفي الحزيف سار شمالاً إلى القسرات حيث تشاجر الأمير الأرمني نور الدين صاحب حصن كيفا - والذي أصبح حليفه - مع قلعج أرسلان السلجوقي . ذلك أن نور الدين كان قد تزوج ابنة السلطان ، لكنه أعملها بسبب إحدى الرافضات . وفي ٢ أكتوبر ١١٨٠م عقد صلاح الدين مؤتمراً بالقرب من المصيصة ، حضره أمراء الأرائقة ومبعوثون من قلعج أرسلان ، ومن سيف الدين صاحب الموصل ، ومن روين الأرمني . وأقسموا على أن يظلوا جميعاً في سلام طوال السنتين التاليتين<sup>(٣٥)</sup> .

وأما الملك بلدوين فقد أمضى فترة الهدنة في محاولة بناء جبهة مسيحية ضد الإسلام فذهب وليم الصوري ، وهو رئيس أساقفة منذ عام ١١٧٥م ، إلى روما عام ١١٧٩م لحضور مجلس لاتيراني<sup>(٣٦)</sup> . وفي طريق عودته قام بزيارة إلى القسطنطينية في الأيام الأخيرة من السنة ، وكان الامبراطور مانويل على ما اعتاد عليه من إظهار الكياسة والود ، لكن عين وليم النافذة استطاعت أن ترى فيه رجلاً ميتاً . لم يراً مانويل قط من صدمة معركة ميوسيفالوم مع أنه أظهر اهتماماً كبيراً بسوريا ، ومكث وليم هناك سبعة أشهر ، وحضر الاحتفالات العظيمة التي أقيمت بمناسبة زواج ابنة مانويل ماريما ، وكانت عائسا في الثامنة والعشرين من عمرها ، على رينيه (لوف مونتفرات)، أخصى زوج سيلا ؛ وزواج ابن مانويل ، وهو ابن عشر سنوات على الأميرة آجنس الفرنسية وعمرها تسع سنين . وعاد برفقة مبعوثين امبراطورين وافقوه حتى انطاكية<sup>(٣٧)</sup> . وكان

(٣٤) William of Tyre, xxi, 3-1, pp. 1053-6; Abu Shama, p. 211; Ibn al-Athir, p. 642.

(٣٥) Ibn al-Athir, pp. 639-40.

(٣٦) (الموجم): المجلس اللاتيراني Lateran Council. تنسب التسمية إلى القديس جون لاتيران St. John Lateran، أو إلى كنيسة المسماة باسمه ، وهي كنيسة البابا الكاتدرائية على موقع قصر Plautius Lateranus البازيليكي الواقع في روما . والمجلس اللاتيراني Lateran Councils هي خمسة مجالس عامة للكنيسة الغربية عقدت في Lateran basilica، (١١٢٣م و١١٣٩م و١١٧٩م و١٢١٥م و١٢١٧-١٥١٢م) ويعتبرها الكاثوليك على أنها مجالس مسكونية أو عالمية.

(٣٧) William of Tyre, xxi, 4, pp. 1066-8.

الأمير الأرمني روبين متلها على تقوية تحالفه مع الفرنج ، ففى باكورة عام ١٨١١م جاء حاجا إلى القدس ، وهناك تزوج الليدى ايزابيلا أميرة تبين ، بنت ستيقاني أميرة منطقة الاردن<sup>(٣٨)</sup> . وأعلن حتى اليعاقبة السوربان ولاءهم للقضية المسيحية المتحدة ، عندما زار بطريرقهم - ميخائيل المورخ - القدس وقابل الملك مقابلة طويلة<sup>(٣٩)</sup> .

كما كانت هناك آمال معلقة على حليف من الشرق الأبعد . ذلك أنه منذ عام ١١٥٠م ، ذاعت رسالة فى أثناء أوروبا الغربية تدل على أن الذى كتبها ذلك العامل العظيم بريسز جون<sup>(٤٠)</sup> إلى الامبراطور مانويل . وبرغم أنها من تزييف أسقف ألماني بصورة شبه يقينية ، فإن محتواها الذى يتحدث عن ثروة وورع ذلك القس الملك فائق الروعة بحيث يمتنع تصديقه . وفى عام ١١٧٧م أرسل البابا طينيه فيليب برسالة يطلب فيها معلومات ومساعدة ، ويبدو أن فيليب أنهى رحلته فى الحيرة ، ولم يكن لها نتائج حقيقية<sup>(٤١)</sup> .

#### ١١٨٠م : سبيلا وبلدوين أمير ايبيلين

ومع ذلك لم يأت فارس قوى من الغرب ، ولا حتى للزواج من الأميرة سبيلا وخلافة العرش . وعندما كان فريديريك رئيس أساقفة صور فى روما ، أرسل إلى هيو الثالث البريجندي ، وهو من سلالة البيت الملكي كأييه ، يترجاه أن يقبل الترشيح ، فوافق هيو بادئ الرأى ، لكنه فضل البقاء فى فرنسا . وفى تلك الأثناء وقعت سبيلا نفسها فى حب بلدوين أمير ايبيلين . وكانت أسرة إيبيلين الآن ، برغم أصلها المتواضع ، فى مقدمة نبلاء فلسطين . وعموت باليان العجوز الذى أسس الأسرة ، مُنحت إقطاعية إيبيلين نفسها لفرسان المستشفى ، لكن الرملة كانت من نصيب ابنه الأكبر هيو ، وعموت هيو مرت إلى أخيه بلدوين الذى كان قد تزوج وريثة ييسان ، ولكن نبذها

(٣٨) Sambat the Constable, p. 627 ويشير Ernoul, p. 31 إلى الزواج ، ويطلق على روبين ابن ثوروس . كما أورده (pp.25-30) زيارة ثوروس إلى القدس ، وهى غير مسجلة فى أى مكان آخر ، وربما كانت وهمية .

(٣٩) Michael the Syrian, III, p. 379.

(٤٠) (الترجم) بريسز جون Prester John: ملك مسيحي أسطوري فى العصور الوسطى وتسمى ، يقال إنه كان يحكم إما فى الشرق الأقصى أو فى اثيوبيا.

(٤١) Rohricht, Regesta, pp.67, 145 وعن اسطورة بريسز جون انظر Marinescu, 'Le Prêtre Jean' in Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine, vol. X.

بذريعة قرابة الدم الشديدة التي تحرم الزواج . والآن كان الابن الأصغر باليان زوج الملكة ماريا كومينا ، ولورد مدينة نابلس التي كانت مهرها ؛ وكان بلدوين وباليان الأكثر نفوذا من كل النبلاء المحليين ؛ وبرغم ما كان عليه بلدوين من نسب غير متميز ، كان لزوجته من سيلا أن يحظى بشعبية في سائر انحاء البلاد . وقبل إعداد ترتيبات الخطوبة ، وقع بلدوين في الأسر في مرج عيون ؛ وكتب له سيلا وهو في سجنه تؤكد له حبها ؛ لكنها بعد أن أطلق سراحه قالت له ببرود إنها لا تستطيع أن تنحيل الزواج بينما هو ما يزال مديونا بقديّة ضخمة . وكان جنحا معقولا ، وان كان مشطبا ؛ ولم يعرف بلدوين كيف يدبر المال ، فرحل إلى القسطنطينية وتسولها من الامبراطور ، الذي دفع القديّة كلها لما يعرف عنه من شغف باللفائف الكريمة . وعاد بلدوين منتصرا إلى فلسطين في وقت مبكر من ربيع ١١٨٠ م ، لا شيء إلا ليحد سيلا محطوبة لرجل آخر<sup>(٤٢)</sup>.

ولم تكن اللبدي آجنس تستلطف قط أقارب أزواجها على اختلافهم وكانت تستهجن آل إيبيلين . وقبل بضع سنين جاء إلى فلسطين فارس من بواتو ، هو أمالريك الابن الثاني لكونت لوسينان . وكان جنديا جيدا ، وعموت همفري أمير تينين عيّين كونستابل . وفي نفس الوقت تقريبا تزوج إيشيفا ، ابنة بلدوين (أوف إيبيلين) ؛ وكان أيضا عشيقا لآجنس . وكان له أخ أصغر في فرنسا ، يدعى جوى . وبشجيع من آجنس ، بدأ يغير سيلا عمداً كان يتحلى به هذا الشاب من وسامة غير عادية وفتنة إلى أن تركته أخيرا في إحضاره إلى فلسطين . وفي الوقت الذي كان فيه بلدوين في القسطنطينية ، أسرع أمالريك إلى فرنسا لإحضار جوى وإعداداته للدور الذي كان مقررا أن يلعبه . ووجدته سيلا على نفس قدر الوسامة التي قبلت لها ، فأعلنت أنها تنوى الزواج منه . واعترض أخوها الملك ولكن دون جدوى ؛ إذ كان جوى - كما اتضح للجميع - صبيبا ضعيفا أحمقا . واغتاش بارونات فلسطين لاحتمال أن يصبح ملكهم المقبل هذا الابن الأصغر لبيل فرنسي تافه ، وكل ما يميزه هي أنه من ذرية ميلوسين الأشبه بجنيات الماء ؛ غير أن آجنس وسيلا واحدا تضايقتا الملك المرهق المريض إلى أن وافق . وفي عيد الفصح من عام ١١٨٠ م تزوج جوى من سيلا ومنح اقطاعي يافا وعسقلان<sup>(٤٣)</sup>.

(٤٢) لم يذكر أحد قصة حب بلدوين (أوف إيبيلين) سوى Ernoul, pp.48, 56-9. ويرتول كان في خدمة أخي بلدوين ، باليان ، ولذلك كان على علم جيد بشؤون الأسرة .

(٤٣) Benedict of William of Tyre, xxi, 1, pp. 1064-5; Ernoul, pp. 59-60.

## ١١٨٠ م : البطريق هيراكليوس

لأسباب سياسية، وكذلك شخصية، كان آل إيبيلين في غاية الخلق، وتقاسم الشقاق بينهم وبين آل كورتناي، يساندتهم في ذلك رينالد (أوف شاتيلون). وفي أكتوبر ١١٨٠م حاول الملك التوفيق بينهما بأن خطب أخته غير الشقيقة إيزابيلا إلى همفري الرابع أمير تينين. وكانت إيزابيلا ابنة زوجة باليان (أوف إيبيلين)، وهمفري ابن زوجة رينالد (أوف شاتيلون). وفضلا عن ذلك كان همفري، حفيدا ووريثا للكونستابل الكبير ووريثا شرعيا عن طريق أمه لاقطاعية منطقة الأردن، ولذلك كان أكثر النبلاء المحليين حذارة، ومن شأن الزواج أن يضفي ووثقا على حداثته. ونظرا لصغر سن الأميرة، التي كانت في الثامنة، تقرر تأجيل الزواج الفعلي لثلاث سنوات<sup>(٤٤)</sup>. على أن الخطوبة لم تصلح شيئا. إذ بعد أيام قليلة استعرض آل كورتناي قوتهم بتعيين بطريق جديد. ذلك أن البطريق اماتريك مات يوم ٦ أكتوبر، وفي ١٦ أكتوبر، وبضغط من الليدي آجنس، انتخبت هيئة الكنيسة في القلمس كخليفة له هيراكليوس، رئيس أساقفة قيسارية. وكان قسيسا لا يكاد يعرف القراءة والكتابة أتى من أوفرن Auvergne، وكانت له وسامة لا قبل لأجنس بمقاومتها، وارتقى في المناصب عما كان لها من حظوة. وكانت محظيته الحالية زوجة أحد ثمار الجوخ في نابلس، تدعى باشيا دي ريفري، وسرعان ما اشتهرت في سائر أنحاء المملكة بأنها السيدة البطريقة Madame la Patriarchesse. وجاء وليم الصوري من أسقفيته صاحبها في محاولة لمنع الانتخاب ولكن دون طائل. وسمّاه الناصيون على أنه اختيارهم الثاني، لكن الملك صدّق على تعيينه بأمر من أمه<sup>(٤٥)</sup>.

وباتت القوة الآن راسخة في قبضة آل كورتناي ولوسينان وحلفائهم رينالد (أوف

Peterborough, 1, p. 343. إن سيلا كانت قد التفت بالفعل بحري عشيقا لها. وعندما اكتشف الملك ذلك، أراد أن يقتل حري، ولكن بناء على طلب فرسان المعبد أبقى على حياته وسمح له بالزواج.

(٤٤) William of Tyre, xcm, 5, pp. 1068-9; Ernoul, pp. 81-2. واستادا الـ وليم، تحلى همفري عن أراضي في الجليل للملك مقابل الارتباط وأعطي بالديون تورون لأمه. ويقول ابن حيدر Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 304 إنها ملك "الخزيرة بنت الخنزير لبورد عكا"، وإن حينئذ ملك حمة جوسلين.

(٤٥) William of Tyre, xcxi, 4, p. 1068. أورد ملحوظة مقتضبة توحي فيها حذف أي أمر يتعلق بترشيحه. ويقول Ernoul, pp. 82-4. بالتحديد إن آجنس أصبحت على انتخاب هيراكليوس "لأن جماله عيوب" (pour sa biauté fama) وسبق أن جعلته رئيس أساقفة قيسارية. ويضيف أن وليم حذر الكهنة من انتخابه. ويذكر pp. 57-9. Estoire d'Eracles أن وليم الصوري تنبأ بأن الصليب الذي وجد هيراكليوس، سوف يضعه هيراكليوس.

شاثيلون) والبطريق الجديد. وفي شهر ابريل ١١٨١م وجهوا ضربتهم إلى وليم الصوري الذي اعتبروه خطراً عليهم لأنه كان مدرس الملك سابقاً. وبذريعة تافهة حكم عليه هيراكليوس بالطرد من الكنيسة. وبعد محاولات عقيمة لرأب الصدع رحل وليم الصوري عام ١١٨٢م أو ١١٨٣م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوي، ومكث هناك حيث مات، ويقال إن البطريق أرسل وراءه جاسوساً دس له السم<sup>(٤٦)</sup>. وكان ريموند أمير طرابلس ثانياً المستهدفين للهجوم. فعندما كان يتجأ في وقت مبكر من عام ١١٨٢م للانتقال من كونتيته إلى أراضي زوجته في الجليل، منعه ضباط الملك من دخول المملكة؛ إذ أن أجنس وأخاها جوسلين ألقيا في روع الملك أنه يتآمر ضد الناجح. ولم يرخص الملك بلدوين إلا بعد الاحتجاجات الغاضبة من بارونات المملكة؛ وعلى مضض رضى بمقابلة ريموند الذي أقره ببراءته<sup>(٤٧)</sup>.

#### ١١٨٠-١١٨٢م : عهد ألكسيوس الثاني

رما كانت المكائد التي تحاك حول الملك المهزوم الميت أقل خطورة لو لم يكن الوضع الخارجي حساساً. ففي ٢٤ سبتمبر فقد الفرنج أهم حلفائهم بموت الامبراطور مانويل في القسطنطينية. وكان يحبهم حياً أصيلاً، كما كان يعمل لمصلحتهم بصورة أصيلة، إلا عندما كان الأمر يصطدم بمصالح الامبراطورية. كان رجلاً مؤثراً حاد الذكاء، ولكنه لم يكن امبراطوراً عظيماً؛ إذ أن طموحه للهيمنة على العالم المسيحي أدى به إلى مغامرات لا تقدر الامبراطورية على خوضها. وأرسل جنوده إلى إيطاليا وإلى داخل هنجاريا في الوقت الذي كان وجودهم مطلوباً على حدود الأناضول أو في البلقان. وتعامل مع صندوق ثروته كما لو كان لا ينفد أبداً. وكانت كارثة

(٤٦) 57-9 pp. *Estoire d'Eracles*, II, Ernoul, pp. 84-6, الذي يقول إن الذي دس السم لوليم هو طبيب أرسله هيراكليوس إلى روما، وأن هيراكليوس نفسه زار روما بعد ذلك. وتاريخاً رحيل وليم وموته مجهولان. ويتوقف تأريخه في عام ١١٨٣م. وقد زار هيراكليوس روما عام ١١٨٤م (انظر أدناه، ص ٤٤٤). ومن الناحية الأخرى جاء ذكر وليم في وثيقة البابا ايرمان الثالث مؤرخة في ١٧ أكتوبر ١١٨٦م على أنه القاضي في الدعوى القانونية للمناصب فيها نظام فرسان المستشفى وأسقف بولونيي (Rohricht, *Regesta, Addiamenta*, p. 44). ولذلك يفترض Rohricht أنه عاد إلى الأراض المقدسة (*Kreuzzugen*, p. 491, n. 5 *Geschichte der*). والأكثر ترجيحاً أن المغرقات البابوية وقعت في خطأ بشأن الاسم. وكان Josias رئيساً لأساقفة صور في ٢١ أكتوبر ١١٨٦م (Rohricht, *Regesta*, p. 173).

(٤٧) William of Tyre, *xxii*, 9, pp. 1077-9.



مرويسيفالوم ضربة مميتة لجيشه الذي كان لديه من المسؤوليات ما يتقرب كاهله . وفى سلسلة طويلة من التنازلات التجارية التى منحها للمدن الإيطالية نظير مميزات دبلوماسية عاجلة ، أضعف ما كان عليه رعاياه من رفاهية اقتصادية ، ومن ثم لم تملأ الخزانة الامبراطورية مرة أخرى قط . وبهرت روعة بلاطه العالم بما عيش فرما كان أسطول الامبراطورية أعظم مما هى عليه بالفعل ؛ ولو أنه عاش أطول مما عاش فرما كان أسطول وذهبه ، مع ذلك ، شيئا ذا قيمة للفرنج . وكانت شخصيته هى التى حافظت على تماسك الامبراطورية ؛ ولكن موته كشف عن انهيارها . ولقد صارع الموت متشبها فى عناد بنوعات منحه أربعة عشر عاما أخرى يعيشها ، فلم يعأ بالترتيب للوصاية التى سوف يحتاجها ابنه<sup>(٤٨)</sup>.

كان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثانى ، فى الحادية عشرة من عمره . وجريا على ما اعتادت عليه بيزنطة من سوابق راسخة منذ القدم تولت الامبراطورة الأم الوصاية . لكن الامبراطورة ماريا لاتينية من انطاكية ، وهى أول لاتينية يحكم الامبراطورية ، ولكونها لاتينية لم تكن محبوبة من أبناء القسطنطينية ؛ كما أن حب مانويل لللاتين كان محل ازدراء لفترة طويلة ، وقد أضافت المنازعات الكنسية التى دبت فى انطاكية مرارة على مرارة لدى البيزنطيين ؛ إذ لم ينس أحد البشة مرور الصليبيين الصاحب فى أراضي الامبراطورية ، وكانت ذكريات المناهج فى قبرص ، والمجازر التى اقترفها البنادقة وأبناء بيزا وحنوا لا تزال عالقة بالأذهان . وأبغضهم جميعا التجار الايطاليون الذين كانوا يتخفون زهوا فى القسطنطينية ، متبطلين بتحكمهم فى تجارة الامبراطورية التى كانوا دائما يحصلون عليها باعتنائهم على المواطنين المسلمين فى المقاطعات . واتخذت الامبراطورة مستشارا لها ، وكما كان يُظن ، عشيقا ، ابن أخ لزوجها ، بروتوسيباستوس ألكسيوس كومنينوس ، عم الملكة ماريا من القدس . وكان أحقا لا يحظى بشعبية . وحنحا معا إلى العنصر اللاتينى ولا سيما إلى التجار الايطاليين . وقامت المعارضة فى وجه الامبراطورة تفودها ابنة زوجها ، يورفروجنيت ماريا ، وزوجها رينيه (أوف موتفراى) . وفشلت مؤامرتهم فى قتل الخيول ؛ لكنهما عندما لاذا بكيسة القديسة صوفيا ، مضى شأوا أبعد فى الاساءة إلى الجماهير عندما دس الكنيسة . وأرغمت الامبراطورة على العفو عن المتآمرين ، لكنها فى وضعها هذا غير المأمون توصلت إلى أخى زوجها ، بيلا الثالث ملك هنجاريا كى يأتى لإنقاذها . وكان

(٤٨) أنظر Chalandon, *op. cit* pp. 605-8. ويذكر William of Tyre, xcti, 5, p. 1069 موته .

ابن عم زوجها ، أندرونيكوس كومنينوس ، الذي عُفِّر له ما قضاء في الشرق من حياة الغواية ، يعيش الآن متقاعدًا في بوتس<sup>(٤٩)</sup> ، وقد تذكّر رفاقه شجاعته وفتنته ، وعندما قدموه عليهم ليكون زعيمًا وطنيًا كانت استجابته سريعة ؛ وفي أغسطس ١١٨٢ م سار عبر الأناضول ، وبسهولة هزم الجنود القلائل الذين لم ينضموا إلى صفوفه . وأما الامبراطورة فسرعان ما وجدت نفسها بمفردها ومعها مجرد اللاتينيين لمساعدتها . وباقتراب أندرونيكوس من البوسفور ، انقضّ أبناء القسطنطينية فجأة على كل اللاتين في المدينة ، وقد أثارت الغطرسة اللاتينية المذبذبة ؛ على أن مسارها المرعب صدم الكثير من أكثر البيزنطيين وطنية ، ولم ينج سوى القليل من التجار الإيطاليين الذين هرعوا إلى سفنهم واتبعوا غربًا مغربين على الشواطئ التي مروا بها . وبذا أصبح الدُريق إلى القسطنطينية مفتوحًا لأندرونيكوس .

وأول ما بدأ به هو القضاء على خصومه ؛ فألقى بروتوميباستوس في السجن وفقًا عينيه بقسوة . وماتت بروفيروجينيت ماريا وزوجها ميتة غامضة . وأما الامبراطورة الأم فقد حُكِمَ عليها بالإعدام خنقًا وأُجبر ابنها نفسه على التوقيع على الحكم . وأصبح أندرونيكوس امبراطورًا مشاركًا ، وبعد ذلك بشهرين ، في نوفمبر ١١٨٢ م ، اغتيل الامبراطور الصبي الكسيوس الثاني نفسه ، وتزوج أندرونيكوس الذي كان في عامه الثاني والستين من أرملة أجنس الفرنسية البالغة من العمر الثانية عشرة سنة .

وبخلاف حالات القتل هذه ، بدأ أندرونيكوس عهده بداية طيبة ؛ فطُهر الخدمة المدنية من موفقيها الفاسدين والراشدين عن الحاجة ، وأصر على سيادة العدالة وصرامة القانون ، وأرغم الأثرياء على دفع ضرائبهم ، ووَفَّر الحماية للفقراء من الاستغلال . ولم يحدث لقرون أن كانت المقاطعات محكومة بمثل هذا الحكم الجيد . بيد أن أندرونيكوس كان خائفًا وله العذر . ذلك أن الغيرة راحت تنهش الكثيرين من أقربائه ، بينما كانت الطبقة الأرستقراطية تزدرى سياسته ، وكانت الشؤون الخارجية تتوعد بالأخطار . وتحقق من الإنطباع الرهيب الذي تركته مذبحه ١١٨٢ م في الغرب ، فسارع ليس فقط إلى إبرام معاهدة مع البندقية يعد فيها بتعويض سنوي عن خسائرها ، وإنما سعى كذلك إلى تهدئة البابا بتشديد كنيسة في العاصمة لإقامة الطقوس اللاتينية ، وشجع تجار الغرب على العودة . بيد أن أعداء بيزنطة كانوا امبراطور هوهنشتوفن (الألماني) وملك صقلية ، وفي عام ١١٨٤ م حدث زواج مشؤوم بين ابن الامبراطور فريديريك ، هنري ،

(٤٩) (المترجم) بوتس Pontus: مملكة قديمة شمال شرق آسيا الصغرى على البحر الأسود.

وأخت وليم الثاني والروينة، كونستانس . ولعلمه بأن صقلية سرعان ما ستهاجمه، فقد أحب اندرونيكوس أن يستترق من حدوده الشرقية؛ ووجد أن نجم صلاح الدين في ارتفاع هناك، ولذا قلب سياسة مانويل رأساً على عقب بعقد معاهدة مع صلاح الدين يطلق فيها يده ضد الفرنج في مقابل تحالفه معه ضد السلاجقة، ويبدو أنهما اتفقا كذلك على تفاصيل تقاسم الغزوات المقبلة وبمخالات النفوذ.

#### ١١٨٥ م : سقوط اندرونيكوس كومنينوس

على أن المعاهدة كانت عقيمة . إذ أن خشية اندرونيكوس على نفسه في القسطنطينية دفعته إلى الشروع في اتخاذ إجراءات قمعية تزايدت في وحشيتها حتى لم يعد أحد في العاصمة يشعر بالأمان . ولم يوجه ضربه إلى الأرستقراطيين فحسب ، وإنما اعتقلت شرطته حتى التجار والعمال البسطاء لأوهى اشتباه في التآمر ، فكانت غيرتهم تفتأ أو كانوا يرسلون إلى حيث تُفصل رؤوسهم . وعندما هبط إلى البر في عام ١١٨٥ م جيش صقلي في إبيروس وزحف على نيسالونيكيا، فملك الذعر اندرونيكوس . وأسفر ما أقدم عليه من اعتقالات بالجملة ، وما ارتكبه من اعدامات ، إلى أن دفعت بالشعب كله إلى الثورة التي تفجرت عندما اقلع أحد أبناء عمومة الإمبراطور ، هو ايزاك أنجيلوس ، من الحرب من مسجانيه إلى مذبح القديسة صوفيا والتمس العون من هناك ، وكان يتصف بكرههته للإساءة . بل أن الحرس الشخصي المحيط بـ اندرونيكوس تحفلوا عنه ؛ فحاول عبثاً الهرب عبر آسيا ، لكنهم أمسكوا به وطافوا به في انحاء المدينة على جمل أحرى ، ثم عذبته الجماهير الطامحة ومزقته إرباً حتى الموت . وأعلن عن تنصيب ايزاك أنجيلوس إمبراطوراً ، فتمكن من الحفاظ على نوع من النظام وعقد سلاماً مهيناً مع ملك صقلية ، لكنه لم تكن له أية فعالية كحاكم . لقد غدت الامبراطورية القديمة قوة من الدرجة الثالثة بنفوذ طفيف في السياسة العالمية<sup>(٥٠)</sup>.

وأدى اضمحلال بيزنطة إلى قلب موازين القوة في الشرق . وقد ابتهج لذلك امراء أرمينيا وانطاكية ، واحتفلوا بتلاصهم من بيزنطة بأن تشاجروا مع بعضهم البعض . فما أن سمع بوهمند الثالث نبأ وفاة مانويل حتى نبذ زوجته اليونانية كي يتزوج سيدة انطاكية متحلة تدعى سيبلا ؛ ولم يكن البطريق لكمى قد استحسن الزواج اليوناني ،

(٥٠) عن عهد اندرونيكوس انظر Nicetas Choniates, pp. 356-463. وورد William of Tyre, pp. 1079-86 عرضاً مفيداً بما فيه الكفاية عن استعلاف اندرونيكوس .

ولكن الزنا صدمه ، فأصدر مرسوما بطرد يوهنن من الكنيسة ، وفرض على المدينة الحرمان الديني ، وانسحب مرة أخرى إلى القصر . وكان نبلاء انطاكية على حق في بغضهم لسيبلا ، إذ كانت حاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين لقاء معلومات تتصل بقوة الجيوش الفرنجية وتحرركاتها . فساند النبلاء البطريق ليمري ، وأطلت الحرب الأهلية برأسها لولا أن أرسل الملك بلديس وفدا كنسيا برئاسة البطريق هيراكليوس للتحكيم . ووافق البطريق ليمري على رفع الحرمان المفروض على المدينة ، ولكن ليس الطرد ليوهنن ، لقاء تعريض مالي ، وتم الاعتراف بسيبلا أميرة . ولم يرض الكثير من النبلاء بالتسوية فهربوا إلى بلاط روبيين . وفي نهاية عام ١١٨٢م زادت العلاقات بين الأميرين تعقيدا عندما تمرد محافظ كيليكيا البيزنطي ، ايزاك كومنينوس ، على اندرونيكوس وطلب المساعدة من يوهنن ضد روبيين ، وقبل بعي حنوده في طرسوس . وعلى الفور غير يوهنن من رأيه وباع طرسوس والمحافظة لروبيين ، ثم قدم على ذلك . وطلب فرسان المعبد قديمة عن ايزاك على فهم أن القيارضة المتعاطفين معه سيدفعونها لاحقا ، وعلى الأثر انسحب ايزاك إلى قبرص حيث نصب نفسه امراطورا مستقلا وتناسى الدين . ثم إن روبيين ابتلع إمارة هيثوميانز الارمنية الصغيرة التي بقيت في لامبرون شمال غرب كيليكيا تحت حماية القسطنطينية ، وكان ذلك بمثابة الانذار لغيره . وهكذا أدى توسيع لسلطته إلى أن شعر يوهنن بالخطر ، فدعا عام ١١٨٥م إلى مائدة مصالحة في انطاكية واعتقله لدى وصوله . غير أن أحبا روبيين ، ليو ، أنهى غزو هيثوميانز ، وهاجم انطاكية . وأفرج عن روبيين بعدما تنازل ليوهنن عن المصيصة وأدنا ، لكنه سرعان ما استردهما لدى عودته إلى كيليكيا وأعلن عن نفسه سيذا للمقاطعة كلها . وأغار يوهنن بغارات عقيمة لم تحقق شيئا<sup>(٥١)</sup>.

#### ١١٨١م : رينالد (أوف شاتيلون) ينقض المعاهدة

كانت النزاعات الدائرة بين أقزام الزعماء المسيحيين ملائمة للغاية لصلاح الدين . فلا يبرزنة ولا حتى فرنج شمال سوريا سيعرفلون تقدمه ، كما ولن يرسلوا العون إلى

(٥١) William of Tyre, *xxx*, 7-6, pp. 1071-4; William of Tyre, *Latin Continuation*, p. 208; Ernoul, p. 9; Nicetas Choniates, pp. 376-7; Neophytus, *De Calamitatibus Cypri*, cxxxvii; Michael the Syrian, *iii*, pp. 389-94; Sambat the Constable, p. 628; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-10. Ibn al-Athir, pp. 729-30; Abu Shama, p. 374.

مملكة القدس . وكانت الدولة الوحيدة في الشرق التي حظت بالاحترام فيما بين المسلمين هي مملكة جورجيا النائية ، والتي كانت تتضخم على حساب أمراء إيران السلاجقة المنهكين في مصاعبهم التي كانت ملازمة تماشيا للسلطان<sup>(٥٢)</sup> . أما والحالة هكذا ، كان من اللازم للمملكة أن تحافظ على هدنة ١١٨٠ م . لكن رينالد (أوف شاتيلون) ، وهو الآن لورد منطقة الأردن ، استعصى على فهمه سياسة تسير بما لا يتفق مع رغباته ؛ إذ بمقتضى الهدنة يستطيع التجار من المسيحيين والمسلمين على السواء أن يترغّلوا في أمان في أراضي كل من الجانبين ، وأضنى رينالد أن يرى القوافل الإسلامية الثرية في المتناول تمر دون أن يلحقها أذى . وفي صيف ١١٨١ م ، ضعف أمام الإغراء فقاد جنوده المحليين شرقا إلى داخل الجزيرة العربية إلى تيماء بالقرب من الطريق المتجه من دمشق إلى مكة ؛ وبالقرب من الواحة انقض على قافلة كانت مرغلة في أسان إلى مكة واتسل هاربا بكل بضائعها ، بل يبدو أنه كان يتأمل فكرة السر حنوبا لمهاجمة المدينة المنورة ، لكن صلاح الدين ، الذي كان في مصر ، أرسل حملة سريعة بقيادة ابن أخيه فاروق شاه من دمشق إلى داخل منطقة الأردن جعلت رينالد يسرع بالعودة . واشتكى صلاح الدين إلى الملك من خرق المعاهدة وطلب تعويضا ؛ واعترف بلدوين بعدالة المطلب ؛ وأرسل للمعوتين على جناح السرعة إلى رينالد الذي رفض دفع أية تعويضات رغم ذلك . وقد أيده أصدقائه في المحكمة العليا إلى أن ترك الملك الضعيف الموضوع بلا حل . لكن صلاح الدين تابعه ؛ فبعد أشهر قليلة ، اضطر الجو العاصف أن يهبط ألف وخمسمائة حاج إلى البر في مصر بالقرب من دمياط وهم لا يعلمون بأن الهدنة قد انتهكت . فقيدهم صلاح الدين جميعا بالسلاسل ، وأرسل إلى بلدوين يعرض إطلاق سراحهم فور عودة البضائع التي استلبها رينالد . ومرة أخرى رفض رينالد إعادة أي شيء . وباتت الحرب الآن أمرا حتميا<sup>(٥٣)</sup> .

حث رينالد وأصدقائه الملك على تركيز الجيش الملكي في منطقة الأردن للإمساك بصلاح الدين عندما يأتي صاعدا من مصر . وأكد آل إيبيلين وريموند أن ذلك سوف يكشف فلسطين له عندما يمر بها ، ولكن دون جدوى . وفي ١١ مايو ١١٨٢ م غادر

(٥٢) للاطلاع على تاريخ جورجيا في ظل الملك جورج الثالث (١١٥٦-١١٨٤ م) انظر Georgian Chronicle، pp. 231-7. وقد خلفته ابنته الملكة العظيمة ثمار Thamar. انظر Allen, History of the Georgian People, pp. 102-4.

(٥٣) William of Tyre, xxi, 14, p. 1087; Ibn al-Athir, pp. 647-501; Abu Shama, pp. 214-18; Ernoul, pp. 54-6.

صلاح الدين مصر<sup>١</sup> وبينما كان يودع وزراءه في حفل وداع، علا صوت من بين الحشد يردد بيتا من الشعر فحواه أنه لن يرجع إلى مصر ثانية قط . وتصادف أن صدقت النبوءة . وقاد جيشه عبر صحراء سيناء إلى العقبة ، وسار شمالا بلا صعوبة شرق الجيش الفرنجي مماما، يدمر الخاضيل في طريقه . ولما وصل دمشق وجد أن فاروق شاه قد أغار فعلا على الجليل وحرب القرى الواقعة على منحدرات جبل الطور ، واستولى على عشرين ألف رأس من الماشية والى أسير ، وفي طريق العودة هاجم فاروق قلعة حبيس جلدك المفوسة في نساء خارج الصخور أعلى نهر اليرموك عبر الأردن<sup>٢</sup> وحفر خندقا إليها عبر الصخور جعلها تحت رحمته ، وعلى الفور استسلم المسيحيون السريان العازقين عن التضحية بأنفسهم من أجل الفرنج . وأمضى صلاح الدين ثلاثة أسابيع في دمشق، ثم رحل مع فاروق شاه وجيش ضخم يوم ١١ يولية وعبر إلى داخل فلسطين حول جنوب نهر الجليل. وأدرك الملك حماقة استراتيجيته السابقة فعاد من منطقة الأردن وسار أعلى الضفة الغربية للنهر ، وقد أحضر معه الطريق والصليب الحقيقي كى تحمل التركات على فرق الجيش . والتقى الجيشان أسفل قلعة قرسان المستشفى المسماه 'كركب الموى' (بلقوار) . وفي طيس المعركة صمد الفرنج لهجمات صلاح الدين ، لكن هجماتهم المضادة لم تفلح في كسر صفوف المسلمين . وفي آخر النهار انسحب كل جانب زاعما احراز النصر<sup>(١٤)</sup>.

كانت المعركة بمثابة صدمة لصلاح الدين باعتباره الغازي ، ولكنها مجرد صدمة مؤقتة . وفي أغسطس عبر الحدود مرة أخرى في مسيرة خاطفة خلال جبال بيروت ، وفي ذات الوقت ظهر اسطوله على الساحل ، وكان قد استدعاه من مصر بالخماس الراحل بين القاهرة ودمشق . لكن بيروت كانت محصنة جيدا . وما أن سمع بالندوين بالأبناء حتى دفع بجيشه إلى الشمال من الجليل ، ولم يتوقف الا ليجمع سفنه الراسية في مينائي عكا وصور . ولم يفلح هجوم صلاح الدين على المدينة قبل وصول الفرنج ،

(١٤) William of Tyre, loc. 16-14 pp. 1087-95; Abu Shama, pp. 218-22; Ibn al-Athir, pp. 651-3. وبيت الشعر الذي قيل لصلاح الدين أثناء توديعه قبل مغادرته القاهرة هو :

فجع من شميم غرار نجد . فلما بعد العشي من غرار

(Enjoy the perfume of the ox-eyes of Nejd. After tonight there will be no more ox eyes.)

فانسحب<sup>(٥٥)</sup> . لقد حان الوقت لكي ينصرف إلى أعمال أخرى أكثر إلحاحاً .

#### ١١٨١ م : وفاة الصالح اسماعيل

في ٢٩ يونية ١١٨٠م مات سيف الدين صاحب الموصل تاركاً بمجرد أطفالاً صغاراً . ودعا أمراء الموصل أخاه عز الدين ليخلفه . وبعد ذلك بثمانية عشر شهراً ، في ٤ ديسمبر ١١٨١م ، مات الصالح صاحب حلب فجأة في نوبة مغمص قلوباً ، رأى فيه الجميع السم . وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، نبيهاً ، ذكياً ، حريماً بأن يصبح حاكماً عظيماً . وبينما كان على فراش الموت توسل إلى أمراءه أن يستخلفوا ابن عمه صاحب الموصل كي تتحد أراضي العائلة ضد صلاح الدين . ووصل عز الدين إلى حلب في نهاية العام ولقى ترحيباً حماسياً حاراً . وجاءه رسل أمير حماه يعرضون عليه ولايعهم ؛ غير أن هدنة الستين مع صلاح الدين لم تنته بعد ، ورفض عز الدين عرضهم ، بدافع النزاع أكثر من كونه بوازع الشرف ، وكان لديه الكثير مما يقلقه ؛ إذ أن أخاه عماد الدين صاحب سنجار ادعى في فبراير ١١٨٢م أن له نصيباً في الميراث ، وراح يحيل المكائد مع قائد جيش حلب ، قوقبوري . وعاد عز الدين إلى الموصل في مايو بعد أن أعطاه عماد الدين سنجار بدلاً من حلب ، وكوفئ قوقبوري بامارة حارم حيث وراح يتآمر مع جيرانه الأرائقة ، أمير حصن كيفا وأمير البصرة ، ضد أمراء حلب والموصل وقطب الدين الأرتقي صاحب ماردين ، ودعا المتآمرون صلاح الدين لمساعدتهم . وانتهت في سبتمبر الهدنة المعقودة فيما بين الأمراء المسلمين ؛ وفي يوم انتهائها عبر صلاح الدين الحدود ، وبعد هجوم مضلل على حلب ، عبر القرات عند البيرة ، وسقطت أمامه مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى ، الرها ، وروج ، ونصيبين . فواصل زحفه على الموصل وبدأ حصارها يوم ١٠ نوفمبر . ومرة أخرى شعر بالاحباط إذ وجد أن التحصينات من القوة بحيث لا تنال منها الرماح . وشعر سيده الروحي - الخليفة الناصر - بالصدمة من هذه الحرب الدائرة بين المسلمين ، فحاول التفاوض على السلام . وأخذ حاكم شاة أرمن السلجوقي وأمير ماردين يعدان العدة لإرسال قوات لمساعدة الموصل ، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار التي استولى عليها بهجوم شامل بعد حصارها لمدة أسبوعين . وفي هذه المرة فقط لم يستطع كبح جنوده من نهب

(٥٥) William of Tyre, xxii, 18-17 pp. 1096-1101; Abu Shama, p. 223; Ibn al-Athir, pp. 653.

المدينة، لكنه أطلق واليها وأرسله إلى الموصل معززا مكرا . وعرج عز الدين وحلفاؤه لللاقته في ماردين ، ولكنه أرسل من يتقدمه عارضا المدينة ؛ وعندما رد صلاح الدين بفظاظة أنه سيقابلهم في ميدان المعركة ، تفرقوا هاربين إلى بلادهم . ولم يطاردهم ، وإنما اتجه شمالا لإحضار ديار بكر ، وهي أغنى وأقوى قلاع الجزيرة ، وبها المكتبة الأرفع شأنًا في الاسلام . وأعطى المدينة لأمير حصن كيفا . وبعد أن أعاد تنظيم الجزيرة ، بأن عهد بكل مدينة إلى من يثق فيه من الأمراء كإقطاعية ، ظهر مرة يوم ٢١ مايو أمام حلب<sup>(٥٦)</sup>.

#### ١١٨٣ م : صلاح الدين يمتلك حلب

عندما انطلق صلاح الدين للهجوم على عماد الدين وعز الدين ، استنجد كلاهما بالفرنج . وذهبت اليهم سفارة تعدهم بإعانة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، مع التنازل عن بانياس وحبيس قلذك ، والإفراج عن الكثير من الأسرى المسيحيين ممن قد يتضح وجودهم لدى صلاح الدين ، وذلك في حالة قيامهم بهجوم مضلل على دمشق . وكانت لحظة زاخرة بالأمال ؛ فبعد أيام قلائل من غزو صلاح الدين للجزيرة مات فجأة ابن أخيه فاروق شاه وإلى دمشق . وعلى الأثر أغار الملك بلدين - ومعه البطريق والصليب الحقيقي - على أراضي حوران ، ونهب عزمير ووصل إلى بصرى ، بينما استعاد ريموند كونت طرابلس حبيس قلذك . وفي وقت مبكر من ديسمبر ١١٨٢ م ، قاد ريموند مجموعة مغيرة من الفرسان توغلت مرة أخرى في بصرى ، وبعد أيام قلائل انطلق الجيش الملكي يريد دمشق ، وضرب معسكره في ضاحية الداربية التي كان بها مسجد شهير ، أبقى عليه بلدين بعد أن استقبل وفدا من مسيحيي دمشق يحذرونه من المساس به وإلا سينتقم المسلمون بالهجوم على الكنائس . ولم يحاول الملك مهاجمة المدينة ذاتها ، وسرعان ما انسحب محملا بالغانائم لتمضية عيد الميلاد في صور . وخطط لحملة أخرى في الربيع ، غير أنه في وقت مبكر من العام الجديد سقط مريضا بالحمى في الناصرة وهو في حالة ميؤوس منها . وأمضى بضعة أسابيع بين الحياة والموت ، وتسبب مرضه في أن أصبح جيشه في حالة سكون<sup>(٥٧)</sup> . وأبعد إلى الشمال كان يوهنند الثالث

(٥٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.79-86; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 159-60; Ibn al-Athir, pp. 656-7.

(٥٧) William of Tyre, xcm 22-20, 25, pp. 1102-16; Ibn al-Athir, pp.155-9.



فأخذ الخيلة بلا قوة تمكنه من الإقدام على أى عمل ضد صلاح الدين . وأرسل إلى معسكره أمام حلب وإبرم معاهدة هدنة لأربع سنوات ، مكنته من اصلاح دفاعات عاصمته<sup>(٥٨)</sup>.

وفى حلب ، لم يبذل عماد الدين جهدا يذكر للتصدي لصلاح الدين ؛ إذ لم يكن يحظى بشعبية هناك ، وقبل بسرور ما عرضه عليه صلاح الدين من منحه بلده القديم الذى يضم سنجار بالإضافة إلى نصيبين وسروج والرقه . وفى ١٢ يونيو ١١٨٣م غلب صلاح الدين حلب ، وبعد خمسة أيام رحل عماد الدين إلى سنجار تحيطه مظاهر التشريف ، ولكن الجماهير سخرت من تغلبه على هذا النحو المستهزئ . وفى ١٨ يونيو دخل صلاح الدين المدينة دخوله المرمي وأتجه بفرسه إلى القلعة<sup>(٥٩)</sup>.

وفى ٢٤ أغسطس عاد السلطان إلى دمشق التى تقرر أن تكون عاصمته<sup>(٦٠)</sup>. والآن امتدت امبراطوريته من سيراكيكا<sup>(٦١)</sup> إلى نهر دجلة . وطوال قرنين مضيا ، لم يكن هناك أمير مسلم بهذه القوة . كان لديه ثراء مدبر حائطا يمدى ظهره ، والمدينتان العظيمنتان دمشق وحلب تنضعان لحكومته المباشرة ، وحوطها أقطاعات يضع نفقه فى حكمائها تمتد شمالا وشرقا حتى أسوار الموصل ، وكان الخليفة فى بغداد يسأله ؛ وعز الدين فى الموصل يتشكى بأسه ؛ والسلطان السلجوقي فى الأناضول يسعى إلى التقرب منه للفتوز بصدافته ، وأمراء الشرق السلاحقة بلا قوة ليعارضوه . ولم يبق الآن سوى قمع الدخلاء الأجانب الذين كان امتلاكهم لفلسطين وساحل سوريا مهانة باقية للإسلام .

(٥٨) Ibn al-Athir, p. 662.

(٥٩) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 86-8; Ibn al-Athir, pp.662; Abu Shama, pp. 225-8; Kemal (٥٩) Beha ed-Din, ed. Blochet, p. 167; William of Tyre, xxi, 24, pp. 1113-14, الصورى فهم حينئذ مغزى فتح صلاح الدين لحلب .

(٦٠) Beha ed-Din, P.P.T.S p. 89.

(٦١) (الترجم) Cyrenaica: التسمية القديمة لإقليم برقة الواقع شرق ليبيا حاليا.

---

## الفصل الثاني:

### قرنا حطين

\_\_\_\_\_

## قَرْنَا حَطَّينَ

"قَرْنَا نَهَائِيْنَا . كَلَّمْتُ أَبَائِنَا لِأَنَّ نَهَائِيْنَا قَدْ أَنْتَ"

(مراثي إرميا ٤ : ١٨)

عندما نهض الملك بلديون من فراش مرضه في الناصرة ، بات حليبا أنه لم يعد قادرا على حكم البلاد . إذ أن الحمى فاقمت مما يعانيه من الجذام ، ففقد القدرة على استخدام ذراعيه وقدميه ، وقد بدأ الأربعة في التآكل ؛ وكاد يفقد البصر . وقام على خدمته وحراسته أمه واخته سبيلا والبطريق هيراكليوس ، وراحوا يخشونه على تسليم الوصاية لزوج سبيلا ، جوى (أوف لوسينان) . وتقرر أن يسيطر جوى سيطرة كاملة على المملكة ، فيما عدا مدينة القدس التي احتفظ بها الملك لنفسه ، بإيراداتها البالغة عشرة آلاف بيزانت . وقبل بازونات المملكة قرار الملك على مضض<sup>(١)</sup>.

(١) William of Tyre, xcm, 25, pp. 1116-17.

## ١١٨٢ م : حملة رينالد في البحر الأحمر

ولم يكن رينالد (أرف شاتيلون) حاضرا تلك المداولات . وعندما علم برحيل صلاح الدين إلى الشمال في حريف عام ١١٨٢ م ، بدأ في تنفيذ مشروع كثيرا ما كان يداعب خياله ؛ وهو إطلاق أسطول صغير إلى البحر الأحمر للإغارة على قوافل البحر الثرية الناهية إلى مكة ، ومهاجمة حتى مدينة الإسلام المقدسة ذاتها . وعندما اقتربت السنة من نهايتها سار جنوبا إلى أيلة على رأس خليج العقبة ، وقد أحضر معه السفن التي بناها من أحشاب غابات مواب وجربها في مياه البحر الميت . واستولى على ميناء ايلات الذي كان بموثة المسلمين منذ عام ١١٧٠ م ، لكن القلعة المشيدة على الجزيرة القريبة التي أطلق عليها مؤرخو الفرنج "جزيرة جراى Ile de Graye" ظلت صامدة؛ وبقي رينالد مع سفينتين من سفنه لمحاصرتها ، وأبحر باقي أسطوله بعيدا عن الجزيرة في مرج وطرب ، يرشده القراصنة المحليون . وأبحروا جنوبا على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ، يغربون على المدن الساحلية الصغيرة التي كانوا يمرون بها ، وأخيرا هاجموا عيذاب ، الميناء النوبي العظيم المواجه لمكة . وهناك استولوا على سفن تجارية غنية محملة بالبضائع من عدن ومن الهند ؛ وهاجمت فرقة أرضية قافلة ضخمة بلا حراسة جاءت عبر الصحراء من وادي النيل . ومن عيذاب عبر القراصنة إلى ساحل الجزيرة العربية ؛ وحرقوا السفن الراسية في مينائى المدينة ، الحوراء وينبع ، وتوغلوا حتى الرغيب ، وهو أحد موانئ مكة ذاتها ، وعلى مقربة أغرقوا باخرة حجاج كانت قاصدة ميناء جدة . وارتاع العالم الإسلامى كله . بل أن أمراء حلب والموصل ، الذين طلبوا مساعدة الفرنج ، شعروا بالخزي لإقدام حلفائهم على هذا الانتهاك لحرمة العقيدة . وتحرك أخو صلاح الدين ، الملك العادل وإلى مصر فأرسل أمير البحار المصرى حسام الدين لؤلؤ بأسطول يحمل ملاحين مغاربة من شمال افريقية لمطاردة الفرنج . وبدأ لؤلؤ بتخليص جزيرة جراى واستعاد ميناء ايلات الذى كان رينالد نفسه قد انسحب منه ؛ ثم إنه لحق بأسطول القراصنة خارج ميناء الحوراء فدمره وأسر جميع الرجال الذين كانوا على ظهره تقريبا . وأرسل عددا قليلا منهم إلى مكة لكنى تفرى عليهم شعيرة الأضيحة في مكان الذبح في منى أثناء الحج التالى . وأخذ الباقون إلى القاهرة حيث ضربت



خريطة رقم (٦) الجليل

أعناقهم . وأقسم صلاح الدين أغلظ الإيمان بالانتقام من رينالد لمحاولة المشينة<sup>(٢)</sup>.

وغادر صلاح الدين دمشق يوم ١٧ سبتمبر ١١٨٣م بجيش ضخم لفتح فلسطين . وفي التاسع والعشرين عبر الأردن ، جنوب بحر الجليل ممّاما ودخل ييسان التي هرب أهلها حيث الأمان وراء أسوار طبرية . ولما سمع حوى (أوف لوسينان) بمجيئه استدعى كامل قوة المملكة وقد تعززت بزائرين صليبيين اثنين من الأثرياء ، جودفري الثالث ، دوق براباننت، ووالف الأكيتاني (أوف موليون) ورجلهمما . وكان مع حوى ريموند أمير طرابلس ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى ، ورينالد (أوف شاتيلون) ، والأخوان إيبيلين ، رينالد أمير صيدا ووالتر أمير قيسارية ؛ وانضم اليهم همفري الرابع الصغير أمير تبين مع قوات زوج أمه من منطقة الأردن ، لكن المسلمين نصبوا له كميناً على منحدرات جبل جليوع ، حيث قتل أغلب رجاله . ثم أرسل صلاح الدين فصائل لا تتزاع حصون الجوار وتدمرها، بينما راح آخرون يخربون الدبر اليوناني على جبل الطور ، لكنهم أضعفوا في احتراق الأسوار المتبعة للمنشأة اللاتينية على قمة التل . وعسكر هو نفسه مع جيشه الرئيسي بموار عيون التباينة في موقع مدينة يزريعيل القديمة.

#### ١١٨٣م : جوى يتشاجر مع الملك

تجمع الفرنج يوم أول ديسمبر في صفورية وساروا إلى داخل سهل يزريعيل . وهاجم المسلمون في الحال حرس المقدمة ، الذي كان يقوده الكونتسابل أمالريك ، ولم ينقذه منهم سوى وصول الأخوين إيبيلين مع جنودهما في الوقت المناسب . وعسكر المسيحيون عند عيون جالوت في مواجهة صلاح الدين الذي أفسح جناحيه بحيث كاد أن يفلوقهم . وقتل الجيشان ساكنين لخمسة أيام ، ولم يكن من اليسير أن تصل الامدادات إلى المسيحيين ، وبعد يوم أو يومين اشتكى المرتزقة الإيطاليون من الجوع، وجاء اكتشاف الأسماك في عيون جالوت في وقته المناسب لإنقاذ الجيش من التضور جوعاً . وكان أغلب الجنود ، بمن فيهم الفرسان الفرنسيين ورينالد الذي استهان

(٢) Abu Shama, pp.231-5; Ibn al-Athir, p.658; Magrisi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 550-1. ولم يذكر أحد من المؤرخين الفرنج تلك القارة سوى Ernoul pp.69-70، يتحدث عنها على أنها حملة علمية . وشاهد ابن جبير Ibn Jubayr (طبعة 49 Wright) الأسرى الفرنج في القاهرة .

بالمسلمين ، يرغبون في المحرم على المسلمين ؛ ولكن حوى تردد وارتجف ، وأصر ريموند وأميرا إيبيلين على أن استثارة هذه الأعداد الغفيرة فيه الموت المحقق ، ولا بد للحيش من أن يبقى في حالة الدفاع ، وكانوا على حق . وحاول صلاح الدين عدة مرات أن يتصيدهم للخروج ، ولما فشل في ذلك هدم معسكره وعاد يوم ٨ أكتوبر عبر الأردن .

صدم تصرف حوى كلا من الجنود الذين عرفوا فيه حين الخوف ، والفرسان الذين يعلمون عنه صفة الضعف . ولدى عودته إلى القلنس تشاجر مع الملك . ذلك أن بلدوين شعر أن هواء صور يناسبه على نحو أفضل من مرتفعات القدس ذات الرياح . فسأل زوج اخته أن يتبادلا المدينتين ، لكن حوى تلقى الطلب بقلّة أدب ، فتملكت بلدوين نوبة غضب أنارت معها دفعة من الخيوبة ، فاستدعى أهم أنبائه ، وأحداً ينصحتهم بخلع حوى من الوصاية ، وبدلاً من ذلك أعلن يوم ٢٣ مارس ١١٨٣م عن أن وريثه هو بلدوين ابن اخته سيبلا من زواجها الأول ، وهو طفل في السادسة ، وحرض أخته على السعي لإبطال زواجها . وفي ذات الوقت ، وبرغم عدم قدرته على الحركة دون مساعدة ، وبرغم عجزه عن التوقيع باسمه ، تسولى الحكومة بنفسه . وإزاء ذلك عاد حوى إلى كورنتيه في عسقلان وبافا ، ونفض عن نفسه ولاءه للنجاح . فاستولى بلدوين على يافا ووضعها تحت السيطرة المباشرة للنجاح ، لكن حوى تمسك في عسقلان . وبلا طائل تشفع الطريق هيراكليوس والسيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى من أجل المتمرّد . وفقد الملك صبره معهم ، فطردهم من المحكمة العليا ؛ وكان قد استدعاهم ليأمرهم للتبشير بالرحيل إلى الغرب بمعملة صليبية ، ولكن شهور عديدة انقضت قبل أن يرضوا بالرحيل<sup>(٣)</sup>.

#### ١١٨٣م : الزواج في قلعة الكرك

كان مجلس البارونات الذي نصّح الملك بخلع حوى يتألف من بوهمند أمير انطاكية، وريموند أمير طرابلس ، ولورد قيسرية ، والأخوين إيبيلين . ولم يكن لورد منطقة الأردن حاضراً . ولقد حان الوقت كي يتم الزواج بين الاميرة ايزابيلا، وهي الآن في الحادية عشرة ، وهمفري أمير تينين الذي أصبح في السابعة عشرة من عمره .

(٣) William of Tyre, xxi, 29, pp. 1127-8 ، يقول إن بلدوين الخامس تزوّج في هذه المناسبة .



وكان رينالد قد عقد العزم على إتمام حفل الزواج بكل مظاهر الفخامة التي يستطيعها في قلعته في الكرك التي سيزنها العريس. وخلال شهر نوفمبر بدأ الضيوف يتوافدون على القلعة؛ وكان البعض منهم، مثل أم العروس - الملكة ماريا كومنتيا - من الذين يكونون عداوة شخصية لرينالد، لكنهم جاءوا في محاولة لرأب الصدع بين الفرق المتشاحنة. وجاء مع الضيوف مسامرون وراقصون ومشعوذون وموسيقيون من سائر أنحاء الشرق المسيحي. وفيحفاة توقفت الاحتفالات للوصول أبناء مرعية بأن صلاح الدين يقرب بجيشه.

كان تدمير قلعة الكرك وأميرها الكافر من بين الآمال المخلفة لطموحات صلاح الدين. فطالما يسيطر رينالد على هذه القلعة العظيمة يستطيع اعتراض أي محاولة للمرور بين سوريا ومصر؛ وأظهرت التجربة أن المعاهدات لا تقيده. ولذا عسكر صلاح الدين يوم ٢٠ نوفمبر أمام الأسوار بجيشه الذي وصلته تعزيزات من مصر. ولأد المزارعون والرعاة السوريين المسيحيين مع قطعانهم بالمدينة حيث المؤمن، وخبأ الكثير منهم إلى فناء القلعة. وعلى الفور هاجم صلاح الدين أسفل المدينة وشق له طريقا إلى داخلها. ولم يستطع رينالد أن يفعل شيئا سوى أن يهرب إلى القلعة بفضل بطولة أحد فرسانه الذي راح يدافع وحيدا عن الجسر الذي يعلو الخندق بين المدينة والقلعة إلى أن تهدم خلفه. وفي استعراض رائع لبيان الثقة بالنفس تواصلت الاحتفالات في القلعة بينما كانت الصخور تندفع لتدق أسوارها. واستمر الغناء والرقص بالداخل، وأعدت الليدي ستيفاني، أم العريس، بنفسها أطباقا من حفل العرس أرسلتها خارج القلعة إلى صلاح الدين الذي سأل في المقابل عن البرج الذي يسكنه العروسان، وأصدر أوامره بعدم قصفه بآلات حصاره، ولكن بخلاف ذلك لم تتراجع ضرباته. وواصلت منحيقاته التسعة الضخمة العمل بلا انقطاع، وأوشك رجاله على سد الخندق.

وكانت الرسل قد سارعت إلى القدس تستنجد بالملك، الذي استدعى الجيش الملكي ووضعه تحت أمرة الكونت ريموند، لكنه أصر على مراقبة رجاله بنفسه على محفته. وأسرعوا جنوبا مرورا بأريحا ثم أعلى طريق جبل نيبو. ولم تحدث آلات حصار صلاح الدين سوى أثر طفيف في أسوار القلعة القوية، وبقوا الجيش الملكي رفع صلاح الدين الحصار ورحل باتجاه دمشق يوم ٤ ديسمبر. وفي نشوة النصر حمل الملك إلى داخل الكرك، وشرع ضيوف الزواج في العودة إلى بلادهم<sup>(١)</sup>. ولم يكن للتحربة

(١) William of Tyre, xcii, 28-30, pp. 1124-7, 1129-30; Ernoul, pp. 102-6, الذي ذكر حفل الزواج هو Ernoul الذي ربما كان حاضرا الحفل لأنه كان تابع بلدوين. وهو يفتن

من أثر في إنهاء ما كانوا عليه من خلافات عانت منها العروس الصغيرة أكثر المعاناة؛ إذ أن حمايتها منعتها من رؤية أمها ، كطلب رينالد بلا شك ؛ وكانت أمها غارقة في حبها لكيد المكائد بين مختلف التحيزات نظرا لدمايتها اليونانية ، ولذا كانت تعتبرها نصف خاتنة ؛ ولم يكن أحد يعاملها معاملة طيبة سوى زوجها . أما همفري أمير تبين فكان شابا ذا جمال خارق وعلى جانب كبير من التعليم ، وميوله أنسب لأن يكون بنتا أكثر منه رجلا . وكان رقيق الخاشية يعامل زوجته الطفلة معاملة حكيمة ، وكانت تحبه<sup>(٥)</sup>.

وفي الحريف التالي زحف صلاح الدين مرة أخرى على قلعة الكرك بجيش انضمت إليه كتائب مرسله من أتباعه الأراتقة . ومرة أخرى كانت التحصينات الخائلة فوق طاقته ؛ ولم يستطع تصيد المدافعين للخروج للقتال على المنحدرات أسفل المدينة ، ومرة أخرى انسحب إلى أراضيه عندما اقترب جيش من القدس ، تاركاً مجرد فصيلة للإغاثة على الجليل وتقريب البلاد جنوباً حتى نابلس . وعاد صلاح الدين نفسه إلى دمشق ، فهناك الكثير مما ينبغي إيجازه لإعادة تنظيم امبراطوريته . إن الوقت لم يكن مائماً لإزالة المسيحيين<sup>(٦)</sup>.

وفي القدس كانت بدا الملك المهذوم التاكتان تمسكان بعنان الحكومة ، وجرى ما يزال يحتفظ بعسقلان واقفا دعول المسؤولين للملكيين إلى داخل المدينة ؛ وكان أصدقاءه البطريق والسيدان الأعظماء في أوروبا يحاولون عبثاً التأثير على الامبراطور فريديريك والملك لويس والملك هنري بما ينتظر مسيحي الشرق من أخطار . وكان عواهل الغرب يستقبلونهم بآيات الشرف البالغ ، ويناقشون معهم الخطط لحملة صليبية

أن صلاح الدين - في صباه - كان رهينة في قلعة كوكك حيث كانت القيدى ستيغاني تلاحقه على ركبته. ولا يوجد مرجع آخر يذكر أسر صلاح الدين . وقد ولد صلاح الدين عام ١١٣٧م ، وربما لم تكن ستيغاني قد ولدت قبل ١١٤٥م - تزوجت زوجها الأول حوالي ١١٦٢/١١٦٣م وكانت البنت يتزوج من صغار السن في فلسطين - فتكون القصة بعيدة الاحتمال ؛ Abu Shama, p. 248; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.91-2; Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. IX, pp. 13-14.

(٥) وأنظر أدناه ص ٥٠٨ . وكما التاريخ اللاحق لأرواحه فورد في قصة الحملة الصليبية الثالثة . ويصف مؤلف *Itinerarium Regis Ricardi* (p.120) همفري على أنه 'Vir femine quam viro' (P.P.T.S. p.288) Beha ed-Din يذكر *proprior, gestu mollis, sermone fructus* ويقول أنه كان يتحدث العربية بصورة جيدة . ويذكر تاريخ هرقل ١٥٢ p. *Etoire d'Eracles*, II, p. 152 منع الأربلا من رؤية أمها.

(٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 95-8; Abu-Shama, pp. 249-56; letter of Baldwin IV to . Heractius, in Radulph of Diceto, II, pp. 27-8.

ضخمة ، لكنهم يسوقون الذرائع التي تحول بين اشتراكهم هم شخصيا في الحملة الصليبية . وكان كل ما أتى به المبعوثون هو أن عددا ضئيلا من الفرسان أخذوا الصليب<sup>(٧)</sup>.

وفي حريف ١١٨٤م عاود جوى إثارة سخط الملك أخى زوجته . ذلك أنه منذ استيلاء المسيحيين على عسقلان ، كان مسموحا لبدو المنطقة التحرك كما يملوهم لرعى قطعانهم لقاء إثارة صغيرة يدفعونها للملك . والآن اغتباط جوى لعدم حصوله على الإتاوة وذهابها إلى الملك ، فانقض على الرعاة في أحد الأيام وقتلهم واستولى على قطعانهم<sup>(٨)</sup>.

#### ١١٨٥م : وصية الملك بلدوين الرابع

بات بلدوين الآن طريق الفراش لا يستطيع النهوض منه قط . وأدرك مدى النفوذ المبيت الذي يمارسه أمه وأصدقائها ، فأرسل إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة إدارة الحكومة، وفي ذات الوقت أعد العدة لرحيله الأخير ، فأعلن عن وصيته قبل اجتماع للبارونات في وقت مبكر من عام ١١٨٥م . فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن اخته الصغير ؛ ونزولا على رغبة المجلس الصريحة لا يتولى جوى الوصاية ، وإنما يتولاها ريموند أمير طرابلس ، على أن يحتفظ ببيروت ثلثا لخدماته . بيد أن ريموند رفض تحمل الوصاية الشخصية للملك الصغير خشية أن يموت الصغير صغيرا - إذ بدت عليه رقة الغزال - وفي هذه الحالة تشير إليه أصابع الاتهام بأنه عميل بموته . ونظرا لما كان عليه الصبي من صحة هزيلة ، يقسم البارونات أيضا بأنه في حالة وفاة الصبي قبل بلوغه العاشرة ، يحتفظ ريموند بالوصاية إلى أن يصدر من الحكام الأربعة الكبار في الغرب - البابا والامبراطور الغربي وملكى فرنسا وإنجلترا - قرار التحكيم فيما تطالب به الأميرتان سيبلا وإيزابيلا . وفي الوقت ذاته ، وفى محاولة أخيرة للتقريب بين الفرق المتشاحنة ، منحت الوصاية الشخصية على الصبي لحال أمه ، جوسلين (أوف كورتناى) ، الذى بدأ الآن يظهر صداقته الودودة لريموند<sup>(٩)</sup>.

(٧) عن هذه البعثة انظر Benedict of Peterborough, I, p.338; Radulph of Diceto, II, pp. 32-3. وقد استشار هنرى الثانى مجلسه الذى طلب منه عدم الذهاب فى حملة صليبية .

(٨) *Estoire d'Eracles*, II, p. 3.

(٩) *Estoire d'Eracles*, II, p.7, Ernoul, pp.115-19. يورد أكثر التواريخ اكتمالا. ويضع تاريخ تلك

وأقسم البارونات للمؤمنون كلهم على انفاذ رغبات الملك . وكان من بينهم البطريرق هيراكليوس الذي عاد لثوه من الغرب ، مع السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، ووجر (أوف ليه مولان) ؛ أما السيد الأعظم لفرسان المعبد ، أرنولد (أوف توروجا) فقد مات أثناء الرحلة . وبعد مناقشة عاصفة انتخب النظام خليفة له جيرار (أوف ريدفورت) ، العدو القديم لريموند . وأيد جيرار هو الآخر وصية الملك . وأخذ الطفل إلى كنيسة القبر المقدس - محمولا بين ذراعى باليسان امير ايبيلين - حيث توجّه البطريرق<sup>(١٠)</sup>.

وبعد أسابيع قليلة ، فى مارس ١١٨٥ م ، أراح الموت الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه الطويل الموجهة ولما يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . كان الوحيد من بين ملوك القدس أجمعين الأكثر تعاسة ، ولا محل للترتيب فى قدراته ، كما كانت شجاعته فائقة ؛ لكنه وهو على فراش مرضه كان فاقد الحيلة فى السيطرة على المكائد التى تحاك من حوله ، وغالبا جدا ما كان يرضخ لما كانت أمه الشريرة تمارسه عليه من نفوذ نكد ، ويرضخ كذلك لأخته الحمقاء . وعلى الأقل جنبه الأقدرا المهانة الأخيرة التى سوف تلحق بالملكة<sup>(١١)</sup>.

الأحداث بعد حصار صلاح الدين الثانى لقلعة كبروك (سبتمبر ١١٨٤م) ، ويقول إن بلدوين الرابع مات بعد ذلك مباشرة . غير أن وليم الصوري William of Tyre يذكر (انظر اعلاه من ١.٤٤٠) تنويج بلدوين الخامس فى التاريخ ٢٠ نوفمبر ١١٨٣م. ونظرا إلى أن وليم ربما مات قبل نهاية ١١٨٤م ، وكتب صفحاته الأخيرة فى روما ، فمن الجدير أنه قد علم بقرار بلدوين بتنويج ابنه تحت منذ أن أخرجى حوى عام ١١٨٣م ، لكن وليم أخطأ فى الظن بأن التنويج قد حدث . وأما الحقوق القانونية لسيلا وإبراهيم فقد أثارت مشكلة ؛ إذ أن إمبريوك كان قد أخذ قاعدة assize فى عام ١١٧١م تسمح للأختين بالمشاركة فى الاقطاعات سواء على التقاليد الاقطاعية المعتادة فى أوروبا الغربية . ويعتقد Grandclaude, op.cit. p. 340 أنها تتعلق باستخلاف العرش . وربما ولدت للملكة ماريا آنذاك مباشرة بنتها الكبرى . ومن الناحية الأخرى فإن الأطفال من الزواج الأول ، ذكورا وإناثا ، شُحوا الأسبقية على الأطفال من الزواج الثانى . (انظر La Monte, Feudal Monarchy, p.36) ولكن هل هناك أسبقية لمسألة زواج أحسن الباطل على الزواج الامبراطورى من ماريا؟ يتضح من أحداث عام ١١٨٦م أن رأى العام يساند مطالب سيلا (انظر ادناه ص ٤٤٧) . على أن الحجة غامضة بما فيه الكفاية بحيث تتطلب تفكير .

(١٠) . *Estoire d'Eracles*, II, pp. 7-9; Ernoul, pp. 114, 118.

(١١) . - *Imad ed Din* (أبو شامة) Ernoul, pp. 118-19; *Estoire d'Eracles*, II, p. 9. - *Din* (أبو شامة) (p. 258) تذكره لذكرى بلدوين الرابع .

## ١١٨٥ م : مرض صلاح الدين

بعدما دفنت جثة الملك في كنيسة القبر المقدس بمفلساهر الأسى ، استدعى ريموند الوصى البارونات مرة أخرى ليسألهم عن السياسة التي يتعين عليه اتباعها . لقد خانتهم امطار الشتاء وأطلت الجماعة تتهدهم . وكان الصليبي الوحيد الذي جاء إلى الشرق هو المركز المعجوز وليم (أوف منوتفات) ، حد الملك الطفل ؛ فيعد أن اطمأن على أن كل شيء على مايرام فيما يتصل بمقبيده ، استقر في هدوء في اقطاعية في الجليل . وانطلق ابنه كونراد - عم الملك - ليتبعه ، ولكنه توقف في طريقه في القسطنطينية حيث كان اخوه قد هلك قبل ذلك بسنوات قليلة . وهناك عرض مساعدته على من انتقم لرينيه ، الامبراطور ايزاك أنجيلوس ، الذي زوجه اخته . ونسى ابن اخيه وفلسطين . وكان واضحا لجميع البارونات المتجمعين في القدس أن البلاد التي تتضور جوعا لا تستطيع أن تواجه حربا إلى أن تصل حملة صليبية جديدة ، فوافقوا على اقتراح ريموند بالسعي لدى صلاح الدين للموافقة على فترة هدنة تستمر أربع سنوات .

وكان صلاح الدين على استعداد للقبول ؛ إذ كانت هناك مشاجرة بين اقاربه في مصر في حاجة إلى تسوية ؛ وكان قد سمع أن عز الدين صاحب الموصل أصبح مشاكسا مرة أخرى . ووقعت المعاهدة وعادت إلى التجارة حيويتهما بين الدويلات الفرنجية وحيوانها، وتدفقت الخيول من الشرق لتتخذ المسيحيين من الجماعة<sup>(١٢)</sup>.

وفي ابريل ١١٨٥ م سار صلاح الدين باتجاه الشمال ، عابرا نهر الفرات عند البيرة في الخامس عشر من الشهر . وهناك انضم اليه قوقبوري وإلى حران ومبعوثون من أتباع عز الدين ، واليا الجزيرة وإربيل ، وأرسل عز الدين سفارات إلى الحكام السلاجقة في قونية وشاه أرمن ، وأرسل الأخير بعض الجنود لمساعدته ، وأرسل الأول رسالة تهديد لصلاح الدين ولكنه لم يقدم على شيء . وفي يونيو كان صلاح الدين امام الموصل ، ورفض عروض عز الدين للسلام ، حتى عندما جاءته ام الأمير المعجوز بنفسها لكي تحاججه . ولكن الموصل كانت ما تزال قلعة هائلة ؛ وبدأ جنود صلاح الدين بمرضون من حرارة الصيف . وعندما مات فجأة سلطان برسامينيا السلجوقي ، سقمان الثاني ، زحف صلاح الدين شمالا للاستيلاء على المدن التابعة للسلطان ، ديار بكر وما يافرقين ، ولكي يتيح لجنوده الراحة في المناخ الأكثر برودة في الأراضي المرتفعة . وهناك أصابه المرض هو نفسه وأتبعه على فرسه وهو يكاد يحتضر إلى قلعة

(١٢) Ernoul, pp.121-8; *Estoire d'Eracles*, II, pp.12-13; Beha ed-Din, P.P.T.S.pp. 104-5.

صديقه قوقبوري في حران . وأسرع اخوه العادل ، وهو الآن والي حلب ، باحضار  
أمهر أطباء الشرق ، لكنهم لم يقدرُوا على شئ . ولما شعر بأن نهايته قد حانت ،  
ولعلمه بأن أقاربه يتآمرون على الميراث ، جعل امرأته يقسمون على الولاء لأبنائه . ثم  
بدأ يشفى دون توقع ، ولم يخل شهر بتأثير إلا وكان خطر المرض قد زال عنه . وفي  
نهاية فبراير استقبل سفارة من عز الدين ووافق على السلام . وفي ٣ مارس وقع  
السفراء على معاهدة أصبح عز الدين بموجبها تابعاً لصلاح الدين وتم تثبيتته فيما لديه من  
املاك ؛ أما الأراضي الواقعة عبر دجلة إلى الجنوب من الموصل ، بما فيها إربيل وشيزر  
فتقرر أن يحكمها أسراء بعينهم صلاح الدين ويدنسون له بالولاء المباشر . وكان  
وجودهم بمثابة الضمان لولاء عز الدين<sup>(١٣)</sup> . ثم ذهب صلاح الدين نفسه إلى حمص ،  
حيث كان واليها ناصر الدين ، ابن شيركوه ، وصهر صلاح الدين ، قد تأمر على عرض  
سوريا أثناء مرض صلاح الدين ، ولذلك لم يفاعاً أحد عندما عثر عليه ميتاً في فراشه  
يوم ٥ مارس بعد الاحتفال بعيد الأضحى . ومنح ابن الضحية ، شيركوه الثاني ، وكان  
صبياً في الثانية عشرة من عمره ولاية حمص . وصادر صلاح الدين الكثير من أمواله ،  
لكن الصبي تلى بلباقة آيات من القرآن الكريم تتوعد من يأكُل أموال اليتامى بعذاب  
شديد ، وبهذا استعادها . وفي إبريل عاد صلاح الدين إلى دمشق . الآن امتدت  
امبراطوريته امتداداً مأموناً حتى تخوم فارس<sup>(١٤)</sup> .

كان من شأن الهدنة بين المسيحيين والمسلمين أن جلبت معها الازدهار إلى  
فلسطين، فتجددت حركة التجارة بنشاط بين داخل البلاد ومينائي عكا وصور ، مما  
عاد بالمزايا على التجار في كل من الديانتين . وإذا ما أمكن الحفاظ على السلام إلى أن  
تأتي حملة صليبية كبيرة من الغرب ، إذن قد يكون للمملكة مستقل . لكن الأقدار  
كانت قاسية على المسيحيين مرة أخرى . ففي حوال نهاية اغسطس ١١٨٦م مات  
الملك بلدوين الخامس في عكا ولما يبلغ التاسعة من عمره<sup>(١٥)</sup> .

(١٣) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.98-103; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp.123-6; Abu Shama, p.288; Bustan, p.581.

(١٤) 194-5 Lane Poole, *Saladin*, p.55. Abu'l Feda, تلى شيركوه فتاني الآية : "إن الذين ياكلون أموال اليتامى ظلماً إنما ياكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً" PP Beha ed-Din, P.P.T.S 103-4.

(١٥) Ernoul, p. 129, *Estoire d'Eracles*, II, p. 25.

## ١١٨٦ م : الإعلان عن سيلا ملكة

كان الوصي رموند والقهرمان جوسلين حاضرين إلى جانب فراش الموت . وأعرب جوسلين عن رغبته في التعاون مع رموند ، وحشه على الذهاب إلى طبرية لدعوة بارونات المملكة لمقابله هناك حيث المأمّن من مؤامرات البطريق ، كى يستمر تنفيذ شروط وصية بلدوين الرابع ؛ وسوف ينقل هو نفسه الجثة الصغيرة إلى القدس لدفنها هناك . ووقع رموند في المصيدة وسافر بحسن نية . وما أن رحل حتى أرسل جوسلين من يثق بهم من الجنود لاحتلال صور وبيروت ، وبقي هو نفسه في عكا حيث أعلن عن سيلا ملكة ، وبعث بالجنّة الملكية إلى القدس في رعاية فرسان المعبد . واستدعى رسله سيلا وجوى من عسقلان لحضور الجنازة ؛ وأسرع رينالد من الكرك للانضمام إليهما .

واكتشف رموند أنه اتخدع ، فسيط إلى نابلس ، إلى قلعة باليان أمير إيلين ، واستدعى المحكمة العليا للبارونات بصفته الوصي الشرعى . وسارع كل مناصريه للانضمام إليه ؛ فكان مع باليان وزوجته الملكة ماريا وابنتها إيزابيلا مع همفري أمير تينين ، وبلدوين أمير الرملة ، وولتر أمير فيسارية ، ورينالد أمير صيدا ، وجميع كبار مستأجرى الأرض في المملكة ، باستثناء رينالد (أوف شاتيلون) . وهناك تلقوا دعوة من سيلا لحضور حفل تنصيبها . فكان ردهم أن أرسلوا راهبين بندكتيين كمبعوثين إلى القدس لتذكير المتأمرين بقسمهم للملك بلدوين الرابع ، ولتبع اقتراح أى إجراء إلى أن تعقد المحكمة مداولاتها ؛

لكن القدس والموانئ البحرية تحت سيطرة سيلا . وكان إلى جانبها جنود القهرمان جوسلين والكونتستابل أمالريك - وهو أخو جوى - وقد أتى رينالد بجنوده من منطقة الأردن . وأكد لها البطريق هيراكليوس - وهو عشيق أمها القديم - مساندة المؤسسة الكنسية . وأبدى السيد الأعظم لفرسان المعبد ، جيرارد (أوف رينفورت) استعداداه لأن يفعل أى شئ نكاية في عدوه القديم رموند . ولم يكن في القدس من بقى على إخلاصه للقسم سوى السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان جمهور القدس يعمل الكثير من التعاطف مع سيلا ؛ إذ كانت تمثل الحق الوراثى ، ورغم أن العرش كان ما يزال بالانتخاب ، فليس من اليسر تجاهل المطالبة بالوراثة خاصة وأن حقوقها كانت مؤكدة وقت طلاق أمها ، وكان أخوها ملكا وكذلك ابنها . ونقطة الضعف الوحيدة لديها أن زوجها كان مكروها في موضع الإزدراء .

أغلق البطريق وفرسان المعبد بوابات القدس ووضعوا الحراس لمنع أى هجوم يشنه

البارونات من نابلس ، ثم أعدوا العدة للتتويج . وكانت الشارة الملكية محفوظة في خزنة لها ثلاثة أقفال يحتفظ بمفاتيحها البطريرق والسيدان الأعظمان للنظامين العسكريين، مع كل واحد منهم مفتاح . ورفض روجر السيد الأعظم لفرسان المستشفى تسليم مفتاحه لما كان يعتبره متعارضا مع القسم الذي أقسمه، وفي نهاية الأمر ، وفي لفنة منه تدل على الغيابة ، ألقى بمفتاحه من السافذة . ورفض أن يشترك هو أو أى فارس من فرسانه في حفل التتويج ، الذي أقيم حالما كان كل شئ جاهزا . ونظرا لانعدام شعبية حوى ، توج البطريرق سبيلا فقط ، ولكنه وضع تاجا ثانيا إلى جانبها . وبعد أن وضع هيراكليوس التاج على رأسها ، دعاها لأن تستخدم التاج الثاني لتتويج الرجل الذى تظنه حديرا يحكم المملكة . فأشارت إلى حوى كى يقرب منها وينحنى أمامها ووضعت التاج على رأسه . ثم إن أفراد الصحبة الممتعة أدوا عروض الولاء لملكهم ومليكهم الجديدين . وبينما كان حيرارد (أوف ريدفورت) يخطو عارجا، صاح بصوت مرتفع قائلا إن هذا التاج ما هو إلا انتقام من الزواج الذى تم في البطرون.

وإزاء حقيقة هذا التتويج ، لم تستطع المحكمة العليا في نابلس أن تفعل شيئا . وفي الاجتماع نهض بلدوين أمير ايبيلين قائلا إنه عن نفسه لن يحث في بلد يحكمه مثل هذا الملك ، ونصح البارونات كلهم بأن يحذروا حذره ؛ لكن ريموند رد قائلا إنهم لم يفقدوا كل شئ بعد ، وقال إن الأميرة ايزابيلا وزوجها همفري أمير تبين في جانبهم ، فليثورا وليذهبا إلى القدس ؛ فلا يستطيع أئندادهم الصمود أمام الجيوش المتحدة للبارونات جميعا، فيما عدا رينالد (أوف شاتيلون) وتعاطف فرسان المستشفى ، ليس إلا . وأضاف ريموند أنه طالما كان الوصي فإنه يضمن احترام صلاح الدين للهدنة . فوافق البارونات وأقسموا على نصرته حتى وإن كان ذلك يعنى الحرب الأهلية . على أنهم لم يدخلوا في حسابهم واحدا من أهم الفاعلين من بينهم ؛ ذلك أن همفري أصابه الرعب من المصير الذى ينتظره ، فهو لا يرغب فى أن يكون ملكا ؛ فتسلل من نابلس فى الحال قاصدا القدس حيث طلب مقابلة سبيلا . فرفضه بازدراء أول الأمر ، لكنه عندما وقف مرتبكا أمامها، يهرش رأسه ، لانت له ودعته إلى أن يفرغ قصته . وأصغت اليه



في حنان ثم أخذته بنفسها لمقابلة جوى ، الذى تلقى منه الولاية<sup>(١٦)</sup>.

#### ١١٨٦ م : أول مجلس للملك جوى

تسبب فرار همقرى في هزيمة البارونات ، وأعفاهم ريموند من أيمانهم ، وذهبوا الواحد تلو الآخر إلى القدس لإعلان خضوعهم لجوى . حتى باليان أمير إيلين وأكثرهم احتراماً جميعاً ، رأى أنه لا شئ يمكن عمله . لكن أخاه بلدوين أعاد ماقدره بأنه يفضل الرحيل عن المملكة على أن يقبل جوى ملكاً له ؛ وانسحب ريموند أمير طرابلس إلى أراضى زوجته في الحليل ، مقسماً على أنه هو الآخر لن يقدم ولاءه للملك الجديد . لقد كان حرباً أن يقبل إيزابيلا قبول الولاية كملكة ، غير أن ما أبداه همقرى من حنين أقتعه بأنه هو نفسه المرشح الوحيد الجدير بالعرش<sup>(١٧)</sup>.

وسرعان ما عقد الملك جوى مجلس باروناته الأول في عكا . ولم يظهر ريموند ، وأعلن جوى أن بيروت التى كانت تحت إشراف ريموند باعتباره وصياً قد انتزعت منه ، وأرسل من يطلب منه تقديم حسابات الأموال العامة التى أنفقها أثناء وصايته . أما بلدوين أمير إيلين ، الذى كان حاضراً ، فقد استدعاه رينالد (أوف شاتيلون) الذى كان واقفاً بجانب الملك لكي يقدم ولاءه للملك . وبالكاد حيا الملك تحية رسمية وقال له إنه وحب أراضيه في الرملة لابنه توماس الذى سوف يقدم ولاءه عندما يبلغ سن الرشد ، وأنه هو نفسه لن يفعل ذلك قط . وغادر المملكة بعد أيام قلائل ، والتحق بالخدمة لدى بوهمند أمير انطاكية الذى رحب به بسرور ومنتحه أقطاعية أكبر من التى تركها ،

(١٦) Ermoul, pp.129-36، اكمل الروايات وأكثرها تصويراً؛ *Estoire d'Eracles*, II, pp.25-31؛ Radulph of Diceto, II, p.47; Arnold of Lübeck, pp. 116-17. مؤتوية) بمقداد تاريخ التويج في سبتمبر، ويحدده Ralph في أغسطس ، وAmoul في ٢٠ يولية. والوثيقة الأولى لجوى، مؤرخة في أكتوبر، Rohricht, *Regesta*, p.873.

(١٧) من الواضح أن ريموند اعتبر نفسه مرشحاً للعرش . ويذكر ابن حبير شهادات عن طموحاته في وقت مبكر يرجع إلى ١١٨٣ م (Ibn Jubayr, p.304). ويقتبس أبو شامة (ص ٢٥٧-٨) من تقرير عماد الدين أنه كان على استعداد للتحويل إلى الإسلام لتحقيق طموحه ، ويقول ابن الأثير (ص ٦٧٤) إنه كان يعز على مساعدة صلاح الدين . ويرد في (pp.51-2) *Historia Regni Hierosolymitani* (Dolcis) ولدت بعد تويج والده ، بينما ولدت المتأخرة، أنه طالب بالعرش لأن كنه (تسمى هنا Dolcis) ولدت بعد تويج والده ، بينما ولدت ملبسنة قبل التويج . ولأن صغرى بنات بلدوين الثاني ، الدبارة Joveta هي الوحيدة التى ولدت في الكاردينالية ، فلم يكن يستطيع استخدام هذه الخطة . ورعا أدلى في نابلس بحجة عمالة لكي يعود للبارونات اختيار إيزابيلا وليس سيلا ، والمؤرخ خلط القصة .

ولحق به هناك لوردات أقل ، إذ أن يوهنند لم يخف تعاطفه مع ريموند وحزبه<sup>(١٨)</sup>. وبينما كانت المملكة تتمزق هكنا إلى شيع مريرة من بعضها البعض، كانت الهدنة مع العرب تتزايد تماسكا وصمودا . وكان باستطاعة حوى رأب الصدع ، لكنه كان يفتقر إلى صديقه رينالد (أوف شاتيلون). وبفضل الهدنة عادت القوافل الضخمة بين دمشق ومصر إلى سابق عهدها دونما عائق في الأراضي الفرنجية . وفي نهاية عام ١١٨٦م ارتحلت قافلة هائلة من القاهرة ومعهما فرقة صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها من البدو المغيرين ؛ وبينما كانت تمر مواب انقض عليها رينالد فحاة ، فقتل الجنود وأخذ التحار وعائلاتهم بكل ممتلكاتهم معه إلى قلعة الكرك ؛ وكانت الغنيمة أكبر من كل ما سبق أن سلبه في حياته . وسرعان ما وصلت صلاح الدين أنباء العدوان ؛ واحتراما منه للمعاهدة أرسل إلى رينالد يطلب منه إطلاق سراح السجناء وتعريضهم عن خسائهم . ورفض رينالد استقبال المبعوثين ، فذهبوا إلى القنس شاكين للملك حوى الذى أنصت إليهم بعين العطف وأمر رينالد بالانصياع . غير أن رينالد ، الذى يعلم أن حوى مدين له بالمساعدة في الوصول إلى العرش والمحافظة عليه ، لم يعبأ بأوامره؛ ولم يستطع حوى، أو لم يشأ ، أن يفرض عليه الطاعة<sup>(١٩)</sup>.

#### ١١٨٧م : خيانة ريموند

ومع انتهاك الهدنة على تلك الصورة الوقحة لم يكن هناك بد من الحرب التى لا يستطيع بلد منقسم على امره مواحتها . وسارع يوهنند أمير انطاكية إلى تجديد معاهدته مع صلاح الدين<sup>(٢٠)</sup> . وعقد ريموند أمير طرابلس معاهدة هدنة لبلده . ووسعها بحيث تشمل إمارة زوجته في الجليل ، حتى وإن كان السيد الأعلى للمملكة في حالة حرب مع المسلمين . وفي ذات الوقت ضمن تعاطف صلاح الدين الذي وعده بمساندته في مسعاه لأن يصبح ملكا للفرنج . وأيا ما كانت تبدو عليه سياسة ريموند من الحكمة فقد كانت خيانة بلا ريب . وبتشجيع من حيوار السيد الأعظم لقرسان المعبد ،

(١٨) (p.659) *Les Gestes des Chiprois*, II, p.33, *Estoire d'Eracles*, pp.137-9; Emoul, يقول إن حوى أو شك أن يضرب بلدين لولا عرافة مولده .

(١٩) *Estoire d'Eracles*, II, p. 34. يقول إن أمت صلاح الدين أسرت في قنقلة . والواقع أنها كانت عائدة من مكة مع قافلة تالية (انظر أدناه ص ١٢٠) ؛ Abu Shama, pp. 259-II .

(٢٠) Beha ed-Din, P.P.T.S p. 109.

استدعى حوى أتباعه المحلصين وسار شمالاً إلى الناصرة لإحضار الجليل قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم . على أن تدخل باليان أمير إيبيلين هو فقط الذى حسب الفرنج الحرب الأهلية ؛ ذلك أنه عندما وصل إلى المعسكر سأل الملك بفظافة : ماذا تفعل ؟ وعندما رد حوى بأنه سيحاصر طبرية ، أكد له باليان حماقة الخطة ، إذ أن ريموند ستكون له قوات أقوى من قوات الملك بما يستطيع الاعتماد عليه من مساعدة العرب ، وطلب باليان ، بدلاً من الحرب ، أن يرسله الملك ليتحدث مع ريموند . على أن مناقشته للوحدة لم يكن لها أثر على الكونت ريموند الذى اشترط استرجاع بيروت ليخضع للملك . واعتبر حوى أن ذلك لمنا فادحاً<sup>(٢١)</sup> . على أنه بوصول أنباء استعدادات صلاح الدين للحرب الوشيكة ، ناشد باليان الملك مرة أخرى كى يتصالح مع ريموند . وذكره بأعباءه وهو فخور به قائلاً : "لقد خسرت أفضل فارس فى شخص بلدوين أمير الرملة ، فإذا ما خسرت مساعدة ومشورة الكونت ريموند أيضاً ، فيكون فى ذلك نهايتك". ودائماً ما كان حوى مهياً للتصياح لمن ينادى بصرامة ، فسمح لباليان بالذهاب فى سفارة جديدة إلى طبرية ، ومعه حوسيان رئيس أساقفة صور ، والسيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد . وكان ضرورياً لهذا الأخير ، وهو الذى أعداء ريموند ، أن يشترك فى أية تسوية<sup>(٢٢)</sup>.

وانطلق المندوبون من القدس يوم ٢٩ إبريل ١١٨٧ م ، بصاحبتهم عشرة من فرسان المستشفى . وأمضوا تلك الليلة لدى باليان فى قلعة نابلس ، حيث كان باليان مشغولاً ببعض الأعمال ، ولذا طلب من السيدين الأعظمين ورئيس الأساقفة أن يسبقوه ، إذ سيتخلف عنهم ذلك اليوم ويلحق بهم فى اليوم التالى فى قلعة الفولة La Fève ، فى سهل بزرعيل . وفى وقت متأخر من مساء ٣٠ إبريل ، غادر باليان نابلس مع حفنة من توابعه متوجهاً للانطلاق على الخيل طوال الليل ؛ لكنه تذكر فجأة أن الليلة هى ليلة القديس فيليب والقديس جيمس ، ولذا تنحى عن الطريق فى سبيلية ، التى تعتبر 'سامرة' القدماء ، وطرق باب قصر الأسقف . واستيقظ الأسقف واستقبلهم ، ومكثوا يتسامرون طوال الليل إلى أن اتبلج الفجر وحان موعد القداس ، فقال لمضيفه إلى اللقاء ثم انصرف .

(٢١) Ernoul, pp.141-2; *Estoire d'Eracles*, n. pp.31-5. (٢١) تعزيزات من صلاح الدين .

(٢٢) Ernoul, pp. 142-3. (٢٢) كان مقرراً أن يضم ريموند أمير صيدا إلى الوفد ، لكنه انطلق بمفرده .

وفي ٣٠ أبريل ، وبينما كان باليان يناقش بعض الأعمال مع توابعه ، وكان السيدان الأعظمان على جراديهما فوق التل في طريقهما إلى القولة ، تلقى الكونت ريموند مبعوثا من المسلمين في باناس ؛ ذلك أن ابن صلاح الدين الأصغر ، الذي كان قائدا للمعسكر هناك ، تلقى من أبيه تعليمات بإرسال استطلاع في فلسطين ، وفي تصرف سليم جدا طلب الإذن من ريموند كي يعبر رجاله أراضي الكونت في الجليل . ولما كان ريموند ملتزما بمعاهدته الخاصة مع صلاح الدين فلم يستطع رفض هذا الطلب المخرج . وإنما اشترط أن يعبر المسلمون الحدود بعد فجر اليوم التالي ويعودوا قبل حلول الظلام ، وألا يلحقوا الأذى بأية مدينة أو قرية في أراضيه ، ثم أنه أرسل رسلة في انحاء القطاعات كلها يطلب من الناس البقاء مع قطعانهم وراء الأسوار طوال اليوم ولا يخشوا إقطاعياته كلها يطلب من الناس البقاء مع قطعانهم وراء الأسوار طوال اليوم ولا يخشوا شيئا . وفي تلك اللحظة سمع محيي الوفد من القدس ؛ فخرج رسول آخر ليخطر الوفد بنفس الإنذار . وفي باكورة أول مايو شاهد ريموند من قلعة الأمير قوقبوري وسبعة آلاف مملوك يتحولون على حيادهم في مرج .

وفي نحو ضحى ذلك اليوم وصل باليان وصحبه إلى القولة . وكانوا قد شاهدوا عن بعد خيام فرسان المعبد منصوبة أسفل الأسوار ؛ لكنهم عندما اقتربوا منها وجدوها خالية ؛ وقد حيم الصمت على القلعة نفسها . ودخل تابع باليان - إرنول - المبنى وانتقل من حجرة إلى أخرى ، ولم يجد أحدا سوى جنديين مستقلين في إحدى الشرفات العليا ، وهما في حالة مرضية بحيث ولا يقدران على الكلام . واحتار باليان ومملكته القلق . فانتظر ساعة أو ساعتين ، لا يستقر له قرار فيما يفعله ، ثم أنه انطلق مرة أخرى بطول الطريق الذاهب إلى الناصرة . وفجأة ظهر فارس من فرسان المعبد أتيا يهيب الأرض ركضاً ، أشعث الرأس تنزف منه الدماء وهو يصيح بكارثة مروعة .

#### ١١٨٧ م : عيون كريسون

وفي ذات الساعة كان ريموند في طرية يراقب الممالك وهم في طريق عودتهم إلى وطنهم . لقد التزموا بما اشترطه عليهم . وكانت عودتهم قبل هبوط الظلام بوقت طويل ، ولم يبتدوا على أي مبنى في المقاطعة . غير أن حرس الطليعة كان يحمل على أسنة رماحه رؤوس فرسان المعبد .

وصلت رسالة ريموند إلى السيدين الأعظمين في القولة مساء يوم ٣٠ من الشهر . وعلى الفور استدعى جيران فرسان المعبد من الجوار للإلتزام اليه هناك ، على الرغم

من معارضة روجر فارس المستشفى . وكان قِيم فرسان المعبد - جيمس (أوف ميلى) - فى قرية كاكون التى تبعد مسافة خمسة أميال ، ومعه تسعون فارسا ، فحاء وأمضى الليلة أمام القلعة . وفى الصباح التالى انطلق الخيالة إلى الناصرة ، حيث انضم إليهم أربعون فارسا علمانيا ، وبقي رئيس أساقفة صور هناك ؛ لكن جبرارد توقف بجمرد الصباح فى أهل المدينة بأن هناك معركة ستشب حالا وأن عليهم النهي لأخذ الغنائم . وبينما الفرسان يعبرون التل خلف الناصرة ، وجدوا المسلمين يسقون خيولهم من عيون كريسون أسفل الوادى . ومع تلك الأعداد الكبيرة نصح كل من روجر وجيمس (أوف ميلى) - القِيم - بالانسحاب ؛ فاحتاج جبرارد غيظا ، وتحول عن رفيقه السيد الأعظم وزجر قِيمه فى ازدراء قائلا : "إنك شديد الإعجاب برأسك الأشقر بحيث تذكره أن تفقده" ، فرد عليه جيمس فى كبرياء : "سأموت فى المعركة ميتة الشجعان ، وإنما أنت الذى سيلوذ بفرار الخائين" . وأشتعل الفرسان غيظا من هذه الإهانة ، فاندفعوا نحو الممالك . ولقد كانت مذبحة لا معركة ، وكان رأس جيمس الأشقر أحد الرؤوس الأخيرة التى سقطت ، وسقط بجانبها السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وفى لمح البصر قُتل كل فارس من فرسان المعبد فيما عدا ثلاثة كان جبرارد واحدا منهم ، وسابقوا الريح مع جراحاتهم عائدين إلى الناصرة ، وكان أحدهم هو الذى قابل باليان . وأما الفرسان العلمانيون فقد أسروا أحياء . وكان البعض من مواطني الناصرة الجشعين قد خرجوا إلى ساحة القتال لجمع الغنائم التى وعد بها جبرارد ، فأحيط بهم وأخذوا أسرى .

وبعد أن أرسل باليان إلى زوجته يحثها على جمع فرسانها ، لحق بجبرارد فى الناصرة وحاول اقناعه بالذهاب إلى طبرية ، لكن جبرارد تذرع بجراحاته الجسيمة ، ولذا واصل باليان رحلته مع رئيس الأساقفة ؛ فوجدا ريموند فى حالة من الرعب من المأساة التى جعلته يشعر أن سياسته هى التى يقع عليها اللوم . وقبل بسرور وساطة باليان ، فألقى معاهدته مع صلاح الدين ، وانطلق جنوبا إلى القدس حيث قدم فروض الطاعة للملك ، الذى لم يكن حقودا برغم كل أخطائه واستقبل ريموند استقبالا ودودا بل واعتذر له عن الطريقة التى تزج بها . وأخيرا ، بدا أن الملكة قد اتحدت مرة أخرى<sup>(٢٢)</sup>.

(٢٢) أورد Emoul قصة بالكيل ، إذا كان مع باليان بصفتي تبعه *Estoire d'Eracles* pp.143-54 *in*, pp. 37-44; Imad ed-Din, in Abu Shama, p. 262 *Arise* فوقبوري قائلنا للحملة ويحدد عدد الفرسان بأنهم سبعة آلاف . ويرد في *De Expugnacione* (pp. 21-11) نفس العدد ، لكن الرواية القصيرة تذكر أن ريموند نصر على عدم الإضرار بالملكة وتحاول تبعض زلات فرسان المعبد . ولما *La Fève* ، فهي قرية الغولة العربية (روكلا

## ١١٨٧ م : صلاح الدين يعبر الأردن

وكذلك بدأ صلاح الدين يوحد جيوشه . إذ كان معروفاً أن صلاح الدين يجمع جيشاً حراراً عبر الحدود في حوران . وفي شهر مايو ، وبينما كان الجيش يتجمع من سائر أنحاء الإمبراطورية ، ذهب صلاح الدين في رحلة هابطاً الطريق الشح إلى مكة ليرافق قافلة حج كانت فيها أخته وابنتها عالدين من المدينة المقدسة ، وذلك ليستوثق من أن رينالد لن يقدم على محاولة أخرى من غاراته في قطع الطرق . وفي تلك الأثناء توافد الجنود من حلب والموصل وماردين ، إلى أن غدا جيشه أضخم الجيوش التي قادها قاطبة . وعبر الأردن استدعى حوى كبار مستأجري الأرض ومستأجريهم جميعاً لمقابلته مع وجاهم في عكا . وكان النظامان العسكريان في لغة على الإنتقام لمذبحة كريسون ، فحاصوا بكل ما كان لديهما من الفرسان ، ولم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن قلاعهم التي يسيطرون عليها . بل زاد فرسان المعبد من مساعدتهم بتسليم الملك نصيبهم من الأموال التي أرسلها مؤجراً الملك هنري الثاني كقنطرة عن اغتيال توماس بيكيت<sup>(٢٤)</sup> . وقبل لهم أن يودعوها في أحد المصارف لحساب الحملة الصليبية التي أقسم هنري على الخروج بها ، لكن الاحتياج إلى المال الآن كان ملجأ ، وحمل الجنود الذين جهزتهم تلك الأموال راية معهم قتل على جيش هنري . أما يوهنند أمير انطاكية ، فقد نال منه التأثير بعدما ناشد ريموند وباليان ، فوعده بارسال كتبة تحت إمرة بلنوين أمير إيلين ، وأرسل ابنه ريموند لينضم إلى كونت طرابلس الذي كان بمثابة الألب الروحي له . وفي نهاية يونيو تجمع في معسكر أمام عكا ألف ومائتان فارس بكامل أسلحتهم وعدد أكبر من الخيالة الوطنية خفيفة الحركة من طبقة أنصاف الأتراك (Turcopoles) ، ونحو من عشرة آلاف من المشاة . وطلب من البطريرق هيراكليرس أن يأتي ومعه الصليب الحقيقي ، لكنه رد بأنه يمر بوعكة وعهد بالصليب الحقيقي إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس كي يعطيه لأسقف عكا . لقد فضل - كما قال أعداؤه - البقاء مع محبوبته باشيا .

وفي يوم الجمعة ٢٦ يونيو استعرض صلاح الدين جنوده في عشرين في حوران ، وقاد هو نفسه القلب وابن أخيه تقي الدين الميمنة وقوقبورى الميسرة . وسار الجيش في

<sup>(٢٤)</sup> الإسمين يعني الحية وتقع في منتصف المسافة بين حنين وناصرة .

(المترجم) القديس توماس بيكيت Saint Thomas à Becket (حوالي ١١١٨-١١٧٠ م) : حبر الإنجليز ، رئيس أساقفة كانثوربي ، اغتيل بعد معارضة هنري الثاني . يوم احياء ذكراه ٢٩ ديسمبر .

تشكيلات قتال إلى عيسفين ومنها إلى الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، حيث مكث خمسة أيام قامت فيها كشافته بجمع المعلومات عن القوات المسيحية . وفي أول يولية عبر الأردن إلى سن النيرة ، وفي الثاني من يولية عسكر بنصف جيشه في كفر سبت ، على التلال الواقعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من البحيرة ، بينما هاجم جنود أخيه طبرية التي سقطت في أيديهم بعد ساعة من القتال . وكان ريموند وأبناء زوجته مع جيش الملك، فلاذت الكورنيسية إشتيفا ، بعد أن أرسلت رسولا ليخبر زوجها بما يحدث ، إلى القلعة حيث صمدت مع حاميتها الصغيرة .

ولما علم الملك حوى بأن صلاح الدين عبر الأردن ، عقد مجلسا مع باروناته في عكا. وتكلم الكونت ريموند أولا ، فأشار إلى أن حجارة قبض الصيف تعدد من المساوي للجيش الذي لا يبادر بالمحجم ، ولذا ينبغي أن تتركز استراتيجيتهم على المحجم الخالص، وسوف يتعذر على صلاح الدين الحفاظ على قواته الضخمة طويلا في بلاد لافحة من الحر الشديد مع وجود الجيش المسيحي بلا هزيمة ، ولسوف يُحجر على الانسحاب بعد برهة ، وفي ذات الوقت سوف تأتي تعزيزات انتطاكية . ومال أغلب الفرسان إلى الأخذ بنصيحته ؛ غير أن كلا من رينالد (أوف شاتيلون) وجيرارد السيد الأعظم اتهم ريموند بأنه جبان وأن العرب اشتروه . ودائما ما كان الملك حوى يقتنع بآخر المتكلمين ، وأصدر أوامره بأن يتحرك الجيش باتجاه طبرية .

وبعد ظهر الثاني من يولية عسكر المسيحيون عند صفورية ، في موقع رائع لإقامة المعسكر توجد فيه المياه الوفيرة والمراعي الجيدة للخيول . ولو أنهم مكثوا هناك ، كما فعلوا قبل أربع سنوات عند عيون حوليات ، لم يكن صلاح الدين ليجازف بمهاجمتهم قط ، إذ كان جيشهم بنفس حجم جيشه وكانت لديهم ميزة الموقع ؛ غير أن مبعوث كورنيسية طرابلس جاءهم في ذلك المساء ، فعقد حوى مرة أخرى مجلسا في عيسمه ، وتحركت مشاعر الفروسية لدى الفرسان بتفكيرهم في تلك السيدة الشجاعة الصامدة صمود اليأس بجانب البحيرة ، وانهمرت عيرات أولادها وهم يتوسلون العمل على إنقاذ أمهم ، وتبعهم آخرون يؤيدون ضراعتهم . ثم نهض ريموند خطيبا ، فأعاد خطبته التي ألقاها في عكا وأثما بمزيد من التركيز اليأس ، وأوضح مدى حماقة التحلي عن هذا الموضع القوي والمجازفة بالسير المحفوف بالمخاطر في جسارة يولية على جوانب التلال الوعرة . وقال إن طبرية هي مدينته والمدافع عنها هي زوجته ، بيد أنه يرى أن تضيق طبرية بكل ما فيها بدلا من أن تضيق المملكة . وحملت كلماته في طياتها الحجة المقنعة. وانفض المجلس في منتصف الليل وقد عزم على البقاء في صفورية.

وبعد أن عاد البارونات إلى أقسامهم ، زحف السيد الأعظم لفرسان المعبد عائدا إلى الخيمة الملكية وقال : "سيدى، أترك تنق فى "خاتن ٢" من العار أن تضيق مدينة لا تبعد سوى ستة فراسخ ؛ وأعلن أن فرسان المعبد خليقون بأن يتخلوا عن نظامهم العسكرى عن أن يتخلوا عن ثأرهم من الكفرة . وكان جوى مخلصا فى اقتاعه بما قاله ريموند قبل ساعة ، لكنه تذبذب وترك جيوار بفرط فى اقتاعه . وأرسل المنادين فى انحاء المعسكر يعلنون أن الجيش سوف يتحرك فجرا باتجاه طبرية .

#### ١١٨٧ م : الفرنج يعسكرون فى لوبيا

كان أفضل طريق من صفورية إلى طبرية بمضى منحرفا شمالا انحرافا طفيفا عن الشرق عبر تلال الجليل ثم يهبط إلى البحيرة على بعد ميل إلى الشمال من المدينة . وكان الطريق البديل بمضى إلى الجسر فى سن النيرة حيث بمضى أحد روافد النهر شمالا بمحاذاة شاطئ البحيرة . وكان معسكر صلاح الدين فى كفر سبت يقع عبر طريق سن النيرة الذى سلكه آتيمان أعلى النهر . ومن الجائز أن ذهب بعض الخونة من معسكر المسيحيين وأخبروه بأن جوى سيخرج من صفورية بطول الطريق الشمالى ، ولذلك قاد جيشه نحو من خمسة أميال عبر تلال حطّين حيث يبدأ الطريق فى الميوط باتجاه البحيرة، وكانت حطّين عبارة عن قرية ذات مراعى واسعة ومياه وفيرة ؛ وانضم اليه هناك أغلب جنوده الذين كانوا فى طبرية تاركين مجرد العدد المطلوب لحصار القلعة .

وكان صباح يوم الجمعة ٣ يولية صباحا حارا انعدم فيه المساء ، وقد شهد ذلك الصباح خروج الجيش المسيحى من حداث صفورية الخضراء للسير على التلال العارية من الأشجار . وجريا على التقاليد الإقطاعية ، كان ريموند أمير طرابلس قائدا للطلبة بصفته لوورد الإقطاعية ، وقاد الملك الوسط ، وأما المؤخرة فكانت تحت قيادة رينالد والنظامين العسكرين وباليان ايلين . وكان الطريق بطوله خاليا من المياه ، وسرعان ما بدأت المعاناة المبررة من الظمأ لدى الرجال والحياد سواء بسواء ، وأبطأت معاناتهم من سيرهم ، ودأب المناوشون المسلمون على مهاجمة حرس الطلبة وحرس المؤخرة ، يطلقون السهام فتتهمر فى وسطهم ثم ينسحبون بعيدا قبل أى هجوم مضاد . وبحلول عصر ذلك اليوم وصل الفرنج إلى المضبة التى تعلو حطّين مباشرة ، وبدا أسامهم تل صخرى بقمطين مرتفعتين نحو من مائة قدم ، ووراءه تنحدر الأرض انحدارا شديدا نحو القرية ثم إلى البحيرة . وكان التل يسمى "قرنا حطّين" . وأرسل فرسان المعبد يخبرون



الملك بأنهم لا يستطيعون اليوم المضي أكثر من ذلك ، وترجاء بعض البارونات أن يأمر الجيش بالاندفاع وشرق طريقه حربا إلى البحيرة ؛ غير أن حوى تأثر بمعاناة رجاله فقرر التوقف تلك الليلة . وما أن سمع ريموند بذلك حتى عباد من المقدمة على جواده صائحا: "آه أيها الرب الإله ، لقد انتهت الحرب ، انما نحن رجال موتى ، لقد انتهت المملكة ." وأخذوا بنصيبته ضرب حوى معسكره بعد لويبة مباشرة ، باتجاه منحدر القرنين حيث يوجد بئر تخلق حوله الجيش كله . على أنهم أساءوا اختيار الموقع ، إذ كان البئر جافا .

و لم يملك صلاح الدين ضبط مشاعر غيظته وهو ينتظر في الوادى المحتضوئير بأسفل . لقد جاءت له فرصته أخيرا .

وأمضى المسيحيون ليلة بالئسة يستمعون إلى صلوات المسلمين وتلاواتهم الآتية اليهم من أسفل . وانطلق جنود قليلون من المعسكر فى بحث عقيم عن الماء ، فقط ليقتلهم الأعداء . وكى يهاجم المسلمون من معاناة الفرنج أشعلوا النيران فى الأعشاب الجافة التى تغطي التل ، واندفع الدخان الحار ليملأ المعسكر . وتحت غطاء الظلام حرك صلاح الدين رجاله أعلى التل . وعند انبلاج فجر يوم السبت ٤ يولية ، أصبح الجيش الملكى ليجد نفسه محاصرا . ويقول المؤرخ إنه لم يكن باستطاعة أحد التسلل من شبكة الحصار حتى وإن كانت قطرة .

#### ١١٨٧م : معركة حطين

وسرعان ما بدأ هجوم المسلمين بعد الفجر . فأما جنود المشاة المسيحيون فلم يكن يسيطر على ذهنهم سوى شئ واحد ، الماء . فاندفعوا فى خضم عارم محاولين شق طريقهم أسفل المنحدر باتجاه البحيرة التى كانت مياهها تبدو أسفلهم لامعة جاذبة ، فدفعوا أعلى رابية طوقتها النيران والأعداء ، وقتل خلق كثير منهم لتوهم ، وأسر آخرون ؛ وكان مشهدهم وهم رقود فى حراحتهم وبأفواههم المتورمة تشير فائق الألم بحيث ذهب حمسة من فرسان ريموند إلى قيادة المسلمين بتوسلون اليهم كى يقتلوهم جميعا رحمة بهم وبما هم فيه من بؤس . وأما الخيالة على التل ، فقد حاربوا بشجاعة فائقة يائسة وصدوا هجمات الخيالة المسلمين ، التى كانت تبحر المحمة تلو الأخرى على العودة وبها خسائر ؛ غير أن أعدادهم كانت أخذة فى التضاؤل ، ووهنت عزائمهم من العطش ، وبدأت قوتهم تخذلهم . وقبل أن يسبق السيف العذل ، ونزولا

على طلب الملك ، قاد ريموند فرسانه في محاولة لإحراق صفوف المسلمين ؛ وانقض بكل ثقل رجاله على الكتائب التي يقودها تقي الدين ، لكن تقي الدين فتح له صفوفه ليبر من بينها ، ثم أطبق عليه مرة أخرى من خلفه ، فلم يتمكن ريموند وفرسانه من شق طريق العودة إلى رفاتهم ، فارتحلوا في بؤسهم بعيدا عن ميدان القتال ومحموا وجوههم شطر طرابلس . وبعد قليل تمكن باليان أمير ايبيلين وريئالدا أمير صيدا من شق طريقهم خارجين من ساحة القتال . وكانا آخر الحاربين .

تبدد أمل المسيحيين الآن ، لكنهم واصلوا القتال وقد تراجعوا إلى أعلى التل ، إلى القرنين . ونقلت خيمة الملك الحمراء إلى القمة وأحاط به فرسانه . وكان الأفضل ، ابن صلاح الدين الصغير بجانب أبيه يشهد أول معاركه . وبعد المعركة بسنوات كثيرة أعرب عن تقديره لشجاعة الفرنج وقال : "عندما انسحب الملك الفرنجي إلى قمة التل ، حمل فرسانه بشجاعة على المسلمين ودحروهم منكبين إلى أبي . وراقبت فزعهم . تغير لون وجهه وشد على لحيته ، ثم اندفع إلى الأمام صائحا : "كذبوا الشيطان" ، فانقض رجائنا على الأعداء الذين تراجعوا أعلى التل . وعندما شاهدت الفرنج يهربون صرخت مسرورا : "هزمناهم" لكنهم هجموا ثانية ودحروا رجائنا إلى حيث كان يقف أبي . فعاودت رجاله للتقدم إلى الأمام ، فدحروا الأعداء مرة أخرى إلى أعلى التل . ومرة أخرى صرخت "هزمناهم" . فالتفت أبي إلي وقال : "اسكت . إننا لم نهزمهم طالما بقيت تلك الخيمة هناك" . وفي تلك اللحظة انقلبت الخيمة ، فترجل والدي وعبر ساجدا على الأرض شكرا لله وهو يذرف دموع الفرح".

#### ١١٨٧ م : في خيمة صلاح الدين

قتل أسقف عكا . وانتقل الصليب الحقيقي الذي حمله في المعركة إلى أيدي الكفرة . وأخطأ الموت القليل من جياد الفرسان . وعندما وصل المتصرون إلى قمة التل وجدوا الفرسان انفسهم وبينهم الملك محمد بن علي الأرض ، وقد أنهكوا حتى لم يقوالفارس منهم على مواصلة القتال ، وثقت لديهم بالكاد القوة كي يسلموا سيوفهم استسلاما . واقتيد زعمائهم إلى خيمة صلاح الدين التي نصبت في ساحة المعركة<sup>(٢٥)</sup> . استقبل صلاح الدين الملك حوى وأخاه الكونستانيل أماليك ، وريئالدا (أوف

(٢٥) للإطلاع على الوقائع المعقدة للتناقض حول حملة حطين ، انظر كنداء المرقع الثاني .

شاتيلون) وابن زوجته همقري أمير تبين ، والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، والمركيز المعجوز أمير مونتفرات ، ولوردات جيبيل والبطرون ، والكثير من البارونات الأقل في المملكة . وحياتهم تكريما ، وأجلس الملك إلى جانبه . ولما لاحظ عطشه ناوله قدحا من ماء الورد ، مريدا بلوج جيل هرمون . وشرب منها الملك جوى ثم ناولها لرينالد الذي كان إلى جانبه . وتقاليد الضيافة العربية تقضى بأن إعطاء الطعام أو الشراب لأسير يعني أن حياته مأمونة، ولذا سارع صلاح الدين قائلا للمترجم : "قل للملك إنه هو الذي أعطى ذلك الرجل شرابا وليس أنا." ثم تحول إلى رينالد الذي لم يستطع أن يفكر له زندقة لصوصيته ، فذكره بجرأته ، وحياته ، وتجهيقه في الدين ، وحشعه . وعندما رد رينالد بغلظة ، تناول صلاح الدين نفسه سيفا وأطاح برأسه . وارتجف جوى فلما منه أن دوره سيأتي بعده ؛ لكن صلاح الدين هدأ من روعه قائلا : "الملك لا يقتل ملكا. لكن غدر ذلك الرجل بلغ شأوا بعيدا" . ثم أصدر أوامره بالآل يؤذى أحد من البارونات العلمانيين وأن يعامل الجميع بكمياسة واحترام أثناء أسرهم . على أنه لم يبق على أرواح فرسان النظامين العسكريين، فيما عدا السيد الأعظم لفرسان المعبد . وكانت جماعة من متعصبى المسلمين من الصوفية قد انضمت إلى جنوده، فعهد إليهم بمهمة قتل الأسرى من فرسان المعبد والمستشفى، فأغزوا بقابلية ما عهد به إليهم. ثم رحل بجيشه عن حطين، أما الجثث التي ملأت ساحة المعركة فتركها للذئاب والضباع.

وأرسل الأسرى إلى دمشق حيث أودع البارونات في أماكن مريحة ، وبيع الأسرى من الأفقر في سوق العبيد . وكانت أعدادهم كبيرة بحيث هبط ثمن الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير ، وإنك لتستطيع أن تشترى أسرة في صحة جيدة بكاملها تتألف من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وأبنتيه بثمانين دينارا ؛ بل إن أحد المسلمين فكر في صفقة رابحة بأن يستبدل سجيناً بزواج صندل<sup>(٢٦)</sup>.

سبق لمسيحي الشرق أن عانوا من الكوارث قبل ذلك . وسبق أن أسر ملوكهم وأمراؤهم ، غير أن أسريهم آنذاك كانوا من صغار الأمراء الذين كانوا يخرجون سعيًا لكسب زهيد . أما على قرني حطين فقد هلك أنصحن جيش جمته المملكة في تاريخها، وضاع الصليب الحقيقي ، وكان المنتصر عاهل العالم الإسلامي كله .

(٢٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 114-15; Kemal ed-Din (ed. Blochet, pp. 180-1) الدين رواية تختلف اختلافا طفيفا لكنها تحمل نفس المعنى؛ وبورد Ernoal (pp. 172-4) نفس القصة تقريبا.

## ١١٨٧ م : فلسطين تستسلم لصلاح الدين

لم يبق أمام صلاح الدين بعد أن قضى على أعدائه سوى احتلال قلاع الأراضي المقدسة . أما كونتيية طرابلس ، فقد سلمت له طرية بعد أن تلاشت امكانية وصول مساعدة لها ، وقد عاملها بما تستحقه من التشريف وسمح لها بالذهاب إلى طرابلس مع كل أفراد اسرتها ثم أنه نقل سواد جيشه جنوباً إلى عكا . ولم يكن القهرمان جوسلين (أوف كورتناي) يفكر إلا في سلامة الشخصية . فأرسل مواطناً يدعى بطرس بريس لمقاومة صلاح الدين عندما جاء أمام الأسوار يوم ٨ أبريل ، يعرض الاستسلام إذا ضمن أرواح وممتلكات السكان . وبدأ للكثيرين في المدينة أن من العار أن تستسلم المدينة هذا الاستسلام الدليل ، فحدثت أعمال شغب لفترة قصيرة أحرقت فيها عدة منازل ؛ لكن النظام استتب قبل استيلاء صلاح الدين على المدينة رسمياً في العاشر من الشهر . وكان يعلق الآمال على اقناع أغلب التجار المسيحيين بالبقاء هناك ، لكنهم كانوا يخشون المستقبل فهاجروا ومعهم كل متعلقاتهم ، ووجد المتصرون مخزونات هائلة من البضائع ، والحديد ، والأدوات المعدنية ، والمجوهرات ، والأسلحة ، تخلت عنها التجار فراحوا يوزعونها ، بإشراف ابن صلاح الدين الأفضل الذي أعطيت له المدينة ، على الجنود والرفاق . وأما مصنع السكر الضخم فقد انتهبه تقي الدين مما ضايق صلاح الدين<sup>(٢٧)</sup> . وبينما مكث صلاح الدين في عكا ، كانت كتاب من خيسته تستسلم المدن والقلاع التي تستسلم في الجليل والسامرة . وفي نابلس صمدت حامية باليان لأيام قليلة وحصلت على شروط مشرفة عندما استسلمت ؛ وقامت قلعة تبتين لأسبوعين قبل أن تستسلم حاميتها . كان هناك القليل من المقاومة في أماكن أخرى<sup>(٢٨)</sup> . وفي تلك الأثناء جاء أخو صلاح الدين ، العادل ، من مصر وحاصر يافا . ولم تستسلم له المدينة ، لذا استولى عليها عنوة وأسر كل السكان من الرجال والنساء والأطفال . ووجد أكثرهم الطريق إلى أسواق العبيد والحريم في حلب<sup>(٢٩)</sup> .

بعد استيلاء صلاح الدين على الجليل اتجه إلى الساحل الفينيقي . وكان أغلب

(٢٧) Ernoul, *loc. cit.*; *Estoire d'Eracles*, II, ٥٥, 70-1; Abu Shama, pp.295-7; Beha ed-Din, *P.P.T.S.P.*, 116; Ibn al-Athir, pp.688-90.

(٢٨) *Estoire d'Eracles*, II, p.68, *De Expugnacione*, pp.31-4; Abu Shama, pp.300-6; Ibn al-Athir, *loc. cit.* ؛ حطرون .

(٢٩) Ibn al-Athir, pp.690-1. وقد اشترى هو نفسه أمه في سوق حلب ، بتنا صغيرة فقدت زوجها وستة أطفال (ص ٦٩١). *De Expugnacione*, p.229.

الباقين على قيد الحياة في حطين قد هربوا مع باليان إلى مدينة صور ، التي كانت حاميتها قوية وكانت أسوارها الضخمة التي تفرسها من جهة الأرض شديدة المناعة ؛ وبفضل هجومه الأول ، تركها وانطلق إلى صيدا التي استسلمت من فورها يوم ٢٩ يولية . وهرب أميرها ، رينالد ، إلى قلعة الثبينة شقيف أرنون في داخل البلاد . وحاولت بيروت الدفاع عن نفسها ، لكنها استسلمت يوم ٦ أغسطس ؛ واستسلمت جبيل بعدها بأيام قلائل بأوامر من أميرها هيو إيريكو الذي أطلق صلاح الدين سراحه بهذا الشرط . وبحلول نهاية أغسطس لم يبق للمسيحيين جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة ، وبعض الحصون القليلة المبعثرة ، ومدينة القدس المقدسة<sup>(٣٠)</sup>.

وفي سبتمبر ظهر صلاح الدين امام عسقلان وقد أحضر معه أهم أسيرين لديه ، الملك جوى والسيد الأعظم جرارد . وقد قيل لجوى إن من حريته استسلام عسقلان ؛ ولدى وصوله أمام الأسوار ألقى خطبة للمواطنين طالباً منهم التخلي عن الكفاح ، وكذلك فعل جرارد ؛ لكن للمواطنين ودوا عليهما بتوجيه الإهانات إليهما . وكان الدفاع عن عسقلان دفاعاً شجاعاً ، وحسب صلاح الدين في الحصار اثنين من امرائه . على أن الحامية أرغمت على الاستسلام يوم ٤ سبتمبر ، وسمح للمواطنين بالرحيل مع كل منقولاتهم . ورافقهم حراس صلاح الدين إلى مصر حيث نزلوا في أماكن مريحة في الاسكندرية ، إلى أن نُرحلوا إلى أراضٍ مسيحية<sup>(٣١)</sup> . أما في غزة ، حيث تقضى قوانين نظام فرسان المعبد بطاعة سيدها الأعظم ، فقد أجمعت الحامية على الإذعان لأمر جرارد بالاستسلام على الفور ، وحصل بدلاً من القلعة على حريته<sup>(٣٢)</sup> . لكن الملك جوى مكث في السجن لعدة أشهر ، أولاً في نابلس ، ولاحقاً في اللاذقية ؛ وسمح للمملكة سيلاً بالحضور من القدس للانضمام إليه . وكما توقع صلاح الدين دون شك ، كان لإطلاق سراحهما في الربيع التالي أن زاد المسيحيين حرجاً على حرج<sup>(٣٣)</sup>.

(٣٠) Beha ed-Din P.P.T.S pp.116-17; Abu Shama, pp.306-10; Ibn al-Athir, pp.692-3; De Expugnacione, p.236.

(٣١) -Ernoul, p.184; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 78-9; De Expugnacione, pp.236-8; Beha ed-Din, P.P.T.S.P.117; Ibn al-Athir, pp.696-7.

(٣٢) Abu Shama, pp.312-13; Beha ed-Din, loc.cit; Ibn al-Athir, p. 697.

(٣٣) استناداً إلى (Ernoul pp.175, 185) ، كانت سيلاً في القدس حتى عشية الحصار وسمح لها ومعه بالذهاب إلى نابلس (p.185). Ibn al-Athir, p.703; *Estoire d'Eracles*, II, p.79. 3, *Itinerarium Regis Ricardi* ، ويقول بهاء الدين (P.P.T.S.P.143) إن صلاح الدين أخذ جوى إلى طرابلس وأطلق سراحه هناك أثناء أن كان صلاح الدين يحاصر كبرك دي شيفالييه. وكان ذلك في يولية ١١٨٨م ،

## ١١٨٧م : الدفاع عن القدس

في ذات اليوم الذي دخل فيه جنود صلاح الدين عسقلان خسفت الشمس ؛ واستقبل صلاح الدين في الخفاء وفدا من مواطني القدس كان قد استدعاه لمناقشة شروط استسلام المدينة المقدسة. على أنه لم تكن هناك مناقشة ؛ إذ رفض الوفد تسليم المدينة التي مات فيها ربه من أجلهم ، وعادوا بكبرياتهم إلى القدس ، وأقسم صلاح الدين أن يأخذها بالسيف . وجاء إلى القدس من أعانها دون توقع ؛ ذلك أن إيبيلين باليان ، الذي كان مع اللاتين الفرنج في صور ، أرسل إلى صلاح الدين ملتصقا مرووا مأمونا إلى القدس ، إذ كانت زوجته ، الملكة ماري ، قد لجأت إليها من نابلس حيث مكثت هناك مع أطفالها وقد أبدى رغبته في احتضارهم إلى صور . ولدى صلاح الدين طلبه شريطة أن يحضى بالقدس ليلة واحدة وألا يحمل سلاحا . وعندما وصلها وجد البطريرك هيراكليوس ومسؤولي النظامين العسكريين يحاولون تهيئة المدينة للدفاع ، ولكن لم يكن هناك قائد يشق فيه الناس . وتصايحوا جميعا بأنه ينبغي لباليان البقاء لقيادتهم ، وانهم لن يدعوه يرحل . وفي حرجه العميق ، كتب باليان إلى صلاح الدين بشرح له حنته بيمينه . وكان صلاح الدين دائما كئيبا مع عدو يحترمه . فلم يخفى لباليان وحسب ، بل أرسل هو نفسه حرسا لنقل الملكة ماري ، وأطفالها ، وعائلتها ، وجميع ممتلكاتها جنوبا إلى صور<sup>(٣٤)</sup> . ورحل معها ابن أخى باليان الصغير توماس (أوف إيبيلين) وابن هيو (أوف جيبيل) الصغير . وبكى صلاح الدين لرؤية هؤلاء الأطفال ، ورتة المهابة التي ولت ، وهم يمرون خلال معسكره إلى المنفى .

وفي القدس بذل باليان ما في وسعه . وتضخم عدد السكان باللاتين من كافة المقاطعات المجاورة ، والقليل منهم يصلح للقتال . فكان لكل رجل خمسين امرأة وطفل. ولا يوجد سوى فارسين اثنين في المدينة ؛ ولذا منح باليان القروسية لكل صبي تجاوز السادسة عشرة وولد في أسرة نبيلة ، ولثلاثين رجلا من البورجوازيين . وبعث بالفرق تجمع كل ما تجده من طعام قبل أن تأتي الجيوش الإسلامية لتحكم حصار المدينة .

قبل استيلاء صلاح الدين على طرطوس بأيام قلائل . وربما أعطى صلاح الدين في ذكر اسم طرطوس بدلا من طرابلس ، لكن تاريخ الانحراج كان ينقطع في يولية ١١٨٨ . ومع ذلك يقول Ernoul (p.185) ان حوى أطلق سراحه في مارس ١١٨٨م ، لكنه يذكر لتاريخ (في ص ٢٥٢) عندما كان صلاح الدين يحاصر طرابلس (يولية ١١٨٨م). ويقول *Itinerarium* ان حوى أطلق سراحه في طرطوس حيث انضمت اليه سيلا آخر (p.25).

(٣٤) Ernoul, pp. 174-5, 185-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp.81-4; *De Expugnacione*, p.238.

وتقول مسؤولية الخزانة الملكية والأموال التي أرسلها هنرى الثانى إلى فرسان المستشفى . بل أنه نزع الفضة من سقف القبر المقدس ، ووزع السلاح على كل رجل يستطيع حمله .

وفى ٢٠ سبتمبر عسكر صلاح الدين امام المدينة وبدأ مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية ، لكن الشمس كانت فى مواجهة أعين جنوده والدفاعات قوية . وبعد خمسة أيام نقل معسكره . وللحظة قصيرة غن المدافعون أنه رفع الحصار ؛ ولكنه أقام جيشه فى صباح ٢٦ سبتمبر فوق جبل الزيتون ، وراح بعض المتسللين من جيشه تحت حماية فرسانه يزورون الألغام فى السور بالقرب من بوابة العمود ، غير بعيد من الموضع الذى اقتحم فيه المدينة جودفرى (أوف لورين) قبل ذلك بثمانية وثمانين عاما . وبحلول يوم ٢٩ سبتمبر كانت هناك فجوة كبيرة فى السور ؛ وتجمع المدافعون حولها بقدر استطاعتهم ، وحاربوا باهتياج ، لكن عددهم كان ضئيلا بحيث استحال عليهم الصمود طويلا أمام جحافل أعدائهم . وود جنود الفرنج أن يقوموا بخروج رائع ولو أدى ذلك إلى موتهم ، لكن البطريرك هيراكليوس لم يكن يفكر فى أن يصبح شهيدا ، وقال لهم إنهم إن فعلوا ذلك ، فسوف يتكون نساءهم وأطفالهم للرق المحتم ، ولن يمنح بركته لئلا هذا التصرف العارى من الورع . وأزوه باليان الذى ارتأى الحماقة فى خسارة المزيد من الأرواح . وفى ٣٠ سبتمبر ذهب هو نفسه إلى معسكر الأعداء يلتبس من صلاح الدين وضع شروطه .

#### ١١٨٧م : استسلام القدس

كانت المدينة تحت رحمة صلاح الدين الذى يستطيع قصفها وقتما يحلو له ، فضلا عن أن له بداخلها الكثير من الأصدقاء المحتملين . ذلك أن كبرياء الكنيسة اللاتينية كان دائما موضع ازدراء المسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا يؤلفون أغلب سكان المدينة الأكثر فقرا . ولم يكن هناك صدع قاطع بينهما ؛ إذ كانت العائلة الملكية والنبلاء العوام ، إلا فى انطاكية ، يظهر من مشاعر الرود والاحترام لرجال الدين الأرثوذكس . غير أن قمة الهرم كانت قاصرة على اللاتينيين . وفى مكان عبادتهم المقدس الكبير كان المسيحيون المحليون يضطرون إلى حضور الصلوات بلغة وطقوس غريبة عنهم . وكانت الذكريات ترجع بهم إلى أيام الحكام المسلمين عندما كانوا يمارسون عبادتهم كما يحلو لهم ؛ وكان المستشار الخصوصسى لصلاح الدين لشؤون الأمراء المسيحيين

علامة أرثوذكسية من القلم يدعى يوسف باتيت وقد أجرى الآن اتصالاته مع الطوائف الأرثوذكسية في المدينة ، ووعدوا بفتح البوابات لصلاح الدين .

على أنه لم تكن هناك حاجة إلى تدخلهم . ذلك أنه عندما جاء باليان أمام خيمة صلاح الدين ، أعلن صلاح الدين أنه أقسم أن يستولى على المدينة بالسيف ، ولا يملك من هذا القسم سوى الاستسلام غير المشروط . وذكر باليان بالمناخ التي ارتكبتها المسيحيون عام ١٠٩٩ م ، فهل يكون تصرفه غير ذلك؟ وتناجحت المعركة أثناء المناقشة ، وأشار صلاح الدين إلى رأيه التي ترفرف الآن على أسوار المدينة . على أنه في اللحظة التالية اندحر رجاله إلى الخلف ؛ وحذر باليان صلاح الدين أنه ما لم يحصل على شروط مشرفة فإن المدافعين عن المدينة سوف يدمرون في بأسهم قبل أن يموتوا كل شيء في المدينة بما في ذلك المباني التي يقدسها المسلمون في منطقة المعبد ، وسيقتلون الأسرى المسلمين لديهم . وكان صلاح الدين على استعداد لإظهار الكرم طالما سلطته معترف بها ، وكان يرغب في أن تعانى القدس قليلا بقدر الإمكان . فوافق على وضع شروط ، عارضا أن يقتدى المسيحيون جميعا أنفسهم بعشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودنار واحد للطفل . فأشار باليان إلى وجود عشرين ألف من الفقراء في المدينة ليس بإمكانهم أبدا دفع هذا المبلغ . فهل يقبل مبلغا اجماليا تدفعه السلطات المسيحية نظير حريتهم جميعا ؟ وكان صلاح الدين على استعداد لقبول مائة ألف دينار عن الفقراء كلهم وعددهم عشرين ألف شخص ، لكن باليان يعلم عدم إمكان جمع هذا المبلغ ، فاتفقا على تحرير سبعة آلاف شخص نظير مبلغ ثلاثين ألف دينار . وبناء على أوامر باليان ألقت الحامية سلاحها؛ ودخل صلاح الدين القدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر الذى يوافق ٢٧ رجب ، وهو ذكرى اسراء النبی إلى القدس ومعراجه إلى السماء .

#### ١١٨٧ م : اللاجئون

كان المتصرون أهل استقامة وإحسان . وحيث كان الفرنج قبل ثمانية وعشرين عاما يخوضون في دماء ضحاياهم ، لم يُنتهب الآن مبنى واحد ، ولم يُصب شخص واحد . وأوامر صلاح الدين طاف الحراس في الشوارع والأبواب للتحول دون أى اعتداء على المسيحيين . وراح كل مسيحي يجاهد ليجد المال اللازم لفراره ، وأفرغ باليان الخزائن لجمع ما وعد به وهو ثلاثين ألف دينار . وكان من العسير إجبار نوابي المستشفى والمعبد على أن يتقيا كل منهم ثروته ؛ ولم يكن الطريق وهيئة الكنيسة



يهتمون إلا بأنفسهم فقط . وشدّ المسلمون لرؤية هيراكليوس وهو يشتدّ نفسه بدنايره العشرة تاركاً المدينة ترزح تحت ثقل الذهب الذي كان يحمله معه ، تبعه العربات المحملة بالسجاجيد والصحاف . وبفضل ما تبقى من منحة هنري الثاني ، أمكن تحرير فقراء المدينة العشرين ألف ؛ وكان ممكناً تلافى الرق لآلاف كثيرة لو كان النظامان العسكريان والكنيسة أكثر كرماً . وسرعان ما توافد المسيحيون في صفين طويلين خارجين من البوابات ، أحد الصفيين يضم من دفعوا فديتهم بأنفسهم أو دفعها عنهم باليان ، والصف الآخر لغير القادرين على أن يفتدوا أنفسهم ولذا كانوا ذاهبين إلى الرق . وكان المشهد غاية في الأسى بحيث التفت العادل إلى أخيه صلاح الدين ملتصقا منحه ألفاً منهم جائزة له على خدماته ، فلبى صلاح الدين طلبه ، فأعتقهم العادل لثوه . وانسبغت أسارير البطريق هيراكليوس إذ عثر على وسيلة رخيصة لفعل الخير ، فالتمس منحه بعض العبيد ليعتقهم ، فشنّ سبعمائة ، ومنح باليان خمسمائة . ثم أعلن صلاح الدين نفسه أنه سيعتق كل رجل مسن وامرأة عجوز . وجاءته السيدات الفريسيات اللاتي افتدين أنفسهن باكيات يتسألن إلى أين يذهبن بعد أسر أو قتل آبائهن أو أزواجهن ! فوعدهن صلاح الدين بعق الأزواج ومنح الأرمامل واليتامى هبات من ماله الخاص بحسب حالة كل منهن . لقد كانت رحمته وشفقته ناصعة البياض على نحو غريب إزاء ما ارتكبه الغزاة المسيحيون في الحملة الصليبية الأولى .

وكان البعض من أمراه وجنوده أقل شفقة ؛ إذ كانت هناك حكايات عن ابتزاز بعض المسلمين لبعض المسيحيين لتحريرهم سرا بعد الاستيلاء على كل ما يملكونه . واعترف أمراء مسلمون آخرون بهروب عبيد بعد تسديد رسوم مرتقعة سرا . غير أن صلاح الدين كان يتزل أشد العقوبة في كل مرة يعلم فيها بتلك الممارسات<sup>(٣٥)</sup>.

وسار صف اللاحتين الطويل بطيئا باتجاه الساحل دون أن يتحرش به المسلمون . وكانوا يرتحلون في ثلاث قوافل ، يقود الأولى نظام فرسان المعبد ، والثانية نظام فرسان المستشفى ، والثالثة باليان والبطريق . وفي صور ، التى اكتظت بلاحتين آخرين ، لم

(٣٥) كورد ليرنول أكثر الروايات اكتمالا وأصالة، إذ كان مع باليان في القدس 174-5، 211-*Ernoul*.  
 81-99 *Estoire d'Eracles*, II, 130؛ ويرد في 241-51 *De Expugnacione*، رواية شاعده عيان  
 جرح أثناء الحصار وكان يعارض الاستسلام ؛ Beha ed-Din، pp.320-40، Abu Shama،  
 699-703. *P.P.T.S* pp.118-20، Ibn al-Athir، pp.699-703. وترد قصة يوسف باتيت في تاريخ بطارقة  
 الاسكندرية 207، *The History of the Patriarchs of Alexandria*، وهو مرجع تغطي عدواني  
 إذ يضيف المؤرخ أن المسيحيين الأرثوذكس كانوا في شدة الحزن من الاستسلام، لأنهم كانوا  
 يفضلون قتل الفرنج .

يسمح بدخول المدينة أحد سوى الرجال القادرين على القتال . وبالقرب من مدينة البطرون، هاجمهم بارون محلي - ريموند (أوف نيفين) - وسلبهم الكثير من بضائعهم . وواصلوا ارتحالهم إلى طرابلس المكثفة هي الأخرى باللاجئين ، ورفضت السلطات دخولهم لنقص الطعام وأغلقت البوابات في وجوههم . ولم يجدوا ملاذاً يأويهم قبل وصولهم إلى انطاكية . وحتى في انطاكية لم يسمح لهم طواعية بالدخول إذ كان لا حشر عسقلان أكثر حفاً . وعندما رفض قباطنة السفن التجارية الإيطاليون اصطحابهم إلى الموانئ المسيحية إلا برسوم باهظة ، منعت الحكومة المصرية السفن من الإبحار إلى أن أخذوهم بلا رسوم<sup>(٣٦)</sup>.

وبقى المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة في القدس . ومن الناحية الرسمية كان على كل فرد منهم أن يدفع الجزية إلى جانب فديته ، وقد أعفى الكثير من الطبقات الفقيرة من الدفع . واشترى الأغنياء منهم الكثير من الممتلكات التي تركها الفرنج بعد رحيلهم، وما بقي اشتراه المسلمون واليهود الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار في المدينة . وعندما وصلت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، أرسل الامبراطور إيزاك أنجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته وإعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، فلبى صلاح الدين طلبه بعد قليل من التأخير . وراح الكثير من اصداقاء صلاح الدين يمشون على تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكنه أكد لهم أن المسيحيين ييجلون الموقع وليس المبنى وأنهم لا يزالون يرغبون في الحج إلى هناك ، ولا رغبة لديه في تشييدهم عن ذلك . وفي واقع الأمر أغلقت الكنيسة لثلاثة أيام فقط ، وسمح لحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين<sup>(٣٧)</sup>.

وباستعادة صلاح الدين للقدس يكون قد أنجز أهم واجباته الدينية . ولكن هناك بعض القلاع الفرنجية التي لا يزال يتعين إخضاعها . وكانت الليدى ستيقن ، سيده من منطقة الأردن ، من بين الأسيرات اللاتي دفعن الفدية في القدس ، وكانت قد التمس من صلاح الدين إطلاق سراح ابنها همفري (أوف تيشين) ، فوافق شريطة استسلام حصنها الكبيرين الكرك والشوبك ؛ وأرسل ابنها همفري من سجنه كي ينضم إليها .

(٣٦) Ernoul, pp. 320-4; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 100-3.

(٣٧) عن مصو المسيحيين الوطنيين انظر Bar-Hebraeus, trans. Budge, pp. 326-7; وBeha ed وDin, *P.P.T.S* pp. 198-201 تبادل السفارات بين صلاح الدين والإسراطور. ويرد الإغلاق المؤقت لكنيسة القبر المقدس في Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol IX, p. 33. وعن اليهود انظر Schwab, "Al-Harizi", in *Archives de l'Orient Latin*, 1 p. 236.

لكن الحاميتين رفضتا كلتاهما الانصياع لأوامرها بالاستسلام . ولفشلها في تنفيذ شرطها أعادت ابنها إلى الأسر ثانية ؛ وهو تصرف أدخل السرور على قلب صلاح الدين ، فأعنت همفري بعد ذلك بأشهر قليلة . وفي تلك الأثناء ضرب العادل والجيش المصري الحصار حول الكرك . واستمر الحصار ما يربو على سنة كاملة ؛ ولشهور كثيرة أشرف المدافعون على التصور جوعاً ، وأخرجوا نساءهم وأولادهم لإعالة أنفسهم بأنفسهم ، بل انهم باعوا في حقيقة الأمر البعض منهم للبدو نظير الحصول على الطعام . ولم تستسلم القلعة إلا في نهاية عام ١١٨٨ م ، عندما أكلت الحامية آخر حصان فيها . وصمدت الشربك بضعة أشهر بعدها إذ لم يكن الحصار يحكمها كسابقتها<sup>(٣٨)</sup>.

#### ١١٨٧ م : دبلوماسية رينالد أمير صيدا

وفي الشمال استسلم فرسان المعبد في قلعة صفد يوم ٦ ديسمبر ١١٨٨ م بعد شهر من القصف الشديد ، وبعد ذلك حذا فرسان المستشفى حذوهم في قلعة كوكب ، الواقعة في مكان مرتفع من وادي الأردن . وكانت قلعة هورين قد احتلت قبل ذلك . أما شقيف أرنون الذي لجأ إليه رينالد أمير صيدا ، فقد أنقذ بفضل دبلوماسيته . إذ كان رينالد رجلاً متعلماً ، شغوفاً بالأدب العربي ، فحاء إلى خيمة صلاح الدين معترفاً بأنه على استعداد لتسليم حصنه والتقاعد في دمشق إذا منح ثلاثة أشهر يتدبر فيها شؤونه ؛ بل إنه أُلح إلى أنه قد يعتنق الإسلام . وكان أسلوبه في المناقشة فائتاً حتى أن صلاح الدين اقتنع بحسن نواياه ، لا لشئ سوى أن يكتشف بعد فوات الأوان أن الهدنة التي منحها له استغلها في تعزيز دفاعات الحصن . وفي ذات الوقت كان صلاح الدين قد انتقل إلى منطقة طرابلس واتطاكى<sup>(٣٩)</sup>.

كان ريموند أمير طرابلس ، بعد فراره من حطين مباشرة ، قد مات في نهاية عام ١١٨٧ م تقريباً متأثراً بمرض ذات الجنب<sup>(٤٠)</sup>، رغم الظن بأن مرضه يرجع إلى الإكثار

(٣٨) . Ernoul, p.187; *Eistoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, p. 382; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.139, 143.

(٣٩) . Beha ed-Din, P.P.T.S pp.122-3, 138-41, 142-3. حذابا . Abu Shama, pp.395-400; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 191.

(٤٠) (المزحم): التهاب الغشاء الفيوري المحيط بالرفتين ، ويتصف بصعوبة وآلام التنفس ، غالباً ما يصحبه ارتشاح سائل في فراغ الصدر.

(الملائخوليا) والعار ؛ وقد اعتبره كثيرون من معاصريه خائنا ساهمت أنانيته في دمار المملكة ؛ لكن المؤرخ ولیم الصوري وباليان ايلين كانا من أصدقائه ودافع عنه كلاهما. لقد كانت مآساته الحقيقية هي مآسة كل المستعمرين الفرنج من الجيلين الثاني والثالث الذين كانوا على استعداد ، بنزوعهم الطبيعي ومن منطلق السياسة ، لأن يصبحوا حزرا من العالم الشرقي ، لكن تعصب أبناء عمومته من الواقدين الجدد من الغرب أجبرهم على التحزب ، ولم يكن يسعهم في نهاية الأمر إلا أن يتحزبوا لرفاقهم المسيحيين . ولم يترك ذرية ، ولذا أوصى بتوريث كونتيته لابنه الروحي ريموند ، ابن أقرب أقربائه المذكور يوهنود أمير انطاكية ، لكنه اشترط أنه في حالة بغي أحد من أفراد آل تولوز إلى الشرق تكون الكونتية من نصيبه . وقبل يوهنود الميراث لابنه ، ثم استعوضه لأخيه الأصغر ، يوهنود ، خشية أن تصبح انطاكية وطرابلس معا تحت إمرة رجل واحد لا يستطيع الدفاع عنهما<sup>(٤١)</sup>.

يبد أنه سرعان ما أصبح هناك القليل من الميراث ؛ ففي أول يولية ١١٨٨ م زحف صلاح الدين مخزقا البقاع ، مارا بقلعة فرسان المستشفى في الكرك التي ظن أنها شديدة القوة بحيث لا يقدر على مهاجمتها ، وبم وجهه شطر طرابلس ؛ لكن وصول اسطول ملك صقلية إليها صرفه عن مهاجمتها، وتحول شمالا . وقصف مدينة طرطوس ، لكن قلعة فرسان المعبد صمدت له . فتابع زحفه أسفل أسوار مرقب حيث حاول فرسان المستشفى التصدي له أثناء مروره . واستسلمت جبيل يوم الجمعة ١٥ يولية واللاذقية يوم ٢٢ من الشهر ؛ وكانت اللاذقية مدينة جميلة ، يرجع تاريخ كنائسها وقصورها إلى العصور البيزنطية ، وبكى المؤرخ المسلم عماد الدين لرؤيتها منهوبة غربة. ومن اللاذقية تحول صلاح الدين إلى داخل البلاد نحو صهيون ، حيث كان يعتقد أن قلعة فرسان المستشفى لا تقهر ؛ غير أنه بعد أيام قلائل من القتال العنيف استولى عليها بهجوم عام يوم الجمعة ٢٩ يولية . وفي يوم الجمعة ١٢ اغسطس استسلمت حامية قلعة بكاس الشجر ، وكانت ذات حماية جيدة رغم وجود الحصن بموار محدود هائل وبجاري كبيرة من أثر المياه ؛ وجاء استسلامها لعدم وجود مساعدة آتية من انطاكية . وفي يوم الجمعة ١٩ سقطت مدينة سرمين . وبعد أيام قلائل ، استسلمت

(٤١) يرد موت ريموند بنون تاريخ عهد في *Estoire d'Eracles*, p.72، حيث ترد ترميمات الاستسلام، وأوردتها أيضا عماد الدين (في أبي شامة p.284) وبهاء الدين. P.P.T.S.p.114. ويقول الكتاب العرب إنه مات بمرض ذات الحلب . وعن تصرفه في حطين انظر أدناه ، المرفق الثاني . ويقول Benedict of Peterborough إنه وجد ميتا في فراشه (p. 21, ii).

قلعة برزية الواقعة في أقصى جنوب وادي العاصي . وكان قائدها زوجا لأخت المخير السري لصالح الدين وهي أميرة من أنطاكية ومنع حريته هو وزوجته . وفي ١٦ سبتمبر استسلمت قلعة فرسان المعبد في درب ساك الواقعة في جبال الأمانوس ، وفي يوم ٢٦ سقطت قلعة بجراس التي تسيطر على الطريق من أنطاكية إلى كيليكيا<sup>(١٢)</sup> . بيد أن جيش صلاح الدين بات مرهقا الآن ، ورغب جنود مستحار في الذهاب إلى أوطانهم . ولذا ، وعندما توصل الأمير بوهمند لعقد هدنة تعترف بكل فتوحات المسلمين، منحها له صلاح الدين . وظن أن بإمكانه أن يفرغ من مهمته وقتما يحب . وكان كل ما تبقى لبوهمند وأولاده عاصمته أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية، بينما احتفظ فرسان المستشفى بحصني المرقب والكرك، وفرسان المعبد بطرطوس<sup>(١٣)</sup> .

#### ١١٨٧م : الدفاع عن صور

على أنه كانت في الجنوب مدينة لم تسقط بعد لصالح الدين ، وهنا ارتكب خطأه الكبير . ذلك أن بارونات فلسطين اللاجئين احتشدوا الآن في صور ، أقوى مدن الساحل ، التي لم يكن يصلها بالبلاد سوى شبه جزيرة ضيقة وعلمية بنى غيرها سور ضخيم . ولو أن صلاح الدين عجل بهجومه على صور حالما استولى على شكا ، لما أوقفه شيء حتى هذا السور ؛ لكنه تأخر إلى ما بعد فوات الأوان . وكان رينالد أمير صيدا ، الذي كان وقتئذ يسيطر على المدينة ، يتفاوض من أجل التسليم ، بل إن صلاح الدين أرسل رابطين من راياته ليرتقعا فوق القلعة ، لولا أن حدث يوم ١٤ يولية - بعد حطين بعشرة أيام - أن دخلت سفينة إلى الميناء . وكان على ظهرها كونراد ، ابن مركز موتفسرات المسن وشقيق الزوج الأول للملكة سيبلا . وكانت معيشته في القسطنطينية ، وكان متورطا في جريمة قتل هناك ، ولذا أبحر سرا مع مجموعة من فرسان الفرنج للحج في الأماكن المقدسة . وكان خالي الذهب عن الكوارث التي حلت بفلسطين ، فاقه إلى عكا . وعندما وصلت الباخرة خارج ميناء الميناء اندهش القبطان لعدم سماعه صوت الجرس الذي كان عادة يذق عند رؤية سفينة . وحدثته نفسه بأن

(١٢) -Ernoul, pp.252-3; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, pp. 356-76; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.125-38; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 187-90; Ibn al-Athir, pp.726-727.

(١٣) -9: ويقتس أبو شامة 2-361 pp وصف عماد الدين للأذنة وتقرئها .  
Ibn al-Athir, pp.732-3; Beha ed-Din, P.P.T.S p.137. كان من المقرر ان تستمر الهدنة سبعة أشهر .

هناك شيئا غير طبيعي ولذا لم يدخل إلى المرسى . وسرعان ما جاءت بحفاضة سفينته مركب شراعى يسارية واحدة وعليها مسؤول الميناء المسلم : فتظاهر كونراد بأن السفينة سفينة تجارية وسأل ماذا هناك ، واجابه المسؤول بأن صلاح الدين استولى على المدينة قبل أربعة أيام . وتسبب الرعب الذى تملكه فى اثاره الرية لدى المسؤول المسلم؛ ولكن كونراد تمكن ، قبل أن يطلق المسؤول سبل الإنذار ، من الإسراع بالإبحار إلى صور ، حيث لقي ترحيبا باعتباره المحلل وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المدينة . والغيت شروط صلاح الدين للسلام والتي برأيه فى الخندق المائى . وكان كونراد عقيبا ، قاسيا ، شجاعا ؛ رأى أن المدينة تستطيع الصمود إلى أن تأتي المساعدة من الغرب ، وكان على ثقة من أن أحيار سقوط القدس سوف يجعل المساعدة تأتي لا محالة . وعندما ظهر صلاح الدين امام صور بعد أيام قليلة ، كانت قوة دفاعاتها تفوق قوته ، فأحضر مركز مؤنترات من دمشق ، وأظهره امام الأسوار مهددا بقتله إن لم تستسلم له المدينة؛ غير أن ووع البتة لدى كونراد لم يكن قويا . «يا كفى لكى عيل عن واجبه كمحارب مسيحي ؛ فلم يحرك ساكنا ، وبالطية المعتادة أبقي صلاح الدين على حياة الرجل العجوز . ورفع الحصار ليتجه إلى عسقلان . وعندما ظهر مرة أخرى امام صور فى نوفمبر ١١٨٧م وحدها قد عززت من تحصيناتها ، ووصلتها بعض التعزيزات البحرية والعسكرية ، وحال الشريط الأرضى الضيق دون أن يستخدم رجاله ومنحيقاته . وجاء بعشر سفن اسلامية من عكا ؛ لكن المسيحيين استولوا على خمس منها يوم ٢٩ ديسمبر ، واندحر هجوم متزامن على الأسوار . وفى مجلس حرب أنصت صلاح الدين لأمراته الذين أشاروا إلى أن الجنود فى حاجة إلى الراحة ؛ وكان الشتاء مطيرا وباردا ، وظهرت الأمراض فى المعسكر . وفى أول أيام العام الجديد ١١٨٨م أمر صلاح الدين بتسريح نصف جيشه وانسحب للاستيلاء على الحصون فى داخل البلاد . وأتقذت المدينة بفضل حيوية كونراد وثقته ، وأتقذ معها بقاء المملكة المسيحية<sup>(٤٤)</sup>.

#### ١١٨٧م : تشريف صلاح الدين

وفيما بعد أسف صلاح الدين أسفا مريرا على قتله فى الاستيلاء على صور . غير أن ما أجزه كان هائلا بلا أدنى ريب . وسواء جاءت انتصاراته نتيجة لاستجابة

(٤٤) Ernoul, pp. 179-83; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 74-8, 104-10; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp. 18-19; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 120-2; Ibn al-Athir, pp. 694-6, 707-12.

الإسلام الحتمية لتحدي الفرنج الدخلاء ، أو نتيجة لسياسة أسلافه العظام ذوي البصيرة النافذة ، أو نتيجة لنزاعات ومحاولات الفرنج أنفسهم ، أو نجت من شخصيته هو نفسه ، فقد جاء بالبيّة التي تدل على قوة الشرق وروحه . وفي قرنى حطين ، وعلى موابات القدس ، انتقم لإهانة الحملة الصليبية الأولى ، وأظهر كيف يحتفل الشريف بانتصاره .

---

## المرفقات:

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني

المرفق الثاني: معركة حطين

المرفق الثالث: شجرات الأنساب





## المرفق الأول

المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني

١١٠٠-١١٨٧ م

### ١- المصادر اليونانية

لا تتناول المصادر اليونانية اللاتينيين في الشرق إلا عند وجود اتصال مباشر مع بيزنطة . وحتى عام ١١١٨ م ، يظل التاريخ المسمى أليكسياد Alexiad الذي كتبه أنا كومنينيا Anna Comnena أهم المصادر اليونانية ، برغم وجود نوع من الإضطراب فيما كتبه من تتابع أحداث الشؤون الفرجية<sup>(١)</sup> . وفيما يتصل بمهدي جون ومانويل كومنينوس ، يعتبر تاريخي جون سيناموس John Cinnamus ونيكاس أكوميناتوس ، أو خونياتيس Nicetas Acominatus, or Choniates المصدرين الأساسيين . إذ كان الأول كاتب سر الامبراطور مانويل كومنينوس وكتب تاريخه بعد موت مانويل مباشرة . ويفتقر تاريخ عهد الامبراطور جون إلى المهارة ؛ غير أنه يتناول تاريخ مانويل نفسه بعناية ويعتبر جديراً بالثقة . وبعض النظر عن بعض التحيزات الوطنية الطفيفة ، فهو مؤرخ ذو رصانة ، يمكن الإعتماد عليه<sup>(٢)</sup> . أما نيكاس Nicetas ، فكتب تاريخه في هكورة القرن الثالث عشر ، ويغطي الفترة من عهد الامبراطور جون إلى ما بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية . وتاريخه مستقل تماماً عن تاريخ سيناموس Cinnamus ويدعا من النصف الأخير من حكم مانويل قُدماً ، يصف الأحداث التي

(١) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر .

(٢) نشر في مجموعة Bonn Corpus .

يعرفها معرفة شخصية، وعلى الرغم من الأسلوب البلاغي السائد والميل إلى الأعلاليات، فإنه تاريخ دقيق يمكن الإعتماد عليه<sup>(٣)</sup>. ولا يوجد مصدر يوناني آخر له أهمية رئيسية<sup>(٤)</sup>، فيما عدا رواية مثيرة وإن كانت غامضة حول رحلة حج قام بها إلى فلسطين عام ١١٧٨م من يدعى جون فوكاس<sup>(٥)</sup> John Phocas.

## ٢- المصادر اللاتينية

أهم مصادرها للتاريخ المبكر للدريلات الصليبية هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، وبصورة ملحوظة فولشر أوف تشارترز Fulcher of Chartres وألبرت أوف آيكس Albert of Aix، وبدرجة أقل رادولف أوف كاين Radulph of Caen، وإيكا أوف أوربا Ekkehard of Aura وكافارو Caffaro وقد ناقشت تلك المصادر في الجزء الأول من هذا التاريخ. ويتعين إضافة أنه بالنسبة للفترة ١١٠٠ إلى ١١١٩م، وعندما تصل إلى نهايتها يمكن أن يعتبر تاريخ ألبرت المصدر الذي يعتمد عليه بصورة شاملة. وليس معروفًا مصدر حصوله على المعلومات، بيد أنه يحاطقته على المصادر السورية فإنها تؤيده.

ويغطي التاريخ الأنطاكي للفترة ١١١٥م إلى ١١٢٢م عمل قصير يسمى De Bello Antiochene كتبه المستشار وولتر Walter the Chancellor، الذي ربما كان مستشارًا للأمير روجر. وهو عمل يتصف بالأصالة وزاخر بالمعلومات المفيدة حول تاريخ مؤسسات انطاكية آنذاك<sup>(٦)</sup>.

ومن عام ١١٢٧م، عندما ينهي فولشر عمله، وحتى العقد الأخير السابق على استيلاء صلاح الدين على القدس، فإن مصادرها الهام الوحيد هو تاريخ وليام الصوري William of Tyre's Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum.

(٣) نشر في مجموعة Bonn Corpus.

(٤) لا يزال زوناراس Zonaras مفيدًا للسنوات الأولى من القرن. انظر الجزء الأول، مرفق المصادر. وما كتبه Manasses من تاريخ منظوم لا يقدم سوى مادة ضئيلة قليلة الأهمية (نشر في مجموعة Bonn Corpus) ونشرت القصائد ذات الصلة التي كتبها برودروموس Prodromus في (مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية، Recueil des Historiens des Croisades).

(٥) Translated in the Palestine Pilgrims' Text Society, vol. v.

(٦) نشر في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية، Recueil.

الذي يغطي الفترة من ١٠٩٥م إلى ١١٨٤م<sup>(٧)</sup>. وقد ولد وليم في الشرق بعد عام ١١٣٠م بفترة قصيرة. وربما تعلم اللغة العربية واليونانية في طفولته، ثم ذهب إلى فرنسا لإتمام دراسته. وبعد عودته إلى فلسطين مباشرة أصبح رئيس شمامسة صور ومستشارا للمملكة من ١١٧٠م إلى ١١٧٤م. كما كان معلما للبدوين الرابع في صفه. وفي عام ١١٧٥م أصبح رئيس اساقفة صور، وفي عام ١١٨٣م، وبعد فشله في الحفاظ على البطريركية، تقاعد في روما حيث مات قبل عام ١١٨٧م. وبدأ كتابة تاريخه عام ١١٦٩م، وأنهى الكتب الثلاثة عشر الأولى بحلول عام ١١٧٣م. وقد اخذ معه العمل كله إلى روما وكان ما يزال يعمل فيه وقت موته واعتمد وليم في روايته عن الحملة الصليبية الأولى اعتمادا رئيسيا على ألبرت Albert، وبدرجة أقل على ريموند اوف اجيلير Raymond of Aguilers وعلى نسخة Baudri من Gesta، وعلى فولشر Fulcher من عام ١١٠٠م إلى عام ١١٢٧م، وفولشر مصدره الرئيسي، رغم أنه استعان ايضا بالمستشار وولتر. وإضافاته الوحيدة اليهم حكايات شخصية حول الملوك ومعلومات عن الكنائس الشرقية وعن صور. وخلال الفترة من ١١٢٧م وحتى عودته إلى الشرق كان يعتمد على محفوظات المملكة وعلى هيكل تاريخي للملوك، مفقود الآن. وترتبط على ذلك فإن معلوماته عن شمال سوريا لا يعول عليها. ومن ستينات القرن الثاني عشر قُدِّمَ كانت لديه معرفة وثيقة ومتبصرة عما كان يصفه من أحداث وشخصيات فاعلة. ويغلب الاضطراب على تواريقه وأحيانا يتوفر البرهان على أنها خاطئة. وربما يرجع ذلك إلى أنها أضيفت إلى مخطوطاته عن طريق ناسخ لمخطوطاته في وقت مبكر. ويعتبر وليم واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى. وكانت له تعاملاته، مثل كراهيته للسيطرة العلمانية على الكنيسة، غير أنه معتدل في كلماته إزاء أعدائه هو شخصيا، مثل البطريرق هيراكليوس، وأجنس اوف كورتناي، وكانسا كلاهما يستحقان ملامته. وكان يرتكب الأخطاء حيثما تكون معلوماته غير كاملة. بيد أنه كان ذا بصيرة نافذة؛ إذ وعى مغزى الأحداث العظام التي حدثت في عصره، وتعاقب المسببات والنتائج في التاريخ. وأسلوبه مباشر ولا يخلو من حفة الظل. ويترك عمله الانطباع بأنه كان هو نفسه حكيما، شريفا، محبوبا. ولسوء الحظ، فقد عمله الآخر - تاريخ الشرق - History of the East الذي اعتمد فيه اساسا على التاريخ العربي

(٧) نشر في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil انظر الجزء الأول، مرفق المصادر. وعن تأريخ زليم انظر Steven في مؤلفه Crusaders in the East, pp. 361-71، وهو عمل موثق ويشتمل على مناقشة كاملة.

الذي كتبه سعيد بن البطريق ، رغم اعتماد مؤرخي القرن الثالث عليه ، من مثل حاك أوف فيتري. Jacques of Vitry .

ولتاريخ ولیم الصوري استطراد Continuation لاتيني كُتب في الغرب عام ١١٩٤ ، بإضافات لاحقة<sup>(٨)</sup> ، وهو عمل يتصف بالرصانة والموضوعية ، وربما استند إلى عمل مفقود يعتبر أيضا أساسا للكتاب الأول من خط سير الملك ريتشارد Itinerarium Regis Ricardi ، الذي يغطي السنوات من ١١٨٤م إلى الحملة الصليبية الثالثة<sup>(٩)</sup> . ومن المشاكل الجسيمة مداومة الكتابة باللغة الفرنسية القديمة ؛ وقد حدث في نحو منتصف القرن الثالث عشر أن ترجم أحد أتباع الملك الفرنسي تاريخ ولیم ، فشرح بعض النصوص وأدخل تعليقات مشكوك في قيمتها ، وأضاف إلى ذلك التاريخ إضافات تاريخية امتدت لفترة طويلة في القرن الثالث عشر . ومن كلماته الانتاحية ، يعرف هذا العمل عادة بأنه تاريخ هرقل Estoire d'Eracles وفي نفس الوقت تقريبا ظهر في الشرق لمن يدعى برنارد الخازن Bernard the Treasurer استطرادا لعام ١١٢٩م تمزى إلى إرنول Ernoul الذي كان متبوعا للبلدوين أوف إيبيلين . وترتبط هاتان الترجمتان ارتباطا وثيقا ، وهما موجودتان في عدد كبير من المخطوطات التي تضم ، مع ذلك ، اختلافات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات للفترة من ١١٨٤م إلى ١١٩٨م . ولا يمكن الحكم على أي من المجموعات الثلاث بأنها المخطوطة الأصلية ، إذ أن كل مجموعة تضم أحداثا غير موجودة في أي من الأخرتين . وأكثر الحلول احتمالا هو أنها كلها تعتمد على عمل مفقود كتبه إرنول نفسه عن هذه الفترة . وبقينا كتب إرنول أصلا أحداث يوم أول مايو ١١٨٧م ، وهي واردة فيما كتبه برنارد عن إرنول ؛ وتظهر المجموعة كلها اهتماما بآل إيبيلين وتشتمل على الكثير مما وصفه شهود العيان مما يتلاءم مع أصالة أحد أفراد آل إيبيلين . وعلى الجملة تعتبر تلك الاستطرادات مصادر يعتمد عليها برغم كونها غير موضوعية . ويبدو أن إرنول كان يسجل بعناية بقدر ما يسمح به تحيزه لصالح آل إيبيلين . ويأتي الترتيب التاريخي لل فقرات الأولى عشوائيا ؛ ويبدو أنها تتألف من ملاحظات وذكريات غير متصلة ببعضها البعض<sup>(١٠)</sup> .

(٨) نشره M. Salloch .

(٩) نشر خط سير الملك ريتشارد Itinerarium في سلسلة Rolls التي يحررها Stubbs .

(١٠) يرد نشر Estoire d'Eracles في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil ونشر Ernoul عن طريق Mas Latrie والإطلاع على مناقشة المشكلة برمتها انظر مقدمة Mas Latrie لإرنول وكنهن La Syrie du Nord, pp.21-4.

كما يرد وصف موجز لفتح صلاح الدين لفلسطين في Libellus de Expugnacione Terrae Sanctae Saladinum ، ويعزى أحيانا إلى رالف أوف كوجشال Ralph of Coggeshall ويكاد يكون من اليقين إن الذي كتبه رجل إنجليزي بعد سنوات قليلة من الحادثة التي يصفها . ويظهر الكاتب إعجابا بالنظامين العسكريين ، وخاصة نظام المعبد ، وقد سكت بمهارة عن سيئاته ، لكنه أظهر في الوقت ذاته مودته لريموند أمير طرابلس . ويخرج رواية لأحد شهود العيان في حصار القدس قائلا هي نفسها جندى جرح هناك<sup>(١١)</sup>.

وهناك تواريخ متأخرة عن المملكة تضيف معلومات أخرى ، وخاصة Historia Regni Hierosolymitani ، وهو استطراد لكافارو Caffaro ، وحوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte ، وموجز للتاريخ المسمى Historia Hierosolymitanorum<sup>(١٢)</sup> وترد معالجة كاملة للحملة الصليبية الثانية فيما كتبه أودو أوف دويل Odo of Deuil في Orientum of Odo of Deuil profectione in Orientum ، وهي رواية حية ومتحملة للغاية لأحد المشاركين في رحلة لويس وصل فيها حتى أضايا ، وترد بإيجاز أكثر في Gesta Friderici التي كتبها Otto of Freising وكان هو نفسه مشترك في الرحلة أيضا ؛ وحياتة لويس السابع التي كتبها سوجر<sup>(١٣)</sup> Life of Louis VII by Suger وأما قصيدة أمبرواز Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte ، وكذلك خط سير الملك ريتشارد Ricardus Itinerarium Regis Ricardi ، وبرغم معالجتهما للحملة الصليبية الثالثة ، فلا تعرضان سوى معلومات استعادية<sup>(١٤)</sup>.

ويورد مؤرخون غربيون كثيرون فقرات تتصل بالشرق اللاتيني ، مثل الإنجليزي William of Malmesbury و Benedict of Peterborough ، وكذلك المهتمون بالحملة الصليبية الثالثة ؛ والفرنسي Sigebert of Gembloux ومكملوه، و Robert of Torigny

(١١) نشرها J. Stevenson في سلسلة Rolls .

(١٢) نشرت في M.G.H.Ss في Historia Regni Hier. ونشرت Annales de la Terre Sainte عن طريق Rohricht في Archives de l'Orient Latin وفي Kohler في Historia Regum .

(١٣) Odo, or Eudes, Of Deuil's book has recently been edited by Waquet, and Otto of Freising's Gesta by Hofmeister in M.G.H.Ss., new series سوجر Suger

(١٤) نشر Ambroise عن طريق G. Paris وتوجد ترجمة إنجليزية بملاحظات مفيدة قام بها Hubert and La Monte.

والإيطاليان Romuald and Sicard of Cremona وغيرهم<sup>(١٥)</sup>. ويعتبر Norman Orderic Vitalis، أهمهم إذ أن تاريخه الذي ينتهي عام ١١٣٨ م زاهر بالمعلومات المتصلة بالشرق الغربي Outremer، ولا سيما ما يتصل بشمال سوريا، ويحتمل أن كان له أصدقاء أو أقارب بين نورماندي أنطاكية. ويتضح أن الكثير من القصص التي رواها ليست سوى أساطير، ولكن الكثير من المادة التي كتبها مقنعة ولا توجد في أماكن أخرى<sup>(١٦)</sup>.

وفيما يتصل بالرسائل المعاصرة ذات الصلة، فإن أهم مجموعة رسائل هي الواردة في المراسلات البابوية. والمراسلة بين لويس السابع وكونراد الثالث تلقى الضوء على الحملة الصليبية الثانية<sup>(١٧)</sup> وبقيت من الضياع رسائل قليلة كتبها لاتينيون بارزون في الشرق<sup>(١٨)</sup> وبقيت من الضياع محفوظات ثلاث منشآت كنسية في الشرق، وهي محفوظات كنيسة القبر المقدس، و محفوظات دير القديسة ماري جوزافات Saint Mary Josaphat و محفوظات دير القديس لازاروس Saint Lazarus وتكاد محفوظات نظام فرسان المستشفى أن تكون كاملة، ولكن محفوظات نظام فرسان المعبد فلا تعرف إلا بمراجع نادرة وغير مباشرة. كما يوجد عدد معين من السجلات العلمانية التي تتناول نقل الأرض في الدويلات الفرنجية<sup>(١٩)</sup>، وتعطي المخطوطات البابوية بعض المعلومات الإضافية؛ وأما المعلومات المتصلة بالشؤون التجارية فيمكن استخلاصها من محفوظات بيزا والبندقية وجنوا<sup>(٢٠)</sup>. وأما قوانين القدس Assises، التي كتبت فيما بعد، فتتضمن قوانين assises محددة يرجع تاريخها ابتداء من القرن الثاني عشر<sup>(٢١)</sup>.

(١٥) للإطلاع على ما نشره هؤلاء المؤرخون، انظر قائمة المصادر والمراجع.

(١٦) لا تزال أفضل طبعة لتاريخ Orderic هي طبعة Le Prévost.

(١٧) نشرت في R.H.F. and in *Wibaldt Epistolae* (Jaffé, *Bibliotheca*), respectively.

(١٨) أغلبها نشر في R.H.F. ويوجد غيرها في شتى التواريخ.

(١٩) انظر قائمة المصادر والمراجع عن السجلات *Cartulaires* وأغلبها مختصر في Rohricht's *Regesta*.

(٢٠) ترد الرسائل البابوية في M.P.L. ولم تُنشر المخطوطات الإيطالية كاملة. ولورد Cahen، موجزاً لما صدر منها 3-4 pp. *op. cit.*

(٢١) نُشرت القوانين *Assises* في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية *the Recueil* للإطلاع على مناقشتها انظر La Monte، في مؤلفه *Feudal Monarchy*, pp.97-100، و Grandclaudé، *op. cit.* في أماكن متفرقة.

ومن السجلات المثيرة للإهتمام ما تركه مسافران سافرا إلى فلسطين خلال القرن الثاني عشر ، هما Saewulf ، الذي ربما كان انجليزيا وزار البلد عام ١١٠١ م ، والألماني John of Wurzburg ، الذي زار البلد حوالي ١١٧٥ م<sup>(٢٢)</sup>.

### ٣- المصادر العربية

بتقدم القرن الثاني عشر أخذ عدد المصادر العربية المعاصرة في التزايد . وبالنسبة للجزء الأول من القرن نعتمد على ابن القلايس Ibn al-Qalanisi في الشؤون الدمشقية، وعلى العظمي al-Azimi فيما يتصل بشمال سوريا، وعلى التاريخ الذي يبدو مشوشا شيئا ما الذي كتبه ابن الأزرقي<sup>(٢٣)</sup> Ibn al-Azraq فيما يتعلق بالجزيرة بخلاف ما ورد من استشهاد من تواريخ مفقودة اقتبسها مؤرخون متأخرون . ومع ذلك ، لدينا المذكرات القيمة التي كتبها أسامة ابن منقذ<sup>(٢٤)</sup> Usama ibn Munqidh وكان أسامة من امراء شيزر، وقد ولد عام ١٠٩٥ م. وبعد ثلاثين سنة ، نفى نتيجة لمكائد عائلية ، وأمضى مابقى من عمره الذي بلغ ثلاثا وتسعين سنة في دمشق أساسا ، مع فترات إقامة في مصر وديار بكر . وبرغم كونه من مدبري المكائد المشاهير ، وكان الولاء الشخصي بالنسبة له لا يعني شيئا ، فقد كان رجلا ذل فتنه ساحرة وذكاء ، وكان جنديا ، مولعا بالألعاب الرياضية، وأديبا . وليس في مذكراته التي تسمى الإعتبار Instruction by Examples، ترتيب تاريخي ، وقد جمعها شيخ مسن دون تحقيق ، لكنها تعطي صورة حية غير عادية للحياة فيما بين الأرستقراطية العربية والفريحية في عصره. وتضارعهما حيوية رحلات ابن جبير الأندلسي Spaniard Ibn Jubayr ، وقد مر ابن جبير في مملكة القدس عام ١١٨١ م<sup>(٢٥)</sup>.

(٢٢) نشرت وترجمت إلى الإنجليزية في P.P.T.S. vols.IV AND V.

(٢٣) لم ينشر كاملا . والإقتباسات ذات الصلة حلها Cahen في Journal Asiatique, 1935.

(٢٤) بالنسبة لأسامة ، أستخدمنا ترجمة فيليب حتي Hiiti بعنوان An Arab-Syrian Gentleman التي تستند إلى دراسة معتنية بالنص الأصلي بصورة أكثر من نص Derenbourg ، الذي نشر عام ١٨٩٥ . والترجمة الإنجليزية التي ترجمها Potter تستند إلى نص Derenbourg.

(٢٥) نشر Wright النص الكامل لابن جبير منذ قرابة مائة عام في Leyden. وينرى نشر ترجمة إلى الفرنسية يقوم بها Gaudefroy-Demonbynes ، وسوف تصدر قريبا ترجمة Broadhurst إلى اللغة الإنجليزية. ويرد في Recueil بعض الإقتباسات.



أما سيرة حياة صلاح الدين فقد ألهمت جمعا غفيرا من الكتاب ، أهمهم عماد الدين الأصفهاني<sup>(٢٦)</sup> Imad ed-Din of Isfahan ، وبهاء الدين بن شداد<sup>(٢٧)</sup> Beha ed Din ibn Shedad ، والمؤرخ المجهول الذي كتب (البستان)<sup>(٢٨)</sup> the General Garden of all the Histories of the Ages وكان عماد الدين يعمل موظفا سلجوقيا في العراق ، والتحق بخدمة نورالدين ، ثم أصبح كاتب سر صلاح الدين من عام ١١٧٣م قُدُما . وكتب عددا من الأعمال ، بما فيها تاريخ السلاجقة وروى حروب صلاح الدين . وهذه الأخيرة تكاد تكون برمتها مستسخة عند أبي شامة ، وتعد أكثر المصادر ثقة حول ترجمة صلاح الدين . وأسلوبه مزعج على نحو غريب ومعقد ولا يخلو من صعوبة . كما كان بهاء الدين من حاشية صلاح الدين منذ عام ١١٨٨م . وأما ما كتبه عن حياة صلاح الدين ، فيأتي في أسلوب بسيط ودقيق ، يعتمد أساسا على السماع وبعض ذكريات صلاح الدين نفسه حتى ذلك التاريخ . ومنذ آنذاك ، اتصف بالدقة التي يتصف بها عماد الدين . وقد كتب البستان في حلب في ١١٩٦/١١٩٧م ، وهو على نحو ما تاريخ أجوف وموجز للإسلام ، يتناول أساسا حلب ومصر ، لكنه يضم معلومات لا توجد إلا في فيما كتبه ابن أبي طي من تاريخ لاحق أكثر اكتمالا . وربما اعتمد كلاهما على مصدر شيخي مفقود . وأما المؤرخان الآخران الفاضل الشيباني وابن النعمان ، فليسا معروفين إلا من الإقتباسات<sup>(٢٩)</sup> .

ويعتبر ابن الأثير الموصلی ، المولود في ١١٦٠م والمتوفي في ١٢٣٣م ، أعظم كتاب التاريخ في القرن الثالث عشر . ومؤلفه "كامل التواريخ" عبارة عن تاريخ العالم الإسلامي ، دأب فيه على توخي العناية في اختيار ما يعد حساسا من الكتاب السابقين عليه والمعاصرين له . وبالنسبة للحملة الصليبية الأولى وبداية القرن الثاني عشر ، تعتبر مقدماته مقتضبة نوعا ما . وبالنسبة لنهاية القرن يستند أساسا على مؤرخين كانوا في حاشية صلاح الدين ، رغم ما يضيفه من ذكريات شخصية قليلة . وبالنسبة لمنتصف القرن ، الذي لم يكتب فيه مؤرخ إسلامي على قدر من الأهمية ، يبدو أنه استخدم

(٢٦) للإطلاع على أعمال عماد الدين انظر 2-50، Cahen, *La Syrie du Nord*، وورد أبو شامة Abu Shama (أنظر أدناه ص ٤٨٢) ، اقتباسات طويلة من أعماله .

(٢٧) نشر النص العربي عن طريق Schultens, and in *Recueil* وأنا أثير في الخواشي المذكورة أعلاه إل النص المنشور في P.P.T.S. والذي جمع من علاقة مختلطة من النشريات .

(٢٨) نشره Cahen في *Bulletin de l'Institut Oriental à Damas* .

(٢٩) أنظر 4-52، Cahen, *La Syrie du Nord* .

مادة أصيلة . ولا يتخلو تاريخه من عيوب ؛ فهو لا يسمى مصادره وغالبا ما يغير الروايات لكي تتناسب خاصة مع تميزه لزنكي . بيد أنه - كشأن ولیم الصوري - بعد مؤرخا حقيقيا حاول ان يفهم المغزى الواسع للأحداث التي يصفها . ولما عمله الثاني "تاريخ اتانجة الموصل" فيعتبر من الكتابات ذات المستوى المنخفض ، وتتصف نوعا ما بالتقريب الحالى من النقد ، والتي مع ذلك تشتمل على بعض المعلومات التي لا توجد في غيره<sup>(٣٠)</sup> .

أما كتاب كنوز الذهب لابن أبي طي الحلي Mines of Gold of Ibn abi Tayyi of Aleppo ، وهو وحده أعظم مؤرخي الشيعة ، والمولود في ١١٨٠ م ، فلا نعرفه إلا من غزارة استخدم مؤرخي السنة لإعماله ، وكانوا مدركين لهذه الحقيقة . ومن الواضح أنه عمل يتصف بأهمية عظيمة ، يغطي التاريخ الإسلامي كله ، مع إشارة خاصة لحلب ؛ ومن الاقتباسات المثبتة ، لا بد وأن هذا العمل استفاد في تفصيلاته من نفس المصدر الذي أفاد منه البستان<sup>(٣١)</sup> .

أما كمال الدين الحلي Kemal ad-Din of Aleppo ، الذي عاش من ١١٩١ م إلى ١٢٦٢ م ، ومؤلف موسوعة تراجيية ربما لم يتمها ، فقد كتب قبل ١٢٤٣ م تاريخ حلب ، وهو تاريخ طويل واضح وسهل الأسلوب ، يعتمد بصورة كبيرة على العظمى وابن القلانسي ومعاصري صلاح الدين ، وكذلك على التقاليد والأخبار المتواترة . ولا يتوخى كمال الدين الدقة في إيراد العلاقة بمصادره ، وهو متحامل على الشيعة<sup>(٣٢)</sup> . وأما سبط بن الجوزي Sibṭ Ibn al-Djauzi ، المولود في بغداد عام ١١٨٦ م ، فكتب أحد أطول التواريخ الإسلامية ، مرآة الزمان ؛ على أنه فيما يتعلق بالقرن الثاني عشر لم يفعل سوى ان يستنسخ معلومات أوردتها كتاب سابقون<sup>(٣٣)</sup> . وفي ١٢٥١ م أكمل أبو شامة Abu Shama ، المولود في دمشق عام ١٢٠٣ م ، تاريخا لمهدي نورالدين وصلاح الدين يسمى "كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين"<sup>(٣٤)</sup> ويتألف بدرجة كبيرة من نسخ

(٣٠) عن الإصدارات ، انظر الجزء الأول ، مرقن المصادر والمراجع .

(٣١) انظر Cahen, op. cit. pp.55-7.

(٣٢) انظر الجزء الأول ، مرقن المصادر والمراجع . وترجم Blochet نصوصه التي تغطي الفترة الأخيرة من القرن الثاني عشر وهي منشورة في Revue de l'Orient Latin .

(٣٣) يرد في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil اقتباسات قليلة . ونشر Jewett (Chicago, 1907) طبعة مصورة أخرى من المخطوطة التي تعتبر مختلفة نوعا ما .

(٣٤) نشر في بولاق عام ١٨٧١ م وعام ١٨٧٥ م . والمراجع التي أستند إليها هي اقتباسات نشرت في

مطابقة من ابن القلانيسي ، وبهاء الدين ، وابن الأثير (الأتابج) ، وابن أبي طي ، والفاضل ، وقبلهم جميعا عماد الدين الذي كان حريصا في شغل على تشذيب أسلوبه مع ذلك.

ومن بين المؤرخين المتأخرين كتب أبو الفدا ، الذي كان أميرا لحماه في بداية القرن الرابع عشر ، تاريخا ليس فيه أكثر من موجز مفيد للمؤرخين الأبعد ، ولكنه حاز على شعبية هائلة ودائما ما يُقتبس (٣٥).

أما ابن خلدون Ibn Khaldun ، الذي كتب في نهاية القرن الرابع عشر ، فقد لخص ابن الأثير فيما يتصل بالشؤون السورية ، لكنه بالنسبة للتاريخ المصري استخدم تاريخ ابن الطوير ، وهو تاريخ مفقود كتب في عصر صلاح الدين (٣٦). ويشتمل تاريخ المقرئ Maqrisi ، الذي كتب في بداية القرن الخامس عشر ، على معلومات حول مصر لا توجد في سواه (٣٧).

أما قاموس الزاجم (وفيات الأعيان) الذي جمعه ابن خلكان Ibn Khallikan في القرن الثالث عشر ، فيضم شذرات قليلة فريدة من المعلومات التاريخية (٣٨).

ولا توجد مصادر تتناول أترك الأناضول مباشرة . وفي واقع الأمر ، يُعتبرنا مؤرخ القرن الثالث عشر ابن بيبى Ibn Bibi أنه لم يستطع الشروع في كتابة تاريخه عن السلاجقة قبل عام ١١٩٢ م ، وهو العام الذي مات فيه قلعج أرسلان الثاني ، نظرا لافتقاره إلى المادة التاريخية (٣٩) كما لا توجد أية مصادر فارسية ذات صلة.

مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٥) نشر في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٦) طبع في بولاق عام ١٨٦٨ م في سبعة مجلدات.

(٣٧) ترجم Blochet اقتباسات منه نشرت في *Revue de l'Orient Latin* .

(٣٨) ترجمه de Slane إلى الفرنسية.

(٣٩) ترد تعليقات ابن بيبى في بداية المجلد الثالث من مؤلف هوتسما Houtsma المعنون "قصص المتعلقة بتاريخ السلاجقة" (وهو ترجمة تركية قديمة لابن بيبى *Textes Relatifs à l'Histoire des Seldjoukides*).

## ٤- المصادر الأرمنية

أهم مصدر أرمني للعقود الأولى من القرن الثاني عشر، كشأن الحملة الصليبية الأولى، هو ماثيو الأورفي Matthew of Edessa، المتوفى عام ١١٣٦م وأكمل عمله، بنفس الروح الوطنية المعادية لبيزنطة، جريجوري القسيس الكيسوني Gregory the Priest, of Kaisun، حتى عام ١١٦٢م<sup>(٤٠)</sup>. أما معاصره، القديس نيرسيس شنورخال الأول Saint Nerses Shnorhal I، بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) من عام ١١٦٦م إلى عام ١١٧٢م، فقد كتب قصيدة طويلة عن سقوط الرها، تفتقر نوعاً ما إلى الاهتمام الشعري والتاريخي<sup>(٤١)</sup>، لا ولا كانت القصيدة الطويلة التي كتبها خليفته، بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) جريجوري الرابع دغا Catholicus Gregory IV Dgha مؤثرة هي الأخرى<sup>(٤٢)</sup>. والأحسن من الناحية الشعرية المراثاة التي كتبها قسيس يدعى بازل العاليم الديني Basil the Doctor، لبلدوين أمير مرعش، وكان واعظه الكنسي<sup>(٤٣)</sup> والأكثر أهمية حوليات صموئيل أوف آني Annals of Samuel of Ani، التي كتبت في أرمينيا الكبرى ووصلت عام ١١٧٧م<sup>(٤٤)</sup> وهي تعتمد جزئياً على متى Matthew وجزئياً على التواريخ المفقودة التي كتبها جون الشماس John the Deacon وآخر يدعى ساركافاج Sarcavag وأما المجموعة التالية من المؤرخين الأرمن، مثل ميخيتار أوف إيرافانك Mekhitar of Airavank، وفارتان Vartan، وكيراكوس Kirakos، فلا يعتمد عليهم كثيراً عندما يتناولون الشؤون الفرنجية، رغم أنهم على جانب من الأهمية للخلفية الإسلامية<sup>(٤٥)</sup>. ويبدأ مؤرخو أرمينيا الصغرى (كيليكيا) بكتاب مجهول ترجم في حوالي عام ١٢٣٠م تاريخ ميخائيل السوري، وعدل فيه كما

(٤٠) نشر في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية (Recueil) وفتى آشور ثما إليها في الخواشي). كما ترجمها Dulaurier في نهاية إصداره لثي الأورفي. Matthew of Edessa.

(٤١) نشرت في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil.

(٤٢) نشرت في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil.

(٤٣) توجد مقتبسات في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil.

(٤٤) نشرت في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil.

(٤٥) توجد اقتباسات في مجموعة مؤرخي الحملات الصليبية Recueil.

يُحلو له بحيث يتفق مع وطنيته المشيوية<sup>(٤٦)</sup>. وفي حوالى عام ١٢٧٥م، كتب الكونستابل سيمبات Sembat، وهو مترجم قوانين Assises انطاكية، تاريخاً يعتمد على متى Matthew و حريجورى Gregory بالنسبة للقرن الثاني عشر، ولكنه يضيف معلومات قليلة مشتقة من محفوظات الدولة<sup>(٤٧)</sup>. وبعد ذلك بستوات قليلة كتب من يسمى "المؤرخ الملكى" Royal Historian تاريخاً لم ينشر بعد مطلقاً<sup>(٤٨)</sup>. وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر كتب المقوض فاهرام الأورفى Vahram of Edessa التاريخ المفقى Rhymed Chronicle، الذى يستند بدرجة كبيرة إلى متى Matthew، غير أنه يضم معلومات غير معروف مصدرها<sup>(٤٩)</sup>.

#### ٥- المصادر السريانية

يعتبر "تاريخ العالم" الذى كتبه ميخائيل السورى Michael the Syrian أهم المصادر السريانية<sup>(٥٠)</sup>. وكان مؤرخاً معنياً حي الضمير، والذى كان تعامله الوحيد مناهضته لبيزنطة. وهو يذكر المصادر السريانية التى استخدمها، وكلها مفقود الآن؛ كما أنه عرف مصدراً عربياً مجهولاً للسنوات من ١١٠٧م إلى ١١١٩م، والذى يبدو أنه كان معروفاً كذلك لإبن الأثير.

ويوجد تاريخ سريانى مجهول، كتبه قس معمر فى الرها حوالى عام ١٢٤٠م، يضم معلومات قيمة حول الرها، بخلاف معلومات مشتقة بوضوح من ميخائيل<sup>(٥١)</sup>. وقرب نهاية القرن الثالث عشر كتب حريجورى أبو الفرج، ويعرف بصورة أفضل باسم ابن العبرى Bar-Hebraeus، تاريخاً للعالم، يعتمد بالنسبة إلى القرن الثاني عشر

(٤٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil*.

(٤٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil*.

(٤٨) المخطوط البدوى موجود فى البندقة فى المكتبة الميخائيلية Mekhitarist Library.

(٤٩) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil*.

(٥٠) نشره Chabot وترجمه إلى الفرنسية.

(٥١) نشر القسم الأول من هذا التاريخ بترجمة انجليزية قام بها Tritton (*Journal of the Royal Asiatic Society*) انظر الجزء الأول، مرفق المصادر والمراجع. ونشر Chabot النص الكامل باللغة السريانية فى *Corpus Scriptorum Orientalium*.

بصورة رئيسية على ميخائيل وابن الأثير ، ولكن بقدر معين من المعلومات المشتقة من مصادر فارسية أو غيرها<sup>(٥٢)</sup>.

#### ٦- مصادر أخرى

تعتبر رحلة بنيامين التيطلي Voyage of Benjamin of Tudela المصدر اليهودي الوحيد الهام لهذه الفترة، وهو يورد رواية معتنية عن المستعمرات اليهودية في سوريا في وقت رحلته حول البحر المتوسط في الفترة من ١١٦٦م إلى ١١٧٠م<sup>(٥٣)</sup>.

أما المصادر الجورجية ، وهي ذات قيمة فقط بالنسبة لتاريخ جورجيا والأراضي المجاورة ، فقد جُمعت مع بعضها البعض في تاريخ واحد "تاريخ جورجيا" Georgian Chronicle ، ونشر في القرن الثامن عشر<sup>(٥٤)</sup>.

ويوجد باللغة السلوفية القديمة Old Slovanic رحلة حجاج دانيال هيجومين Pilgrimage of Daniel the Higuene وقد زار فلسطين عام ١١٠٤م<sup>(٥٥)</sup>.

وتوجد قصص نرويجية معينة ، ولاسيما التي تتناول الحملة الصليبية للملك سيغورد Sigurd ، تشتمل على قطع من المعلومات التاريخية الثيرة للإهتمام في وسط التفصيلات الأسطورية<sup>(٥٦)</sup>.

(٥٢) نشرها Wallis Budge وترجمها إلى الإنجليزية.

(٥٣) نشرها Adler .

(٥٤) نشره Brosset .

(٥٥) ترجمتها إلى الفرنسية Mme de Khitrowa ولم يتمكن من رؤية نص السلوفاني . كما أنها ترجمت من السلوفية المختصر رحلة حج الدبارة إيوفروسين Pilgrimage of the Abbess Euphrosyne .

(٥٦) يرد موجدتها في Riant, Les Expéditions des Scandinaves .

## المرفق الثاني

### معركة حطين

تصف المصادر العربية واللاتينية معركة حطين بشئ من الإسهاب ، غير أن ما يبرر في تلك المصادر يقتصر دائما إلى التنسيق . وقد حاولت في الصفحات ٤٥٥-٦٠ أعلاه أن أذكر رواية متناسقة بقدر الإمكان عن المعركة ، على أنه لا بد من تسجيل الاختلافات . ومن سوء الطالع أن مؤرخين اثنين فقط يبدو أنهما قد حضرا المعركة هما إيرنول ، الذي يفترض أنه ، بصفته تبيعا لباليان (أوف ايبيلين) ، قد صاحب سيده وهرب معه ، وعماد الدين الأصفهاني الذي كان في حاشية صلاح الدين ، هذا بخلاف تيرينس أو تيريكوس (Terence or Terricus) ، وهو من فرسان المعبد كتب رسالة مقتضبة حول المعركة ، وبعض المسلمين الذين اقتبس أبو شامة رسائلهم . بيد أن الرواية الأصلية التي كتبها إيرنول تلاعب فيها برنارد الخازن Bernard the Treasurer وغيره من المؤرخين التابعين على وليم الصوري ، وأما رواية عماد الدين ، وبرغم أنها تنبض بالحياة أحيانا فإنها خليقة بأن توصف بالبلاغة أكثر من كونها تنصف بالدقة . وأما ما نقله الأفضل ، ابن صلاح الدين ، إلى ابن الأثير عن أزمة المعركة ففيه نبض الحياة ولكنه شديد الاختضاب.

ويعتبر تاريخ هرقل Estoire d'Eracles المصدر الوحيد الذي أوضح أن جوى عقد مجلسين منفصلين قبل المعركة ، أحدهما في عكا وربما يوم أول يولية ، والثاني في صفورية مساء اليوم الثاني من يولية. وتحدث ريموند أمير طرابلس في المناسبتين ، ولا شك أن الحدين المذكورين في تاريخ هرقل يعكسان جوهر كلماته التي قلنا فعلا . غير أنه لا بد وأن أخطأ تاريخ هرقل في قوله مجلس عكا عقد بعد أن أرسلت كونتيسة طرابلس لتعلن استيلاء صلاح الدين على مدينة طبرية ، إذ أن صلاح الدين دخل طبرية

صباح الثاني من يولية ؛ ولا يذكر ريموند طبرية في حديثه في عكا ، وإنما نصح فقط باتباع استراتيجية دفاعية . أما إيرنول ، وكما نشر تاريخه برنارد الخازن ، يتجاهل المجلس الأول . وربما اعتبر برنارد أن ريموند تحدث مرتين في نفس المناسبة . كما أن تاريخ De Expugnacione لا يذكر سوى المجلس الثاني . وعطية ريموند الثانية معروفة لدى ابن الأثير الذي يكاد يسجلها بنفس الكلمات الواردة في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول وتاريخ De Expugnacione ولذا تكون نصيحة ريموند يقينية رغم أن عماد الدين يعتقد أنه كان يثب على الهجوم ، أما المؤرخون المتأخرون ، من بين حاشية ريتشارد قلب الأسد ، المنحازون إلى جانب جوى (أوف لوسينان) فقد اتهموا ريموند بالخيانة . وبخض Ambroise و Itinerarium Reicardi كلاهما أن ريموند استدرج الجيش لوجود اتفاق بينه وبين صلاح الدين ، وترد نفس التهمة في رسالة من أهل جنوا إلى البابا ، وفيما بعد أوردها ابن العبري السيرياني .

ويقول عماد الدين إن كوتيسة طرابلس أبطت أولادها معها في طبرية . ولكن إيرنول يقول إن ريموند هرب من المعركة ومعه أبناء زوجته الأربعة ، وثابت في رسالة (المواطن الجنوبي) تلغفهم على انقاذ أمهم في المجلس قبل المعركة .

وقرر الملك جوى التحرك من صفورية بناء على طلب جيرارد سيد فرسان المعبد . وذلك مذكور بوضوح في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول ، لكن مؤلف De Expugnacione ، الذي لم يكن يرغب أبدا لسبب أو لآخر توجيه اللوم إلى فرسان المعبد ، ألقى على ذلك الطلب من جيرارد التهميه والغموض ، ذلك إذا حكمنا مما يبدو عليه أحيانا من تحفظات . ولأن ريموند هو سيد المنطقة ، فقد ظلت نصيحته فيما يتصل بالطريق الذي يتبع ، فاختار الطريق الذي يخترق حطين . وكانت نصيحته تلك ، التي سببت الكارثة ، هي الذريعة التي اتخذها أعداؤه لاتهامه بالخيانة . وتغيرنا رسالة الجنوبي والرسالة المتداولة بين فرسان المستشفى عن المعركة ، بوجود ستة من الخونة ، من الواضح أنهم من فرسان ريموند - يدعى أحدهم لاوديسيوس أو ليوسيوس الطبري Laodiceus or Leucius of Tiberias وهم الذين أحسروا صلاح الدين بحالة الجيش المسيحي . ومن المحتمل ، في اعتقادي ، أن حياتهم حدثت في هذا المنعطف ، وأنها تكمن في إخطار صلاح الدين بالطريق الذي اختاره المسيحيون . ومن الصعب أن نفهم ماهي المعلومات المفيدة التي يعطونها له بعد ذلك . ويلقى كل من تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول باللائمة على ريموند لاختياره مكان المعسكر أمام حطين ؛ إذ كان يظن بوجود مياه هناك ، لكن نبع الماء كان جافا . وبروي صاحب تاريخ De Expugnacione قصة



أكثر اكتمالا؛ فيقول إن رموند ، الذي كان في المقدمة ، أوصى بسرعة المسير إلى البحيرة ، لكن فرسان المعبد في المؤخرة لم يقدروا على المضى أكثر من ذلك . وقد ارتاع رموند من قرار الملك بضرب المعسكر وصرخ " لقد ضعنا! " على أنه طالما اتخذ القرار ، فيفترض أنه اختار موضع المعسكر ترتيبا على الاعتقاد الخاطئ بوجود مياه فيه . ويذكر عماد الدين ما أبداه صلاح الدين من اغتباط بتحركات الجيش المسيحي.

والموقع الفعلي للمعسكر ليس يقينيا . إذ أن تاريخ De Expugnacione ، وتاريخ حملة ريتشارد Itinerarium ، وتاريخ Ambroise ، يطلقون عليه قرية ماريسكالكا أو ماريسكاليا - Marescalcia or Marescallia وربما يكون الاسم هو خان المسكنة المعروف الآن ؟ - بينما يطلق عليه عماد الدين قرية لوبية ، الواقعة على الطريق الحالي على مسافة ميلين جنوب غرب قرني حطين . ويطلق المؤرخون العرب على المعركة معركة حطين (أو حطين) ويوضحون بجلاء أن المشاهد النهائية قد تمت فوق قرني حطين . وتطلق حوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte على المعركة قرنين Karneatin أو - Qarnei Hattin (قرني حطين)<sup>(١)</sup> . ويقول إيرنول إن المعركة حوربت على مسافة فرسخين من طيرة . والقرون في الواقع على مسافة خمسة أميال من طيرة في خط مستقيم ، وحوالي تسعة أميال على الطريق.

ويقول عماد الدين إن وفاة العرب بدأوا يطلقون سهامهم على المسيحيين أثناء سيرهم ، ويعقد القصة بقوله أن ذلك كان يوم الخميس لأنه أراد أن تنشب المعركة في يوم الجمعة . ويشير إيرنول وتاريخ هرقل إلى خسائر فادحة تكبدتها المسيحيون أثناء سيرهم . وليس أكيدا الوقت الذي أشعلت فيه النيران . ويقول ابن الأثير ضمنا إن النيران بدأت مصادفة على يد متطوع من المسلمين ، ويوضح بجلاء هو وعماد الدين أن النيران كانت متأججة عندما بدأت المعركة صباح يوم 4 يوليو . ويرسم عماد الدين صورة حية للصلوات والتلاوات في معسكر العرب خلال الليل.

واستنادا إلى ابن الأثير ، حاولت قوات مشاة الفرنج صبيحة يوم المعركة الانتفاع نحو المياه . ويقول عماد الدين إنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو المياه بسبب النيران . ويقول تاريخ De Expugnacione إن أفراد قوات المشاة هربوا في الحال وهم في جمع واحد أعلى التل بعيدا عن الفرسان ورفضوا تنفيذ أوامر الملك بالعودة قائلين إنهم يموتون عطشا ، وقد قتلوا عن آخرهم هناك . ومن الناحية الأخرى يقول إيرنول إنهم

(١) Qarnei هي مَنَى Qarn أو Horn - قرن.

استسلموا ، رغم ذهاب خمسة من فرسان ريموند إلى صلاح الدين يتوسلون اليه أن يجهز عليهم جميعا . وربما اعتبر تصرفهم هذا خيانة أشار إليها فرسان المستشفى (انظر اعلاه) رغم أن إيرنول ، كما قال حرقيا ، يقول إنها ربما كانت ايضا استعطافا لموت سريع من اجل الرحمة . أما بهاء الدين فلا يذكر سوى أن جيش المسيحيين انفصل إلى جزأين ، أحدهما - ويفترض المشاة - أحاطت به الثيران فماتوا جميعا ، بينما وقع في الأسر الجزء الآخر أي المؤلف من الفرسان المحيطين بالملك . وتقول كافة المصادر الإسلامية إنه قبل بدء الهجوم على فرسان الفرنج كان هناك نزاع بين مملوك وفارس مسيحي قتل فيه الأول الذي ظنه المسيحيون خطأ أنه ابن السلطان.

واستنادا إلى إيرنول ، فإن الملك عندما شاهد قتل المشاة طلب من ريموند شن هجوم على العرب . وريموند هو الشخص المناسب لشن هذا الهجوم باعتباره سيد المنطقة ، وهو هجوم الفرصة الوحيدة لكي يتخلص الجيش نفسه . ولذلك لا يبدو أن هناك أساسا لاتهام ريموند بالخيانة من قبل الكتاب المسيحيين ، والجنوي ، وأصدقاء الملك ، ولا لاتهامه بالجن من قبل المسلمين . على أن المناورة الذكية التي نفذها تقي الدين بفتح صفوفه لكي يمر ريموند ، يبدو انها تؤيد الاتهامات الأولى رغم أن عماد الدين يقول إن رجال ريموند تكبدوا خسائر فادحة . ويقول إيرنول إن ريموند لم يهرب من ميدان القتال إلا عندما رأى أن وضع الملك ميؤوسا منه وليست هناك أية فرصة لإنقاذه . ويقول تاريخ De Expugnacione إن باليان ووينالد أمير صيدا قد هربا مع ريموند دون ذكر تفاصيل كما فعل عماد الدين . غير أن إيرنول يقول ضمنا إنهما هربا كل على حده ، وهو الأمر الأكثر احتمالا لأنهما كانا في مكانين مختلفين في الجيش . ولابد أنهما قد شقا طريقهما مع القليل من فرسان المعبد الذين يذكر تيرينس Terence هرويم . وأما الرواية المفصلة عن المعركة الواردة في تاريخ De Expugnacione فتتوقف عند فرار ريموند . وربما كان المؤرخ قد حصل على معلوماته من أحد رجال ريموند.

ويقول عماد الدين إنه بعد فرار ريموند بدأ الملك وفرسانه الانسحاب صعودا أعلى تل حطين تاركين حيادهم (التي يفترض انها كانت حريمة ولا فائدة منها على التل) . كما يلاحظ عماد الدين كم كان الفرسان المسيحيون يفتقرون إلى القوة في غيبة حيادهم . ويقول ابن الأثير إنهم حاولوا نصب خيامهم على القمة ولكن الوقت لم يساعدهم إلا في نصب خيمة الملك . وكان الفرسان متزجلين ومنهكين عندما أسروا . ويقول كلاهما إن تقي الدين استولى على الصليب . وتروى رواية الأفضل للحفظ الأخيرة للحيش المسيحي ؛ بينما يفصل ابن القادسي أن ربما شديدة هبت في منتصف

النهار عندما شن المسلمون هجومهم الأخير.

وتكاد الأحداث التي حدثت في خيمة صلاح الدين بعد المعركة أن ترد بنفس الأسلوب لدى إيرنول وتاريخ هرقل وعماد الدين وابن الأثير . وليست هناك ضرورة للارتياح في قصة الشراب الذي أعطى للملك جوى ، ولا في مقتل رينالد (أوف شاتيلون) على يد صلاح الدين نفسه.

ويرد في تاريخ Historia Regni Hierosolymitani أن قوام الجيش المسيحي كان ألف فارس من فرسان المملكة و ألف ومائتي فارس آخرين دفع نفقاتهم للملك هنري الثاني ، و ٤ آلاف من أنصاف الأتراك ، و ٣٢ ألف من المشاة ، منهم ٧ آلاف دفع هنري نفقاتهم . ومن الواضح أن هذا العدد مبالغ فيه . ويتحدث تاريخ حملة ريتشارد Itinerarium عن عدد إجمالي قدر ٢٠ ألف جندي ، وهو عدد لا يزال يحتمل أن يكون مرتفعا بصورة فائقة . وربما كان العدد الحقيقي للفرسان هو ألف فارس ، إلى جانب ٢٠٠ آخرين جهّزهم هنري ، فيكون المجموع ١٢٠٠ فارس . وفي إحدى مخطوطات تاريخ هرقل يرد عدد الجيش كله على أنه ٩ آلاف جندي ، وفي مخطوطة أخرى ٤٠ ألف جندي . وتتحدث رسالة فرسان المستشفى عن سقوط ألف فارس في المعركة بين قتييل وحريص ، وفرار ٢٠٠ فارس . ويقول إيرنول إن ريموند أمير أنطاكية أحضر ٥٠ أو ٦٠ فارسا (تختلف قراءات المخطوطات). ويقول Terence إن ٢٦٠ فارسا من فرسان المستشفى قتلوا في المعركة ويكاد أن لم يهرب أحد - وهو يقول "nos" أنني قد تعني نفسه فقط . ويرد في رسالة فرسان المستشفى أن الذين بقوا على قيد الحياة ٢٠٠ فقط . وليس من الممكن أن يزيد عدد المشاة على عدد الفرسان بنسبة تصل إلى عشرة إلى واحد ، وربما كان عددهم يقل كثيرا عن ١٠ آلاف جندي . وربما كان عدد خيالة أنصاف الأتراك الحقيقية ٤ آلاف خيال ، على أنه لا يبدو أنهم لعبوا دورا حاسما في المعركة وربما كانوا أقل من ذلك . وقد يكون جيش صلاح الدين أكبر بصورة طفيفة ، ولكن ليست هناك أرقام يعتد بها . أما ما أورده عماد الدين من أن العدد كان ١٢ ألف خيال وأعداد غفيرة من المتطوعين ، فهو يقينا مبالغ فيه ، رغم أنه ليس بنفس المبالغة التي أورد بها عدد الجيش المسيحي وهو ٩ آلاف جندي . (ومع ذلك يحضى بهاء الدين أبعد من ذلك قائلا إن ٣٠ ألف قتلوا و ٣٠ ألف أسروا). وقد يجوز لنا أن نفترض أن مجموع جيش صلاح الدين النظمي بلغ حوالي ١٢ ألف جندي، وتضخم بالمتطوعين والفصائل الآتية من الحلفاء ليصل إلى ١٨ ألف تقريبا . ويبدو أن الجيشين كانا من أضخم الجيوش التي التقى بها في ساحة القتال حتى آنذاك سواء من

جانب المسيحيين أو من جانب أعدائهم ؛ على أنه ينبغي اعتبار أن ١٥ ألف جندي في الجانب المسيحي و ١٨ ألف جندي في الجانب الإسلامي ، على أنها الأعداد القصوى. وكان فرسان المسيحيين أفضل تسليحا من الجنود المسلمين أبنا كانوا ، غير أن الخيالة الخفيفة الإسلامية ربما كانت أفضل تسليحا من أنصاف الأتراك والمشاة أيضا ، أو أفضل من المسيحيين.

#### ملاحظات

أهم مصادر المعركة هي كما يلي:

##### الفرنجية

Ernoul, pp. 155-74; Estoire d'Eracles, ii, pp. 46-49; De Expugnacione, pp. 218-28; Itinerarium Regis Ricardi, pp. 12-17; Benedict of Peterborough, ii, pp. 10-14, ويوجد بنديكت رسالة أبناء جنوا إلى البابا ورسالة Terence المعبدي ؛ Ambroise, ed. Paris, cols. 67-70; Ansbert, Gesta Frederici, containing letter of the Hospitallers to Archimbold; Historia Regni Hierosolymitani, pp.52-3; Annales de la Terre Sainte, p. 218.

##### العربية

وإبرد في تاريخ ميخائيل السوري (iii, p.404) وصف مقتضب للمعركة ، كما يرد وصف أطول وغير دقيق في ترجمة ابن العبري Bar-Hebraeus Budge, pp. 322-4 ، يخلط فيه الملكة إيزابيلا بالكوتيسة إيشيفا كوتيسة طرابلس . ويبرد وصف غير دقيق في النسخة الأرمنية لميخائيل السوري (pp.396-8) و (pp. 420-1) Kirakos of Gantzag والروايات السريانية والأرمنية كلها تصف ريموند على أنه خائن. وتوجد مناقشة قيمة للمصادر ودور ريموند في Baldwin, Raymond III of Tripolis, pp.151-60.



---

## المرفق الثالث

### شجرات الأنساب

\_\_\_\_\_

## BIBLIOGRAPHY

[NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliography in vol. I of this *History*, and does not include works already mentioned there. The same abbreviations are employed.]

## I. ORIGINAL SOURCES

## 1. COLLECTIONS OF SOURCES

- BORGIO, F. DAL. *Diplomata Pisana*. Pisa, 1765.  
 DEMETRAKOPOULOS, A. K. *Bibliotheca Ecclesiastica*. Leipzig, 1866.  
*Formanna Sögur*, 12 vols. Copenhagen, 1825-37.  
 HALPHEN, L. and POUPARDIN, R. *Chroniques des Comtes d'Anjou*. Paris, 1913.  
*Liber Jurium Reipublicae Genuensis* (ed. Ricotti), 3 vols., in *Monumenta Historiae Patriae*. Turin, 1854-7.  
 MARCHEGAY, P. and MABILLE, E. *Chronique des Eglises d'Anjou*. Paris, 1869.  
 MURATORI, L. A. *Antiquitates Italicae*, 6 vols. Milan, 1738-42.  
*Recueil des Historiens des Croisades, Lois*, 2 vols. Paris 1841-3, including the *Assises and Lignages of Jerusalem (R.H.C. Lois)*.  
 REINAUD, M. *Extraits des Historiens Arabes*, in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, vol. II. Paris, 1829.  
 TAFEL, G. L. F. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur ältern Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856-7.

## 2. LATIN AND OLD FRENCH SOURCES

- Ambroise. *L'Estoire de la Guerre Sainte* (ed. Paris). Paris, 1897.  
*Annales Barenses*, in *M.G.H.St.* vol. V.  
*Annales Beneventani*, in *M.G.H.St.* vol. III.  
*Annales Herbipolenses*, in *M.G.H.St.* vol. XVI.  
*Annales Palidenses*, in *M.G.H.St.* vol. XVI.  
*Annales Romani*, in *M.G.H.St.* vol. V.  
*Annales S. Rudberti Salisburgensis*, in *M.G.H.St.* vol. IX.  
*Annales de Terre Sainte* (ed. Röhrich), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.  
 Ansbert. *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in *M.G.H.St.*, in usum scholarum, 1892.  
 Arnold of Lübeck. *Chronica Slavorum*, *M.G.H.St.*, in usum scholarum, 1868.  
 Benedict of Peterborough. *Gesta Regis Henrici II* (ed. Stubbs), 2 vols., Rolls Series. London, 1867.  
 Bernard, St. Abbot of Clairvaux. *Epistolae*, *M.P.L.*, vol. CLXXXII.  
 Burchard of Mount Sion. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII. London, 1896.



- Caesarius of Heisterbach. *Dialogus Miraculorum* (ed. Strange), 2 vols. Cologne, 1851.
- Cartulaire de Notre Dame de Chartres* (ed. L'Epinois and Merlet), 3 vols. Chartres, 1852-5.
- Cartulaire de Sainte Marie Josaphat* (ed. Kohler). *Revue de l'Orient Latin*, vol. VII. Geneva, 1899.
- Cartulaire du Saint Sépulcre* (ed. Rozière). Paris, 1849.
- Cartulaire Général de l'Ordre des Hospitaliers* (ed. Delaville Le Roulx), 4 vols. Paris, 1894-1904.
- Cartulaire Général de l'Ordre du Temple* (ed. D'Albon). Paris, 1913.
- Chronicon Mauriniacense*, in *R.H.F.* vol. XII.
- Chronicon Sancti Maxentii*, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
- Chronicon Vindocinense*, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
- Dandolo. *Chronicon Venetum*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XII.
- De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus* (ed. Stubbs), *Rolls Series*. London, 1875.
- Ernoul. *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier* (ed. Mas Latrie). Paris, 1871.
- Estoire d'Eracles*, *R.H.C.Occ.* vols. I and II.
- Eudes, see Odo.
- Gesta Ambaziensium Dominorum*, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
- Gesta Consulum Andegavorum*, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
- Gestes des Chiprois*, *R.H.C.Arm.* vol. II.
- Historia Ducum Veneticorum*, in *M.G.H.Ss.* vol. XIV.
- Historia Regni Hierosolymitani*, in *M.G.H.Ss.* vol. XVIII.
- Historia Regum Hierusalem Latinorum*, ed. in Kohler, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1906.
- Historia Welforum Weingartensis*, in *M.G.H.Ss.* vol. XXI.
- Ibelin. *Le Livre de Jean d'Ibelin*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
- Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi* (ed. Stubbs), *Rolls Series*. London, 1864.
- John of Salisbury. *Historiae Pontificalis quae Supersunt* (ed. Lane Poole). Oxford, 1927.
- John of Wurzburg. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. V. London, 1896.
- Landolph Junior. *Historia Mediolanensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.
- Letters of King Amalric, Masters of the Temple, officials of the Temple and other officials of Outremer, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.
- Lignages d'Outremer*, in *R.H.C. Lois*, vol. II.
- Louis VII, King of France, letters, in *R.H.F.* vols. XV and XVI.
- Miracula Sancti Leonardi*, *Aa. Ss.* (Nov.), vol. III.

- Necrologia Panormitana* (ed. Winkelmann), in *Forschungen zur deutschen Geschichte*, vol. xviii. Göttingen, 1878.
- Odo (Eudes) of Deuil. *Profectione Ludovici VII in Orientem* (ed. Waquet). Paris, 1949.
- Osborn. *De Expugnatione Lyxbonensi*, in Stubbs, *Memorials of the Reign of Richard I*, Rolls Series. London, 1864.
- Otto, Bishop of Freisingen. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.St.*, in usum scholarum, 1912.
- Otto, Bishop of Freisingen. *Gesta Friderici Imperatoris* (ed. Simson), *M.G.H.St.*, in usum scholarum, 1912.
- Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.St.*, in usum scholarum, 1912.
- Paschal II, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. clxiii.
- Passiones Sancti Thiemonis*, in *R.H.C.Occ.* vol. v.
- Peter Diaconus. *Chronica* (ed. Wattenbach), *M.G.H.St.* vol. vii.
- Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem* (trans. Bishop of Clifton), *P.P.T.S.* vol. iv. London, 1896.
- Radulph of Diceto. *Opera Historica* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1876.
- Ralph of Coggeshall. *Chronicon Anglicanum* (ed. Stevenson), Rolls Series. London, 1875.
- Robert of Torigny. *Chronique* (ed. Delisle), 2 vols. Rouen, 1872-3.
- Roger of Hoveden. *Chronica* (ed. Stubbs), 4 vols., Rolls Series. London, 1868-71.
- Romuald of Salerno. *Chronicon* (ed. Arndt). *M.G.H.St.* vol. xix.
- Suger, Abbot of Saint-Denis. *Gesta Ludovici cognomine Grossi and Historia gloriosi regis Ludovici VII* (ed. Molinier). Paris, 1887.
- Suger, Abbot of Saint-Denis. *Opera* (ed. de la Marche). Paris, 1867.
- Vita Alexandri III*, in *Liber Pontificalis*, vol. ii.
- Vita Sancti Bernardi*, in *M.P.L.* vol. clxxxv.
- Walter the Chancellor. *Bella Antiochena* in *R.H.C.Occ.* vol. v.
- Wibald, *Wibaldi Epistolae*, in Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. 1.
- William the Monk. *Dialogus Apologeticus* (ed. Wilmart), in *Revue Mabillon*. Paris, 1942.
- William the Monk. *Vita Sugerii*, in Suger, *Opera* (see above).
- William of Nangis. *Gesta Ludovici VII*, in *R.H.F.* vol. xx.
- William of Tyre. *Die lateinische Fortsetzung (Latin Continuation)* (ed. Salloch). Leipzig, 1914.

### 3. GREEK SOURCES

- Chrysolan, Peter, Archbishop of Milan. *De Sancto Spiritu* in *M.P.G.* vol. cxxvii.
- Cinnamus, John. *Epitome Historiarum*, C.S.H.B. Bonn, 1836.
- Eustratius, Archbishop of Nicaea. *On the Holy Ghost*, in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. 1.

- Nicetas Choniates (Acominatus). *Historia*, C.S.H.B. Bonn, 1835.  
 Neophytus. *De Calamitatibus Cypri* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.  
 (In preface to *Itinerarium Regis Ricardi*.)  
 Phocas, John. *A Brief Description* (trans. Stewart), P.P.T.S. vol. v. London, 1896.  
 Prodromus, Theodore. *Poemata*, selections in M.P.G. vol. cxxxiii and R.H.C.G. vol. ii.

#### 4. ARABIC SOURCES<sup>1</sup>

- Abu Firas. *Noble Word*, ed. in Guyard, 'Un Grand Maître des Assassins' in *Journal Asiatique*, 7me série, vol. ix, Paris, 1877.  
 Abu'l Mahasin. Extracts in R.H.C.Or. vol. iii.  
 Abu Shama. *Book of the Two Gardens*. Extracts in R.H.C.Or. vols. iv and v; full edition. Cairo, 1870-1. (Except when otherwise stated references are to the R.H.C. edition.)  
 Al-Azimi. *Abrégé* (ed. Cahen), in *Journal Asiatique*, vol. cccxxxiii. Paris, 1940.  
 Beha ed-Din ibn Shedad. *Life of Saladin* (trans. Conder), in P.P.T.S. vol. xii. London, 1897.  
 Bustan al-Djami li Djami Tawarikh z-Zaman (ed. Cahen), in *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas*, vols. vii and viii. Damascus, 1938.  
 Ibn Jubayr. *Voyage* (Arabic text ed. Wright). Leyden, 1852.  
 Ibn Moyassar. Extracts in R.H.C.Or. vol. iii.  
 Ibn at-Tiqtaqa. *Al-Fakhri* (*History of Muslim Dynasties*); trad. Amar. Paris, 1910.  
 Imad ed-Din. *Al Fath al Qussî fi'l Fath al Qudsî* (ed. de Landsberg). Leyden, 1888. Extracts quoted by Abu Shama, *op. cit.*  
 Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (later portions trans. Blochet) in *Revue de l'Orient Latin*, vols. iii and vi. Paris, 1895-8.  
 Maqrîsî. *History of Egypt* (trans. Blochet). *Revue de l'Orient Latin*, vols. viii-x. Paris, 1900-2.  
 Sibî ibn al-Djauzi. Extracts in R.H.C.Or. vol. iii.  
 Usama ibn Munqidh. *Autobiography* (ed. Hitti). *An Arab-Syrian Gentleman of the Crusades*. New York, 1929.  
 Zettersteijn Chronicle. Anonymous chronicle (ed. K.V. Zettersteijn). Leyden, 1919.

#### 5. ARMENIAN, SYRIAC, GEORGIAN AND HEBREW SOURCES

- Basil the Doctor. *Funeral Elegy of Baldwin of Marash*, R.H.C.Arm. vol. i.  
 Gregory the Priest. *Continuation of Matthew of Edessa's Chronicle*, R.H.C.Arm. vol. i.  
 Gregory IV Dgha, Catholicus. *Elegy on the Fall of Jerusalem*, R.H.C.Arm. vol. i.  
 Nerses Shnorhali, Catholicus. *Elegy on the Fall of Edessa*, R.H.C.Arm. vol. i.  
<sup>1</sup> References to Ibn al-Athîr are to his *Sum of World History* (*Kamil at-Tawarikh*), except when otherwise stated.

*Anonymous Syriac Chronicle* (full text, J. Chabot). C.S.C.O. vol. III. (Quoted as *Chron. Anon. Syr.*) References are to Tritton's translation—see above, vol. I, Bibliography, p. 349—except where otherwise stated.  
*Georgian Chronicle*, in Brosset, *Histoire de la Géorgie*.  
 Benjamin of Tudela. *Voyages* (ed. Adler). London, 1907.  
 Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicle* (trans. Biellablitzky), 2 vols. London, 1835.

#### 6. SLAVONIC AND NORSE SOURCES

Daniel the Higuemene. *Vie et Pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe* (trans. de Khitrowo). *Itinér. Russes en Orient, Société de l'Orient Latin*. Geneva, 1889.  
 'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne, Princesse de Polotsk' (trans. de Khitrowo), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1896.  
 Agrip of Noregs *Konungasögum* (ed. Munch), in *Samlinger til det Norske Folkes Sprog og Historie*, vol. II. Oslo, 1834.  
*Sigurðar Saga Jorsalafara ok bræðra hans* in *Forrnanna Sögur*, vol. VII.

#### II. MODERN WORKS

ABEL, F. M. *Géographie de la Palestine*, 2 vols. Paris, 1933-8.  
 ALLEN, W. E. D. *History of the Georgian People*. London, 1932.  
 ALMEIDA, F. DE. *Historia de Portugal*, 4 vols. Coimbra, 1922-6.  
 ANSELME DE LA VIERGE MARIE (P. DE GUBOURS). *Histoire Généalogique et Chronologique de la France*, 9 vols. Paris, 1726-33.  
 BALDWIN, M. W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem*. Princeton, 1936.  
 BEL, A. Article 'Almohads', in *Encyclopaedia of Islam*.  
 BERNHARDI, W. VON. *Konrad III*. Leipzig, 1883.  
 BROSSET, M. F. *Histoire de la Géorgie*. St Petersburg, 1849.  
 BROWNE, E. G. *Literary History of Persia*, 4 vols. London, 1905-30.  
 CAHEN, C. 'Indigènes et Croisés', in *Syria*, vol. XV. Paris, 1934.  
 CAHEN, C. 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 1931.  
 CASPAR, E. 'Die Kreuzzugsbulle Eugens III', in *Neues Archiv der Gesellschaft*, vol. XLV. Hanover, 1924.  
 CATR, J. L. 'A Gay Crusader', in *Byzantion*, vol. XVI, 2. New York, 1943.  
 CODERA, F. *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España*. Saragossa, 1899.  
 COSACK, H. 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug', in *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV. Vienna, 1914.  
 CUISSARD, C. *Les Seigneurs du Palais*. Orleans, 1881.

- CURZON, H. DE. *La Règle du Temple*. Paris, 1886.
- D'ALBON, G. A. M. J. A. 'La Mort d'Odon de Saint-Amand', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII. Paris, 1904.
- DELAVILLE LE ROULX, G. *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre*. Paris, 1904.
- DELSER, L. *Mémoire sur les Opérations Financières des Templiers*. Paris, 1889.
- DUB, P. Article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*.
- DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
- DOSITHEUS, Patriarch of Jerusalem. 'Ἱστορία περὶ τῶν ἐν Ἱερουσόλειμῳ Πατριάρχων'. Bucharest, 1715.
- ERDMANN, K. 'Der Kreuzzugsgedanke in Portugal', in *Historische Zeitschrift*, vol. CXII. Munich, 1930.
- GERULLI, E. *Etiopi in Palestina*. Rome, 1943.
- GIEBER, H. *Papst Eugen III.* Jena, 1936.
- GRANDCLAUDE, M. 'Liste d'Assises remontant au premier Royaume de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*. Paris, 1929.
- HAGENMEYER, H. *Chronologie du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1901.
- HAMMER, J. VON. *Histoire de l'Ordre des Assassins* (French trans.). Paris, 1833.
- HERTZOG, E. *Die Frauen auf den Fürstenthronen der Kreuzfahrerstaaten*. Zürich, 1915.
- JOHNS, C. N. 'The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria', *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI. London, 1934.
- JORANSON, E. 'The Crusade of Henry the Lion', in *Medieval Essays presented to G. W. Thompson*. Chicago, 1938.
- KOHLER, C. 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- KÜGLER, B. *Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges*. Stuttgart, 1866.
- LA MONTE, J. L. 'The Lords of Caesarea in the period of the Crusades', in *Speculum*, vol. XXII. Cambridge, Mass., 1947.
- LA MONTE, J. L. 'The Lord of Le Puiset on the Crusades', in *Speculum*, vol. XVII. Cambridge, Mass., 1942.
- LA MONTE, J. L. 'The Lords of Sidon', in *Byzantion*, vol. XVII. New York, 1944.
- LA MONTE, J. L. 'To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?' *Byzantion*, vol. VII. Brussels, 1932.
- LANE POOLE, S. *Saladin*. London, 1898.
- LE QUEN, M. *Oriens Christianus*, 3 vols. Paris, 1740.
- LUCHAIER, A. *Louis VI le Gros*. Paris, 1890.
- MARINESCU, C. 'Le Prêtre Jean', in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. X. Bucharest, 1923.

- MARTIN, Abbé. 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem', in *Journal Asiatique* (8me série), vols. XII and XIII. Paris, 1888-9.
- MELVILLE, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
- MUSIL, A. Article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.
- NAU, F. 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique* (9me série), vol. XIV. Paris, 1899.
- NEUMANN, C. *Bernhard von Clairvaux und die Anfänge des zweiten Kreuzzuges*. Heidelberg, 1882.
- RAMSAY, W. M. 'Preliminary report on exploration in Phrygia and Lycæonia' and 'War of Moslem and Christian for the possession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*. Aberdeen, 1906.
- REY, E. G. 'Les Seigneurs de Gible', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1895.
- REY, E. G. 'Les Seigneurs de Barut' and 'Les Seigneurs de Montréal et la Terre d'Oultrejourdain', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- REY, E. G. 'Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- RICHARD, J. *Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine*. Paris, 1945.
- SCHLUMBERGER, G. *Campagnes du roi Amaury de Jérusalem en Egypte*. Paris, 1906.
- SCHLUMBERGER, G. *La Numismatique de l'Orient Latin*. Paris, 1878.
- SCHLUMBERGER, G. *Les Principautés Franques du Levant*. Paris, 1877.
- SCHLUMBERGER, G. *Renaud de Châtillon*. Paris, 1923.
- SCHWAB, M. 'Al-Harizi et ses pérégrinations en Terre Sainte', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.
- VACANDARD, E. *Vie de Saint Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols. Paris, 1895.
- VALENT, S. 'Les Laures de Saint Gerasime et de Calamon', in *Echos d'Orient*, vol. II. Paris, 1899.
- VOGUE, C. J. M. DE. *Les Eglises de la Terre Sainte*. Paris, 1860.
- WALKER, C. H. 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain', in *American Historical Review*, vol. LV. New York, 1950.

---

تم بحمد الله تعالى